المركيز سلسبري

كبير وزراء انكلترا

ولد سنة ١٨٣٠ وتوفي سنة ١٩٠٣

يتصل نسب هذا السياسي العظيم ببيت إنكليزي عريق في المجد والشرف يقال له بيت سسل توالى منهم في خدمة الدولة الانكليزية بضعة عشر رجلاً اشتهروا بحبهم لامتهم واستهلاكهم في خدمة دولتهم اولهم ومؤسس عائلتهم اللورد بورلي سسل من اهل القرن السادس عشر للميلاد

❊ اللورد بورلي سسل ❊ ولد اللورد المذكور سنة ١٥٢٠ وكان ابوه ريتشارد سسل من خدمة البلاط في ايام هنري الرابع . فتلقى بورلي العلم في مدرسة كمبردج وصاهر بعض العائلات الشريفة وكان فيه استعداد للترقي فارتقى في مصالح الحكومة حتى اصبح سنة ١٥٤٨ ناظراً للخارجية وكانت انكلترا يومئذ في اضطراب يطول شرحه فاستفاد من تلك الفرصة واحسن علاقته مع اليزابث قبل ولايتها الملك فلما تولت عرش انكلترا جعلته عمدتها وولته اعظم المناصب والقت اليه مقاليد الاعمال فاصبح الآمر الناهي وان كان بعضهم يظن ذلك النفوذ ظاهرياً لان اليزابث لم تكن تسلم قيادها الى احد . وفي كل حال فانه كان شديد التمسك برأيه جريئاً في ابدائه ثابتاً في تنفيذه لايبالي اغضب الملكة او ارضاها . ومع ذلك فانها لم تقصر في ترقيته فلما دخلت سنة ١٥٧٢ جعلته صاحب خزينتها وكانت قد منحته من علامات الشرف ربطة الساق وسمته بارونا . وكانت نظارة الخزينة يومئذ مطمح انظار اصحاب المطامع يبذلون الاموال في سبيل الحصول عليها لان صاحبها اذا تساهل في اسباب الربح اكتسب اموالاً طائلة وكثيراً ما عرضت عليه الاموال على سبيل الرشوة ولو قبلها لجمع منها مئات الالوف من الجنيهات ولكنه كان يستنكف من تلويث ذمته وشرفه بها . ومن اقواله وقد كلفه بعضهم خدمة وعرض عليه مالاً « اني انما اخدم الهي ومملكتي وامتي » وكان تقياً بلا تعصب وصارماً بلا ظلم وجريئاً بلا خيانة

. ومن اعماله المأثورة انه اضطهد اليسوعيين وقاومهم لانهم ارادوا ان يجعلوا قداسة البابا فوق كل شريعة . وكان مع حراجة منصبه وكثرة اعدائه ومناظريه لا يستخدم غير

الحق الصريح والحرية التامة في الدفاع عن نفسه فلم يستخدم جاسوساً ولا احتال حيلة في استطلاع اسرار اعدائه مع ان هؤلاء كثيراً ما كانوا ينصبون له الشراك ويدبرون المكائد وهو لا يبالي ولا يضطرب



اللورد بورلي سسل مؤسس بيت سلسبري

ولهذا الرجل تاريخ طويل كله ادلة على صدق ابتداء في خدمة حكومته واستهلاكه في مصلحة بلاده ولو ادّى به ذلك الى المخاطرة بحياته . وما زال عاملاً حتى توفاه الله سنة ١٥٩٨ ونبغ بعده ابنه روبرت الملقب ارل سلسبري ولد سنة ١٥٥٠ وقد تخلق بأخلاق ابيه وترقى في مصالح الحكومة وهو يعمل مثل عمله حتى توفي سنة ١٦١٢

وما زال آل سسل يتولون اكبر مناصب الدولة الانكليزية عشرة اجيال متوالية فأصبحت الحكومة طبيعة فيهم واشتهروا باخلاصهم لامتهم واجمع الانكليز حسني الاعتقاد في اقتدارهم . على ان توارث المناصب في البيت الواحد من العادات القديمة التي محاها التمدن الحديث ولها حسنات وسيئات . وكان للدول الاسلامية حظ وافر منها . ومن العائلات التي توارثت مناصب الحكومة فيها البرامكة توارثوا الوزارة في الدول العباسية وبيت المادراني توارثوا الكتابة في مصر — ناهيك بتوارث الولايات عندهم . على ان توالي آل

سلسبري على الوزارة ونحوها في الدولة الانكليزية ليس من قبيل التوارث وانما هو شبيه به

﴿ المركيز سلسبري ﴾ هو آخر من تولى الوزارة منهم ولد في هيتفيلد من اعمال انكلترا سنة ١٨٣٠ وتلقى العلم في ايتون واوكسفورد ونال الشهادة المدرسية سنة ١٨٥٣ وانتظم عضواً في البرلمانت واسمه يومئذٍ اللورد روبرت سسل وتوفي اخوه الاكبر سنة ١٨٦٥ فتسمى فيسكونت كرانبورن وبعد ثلاث سنوات خلف اباه بلقب المركيز سلسبري واشتغل بصناعة الادب فكان يكاتب مجلة كوارترلي رفيو وغيرها من المجلات الانكليزية وكان كثير الاشتغال في الطبيعيات وخصوصاً الكيمياء — وهي بالحقيقة من الذ العلوم وانفعها . وتعين سنة ١٨٦٦ وزيراً للهند ولم تطل مدة تعيينه عليها فاستقال بعد بضعة اشهر لانه لم يستطع قبول لائحة الاصلاح التي قدمها اللورد دربي . على انه عاد الى ذلك المنصب في وزارة المحافظين التي رأسها دزرائيلي سنة ١٨٧٤ واتفق وقوع الجوع في تلك البلاد فأحسن الادارة في تخفيف ويلاته

وانتدبته حكومته سنة ١٨٧٦ سفيراً عنها الى الدولة العثمانية للنظر في بعض المسائل المتعلقة بالمسيحيين في الشرق وتسويتها على اثر حوادث البلغار والجبل الاسود فاجتمع المؤتمر في الاستانة ولم يأت بنتيجة وشهرت روسيا سنة ١٨٧٧ على الدولة العلية حرباً دامت سنة وبعض السنة وانتهت بمعاهدة سان ستفانو سنة ١٨٧٨ وهي على غير ما كانت انكلترا ترجوه وتعد الدولة العثمانية به . واضطر اللورد دربي ان يستقيل من وزارة الخارجية فاستقال وخلفه فيها المركيز سلسبري فنشر لائحة يقول فيها ان مركز الدولة العثمانية قد تحدد في معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ ووقعت عليه الدول كلها فلا يجوز تغيير شيء منه الا بمؤتمر آخر فأفضى ذلك الى عقد مؤتمر برلين الشهير فحضره سلسبري مع ارل بيكونسفيلد ونتائج هذا المؤتمر مشهورة

وفي سنة ١٨٨٠ سقطت وزارة المحافظين فسقط بها دزرائيلي وسلسبري وقام المستر غلادستون شيخ حزب الاحرار . وفي السنة التالية توفي دزرائيلي فافضت زعامة حزب المحافظين في مجلس الاعيان الى سلسبري . وفي السنة التي بعدها كانت الحوادث العرابية في وادي النيل فاحتلته الجيوش الانكليزية بعد واقعة التل الكبير ورجعت السلطة الى الخديوي السابق على ان تبقى جنودها في مصر ريثما تنتظم شؤونها فتنسحب منها — تلك كانت وعود غلادستون باعتبار انتصاره للحرية وقد ناضل هذا الرجل العظيم عن هذا المبدإ والمحافظون لا يرون ذلك . وحدثت اسباب أخرى فسقطت وزارة غلادستون سنة ١٨٨٦

وتغلب المحافظون فانتخب سلسبري رئيساً للوزارة وهي اول مرة تولى فيها ازمة الحكومة ولم تطل مدتها فأعيدت وزارة الاحرار واستفحل امر لائحة ايرلندا يومئذٍ فانقسم الاحرار بسببها ففاز المحافظون وعادت الوزارة اليهم فتولاها سلسبري الى سنة ١٨٩٢ ثم عادت الى الاحرار ورئيسهم غلادستون فاستعان عليها باللورد روزبري لشيخوخته وضعفه وسقطت وزارة الاحرار سنة ١٨٩٥ فقامت وزارة المحافظين واستلم المركيز سلسبري مقاليدها ولم ترجع الى الاحرار من ذلك الحين

وحدثت في اثناء هذه الوزارة امور هامة لا يزال عهدها منا قريباً اشهرها ارجاع السودان على يد اللورد كتشنر والحاق الترانسفال بالاملاك الانكليزية بعد حرب قاست بها انكلترا مشاق عظيمة وتكبدت خسائر جسيمة . وحدثت في تلك الاثناء ايضاً الحوادث الصينية وغيرها من حوادث الشرق الاقصى وتداخلت انكلترا في شؤونها ونالت حظها من الغنيمة . وتوفيت الملكة فيكتوريا وخلفها الملك ادوار السابع الحالي . وكان الملك المذكور يود استبقاء سلسبري في الوزارة ولكنه اضطر لشيخوخته ان يستقيل فاستقال في اواسط العام الماضي وهو في حدود الثالثة والسبعين من عمره وقد شاخ فأسفت البلاد على تقاعده ثم اصيب في اواسط هذا العام بمرض الكلى وتوفي في ٢٢ اوغسطس منه فكان الحزن عليه عاماً عندهم

﴿ مناقبه ﴾ كان سلسبري مثل جده اللورد بورلي سسل من حيث استهلاكه في مصلحة وطنه واخلاصه في خدمة مليكه مع اعتدال وتعقل . فهو يخالف غلادستون من حيث المغالاة والتطرف ولكنه يشبهه من قبيل التمسك بحبل الدين وشدة الدفاع عن الكنيسة الانكليزية وكان ذلك من اكبر اسباب اجتماعها وتأكيدها

البابا لاون الثالث عشر

والبابا بيوس العاشر

توفي البابا لاون الثالث عشر في ١٩ يوليو الماضي وكان لوفاته دوي عظيم في عالم السياسة والدين . ليس لانه لم يشبع من الايام فقد اربى على الثالثة والثمانين وقضى ثلث هذا العمر على الكرسي البابوي وقد رافق حياته كثير من الحوادث المهمة فأظهر في اثنائها من الدراية والتعقل وحسن النظر ما يندر مثاله . ولذلك فقد شقت وفاته على العالم من كل الطوائف ويجدر بالهلال تعداد مناقب قداسته لو لم تكن قد بسطنا ذلك في الهلال

الثاني عشر من السنة الماضية في عرض كلامنا عن يوبيله اذ قدّمنا الكلام بتذلكة عن تاريخ البابوية ثم اتينا على ترجمة حال البابا المتوفى رحمه الله وذكرنا مناقبه واخلاقه وجنده وماليته واوضحنا ذلك بالرسوم والاشكال فالرجوع الى ذلك يعدّ من قبيل التكرار



بيوس العاشر

البابا الجديد

ومما زاد الناس اسفاً على فقده خوفهم ان لا يظفروا بمن يكون في مثل تعقله واعتداله وحبه للوئام والوفاق . فوقع الانتخاب في ٤ اوغسطس الماضي على الكردينال سارتو بطريرك البندقية فجاء رومية وتولى عصا الرعاية وسمّى نفسه بيوس العاشر

﴿ ترجمة حاله ﴾ لم ينشأ قداسة البابا الجديد من اسرة عريقة في الحسب والنسب مثل سلفه المرحوم بل هو من اصل وسط وكان اسمه يوسف سارتو ولد في ريزي من ابرشية تريفيز بايطاليا في ٢ يونيو سنة ١٨٣٥ تلقى دروسه الابتدائية في بلده ثم تعلم اللاهوت في مدرسة باتلفرانكو وبادو واقتبل رتبة الكهنوت وهو لا يزال شاباً وتعين كاهناً لمدينة تومبولو ثم انتقل

الى مدينة سلزانو وما زال فيها حتى ادرك الاربعين من عمره . ثم استقدمه اسقف تريفيز اليه وولاه بعض اعمال الاسقفية وما زال يرتقي حتى صار سنه ١٨٨٤ اسقفاً على ابرشية مانتو فأقام هناك واهتمّ في اصلاح شؤون الرعية والكهنة بالتعليم والتهذيب . وبعد تسع سنوات فرغ كرسي البندقية من بطريرك يتولاه وقام الجدال بين الحكومة والفاتيكان على صاحب الحق في انتخاب من يخلفه وبعد سنتين قطع البابا المرحوم كل جدال بانتخاب سارتو بطريركاً على البندقية في ١٥ يونيو سنة ١٨٩٣ بعد ان رقاه الى رتبة الكردينالية

فلما قبض على ازمة تلك المهمة قام بها حق القيام وبذل قصارى الجهد في اصلاح ذات البين بين طبقات الناس في البندقية بلطف اسلوبه واخلاصه فاجمعت القلوب على حبه واحترامه ومازال في ذلك المنصب حتى وقع انتخاب الكرادلة عليه لمنصب البابوية كما تقدم

مناقبه يظهر من النظر الى صورة قداسة البابا انه قوي البنية غير غليظها ويقول الذين درسوا اخلاقه انه مقدام نشيط وانه ذو اقتدار على تدريب كهنته واخضاعهم بلا خشونة او استبداد . وهو واسع الاطلاع في الامور الاجتماعية مثل اطلاعه في العلوم الدينية . ولكنه لا يتكلم غير اللغة الايطالية وقليل من الفرنساوية لغة اهل القرى (الباتوا)

بيروت

هي مدينة قديمة ولها شأن في العالم القديم . اما في الاجيال الاخيرة فلم تعمر الاَّ بعد حوادث سنة ١٨٦٠ المشومة اذ ذبح المسيحيون في الشام وحاصبيا ودير القمر وغيرها فهاجر من بقي منهم الى بيروت وتنبهت اوربا لهذا الحادث العظيم فبعثت رجالها للاصلاح السياسي وتقاطر خدمة العلم والدين لاعالة المنكوبين وتعزيتهم وتعليمهم فانشأوا المدارس والمكاتب وغيرها وأخذت بيروت في النزوع الى المدنية من ذلك الحين وتكاثر سكانها واتسعت عمارتها وتعددت فيها الابنية الفخيمة ونبغ منها العلماء والادباء وأنشئت المطابع والجرائد وانتشرت روح النهضة منها الى ما جاورها من مدن الشام وغيرها . ولولا مهاجرة اهلها الى اميركا واوستراليا في الاعوام الاخيرة لزاد عددهم فيها على اضعاف ماهم . اما الآن فانهم لا يزيدون على مئة الف الاَّ قليلاً

ومع ذلك فهي لاتزال زهرة مدائن المشرق ومبعث نور النهضة العربية الاخيرة



(ناظم باشا والي سوريا)

ومستودع العلوم والمعارف وحج طلاب الآداب — ما قولك بمدينة هذه حالها بعد المهاجرة وفيها من المدارس الكلية في العلم والطب واللاهوت وغيرها ما يندر وجوده حتى في معظم عواصم اوربا واميركا — في بيروت كليتان عظيمتان وعشر كليات علمية كبرى وعشرات من المدارس الصغرى • وفيها المطابع ومنها اكبر مطابع المشرق على

العموم (الأمطبعة بولاق الاميرية) ومن بيروت نبغ العلماء والكتاب والشعراء وفيهم جماعة من اركان هذه النهضة في الكتابة والصحافة والشعر وغيرها — وتجار بيروت من امهر المشارقة في اساليب الاتجار بل هم من امهر تجار العالم كأنهم ورثوا ذلك عن اسلافهم الفينيقيين • وقد اشتهروا به في عالم التجارة في اوربا واميركا حتى ضرب المثل بهم

أليس من موجبات الاسف ان مدينة هذه حالها من العمران تصبح الراحة العمومية فيها العوبة في ايدي بعض الرعاع ويمسي اخيارها تحت رحمة اشرارها • ومصدر هذا الشقاء تعصب الرعاع من المسلمين والمسيحيين كل منهم على الآخر — يزعمون انهم يفعلون ذلك انتصاراً للدين والدين بريء من كليهما • وكثيراً ما سمعنا بحوادث الخصام والقتل من عواقب هذا التعصب واما حادث الامس فلم نسمع بمثله في بيروت فقد بلغ عدد القتلى فيه من الطائفتين بضعة عشر رجلاً وهي اول مرة بلغ عدد القتلى الى هذا الحد في حادثة واحدة ناهيك بما تخلل ذلك من النهب والتعدي • فنهب المسلمون بيوتاً لاناس من المسيحيين لا علاقة لهم بالحادثة وقتلوا من صادفوه منهم حتى اضطر المسيحيون الى مغادرة منازلهم والالتجاء الى لبنان فنزح منهم عشرات الالوف وتركوا اعمالهم ومتاجرهم • ومع اجماع الصحف على ان مصدر هذا الشر التعصب الديني مع الجهل فقد اختلفت هل كان المسيحيون البادئين ام المسلمون فنحن لا نبحث في ذلك لانه من شؤون الجرائد السياسية وانما موقفنا موقف آسف يندب سوء حظ مدينة هذه حالها ونطلب اليه تعالى ان يلهم حكومتها ما يجمع القلوب ويصون الاعراض

وعندنا ان العلة الحقيقية لهذا الشر العظيم انما هو الجهل لان بيروت مع تعداد مدارسها وكثرة وسائل التعليم فيها لا يزال جانب كبير من أسافلها يستنكفون من طلب العلم وربما عدَّه بعضهم من قبيل التخنث وانهُ يضعف الهمم ويوهن العزائم عن نصرة الدين الذي يزعمون انهم ينصرونهُ — على انهم لو تعلموا لانفتحت عيونهم واستنارت قلوبهم وعلموا ان الدين انما يأمرهم بالاحسان والحسنى • وانهُ في غنى عن نصرتهم بل هو يتألم من أعمالهم • ناهيك بما تدعو اليه العلوم من تدميث الاخلاق وتلطيف الطباع وخصوصاً العلوم الطبيعية فانها تحقر الانسان في عيني نفسه اذ يرى الارض وما عليها لا تعادل ذرة من ذرات الهباء بالنظر الى هذا الكون الواسع — والتاريخ يعلمهُ ما تأول اليه الفتنة من أسباب الخراب وانهُ مهما عظمت مطامعه واستفحلت قوته فقد

مرَّ على هذه البسيطة من هو اعظم منه ولم يذكر من أهلها غير الفضلاء والعقلاء

فاذا انتشرت هذه العلوم في الطبقة السفلى من أهل بيروت استنارت عقولهم كما استنارت عقول الذين تعلموا منهم ومن سواهم • فان المتعلمين وأهل الادب من البيروتيين المسلمين والمسيحيين ينكرون هذه الفتن ويأسفون لاعمال جهالهم • وقد يعترض علينا بعضهم بان جماعة من اكابر البيروتيين ينشطون الاشقياء من الطائفتين فكيف تلقي التبعة على الطبقة السفلى • نقول اذا وجد من اهل الوجاهة من يفعل ذلك فلا بدَّ ان يكون علته الجهل لان الغنى والوجاهة شيء والعلم والتهذيب شيء آخر والغنيُّ الجاهل اشدُّ خطراً على المجتمع الانساني من الفقير الجاهل لان ماله انما يكون في يده كالسيف المسلول في يد المجنون

على أن ذلك لا يقتضي تجريد غير المتعلمين من روح السلام وحب الوئام فقد كتب الينا جماعة من مسيحيي المصيطبة يثنون على الحاج ابو سليم المغربل لانه فعل في حماية المسيحيين في هذه الحادثة مثل فعل الامير عبد القادر الجزائري في حادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق • ففضيلة هذا الرجل ليست من نتائج العلم بل هي من ثمار التعقل الفطري وحسن التربية ولكن امثال هذا الرجل بين البسطاء اقلُّ مما بين المستنيرين بنور العلم الصحيح

على ان الاصلاح بطريق التعليم يستدعي وقتاً طويلاً • اما الاصلاح العاجل فانما يكون بحزم الحكام وسهرهم ومعاقبة الجانين بالعدل والصرامة بلا محاباة ولا تردد ولذلك فقد كانت الآمال عالقة بالاصلاح السريع على يد ناظم باشا والي سورية لما اشتهر من حزمه وتعقله وعدله وقد عرفه البيروتيون منذ بضع سنين وخبروا اقتداره على تسكين الخواطر والاقتصاص من المذنبين ولكن جاء من انباء الاستانة انهم عينوا خليل باشا الارناؤوطي والي خداوند كار والياً عليها على ان يبقى ناظم باشا هناك حتى يقدم الوالي الجديد اصلح الله الاحوال

اعلانات الهلال

جرب الاعلان في الهلال مرة واحدة على الاقل لانه اوسع الجرائد العربية انتشاراً

ويسمى الاتحاد هناك بالاصطلاح الطبي اسكيوباغو Ischiopago وفي مكان الاختلاط ندبة شبيهة بما يبقى من آثار الجروح ممتدة من نقطة الاتصال في البطن الى جانب البطن الايمن حتى تنتهي في تقاطع خط وهمي يمتد من اسفل الابط الى رأس العظم الحرقفي · وقد اصبح مكان العجز في اسفل الظهر عظيماً جداً لان العجزين اختلطا عظماً وجلداً وعضلاً فصارا عجزاً واحداً · وفي نقطة اتصال العجز من الوراء ثقب يخرج منه الفرث والبول هو أثر الاست والمبولة معاً وحوله ندبة · وتحت السرة بانحراف نحو اليسار ارتفاع يشبه عظم العانة وعنده عضو تناسلي انثوي مفرد · اما الطرفان السفليان فان اثنين منهما في احد الجانبين مختلطان الى الكعب وينفرجان عند الاخمص واثنين في الجانب الآخر تامان بكل اعضائهما ومفاصلهما · وغير ما تقدم فان سائر اعضاء الطفلين طبيعية وصحتهما جيدة كما يتضح من النظر الى الصورة

وقد عنيت الجمعية الطبية في سانباولو بدرس هذين التوامين وذكر رئيسها الدكتور غودينيو طفلين شبيهين بهما ولدا في فرنسا سنة ١٨٩٩ وعاشا ثلاثة اشهر واما هذان فقد تجاوزا هذا السن ولا ندري كم يعيشان



تربية الاولاد البدنية (١)

تبتدىء التربية البدنية في الاسبوع الثاني من الولادة وهو الزمن الذي يشرع فيه الطفل بتحريك يديه ورجليه ولذلك لا يجوز ان يقمط من رأسه الى أخمص قدميه أو يلبس ثياباً زائدة في طولها عن الحد الذي يطلبه قانون الصحة لئلا يمتنع عن الحركة كما يهوى فيتعوق نموه · هذه أول خطوة من خطوات التربية البدنية والخطوة الثانية هي ان تحمل الطفل على اليدين مستلقياً نحو مرتين في اليوم وتحته مخدة من الريش التام كأنه نائم في سريره · ولا بأس اذا كان يحمل في أثناء

(١) نقلاً عن كتاب «تدبير الاطفال في الصحة والمرض» للدكتور جويدبني بك

الشهر الثاني من غير مخدة على الطريقة التي تقدم ذكرها و بعد ذلك يحمل منتصباً على الذراع الواحدة و يسند ظهره ورأسه بالذراع الاخرى . ولا يجوز ان يخرج به الى النزهة قبل الزمن الذي يؤهل جسمه لتحمل الهواء . وثمَّ عادة سمجة وهي انهم يعرضون الطفل الصغير للهواء باكرًا بحجة ان ذلك يقوي بدنه و يعوده تحمل الخشونة وهي حجة واهية لان مس البرد ولا سيما في الطور الاول من الطفولية يؤثر في أجسام الاطفال البضة مهما كان الطقس معتدلاً أو حارًّا فيضر بصحتهم ضررًا جسيماً كما ان التأنق والتحفظ الزائدين يورثا الضعف والسقام وخير الامور الوسط

والافضل ان يخرج بالطفل الى الهواء تدريجاً فيؤخذ حينما يصير ابن اسبوعين من غرفة الى غرفة أخرى هواؤها ابرد من هواء الغرفة الاولى بقليل حتى يتدرج على تحمل الهواء من غير ان يلحق به ضرر من التعرض له دفعة واحدة

ويجوز من الشهر الثاني فصاعدًا ان يخرج به الى الخلاء في الايام الصحية فيمكث من ١٠ — ١٥ دقيقة في الدفعة الاولى وا كثر من ذلك في الدفعات التالية ويحترس من الخروج به في الايام الباردة قبل الشهر الثالث من عمره . واذا صادفت ولادته في فصل الشتاء فالاولى أن يبقى في البيت الى فصل الربيع حتى يدفأ الجو ويكون الطفل في مأمن من مضار البرد . ومع ذلك فان الحكم في هذه الحالة عائد الى تدبير الام وحكمتها وحالة الطفل من القوة والصحة واذا كانت ولادته في فصل الخريف فيعوّد الخروج الى النزهة قبل مجيء الشتاء وأما في أيام البرد والارياح الشديدة فيكفي أن يلف بملاءة ثم تفتح نوافذ الغرفة التي ينام فيها حتى يتجدد هواؤها و يستنشقه نقياً خالياً من الفساد وذلك افضل من الخروج من المنزل في مثل هذه الاحوال . وانما يجب أن يوضع في أثناء ذلك في مكان منحرف عن مجاري الهواء لئلا يبرد وحتى في الايام الحارة يجب أن يعنى بتدفئته في النزهة فاذا بردت رجلاه أو يداه ردَّ الى البيت حالاً

ويحسن ان يخرج به في الدفعة الاولى على ذراع أمه أو حاضنته لان حرارة بدنها تحفظ الطفل دائمًا فضلاً عن اسنادها اياه بيدها الاخرى يريحه راحة كبرى

و بعد الشهر الثالث وذلك حسب الطقس يؤخذ الى النزهة على عربة الاطفال ويجب أن تكون العربة مستوية أي غير مائلة الى جهة من الجهات و يكون رفاصها ليناً وفراشها ناعماً من الريش أو الشعر وأن يكون لها مخدة يجلس عليها الطفل حينما يبلغ العمر الذي يؤهله لذلك ومظلة لمنع حرارة الشمس والاخيرة لازمة جدًّا وبدونها لا تنفع العربة شيئاً . وكثيرًا ما نشاهد هذه العربات في شوارع العاصمة تسوقها الخادمة بلا مظلة والشمس تلفح وجه الطفل فتحرقه وتكون سبباً لاعتلاله أو هلاكه

والافضل أن يكون لون العربة من الظاهر اسود أو اسمر وكذلك بطانتها وفرشها لان اللون الابيض ولا سيما الالوان البراقة كالاحمر والاخضر تعكس نور الارض الى العينين فتضر بهما ضررًا جسيماً

ويتبع العربة سير من الجلد يربط الى جانبيها من الامام لوقاية الطفل من السقوط . على أن وضعه على هذه الصورة لا يخلو من الخطر لانه اذا اصطدمت العربة أو كان الطفل كثير الحركة وخادمته لاهية عنه وقع وتهشم وقد حدث ذلك كثيرًا . ولذلك يجب أن تتدارك هذه المخاطر بتركيب السير على الطريقة التي ذكرناها وهي أن يثبت الى جانبي العربة بعلاقتين من الجلد حتى يحيط بالطفل ويحصره داخل منطقة حريزة تضمن له السلامة من السقوط

ومن الشهر السادس فصاعداً يميل الطفل الى القعود في العربة عوضاً عن وضعه فيها مستلقياً وحينئذ يدعم ظهره وجانباه بالمخاد الى ان يبلغ الشهر السابع من العمر فيجلس على مقعد العربة وحده . ويناسب ان يوضع من الشهر الثالث فصاعداً على فراش او ملاءة وثيابه مرتبة على طريقة تسهل عليه الحركة كما يهوى فيقلب تارةً على جنبه وتارة على بطنه وظهره وبهذه الواسطة يقوى عضله فيهون عليه الحبو والمشي حينما يجيء اوانهما . ولا يخفى ان الولد يسر بالحبو ويلذ له كثيرًا واذا رأيته يحبو بكثرة زائدة فلا تمنعه لان الحركة تقوي بدنه وهي دليل الصحة والعافية . ويجب ان لا يغفل في ذلك عن مراقبته لئلا يذهب الى مكان مرتفع فيسقط وينكسر عظمه او تنسحج بشرته او يلتقط من الارض شيئاً مضرًا او تحرقه نار أو تخزه ابرة أو

دبوس كما يحدث ذلك كثيراً . وقد تنشغل الام في تدبير منزلها فلا تستطيع مراقبة ولدها وعندئذٍ يوضع ضمن سياج او اطار من خشب مؤلف من أربع أضلاع تتصل بعضها ببعض بواسطة شنا كل من حديد ثم تنفصل وتحزم عند مالها لا يراد استعمالها . ولا يصعب تقليدة على من كان عنده أقل المام بصناعة التجارة

والمشي كالحبو يروض الجسم ويجب ان يترك الطفل الى ان يقدم عليه من تلقاء نفسه ولا يكره على المشي قبل ان تقوى قائمتاه ويتصلب عظمه لئلا يكون سبباً لاعوجاج ساقيه ولا سيما اذا كان الطفل معدًا لمرض الكساح أي رخاوة العظام

على انه يجوز حالما يقوى الطفل ان يسير كل يوم على قدميه نحو ١٠ دقائق اوا كثر حسب قوته وسنه ويداوم على النزهة في عربة الاطفال الى ان يبلغ السنة الرابعة من عمره وبعدئذٍ يركب عربة يجرها جحش اوحصان صغير (بوني) على نحو ماترى في شوارع العاصمة . وكلما تقدم الولد في السن زاد ميله الى اللعب فلا يمل ولا يكل وهذا من غرائب مايشاهد في الاولاد . ومن الواجب ان لا يسمح له بترويض بدنه الى حد الجهد والاعياء لئلا تكون الرياضة وبالاً عليه

وأولاد المدارس من أحوج الناس الى ترويض أبدانهم لان ازدحامهم في المدرسة واشتغالهم في درس العلوم كثيراً مايفضيان الى انحطاط العقل وربما أحدثا أمراضاً عصبية يصعب برؤها وأشدها وطأة المرض المعروف برقص القديس انطونيوس الذي يكثر حدوثه في أولاد المدارس من أعمال الفكرة والتقاعد عن الرياضة البدنية كما ينبغي

ولا بد للتلميذ من ساعة أوساعتين يروض فيهما بدنه باللعب في الهواء المطلق وأنفع الالعاب للتلامذة مايلعبونه من تلقاء أنفسهم لانهم ينبسطون به ويجدون فيه من اللذة مالا يجدونه في غيره من الالعاب التي تقترح عليهم أو يكرهون عليها

ومن صنوف الرياضة المفيدة للاحداث ركوب الخيل والحمير والرقص والسباحة وكرة القدم والتنس وركوب الدراجة (البيسكل) كل هذه تحسن آثارها لا في الصبيان فقط بل في البنات ايضاً . ولست أرى مانعاً أدبياً ولا غير أدبي يمنع البنت

عن ترويض بدنها بجميع الالعاب التي يتمرن عليها الذكور في الهواء وحرارة الشمس وهذا خير لها من الخباء في بيتها لان الرياضة على الطريقة التي تقدم ذكرها تكسبها صحة وجمالاً و بالتالي فلا تكون من الكاسدات في سوق الزواج

وقد اخترع الافرنج العاباً كثيرة لترويض أبدانهم وأنشأوا النوادي والجمعيات من رجال ونساء للمسابقة في فنون الرياضة الجسدية وقد جرت الحكومة المصرية هذا المجرى في مدارسها وكثيراً ما يلعب تلامذتها على رهن أو جائزة لان ذلك يرغبهم في ترويض أجسادهم و ينشطهم على المباراة فيكون لهم نفع صحي يغتبطون به طول حياتهم ولا تجد فيهم من المترهلين والقصمين ما تجده في سواهم من الذين لا يراعون قانون الرياضة كما ينبغي



المدرسة الكلية السورية

(والمدرسة الكلية المصرية)

اقتراح

قدم القاهرة في اواخر الشهر الماضي صديقنا الاستاذ جبر افندي ضومط معتمداً من قبل المدرسة الكلية السورية لبعض الشؤون المتعلقة بتلك المدرسة والطلبة الذين يؤمونها من القطر المصري • وقد علمنا منه ان عدد هؤلاء الطلبة يربو على مئة وخمسين وهم يزدادون كل عام عما قبله فأذكرنا ذلك شدة الحاجة الى مدرسة كلية مصرية ينشئها عمدة المدرسة الكلية السورية في هذه العاصمة فرعاً لمدرستهم في بيروت او ينسجونها على منوالها او يسعون في تأليف جمعية لانشائها مستقلة ونجاحها مضمون لما علمته من اقبال المصريين على ارسال اولادهم الى تلك المدرسة في بيروت مع مشقة الاسفار على الاولاد ومرارة الغربة على الوالدين • فكيف اذا كانت هذه المدرسة بين ظهرانيهم فان طلبتها لا يقلون عند ذلك عن الالف

وليست رغبة المصريين في كلية بيروت وتكبدهم مشاق الاسفار والاغتراب اليها عن عبث ولكنهم تأكدوا بالاختبار انها من افضل المدارس لتثقيف الطلبة وتهذيب اخلاقهم وانهاض هممهم وتدريبهم على الواجب واحياء الحرية الحقيقية والاستقلال الفكري في قلوبهم فضلاً عن تعليمهم وانارة عقولهم • وكثيراً ما تحدثنا بفضائل هذه المدرسة ومزاياها وكنا نأسف لتحويل العلوم فيها من اللغة العربية الى الانكليزية كما فعلت المدارس الاميرية المصرية ووددنا لو انها تعود الى تعليم العلوم في اللسان العربي لينشط أبناؤه الى تأليف الكتب العلمية فيه فيحيا وتحيا به الجامعة العربية • ولكننا علمنا من الاستاذ المشار اليه ان العناية مبذولة الآن في هذا السبيل مع بقاء التعليم في الانكليزية لاكتساب الغرضين معاً — لأن التعليم في كتب انكليزية يساعد على تتبع العلم الى آخر ما وصل اليه او ما حدث فيه من الآراء او الاكتشافات او الاختراعات مما لا يتأتى في الكتب العربية • ومع ذلك فان السعي متواصل في احياء اللغة العربية وآدابها بما يبذله الاستاذ جبر افندي ومن تخرّج على يده من معلميها في تنشيط هذه اللغة وآدابها بتدريس علوم اللغة بكتب حديثة موضوعة على اسلوب فلسفي جديد مثل كتاب « الخواطر الحسان في المعاني والبيان » وكتاب « فلسفة البلاغة » وكلاهما للاستاذ المذكور • وقد أخذ في تأليف كتاب في النحو على نسق جديد يسهّل تناول هذا الفن على طالبيه • ناهيك بما يبذلونه من الجهد في استحثاث التلامذة على مطالعة كتب الادب العربية لتقوية ملكة الانشاء والاطلاع على آداب العرب وتواريخهم•

ومما ساعد على احياء هذه اللغة في هذه المدرسة ان رئيسها الجديد رجلٌ واسع الصدر راغب في تطبيق احوال المدرسة على ما يوافق النهضة العربية الاخيرة فسهّل للاستاذ الوصول الى ذلك الغرض فعمد الى تنشيط هذا اللسان بتأليف الجمعيات الادبية والعلمية وانشاء الجرائد والمجلات ليتدرب الطلبة على الكتابة والخطابة وتشحذ اذهانهم بالبحث والتنقيب

ففي المدرسة الكلية الآن ثلاث عشرة جمعية ادبية وعلمية وثلاث جرائد بعضها اسبوعية وبعضها تصدر كل اسبوعين ينشئها الطلبة فيكتبون فيها المقالات في الادب والعلم ويتناظرون ويتكاتبون • ولكل جريدة منشئ ومدبر ومشتركون ومراسلون من تلامذة المدرسة — كأنهم جعلوا المدرسة عالماً صغيراً يتدربون فيه تحت مناظرة العمدة على ما يؤهلهم للعمل في العالم الكبير • وأول جريدة ظهرت في الكلية صدرت سنة ١٨٩٥ ثم توالى ظهور

الجرائد والمجلات . والجرائد التي تصدر فيها الآن « الحديقة » وهي في سنتها الرابعة . و « الحظ » وهي في سنتها الثانية . و « حسناء الكلية » في سنتها الاولى . واعداد بعض هذه الجرائد لا تزال محفوظة في مكتبة المدرسة مجلدة في كتب على حدة

اما الجمعيات فواحدة منها في اليونانية لابناء هذا اللسان من التلامذة وثلاث في الانكليزية وتسع في العربية وهي منظمة على احسن نظامات الجمعيات لكل منها رئيس وكاتب ومواعيد للاجتماع والانصراف والخطب والمباحثات

فبمثل هذه الوسائل تحيا اللغة وترسخ ملكتها في اذهان اهلها وليس بمجرد حفظ القواعد وايراد الشواهد فان استظهار علوم اللغة حسنٌ مفيد ولكنه نظريٌ قلما يأتي بثمر ان لم يقرن بالعمل خطابةً وانشاءً كما يفعلون في كلية بيروت

فنحن في حاجة الى مثل هذه المدرسة والى قوانين مثل قوانينها وأساتذة مثل أساتذتها ليخرج منا رجال مثل رجالها . فنتقدم الى عمدة المدرسة الكلية ان ينظروا في اقتراحنا لعلنا نتوفق الى هذه الامنية على يدهم فيتمون فضلهم علينا . اما اذا لم يكن لمصر حظٌ من انشاء مثل هذه المدرسة فالكلية السورية افضل المدارس في التعليم والتثقيف لابناء هذه الديار وخصوصاً في الاحوال الحاضرة

تاريخ التمدن الاسلامي

الجزء الثاني

استقبلت الصحافة العربية الجزء الثاني من هذا الكتاب مثل استقبالها الجزء الاول في العام الماضي بل هي اطنبت في تقريظه اكثر من اطنابها في ذاك . ومع اننا طلبنا من كل جريدة ومجلة على حدة ان تنتقده لبيان اماكن النقص فيه فلم نجد بينها من تعرض لغير الاعجاب به وبما حواه من الحقائق الكثيرة وما بني عليها من النتائج الصحيحة لبسط احوال الثروة الاسلامية باختلاف العصور وأسباب صعودها وهبوطها . ولعل السبب في سكوتهم عن الانتقاد ذكر الاسانيد والمراجع في ذيل الصفحات بخلاف الجزء الأول فقد اغفلنا تلك الاشارات فيه فترتب على اغفالها توهم الخطاء في بعض المواضع من ذلك الكتاب حتى اضطررنا الى بيان مآخذه في بعض الردود فانفحمت صحته

وقد توافدت علينا كتب اهل الفضل من سائر اقطار العالم الاسلامي يستحثوننا على مواصلة العمل لاتمام هذا الكتاب و يمتدحون هذه الخطة الجديدة في التأليف بما لم يسبق اليه احدٌ في العربية . ولو اردنا ذكر محتويات تلك الكتب لضاق الهلال دونها . وانما نقتطف شذرات قليلة من كتب بعض ذوي الاطلاع الواسع في تاريخ الاسلام على سبيل المثال . من ذلك ما كتبه الينا صاحب مقالة « فيكتور هوكو وعلم الادب عند الافرنج والعرب » من كتاب طويل في ما ألّفهُ العرب في تاريخ الاسلام من قديم الزمان الى الآن والفرق بين اساليب التآليف القديمة والحديثة الى ان قال :

« وظهر اليوم في عالم المطبوعات العربية الجزء الثاني من تاريخ التمدن الاسلامي وهو من افضل الكتب المؤلفة على النسق الجديد واصلحها للقراءة في جميع العالم الاسلامي والشرقي لاسيما في مكاتبه المؤسسة على الطرز الافرنجي وفي مدارسه الاستعمارية . وقد سلم هذا التاريخ من المحاذير التي وردت على التواريخ العربية القديمة لمراعاة المؤلف الأساليب الجديدة في العبارة والتصنيف واعتماده في ما كتبه على علم الاحصاء وعلم الكتب ونحو ذلك مما يميز طريقة المتأخرين عن طريقة المتقدمين وقد تيسر له ما لم يتيسر لكثير من كتبة الافرنج في هذا الموضوع من مراجعة اصل المآخذ العربية الصحيحة كالطبري وغيره كما أشار اليه في آخر كل صحيفة من الكتاب فهو بذلك قد استقى من رأس العين واغترف من اصل الينبوع . وتسميته الكتاب بتاريخ التمدن الاسلامي اوقع في نفس العلماء المستشرقين من تسمية غيره بمدنية العرب . وخدمة المؤلف العلم ثابتة بما ألفه من الكتب الكثيرة المفيدة وبجعله الهلال معروفة عند اكابر المستشرقين وقد تكلم عليها بالامس الموسيو هوار قنصل فرانسا ومن اساتذة مدرسة الالسنة الشرقية بباريس في الكتاب الذي نشره حديثاً وسماه تاريخ ادب العرب . ولو كان ميقائيل باشا ناظر الخزينة الخاصة سابقاً في قيد الحياة لأمر بترجمة الجزء الثاني من هذا المؤلف الجليل الباحث في ثروة الدولة الاسلامية وجعله مقدمة لكتابه في أصول المالية العثمانية الذي الفه ودرسه في المكتب الملكي الشاهاني بالاستانة و وافاه الاجل قبل طبعه وكان مشوقاً للاطلاع على أصول مالية الدول الاسلامية المتقدمة وعلى ميزانياتها ورواتب موظفيها ولكن منعه عن ذلك عدم معرفته اللغة العربية وصعوبة مراجعة الكتب الكثيرة والاستنتاج منها وكان له باع طويل في علم الثروة وأصول المالية وهو الذي أسس البنك الزراعي في الممالك العثمانية . والحاصل ان تاريخ التمدن الاسلامي فوائده كثيرة عميمة فنهنىء مؤلفه بهذا الاثر العظيم ونحض القراء على

مطالعته والاستفادة منه وخصوصاً ابناء المدارس العثمانية والمدارس الشرقية والمدارس الاجنبية الاستعمارية في جميع انحاء العالم الاسلامي » اه

وكتب الينا السيد عبد الله العمادي محرر مجلة البيان في لكنو (الهند) في عرض كلامه على مؤلفاتنا وكان قد كتب الينا قبلاً عن ترجمة الجزء الاول من هذا الكتاب الى اللغة الاردية (الهندستانية) ولم يصله الجزء الثاني بعد : ـ

« واما الجزء الاول فيترجمه احد اهل فنجاب الى الاردية وقد شاهدت شذرة منها فاذا هي غير وافية بالغرض المقصود لان في لسان اهل فنجاب عجمة شديدة فلا يحسنون التكلم والتحرير في اللغة الاردية لبعدهم عن مركزي اللسان المذكور « دهلي ولكنو » وان سمح لي الوقت ولم تفتني الفرصة اترجمه الى الاوردية ان شاء الله »

وقس على ذلك اقوال عشرات من الادباء واهل الفضل ناهيك باقوال الجرائد والمجلات وهي منشورة لاحاجة الى ذكرها هنا . اما كتب افاضل المستشرقين فسنأتي عليها في فرصة اخرى

واما الجزء الثالث الذي سنجعله تحفة السنة الثانية عشرة الحالية فموضوعه « العلم والادب في التمدن الاسلامي »



باب السؤال والاقتراح

الشطرنج

(مونتريل كندا) جرجي افندي جرجور ماردين

من هو مخترع لعبة الشرنج

الهلال للمؤرخين واهل الادب ابحاث طويلة في حقيقة مخترع هذه اللعبة فنهم من قال انها من مخترعات الفرس وانها انتقلت قديماً الى الهند ثم عادت الى الفرس . ونسبها غيرهم الى الصين مثل عادتهم في نسبة كل اختراع قديم اليها . والمعوَّل عليه بعد البحث والمقابلة انها من مخترعات الهنود القدماء . ومن ادلتهم على ذلك انهم عثروا

في الكتب السنسكريتية القديمة على لعبة اسمها « شَتُورَنجا » ومعناها في لسانهم « الاجزاء الاربعة التي يتألف منها الجند » وهي الافيال والافراس والمركبات والمشاة . وورد في بعض كتبهم ايضاً ان مخترع هذه اللعبة زوجة روان ملك لانكا (سيلان) في الدور الثاني من ادوار العالم عندهم وانها فعلت ذلك لتسلية زوجها في اثناء حصار مدينته . وعلى ذلك فيكون زمن الاختراع بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد

و يؤيد نسبة هذا الاختراع الى الهنود اجماع مؤرخي العرب على ذلك وان اختلفوا في اسم المخترع و زمن الاختراع . قال ابن خلكان « ان الذي وضع الشطرنج صصه بن داهر الهندي واسم الملك الذي وضعه له شهرام فاعجبه وفرح به كثيراً وامر ان يكون في بيوت الديانة ورآه افضل ما علم لانه آلةٌ للحرب وعزٌّ للدين والدنيا واساسٌ لكل عدل واظهر الشكر والسرور على ما انعم عليه في ملكه منه وقال لصصه اقترح عليَّ ما تشتهي . فقال له اقترحت ان تضع حبة قمح في البيت الاول ولا تزال تضعفها حتى تنتهي الى آخرها فمهما بلغ تعطيني . فاستصغر الملك ذلك وانكرهُ عليه لكونه قابله بالنزر اليسير وكان قد اضمر له شيئاً كثيراً . فقال ما اريد الا هذا فراده فيه مراراً وهو مصرٌّ عليه فأجابه الى مطلوبه وتقدم له به فلما قيل لارباب الديوان حسبوه فقالوا ما عندنا قمح يفي بهذا ولا بما يقارب به . فلما قيل للملك استنكر هذه المقالة واحضر ارباب الديوان وسألهم فقالوا له لو جمع كل قمح في الدنيا ما بلغ هذا القدر فطالبهم باقامة البرهان على ذلك فقعدوا وحسبوه فظهر له صدق ذلك » وتتمة هذه القصة طويلة لا محل لها هنا

والخلاصة ان الهنود هم مخترعو الشطرنج في زمن غير معروف تماماً واخذه عنهم الفرس في نحو القرن السادس للميلاد وحرفوا اسمه الهندي فسموه « شطرنج » وفي القرن التالي جاءهم العرب ففتحوا بلادهم واقتبسوا تمدنهم وكان في جملة ما اقتبسوه هذه اللعبة باسمها الفارسي او الهندي ــ ولم يتعبوا انفسهم في تعريبها كما نتعب نحن في تعريب البيسيكل والاتوموبيل والميكروسكوب والفونوغراف وغيرها . . .

واشتغل المسلمون بالشطرنج ونبغ منهم جماعة من مهرة اللاعبين اشهرهم الصولي الشطرنجي المتوفى سنة ٣٣٦ هـ وكانوا يضربون المثل به فيقولون فلان يلعب الشطرنج مثل الصولي حتى شاع على السنة العامة انه هو مخترعه . وكان يلاعب الخلفاء به وهم يسرُّون بملاعبته . ذكروا ان الراضي بالله الخليفة العباسي اتى في بعض متنزهاته بستاناً وزهراً رائقاً فقال لمن حضره من ندمائه « هل رأيتم منظراً احسن من هذا » فكلٌّ اثنى عليه وذهب فيه الى

مدحه ووصف محاسنه وانها لا يفي بها شيء من زهرات الدنيا فقال الراضي « لعب الصولي بالشطرنج احسن من هذا ومن كل ما تصفون »

وممن اشتهر باللعب من المسلمين الماوردي وكان متقدماً عند المكتفي بالله ومعاصراً للصولي وكثيراً ما كان الخلفاء يجمعون بينهما ليتناظروا في اللعب . وكان الصولي الغالب غالباً . ومنهم ابو حفص الشطرنجي احد موالي المهدي العباسي وكان معاصراً للرشيد

ومن اقوالهم في وصف الشطرنج ابيات لعلي بن جهم قال :

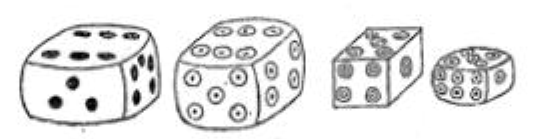
ارض مربعة حمراء من ادم ما بين جيشين مصنوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبهاً من غير ان يأثما فيه بسفك دم
هذا يكرّ على هذا وذاك على هذا يكر وعين الحرب لم تنم
فانظر الى فطن جاشت بفكرها بعسكرين بلا طبل ولا علم

النرد

﴿ ومنه ﴾

ومن هو مخترع لعبة النرد (الطاولة)

﴿ الهلال ﴾ النرد كما يلعبونه اليوم ويعبرون عنه بلعب الطاولة يقول مؤرخو الافرنج انه من مخترعات اليونان وينسبون اختراعه الى بلاميدس الاغريقي سنة ١٢٢٤ قبل الميلاد . ويزعم بعضهم ان اختراعه لا يتجاوز القرن العاشر بعد الميلاد وبين ذلك اقوال متفاوتة على اننا رأينا صورة فصوص النرد (زهر الطاولة) في انقاض بعض الاخربة الفرعونية في طيبة (لقصر) فالظاهر ان المصريين كانوا يتقامرون بالفصوص على حدة



اشكال من فصوص النرد عند المصريين القدماء

اما العرب فينسبون اختراعه الى اردشير بن بابك من ملوك الفرس ولذلك اضيف اليه فقيل النردشير قالوا « واردشير بن بابك اول ملوك الفرس صنع النرد وجعله مثالاً للدنيا واهلها

حتى صارت تنقل من الهلال المقالات برمتها مما قضينا الاشهر في البحث والتنقيب حتى توفقنا الى كتابته . أفلا يجدر بزميلاتنا في الهند وفارس ان تشير الى مآخذ تلك المقالات فترفع عن عاتقها تبعة ما قد يكون فيها من الخطإ على الاقل . !

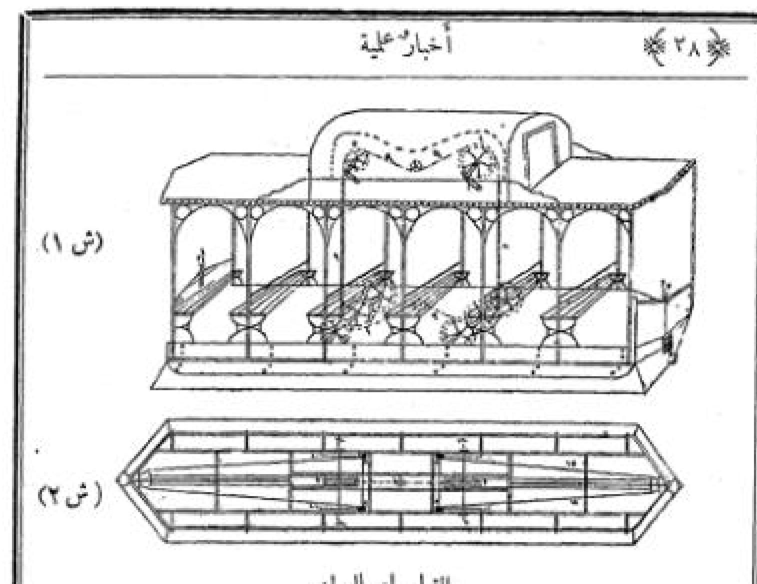


باب الأخبار العلمية

الترامواي الوطني
اختراعٌ شرقيٌّ

يسرُّنا ان الخواجه فارس دهان أحد اذكياء السوريين اخترع تراموايًا يسير على خطوط حديدية كالترامواي الكهربائي في القاهرة والاسكندرية تماماً ولكنه يتحرك بدون كهربائية وانما يكفي رجلان لتسييره فيسع مثل سعته ويجري بمثل سرعته بلا خطر ولا ضرر وبنفقة طفيفة جدًّا . وقد اصطنع الخواجه دهان مثالاً من اختراعه المذكور وسيره في حديقة منزله بالسبتية بالقاهرة وعرضه على جملة من الادباء والوجهاء فأعجبوا به وأثنوا على ذكاء مخترعه (انظر الشكلين في الصفحة التالية)

الشكل الاول صورة مركبة الترامواي بمقاعدها وأعمدتها . طولها ستة أمتار ونصف وعرضها متر واربعون سانتيمتراً وتسير على خط حديدي عرضه ستون سنتيمتراً وفي أعلاها (كشك) فيه دولابان مسننان (٤و٥) قطر الواحد (٤) خمسون سنتيمتراً وقطر الآخر (٥) ثلاثون . تنحدر منهما سلسلة ذات حلقات مجوفة تركب على اسنان الدولابين المذكورين وتدخل في اسطوانتين مجوفتين (٩و٩) الى الدولابين المسننين في أسفل العربة (٩) . وفي أرض المركبة ستة مقاعد مزدوجة يجلس على كل منها ثلاثة اشخاص من كل ناحية الا الاول والاخير فالجملة ثلاثون شخصاً ماعدا الذين يجلسون بجانبي السائق . وفي كل من طرفي المركبة عمودان من حديد (٦ و ٧) يقف عندهما السائق احدهما لايقاف العربة عند اللزوم والآخر للشروع في تسييرها



الترامواي الوطني

والشكل الثاني رسم قاعدة المركبة من اسفلها بحيث تظهر فيها تتمة الحركة. فالخط (١٤—١٤) محور الدولابين اللذين تسير عليهما العربة وفي الوسط بينهما (٣و٣) العجلة المسننة التي تركب حلقات السلسلة (٩ ش ١) على اسنانها . وهما عجلتان واحدة بين كل دولابين. و (١٣ و ١٣) قضيبان ممتدان من اسفل العمود الموقف للركبة (٧ ش ١) الى محيط الدولابين (٢ و ٢) في نقطة (٨ و ٨) . وبين القضيبين المذكورين قضيبان آخران متوازيان ممتدان من أسفل العمود المحرك للمركبة (٦ ش ١) الى العجلة المسننة وفي طرفه هناك سن تركب على احدى اسنانها . وزن المركبة بما فيها من الآلات والادوات ٣٣ قنطاراً مصرياً . منها عشرة قناطير من الحديد ووزن مركبة الترامواي الكهربائي اضعاف ذلك

فمركبة الترامواي الوطني مثل مركبة الترامواي الكهربائي الاَّ انها أضيق منها قليلاً وأطول وعلى سقفها بدلاً من القضيب الكهربائي غرفة صغيرة (الكشك) يجلس فيها رجلان يديران الدولابين (٤ و٥ ش ١) فتتحرك العربة كما تُحرك عجلة البيسكل او عربة رص الحصى في الشوارع بواسطة السلسلة (٩) اذ تركب حلقاتها على أسنان في العجلتين المذكورتين كما تركب حلقات سلسلة البيسيكل في أسنان محوري العجلتين .

والسلسلة في الترامواي المذكور تمتد فوق العجلتين المسننتين (٤ و ٥ ش ١) في الكشك ثم تنزل في الاسطوانة المجوفة الواقفة في وسط العربة (٩) حتى تلتف حول عجلة أخرى مسننة في اسفل العربة بين العجلتين اللتين تسير عليهما العربة (٣ ش ٢) ومنها الى عجلة أخرى مسننة بين العجلتين الاخريين . وبين العجلتين المسننتين العلويتين بكرة صغيرة مسننة وكذلك بين العجلتين المسننتين السفليتين والغرض من البكرتين المذكورتين شدُّ السلسلة او ارخاؤها حسب الاقتضاء

فاذا أريد تسيير المركبة ادار الرجلان (في الكشك) العجلتين (٤و٥ ش ١) فتدور العجلات الاربع (٢ و٢ ش ٢) وتسير المركبة عليها وهي تكتسب قوة على المسير بالاستمرار فلا تلبث بعد قليل ان تستغني عمن يحركها الاَّ اذا سارت في طالعة . وسير الترامواي الوطني هادىءٌ لا خطر فيه وسرعته نحو ثمانية كيلومترات الى عشرة في الساعة وتسع مركبته ٣٥ شخصاً وقد تجرُّ وراءها مركبة أخرى تسع نحو هذا العدد أو تحمل عليها البضاعة أو غيرها . فاذا سارت المركبة وأراد السائق ايقافها قبض على العمود القصير (٧ ش ١) وشدَّه اليه فيشد القضيبين (١٣و١٣ش٢) فتضغط الصفيحة في طرفيهما (٨و٨) على سطح العجلة فتوقفها عن المسير بقوة شديدة وأسرع من ايقاف الترامواي الكهربائي وأكثر سهولة . فيشعر الرجلان في الكشك بطلب الوقوف فيوقفان التحريك او يساعدان على الايقاف . ثم اذا أريد تسيير المركبة قبض السائق على العمود الطويل (٦ ش ١) وشدَّه اليه فيحرك القضيبين المتوازيين في أسفل المركبة بين القضيبين (١٣و١٣) فيعلق طرفها المسنن باسنان العجلة الوسطى (٣) فتديرها دورة او دورتين فيشعر الرجلان بطلب المسير فيعودان الى التحريك

والسرُّ في تسهيل حركة المركبة على ذينك الرجلين ان المخترع جعل حول محور العجلات الاربع التي تسير المركبة عليها (١٤ و ١٤ و ١٤و١٤ ش ٢) كرات من الفولاذ في جيب يحيط بالمحور المذكور (خزنة) بحيث يدور المحور على الكرات بدلاً من دورانهِ على سطح من الفولاذ . فالكرات تقلل السطوح الماسة وتضعف

الاحتكاك بتدحرجها . ولم يكن هذا المبدأ مجهولاً عند رجال الميكانيكيات ولكن المخترع اتقن وضعها واكثر عددها فجعل في كل جيب ٢٦٦ كرة

والنفقة على تسييرهذه المركبة نحو ٤٠٠ قرش في الشهر غير اجرة السائق والكمساري وهو شيء زهيد بالقياس على نفقات الترامواي الكهربائي . ولذلك فاننا نرجو لهذا المشروع نجاحاً باهراً وخصوصاً اذا نشطته الحكومة وسهلت لمخترعه الحصول على الخطوط التي يطلب انشاءهذا الترامواي فيها . وبما ان شركة الترامواي الكهربائي قد احتكرت شوارع القاهرة والاسكندرية فهو يسعى في الحصول على الامتياز في مدن الارياف الكبرى كطنطا والمنصورة وغيرهما وفقه الله في مسعاه

مطبوعات جديدة

﴿ آداب اللغة العربية Litterature Arabe ﴾ هو مؤلف ضخم الفه في الفرنساوية الموسيو كليان هوارت قنصل فرنسا واستاذ مدرسة اللغات الشرقية في باريس بسط فيه آداب العرب قبل الاسلام فما بعده الى اليوم . وقسم الكلام الى فصول في الشعر واصله والشعر في الجاهلية وبحث في القرآن والآداب العربية في ايام بني امية ثم في ايام العباسيين . وفصل الكلام في هذا القسم تفصيلاً فتكلم عن احوال العلوم في ايامهم على انواعها الى سقوط بغداد ثم ما كان من حال العلم بعد سقوطها وحالته في القرن الماضي ثم وصف الصحافة العربية الحاضرة في مصر والشام وغيرهما . ولو اذن لنا الوقت في مطالعة هذا الكتاب لنظرنا فيه نظر المنتقد ولكننا اكتفينا بالاشارة الى فصوله على امل ان نعود الى مطالعته وابفائه حقه من النظر والانتقاد . لان الموضوع ذو شان لاهل اللسان العربي فنحث عارفي اللغة الفرنساوية على مطالعته وهو يطلب من مكتبة رومان كولين في باريس

﴿ ملكة على عرش الفراعنة ﴾ هي رواية غرامية تاريخية تأليف « كاتب فرنساوي مشهور بين قومه » وقد نقلها الى العربية نقولا افندي رزق الله مدير اشغال جريدة الاهرام وهو ممن عانوا الصحافة والنظم اعواماً وله المقالات الشائقة والقصائد الرنانة ولذلك فالرواية حسنة العبارة خالية من شوائب العجمة فضلاً عما حوته من الفوائد التاريخية الفرعونية فنحث اهل الادب على مطالعتها

❊ دروس الاشياء ❊ صدر الجزء الثاني من هذا الكتاب لشقيقنا ابراهيم افندي زيدان وهو من دروس السنة الثانية الابتدائية طبقاً لما قررته نظارة المعارف العمومية . وقد زينه بكثير من الرسوم والاشكال ورتب دروسه ترتيباً لم نرَ مثله في ما الف من دروس الاشياء في العربية . ولذلك لم يكد يصدر الجزء الاول منه حتى تسابقت المدارس الى التدريس فيه وفي هذا الجزء وصفٌ متناسق موجز لدواب الحمل والحيوانات المفترسة والطيور الجارحة وغير ذلك من ضروب الحيوان الى الحشرات والزحافات . ودروس في الارز والسكر والحرير والفلين والتبغ وغيرها من المواد الشائعة وقلما يعرف الاحداث عنها شيئاً . ويلي ذلك دروس في المعادن كالنحاس والفضة والمصنوعات كالزجاج والطباعة ودروسٌ مفيدة في الرياضة البدنية وغيرها . وكل درس موضح بالرسوم الجميلة وفي آخره اسئلة لا يستطيع الطالب الاجابة عليها الا اذا كان قد فهم الدرس . وفي الكتاب اكثر من خمسين شكلاً ومطبوع على ورق ابيض جميل . ومع ذلك فان ثمن النسخة قرشان واجرة البريد عشرون بارة ويترك للمدارس عشرون في المئة

❊ البارون مونتاز ❊ هي رواية ادبية غرامية معربة عن الانكليزية بقلم الآنسة رحمة خوري ناظرة مدرسة البنات القبطية بميت غمر . ومرجع القصة فيها الى ان طابخ السم آكله وعلى الباغي تدور الدوائر . وهي تطلب من حضرة المعربة في ميت غمر ومن المكتبة الشرقية وسائر المكاتب الشهيرة وثمن النسخة عشرة قروش واجرة البريد قرش

❊ الفرسان الثلاثة ❊ هي رواية شهيرة للروائي الشهير اسكندر دوماس الكبير وقد نقلها الى العربية المرحوم الشيخ نجيب الحداد . وكانت قد طبعت ومر بها حينٌ فنفدت الطبعة الاولى فعني حضرة نجيب افندي متري صاحب مطبعة ومكتبة المعارف في اعادة طبعها في اربعة اجزاء اسم الثلاثة الباقية «رجع ما انقطع» و«عود على بدء جزء ١ و٢» فالكتاب كله اربعة اجزاء عدد صفحاتها كلها ٨٠٠ صفحة ثمنها بالاشتراك ستة عشر قرشاً واجرة البريد اربعة قروش وتطلب من مطبعة المعارف

❊ المهاجر ❊ هو جريدة اسبوعية تصدر في نيويورك لصاحبها ومحررها امين افندي غريّب تبحث في السياسة والادب على ما يوافق مصلحة المهاجرين السوريين في العالم الجديد بالنظر الى علاقاتهم باوطانهم . وامين افندي غريّب ممن عانوا الصحافة واشتغلوا بصناعة القلم عدة اعوام وله في الهلال وغيرهِ من المجلات والجرائد العربية مقالاتٌ تدل على سلامة ذوقه وحسن اختياره . ولذلك فاننا نتوقع للمهاجر نجاحاً قريباً . وقد اطلعنا على

الاعداد الأُولى التي صدرت منه فاذا هي كثيرة الفوائد مزينة بالرسوم والاشكال . ولنا وطيد الامل ان يكون للمهاجر مقام رفيع في الصحافة السورية باميركا . بدل اشتراكه اربعة ريالات اميركانية باميركا وخمسة ريالات في سواها فنحث الادباء على مطالعته وهذا عنوانه بالافرنجية Al-Mohager, 93 Washington St. New york City

﴿ مجلات مصرية جديدة ﴾ وصدر في اثناء الشهرين الماضيين ثلاث مجلات : (١) « عروس النيل » وهي مجلة ادبية اجتماعية عمومية تصدر في القاهرة مرتين في الشهر لمنشئها سليم افندي قبعين بدل اشتراكها ستون قرشاً بمصر و١٥ شلينًا في الخارج وفي الجزء الاول صورة المرحوم رفاعه باشا ورواية ادبية مترجمة عن الروسية اسمها « البعث » من تاليف الفيلسوف طولستوي تصدر فيها تباعاً . ويمتاز قبعين افندي عن سائر كتاب الصحف بمصر بمعرفته اللغة الروسية فنرجو ان ينفع القراء بما ينقله منها الى لساننا ونرجو لمجلته الثبات والاقبال . (٢) « العصر الجديد » هي مجلة علمية ادبية فكاهية تصدر بمصر مرة في الشهر لمنشئها محمود افندي صادق سيف اشتراكها السنوي اربعون قرشاً . وفي العدد الاول مقالات في المرأة والعمران وكثير من الفوائد الادبية والحكمية . وفي ذيلها رواية العاشق المحتال تصدر تباعاً فنرجو لها النجاح . (٣) « الاوقاف المصرية » وهي مجلة اسبوعية يدل اسمها على موضوعها لصاحبها ومديرها محمد افندي غالب قطين بدل اشتراكها ٧٥ قرشاً بمصر ومئة قرش في الخارج وهي وحيدة في بابها

﴿ الطغراء ﴾ هي جريدة سياسية تصدر بمصر مرة في الاسبوع لصاحبها جورج افندي الحقوق بارد واسمها يدل على ان خطتها عثمانية . بدل اشتراكها خمسون قرشاً بمصر و١٥ فرنكاً في سوريا و٢٠ فرنكاً في اوربا واميركا اطال الله بقاءها

﴿ ريّ وادي بو ﴾ هو تقرير مطوَّل وضعهُ بالانكليزية حضرة اسماعيل بك سرّي احد مفتشي الري بمصر عن ري وادي نهر بو في شمالي ايطاليا على اثر شخوصه اليها في صيف ١٨٩٩ عن الحكومة المصرية فأفاض في وصف ذلك الوادي ونهره ومجاريه وكيفية الري به وما يلحق ذلك من حيث الجسور والسدود ومواعيد زيادته ونقصانه وفصَّل الكلام في كل ذلك تفصيلاً حسناً واوضحه بالرسوم والخارطات بغاية الضبط والاتقان مما يدل على تدقيق حضرة المؤلف وسعة علمه . والكتاب مفيد لمن يهمه البحث في الزراعة والري بالنيل بالقياس على الانهر الاخرى فنحث عارفي اللغة الانكليزية على مطالعته



الجزء الثاني من السنة الثانية عشرة

١٥ أكتوبر (ت ١) سنة ١٩٠٣ و ٢٤ رجب سنة ١٣٢١

ملوك الشرق وامراؤه

كواليار واميرها

(كواليار) هي مملكة من ممالك الهند المستقلة المحالفة لانكلترا واقعة في اواسط الهند مساحتها نحو ٣٠,٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٣,٥١٣,٧٠٣ يحدها من الشرق الشمالي نهر شمبال يفصلها عن املاك انكلترا في ولاية آكرا واوده. ومن الشرق يحدها ولايتا بندلخند وساكر. ومن الجنوب مملكتا بوبال ودهار. ومن الغرب ممالك رجكارا وكالوار وكوتاه. ومن الغرب الشمالي نهر شمبال يفصلها عن كرولي وذولبور وراجيوتانا. وهي عبارة عن سهول مسطحة ينتأ منها جبال صغيرة على واحدة منها قلعة كواليار الشهيرة. وفيها كثير من الانهار ولذلك كانت خصبة التربة. اشهر محصولاتها الافيون ويعرف بافيون ملوة والحنطة وانواع كثيرة من الحبوب والقطاني والرز والذرة وبزر الكتان والزنجبيل وقصب السكر والنيلة والتبغ والقطن. ويسرح في مراعيها كثير من اصناف الحيوانات والماشية ويقدرون محصولاتها على الاجمال بنحو ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه. اما وارداتها فمعظمها من مصنوعات انكلترا ومنها الصوف والقطن والحرير والفضة ويأتيها من خليج فارس اللؤلؤ ويأتيها الالماس من سيلان والنيلة من بندلخند

اهلها اخلاط من قبائل الهند الاصلية والدخيلة واشرفها قبيلة المهراتة ومنهم حكامها والديانة الشائعة فيها البرهمية ثم الاسلامية ويقدرون نسبة المسلمين الى البراهمة كنسبة

واحد الى عشرين . وفيها اكثر من مئة مدرسة تلامذتها يزيدون على ٤٠٠٠

(عاصمتها) هي مدينة كواليار وقد اشتهرت بما فيها من المعابد الوثنية القديمة وبالابنية الضخمة على الطرز الهندي المختص بالقرنين الخامس عشر والسادس عشر ومناعة حصونها — اما المعابد الوثنية فاشهرها هيكل « ساس باهو » وهو من اجمل الابنية وعليه نقوش جميلة بمختلف اله عبدة وشنو وسيوا على السواء . تمَّ بناؤه سنة ١٠٩٣ م وهناك هيكلٌ آخر استولى عليه المسلمون وجعلوه مسجداً . وهيكلٌ يقال لهُ تلي كامندير (هيكل الزيات) بني في اول امره على اسم وشنو ثم حوَّلوه لعبادة سيوا ومركزه في قلعة كواليار — ومن آثار عبادة الاوثان عندهم كهوف منقورة في الصخر يزيد عددها على مئة كهف بين صغير وكبير حفرت معظمها لاقامة التماثيل وبعضها للسكنى ومن غريب أمر هذه الكهوف انها نحتت في أثناء ٣٣ سنة بين سنة ١٤٤١ و١٤٧٤ وهي مدة قصيرة جدًّا بالنظر الى ذلك العمل الكبير لان بينها كهوفاً كبيرة فيها تماثيل هائلة يزيد ارتفاع بعضها على ٥٧ قدماً وهو اطولها كلها

اما قلعة كواليار فانها قائمة على تلٍّ من صخر صلد علوهُ ٣٤٢ قدماً وطولهُ ميل ونصف ميل وعرضهُ ٣٠٠ متر وعلى قمة ذلك التل سور من الصخر يصعدون اليه بطريق منقور في الصخر وفي داخل هذا السور وفي الزاوية الشمالية الشرقية منه القلعة وهي منحوتة من الصخر تشرف على المدينة ولها منظر رهيب . يقال ان سريا سين امير تلك الجهات بناها سنة ٧٧٣ م ثم فتحها محمود الغوري واستولى عليها سنة ١١٩٦ ثم توالت عليها ايد كثيرة حتى ظهر اكبر خان فامتلكها سنة ١٥٥٦ وجعلها سجناً لمن يقع في اسره من سراة الناس . فلما انحلت مملكة دهلي دخلت كواليار في حوزة امير كوهاد واخيراً افضت الى الدولة السائدة الآن

(العائلة الحاكمة) هي من بعض بطون المهراتة المشهورين في الهند بالقوة والسطوة ومنهم عائلات حاكمة في كثير من ممالك الهند تقدم ذكر بعضها في اهلة السنة الماضية ومنهم اسرة سنديا حكام كواليار — كبيرهم ومؤسس دولتهم يدعى رانوجي ابن شيخ بعض القرى — نشأ رانوجي في بلاط بعض حكام تلك الجهات وكان ذا بطش ودهاء فاسرع ارتقاؤه حتى صار رئيساً للحرس واجتمعت حوله عصابات من المهراتة حارب بهم حروباً كثيرة في ملوة وغيرها حتى توفي وهو يحكم على بقعة هي بعض مملكة كواليار الآن . فخلفه على تلك الحكومة ابنة مهاداجيه سنديا ونبغ

بالسياسة والدهاء وشدة البطش حتى ذهبت شهرته مذهب الامثال • ولما توفي خلفه حفيداخيه واسمه دولت راوسنديا، وكانت حكومته قداتسعت وتأيدت فخافها الانكليز على ما في ايديهم من بلاد الهند فاخذوا يسعون في مداركة ذلك الخطر بعرقلة مساعيه واقامة السدود في سبيله فتحالف عليهم مع جاره أمير برار فحاربهما الانكليز وغلبوهما سنة ١٨٠٣ في اساي • وكان الجند الانكليزي بقيادة الجنرال السيرارثر ولسلي الذي صار بعدئذٍ دوق ولنتون صاحب واقعة وترلو — فاضطر سنديا الى التماس الصلح فعقدت بينه وبين انكلترا سنة ١٨٠٥ معاهدة تقضي بتنازله عن البلاد التي فتحها على ان تبقى له كواليار وكوهاد

وتوفي دولت راو في كواليار سنة ١٨٢٧ ولم يترك خلفاً من ولده فاصبح أمر المملكة وحكومتها الى الانكليز فولوا عليها غلاماً من العائلة المالكة اسمه موكت راو زعموا ان دولت راو كان ينوي الوصاية له بالملك • والحقيقة انهم أرادوا الانتفاع من هذه الفرصة فولوا الاحكام غلاماً ضعيفاً — ثم تزوج موكت راو بحفيدة سلفه وسمى نفسه جنا كجي سنديا • وفي سنة ١٨٤٣ توفي جنا كجي بلا عقب فاوعز الاعيان ورجال الدولة الى ارملته أن تتبنى غلاماً عمره ثماني سنوات اسمه بجيرات راو • ففعلت ووافقت انكلترا على ذلك التبني فافضى الحكم اليه وتسمى باجي راو سنديا، وطال حكمه وكان من أكبر انصار انكلترا في ثورة الهند سنة ١٨٥٧ وثبت في جانبها مع ان رجاله هجروه ونقموا عليه من اجل ذلك • فلم تنس له انكلترا هذا الفضل فذكره مؤرخوها وأثنوا عليه — ولما توفي افضت الحكومة الى ابنه الامير الحالي مهاراجا مادهو راو

(امير كواليار الحالي) هو مهاراجا مادهو راو بهادر ولد سنة ١٨٧٧ ولما توفي ابوه كان لايزال غلاماً فقضى سني حكمه الاول تحت الوصاية • فلما بلغ رشده قبض على أزمة الاحكام وسار على خطة والده في محاسنة انكلترا والانتصار لها • وهي لم تغفل عن توطيد العلائق الودية معه فمنحته الرتب والالقاب فهو الآن من ياوران ملك الانكليز (ياور شرف) وصاحب وسام قيصر الهند ونال سنة ١٨٩٥ رتبة G. C. S. I ولقب (سير) • ولما احتفل الانكليز بتتويج الملك ادورد في العام الماضي كان مهراجا مادهو في جملة الخمسة الذين انتدبهم الملك لحضور الاحتفال بالنيابة عن ممالك الهند المستقلة — وهو الآن في السادسة والعشرين من عمره وقد تثقف على ما يوافق العصر الحديث وهو يلبس اللباس الافرنجي ويعتم عمامة بشكل خاص كما ترى في الرسم و يحب الخيل وله ولع في تربيتها وركوبها ويحب الصيد والقنص وكثيراً من الالعاب الافرنجية

باب السؤال والاقتراح

الخصيان

﴿ قرونه ﴾ عطيه افندي محمد مصطفى المصري

من اي بلد يأتي الخصيان ومن اول من اخترع الخصاء وهل يعملون ذلك كرهاً او اختياراً وما هو تاريخ الاتجار بهم

﴿ الهلال ﴾ الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء واخذها عنهم اليونانيون القدماء ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج · ويقال ان اول من استنبطها سميراميس ملكة اشور نحو سنة ٢٠٠٧ قبل الميلاد — وكان المظنون ان الخصاء يذهب بقوة الرجولية وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة وتولوا مناصب مهمة في ازمنة مختلفة منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد يوستنيان في القرن السادس للميلاد وهرمياس حاكم الاتربة في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف ارسطو ذيمة عن روحه غيرما ذكرهُ فيه من القصائد · وممن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدي صاحب مصر واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة واستبد الخصيان في اواخر الدولة الرومانية استبداداً كبيراً

وللخصاء اغراض اشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن · فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهله استخدموا الخصيان في دورهم واول من فعل ذلك يزيد بن معاوية (توفي سنة ٦٤ هـ) فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه فتح واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية اميل الى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون — وكانت تجارة الرقيق شائعة في اوربا قبل الاسلام · ومن اسباب رواجها ان قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ثم اخذوا ينزحون غرباً جنوبياً نحو اواسط اوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذٍ بقبائل السلاف (اوالسكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات

وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم . وكان من عادات اهل تلك العصور ان يبيعوا اسراهم بيع الرقيق فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا الى افريقية ومنها الى الشام ومصر. فلما وقعت هذه البلاد في ايدي المسلمين راجت تلك التجارة . فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من السلاف والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطىء البحر الاسود — ولا يزال اهل جورجيا والجركس الى اليوم يبيعون اولادهم بيع السلع — فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء امامهم سوق الاغنام وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث . حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة او الحرب والاناث يتخذونهن سراري . وغلب على اولئك الارقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلبي » واصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الابيض بالاجمال . وكثيراً ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام والمراد بهم الارقاء من قبائل السلاف والجرمان — وفعل الافرنج نحو ذلك ايضاً فاشتقوا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها (Esclave) في الفرنساوية و (Sklave) في الجرمانية و (Slave) في الانكليزية

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في ابان سلطانهم واستخدموا الخصيان في دورهم عمد تجار الرقيق الى خصاء بعض ارقائهم وبيعهم بأثمان غالية فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون فيها وأنشأوا « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة اشهرها « معمل » الخصيان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا . كانوا يخصون اولئك المساكين وهم اطفال فيموت كثيرون منهم على اثر العملية فمن بقي حياً ارسلوه الى اسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير . واصبحوا بتوالي الازمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل او الاثاث او الآنية فكان ملوك الافرنج اذا ارادوا التقرب من خليفة المسلمين في الاندلس او غيرها اهدوه التحف ومن جملتها الخصيان كما فعل ملكا برشلونة وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الاندلس فانهما اهدياه عشرين خصياً من الصبيان الصقالبة وعشرين قنطاراً من صوف السمور . الخ . فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق للحراسة الخاصة كما تألفت الفرق من المماليك الفحول . فاذا احتفل الخليفة ببيعة او نحوها كان المماليك والخصيان لزينة ذلك الاحتفال . واليك فقرة من وصف الاحتفال ببايعة الحكم المستنصر

خليفة الاندلس ــ قال المقري :

« فاصطف في المجلس الذي قعد فيه اكابر الفتيان يمينًا وشمالاً الى آخر البهو كل منهم على قدره في المنزلة عليهم الظهائر البيض شعار الحزن قد تقلدوا فوقها السيوف ثم تلاهم الفتيان الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية صفين منتظمين في السطح وفي الفصلان المتصلة به ذوو الاسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض بأيديهم السيوف يتصل بهم من دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوف العبيد الفحول شاكين في الاسلحة الرائقة والعدة الكاملة وقامت التعبية في دار الجند والترتيب من رجالة العبيد عليهم الجواشن والاقبية البيض وعلى رؤسهم البيضات الصقلبية وبأيديهم التراس الملونة والاسلحة المزينة »

وكان الصقالبة كثيرًا ما يتولون الاعمال الهامة عند المسلمين واشهرهم جوهر القائد الذي فتح مصر للدولة الفاطمية في اواسط القرن الرابع الهجرة

وما زالت تجارة الخصيان رائجة الى عهد غير بعيد على انها لاتزال شائعة في الاستانة وغيرها من المدن الاسلامية والخصيان الى اليوم في دور السلاطين والامراء فيهم السود والبيض واكثرهم يجلبونهم من شمالي افريقيا و يعرفون بالطواشية

وكان من أغراض الافرنج من خصاء الغلمان استبقاء اصواتهم رخيمة لاجل الغناء ونحوه ولا تزال هذه العادة جارية في ايطاليا الى اليوم على ان البابا السابق رحمه الله كان قد قبح هذه الفعلة الشنيعة وحرّم بقاءها

وهناك خصاء ارادي كان المسيحيون في اوائل النصرانية يتعاطونه عملاً بما جاء في انجيل متى وهو قوله « لان من الخصيان من ولدوا كذلك من بطون امهاتهم ومنهم من خصاهم الناس ومنهم من خصوا انفسهم من اجل ملكوت السموات » (ص ١٩ ع ١٢) ونشأت في القرن الثالث للميلاد طائفة من الخصيان ذكرها اوغسطينوس في بعض اقواله على ان النصرانية على العموم كانت تنتقد هذه الاعمال ولا تزال تفعل ذلك الى اليوم . ولكنها لم تفز باستئصال هذه العادة فان في بلاد الروس اليوم طائفة تسمى سكوبسي موضوعها الخصاء لاجل الملكوت

الجرائد العربية في العالم

﴿ الاسكندرية ﴾ اسعد افندي سليم

قرأت في السنة الاولى من الهلال تاريخ الصحافة العربية واسماء الجرائد التي صدرت فيها الى ذلك الحين . فهل لكم ان تذكروا لنا الجرائد العربية التي صدرت بعد ذلك ومواضيعها وازمان صدورها واسماء اصحابها او محرريها

﴿ الهلال ﴾ هذا جدول باسماء الجرائد العربية التي صدرت بعد صدور الهلال (سنة ١٨٩٢) الى آخر العام الماضي مع مواضيعها واسماء اصحابها ومكان صدورها مرتبة حسب سني ظهورها ومعظم الجرائد التي لم يذكر بجانبها انها سياسية فهي مجلات

اسم الجريدة	موضوعها	مواعيد صدورها	صاحبها او محررها	سنة ظهورها	مكان صدورها
الاستاذ	ادبية	اسبوعية	عبد الله نديم	١٨٩٢	القاهرة
الفتى	«	شهرية	اسكندر شلهوب	«	«
الفتاة	«	«	هند نوفل	«	الاسكندرية
فرصة الاوقات	«	«	محمود حلمي	«	«
المنظوم	شعرية	نصف شهرية	احمد نجيب	«	القاهرة
الراوي	ادبية	شهرية	بطرس حنا	١٨٩٣	اسيوط
المهندس	رياضية	«	احمد كامل	«	القاهرة
الهدى	ادبية	«	احمد لطفي	«	«
الثمرة	«	«	انطونيوس منصور	«	الاسكندرية
المدرسة	«	«	مصطفى كامل	«	القاهرة
الشرائع	قضائية	«	احمد لطفي واسماعيل حكيم	«	«
النديم	ادبية	«	احمد عبد اللطيف	«	«
رياض التوفيق	«	«	جمعية التوفيق	«	اسيوط
الرأي العام	سياسية	اسبوعية	إسكندر شاهين	«	القاهرة
التقدم المصري	ادبية	شهرية	جمعية التقدم	«	«
المنتقد	«	«	الازهري والدمياطي	«	«

البصيرة	سياسية	اسبوعية	اعلي نجيب ملحمة	١٨٩٣	تونس
العلم المصري	ادبية	«	بطرس نخائيل	«	القاهرة
سلسلة الفكاهات	ادبية	نصف شهرية	نخله قلفاط	«	«
المنتظر	سياسية	مرتين بالاسبوع	محمد بلاشباش	«	تونس
ابو الهول	«	اسبوعية	نجيب الحاج	«	القاهرة
الالتفات	ادبية	شهرية	احمد رشدي	«	«
البيان	سياسية	اسبوعية	محمد المخزومي	«	الاستانة
طرابلس	«	«	محمد كامل البحيري	«	طرابلس الشام
رعمسيس	ادبية	نصف شهرية	جرجس ياضي	«	القاهرة
الفيوم	سياسية	اسبوعية	ابراهيم رمزي	١٨٩٤	الفيوم
القضاء	قضائية	نصف شهرية	امادي شراباتي	«	القاهرة
الامة	سياسية	اسبوعية	توفيق دوبريه	«	«
الابتسام	هزلية	«	ادارة الاتحاد المصري	«	الاسكندرية
المحاسن	ادبية	نصف شهرية	نخايل عبد الملاك	«	القاهرة
ممفيس	سياسية	اسبوعية	محمد مسعود	«	«
الروضة	زراعية	«	خليل باخوس	«	لبنان
الاسلام	ادبية	شهرية	احمد الشاذلي	«	القاهرة
الحق	دينية	اسبوعية	يوسف منقريوس	«	«
لسان العرب	سياسية	يومية	حداد وبدران	«	الاسكندرية
اليانصيب	مالية	اسبوعية	داود بارحي	«	القاهرة
كشف النقاب	سياسية	«	امين ارسلان	«	باريس
الارغول	ادبية	شهرية	محمد النجار	«	القاهرة
الاهالي	سياسية	اسبوعية	اسماعيل اباظه	«	«
النور العباسي	ادبية	نصف شهرية	نجيب اسطفان	«	الاسكندرية
المشير	سياسية	اسبوعية	سليم سركيس	«	« (ثم مصر)
الشمس	ادبية	شهرية	حسن حسني	«	القاهرة

منتخبات الروايات	ادبية	شهرية	اسكندر كركور	١٨٩٤	القاهرة
الاحكام المصرية	قضائية	•	نقولا توما	١٨٩٥	•
الكنانة	ادبية	نصف شهرية	شاكر شقير	•	•
الظاهر	سياسية	اسبوعية	مصطفى وزغلول	•	•
شهادة الحق	دينية	•	خرستفورس جباره	•	•
العام الجديد	تاريخية	سنوية	(حاجب فذلي)	•	اسكندرية
النبراس	ادبية	اسبوعية	نجيب جاويش	•	•
البريد	سياسية	يومية	محمود واصف	•	القاهرة
الطبيب	طبية	شهرية	اسكندر البارودي	•	بيروت
الاخلاص	سياسية	اسبوعية	ابراهيم عبد المسيح	•	القاهرة
المغربي العثماني	ادبية	نصف شهرية	محمد مهجي خير الله	•	الاسكندرية
المقياس	سياسية	اسبوعية	يوسف فهمي	•	القاهرة
البرق	•	•	محمد زكي	•	•
العدل	•	•	سليم جبالين	•	•
السيار	•	•	كنعان	•	•
الانصاف	•	•	محمود حلمي	•	•
الارز	سياسية	•	فيليب الخازن	•	جونية
الظرائف	فكاهية	نصف شهرية	حسن علي	•	القاهرة
مصر	سياسية	يومية	تادرس شنوده	١٨٩٦	•
المرمي	ادبية	نصف شهرية	جمعية النجم الثاقب	•	اسكندرية
العباس	•	شهرية	محمد يوسف	•	•
الحدود	•	نصف شهرية	ابراهيم واباديري	•	القاهرة
الوظيفة	سياسية	اسبوعية	زكي رزق الله	•	•
الكمال	•	•	بطرس المصري وحامد ابراهيم		•
النهج القويم	ادبية	•	محمد خياني	•	•
الثريا	•	شهرية	ادوار جدي	•	•
باب الفتوح	•	•	لجنة مصرية	•	•

الشرق	سياسية	اسبوعية	شدياق وعزوز	١٨٩٦	القاهرة
الكرباج والعفريت	ادبية	«	عبد الله القدسي	«	اسكندرية
الغزالة	«	نصف شهرية	زنانيري وبولاد	«	القاهرة
لسان الحق	سياسية	اسبوعية	محمد بورقيبه	«	تونس
الفردوس	نسائية	شهرية	لويزا حبالين	«	القاهرة
الشرف	ادبية	«	جمعية الاتحاد الاخوي	«	«
الاخبار	سياسية	يومية	يوسف الخازن	«	«
الشام	«	اسبوعية	مصطفى واصف	«	دمشق
الرائد المصري	«	نصف اسبوعية	نقولا شحاده	«	القاهرة
التفريح	فكاهية	اسبوعية	عبد الجليل وسلامه	«	«
المنبه	ادبية	«	جمعية نشر المعارف	«	«
الاقلام	سياسية	«	رأفت وفرج	«	«
الهداية	ادبية	شهرية	مهدي الشرقاوي	«	«
التوفيق	«	اسبوعية	جمعية التوفيق	«	«
طبيب العائلة	صحية	شهرية	الفريد عيد	«	«
مرآة الحسناء	ادبية	نصف شهرية	(مريم مزهر)	«	«
المنصورة		اسبوعية	احمد رشدي	«	المنصورة
العصر العباسي		نصف شهرية	باسيلي بطرس	«	القاهرة
الحماية	سياسية	اسبوعية	اباظه وتوفيق	«	«
الادب	ادبية	شهرية	احمد فهمي	«	الاسكندرية
مرآة العصر	«	«	زكي وسامي	١٨٩٧	«
البيان	علمية	«	يازجي وزلزل	«	القاهرة
التاريخ اليومي	تاريخية	«	نقولا انطاكي	«	الاسكندرية
المرصاد	سياسية	اسبوعية	انطون فارس	«	مرسيليا
الصاعقة	«	«	احمد فؤاد	«	القاهرة
الرقيب	«	«	خالد ولبكي	«	ريوجنايرو
السلطنة	«	«	اسكندر شلهوب	«	القاهرة

تركيا	سياسية	اسبوعية	قيصر كرم	١٨٩٧	القاهرة
الاجيال	مصورة	•	تخائيل صقال	•	•
المعارف	ادبية	شهرية	منلا عثمان	•	•
التلغرافات	اخبارية	يومية	(•••)	•	•
النشأة الوطنية	»	اسبوعية	احمد فؤاد	•	•
المعلومات	ادبية	•	محمد طاهر	•	الاستانة
الايام	سياسية	مرتين بالاسبوع	يوسف معلوف	•	نيويورك
البصير	•	يومية	رشيد شميل	•	اسكندرية
طنطا	ادبية	اسبوعية	فهمي وتوفيق	•	طنطا
السفير	•	•	احمد ومحمد حسنين	•	الاسكندرية
التجارة	سياسية	•	جرجي حبيب		•
المأمون	•	نصف شهرية	احمد صادق	•	القاهرة
البنانة	•	اسبوعية	يوسف سعيد	•	•
حلوان	مصورة	•	بكير وطاهر	•	•
الرقيب	سياسية	•	جرجي غرزوزي	١٨٩٨	الاسكندرية
المشرق	ادبية	نصف شهرية	لويس شيخو	•	بيروت
الفكاهة	فكاهية	•	ديمتري نقولا	•	القاهرة
انيس الجليس	ادبية	شهرية	الكسندرة افرينو	•	الاسكندرية
تسلية الخواطر	•	ثلث شهرية	سبع شميل	•	•
الفلاحة المصرية	زراعية	شهرية	محمود انيس	•	القاهرة
مجلة النيل	سياسية	اسبوعية	مصطفى الدمياطي	•	الاسكندرية
المنار	ادبية	نصف شهرية	محمد رشيد رضا	•	القاهرة
مصباح الشرق	سياسية	اسبوعية	ابراهيم المويلحي	•	•
الهدى	•	•(يومية)	نعوم مكرزل	•	فيلادلفيا
فصل الخطاب	•	اسبوعية	طانيوس عبده	•	الاسكندرية
العثماني	•	•	الخوري ورزق الله	•	•
السلام	•	يومية	غالب طليمات	•	•

الاصمعي	سياسية	يومية	ملوك وخوري	١٨٩٨	سانباولو
كوكب عثماني	«	نصف اسبوعية	محمود زكي	•	الاستانة
المحامي	«	اسبوعية	محمود كامل	•	القاهرة
انيس التلميذ	فكاهية	•	موسى بنروبي	•	•
المنار	دينية	•	ارسانيوس حداد	•	بيروت
الضياء	علمية	نصف شهرية	ابراهيم اليازجي	•	القاهرة
الرجاء	سياسية	اسبوعية	(٠٠٠)	•	باريس
الصديق	ادبية	•	محيي الدين سعيد	•	الاسكندرية
مظلة داود	دينية	نصف شهرية	جمعية التعليم المسيحي	•	القاهرة
الشهباء	ادبية	شهرية	عبد المسيح انطاكي	•	•
الحقانية	سياسية	اسبوعية	احمد عبد الكريم	•	الاسكندرية
الموسوعات	عمومية	نصف شهرية	احمد حافظ عوض	•	القاهرة
الصادق	سياسية	يومية	احمد صادق	•	الاسكندرية
المرصاد	•	اسبوعية	علي لطفي	•	القاهرة
الزمن	•	•	حمدي وهلالي	•	•
الآمال	•	يومية	نجيب غرغور	١٨٩٩	الاسكندرية
ابو نواس	هزلية	اسبوعية	يوسف والياس كنعان	•	•
الواجبات	ادبية	نصف شهرية	عبد الحميد حمدي	•	القاهرة
العالم	سياسية	اسبوعية	جرجي جبور	•	نيويورك
المحبة	ادبية	«	فضل الله ابو حلقة	•	بيروت
الجامعة	«	شهرية	فرح انطون	•	الاسكندرية
المناظر	«	اسبوعية	نعوم لبكي	•	سانباولو
الظهور	دينية	نصف شهرية	علي نور	•	الاسكندرية
الاصلاح	سياسية	اسبوعية	شبل دموس	•	نيويورك
الصبح	•	•	خليل شاول	•	بونس ايرس
العائلة	ادبية	نصف شهرية	استبر مويال	•	القاهرة
المدارس	•	•	(٠٠٠٠)	•	•

المتاز	سياسية	اسبوعية	مصطفى الشاطر	١٨٩٩	القاهرة
الحياة	ادبية	شهرية	محمود فريد وجدي	»	السويس
الارشاد	»	نصف شهرية	(...)	»	الاسكندرية
الكوكب المصري	»	اسبوعية	مصطفى كامل	»	»
صدى الجنوب	دينية	»	الخوري يوحنا	»	بونس ايرس
الاعتدال	ادبية	شهرية	جمعية الاعتدال	»	الاسكندرية
مرآة الغرب	سياسية	نصف اسبوعية	نجيب دياب	»	نيويورك
اللواء	»	يومية	مصطفى كامل	»	القاهرة
الرئيس	طبية	شهرية	خازن وحوراني	١٩٠٠	بيروت
المفتاح	ادبية	»	توفيق عزوز	»	القاهرة
حبل الهدى	»	نصف شهرية	احمد سعيد	»	»
التمثيل	سياسية	شهرية	محمد امين	»	»
الشرقية	»	اسبوعية	العطار وحسنين	»	الزقازيق
الرياض	ادبية	شهرية	رياض الدين	»	لكناو (الهند)
الصواب	سياسية	اسبوعية	الخوري ومراد	»	ريوجانيرو
الوطنية	ادبية	نصف شهرية	نعوم مكرزل	»	فيلادلفيا
الصبا	فكاهية	اسبوعية	.....	»	الزقازيق
العصر الجديد	ادبية	»	اسكندر شلهوب	»	القاهرة
الاسبوع	»	»	سليم قبعين	»	»
الانتقاد العام	»	شهرية	محمد راغب	»	»
الخبير	سياسيه	اسبوعية	عثمان الحاني	»	»
النظارة	ادبية	»	(ع)	»	»
المجلة المصرية	»	نصف شهريه	خليل المطران	»	»
الدائرة	»	»	عيسى معلوف	»	نيويورك
الشمس	»	شهرية	متى وسمعان	»	دمشق
الاخاء	»	»	محمود كامل	»	طوخ
الخزانة	»	»	يوسف الخازن	»	القاهرة

القليوبية	ادبية	اسبوعية	محمد زكي	١٩٠٠	بنها
عين شمس	علمية	شهرية	اقلوديوس لبيب	»	القاهرة
القدس الشريف	»	اسبوعية	(طه المحتسب بالله)	»	»
الصباح	سياسية	»	عبده بدران	»	اسكندرية
الافكار	»	نصف اسبوعية	محمد حلمي صادق	»	القاهرة
المصباح الجديد	»	اسبوعية	ابراهيم نجار	»	»
المجلة الصحية	صحية	شهرية	اديب زيات	١٩٠١	»
الروايات الشهرية	فكاهية	نصف شهرية	يعقوب جمال	»	»
المرأة في الاسلام	ادبية	»	ابراهيم رمزي	»	»
مجلة المجلات	»	شهرية	محمود حبيب	»	»
شجرة الدر	نسائية	»	سعديه سعد الدين	»	اسكندرية
المرأة	»	نصف شهريه	(أنيسه عطاالله)	»	القاهره
الخزان	سياسية	اسبوعية	نجيب هاشم	»	»
الصخرة	دينية	»	جبرائيل قرقاز	»	نيويورك
النصير	سياسية	»	عبود ابي راشد	»	الحدث
الكنيسة الارثوذكسية	دينية	شهرية	جمعية النشأة	»	القاهره
المنارة	ادبية	اسبوعية	الجمعية المارونية	»	سان باولو
الابتسام	سياسية	»	جورج يارد	»	القاهرة
العدل	»	»	شكري انطون	»	ريوجنايرو
الشرق المصور	ادبية	نصف شهرية	احمد كامي	»	القاهرة
الطب الحديث	طبية	شهرية	الفريد عبد	١٩٠٢	»
الامل	سياسية	اسبوعية	بشير انطاكي	»	»
العاصمة	»	»	شاكر ابالظه	»	»
الاستقلال	قضائية	شهرية	نجيب شقرا	»	»
المصوّر	سياسيه	اسبوعية	خليل زينية	»	»
العمران	»	»	عبد المسيح انطاكي	»	»

العجائب	سياسية	اسبوعية	محمد فوزي	١٩٠٢	القاهرة
الرشيد	«	«	ابراهيم فهمي	«	«
لاحكام الشرعيه	قضائيه	شهريه	حسن حماده	«	«
الاقبال	ادبية	اسبوعية	عبد الباسط الانسي	«	بيروت
التلميذ الشرقي	«	شهرية	حسني روحي	«	القاهرة
التيمس المصري	سياسية	اسبوعية	سالم سيدهم	«	«
جراب الكردي	هزلية	«	انطون زريق	«	نيويورك
الصياد	ادبية	«	سيد مصطفى	«	القاهرة
الرموز	رمزية	نصف شهرية	رشيد خوري	«	سان باولو
التهذيب	ادبية	اسبوعية	مراد فرج	«	القاهرة
المصري	سياسية	«	قاسم محمد	«	«
المحيط	ادبية	شهرية	عوض واصف	«	«
السلام	سياسية	اسبوعية	شمعون وتحاس	«	بونس ايرس
الحوادث	«	يومية	امين عواد	«	القاهرة
الفريق	«	اسبوعية	علي علوي	«	«

هذه هي الصحف العربية التي ظهرت في اثناء العشر السنين الماضية الاّ ما ربما فاتنا ذكرهُ سهواً . وعددها ٢١٣ جريدة لم يبق منها حياً الى اليوم الاّ اقل من عشرها

عجائب المخلوقات

شجرة اللبن

الاجسام الحية اما نبات او حيوان ولكل من هاتين المملكتين خصائص عامة تميزها عن الاخرى . فالانسجة الحيوانية غير الانسجة النباتية والمفرزات الحيوانية غير المفرزات النباتية . ولذلك قسموا الاطعمة الى حيوانية ونباتية وفرقوا بينهما بحدود واضحة . على ان تلك الحدود اخذت تضعف بتوالي التجارب والاختبارات على رأي اصحاب الارتقاء حتى كادوا يجزمون باتصال المملكتين ووحدة اصلها مما لا نخوض فيه الآن

على ان المقرر بالاستقراء والتجربة ان في المواد النباتية ما يشبه المواد الحيوانية كل الشبه وخصوصاً المفرزات · والعصارات فان بعض اصناف النبات يفرز عصارة عرفوا بالتحليل الكيماوي انها كثيرة الشبه بالببسين الذي تفرزه المعد الحيوانية · وبعضها يفرز شمعاً مثل شمع النحل تماماً والبعض الآخر وجدوا في حبوبه مادة العاج (سن الفيل) · ومن هذا القبيل شجر اللبن فانه يفرز سائلاً تركيبه مثل تركيب اللبن (الحليب) الذي يغتذي به الاطفال



اهل المكسيك يستخرجون اللبن من شجرته

والشجرة المذكورة من الفصيلة الدفلية يقال لها بالاصطلاح النباتي Galactodendron Utile تنبت في اواسط اميركا · وهي تباينات كثيرة ومنها المنشور شكله في هذا الرسم وقد تتعالى اشجاره كثيراً حتى يبلغ ارتفاعها ثلاثين متراً · ورقها يبضي الشكل ابيض الاسفل زهوره صفراء · بذوره احادية المبيض وينمو خصوصاً في فنزويلا حيث تقل الامطار · وقد يمر على الشجرة اشهر لا تصيبها نقطة من الماء حتى يخال لمن يراها انها

مائلة فاذا جرحها بمدية انسكب منها سائل ابيض كثير الشبه باللبن رائحته بلسمية خفيفة وطعمه يشبه القشدة الحلاة وهو مغذٍ يمكن تناوله بكميات كبيرة صباحاً او مساء ولا يحدث عنه ضرر مطلقاً ٠ لكنه لزج القوام اذا عرض للهواء غشيته مادة صفراء متجمدة كالجبن

اكتشف هذه الشجرة اسكندر همبولت ووصفها وذكر خصائصها واقتدى به غيره ودرسوها وفي جملتهم الموسيو بوسنيول فحللوا لبنها فوجدوه كثير الشبه باللبن الحيواني ولكنه اكثر شبهاً بالقشدة ووجدوا فيه كمية كبيرة من شمع يشبه شمع العسل حتى اشاروا بتربية هذا الشجر للانتفاع بشمعه ٠ واليك تحليل هذا اللبن على رأي بوسنيول باعتبار الاجزاء في المئة

شمع ومواد صابونية	٣٥و٢
سكر	١و٥
صمغ يتحوّل الى سكر	١و٣
كاسين البوميني	١و٧
قصفات وغيرها	٠و[illegible]
مواد مختلفة	١و٨
ماء	٥٨و

ثم حلله آخرون فوجدوه اقرب الى تركيب القشدة منه الى اللبن وهاك تحليلها :

	في القشدة	في اللبن الباقي
زبدة ومواد دهنية	٣٤	٣٧و
سكر	٤	٣و٨
قصفات الكاسين	٤	٣و٣
ماء	٥٨	٥٨و٠

فترى من ذلك ان التركيب يكاد يكون واحداً في المادتين ٠ والشجرة المذكورة تنمو في الصحاري الجافة فهي كثيرة النفع للسياح وغيرهم ممن يسافرون في البر على القوافل فانهم قد يكونون عطاشاً او جياعاً ولا ماء معهم ولا غذاء فاذا كسروا قشرة هذه الشجرة درت لهم ما يشبعهم ويرويهم

مطبوعات جديدة

تكاثرت المطبوعات الواردة الينا للتقريظ حتى ضاقت صفحات الهلال عن تقريظها تخوفاً من تراكمها بتوالي الشهور بحيث نضطر الى اغفالها رأينا ان نختصر في وصفها فنرجو من اصحابها عذراً

﴿ رباعيات ابي العلاء ﴾ من جملة اشتغال الافرنج باللغات الشرقية وآداب المشارقة انهم نقلوا الى السنتهم اشعاراً لشاعر فارسي يعرف بعمر الخيام وشرحوها فاقتدى بهم حضرة امين افندي ريحاني احد نوابغ السوريين في اميركا فنقل رباعيات ابي العلاء المعري الشاعر العربي الى الانكليزية بعبارة شهد له كتبة هذه اللغة انها من احسن عباراتهم . ولا غرو فان ريحاني افندي مشهورٌ بين الجالية السورية في العالم الجديد بحدة الذهن وسعة الاطلاع وقوة العارضة . وقد عنيت في نشر هذه الرباعيات احدى شركات الطبع في نيويورك فطبعتها في كتاب صفحاته تربو على ١٥٠ صفحة وفي الصفحات بياض كثير فياليتها نشرت الاصل العربي بازاء الترجمة الانكليزية اتماماً للفائدة ولعلها فاعلة ذلك في الطبعة الثانية . وهاك اسم الكتاب بالانكليزية واسم ناشريه

« The Quatrains of Abu'l-Ala »

Doubleday, Page & Co 34 Union Square, New York

﴿ الكلية الشرقية ﴾ هي مدرسة كبرى في زحلة (لبنان) اسستها الرهبانية الباسيلية الحناوية البلدية للروم الكاثوليك عام ١٨٩٨ وقد ثابرت على العمل في التعليم والتهذيب من ذلك الحين . وبين يدينا نسخة من تقريرها لسنتها الخامسة وفيه شرح مطول عن كل اعمالها وشؤونها ورسوم المدرسة وعمدتها واساتذتها وتلامذتها واسماء التلامذة ورتبهم وشروط التعليم واساليبه وقوانين المدرسة وتفصيل العلوم باعتبار الصفوف وغير ذلك . فنرجو لهذه المدرسة فوق ما حازته من النجاح والاقبال لاننا لانزال في حاجة الى التعليم اكثر من حاجتنا الى اي شيء آخر

﴿ نوبار باشا ﴾ هو كتاب خاص بترجمة نوبار باشا وزير مصر وينطوي تحت هذه الترجمة تاريخ مصر وادارتها ونظاماتها وعلاقتها بالدول الاخرى في اثناء نهضتها الاخيرة . لان نوبار عاصر كل امراء العائلة الخديوية وتولى اهم مناصبها وكان له شأن عظيم في تأسيس اكثر اداراتها ومصالحها . فالكتاب جدير بالمطالعة وهو تأليف حضرة

نجيب افندي مخلوف ويطلب من مكتبة الهلال بمصر وثمن النسخة مجلدة عشرة غروش واجرة البريد قرش ونصف

﴿ ارشاد الالبا ﴾ اهدانا حضرة احمد افندي حسن طباره محرر جريدة ثمرات الفنون في بيروت كتاباً من تأليف الشيخ طاهر الجزائري الشهير عنوانه « ارشاد الالبا الى طريق تعليم الف با » سلك فيه مسالك التعليم الذي قرّره أئمة اللغة العربية وواضعو قواعد العلوم الادبية . وهو المرقاة الاولى من مراقي علم الادب — ويطلب من طباره افندي وثمنه اربعة قروش

﴿ المقامات العشر ﴾ وأهدانا حضرته ايضاً كتاب المقامات العشر لطلبة العصر انتخبها من المقامات الحريرية وشرح الفاظها اللغوية الشيخ محمد المبارك الجزائري وهي تطلب منه ايضاً وثمن النسخة ثلاثة قروش

﴿ مرشد السائل في منتخبات الرسائل ﴾ هو كتاب الفه حضرة برسوم افندي مشرقي وفيه امثلة من الرسائل والمخاطبات كالتهاني والتعازي والعرضحالات ونحو ذلك . وهو يطلب من المكتبة المشرقية ومكتبة الهلال وثمن النسخة قرشان ونصف والبريد نصف قرش

﴿ ارتياح الفكرة من جهة الكلرة ﴾ كتاب لحضرة احمد افندي رفعت التاجر بالفيوم وفيه ابحاث في الكولرا وعلاجها والوقاية منها والعدوى بها وسير الصحة والاشاعة بالتسمم وغير ذلك وهو يطلب من كل المكاتب الشهيرة وثمن النسخة قرش والبريد مليمان

﴿ الطاعون او التيفوس البقري ﴾ هي رسالة وافية في هذا الموضوع لمؤلفها الدكتور محمد صفوت وتفيد خصوصاً الاطباء البيطريين والشربين والعمد والمشائخ ونظار الاقسام وضباط الصحة وعمال الكورنتينات والمحامين والنيابات ورجال الضبط وغيرهم ممن تتعلق بهم امر المواشي والزراعات . وفيه ابحاث في اصل التيفوس البقري واعراضه وعلاجه وما صدر بشأنه من الاوامر العالية و يطلب من حضرة المؤلف بمصر

(حياة اميل زولا) هو كتاب ألفته السيدة استير مويال صاحبة مجلة العائلة اقتطفته من اوثق المصادر وفيه تفصيل حياة هذا الكاتب من طفوليته الى وفاته ومنتخبات من اقواله وكيفية الاحتفال بدفنه وملاحظات وانتقادات وهو يطلب من مكتبة الهلال وثمن النسخة عشرة قروش واجرة البريد قرش

(زجر النفس) هو كتاب ديني ينسب لهرمس الحكيم نظر فيه وصححه وعلق حواشيه الخوري فيليمون الكاتب احد رهبان دير المخلص . وهو يطلب من مكتبة

الهلال وثمن النسخة اربعة قروش والبريد نصف قرش

(بحر الآداب) هو كتاب مدرسي تأليف خ • ج • مفتش اللغة العربية في مدارس القرير بمصر وقد ضبطه بالشكل الكامل وضمنه كثيراً من النصائح الادبية والفوائد العلمية وجمله اجزاء صدر الجزء الاول منها مطبوعاً طبعاً متقناً للمرة الثالثة على ورق جيل وهو المعول عليه في مدارس القرير وغيرها لسهولة طريقته وكثرة فوائده و يطلب من مؤلفه ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ثلاثة غروش

(آدم وحواء) هي رواية تشخيصية شعرية نثرية تأليف الخوري فيليمون الكاتب وقد مثلت في صور في هذا العام ثم نشرت في كتاب على حدة • موضوعها تمثيل حال آدم وحواء في الجنة وأسباب سقوطهما • وهي تطلب من مكتبة الهلال وثمن النسخة ثلاثة قروش والبريد نصف قرش

(الوالدة الظالمة) هي رواية ادبية غرامية تاريخية تأليف أحمد افندي السيد بمطبعة جريدة الراوي بمصر • الغرض منها بيان الاضرار الناجمة عن اكراه الشبان والفتيات على الزواج بمن لا يريدون • وهو موضوع لا تزال بلادنا في حاجة الى مثله والكتاب يباع في مكتبة الهلال وثمنه قرشان واجرة البريد عشرون بارة

﴿ اداب الفتى والفتاة ﴾ اهدانا حضرة علي افندي فكري احد موظفي الكتبخانة الخديوية ثلاثة كتب نفيسة تتعلق باداب الفتيان والفتيات • الأول « آداب الفتى » يبحث في كيف يربى الابناء وقانون الادب وقانون الصحة ودروس الحياة مع رسائل ادبية وعظية ووصايا وغير ذلك • والثاني « آداب الفتاة » وفيه ما يلائم الفتيات من هذا القبيل ادبياً وصحياً ودينياً • والثالث « مسامرات البنات » وفيه ما يحسن بالبنات الاقتداء به والاستفادة منه • وفيه مقالات وشذرات في احوال البنات وعلاقتهن بالعائلة على اسلوب لطيف جزيل الفائدة • وبالجملة فان هذه الكتب من احسن ما كتب في هذا الموضوع فنثني على حضرة المؤلف ونرجو الرواج لمؤلفاته لان رواجها دليل على رغبة العائلات في التربية الصحيحة • وهي تطلب من مؤلفها وثمن الكتاب الاول ٤ قروش والثاني ٣ والثالث ٣ ما عدا اجرة البريد

﴿ السحر الحلال في شعر الدلال ﴾ جبرائيل الدلال شاعر عصري من اهل حلب عني حضرة قسطاكي افندي حمصي احد ادبائها بنشر ترجمة حياته وامثلة من نظمه في كتاب صفحاته ٤٤ صفحة مصدر برسم صاحب الترجمة ويباع في المكاتب الشهيرة

خليل غانم

قال فقيد الكثلكة البابا لاوون الثالث عشر « اني اكره الخطيئة واحب الخاطئ » وهي آية ذهبية وحكمة خالدة تجمع كل الفلسفة وتجعل العالم اسرة واحدة وابناءه اخوة في منزل كبير هو الدنيا كلها · ونحن بناء على هذه القاعدة الحكمية السامية نكتب كلمتنا اليوم عن خليل غانم فقيد الامة العثمانية

فقدت الدولة والامة العثمانية منذ اشهر رجلاً كبيراً وكاتباً بليغاً وعثمانياً صادقاً خدم الدولة سنوات عديدة فلم تفسح له القدرة في الاجل لاتمام فروضه نحو امته وبلاده · فاذا كان ابعده عنا مبدأوه السياسي فان الجامعة العثمانية تدنيناه منه فنحن بهذه الرابطة نكتب عنه وبهذه الصفة ننظر اليه · فكل امرء حر الفكر والاعتقاد يعمل ما يقوده اليه ضميره · فقد كان فقيد الدولة خليل غانم يقوم بعمله اعتقاداً منه بانه يخدم امته وبلاده وضميره وذهب مرتاح الضمير مما فعله معتقداً انه عمل ما وجب عليه في هذه الدنيا نحو دولته واخوانه فاذا كان يكره بعض العثمانيين مبدأ الرجل وجب ان لا يكرهوا شخصه · ألا ترون القائد في ساحة الحرب يقف امام جثة عدوه الساقط في حومة الجهاد عن وطنه ومبدئه فيرفع امام جسده البارد قبعته و يأخذ له السلام والتعظيم العسكريين

ولد خليل غانم في بيروت عام ١٨٤٦ فتلقى العلم في مدرسة الآباء العازاريين في عنطوره وكان مع غطاس قطاس الذي توفي حديثاً في لبنان من انبغ طلبتها فلما خرج منها سافر الى فرنسا فأقام فيها شهوراً ولما عاد لوطنه استخدمه رشيد باشا والي سوريا اذ ذاك وعينه في قلم الترجمة الاجنبية · فلما عاد ذاك الوالي الى الاستانة ابى الفقيد ان يصحبه اليها فبقي ترجماناً لولاية سوريا بعده فكان منذ ذاك العهد محباً لصيانة الدولة راغباً في ان لا تصاب بأذى مدافعاً عن استقلال العثمانيين كارهاً لحماية الاجانب لم وقد وضع كتيباً في هذا المعنى انكر فيه حماية الاجانب للعثمانيين المسيحيين نشرته جريدة تركيا التي كانت تصدر في دار السعادة

وكان الفقيد مولعاً باللغة الافرنسية عاشقاً لها وقد كتب ونظم فيها المنظومات اللطيفة فمن شعره قصيدة نظمها على اثر الثورة الايطالية واستقلال ايتاليا واخرى قدمها للبرنس كلوتيد والبرنس نبرليون حينما زارا سوريا · غير ان السياسة كانت شاغله الشاغل فوجه نحوها فكره وروحه · ولما عين صاحب الدولة اسعد باشا والياً لسوريا عقب سقوط

وزارته احب صاحب الترجمة وادناه منه وجعله كاتم سره وكان من اكبر المعجبين بنزاهته وحرية ضميره وقد الح عليه حين رجوعه لدار السعادة ان يصحبه اليها فأجاب الفقيد الطلب وقدم الاستانة فعين في وزارة الخارجية ثم لم يطل العهد عليه في هذه الوزارة حتى عين رئيس غرفة الصدر الاعظم وترجمان الصدارة فأقام في هذا المنصب منذ عام ١٨٧٥ الى عام ١٨٧٧ وهو العام الذي انتدب فيه للنيابة عن سوريا في مجلس المبعوثان

ولما اجتمع هذا المجلس عهد اليه مدحت باشا ان يدرس مع آغوب باشا قوانين حكومات دول الغرب الدستورية ويأخذا منها ما يلائم حالة الدولة ففعل هذا باخلاص وذكاء

وقد كان في هذا المجلس عنوان الشهامة والغيرة والاخلاص فكان هو واحمد افندي مبعوث ازمير اذ ذاك يداً واحدة وروحاً واحدة حملا حملة شعواء على الحكومة لنفيها مدحت باشا . ومما يؤثر عنه في تلك الحملة المجلسية مقاومته لحسين فهمي باشا حينما اراد أن يمنع المجلس من المناقشة في نفي مدحت . غير ان الجنود الروسية كانت تسير ظافرة الى الاستانة فضاع صوت الخطيب اذ ذاك مع اصوات الامة التي كان يدفعها الخوف والحذر فبعد ان الغي المجلس بأيام صدر الامر لخليل غانم بان يغادر الاستانة فقصد باريس لاحقاً بصديقه مدحت باشا فتزوج فيها بسيدة افرنسية رزق منها فتاة توفيت في الثانية عشرة من سنيها . فأقام في تلك العاصمة بعد عودة مدحت منها للاستانة يكتب في جريدة الدبا ويحرر في غيرها كالمجلة الزرقاء وقد نشر كتاباً في الاقتصاد السياسي في مصر باللغة العربية هو احسن ما وضع في هذا الفن في هذه اللغة ثم تولى تحرير صحف عثمانية مراراً عديدة وكان رئيس لجنة الاحرار في باريس

واهم مؤلفاته كتابه الاخير الذي اصدره في جزئين ودعاه « تاريخ سلاطين بني عثمان » . ومن غريب الصدف انه عنون آخر مقالة نشرها في آخر العام الماضي بعنوان « انتهاء سنة جدّ وعمل » ولم يكن يعلم ان هذا العنوان سيكون « انتهاء حياة جدّ وعمل » ولا شك ان رجلاً بلغ هذا الاقتدار لخليق بأن يحزن العثمانيون جميعاً على فقده

ومما يؤثر عنه في بدء استخدامه انه جاءه صاحب دعوى يحمل اليه مبلغاً من المال يسأله ان يتوسط له لدى الوالي بأمر دعواه فطرده الفقيد وخرج الرجل من عنده يتعثر باذيال الخزي والخذلان . ثم خطر له ان يقصد صديقاً لخليل غانم من رجال المحاماة ففعل وسأله ان يتوسط له لدى الفقيد يسأله وساطته لدى دولة الوالي واعطاه ما كان حمله اولاً الى صاحب الترجمة فأجاب هذا الصديق الطلب واخذ المال وقصد خليل غانم في

منزله متوسطاً في دعوى الرجل فأجاب خليل غانم وساطة صديقه الذي اقتنع بالمال دون ان يأخذ النقيد درهماً منه

واخبرني نسيب له حادثاً آخر جرى للرجل يوم غادر دمشق فبيروت قاصداً الاستانة فبينما كان النقيد نائماً في غرفته تهدم المنزل الذي كان فيه وبقي جزء من تلك الغرفة معلقاً فوق راسه على قدر سعة السرير في الغرفة وقد نجا من الموت باعجوبة كبيرة

واما ايمانه فقد كان شديداً بدينه ومذهبه فكان يكره المناقشات الدينية وكلّ ما يدعو الى انكار الخالق وقد اخبرني عارف بسيرة حياته واخلاقه انه وضع كتاباً عنوانه «حياة المسيح» اثبت فيه بالبراهين العلمية والدينية الوهيته والكتاب لا يزال في خزائن حليلته في باريس لم يخرج الى عالم المطابع . تغمد الله النقيد برحمته واعاش دولته رجالاً مثله من ذوي المعارف والاستقامة والصدق انه على كل شيء قدير «عثماني صادق»

زيارة الحبيب

ركبتُ القطارَ الى من احبُّ * وما غيرُ قلبي له سائقُ
فسار ولكن بنيرانهِ * كأني به في الولا صادقُ
يراعي النظير فيجري سراعاً * ولحظي دليلٌ له سابقُ
يسير له ظلماتِ البعاد * بنور اللقاء ولا بارقُ
فيسترقُ الارضَ في سيرهِ * وما هو لولا الهوى سارقُ
فلما بلغتُ ادبارَ الحبيب * طرقتُ قليلاً من الطارقُ
فقلت محبٌّ دعاه الهوى * لينظر ما ابدعَ الخالقُ
فراشقته بسهام اللحاظ * بقلبيَ فليفتدى الراشقُ
فخدُّك وَردٌ وثغرك وِردٌ * يحومُ على مثله الوامقُ
اسير السهادِ طليقُ الرقادِ * فقالت فديتكَ يا عاشقُ
وها مهجتي عربون الوفاء * لينا بها قلبك الرائقُ
نعمتُ ولكن رغمَ الفؤاد * يجاذبني حسنها الفائقُ
بباخرة في بحار دموعي * وتقذفها قلبيَ الخافقُ
اردّدُ ذكرى ليالٍ تسامرَ * م فيها المشوق والشائقُ

(مصر) «ابراهيم زيدان»

تاريخ الآداب الاجتماعية

في الممالك الاوربية

١١ - الروس

السلاف — من يتجوّل في انحاء اوربا يذهل للفرق بين جيل السلاف سكان روسيا وما جاورها وبين الاجيال الاخرى التي تتألف منها شعوب اوربا الغربية

فالسلاف حلقة الاتصال بين الاجيال الشرقية والغربية وهم مرتبطون باشد ربط الاخاء والوفاق ولا بدّ ان يأتي يومٌ فيه تتحد شعوبهم سلطنة واحدة يستظل برايتها قبائلهم المندمجة الآن في سلك الممالك الكثيرة فيؤدون الطاعة الى زعيمهم الاكبر قيصر روسيا ويكون يوماً شديد الهول على اوستريا فتتقلقل ويختل توازنها وتضعف شوكتها بما يصيبها من الانقسام

والسلاف من الآريين في اسيا اختلطوا بالمغول وامتزجوا بالاجيال القديمة فتميزوا عن سائر الآريين الساكنين اوربا وانفردوا امة واحدة اتوا اوربا عن طريق البحر الاسود وبحر قزوين ونهر الفولغا وانتشروا في اوربا قبل التاريخ المسيحي ولم تقم لهم قائمة حتى القرن التاسع فان السكندنافيين تسلطوا عليهم وقادوهم الى الظفر والانتصار ثم امتزجوا بهم فصاروا امة واحدة تخشى امبراطرة القسطنطينية باسها ولكثرة ما جاوروا الروم اعتنقوا النصرانية على يد المرسلين اليهم نحو القرن العاشر

وظلَّ الروس متقلقلين يسيرون تارة الى الغرب وطوراً الى الشرق وآونة الى الشمال فتألف منهم امارات اهمها روسيا العظمى (نوفجرود) وروسيا الصغرى (كيف) وروسيا البيضاء (موسكو) وكانت هذه الممالك الثلاث تنضم يداً واحدة في بعض الاحيان وتنقلب على بعضها بالعدوان والحرب في غيرها

وفي القرن الثالث عشر غزا التتر المغول البلاد بقيادة زعمائهم اسباط جنكيزخان الشهير فاكتسحوها وتولوا حكومتها وانما اذنوا بسكانها ان يوالوا تنصيب امرائهم كالعادة وجاهر الروس بعداوة الغزاة مراراً لكنهم اخفقوا فيها جميعاً . وفي القرن الرابع عشر استولى تيمورلنك على موسكو فلم يبق سوى غربي روسيا وهذا انضمَّ الى مملكة ليتوانيا

وفي القرن الخامس عشر تفرقت كلمة التتر فتسنى لايفان امير موسكو ان يرفع نير حكومتهم عن شعبه ثم غزاهم واستولى على ازان واتبع ذلك بغزوة روسيا الكبرى فضمها الى امارته وفي القرن السادس عشر نهض ايفان الرابع فأجلى التتر عن سائر انحاء البلاد واستولى على استراخان وامتدت شوكته الى بحر قزوين لكن الاسوجيين والبولانديين غنموا منه عدة ولايات في الغرب



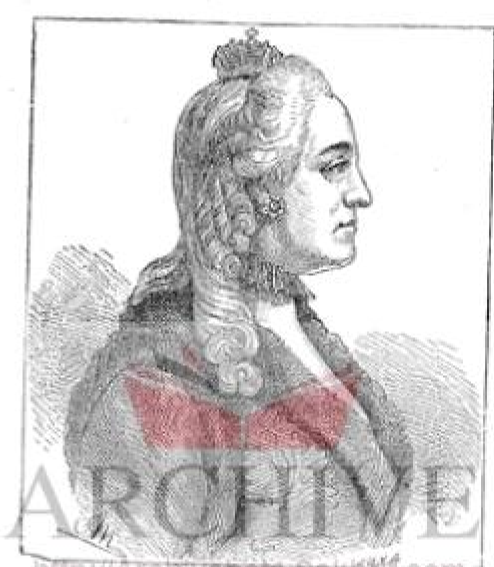
(بطرس الاكبر)

وفي القرن السابع عشر رقيت الى تخت ملك روسيا اسرة رومانوف الشهيرة وفي اواخر ذلك القرن تولى الملك بطرس الاكبر . وبعد ان ذاق العذاب من شارل الثاني عشر ملك اسوج عاد فقهره واستولى على جزء كبير من اسوج لذلك العهد ووضع في بعض ماربحه من البلاد اساس مدينة بطرسبرج التي اصبحت عاصمة الروس ومباءة ملكهم ودعا نفسه امبراطوراً وسلطان الروس المطلق

ومن اشهر ملوكهم كاترينة الثانية فانها اضافت الى روسيا جزءاً كبيراً من بولاندا استولت على البلاد الواقعة شمالي البحر الاسود وغنمت بلاد الجركس . وفي سنة ١٨٠٩ ضمت روسيا فنلاندا الى املاكها وفي سنة ١٨١٥ تعين القيصر ملكاً على جزء كبير من بولاندا عاصمته وارسو . لكنه لم يمض زمن طويل حتى اصبحت تلك المملكة جزءاً من روسيا واجبر اهلها على تعلم اللغة الروسية

وكانت بولاندا هذه في زمان عزها تعادل فرنسا واسبانيا مساحة سطح . وسكانها من

اول النازحين السلافيين الى اوربا احتلوا بولاندا بعد ان غادرها التيوتون والقوط صار بين في غربي اوربا وتنصر اهلها في القرن العاشر واعتنقوا المذهب الكاثوليكي وضخم ملكهم فحكموا بوهيميا ومورافيا وسيليزيا وبومرانيا وبروسيا ثم أفل كوكب سعدهم فسلخت عنهم املاكهم واقتسم بلادهم الروس والبروسيانيون والنمساويون



(كاترينة الثانية)

الروسيون اليوم يجهل الناس احوال الروسيين لقلة من يرونه منهم فان نبلاءهم الذين يسيحون في انحاء الارض والذين يتولون مناصب حكومتهم لدى الدول الاجنبية من اكثر الناس تهذيباً وعلماً ورقة وحسن اخلاق وهم بارعون في اللغات الاجنبية يحسنون التكلم بها كأنهم نشأوا في اكبر عواصم اوربا . ثم ان المشهور عنه روسيا من الدهاء السياسي وما لها من العظمة والمجد والسؤدد وحسن استعدادها الحربي وكثرة جيوشها تجعل لها في قلوب الناس منزلة عظيمة وشأناً خطيراً

على ان نبلاء الروسيين لايمثلون الأمة ولا خير في درس اخلاق موظفيها لمعرفة

الروسي البحت . ونحن ننقل هنا عن بعض كتبة الاوربيين ما لم من الاقوال فيهم : فقد قال احدهم « ان حكومة روسيا مطلقة لا معنى للدستورية فيها فالكبير فيها يطلب الخضوع التام الاعمى ممن هو ادنى منه وبين موظفيها من لا يحسبون الامانة حساباً كبيراً ولا يترددون في اتخاذ الجاسوسية مهنة لهم ولا يأنف الواحد من اسقاط زميله ليعلو شأنه بسقوط ذاك والرشوة والفساد ضاربان اطنابهما في البلاد وبالاجمال فالموظف الروسي يستعبد من دونه وهو رهن اشارة رؤسائه »



(نساء الروس في الثياب الرسمية)

ولباس الروسيين الوطني عراقية او قبعة سوداء او بيضاء يشدونها في رؤوسهم وفوق جباههم حتى تصل الى الحاجبين ورداء كبير غير ذي ازرار يصل الى القدمين لونه اسمر او ضارب الى الزرقة ويحتذون جزماً طويلة تصل الى الركبة ولبس الفرو شائع بينهم على ان الاغنياء منهم والمتعلمين يلبسون الثياب الافرنجية واكثر الطبقة العليا من ضباط الجيش منهم يرتدون اللباس العسكري

ويكثر الكهنة في روسيا وهم محترمون مبجلون ولباسهم حسن وشعورهم نظيفة وهم في غاية الوقار والهيبة ولهم نفوذ عظيم في شؤون الامة . والكنائس والمعابد منتشرة في البلاد حتى يقال ان في موسكو صوراً معلقة على كل جدار وفوق كل باب وفي الاسواق والمصارف والحوانيت والمخازن والدكاكين وترى القوم يصلون امام هذه الصور وفي المعابد والكنائس

ليل نهار ولا يمرّ بواحدة منها عامل او فلاح الا ويخلع قبعته ويرسم اشارة الصليب فهم مثال في التقوى والتدين ورجالهم يفوقون نساءهم من هذا القبيل خلافاً لمألوف في سائر البلدان

اما كنائسهم فليس فيها مايذكر من حسن الهندسة وفخامة البناء وانما يكثر فيها اواني الذهب والفضة والحجارة الكريمة وحلل كهنتهم مرصعة في الغالب بالجواهر

ويحترم الروسيون القيصر فهو ابو الشعب عندهم . واقدس الاشياء عند الروسي ارض ابائه ووحدة الامة بزعامة القيصر ووحدة الايمان وبقايا القديسين وقبور اجداده

ومن المعلوم ان فلاحي الروس عاشوا قروناً عديدة ونير العبودية في اعناقهم ولم يتحرروا الآ في عهد القيصر اسكندر الثاني لكنهم في الحالتين حافظوا في القرى والارياف على عادة متأصلة فيهم وهي تعيين مجلس ينظر في دفع الضرائب للحكومة او لساداتهم ايام الاستعباد واهل القرية الواحدة مرتبطون بربط الحقوق والواجبات المتبادلة والمسئولية . ومن عاداتهم التي تقرب من الاشتراكية ما يمارسونه من اعادة قسمة الارض بينهم كل ثلاث سنوات ولكل فلاح حق التصويت والراي في هذه القسمة والحكم للاغلبية

على ان حياة الفلاح الروسي تعيسة فالاراضي الزراعية تضيق بالزارعين وليس لديهم من المال ما يمكنهم من استعمال الطرق الحديثة في فن الزراعة . وبعدهم عن اسواق الدنيا العامة وصعوبة وسائل النقل في البلاد تنقص في اثمان محصولاتهم . وقد تفاقم هذا الخطب فيهم فهم يلجأون الى المدن الكبيرة والعواصم . ومع ان الصناعة لم تتحرك خطوة بعيداً في بلادهم لكنهم يصادفون في المدن من الاعمال ما يكفل لهم القوت ولذا نمت مدن روسيا في الزمن الاخير وكثر عدد سكانها . ويظن بعض العارفين ان حالة الفلاح اليوم لا تفضلها في زمن الاستعباد فهو مستغرق في الدين فقير الى حد المتربة ويعلل عن ذلك بثقل الضرائب التي تفرضها الحكومة فهي تساوي قيمة نصف عمله في السنة واجور الاطيان باهظة جداً لتسابق الفلاحين الى استئجارها بعد ان ضاقت بهم الارض المزروعة كما تقدم . فهم بين ثقل الضرائب وطمع المرابين من افقر خلق الله . فلا بدع اذا امتدت فيهم روح الثورة وكثرت الجمعيات السرية في بلادهم

والمرابون آفة روسيا اليوم وهم في الغالب من الفلاحين الذين توفقوا الى اقتصاد بعض الالوف وادخارها وهم من اقسى خلق الله واظلمهم ووطأتهم على الفلاحين شديدة ثقيلة . ولما كان فصل الشتاء في روسيا بارداً طويلاً يصعب فيه العمل كان الفلاح فيه

على اشد حاجته الى اقتراض الدراهم فياخذها من المرابي على شرط ان يوفيه قيمتها بتعبه وعرق جبينه في الصيف القادم او ما يتلوه من الاعوام حين يدعوه ذاك · ولا مشاحة في ان المرابي يطلب اليه القيام بتعيده حين تكون الاجور في معظم ارتفاعها والحاجة الى العمل في البلاد ماسة شديدة

وعدد الاشراف والنبلاء في روسيا كثير جدًّا لكن نفوذهم لا يقابل كثرتهم لان القيصر هو سلطان البلاد المطلق وهو مرجع السطوة والنفوذ فمن نال شيئًا منها ففي خدمته ولهذا كان شرفاؤهم يهتمون اهتماما شديدًا في خدمة الحكومة سواء كانت الخدمة في الجيش او في الادارة واكثر شبانهم يدرسون ويتعلمون لنيل تلك الغاية · ولما كانت وظائف الدولة اقل من ان تسع جميع الطلاب نقم الخاسرون على الحكومة واشربوا حب الثورة والفوضوية وامتد منهم هذا الروح الى تلامذة المدارس الكبرى حتى صارت التلمذة مضارعة في عرف اهل البلاد للنيهيليستية

ولكن روسيا في حاجة كبيرة الى الاصلاح فلا يستغرب من بعض سكانها قيامهم على الحكومة وتجهيم اعمالها

والروسيون اليوم يهتمون باحتذاء حذو الغربيين في تمدنهم وصنائعهم لكن حكومتهم تضيق على الكتاب واصحاب الجرائد فيها وقد نبغ بينهم في هذا القرن نفرٌ من مشاهير الكتاب لجأ بعضهم الى اوروبا وبقي البعض الآخر في روسيا

❊ القوزاق ❊ جيل من الامم الكثيرة الخاضعة لحكم القيصر اختلطوا بجميع الشعوب التي جاورتهم فكانوا ينصرون الروسيين على الاتراك وطورًا ينقلبون عليهم وآونة يهاجمون التتر فيغنمون منهم الجواري والنساء

وكان قوزاق الدنيبر اعداء لروسيا ظاهروا عليها ملوك بولاندا وشارل الثاني عشر ملك اسوج لكنهم لم يفلتوا من يدي بطرس الاكبر فأثخن فيهم واخضعهم وناوأ قوزاق الدون ملوك روسيا زمانًا طويلاً وجاهروا باستقلالهم وهم ينتخبون حاكمهم ويلقبونه اتمان وانما يشترط عليهم الآن ان يكون الاتمان ولي عهد الاريكة الروسية

والقوزاق من افضل جنود روسيا ومن خيرة الفرسان وقد ابلوا بلاء حسنًا في مواضع كثيرة وهم الذين فتحوا بلاد التتر في جبال اورال وبلاد سيبيريا فامتلكتها روسيا وليس للعلم بينهم شان يذكر والاسلامية دين الكثيرين منهم والنساء يقمن بجميع اعمال البيوت وصناعة الرجال الحرب على ان لبعضهم مواشي كثيرة لا يعلم من اين

اتوا بها و بينهم فريق يحسن الزراعة



(القيصر نقولا الثاني بلباس القوزاق)

سكان لبلاندا وفنلاندا لبلاندا وفنلاندا بقعتان من الارض واقعتان في الشمال الغربي من روسيا واختلط سكانهما بالتيوتون القدماء مع اختلافهم عنهم في الجنس اذ هم مغولون انقسموا الى فرق شتى يغلب فيها قصر القامة واستدارة الراس وضيق الجبهة وانبساط التقاطيع ونتوء عظم الخد وخفة اللحية وثخن الشفتين وصهب الشعر او شقرته . وكانوا في اول عهدهم منقطعين الى الصيد والقنص ثم اخلدوا الى السكينة واتقنوا الزراعة وتربية المواشي واكثرها من حيوان الرنة . وهم كالبدو في كثرة التنقل والطواف ارتياداً للكلإ للرنة — هؤلاء هم اللبلانديون اما سكان فنلاندا فاحسن منهم حالاً واكثر استقلالاً واشد تعلقاً بالحرية . وقد كان لاختلاطهم بالاسوجيين يوم دخلوا في طاعتهم تأثير شديد في صفاتهم ولذا فهم اليوم اشد الشعوب الخاضعة لروسيا استقلالاً . على ان هذه الدولة قامت

منذ سنين تريد ارغامهم على تغيير نظاماتهم وقواعدهم والجري بحسب سننها وقواعدها فاجبرتهم على تعليم اللغة الروسية في مدارسهم وهم يزيدون على اللابلانديين عدد نفوس

ويقال في اللابلانديين بوجه الاجمال انهم قذرون طاعون متهافتون على شرب المسكرات اما اهل فنلاندا فأرق منهم وهم محبون للضيافة واصحاب امانة واجتهاد لكنهم شديدو النقمة والغيرة قساة القلوب وهم كاللابلانديين في القذارة والفريقان يدينان بالمذهبين الارثوذكسي والانجيلي

وفي روسيا طوائف اخرى صغيرة لا محل لوصفها هنا . اما الجركس ومن جاورهم فهم من سكان آسيا



كندرجارتن او رياضة الاطفال

(القاهرة) متري افندي قسيس

ما هو الكندرجارتن الذي جاء ذكره صفحة ٥٣٢ من هلال السنة الماضية وكيف يكتب بالاحرف الافرنجية

الهلال — الكندرجارتن لفظة المانية (Kindergarten) مركبة من لفظين معناها «حديقة الاطفال» وضعها فريدريك فروبل الفيلسوف الالماني المتوفى سنة ١٨٥٢ وكان من علماء الانسان وفلاسفة الاخلاق فرأى في اثناء ابحاثه في طبائع النبات ان حال الشجرة من الاستقامة والاعوجاج او الصحة والمرض انما يتوقف على ما يطرأ عليها في اوائل ادوارها من المؤثرات فعمد الى تطبيق ذلك على الحيوان وخصوصاً على الانسان . ولم يكن فروبل اول من لاحظ تلك المشابهة فقد سبقه الى القول في ذلك باكون الفيلسوف الانكليزي المتوفي سنة ١٦٢٦ وظل قوله محصوراً في حيز الفكر حتى قام بستالوسي

الارقام — اصلها وتاريخها

(القاهرة) حسن بك محمد

كيف توصل الانسان الى استعمال الارقام في العدد وهل هي شائعة عند كل الامم ولماذا جعلوا اساسها العشرة ولم يجعلوه سبعة كما فعلوا بالاسابيع . ولماذا تسمى عندنا هندية وعند الافرنج عربية

❊ الهلال ❊ العدّ بالارقام قديم جدًّا وقد احتاج الانسان الى العد قبل احتياجه الى التكلم فقضى اجيالاً عديدة قبل ان تولد اللغة وهو يعدّ بالاشارات . واساس العدد عنده الاصابع ولا يزال اثر ذلك باقيًا الى اليوم . فان الخرس حتى في اعرق الامم في المدنية يعدُّون على اصابعهم . وفي لغات الامم المتوحشة الفاظ تؤيد هذا القول فان اهل الزولوس اذا أرادوا التعبير عن الستة قالوا « تاتيسيتوبا » وتفسيرها في لسانهم « أخذ الابهام » ومعنى ذلك ان الحاسب عدّ اصابع احدى يديه وضم اليها الابهام من اليد الاخرى . ولهذا السبب اصبح لفظ اليد والقدم والانسان اعدادًا في كثير من اللغات . فان بعض قبائل الهنود على ضفاف نهر اورينوكو باميركا الجنوبية يعبرون عن الخمسة بقولهم « اليد كلها » وعن الستة بقولهم « واحد من اليد الاخرى » وهكذا الى العشرة فيقولون « اليدان » و يعبرون عن الاحد عشر بقولهم « واحد الى القدم » ثم « اثنان الى القدم » وهكذا الى الخمسة عشر فيقولون « كل القدم » ثم « واحد الى القدم الاخرى » و يتدرجون على هذه الكيفية الى العشرين فيقولون « انسان » ثم يقولون « واحد الى ايدي الرّجل الآخر » اي واحد وعشرون . ولا يزالون على نحو ما تقدم الى الاربعين فيقولون « رجلان »

فاذا علمت ذلك هان عليك تعليل السبب في اتخاذ العشرة اساسًا للعدّ لانها مجموع اصابع اليدين . والظاهر ان اجدادنا جعلوا قاعدة العدد اولاً الخمسة لانها اصابع يد واحدة ثم جعلوها العشرة لسبب لانعلمه . فان زنوج السنيغال في غربي افريقيا لا يزال اساس العدد عندهم الخمسة فاذا عدوا الى الخمسة وارادوا ما بعدها قالوا « خمسة واحد . خمسة اثنين . خمسة ثلاثة . الخ » كما نقول نحن « احد عشر . اثنا عشر . ثلاثة عشر . الخ » ولا يزال اثر هذا النمط من العدد محفوظًا في الارقام الرومانية التي كان الرومانيون يستخدمونها قبل استخدام الارقام الهندية كما سيأتي

على ان بعض الامم يجعلون اساس العدد العشرين . ومن هذا القبيل تعبير

الانكليز عن الثمانين بقولهم Fourscore اي اربعة عشرينات · وقول الفرنساويين لهذا المعنى Quatre-vingt · فيقول الانكليز Fourscore and three والفرنساويون يقولون Quatre-vingt trois اي ثلاثة وعشرون · و يدل ذلك على ان بعض قبائل الجرمان القدماء كانوا يعدُّون بالعشرين وهي مجموع اصابع اليدين والرجلين · على ان الجمهور يعدون بالعشرات وعليها وضعت الارقام

	الهيروغليفي	الهيراتي	الفينيقي	التدمري	السرياني
١	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٢	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٣	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٤	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٥	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٦	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٧	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٨	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٩	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
١٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
١١	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
١٢	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٢٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٢١	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٣٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٤٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٥٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٦٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٧٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٨٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٩٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
١٠٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٢٠٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
٣٠٠	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]

(ش ١) الارقام القديمة

أما وضع العلامات للدلالة على تلك الاعداد فانهُ طبيعيٌّ وقد وصل بالتدريج الى ما نسميه بالارقام · و بديهيٌّ ان الانسان لما أراد في اول عهد الكتابة ان يدوّن عدداً عبَّر عن الواحد بخط او نقطة او عقدةٍ او فرضٍ في عودٍ فاذا أراد الاثنين ضاعفها كما يفعل كثير من القبائل المتوحشة في اميركا الشمالية الى اليوم وهكذا كانت تفعل الامم التي تمدنت قديماً

وربما ظل الانسان اجيالاً لا يعدُّ بغير هذه العلامات ولو تجاوز العشرة او المئة . ثم رأى في ذلك مشقة وتشويشاً . لانه اذا اراد التعبير عن المئة مثلاً رسم مئة خط او نقطة او عقدٍ بالخيط مئة عقدة او فرضٍ في العود مئة فرضة . فدلته الحاجة الى اختراع كناهُ مؤونة هذه المشقة . فوضع علامة للخمسة واخرى للعشرة ومثلها للخمسين والمئة والالف . فاذا اراد التعبير عن خمسة عشر مثلاً رسم العشرة والخمسة بجانبها او الثلاثين رسم ثلاث عشرات او ٣٥ رسم ثلاث عشرات وخمسة . على ان بعض الامم خالفت البعض الآخر في ذلك فلم تضع علامة للخمسة ولا للخمسين بل دلوا على الاولى بخمسة آحاد وعن الثانية بخمسة عشرات — كذلك فعلت الامم التي تمدنت قديماً في مصر وفينيقية وتدمر كما يؤخذ من آثارهم الباقية

وترى في الشكل الاول صور الارقام عند المصريين القدماء وبجانبها الارقام الميرانية المختلفة عنها ثم الارقام الفينيقية وتليها التدمرية ثم السريانية القديمة وقد تدرجت فيها تدريجاً

فترى الارقام الهيروغليفية ابسطها كلها لانها قاصرة على مضاعفة الواحد والعشرة والمئة تليها الارقام الفينيقية وفيها علامة خاصة بالعشرين ثم التدمرية وفيها علامة للخمسة واخرى للعشرين . ثم السريانية القديمة وفيها علامة للاثنين واخرى للخمسة ومثلها للعشرين فضلاً عن علامات الواحد والعشرة والمئة . فالسريانية خطت الخطوة الاولى نحو الارقام الهندية باتخاذ علامة خصوصية للاثنين . ولا يدل ذلك على ان الهندية مشتقة منها او مرتقية عنها اذ يتفق ان يقع ذلك على سبيل التوارد

وظل الانسان قروناً عديدة بعد ان تمدن وهو يحسب ويعدُّ قبل اختراع الارقام الخصوصية للآحاد اي ٩٨٧٦٥٤٣٢ المعبر عنها بالارقام الهندية . وبعد استنباط الاحرف الهجائية استعاضوا عن تلك العلامات باحرف منقطعة من اوائل الالفاظ الدالة على تلك الاعداد . فاليونانيون القدماء دلوا على الواحد بهذه العلامة (I) وهي خط بسيط يشير الى الوحدة من طبيعته . ودلوا على الخمسة بالباء (Π) وهي مقتطعة من (Πεντε) (خمسة) وعلى العشرة بالدلتا (Δ) وهي منقطعة من (Δεκα) عشرة وعلى المئة بهذا الحرف H وهو غير منقطع من اسم المئة عندهم ولعل لاستخدامه سبباً آخر . ودلوا على الالف بأوّل حرف من لفظ الالف عندهم وهو X من Χιλιοι (الف) والمظنون ان اليونانيين استخدموا هذه الاعداد من ايام صولون ولكنهم ينسبونها الى هيروديان الغراماطيقي الذي

وصفها في آخر القرن الثاني للميلاد

واقتدى الرومانيون باليونان في استخدام الاحرف بدل الارقام على نحو ما تقدم وان كانت لا تردّ كلها الى الالفاظ تدل على قيمها · فالارقام الرومانية هي I (١) و V (٥) و X (١٠) و L (خمسين) و C (١٠٠) و D (٥٠٠) و M (١٠٠٠) وهي لا تزال شائعة عند امم اوربا الى اليوم يستخدمونها في بعض الاحوال

ويقال نحو ذلك في استخدام الابجدية في اللغات السامية بدلاً من الارقام · وكان الاصل في استخدامها ان يدلوا بالحرف على موضعه من الابجدية باعتبار عدد ما قبله · فالاحرف العبرانية مثلاً ٢٢ حرفاً فكان الحرف الأخير (التاء) يقوم مقام ٢٢ ثم تفننوا بجعل الاحرف التسعة الاولى تنوب عن الآحاد التسعة والحرف العاشر وما بعده تدلُّ على العقود · ومن الحرف التاسع عشر الى ٢٢ على المئات · فكان اكبر عدد يعبرون عنه بها ٤٠٠ وهو التاء · واما العرب فعندهم ستة أحرف زائدة فصارت الابجدية ٢٨ حرفاً آخرها قيمته العددية الف وهاك الابجدية العربية وقيمة كل منها وهو ما يعبرون عنهُ بحساب الجمل على هذه الصورة :

ا	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ي	ك
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠
ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت
٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠
ث	خ	ذ	ض	ظ	غ					
٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠					

الارقام الهندية هي الارقام الشائعة في العالم المتمدن الآن ويسميها الافرنج الارقام العربية · والسبب في ذلك ان هذه الحروف استنبطها الهنود في زمن لا نعرفه والصفة المميزة لها « الصفر » وتخصيص كل عدد من الآحاد بعلامة خاصة الى التسعة وتحويل هذه الآحاد الى العشرات باضافة صفر الى جانبها والى المئات باضافة صفرين والى الالوف بثلاثة اصفار الى ما لا نهاية لهُ · وهي مبنية على مبدا اقتصادي لانها قاصرة على عشر علامات يعبَّر بها عن اي مبلغ يمكن ان يتصورهُ العقل مما لا يتأتى بالابجدية ولا بغيرها ·

٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
										الارقام الناناغاتية
										ارقام الاحافير الهندية
										الارقام الدفناجرية
										« العربية الشرقية
										« الغوبارية او العربية المغربية
										ارقام بوتيوس

(ش ٢) الارقام الهندية

والظاهر ان العرب اخذوا هذه الارقام عن الهنود في جملة ما اخذوه عنهم من العلوم الرياضية كالتنجيم والهيأة ونحوها في اواسط القرن الثاني للهجرة . ويظن بعض المحققين انها نقلت مع زيج حمله بعض اهل الهند الى بغداد سنة ٧٧٣ م . واول من شرحها من المسلمين ابو جعفر محمد الخوارزمي في القرن التاسع للميلاد ثم شاعت بين المسلمين فدولوا بينهم ومؤلفاتهم حتى اذا احتك بهم الافرنج في القرن الثاني عشر باسبانيا وأخذوا عنهم الحساب من كتاب ينسب الى الخوارزمي المذكور فسموه باسمه . ويظن رينو المستشرق الفرنساوي الشهير ان لفظ Algorism الافرنجية منحوتة من الخوارزمي (١) وهي اثر لفضل العرب على الافرنج في الحساب وكذلك Zero الافرنجية فانها منحوتة من « صفر » العربية . وشاعت الارقام الهندية في اوربا وسماها الافرنج ارقاماً عربية لانهم اخذوها عن العرب

وفي الشكل الثاني امثلة من الارقام الهندية القديمة وكيف تدرجت حتى وصلت الى ما كانت عليه حينما اخذها العرب وكيف تنوعت عندهم . وهي في كل حال تختلف عن الارقام الشائعة اليوم عندنا وعند الافرنج ولكن يظهر للتأمل مع ذلك انها من اصل واحد

فالارقام الناناغاتية (ش٢) كانت مستخدمة عند الهنود في القرن الثاني قبل الميلاد وتشبهها ارقام الاحافير الهندية وكلاهما قريبة من الارقام القديمة البسيطة . أما الارقام الدفناجرية فانها تمتاز عن السابقتين بوجود الصفر فضلاً عن اتمام تولد الارقام التسعة الاخرى . واقدم ما عثروا عليه من هذه الارقام مكتوب في نحو القرن الثامن للميلاد . ويلي ذلك الارقام العربية القديمة ويسمونها الشرقية وهي منقولة عن اصل مكتوب في القرن العاشر للميلاد في شيراز

(١) والواو في خوارزم تكتب ولا تلفظ

وتختلف عن ارقام هذه الايام ولكنها كثيرة الشبه بها . وكانت تختلف عن الارقام التي كان يستخدمها العرب في الاندلس وغيرها من بلاد المغرب كما ترى في الارقام الغوبارية (ش ٢) وهي التي كانت تستعمل في بلاد المغرب واخذها الافرنج في القرن الثاني عشر والشبه بينها و بين الارقام الافرنجية الشائعة اليوم ظاهرٌ

اما بوتيوس فهو من فلاسفة الرومانيين في القرن الخامس للميلاد و ينسبون اليه الارقام المرسومة في السطر الاخير (ش ٢) . وكان الافرنج يستخدمونها في اوربا حوالي القرن الخامس للميلاد ثم ضاعت قبل الفتح الاسلامي ولذلك زعم بعض الافرنج ان الارقام الهندية (او العربية) التي ظهرت في القرن الثاني عشر في اوربا ليست مما نقله العرب اليهم وانما هي عبارة عن احياء ارقام بوتيوس — قالوا ولعل المسلمين في المغرب اقتبسوا هذه الارقام عن الافرنج ثم عاد الافرنج فأخذوها عنهم — على ان مزاعمهم في هذا الشأن لا تزال ضعيفة ولا يزال جمهور مؤرخيهم مجمعين على ان الارقام الشائعة في اوربا الآن عن العرب وهؤلاء نقلوها عن الهنود



مولود يشبه القرد

(طنطا) علي افندي حلمي مأمور مركز طنطا سابقاً

قرأت في بعض الجرائد المصرية ان امرأة من اهل بعض القرى في الوجه البحري وضعت قرداً « وهو حملها الذي مضت تسعة اشهر عليه » فهل ذلك ممكن والابوان من بني الانسان واذا امكن فما قول علماء الطبيعة بشأنه

﴿ الهلال ﴾ الغالب ان المولود ليس قرداً صحيحاً بل هو طفلٌ وجهه يشبه وجه القرد وذلك ممكن . وقد نشرنا في بعض اهلة السنة الماضية صورة وجه رجل يشبه وجه الكلب تماماً . اما العلماء فيعدون هذا وامثاله من خوارق الطبيعة و يعلله بعضهم بتأثير يصيب الوالدة في اثناء الحمل من منظر او نحوه فيظهر اثر ذلك التأثير في الطفل و ينكر البعض الآخر هذا التعليل و يعترفون بغموض السبب الحقيقي الى اليوم

انتم عصاة لاتدخلون الشام ابداً فأخرجوهم عنها فقال بعضهم لبعض ما لنا الا البلد الذي ظفرنا به وقتلنا اهلهُ فرجعوا الى يثرب واقاموا بها وذلك قبل ورود الاوس والخزرج اياها عند سيل العرم باليمن فمن هؤلاء اليهود قريظة والنضير وبنو قينقاع وغيرهم » فيؤخذ من ذلك ان اليهود سكنوا يثرب في القرن الخامس عشر قبل الميلاد والظاهر ان بعضهم كانوا لايزالون على ما تعلموه من عبادة الاصنام بمصر ومنهم اقتبس الاوس والخزرج عبادة الصنم (مناة)

وقال المقريزي في كلامه عن كبس الشهور ان العرب تعلموا كبسها من اليهود الذين نزلوا يثرب على عهد صموئيل النبي (في القرن الحادي عشر قبل الميلاد) ولما خربت اورشليم على عهد طيطوس في القرن الاول للميلاد هاجر جماعة كبيرة من اليهود الى بلاد العرب واقاموا فيها واخذوا في نشر ديانتهم بين اهلها فلم يات القرن الثامن للميلاد حتى اصبحت الديانة اليهودية شائعة في كثير من بلاد العرب . وفي رواية ان اسعد ابا كرب ملك حمير هو الذي ادخل اليهودية بلاد اليمن حوالي القرن الاول قبل الميلاد

ويقول ابن خلدون ان اوّل من ادخل الديانة اليهودية بين العرب ذو نواس احد التبابعة ملوك اليمن وكان اسمه يوسف فتهودت معه اهل اليمن في اواخر القرن الخامس للميلاد وفي رواية اخرى ان اهل اليمن تهودوا في اوائل القرن الرابع . وبالجملة لم يات القرن السادس للميلاد حتى اصبحت الديانة اليهودية منتشرة في القبائل . واشهر يهود العرب بنو نمير وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب وبنو كندة



صحة العائلة

غذاء الاطفال وطعامهم (١)

لبن الام — غذاء الاطفال اللبن وافضله لبن الام ويتلوه في الفائدة لبن المرضع ثم لبن الحيوان وهو التغذية الصناعية . ولبن الام لا يقوم مقامهُ غذاء آخر لاطبيعي

(١) مقتطفة من كتاب « تدبير الاطفال في الصحة والمرض »

ولا اصطناعي وهو افضل غذاء الاطفال و يكفي وحده لتكوين اعضائهم وانماء ابدانهم

وقد تبين من الاحصاآت العديدة ان الموت بين الاطفال الذين يغذون بالدناعة يزيد كثيرًا جدًّا على الذين يغذون بلبن الثدي · ولذلك يطلب من الام ان ترضع ولدها من ثدييها عشرة اشهر على الاقل ولا يجوز ان تُتخلف عن ارضاعه الاَّ لمانع في صحتها و بنيتها · ولا يخفى ان الرضاع يعين على افراز اللبن من الثدي فلا يصاب بالاحتقان الذي يفضي احيانًا الى تكوين الخراريج ومعالجتها بالجراحة · وكذلك يعين على رد الرحم الى اصلها وقوتها فلا يداهمها الحمل على ضعف يوقعها في حال يصعب شفاؤُها ولهذا السبب تكثر الامراض في النساء اللواتي لا يرضعن اطفالهن

وفي الغالب يهزل الرضيع في الثلاثة الايام الاولى من ولادته لان كل ما يرضعه في ذاك الوقت هو مقدار صغير من سائل مائي قليل الغذاء يسمى الصمغ ولكنه يسترد ما خسره عند اليوم السابع · وهذا الصمغ ضروري للمولود حديثًا لانه يلين الامعاء وينظفها من الغائط الجنيني

واحيانًا يمتنع الطفل عن الرضاع في بدء الامر فتسقيه أمه ماء محلًّى بالسكر او خبزًا منقوعًا بماء الزهر يوضع في قطعة شاش ويمصها كما يمص حلمة الثدي وهذا الاصطلاح مضرٌّ جدًّا بصحة الرضيع لانهُ يجلب القيء والاسهال · على انه لا بأس اذا دهنت الحلمة في مثل هذه الاحوال بمادة حلوة لترغيب الطفل في الرضاع واذا فقد هذه الواسطة فيغذى بلبن البقر ممزوجًا بقدره ماء فاتر ومحلى بسكر اللبن يتناوله الرضيع بالملعقة او يرضعه من الزجاجة نحو ثلاث مرات في اليوم الى ان يتمرن على الرضاع من الثدي فيستغني عندئذ عن الطعام الاصطناعي

﴿ ترتيب اوقات الطعام ﴾ — يبدأ بارضاع الطفل بعد ان تستريح الام من عناء المخاض نحو ٨ — ١٢ ساعة · ولا بدَّ من ارضاعه في اوقات مخصوصة فيرضع في الستة الاسابيع الأُولى كل ساعتين ونصف مرة واحدة في اليوم ومن ذاك الوقت الى الفطام كل ٣ — ٤ ساعات مرة

وقد جرت عادة الامهات ان يرضعن الطفل كلما بكى ظنًّا منهن انه يبكي من جوع مع ان البكاء لا يدل دائمًا على الجوع وحده لان الطفل يبكي عن عطش او مغص او وجع في المعدة · ولكل من ذلك دلائل نذكر منها ما يأتي : —

أولاً : (الجوع) يدل عليه البكاء بعد قيام الطفل من نوم هادي وسكوته حالما يقع

نظره على الثدي او يشعر بالحلمة في فمه

ثانياً : (العطاش) من الواضح ان الطفل الذي يرضع كل خمس دقائق ولا يزال يبكي لا بد من ان يكون محتاجاً الى شيء آخر غير اللبن . ولا بأس اذا كان يسقى عندئذٍ ملعقة صغيرة من الماء الفاتر على سبيل التجربة فان افادته تكرر من حين الى آخر

ثالثاً : (المغص) من علاماته ان الطفل يصرخ فجأة صراخاً حاداً في فترات منقطعة . ويزرقّ وجهه وينتفخ بطنه وتبرد رجلاه ويداه ويطوي ساقيه فوق بطنه ويرفس بهما . ثم تزول هذه الاعراض كما جاءت فجأة على اثر التجشوء او البراز او الارياح المعوية

رابعاً : (وجع المعدة) يدل عليه القرف وسخونة الجلد ورائحة التنفس الكريهة . فهذه الاعراض تهيج البكاء في الطفل فتظن امه انه يبكي عن جوع فترضعه فيسكت لان لبن الثدي فاتر فيلطف وجع المعدة موقتاً ولكنه لا يلبث ان يعود الى البكاء ثانية فتحاول الام اسكاته بالرضاع ايضاً وهو خطاء عظيم لان ادخال الطعام على الطعام يزيد الاوجاع والصراخ ويفضي بالطفل الى سوء الهضم المعدي والمعوي فضلاً عن ان كثرة الرضاع تهيج حلمة الثدي وتشققها وربما افضت الحال الى تكوين الخراريج ومعالجتها بالجراحة

﴿ كيفية ارضاع الطفل ﴾ — ترضع الام طفلها في مدة النفاس وهي نائمة او مائلة على جنبها قليلاً ودائمة ظهرها بالوسائد من غير ان تحني الى الامام . وبعد انقضاء طور النفاس ترضعه وهي قاعدة ومنحنية قليلاً الى الامام بطريقة تتجه بها الحلمة الى ناحية فم الرضيع . وفي اثناء الرضاع يجب ان تفصل الثدي باصبعيها (السبابة والوسطى) عن انف الطفل ولا ترضعه اكثر من ١٠ — ١٥ دقيقة كل مرة . ويحترس من ترك الحلمة في فمه وهي نائمة

وقد يدرُّ الثدي بكثرة في اثناء الرضاع فيزعج الرضيع في البلع . ففي مثل هذه الاحوال يجب ان يضغط على قاعدة الحلمة ضغطاً خفيفاً بين اصبعي المرضع حتى لا ينزل منه الى فم الرضيع الا بقدر ما يوافق الحالة . واذا كان الادرار شحيحاً او بطيئاً فيزيد بعصر الثدي من قاعدته

ويغلب ان يكون اللبن غزيراً في اول الامر فيمتص منه الطفل اكثر من حاجته فتضيق عنه المعدة فيستفرغه وهذا النوع من الاستفراغ او القياء طبيعي لا يدل على مرض ولا يجب القلق بسببه الا اذا كان كريه الرائحة وظهرت على وجه الطفل علامات

الضعف والانحطاط . يعالج بتقليل الرضاع وترتيب اوقاته على نحو ما اسلفنا بيانه

﴿ الفطام القانوني ﴾ — هو انفصال الطفل عن ثدي امه وتغذيته بالصناعة ويجب قبل الفطام باربعة اسابيع ان يتدرج الطفل على الرضاع من الزجاجة على الطريقة الآتية :—

في الاسبوع الاول يغذى مرة واحدة بالصناعة وست مرات بلبن الثدي وفي الاسبوع الثاني ٢ و ٥ والثالث ٤ و٣ والرابع ٦ و ١ الى ان تنحصر التغذية كلها بالطعام الاصطناعي

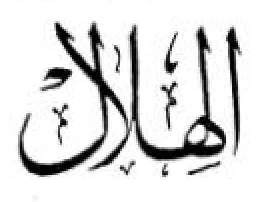
وقد يصاب الفطيم بالقيء والاسهال بسبب تغيير الطعام فيرد عندئذٍ الى الثدي ولا يغذى بالصناعة الا مرة واحدة او اكثر تبعاً لمقتضى الحال حتى اذا تحسنت حاله يعود بالتدريج الى الرضاع من الزجاجة

اما المدة التي يجب ان يرضع الطفل بها من الثدي فتختلف من ثمانية الى عشرة اشهر او سنة اذا كانت الام المرضع قوية الجسم وطفلها آخذاً في النمو . واما بعد السنة فلا يفيد لبن الثدي شيئاً لانه يصير بعد ذلك الميعاد قليل الغذاء فتسوء صحة الطفل من التغذية به كما هي الحال في الاطفال الذين يرضعون من اثداء امهاتهم اكثر من سنة في هذه البلاد

وينبغي ان يكون الزمان موافقاً للفطام فيتجنب في طور التسنين وخصوصاً في فصل الصيف لان الحرارة تفسد لبن الزجاجة فيصاب الطفل بالاسهال . على انه اذا كان لابدَّ من الفطام لسبب تقتضيه حالة المرضع او رضيعها فالاولى ان يذهب به الى الاماكن الباردة في الجبال والحقول النقية الهواء والماء

﴿ الفطام الفجائي ﴾ — لايجوز ان يفطم الطفل بغتة اي قبل ان يتدرج على التغذية بالصناعة لان الانتقال من طعام الى طعام آخر دفعة واحدة يؤثر على هضم الرضيع تأثيراً مضراً بصحته ولا سيما اذا كانت المعدة لم تبلغ تمام القوة . وزد على ذلك انه يخشى على الثدي من الاحتقان لتجمع اللبن فيه وربما تنتهي الحال بالخراريج

﴿ الجرائد العربية ﴾ اصلاح — صفحة ٥٥ من الهلال الماضي السطر الثاني «محمود» صوابها «محمد»



الجزء الرابع من السنة الثانية عشرة

١٥ نوفمبر (ت ٢) سنة ١٩٠٣ و ٢٥ شعبان سنة ١٣٢١

ملوك الشرق وامراؤه

ميسور واميرها

(ميسور) هي احدى ممالك الهند المستقلة في جنوبي بلاد الهند تحيط بها املاك انكلترا من كل ناحية مساحتها ٢٧,٧٣٣ ميلاً مربعاً أكثرها سهول خصبة وفيها جبال يبلغ ارتفاع بعضها الى ٥,٠٠٠ قدم عن سطح البحر . وهي تقسم من حيث طبيعتها من هذا القبيل الى قسمين احدهما جبلي في الغرب ويسمى الملناد والثاني منبسط في الشرق ويقال له الميدان وهو الاكبر . وفيها من المحصولات النباتية الرز والبن والقطن والكوكو والحنطة وقصب السكر والتبغ والفلفل والصندل وقد ادخلوا اليها زراعة السكونا وغيرها . وفيها من المعامل الكبرى معامل لصهر الحديد واستخراج الذهب والصياغة وحياكة السجاد ونسج القطن والحرير . مقدار دخلها السنوي نحو ١,٧٠٠,٠٠٠ روبية وعدد سكانها حسب احصاء عام ١٨٩١ نحو ٤,٩٠٠,٠٠٠ نفس اكثرهم من الهنود البراهمة وفيهم المسلمون والنصارى على هذه النسبة :

٣,٩٥٦,٣٣٦	هنود براهمة
٣٠٠,٠٠٠	مسلمون
٢٩,٠٠٠	نصارى

والباقون من طوائف أخرى مختلفة

اكبر مدن مملكة ميسور مدينة بنكالور وهي عاصمتها اليوم وسكانها نحو ٢٠٠,٠٠٠ نفس • ثم مدينة ميسور وسكانها ٣٠,٠٠٠ — وكانت مدينة ميسور عاصمة المملكة الى سنة ١٨٣١ فانتقلت الى بنكالور تليهما شيموغا وكولار وغيرها • وفي هذه المملكة نحو الف مدرسة للحكومة وضعف هذا العدد من المدارس للاهالي والحكومة تساعدها • وعدة التلامذة نحو ٥٠٠٠٠ تلميذ • وفيها عشرون مستشفى

وتاريخ ميسور قديم والقسم الشمالي منها اقدم تاريخاً من الجنوبي فقد تولت حكومته عائلة كدمبا وكانت عاصمتها بناواسي على ما ذكره بطليموس • وتوالى ملوك هذه العائلة على ميسور نحو اربعة عشر قرناً ثم انحلت دولتهم الى مقاطعات امتلكها قوم يعرفون بالشلوقية • واما القسم الجنوبي من ميسور تحكمته عائلة الشيراس وكانت معاصرة للكدمبا حتى غلبهم الحلاس في القرن الثامن للميلاد ثم صارت الى مقاطعات • وفي القرن الثاني عشر تغلب على ميسور جماعة البلالاس وهم شعب شديد الوطأة في الحروب حكموها قرناً وبعض القرن • وفي سنة ١٣١٠ تغلب عليهم ألالا احد قواد علاء الدين • وبعد بضعة عشر عاماً افتتح هذه البلاد محمد طغلاق ملك دهلي وتوالت عليها الحروب والفتن وحكمها عدة ملوك من البراهمة الى اواسط القرن السادس عشر اذ تحالفت الممالك الاسلامية في الهند وتغلبت على آخر الملوك الهنود « راجا رام » في واقعة كليكوت وكان ذلك آخر العهد بتلك العائلة وافضى الامر الى استقلال بعض المقاطعات تحت سلطة امراء يسمونهم بلغة الهند « وادبار » اي سيد اعظمهم وادبار ميسور استولى على قلعة سرنكاباتام سنة ١٦١٠ ومنه العائلة الحاكمة الآن

ومن مشاهير هذه العائلة شكا ديفاراج حكم ٣٤ سنة وكان رجل سياسة وحرب فجعل مملكته من اعظم ممالك الهند الجنوبية • ونبغ في القرن الثامن عشر حيدر علي الشهير فطمع في ميسور فغلب على اميرها وقبض على ازمتها وجعل نفسه من اعاظم امراء الهند واسس لنفسه دولة لم يطل عمرها فانقضت بانقضاء حياة ابنه تيبو في واقعة سرنكاباتام سنة ١٧٩٩ فعادت الى العائلة السابقة • وتولاها رجل منهم لم يحسن الحكومة فتداخلت انكلترا في شؤونه بحق الجوار سنة ١٨٣١ وراقبت اعماله • فلما توفي سنة ١٨٦٨ افضت ازمة الحكومة الى ولد تبناه اسمه شكا كريشنا اراسو وكان قاصراً فتولت انكلترا وصايته واحاطته بالمشيرين من رجالها حتى بلغ رشده سنة ١٨٨١ فاستلم زمام الاحكام وانتقلت منه الى الامير الحالي

(الامير الحالي) هو المهراجا كريشنا راجا واديار بهادر ويعد الآن من امراء الهند العظام ٠ ولد سنة ١٨٨٤ م وكان والده مرعي الجانب عند انكلترا وقد نال رتبها والقابها ٠ فلما توفي كان الامير الحالي لا يزال غلاماً فتولت وصاية انكلترا حتى بلغ رشده وقبض على ازمة الاحكام ٠ وهو يحيّى باطلاق ٢١ مدفعاً وله جند عدده اربعة آلاف رجل وعشرة مدافع ٠ وله قصور وحدائق في ميسور وبنكالور وغيرهما — ونظراً لطول مدة وصاية انكلترا على امارة ميسور اصبحت حكومتها على ما يريده الانكليز تماماً ٠ لان واضع نظاماتها هو السير مارك كوبن وقد ارتقت وتأيدت تحت رعاية الذين خلفوه من معتمدي انكلترا فيها ٠ ولذلك فالانكليز يعدّون حكومة ميسور من احسن حكومات الهند واضبطها حتى في الهند الانكليزية ٠ وهي السابقة لسائر ممالك الهند في كثير من عوامل الترقي الحديثة كتقريب المواصلات وتعليم البنات واحتفار المعادن وضبط الادارة

مهراجا كريشنا راجا واديار بهادر
امير ميسور

وفي ميسور مدرسة للبنات شهيرة تنسب الى الاميرة مهراني فيها اربع مئة بنت من العائلات الكبرى العريقة في الحسب والشرف ٠ وتعدّ هذه المدرسة انجح مشروع انشأته حكومات الهند لترقية شأن المرأة عندهم

(الموكب) واذا نظرت الى موكب هذا الامير في صدر هذا الهلال رأيت ما لم نألفه من ظواهر الابهة على ما تعوده الهنود ٠ وهو عبارة عن فيل ضخم الهامة مجلل بغطاء عليه الحلي والزخارف موشى بالقصب والفضة والذهب وفي اسفل عنق الفيل عقد من الجلاجل وحول نابيه اساور من الفضة والذهب وعلى ظهره قبة قائمة على اعمدة يجلس فيها الامير يسمونها « جهول » ويجلس امام القبة رجل يسوق الفيل ويقود زمامه ٠ ويحف

بالموكب من الجانبين فرقة من الجند بالرماح المزخرفة وعلى رؤوسهم العمائم الهندية .
وترى في طرف الصورة الى اليمين جندياً بلا رمح هو ضابط تلك الفرقة

عرب السودان

عاداتهم واخلاقهم وخرافاتهم

سيصدر في اوائل الشهر القادم كتابٌ في « تاريخ السودان وجغرافيته » لم ينسج على منواله في العربية ولا في غيرها لما حواه من الحقائق الثابتة في تاريخ تلك البقاع وجغرافيتها قديماً وحديثاً وعادات اهلها واخلاقهم ووصف اقاليمها ومزروعاتها واصناف تجارتها وطبقات سكانها وسائر احوالها مما غمض اكثرهُ على اهل هذا اللسان حتى تأتى لصديقنا نعوم بك شقير وكيل قلم السودان ان يشتغل في اخراجه وتنسيقه على اسلوب بديع جمع بين اللذة والفائدة في كتاب تزيد صفحاته على الف صفحة تحرَّى البحث والتحقيق في كل سطر من سطورها مما لم يسبق له مثيل . وسنأتي على بيان ذلك متى صدر الكتاب واما الآن فقد اطلعنا على فصل منه في اخلاق عرب السودان وعاداتهم وخرافاتهم فأحببنا نشرهُ على سبيل المثال — قال :

﴿ أوصافهم الخلقية ﴾ لعرب السودان الاوصاف الخلقية المشهورة للعرب في كل زمان ومكان الا انهم اشد سمرة واقصى شعراً من عرب الشام ومصر لشدة حرارة بلادهم وكثرة تسريهم من النوبة والسود . واما نساؤهم فيغلب فيهنَّ اللون القمحي او اللون الضارب الى الصفرة كلون تمثال الملكة « آمن ريتس » الايثيوبية في متحف الآثار المصرية بمصر

﴿ التشليخ ﴾ ثم ان الشايقية والجعليين والعابدلاب من حضر العرب يشلخون وجوههم بقصد الزينة ولكل قبيلة منهم شلوخ معلومة . فالشايقية ثلاثة شلوخ افقية على كل خد والجعليين ثلاثة شلوخ عمودية على كل خد والعابدلاب على كل خد ثلاثة شلوخ عمودية تحتها شلخ افقي يسمى بالعارض . ومن كان وجههُ عريضاً جعلوا له على كل خد اربعة شلوخ بدل الثلاثة . والمرأة التي لا يعيش لها اولاد تشلخ وجناتهم ايضاً شلوخاً دقيقة كرجل الطير . ومن القبائل التي تتبع هذه العادة فتقلد بها القبائل الثلاثة المذكورة : النوبة

البرابرة واهل بربر من الحضر والشكرية والضبانية والكبابيش من البادية . اما زمن التشليخ فهو زمن الطفولية للذكور والاناث غير ان الذكور قد لا تُشلَّخ وجوههم واما الاناث فلا بدَّ من تشليخ وجوههن اذ الشلوخ في الوجه والوشم في الثم معدودان عندهم من الجمال

« فالشاب الجميل » في عرفهم هو من كان مربوع القامة قمحي اللون واسع الصدر مجدول الخصر والذراعين طويل العنق مخفض الكتفين مشلخ الخدين صقيل الانف افلج الثنايا ادعج العينين مفتوح الحاجبين باسم الثغر نير الوجه شريف الخصال

« والمراة الجميلة » هي من كانت مربوعة القامة مع الميل الى الطول صفراء اللون طويلة الشعر غزيرته واسعة الجبين زجاء الحاجبين دعجاء العينين سادلة الاهداب قنياء الانف مع الميل الى التحدب لا كبيرة الثم ولا صغيرته عريضة الشفة السفلى موشومتها وموشومة اللثة مفلجة الاسنان بيضاءها مشلخة الخدين مخنوصة الذقن طويلة العنق مخفضة الكتفين واسعة الصدر ناهدة الثديين رقيقة الخصر قصيرة الظهر مجدولة الساعد والساق رقيقة الاصابع بارزة الردفين مجموعتهما صغيرة القدم رشيقة الحركة لينة الاعطاف اذا رقصت انثنت الى الوراء حتى يصل راسها الى قدميها واذا مشت تمايلت كالغصن اذا حركه النسيم خفيفة الروح باسمة الثغر طلقة المحيا مصونة الحجاب جميلة الحركة اقبلت او ادبرت

واجمل نساء السودان نساء الجزيرة. روى لي بعض الادباء ان فقيهاً من اهل كردوفان يسمى عبد العزيز سمع بكرم الزبير في بحر الغزال فقصده يريد منه نوالاً فأمر له الزبير بجارية فلم تعجبه وقال « اني قصدتك لجارية عنقها طويل وردفها ثقيل وشعرها غزير وبطنها ضمير وسنها كالجير وشينها كشبّ الغدير اذا مشت كأنها امير واذا وقفت تعجب هذا الفقير » واشار الى نفسه . فقال له الزبير « عليَّ الطلاق ان هذه الصفات لاتوجد حتى في بنات الجزيرة » ثم نادى احد غلمانه وقال ائتوه بزيتونة فأتوه بها وكانت جارية جميلة فأعجبته فقال « قبلت زيتونة الصادقة المأمونة اللهمَّ اجعلها كالجنة المفتونة » فقال الزبير خذها وخذ الاولى جارية لها فازداد عبد العزيز طمعاً بكرم الزبير وكان بيده ركوة (ابريق ماء من جلد) فقال وهذه الركوة من يحملها لي فدعا الزبير احد عبيده وقال احمل هذه الركوة لسيدك فحملها وذهب الفقيه بالثلاثة شاكراً مسروراً

اخلاقهم اما اخلاق عرب السودان فهي ايضاً الاخلاق المشهورة للعرب في كل زمان ومكان وهي حب الضيافة والكرم والمروءة والشهامة وحب الغزو والنجدة والاخذ

بالثار ومراعاة الجار واحترام العرض والافتخار بالنسب ولكنهم اكتسبوا من جيرانهم السود العناد واحتقار الموت والصبر على مضض الايام مع شيء من بلادة الطبع

ومن غريب اخلاقهم : انه اذا اتى الجدب واشتد الجوع اغلق الواحد منهم بابه على نفسه واولاده وانتظر الموت جوعاً ولم يسأل أحداً خوفاً من التعيير بذل السؤال . والمريض مهما اشتدَّ ألمه لا ينطق بكلمة تدل على تألمه . وكذلك المضروب لا يبدي اقل توجع مهما اشتدَّ عليه الضرب . والمسوق الى القتل لا يبدي اقل جزع او خوف . واذا اظهر المريض اقل تألم او المضروب اقل توجع او المسوق الى القتل اقل جزع او خوف عيّروا اولاده من بعده الى منتهى الذرّية . ومن هذا القبيل انه اذا كان احدهم سائرًا في الطريق وحدثت خلفه غوغاء فلا يلتفت برأسه الى الوراء كمن ذُعر ليرى ما الخبر بل يتحوّل بجميع جسمه دفعة واحدة واذا تعرض له كلبٌ فنهشه من الوراء فلا يرده عن نفسه بل يصبر على نهشه حتى تراه المارّة فترده عنه

ومن اكبر العيوب عندهم الفرار من القتل فاذا ارتكب احدهم جناية تستوجب القتل وقف في مكانه ينتظره بالتسليم وكامل الصبر . من ذلك ما روي عن رجلٍ من الضباينة يدعى عبد الرسول كان متزوجاً بامرأة يحبها جدًّا وهي تكره احد اخواله فأوغرت صدره عليه فأخذ خنجره وقصد خاله فوجده يحلب بقرته فشرع في طعنه بالخنجر حتى قتله فامسك برجله اذ ذاك ومكث ينتظر القتل فحضر اخوة القتيل وبكوه ولم يتعرضوا لابن اختهم لأ من العار عندهم ان يثأر الرجل من ابن اخته او يمسه بسوء فلما حضرت اختهم والدة عبد الرسول صاحت وولولت وحثت التراب على رأسها حزناً على اخيها ونادت بابنها قائلة ان كنت ابني وابن ابيك فلا تعش بعد قتل خالك فقال عبد الرسول لاخواله اقتلوني بثار اخيكم ولما ابوا اخذ خنجره وطعن به نفسه فوقع ميتاً الى جانب خاله فهزّت امه يدها فوقه ارتياحاً وقالت حقاً انك ابني وابن ابيك ثم حملوا القتيلين ودفنوهما في حفرة واحدة . قلت وهذا الخلق اي عدم الفرار من القتل مرويٌّ عن الاثيوبيين القدماء كما سيجيء في التاريخ

هذا ومن المعايب عندهم الفرار من ساحة القتال جبناً أو خوفاً فاذا دخل فارسهم ساحة القتال فقتل فرسه وانكسر قومه فهو لا يقاتل مستقتلاً كمن وقع في فشل او ذعر من الخوف بل يفترش فروته ويجلس عليها الى ان يأتي العدو فيقتله او يأسره . وهذا

الخلق انما نراه في عرب النيل وشرق السودان وامثلته في التاريخ كثيرة اما عرب غربي السودان ففارسهم يقاتل حتى يقتل او يفر

ومما هو مشهور من اخلاقهم فيدل على النجدة واحترام العرض انه اذا قصدت امرأة سيداً منهم فكشفت عن رأسها وتشفعت له بأمرٍ وجب عليه قضاء ذلك الامر او بذل اقصى الجهد في قضائه مهما كلفه ذلك من المشقة والعناء

ومما يدل على حبهم للضيافة ان لهم في كل بلدة منزلاً خاصاً بالضيوف يسمونه « الخلوة » فاذا نزل فيها ضيوف طبخت كل ربة بيت طعاماً وارسلته اليهم وذهب الرجال للترحيب بهم وتناول الطعام معهم . ذلك في الجزيرة وشرق السودان واما في غرب السودان فكل منزل معدٌّ لقبول الضيوف واقرائهم من طعامه الخاص كثروا او قلوا

وهم يتبارون في افراحهم على الخيل او الهجن وبرفع السيف بالاصابع الثلاث الاولى وذلك بوضع قبضته بين السبابة والوسطى والضغط على رأسها بالابهام ورفع السيف افقياً . وترى لهم في ساحة كل بلد حجراً يعرف بحجر الصبيان يتناظر الشبان في رفعه بكلتي اليدين الى الصدر او الكتف او فوق الراس ونحو ذلك من المناظرات الرائجة في مصر والشام

(البطان) ومن اشهر عاداتهم التي اصبحت خلقاً لهم عادة «البطان» وهي من نوع الدوالو عند الافرنج فاذا تنافر شابان لسبب من الاسباب طلب احدهما الآخر للبطان فان ابى عُدَّ جباناً ورفضت البنات زواجه واذا رضي اخذ كل منهما سوطاً وعمدا الى عنقريب (سرير) جعلوه بينهما ووقف الواحد تجاه الآخر ثم خلع كل منهما ثوبه وتجرَّد الى وسطه واجتمع الناس للشهادة فيبدأ احدهما بجلد الآخر سوطاً على ظهره ثم يصبر فيجلده رفيقه سوطاً وهكذا يتناوبان ضرب السياط وهما لا يتحركان من مكانهما بل لا يحركان كتفاً او جفناً الى ان يقع احدهما من شدة الضرب فيحمله اقاربه الى بيته فيزوره مصارعه ويصالحه . وهي من عوائد العامة فلا تشترك فيها الخاصة ثم هي محصورة في اولاد ابي مرحة دون غيرهم من عرب السودان ولكن تناول رقيقهم هذه العادة فقاقهم فيها . واهم اسبابها النساء فاذا احب شاب فتاة فزاحمه آخر عليها طلبه للبطان واخذها الغالب

وقد يكون البطان لمجرد المباهاة بالقوة والجلد على الضرب فيدخل فيه اذ ذاك اكثر من اثنين ويكون على ضرب الدلوكة فكل من اراد البطان يأتي الى النساء اللواتي

يضربنَ الدلوكة فيهز سوطه فوق رؤوسهنّ ويقول « إبشرن بالخير انا اخو البنات عشرة » ويقف الكل صفاً واحداً ثم يبرز احدهم فيضرب كل من في الصف سوطاً ويرمي السوط ويعود الى الصف فيبرز آخر فيتناول السوط ويفعل فعل الاول وهكذا حتى يأخذ كل منهم نصيبه ضارباً ومضروباً

واذا اعجبت فتاة بشاب من الحضور ووقع حبه في قلبها نزعت من معصمها سواراً والبسته اياه فيأخذ الشاب اذ ذاك سوطه ويهزه فوق راسها ويقول « إبشري بالخير انا اخو البنات العشرة » فاذا كان له بين الحضور مناظر في حب الفتاة ورأى سوارها في يده انبرى له وطلب مبارزته فيقف له حامل السوار واضعاً يده اليمنى فوق راسه فيجلده بسوطه الى ان يكلّ فيرمي السوط فيجلده حامل السوار في نوبته بما اعطي من القوة ويقف المضروب في حالة الضرب جامداً لايتحرك ولا يطرف له جفن كانه صخر اصمّ ومن بدت عليه ظواهر التألم بل من بدت منه اقل حركة كهز الكتف او طرف الجفن لبس العار ولم يعد له من البنات نصيب

واذا احب شاب فتاة ولحظ من احد الحضور ميلاً اليها تأخذه الغيرة فيستل سكينه من ذراعه ويأتي الى حبيبته ويهز السكين فوق راسها وينادي « إبشري بالخير انا اخو البنات عشرة » ثم يشرع في تشريط ساعده وصدره الى ان يلطخ راسها وثيابها بالدم فيأتي احد الحضور ويعمه من ذلك ويأخذ النساء من دمه فيلطخن به جبين حبيبته وهي تتمايل تيهاً ودلالاً معجبة باستهلاك حبيبها في حبها فتصدقه الحب ولا تعود تلتفت الى احد سواه . وقد رأيت الكثيرين من الشبان مجرحي السواعد والصدور بسبب هذا الحب البربري . قيل وعشاق البادية لا يأكلون لحم الغزلان لانهم يشبهون حبيباتهم بها فلا يطيقون ذبحها او تعذيبها واذا رأوا غزالة في يد صياد افتدوها بالمال واطلقوا سراحها وفارسهم يتكنى باسم حبيبته و يتباهى بحبها وعند اللقاء في الحرب يقتحم غمرات الموت بجواده وسيفه مسلول في يده وهو ينادي « لعيني فلانة » على ما هو مشهور عند اهل بادية الشام

وعرب السودان شجعان في الحرب اشداء لا يهابون الموت ولكن شجاعتهم همجية قلّ فيها التدبر والحكمة كاسلافهم الاثيوبيين . ومن جملة اغانيهم التي تدلّ على شجاعتهم واحتقارهم الموت :

غـنّي شكريه يا جدي بوحات بلال ود على اسدّ الخلا القنّـات

وقت الموت يجيء ال فوق السرير موات ‏ مرحوم اليموت فوق كوكب الدرقات

ومن قول بعض نسائهم :

والله ان شردتوا يا رفاقاتنا ‏ اذّنا الدّرق وها كم رهاطتنا

هذه هي اشهر اخلاق العرب في السودان وقد اثرت فيهم المظالم التي قاسوها في زمن المهدية وقبله فتخلق الكثير منهم بالمكر والخداع والتمليق والكذب والنميمة والغدر والخيانة والانشقاق وغيرها من الصفات المشينة التي لا بدّ من تركها الآن في حكم العدالة والشرع * هذا والعرب والسود متضادّان في الطباع لا يمتزجان كالخل والزيت • وقد اشتهر عن العرب الخلص احتقار الصناعة والزراعة وعن السود عدم العمل الاّ عند الاضطرار وعن الخلاسيين المولدين بينهما الكسل وكره العمل

استفتاء

« من رؤساء الاكليروس المسيحي »

في الشرائع المسيحية شروط للطلاق وشروط أخرى لزواج المرأة المطلقة تختلف باختلاف الطوائف مما لا نبحث فيه • ولكننا نسأل حضرات رؤساء الاكليروس المسيحي على صفحات هلالكم المنير ما قولكم في زواج امرأة حكم على زوجها بالاشغال الشاقة مؤبداً • ومعنى ذلك ان امرأة شابة قد ارتكب جريمة يستحق عليها الاعدام فخففوه بالسجن المؤبد فهل يجوز للكنيسة تطليقها منه والتصريح لها ان تتزوج بآخر وخصوصاً اذا كانت فقيرة واصبحت بعد سجن زوجها محرومة من كل اسباب المعيشة

(القاهرة) ‏ « جبرائيل نقاش »

شعرٌ للفارابي في الوجود

اخي خلّ حيز ذي باطل ‏ وكن للحقائق في حيزِ

فما الدار دار خلودٍ لنا ‏ ولا المرء في الارض بالمعجزِ

وهل نحن الا خطوط وقعن ‏ على كرة وقع مستوفزِ

ينافس هذا لهذا على ‏ اقل من الكلم الموجزِ

محيط السموات اولى بنا ‏ فكم ذا التزاحم في المركزِ

الفلسفة اللغوية

الطبعة الثانية

لم يخطر لنا يوم نشرنا الطبعة الاولى من كتابنا في « الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية » سنة ١٨٨٦ انه سيأتي يوم نعيد طبعه فيه لان موضوعه فلسفي جديد لا يرتاح اليه الاَّ فئة قليلة من خاصة الادباء وذوي الاطلاع ممن يلتذون بالابحاث العقلية الفلسفية وهم قليلون في كل زمان ومكان وخصوصاً في بلادنا لقرب عهدنا من العلم والادب فكيف بالابحاث الفلسفية اللغوية وهي جديدة حتى في لغات الافرنج . فنفاد الطبعة الاولى من هذا الكتاب يدلُّ على تكاثر الخاصة من اهل هذا اللسان . اما ادباء الالسنة الاخرى فانهم احلوا هذا الكتاب محل القبول منذ اول ظهوره وكنا قد بعثنا منه امثلة الى بعض جمعيات المستشرقين في اوربا فجاءتنا كتبهم وملؤها التنشيط والاستحسان وانتخبتنا « الجمعية الاسيوية الايطالية » يومئذ (لسنة ١٨٨٧) عضواً عاملاً قياماً من اجل هذا الكتاب اذ لم يكن لنا مؤلَّف سواه — وعنيت مجلة « مكتب » العلمية التي كانت تصدر في الاستانة بنقله الى اللغة التركية ونشرته تباعاً في اعدادها لسنة ١٨٩٣ وما بعدها على ان تنشره بعد ذلك في كتاب على حدة

والطبعة الثانية من الفلسفة اللغوية تحت الطبع الآن فنرجو ممن طلبوها وابطأنا عليهم ارسالها ان يصبروا قليلاً فانها تصدر في اواخر هذا الشهر او في اوائل الشهر القادم وبالله التوفيق — واليك مثال من ذلك الكتاب في اصل اسم الاشارة واسم الموصول

اسم الاشارة واسم الموصول

واسماء الاشارة مرجعها الى مقطعي « ها » و « ذا » ومنهما يتركب « هذا » و « هاته » و « ذاك » و « تلك » و « ذينك » و « تينك » وما شاكل [1] . ومنهما أيضاً نشأ اسم الموصول فان « أل » الموصولة والتعريفية من المرجح عندي انها مأخوذة عن « ها »

(١) يظهر ان كاف الخطاب اللحقة في اواخر هذه الاسماء مأخوذة من ضمير المخاطب ويؤيد ذلك انها تثنى وتجمع مثله فيقال تاك وتلكما وتلكم وذلك وذلكما وذلكم الخ

بدليل كون هذا المقطع هو وحده اداة التعريف في العبرانية · على ان نحويي اللغة العبرانية يقولون بوحدة الاصل في « أل » المشار اليها في اللغتين العربية والعبرانية وبناء على هـذا القول زعموا ان الاصل في الاداة العبرانية « هل » قياساً على العربية وقالوا ان اللام لا تظهر خطاً وانه يعوّض عنها لفظاً بتشديد الحرف الاول من الكلمة الملحقة هي بها فاذا أرادوا تعريف בית (بيت) مثلاً قالوا הבית (هبيت) بالحاق الهاء محركة بالفتح في اوله وتشديد الباء فتعليلاً لمذهبهم يقولون ان اللام تدغم بالحرف الاول ويعوض عنها بالتشديد وعندي انهم اصابوا بوحدة اصلها ولكن ربما لم يصح زعمهم بان الاصل في كليهما (هل او ال) اذ ان اللام لم تظهر في العبرانية لا لفظاً ولا خطاً الاّ في كلمة واحدة وهي اسم موصول اعني הלזי (هلزي) وهذه قليلة الورود جداً في كتاباتهم فالارجح عندي انها مأخوذة من العربية اذ انها والاسم الموصول « الذي » شيء واحد لفظاً ومعنىً · اما التشديد المرافق لاداة التعريف في العبرانية فربما قصد به التاكيد او توضيح الاشارة

فبناء عليه يرجح ان الاصل في « ال »العربية « ها »التنبيه كما هو الحال في العبرانية اما اللام فقد دخلت عرضاً لاسناد الحركة واللام كما لا يخفى من الاحرف (ل م ن ر) التي كثيراً ما تدخل في اللفظ اسناداً لحركة او مقطع كما مر

ومن الآثار التي تدل على سابق استعمال « ال » للاشارة قولهم « اليوم » و « الساعة » بمعنى هذا اليوم وهذه الساعة · ومن الواضح ان التعريف انما هو ابن الاشارة لان ابسط طريقة للتعريف انما تقوم بالاشارة اليه · ويؤيد ذلك ان « ذا » التي هي اسم اشارة كما لا يخفى قد استعملت ولا تزال تستعمل للتعريف والموصول في قسم عظيم من اللغات السامية فان ذي في اللغة البابلية و « ذ » او « د » في اللغة السريانية هي الاداة الوحيدة للموصول والتعريف والاشارة ولا ريب ان « د » السريانية هي بقية « ذي » البابلية فلم يستعمل بنو طي « ذو » للموصول عبثاً · وما قولنا « الذي » الاّ حجة دامغة على ان الموصول انما هو ابن الاشارة

ولنا في الانكليزية the و this و that من اصل واحد الاولى للتعريف والثانية للاشارة والثالثة للاشارة والموصول

فثبت مما تقدم ان اسماء الاشارة والموصول هي في الاصل من اصل واحد مؤلف مقطعين (ها) و (ذا) او الهاء والذال

فهل من علاقة بين هذا الاصل والضمائر

قلنا ان التاء هي الاصل في مطلق المخاطب فنسبتها لدال الاشارة لفظاً لا تحتاج الى دليل لان الدال والذال والتاء والسين والشين كثيرة التبادل بعضها من بعض كما تقدم وهذا التبادل جارٍ معظمهُ قياسياً في الادغام كما لا يخفى . و يظهر باجلى وضوح في اللغات الآرية فان الكلمات المشتركة الاصل المستعملة في لغات مختلفة منها تؤيد قولنا لاننا نرى ان D في اللاتينية تبدل T في الانكليزية و z في الجرمانية نحو Decem عشرة وDomare داجن فانهما في الانكليزية ten و tame وفي الجرمانية zehn و zahm والفرنساويون يكتبون tion و يلفظونها sion وعندهم elider و elision من اصل واحد . ومن قواعد اللفظ في اللغة اليونانية ان التاء متى وقعت بعد النون تلفظ دالاً وامثال ذلك كثيرة

فبناء عليه لا يكون ثم مانع في وحدة الاصل لفظاً

اما وحدتهُ معنىً فرجحة ايضاً لأن الدلالة المشتركة بينهما هي الكون المطلق والظاهر ان هذا هو الاصل في جميع تنوعاتهما لانهُ يدل عليه في جميع لغات البشر بالتاء او احد تنوعاتها كما سبقت الاشارة . فان هذه التاء تتضمن معنى الكون المطلق في ܐܝܬ (ايت) السريانية ويش العبرانية وايس العربية و est اللاتينية و es اليونانية و ايت التركية وهذه متى تحركت تقلب دالاً . و tu وفي المصرية القديمة تستعمل بمعنى on في الفرنساوية . ثم ينقل معناها من الكون المطلق الى ما يقار بهُ اعني الذات وهي تطلق على كل موجود فتقوم مقام اي نوع من الموجودات حسياً كان او عقلياً وهي ذات في العربية ربما كانت مركبة من ذا (وايت) את (ات) في العبرانية وܝܬ (يت) في السريانية و (أت) في الكلدانية وidem في اللاتينية و autos في اليونانية و tes في المصرية القديمة . ثم تدرّج معناها من الدلالة الذاتية المطلقة الى الاشارة المطلقة وهذه في العربية (ذا) وفي العبرانية זה (زه) وفي السريانية دا وفي الاشورية (سو) وفي اللاتينية is وفي اليونانية De او ide وفي الفرنساوية ce وفي الانكليزية this او that وفي القبطية te وفي

المصرية القديمة tai . ومن الاشارة المطلقة نشأت الاشارة الى كل مسمى واداتها في العربية شيء وفي الفرنساوية chose وفي الانكليزية thing وقد حصل اثناء هذا الانتقال المعنوي تنوعات لفظية فخصصوا بعضها للدلالة على القسم الاهم الاعظم بين الموجودات اعني الانسان فهو يدعى في العربية انس وفي العبرانية ايش وفي السريانية نش وفي المصرية القديمة se وخصصوا البعض الآخر للدلالة الاشارية المخاطب فقط فوصلت الينا على هيئة ضمائر وقد تكلمنا عنها بالكفاءة . وقد تنوع من اسماء الاشارة الموصولات واحرف الاضافة فالاولى قد تكلمنا عنها مايكفي اما الثانية فلها في العربية « ذو » ومشتقاتها وفي العبرانية ايش وفي السريانية (د) وفي بعض اللغات الآرية De وتنوعاتها

فبناء على كون ضمير المخاطب واسماء الاشارة والموصولات هي جميعاً الفاظ مشتركة الدلالة وكونها قابلة التعويض بعضاً عن بعض في اللغة الواحدة وكونها متقاربة لفظاً في سائر لغات البشر يرجح انها في الاصل لفظة واحدة بمقطع واحد . ونظراً لكون التقارب اللفظي يحصرها في الاحرف السنانية يرجح ان ذلك الاصل هو التاء متحركة وان الاصل في دلالتها الكون المطلق وان منها تولدت جميع هذه التنوعات لفظاً ومعنىً تبعاً لناموس الارتقاء العام

وقد اختيرت التاء من بين اخواتها لانها الاسهل لفظاً ولا يصعب على ناطق التلفظ بها وقد تقدم انها موجودة في سائر لغات البشر وعليه يظن ان المقطع الاول الذي يتلفظ به الاطفال انما هو هذا ويرجح ذلك ان (تت) في اللغة المصرية القديمة تفيد قولنا (تكلم)

اما اسم الاشارة (ها) فبينه وبين ضمير مطلق الغائب نسبة قريبة اما لفظاً فلأن الاصل في كليهما الهاء كما علمت واما دلالةً فلاننا نقصد بكلٍّ منهما ما ليس بالمتكلم ولا بالمخاطب ولم تزل اسماء الاشارة في كثير من اللغات تستعمل حيثما نستعمل نحن ضمير الغائب ولا ارى لزوماً لتعداد البراهين على صحة ذلك

وهناك امر آخر لا يخلو ذكره من فائدة اعني ان بين كاف المتكلم وتاء المخاطب وهاء الغائب نسبة قريبة لفظية ومعنوية كما لا يخفى

وجملة القول يرجح كل الترجيح ان الالفاظ المطلقة مهما تعددت اشكالها ودلالاتها لا تخرج عن كونها ناشئة من لفظ واحد او بضعة الفاظ من جملتها التاء

شروط المخازن

اطلعنا في جريدة المهاجر الغراء التي تصدر في نيويورك لصاحبها ومحررها امين افندي ضريب على فقرة فكاهية بحسب الظاهر ولكنها تعبر عن حاسات الوف من رجال الاعمال الذين يقاسون العذاب في معاملة بعض الذين يزورونهم في مخازنهم او مكاتبهم او محال شغلهم ولا يعرفون آداب المعاملة ولا يقدرون للوقت قيمة فاحببنا نشرها لانها تنطبق على احوال بلادنا في معظم تفاصيلها — قال « المهاجر »

(١) نرجو ممن يدخل المحل ان يبقي الباب مفتوحاً

(٢) نرجو ممن ليس لهم شغل معنا ان يشرفونا غالباً ويحادثونا بما لا علاقة له بالشغل لان اوقاتنا طويلة

(٣) نحن مشتركون بجرائد عربية كثيرة يمكنهم الجلوس لمطالعتها وعندنا سكاير وسيكارات والعيش لمن عاش

(٤) اذا وجد الزائر عندنا احداً يكلمنا سرًّا فليقترب منا ويتكرم باستماع حديثنا معه

(٥) نرجو من كل واصل الى هذا المحل ان ينحني على المكتب ويتأمل باوراقنا لان هذا يساعد الكتاب كثيراً على زيادة الاعتناء

(٦) نتقدم الى كل زائر ان يفحص مكاتبنا وينظر الى عنوانات زبائننا واذا كان يشتغل مثل شغلنا فليتنقل تلك العنوانات

(٧) نظراً لاشتياقنا الزائد الى اصدقائنا القدماء لنا الشرف ان ندعو لزيارتنا كل عميل قديم افلس ولم يدفع من اصل مطلوبنا الا خمسة بالمئة وبضائعنا كلها لحسابه

(٨) نظراً لكون الولد المستخدم في محلنا لا شغل له فهو موقوف لخدمة زوارنا الافاضل

(٩) افضل حديث نرجو من زوارنا ان يفاتحونا به هو السياسة والرئاسة والجمعيات والكهنة لاسيما الساعة ٤ بعد الظهر لان هذا الوقت يكون وقت الشحن ومكاتبة الزبائن ونحن نخاف من عواقب التعب ونحب ترويض الفكر

(١٠) اذا وجدتم اصحاب المحل منهمكين بعمل خصوصي فلا تتوقفوا عن التدخل بينهم ومقاطعتهم اذ ان محادثتكم اهم عندنا من كل اشغالنا

(١١) اذا تمكنتم من استماع حديث بين اثنين منا فاتعبوا جهدكم لتصغوا لعل هذا الحديث يفيدكم اذا جرى اختلاف في المستقبل بيننا وبينكم ونحن نحب سوارنا اكثر من زندنا

(١٢) اذا احببتم التفرج على المحل فشرفونا في يوم ممطر واحملوا الشمسية معكم في نواحي المحل لاننا نلتذ بمرأى آثاركم في ارض المخزن وابصقوا دائماً على الارض لان المباصق وموضع الشمسيات هي للزينة فقط

(اخيراً) الله يخلصنا منكم (انتهى)

باب السؤال والاقتراح

ابن المقفع

(القاهرة) احمد افندي شكري بالك القطة

قرأت لاحدهم ان سبب تسمية عبدالله بن المقفع معرب كتاب كليلة ودمنة « بالمقفع » ان الحجاج بن يوسف الثقفي عذبه لخيانة ارتكبها فتقفعت يده . واته (اي عبد الله) مات قتيلاً والذي قتله سفيان بن معاوية امير البصرة بامر المنصور فما هي الخيانة التي ارتكبها عبد الله المذكور وما سبب قتله

(الهلال) في سبب تسميته بالمقفع اقوال . اما الخيانة التي يقال ان الحجاج عذبه لاجلها فهي ان الحجاج ولاه خراج فارس في ايام امارته على العراق فد عبد الله يده واخذ الاموال فعذبه الحجاج فتقفعت يده وقيل بل الذي ولاه فارس خالد بن عبد الله القسري وعذبه يوسف بن عمر الثقفي لما تولى العراق بعد خالد . وقيل بل لقبه المقفع بكسر الفاء لانه كان يعمل القفاع ويبيعها وهو قول ضعيف والمشهور الاول

اما سبب قتله فهو انه كان كثير الاستخفاف بسفيان بن معاوية وكان انف سفيان كبيراً

العصر الحجري

(بمبروك • كندا) سليم افندي عساف مسلم

مررت في أثناء الصيف الماضي في شمالي كندا بقبائل من برابرة هذه البلاد (هنود اميركا) يقطنون الغابات فرأيت عندهم بقايا قديمة قد حفظوها تذكاراً لآثار اجدادهم وفي جملة ذلك فؤوس وحلل واطباق وادوات أخرى للطعام والدفاع وكلها مصنوعة من الحجر الصلد فاستغربت ذلك • ولما رجعت وقصصت ما رأيته على بعض الاصدقاء من ابناء الوطن أكبروه وانكروه ولما احتدم الجدال بيننا لجأت الى استفتاء الهلال فكيف كان هؤلاء يصنعون الآنية من الحجر ومتى كان ذلك ومن اين اتى اولئك الهنود وما هو اصلهم

(الهلال) تدرّج الانسان في احوال الحياة تدريجاً حتى بلغ ما هو عليه الآن من المدنية واسباب الحضارة • ولذلك التدريج تاريخ طويل هو تاريخ العالم من بدء خلقه الى الآن • ولكن الانسان لم يدوّن الحوادث الا بعد اختراع الكتابة اي بعد ان مرّ عليه ادهار يصطاد الحيوانات ويبني القلاع ويهيء الطعام ويرعى الماشية ويصطنع السلاح ويغزو بعضه بعضاً ونحو ذلك مما نراه في كثير من القبائل المتوحشة في اوستراليا واميركا وغيرها — ويعبر المؤرخون عن الزمن الذي مضى على الانسان قبل اختراع الكتابة بعصر « قبل التاريخ » ولم يتصل بنا من اخبار ذلك العصر الا ما رَوَته الكتب المقدسة من اخبار الخليقة والطوفان وبلبلة الالسن وهو مجمل لا يشفي غليلاً

وكان المظنون ان اخبار ذلك العصر ضاعت ولا سبيل الى معرفتها حتى أشار بعض العلماء باغفال البحث عنها لانه من قبيل العبث — قال بلكراف « ان اخبار الاوائل سواء كانت خرافة او حقيقة تاريخاً او آداباً في اوربا او آسيا او افريقيا او اميركا في طيبة او بابل او غيرها فانها قد ضاعت وامحت آثارها الى الابد » على ان البعض الآخر من رجال العلم كانوا يرجون الوقوف على اخبار ذلك العصر الغابر فاشتغلوا ونقبوا وبحثوا فافضى بهم البحث الى وضع علم جديد في زمن « قبل التاريخ » • وهو فرع من علم الآثار (الارخيولوجيا) وحلقة موصلة بين العصور التاريخية والعصور الجيولوجية • والجيولوجي اذا تكلم عن عمر طبقات الارض لا يذكر الايام او الاسابيع او السنين وانما هو يعد بالادهار والاحقاب • وما عمر الانسان من عهد الخليقة الى الآن على رواية التوراة الا

لحظة بالنظر الى تلك الدهور الطوال

واذا عثر احد علماء التاريخ الطبيعي على عظام حيوان اندثر قبل زمن التاريخ استدل من درس تلك العظام ونسبتها بعضها الى بعض والنظر في الاسنان والفك والقوائم وغيرها على طباع ذلك الحيوان وعاداته ومرتبته وسائر احواله . اما الانسان فلا فرق بين عظام المتوحش منه والمتمدن ولا يميز بين جمجمة الجاهل وجمجمة الفيلسوف . ولكن الحيوانات لا تخالف الاعظاماً واسناناً واما الانسان فانه يخلف آثاراً تدلُّ على اعماله كالة تور والحصون والهياكل والاسلحة والحلي ونحوها . ومن درس هذه المتروكات الانسانية يتبين لنا ان الانسان مرَّ قبل زمن التاريخ على اربعة اعصر وهي :

(١) العصر الهموتي : وهو اول ادوار الانسان سمي بذلك لانه كان معاصراً فيه للهموت احد الحيوانات المندثرة . وكان الانسان في ذلك العصر يأوي الى الكهوف ولم يصطنع سلاحاً وانما كان سلاحه الحجارة غير المنحوتة والعمد على حالها



(ش ١) حال الانسان في عصر الهموت

(٢) العصر الصواني او الحجري : وقد توصل فيه الانسان الى اصطناع الآنية والاسلحة بالنحت والصقل من الصوان او غيره من الحجارة الصلبة قبل اكتشافه المعادن الا الذهب فانه كان يصطنع منه الحلي

(٣) العصر البرونزي : وفيه اصطنع الانسان ادواته من البرونز

(٤) العصر الحديدي : وهو العصر الذي تغلب فيه استعمال الحديد لاصطناع الاسلحة والنصال والفؤوس وظلّ البرونز مستعملاً فيه

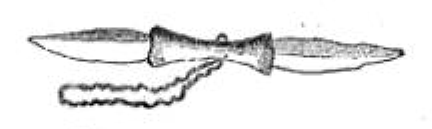
هذه هي الاعصر الاربعة التي مرت على الانسان قبل زمن التاريخ ولا يهمنا منها الآن الاّ العصر الثاني وهو الصواني او الحجري

العصر الحجري في الآثار الباقية من اعمال الانسان شيء كثير من الاسلحة المصنوعة من الحجر الصلد قد عثر الناقبون على آلاف منها وهي محفوظة في متاحف اوربا نذكر منها فقط محتويات متحف كوبنهاجن منذ وبضع وعشرين سنة على سبيل المثال وهي

	عدد
فؤوس واسافين صوانيه	١,٠٧٠
ازاميل عريضة	٥٥٥
« ضيقة	٤٠٠
نصال حادة	٢٥٠٠
اسنة رماح	٦٥٦
رؤوس سهام	١٧١
ادوات هلالية الشكل	٢٠٥
فؤوس مثقوبة	٧٤٦
مناشير صوانية	٣٠٠
شتى	٤٨٩
	٤,٨٤٢

فضلاً عن نحو هذا العدد من الادوات الخشنة غير المصقولة ناهيك بما في المتاحف الاخرى وما عثروا عليه من الادوات في الربع الاخير من القرن الماضي

فالعصر الصواني ذو شأن كبير في تاريخ الانسان القديم لانه قضى قروناً متطاولة وهو يطبخ طعامه في قدور من حجر ويصطاد فريسته بسهم من حجر ويطعن عدوّه بخنجر من حجر ويصلح طعامهُ بسكين من حجر ويقطع اغصان الاشجار بمنشار من حجر ويصطنع انصبة خناجره من الخشب والعظم بازميل من حجر



(ش ٢) خنجر ذو حدَّين من شمالي اميركا

والادوات الحجرية المذكورة تتفاوت اتقاناً وصقلاً وجمالاً ففيها الخشن الخام وفيها المصقول الناعم وفيها ما هو مركب في نصال من خشب او حجر او عظم ومنها ما نصاله منه

اما تاريخ العصر الحجري فلا يعرف اوله لانه سابق لزمن التاريخ كما تقدم . ولكنه قديم جداً اعتبر ذلك من رأي السر جون لبك في اول العصر الحديدي فهو يرى ان حرب طروادة التي وقعت منذ نحو ثلاثة آلاف سنة انما كانت في اثناء انتقال الانسان من العصر البرونزي الى العصر الحديدي . فاين المدة التي قضاها في العصر البرونزي والعصر الحجري على ان الانسان ظل يستخدم الادوات الصوانية مع الادوات البرونزية والحديدية في العصرين التاليين . ولا تزال بعض القبائل المتوحشة حتى الآن في جزائر فيجي واندامان وفي كثير من قبائل اوستراليا واميركا وغيرها من الامم المتوحشة يصطنعون تلك الادوات و يستخدمونها



(ش ٣) اوستراليون يصطنعون ادوات صوانية

وفي الشكل الثالث صورة بعض الاوستراليين الاصليين يصطنعون الادوات الصوانية فاحدهم يكسر الحجر بضربه على حجارة اخرى حتى يبلغ القياس المطلوب والثاني يشحذ

حافة الاداة على حجر آخر اتصقل او تتحدد وقد يستخدمون ادوات صوئية لمعالجة ادوات حجرية اخرى كما أستخدم الفولاذ اليوم في معالجة الحديد

وقد يتبادر الى الاذهان ان اصطناع تلك الادوات سهلٌ ولكن الذين يجربون اصطناع صوانة الزناد للبنادق يدركون المشقة اللازمة لنحتها مع صغرها واستخدامنا الآلات الفولاذية في نحتها فما قولك في نحت السكاكين والفؤوس والمناشير وأمثالها من الحجر في عصر لم يكن الحديد ولا البرونز معروفًا فيه

وجملة القول انما عثرتم عليه من الادوات الصوانية انما هو من بقايا الهنود القدماء او من صنع بعض آبائهم الاقربين

اما اصل هنود اميركا ومكان مجيئهم فمن الابحاث التي طال جدال العلماء فيها وقد نشرنا ذلك في الهلال مرارًا منها مقالة في «سكان اميركا الاصليين» نشرت في الهلال الثاني من السنة السابعة وأخرى موضوعها «اصل الهنود والعرب في اميركا» في الهلال التاسع عشر من السنة التاسعة



﴿ الزيوت النباتية ﴾ قلّت أهمية الزيوت النباتية كزيت الزيتون وغيره بعد شيوع الزيوت المعدنية للانارة والوقود كالبترول ونحوه ناهيك بالكهربائية وانوارها · ولذلك قلّت عناية اهل المغارس الكبرى في زراعة النباتات الزيتية الاشجرة الزيتون المباركة فانهم ما زالوا يعتنون في استثمارها لحاجة الناس اليها في طعامهم ولانها من احسن الادهان لتزييت الآلات الدقيقة

﴿ بيت فيكتور هوكو ﴾ من جملة ادلة العناية في حفظ ذكر الرجال واكرام آثارهم في العالم المتمدن ان مدينة باريس ابتاعت بيت فيلسوفها وشاعرها فيكتور هوكو وجعلتهُ متحفًا عامًا يزورهُ الناس وفيه من الآثار ما يدل على مهارة ذلك الرجل وعنايته في حفظ آثار رجال الادب الذين تقدموه · فان في بعض الغرف طاولة (مكتبة) حفرها



الجزء الخامس من السنة الثانية عشرة

١ دسمبر (ك ١) سنة ١٩٠٣ و ١٢ رمضان سنة ١٣٢١

ملوك الشرق وامراؤه

جزائر القمر (١)

ذكر ابن خلدون في مقدمته وياقوت الحموي في معجم البلدان وغيرها من المتكلمين في الجغرافية جزيرة القمر ووصفوها بانها مستطيلة مبدأ من قبالة ارض سفالة في بحر الزنج ولها عدة امراء وفي سواحلها العنبر وفي داخلها شجر النارجيل وشمع العسل وغير ذلك . فلعل مرادهم الجزر التي يسميها الافرنج قومور (Comores) . لان ارض سفالة كما يظهر من خرائطهم القديمة كخريطة الادريسي المحفوظة في المكتبة الاهلية بباريس والمترجمة والمطبوعة في اطلس شراديه هي ساحل موزاميق الذي بجنوب ساحل الزنجبار

وذكر المسعودي في مروج الذهب في الكلام على النيل قال : فيتشعب منه خليج ينصب الى بحر الزنج وهو بحر جزيرة قنبلو وهي جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين الا ان لغتهم زنجية غلبوا على هذه الجزيرة وسبوا من كان فيها من الزنج كغلبة المسلمين على جزيرة اقريطش (كريد) في البحر الرومي . وذلك في مبداء الدولة العباسية وتقضي الاموية . ومنها الى عمان في البحر نحو من خمسمائة فرسخ على ما يقول البحريون حزراً منهم لذلك على طريق التحصيل والمساحة .....

(١) لصاحب « فيكتور هوكو وعلم الادب عند الافرنج والعرب »

ثم قال في كلامه على البحر الحبشي : وله خليج متصل بارض الحبشة يمتد الى ناحية بربرى .... وليست هذه بربرى التي ينسب اليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من ارض افريقية لان هذا موضع آخر يدعى بهذا الاسم . واهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج . وفي هذه البحيرة مسلمون من الاكابر من الزنج .... والعمانيون من ارباب المراكب يعرفونه بحر بربرى وبلاد جفوني ويزعمون ان موجه مجنون فاذا ركبوا فيه يرتجزون ويقولون

بربرى و جفوني ومـوجـك المجنون

جفوني و بربرى وموجها كما ترى

اي انه عظيم كالجبال الشواهق ... ثم قال : وينتهي هؤلاء في بحر الزنج الى جزيرة قنبلو والى جزيرة بلاد سفالة والواق واق من اقاصي ارض الزنج والاسافل من نحوهم ويقطع هذا البحر السيرافيون . وقد ركبت انا هذا البحر من مدينة سنجار من بلاد عمان مع جماعة من نواخذة السيرافين وهم ارباب المراكب مثل محمد بن الزيدبوم السيرافي وجوهر بن احمد وهو المعروف بابن لسوة وفي هذا البحر تلف ومن كان معه في مركبه . وآخر مرة ركبت فيه في سنة اربع وثلاثمائة من جزيرة قنبلو الى مدينة عمان وذلك في مركب احمد وعبد الصمد اخوي عبد الرحيم بن جعفر السيرافي بمكان وفيه غرقا في مركبهما وجميع من كان معهما . وكان ركوبي فيه اخيراً والامير على عمان احمد بن هلال بن اخت القتال .....ا

وسنجار وسيراف من مدن بلاد عمان ويقال لها اليوم (امامة مسقط وهي البلاد التي على ساحل خليج عمان المتصل بخليج العجم او فارس ويسمى ايضاً خليج البصرة

فجزائر القومور هي مجموع جزر افريقية في المحيط الهندي عند مدخل قناة موزامبيق بين رأس العنبر من جزيرة مداغسكر وبين ساحل افريقيا الذي ينصب منه نهر روفومة الفاصل بين مستعمرات الالمان والبرتغاليين . ولعله النهر الذي حسبه المسعودي متشعباً من النيل . فهذه الجزر بين الدرجة ١١ً و٢٠َ والدرجة ١٣ً و٥َ من العرض الجنوبي واهمها اربعة : انجوان (الهنزوان ، مايوته ، القمر الكبيرة ، موحيلي ومجموع مساحاتها السطحية ٢,٠٠٠ كيلو متر مربع ونفوسها تقريباً ٨٥,٠٠٠ نسمة . واراضيها بركانية مخصبة وجبالها مرتفعة (جبل قرتال ٢,٦٠٠ متر) وفي بعضها بركانات غير منطفئة يفور منها المائع او يعلوها الدخان في بعض الحقاب من السنين .

وفي غير الجزيرة الكبيرة مياه جارية عذبة براقة لاسيما في جزيرة انجوان وهي الدرة اليتيمة والزهرة النفيسة بين هذه الجزر • واما جزيرة القمر الكبيرة فليس فيها الا ابار محفورة وصهاريج • وفي الجزر الاربعة غابات عظيمة كثيفة من شجر النارجيل والموز وفيها اشجار واعشاب من نباتات البلاد الحارة • ويزرع فيها البن وقصب السكر والقاقاؤ والفانيلية والارز وسائر الحبوب والبهارات • واهلها عرب ومولدون من العرب والزنج والملقاش وهم من سكان مداغسكر • ويتكلم اهل هذه الجزر اللغة العربية والسواحلية وجميعهم مسلمون واكثرهم علوية اي متشيعون للامام علي رضي الله عنه • ولهم كتاتيب يقرأون فيها القرآن ومدارس وجوامع يدرسون فيها العلوم الشرعية ويتخرج منها القضاة والمفاتي على نسق بقية البلاد الاسلامية ويكتبون اللسان السواحلي ويترجمون اليه من العربية • ومما ترجموه تاريخ جزائر القمر اصله بالعربية ثم ترجمه الى اللسان السواحلي احد علمائهم واسمه السيد عمر ثم نقله الى الفرنساوية الموسيو (Bonali Cambo) بونالي قامبو ترجمان المحاكم المختلطة في احدى تلك الجزائر الاربعة • وورد في هذا التاريخ بعد المقدمة قوله :

«هذا تاريخ جزر القمر وهي قرزاد وانجوان وموحيلي ومياطة والمتواتر من قديم الزمان وسالف العصور ان اجدادنا اول ما نزلوا الجزيرة الكبيرة على عهد سليمان بن داود عليهما السلام • في ذلك التاريخ جاءت طائفة من العرب بنسائهم واولادهم وعبيدهم عن طريق البحر الاحمر ونزلوا جزيرة القمر الكبيرة ثم هاجر اليها جماعة من افريقية وسواحل الزنجبار ••• الخ»

وبعد ظهور الاسلام واتساع نطاق الحضارة والتجارة في جزر المحيط الهندي صارت تجار العرب ترد بمراكبها هذه الجزر على الوجه الذي رواه المسعودي وغيره وصوره صاحب قصة السندباد البحري من قصص الف ليلة وليلة وهي على ما فيها من الخرافات والمبالغات لها اصل وصحة • فلهذا السبب كثرت اهمية جزر القمر وزادت ثروتها وسكانها • ولم يكن للافرنج معرفة بتلك البحار بل كانت تذهب تجارة الهند ومحصولات البلاد الحارة الى اوروبا عن طريق البحر المتوسط بواسطة تجار العرب • وكانت البندقية (فينيسيا) اكبر مركز لبضائع الهند والعطر العربي والبهارات وسائر المحصولات الشرقية ثم توزع من البندقية وتنقل الى جميع المدن الاوروبية •

في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد خرج البرتغاليون بمراكبهم ينشون عن

طريق الهند فداروا حول رأس الرجاء الصالح واحتلوا جزيرة القمر الكبيرة سنة ١٥٠٠ م فقر أهلها الى بقية الجزر والسواحل الافريقية • ولكن البرتغاليين لم يكن غرضهم فتح البلاد واستعمارها كما تفعل دول اوروبا في زماننا ولذا ارتحلوا عنها سنة ١٥٠٥ م • فجاءت طائفة من العرب السيرافيين من مدينة سيراف عن طريق شواطىء افريقيا ونزلوا جزيرة القمر الكبيرة سنة ١٥٠٦ م تحت قيادة محمد بن حايسا • ثم انتشروا في بقية الجزر وانضم اليها جماعة من اليمن والزنجبار فشكلوا العنصر العربي الموجود في هذه الجزر • ثم هاجر اليها الملاش من مداغسكر والزنوج من سواحل افريقيا • وفيها اليوم نحو من ٢٠٠ هندي من بومباي يشتغلون بالتجارة و٥٠٠ الى ٦٠٠ كريول وهم افرنج بل متزنجون مولودون من ازدواج الزنجيات او الملاشيات بالبيضان من تجارة الاوروبيين او غيرهم • والكريول كثيرون في المستعمرات الاميركيه • ومر بجزر القمر بعد البرتغاليين الهولانديون ايضاً ورووا الاخبار عن ثروتها وعمارتها • اما المعاصرون من الافرنج فاول من ذهب اليها منهم الانكليز ثم استولى الفرنساويون على مايوته سنة ١٨٤١ وجعلوها مستعمرة لهم وعينوا فيها حاكماً • ثم تداخلوا في شؤون بقية الجزر وادخلوها تحت حمايتهم بالدهاء السياسي والقوة المادية والمعنوية وعينوا في كل جزيرة مقيماً يدير مصالحها باسم الامير او السلطان على مثال المقيم العام في تونس • وابقوا لامراء جزر القمر الثلاثة نوعاً من الاستقلال الظاهري كسلطان الزنجبار • ولهم منه نياشين يحسنون بها على المقربين لديهم كنشان كوكب القمر وكوكب انجوان ولكل منهما درجات وحمائل • واصبحت الجمهورية الفرنساوية تنعم بكوكب انجوان من عند نفسها بلا مشورة سلطان المنزوان • وأحسنت به على كثيرين من مسلمي الجزائر وغيرها • وعلى النشان كتابة سواحلية بالحروف العربية

أما الذهاب لجزائر القمر فيكون عن طريق البحر الاحمر وعلى بواخر المساجري ماريتيم فان هذه الشركة رتبت بواخر تقوم من مرسيليا في العاشر من كل شهر الى جزيرة القمر الكبيرة ومايوته وترسو في طريقها على بورت سعيد والسويس وأوبق وعدن وزنجبار • وبعد جزر القمر تذهب لجزائر موريس ورئيون ومداغسكر ثم ترجع من حيث اتت وتقوم من مايوته والمنزوان في الرابع والعشرين من كل شهر وتصل مرسيليا في ١٥ من الشهر الذي بعده • فيكون بين بورسعيد وجزر القمر نحو ١٥ يوماً

والبك تفصيل الكلام عن كل من الجزر المذكورة

١ — انجوان Anjouan

جزيرة انجوان او الهنزوان مثلثة الشكل لطيفة المنظر تشتمل على مياه واشجار واثمار واطيار كأنها الجزيرة التي وصفها السندباد البحري بعد ان اخذ فيها السفرة والمدام . وجلس على سافية جارية بين اشجار مثمرة فاكل وشرب وطاب له المنام . فالهنزوان زهرة الجزر الاربع المنتثرة حولها ولذا اتخذها سلاطين القُمُر مقرًّا لهم من قديم الزمان واصلهم من جزيرة العرب كما ذكر قبلاً

ففي سنة ١٨٤٢ اخرج الاميرسليم الآتي ذكرهُ على ابن اخيه السيد علوي وبعد حروب ومقاتلات تغلب عليه فخلعه عن الملك وجلس مكانه وظلّ حاكماً على الجزيرة الى ان توفي سنة ١٨٥٥ فقام السيد علي واشياعه يطالبون بحقوقهم في الملك ولكن الامير عبد الله ابن الامير سليم توفق لاخماد ثورتهم والجلوس مكان ابيه على سرير الامارة

وفي سنة ١٨٤٨ حضر الى الجزيرة انكليزي وزرع فيها قصب السكر ثم جاءها اميركاني وزرع فيها البن وربحا من وراء ذلك وعمرا الاراضي التي امتلكاها لمعرفتهما بفنون الزراعة واصول التجارة ولوجود رأس مال بأيديهما . فاراد السيد عبد الله تجاراتهما في زرع املاكه الخاصة فلم يتوفق لذلك ولا ربحت تجارته واحتاج للاستدانة من البنك الانكليزي الذي بجزيرة موريس التابعة لفرانسا ويعرف باسم (اورينتال بنك) وهو اشبه بالبنك الزراعي يقرض اصحاب الاراضي والمستعمرين ليقووا على زراعتها واستخراج ثروتها . فلما ذاق السيد عبد الله حلاوة الدين ابتلى به كما يبتلى شارب الدخان او المسكرات واخذ في التبذير والاسراف حتى بلغ مجموع الديون ٢٦٦,٠٠٠ ربية تنضم عليها ارباحها الفاحشة في كل سنة فحصلت المناسبات بسبب ذلك بين السيد عبد الله والتبعة الانكليزية وكانت مراكب انكلترة وفرانسا واميركا الحربية تجول في تلك المياه بدعوى ابطال تجارة الرقيق وحض الامراء على ترك هذه التجارة وتجس في الباطن احوال البلاد وما فيها من الخيرات والقابلية للعمران . فعقدت انكلترة مع السيد عبد الله معاهدة سنة ١٨٨٢ تعهد هو فيها بالمساعدة على ابطال تجارة الرقيق وعتق الاسرى . ولما رأى السيد عبد الله تزايد النفوذ الانكليزي في جزيرته اراد تعديله بالنفوذ الفرنساوي ورغب في عقد معاهدة معهم املاً بالتخلص من دين البنك الانكليزي وبمصادرة المزارع والاراضي التابعة لذلك المستعمر الانكليزي والاميركاني . فلما رست الباخرة الحربية الفرنساوية على جزيرة الهنزوان

عقد ربانها بينه وبين السيد عبد الله معاهدة مؤرخة الى ٢١ بلسان سنة ١٨٨٦ واحتال في وضع الجزيرة تحت الحماية الفرنساوية وكان السيد عبد الله طاعناً في السن فشرط في المعاهدة ان تكون ولاية العهد لابنه من بعده

ثم افاق السيد عبد الله من غفلته وعلم ان هذه المعاهدة لا دخل لها في اسقاط الديون عنه وانما هي ذاهبة بحريته واستقلاله على غير فائدة له فأخذ يحاول في تفسير متن المعاهدة ويحرف الكلم عن مواضعها ويؤولها تاويلاً لا يقبله العارفون بحقوق الدول . ثم امتنع من قبول المقيم (Résidant) الذي عينته فرانسا من قبلها فاغتاظت من ذلك وساقت عليه مراكبها الحربية وانزلت عساكرها جزيرة المنزوان واجبرت السلطان عبد الله بالرضا والتسليم بوضع الجزيرة تحت حمايتها وابدت المعاهدة الاولى بمعاهدة اخرى مؤرخة في ٢٦ مارث سنة ١٨٨٧ وبوفاق ثالث في تشرين اول سنة ١٨٨٧ وصرح فيهما بوضع الجزيرة تحت الحماية الفرنساوية وبارسال مقيم يكون في باطن الامر هو الامر الناهي في ادارة الجزيرة وسياستها الداخلية والخارجية على نسق المقيم العام في تونس وبتشكيل محكمة مختلطة في عاصمة الجزيرة وهي مدينة ساموددو . ومن جهة ثانية اضطر السلطان عبد الله على امضاء مقاولة اخرى بتاريخ تشرين ثاني (نوفمبر) من تلك السنة مع اصحاب الديون وبموجبها تركهم ادارة اراضيه ومزارعه الخاصة لاجل زرعها واستغلالها بمعرفتهم وتقسيم ايرادها السنوي الى قسمين قسم لنائض الديون واستهلاكها وقسم للخزينة الخاصة اي لمصاريف الامير وحاشيته . ثم اصدر السلطان عبد الله ارادته في سنة ١٨٩٠ بالغاء تجارة الرقيق ومنعها بالكلية فهيج العبيد المعتوقون واحدثوا باغراء الدكتور ويلسون وتشويقه ثورة في الجزيرة فنزلت اليها عساكر الباخرة الفرنساوية الراسية في مياهها واخمدت الثورة وقطعت دابر المفسدين . ثم بوشاية الاجانب وتحريكهم ايضاً قام السيد علي ابن السلطان سالم على اخيه عبد الله لحرمانه من حقوق السلطنة وجعل ولاية العهد لابنه بمقتضى معاهدة سنة ١٨٨٦ واخذ يفسد الناس على اخيه ويتبرم منه ومن ولده وولي عهده

ولما توفي عبدالله في ٣ شباط (فبراير) سنة ١٨٩١ انتشب القتال بين ابنه وولي عهده سالم وبين السيد عثمان احد اخوة عبد الله وسلح كل منهما عبيده وحاشيته وتم النصر للسيد عثمان على ابن اخيه سالم فعفى عنه وقربه واتفق معه على الوقوف امام مطامع الفرنساويين ومعاكستهم لتربص المقيم الفرنساوي وانتظاره الفرصة للغدر بهم والاستيلاء على الجزيرة فلما رأى المقيم اتفاق العم وابن اخيه أسرع بالذهاب الى مايوتة وعرض المسئلة على حاكمها

وعاد منها بالمراكب الحربية فرست على جزيرة المنزوان في ٢٣ نيسان وطلع العسكر الى البر وخلعوا الامير سالماً ولي العهد بموجب معاهدتهم وخلعوا عمه ايضاً وبعثوا بهما الى مايوته واجلسوا السيد عمر في سلطنة المنزوان وكان طاعناً في السن ووارثاً لعلوي وهو السلطان المخلوع في سنة ١٨٤٢

وكان السيد عمر ميالاً للفرنساويين ومحتمياً بهم فكافأوه بوسام الافتخار ورضوا بابنه سلطاناً على جزيرة القمر الكبيرة . فانقاد السلطان عمر للفرنساويين وقبل باجراء الاصلاحات والتصديق عليها . فاصدر ارادته بالغاء الرقيق الغاء باتاً وعقد مع حاكم مايوته الفرنساوي معاهدة جديدة بتاريخ ٨ كانون ثاني (يناير) سنة ١٨٩٢ وتقرر فيها الغاء مجلس الوزراء واحالة الوظائف المنوطة به للمقيم الفرنساوي فصار هو صاحب الرأي والتدبير في سياسة الجزيرة الداخلية والخارجية بالفعل وعلى الانفراد بعد ان كان مشتركاً في الراي مع الوزراء وكانوا له واسطة الاجراء كما هو الحال في تونس مع المقيم العام . ولم تلبث العساكر المحتلة في الجزيرة طويلاً بل ارتحلت عنها بعد قليل بدون ان يحصل في الجزيرة هرج ولا مرج بسبب الاصلاحات والتبديلات الجديدة وفي ١٦ نيسان (افريل) سنة ١٨٩٢ توفي السيد عمر وكان قد طال عمره كثيراً وطعن في السن

فاستولى المقيم الفرنساوي على زمام الحكومة وكتب لوزير المستعمرات بجعل الجزيرة مستعمرة فرنساوية كجزيرة مايوته الآنف ذكرها وتعيين حاكم لها بدل المقيم . فتوقفت الوزارة الفرنساوية في ذلك ثم قررت رد هذا الطلب وارسلت اوامرها وتعليماتها لحاكم مايوتة بالذهاب لجزيرة المنزوان وبالاشتراك مع مقيمها في اجلاس السيد محمد مكان والده السيد عمر المتوفى وهو سلطان المنزوان الى الآن

وهو كما ترى من رسمه (في صدر هذا الهلال) شاب عربي جميل الهيئة متزي بازياء تلك الجزر المشابهة لازياء الزنجبار ومسقط وبومباي الهند وفي منطقته خنجر ويعدُّ من حلي هذا الزي ومما لا بد منه . وحضرة الامير محمد خبيرٌ باحوال المدنية الحاضرة وتلوح على وجهه علائم الفطنة وقد زار باريس وتفقد معاهدها وطالت اقامته فيها وبعثته الحكومة الفرنساوية مرخصاً في عرض العساكر على قيصر الروس سنة ١٩٠٢ حينما زار فرنسا واحتفل له في بيتني وكان في هذا الاحتفال كثير من قواد الجزائر وبقية المستعمرات بالبستهم الوطنية

اما نفوس جزيرة انجوان فيقدرون بنحو ١٥,٠٠٠ واكثرهم عرب ومولدون من

الزنج والملفاش المهاجرين من مداغسكر ٠ وعاصمة الجزيرة موسامودو وهي محاطة بسور من الحجر ودورها مبنية بالاحجار وفيها قصر للامير وجوامع ومآذن وقلعة وهي ارق في الحضارة واكثر عمراناً من بقية الجزر القمرية وفي اهلها كياسة تدل على سابقة لهم في العمران والترف في المعيشة بالنسبة لاهل الجزر والسواحل الافريقية ٠ ولا غرو في ذلك فان اصلهم من السيرافيين ٠ وقد بين لنا صاحب تاريخ التمدن الاسلامي المطبوع في مطبعة الهلال في الجزء الثاني من هذا التأليف المفيد ص ١٨٢ ثروة تلك البلاد وعمرانها وسعة متاجرها ونقل لنا عن الاصطخري قوله « وكان في سيراف تجار واسعو الثروة يجوز مال احدهم ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والابنوس والفلفل وغيرها ... لان مركز تجارة الدنيا كلها كان في البحر المحيط الهندي قبل اكتشاف اميركا ثم انتقل الى البحر المحيط الغربي بعد اكتشافها وتنزل حال تجار العرب في المحيط الهندي حتى كادوا ينقرضون ٠ فهذا يدلك على السبب في كثرة امراء وسلاطين جزائر القمر واتخاذهم الوزراء والحجاب والخدم والحشم مع قلة عدد الاهالي وقلة ثروتهم في يومنا هذا فان ذلك من بقايا التمدن الاسلامي القديم ٠ وقد اجتمعت في باريس قبل المعرض الاخير باحد امراء جزر القمر واصطحبته مدة وكان ضيفاً عند المقيم الموظف باحدى تلك الجزر ٠ وكان يتكلم الفرنساوية قليلاً واما كلامه العربي فيصعب علينا فهمه لاختلاطه بكثير من الكلمات الدارجة التي اصلها من اللسان السواحلي ولعدم اعتناء حضرته بتعلم اللغة العربية والتمكن منها لفهم الكتب والجرائد شأن بقية أولاد الاكابر والامراء في الشرق بعدم رغبتهم في العلم والتعلم مع صعوبة تحصيل اللسان العربي على النمط القديم المألوف في الجوامع والمدارس الاسلامية

ومن مدن جزيرة الهنزوان يوموني ودوموني واواني وهي محاطة باسوار وآثارها تدل على عمرانها السابق — وسنأتي على ذكر بقية الجزر في الهلال القادم

وقال ابن الرومي في تفضيل النرجس على الورد

خجلت خدود الورد من تفضيله	خجلاً توردها عليه شاهدُ
للنرجس الفضل المبين وان أبى	آبٍ وحاد عن الطريقة حائدُ
ينهى النديم عن القبيح بلحظه	وعلى المدامة والسماع مساعدُ
أين العيون من الخدود نفاسة	ورياسة لولا القياس الفاسدُ

تاريخ علم الادب

عند الافرنج والعرب

١٩ — الطريقة المدرسية عند الافرنج

فروايات الادباء والشعراء المتقدم ذكرهم يقال لها روايات مدرسية كما يقال للكتاب الذي يدرس في المدارس كتاب مدرسي ويقصد به الكتاب الاقرب الى مرتبة الكمال في الفن الذي هو مؤلف فيه • فرتبة الكمال يمكننا تصورها والاحاطة بها في العلوم المدرسية كالنحو والصرف والبيان والمعاني والعروض أو الفقه والحساب • ولكن في الادب وفي الروايات التمثيلية ليت شعري ما هي مرتبة الكمال ؟ ففي جواب هذا السؤال وقع الاختلاف بين مشايخ الطرق الادبية من مدرسية ورمانية وحقيقية او طبيعية وفي نهايتهم الطريقة الانسانية وهي موضوع حديث القوم في يومنا بسبب كتاب نشره الموسيو فيكتور بيرار مستشار نظارة البوسطة والتلغراف وبحث فيه عن الأوديسه التي نظمها اوميروس الشاعر اليوناني • وكان الموسيو بول ادم بحث عن هذه الطريقة الادبية الجديدة في مقدمة قصته التي عنوانها (اسرار الجمهور) (مستيردوفول) وبول ادم محرر اليوم في جريدة الجرنال الباريسية

فاصحاب الطريقة المدرسية يذهبون الى ان مرتبة الكمال في الادب هي « أولاً » تمام النسبة التي بين اساس الفكر وبين شكل التعبير • اي بين المعاني التي يختلقها الشاعر وبين قوالب الالفاظ التي يسكب تلك المعاني فيها • فعلى مذهبهم لا يكفي ان يكون المعنى حسناً بل ينبغي ان يكون الحسن ايضاً في كيفية اداء هذا المعنى • فالكلام الجاري على الطريقة المدرسية هو معنى بديع في لفظ حسن [1] • فهذه الموازنة التي بين اساس

(١) قال ابن خلدون: الذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ • وأما المعاني فهي في الضمائر • فالمعاني موجودة عند كل واحد • وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى • فلا تحتاج الى صناعة ؟؟ وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة (art) • وهو بمثابة القوالب للمعاني • فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب

الفكر وشكل التعبير هي الخاصة المميزة لمؤلفات العصور المدرسية كعصر لويس الرابع عشر وعصر اغسطوس وعصر بيرقلس • والعصر المدرسي لا يوجد عند جميع الاقوام بل بعض الامم ليس لهم عصر مدرسي ولا ادب مدرسي مطلقاً ولا يتيسر لهم الوصول الى مرتبة الكمال في الادب ابداً • لانهم اذا تمكنوا من الاتيان بالمعاني البديعة فلا يتمكنون من اداء هذه المعاني بالالفاظ الحسنة ولا يقدرون على الترجمة عن افكارهم حق الترجمة لاحد السببين : اما ان اللسان الذي يتكلمون به لم يزل على خشونته ولم يكتسب بعد الشكل البديع • واما ان تكون اساليب الفن ولوازم الصناعة الادبية لم تعرف بعد عند المتكلمين به • ثم انهم يشترطون في التأليف المدرسي ان يكون ظهوره في الزمن الذي بلغت اللغة فيه اوج الكمال ويقولون لا بد من هذا الشرط • ويعترضون على اصحاب الطريقة الرومانية لانهم تجاوزوا النسبة التامة التي بين اساس الفكر وشكل التعبير • ولم يكتفوا بالتعبير البسيط الذي يؤدي معانيهم تمام الاداء • بل ارادوا زيادة عن هذه النسبة التامة • بل تطلبوا ازيد من ذلك ايضاً • فارجعهم تهافتهم الى الوراء وساقهم الى الاساليب الاجنبية واوصلهم الى طريقة لوب دوفيكا الاسباني والى طريقة بايرون وشكسبير الانكليزيين

ويذهب اصحاب الطريقة المدرسية الى ان مرتبة الكمال في الادب هي « ثانياً » وجود موازنة بين التخيل الشعري وبين التعقل • بل يشترطون وجود هذه الموازنة بين جميع الحواس • فاذا كان التخيل الشعري في التأليف الادبي منافياً للعقل فلا يعتبرون ذلك التأليف على نهج الطريقة المدرسية • مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب • ومبالغات العرب اقل من غيرها لاسيا في كلام الجاهلية واهل الطبقة الاولى من الاسلاميين الذين لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم ولا حصلت لهم الفة بفنون ادب الفرس ولا بتعبيراتهم • ومن هذه المبالغات قول المتنبي في صباه يصف ما فعل به العشق :

والفضة والصدف والزجاج والخزف • والماء واحد في نفسه • وتختلف الجودة في الاواني المملوءة باختلاف جنسها لا باختلاف الماء • اه كلامه • وفي بعضه نظر ولا يخفى ان الشاعر المفلق اقدر من غيره على رؤية الاشياء ببصره وباصرته وعلى التعبير عنها بلسانه • فالمعاني المتحصلة في ذهنه لا توجد عند كل احد •

ابلى الهوى اسفاً يوم النوى بدني ..... الى ان قال : لولا مخاطبتي اياك لم ترني

فهذه المبالغة لا تنطبق على العقل ولا تحدث في العادة والمتنبي ولد في الكوفة وذهب الى فارس واختلط بادباء العجم . ومن مبالغات نفعي كبير شعراء الترك المتقدمين (القرن الحادي عشر للهجرة) قوله بالالفاظ الفارسية والتركيب التركي يصف يوماً شديد الحر :

(..... كيم برمورد بردم كرم ايله ايلر يدى دريای سراب) . ومعناه ان النملة بنفس حارّ تجعل السبع البحور سراباً . ومن قرأ ديوان نفعي حسب ناظمه من زمرة عوج بن عناق وظن تمثال رودس الذي كانت المراكب تمر من بين ساقيه صورةً له . ومنها قول ضيا باشا — وهو في مقدمة ادباء النشأة الجديدة العثمانية وله وقوف على الفرنساوية — باللسان العثماني الجديد الذي يكثر فيه استعمال الالفاظ العربية: (سروقد افلاكه سر چكمش مثال قديار) . ومعناه مثل قد الحبيب كاشجار سروٍ ناطح برؤوسها الافلاك . ويذكرني هذا ماقاله احد الواعظين في جامع ايا صوفيا بان من صام كذا وصلى كذا وسبح كذا في ليلة القدر التي هي خير من الف شهر رزقه الله في الجنة حورية طولها مابين بعد المشرقين . فان كنا نستهجن طول الآنسة ايلابوين اطول نساء العالم ولاتتوق النفس الى قربها وهي لا تزيد عن الطول المعتاد باكثر من قدمين فما بالك ان زاد قدّ عروسنا الميال عن ذلك

ويقسم علماء المعاني المبالغة الى ثلاثة اقسام : وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً وعادةً ويقال لها التبليغ . ومعقولة وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً لا عادةً ويقال لها الاغراق . وغير معقولة وهي ما لا يجوّز وقوعها العقل ولا العادة ويقال لها الغلو . فاهل الطريقة المدرسية يرفضون الغلو والاغراق في الكلام . ويقولون بان بعض الامم او بعض العصور في الامة الواحدة لها تخيل شعري وليس لها تعقل . وقد جاءت هذه الامم او هذه العصور بكثير من المؤلفات البديعة التي لاتخلو من الفوائد ولكن مؤلفاتهم ليست بمدرسية لوجود التيخل الشعري فيها بدون تعقل . كما هو الحال في ماهابهاراته وراماياته من اشعار الحماسة الهندية وفي الشعر الفارسي والتركي القديم وبعض اشعار العرب المخالطين للعجم . فمن خصائص العصور والآداب المدرسية تحكيم الذوق السليم في مؤلفاتها . والذوق السليم لا يميل طبعاً الا للجمال والتناسب والقياس ولا وجود لما ذكر في زمن تشكل اللسان ولا في زمن انقراضه

ولاصحاب الطريقة المدرسية مسألة ثالثة ايضاً وهي محبتهم الصدق والحقيقة . فهم يذهبون الى ان احسن الشعر اصدقه لا اكذبه . ولكنهم لايقصدون باتباع الحقيقة تصوير الحقيقة بعينها تصويرًا تامًا كما ذهب اليه اصحاب الطريقة الحقيقية وورد في مؤلفات امامهم اميل زولا . كلا بل يقولون فقط بلزوم ارتباط التصوير الذهني بالشيء الحقيقي وبان التصور الذهني وحده في الشعر لا يكفي

وعندهم ايضاً ان التآليف المدرسية يجب ان تكون منحصرة في تصوير الجميل والبديع فالتآليف المغايرة للآداب الاخلاقية والموجبة لاشمئزاز النفس يندر فيها الجمال فلاتكون مدرسية . فهم لا يطالبون الكاتب الذي يسلك طريقتهم بان لا يحرك قلمه الا في المواعظ الحسنة والاخلاق المستحسنة ولا يصور فيها شيئاً غير الجمال . ولكنهم ينذرونه بسقوط مؤلفاته ان ملأها بوصف الاشياء القبيحة والافعال الشنيعة . كما فعل زولا في كتاباته وصور فيها بؤس المعيشة وسفالة الحياة . ونظم احد الادباء في العام الماضي رواية صور فيها الامراض الزهرية والعلل الافرنجية التي تحدث من الانهماك في العهر وشرح ذلك على مرسح الالعب شرحاً اليق ان يكون في غرفة الطبيب المخصصة لمعاينة الامراض السرية . فمنع المراقب تمثيلها في باريس كما منع رقصة الشربة والشمعة من المرسح المصري في المعرض الاخير . ويقال بأن الرواية المذكورة في غاية من البلاغة وباعثة على التعفف

و يشترطون في الطريقة المدرسية شرطاً اخيرًا وهو ان تكون المؤلفات فيها مليّة قومية اي مصورة لافكار القوم الفلسفية ولاحوالهم الاجتماعية . فان كان التأليف الادبي وضع تقليدًا للاجانب فلا يكون مدرسيًا . فبناء عليه يكون هذا الشرط مرعيًا في المؤلفات التي استخرج صاحب مجاني الادب زبدتها في كتابه لانها من المؤلفات المختصة بالعرب قبل الاسلام وبعده . بخلاف المؤلفات العربية الموضوعة في زماننا على الاسلوب الافرنجي وربما كانت مترجمة عن لسان من الالسنة الاجنبية فانها ليست على وفق الطريقة المدرسية . مع ما فيها من الفوائد التي سنذكرها في بحث الطريقة الرومانية

فهذه زبدة الاقوال وخلاصة القواعد التي اسست عليها الطريقة المدرسية . فكان من اتى من الادباء بعد عصر لويس الرابع عشر وهو القرن السابع عشر الذي بلغ اللسان الفرنساوي فيه درجة الكمال لا يخرجون في النظم والتأليف عن الاساس الذي وضعه مشايخ الطريقة المدرسية ولا عن الاساليب التي راعوها . ويتكلفون لذلك الصعاب

ويعانون طول الدرس ومراعاة القواعد ليتمكنوا من تحسين العبارة ومن تطبيقها على ما يتخيلونه من التشابيه والاستعارات ويلتزمون عدم الخروج عن اوزان العروض المصطلح عليه بين قومهم وجماعتهم ويجعلون كل بيت في الغالب كلاماً تاماً ولا يأتون بشيء من الكلام السوقي المبتذل ولا يصورون رذيلة من الرذائل ولا سوأة من سوآت الانسان وعوراته ولا يصفون شيئاً من بؤس المعيشة اوسفلة الحياة الدنيا . وينتخبون مواضيع مؤلفاتهم من تواريخ القرون الاولى اي من تاريخ اليونان والرومان والعبرانيين . فكان كلامهم مشتملاً على التخيل الشعري وعلى التعقل المشروط وجودهما في الطريقة المدرسية ولكنه بارد ممل بسبب ما فيه من التصنع والتعمل ومن مراعاة تلك الشروط والقيود التي قيدت عقول اصحابه ومنعتهم عن الخوض في مضمار الوسط الذي هم فيه ويشعرون به ويريدون البحث عنه فيمنعهم مراعاة تلك القواعد والاساليب الانشائية . فمؤلفاتهم مع استيفائها للشروط المدرسية لم تحدث تأثيراً على النفس ولاتهييجاً للعواطف كمؤلفات الطريقة الرومانية لعدم مراعاة شرط الاحساس القلبي فيها . ولذا قالوا بان راسين وقورنيل ومولير واهل طبقتهم لو اطلقوا العنان لاقلامهم ولم يقيدوها بسلاسل تلك الشروط المدرسية لأتوا باحسن مما جاؤا به من درر الالفاظ وغرر المعاني

فهذا ما كان عليه فن الادب الفرنساوي قبل الانقلاب الكبير ولذا كان الكثير من الكتبة لاسيما النشأة الجديدة يتذمرون من تقيدهم بتلك القيود المدرسية ويرون انفسهم كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه . فكان مثلهم كمثل غلام في مكاتبة ارباب التحرير والمهنة فلم ير امامه من نموذج الانشاء سوى ما طبع في الاستانة من رسائل الخوارزمي والبديع الهمذاني . وكانت هذه النشأة الجديدة ترى ايضاً قصور الطريقة القديمة عن حقيقة البلاغة وهي مطابقة الكلام للواقع ومقتضى الحال . لان اصحاب الطريقة المدرسية مع محافظتهم على التعقل في الكلام كادوا بكثرة تشابيههم واستعاراتهم لا يسمون الاشياء باسمائها الحقيقية ويستعملون الحشو ويتكلفون العبارات التي لا لزوم لها . فاذا اراد احدهم ان يعين الوقت وهو يكتب قصة او رواية ويقول مثلاً قبل مرور ساعة من الزمان دبج عباراته وكثر استعاراته وقال :

(قبل ان يتم العقرب خطاه المنظومة وينقل على مينا الساعة المجلاة ستين خطوة موزونة ٠٠٠٠) الخ

كما فعل الشاعر الفرنساوي اندره شينيه وهو خاتمة الشعراء السالكين منهج الطريقة

المدرسية وابلغهم كلامًا . وكانت ولادته في الاستانة وامهُ رومية فارتحل الى باريس وصار فيها امام اهل طبقته فلما قتل سنة ١٧٩٤ م مع من قتل من افاضل الرجال واكابرهم بآلة الكيليوتين انقرضت الطريقة المدرسية بعد ان كانت قواعدها واساليبها هي المرعية بين الادباء . يتبع فيها الخلف اثر السلف . ومع اعتراف النشأة الجديدة بما فيها من القصور والخلل لم يقدم احد منهم على تركها ولا الخروج عنها لاوائل القرن التاسع عشر

فقبل هذا التاريخ كان جمهور الناس وعوام الامة في تسيب وغفلة لا يقيدون على المصالح انتظمت أو لم تنتظم ويدعون الامور تجري في مجراها حسنًا كان او قبيحًا نافعًا او مضرًا كما يجري الماء في الارض الطيبة بدون حفر النهر ولا كريه . وكانوا يستعملون هذا التعبير (ليسه أليه) كما نستعمل تعبير (طيب معليش) . ولا يهتمون بالمسائل العمومية والاجتماعية كانها لا تعنيهم ولا يعود خيرها وشرها عليهم . فلما حدث الانقلاب الكبير في فرانسا سنة ١٧٨٩ م تغيرت البلاد ومن عليها في بضع سنين وانقلبت افكار الناس وعاداتهم واخلاقهم وزال عنهم التسيب والغفلة والكسل والرخاوة وشغفوا بحب الانتظام والدقة . فتقيدوا بالمسائل وتبصروا بالامور وكانوا صاحين ناصتين منكرين متعقلين لا يضيعون اوقاتهم في ما لا فائدة فيه ولا يشتغلون بالعبث من اللهو واعتادوا على الآداب العسكرية في انتظام الحركات والسكنات لان الامة باسرها حتى النساء والصبيان كانوا باجمعهم تحت السلاح الكامل يكرون ويفرون من غرب اوروبا الى شرقيها ومن قارة افريقيا الى قارة اسيا اي من [illegible] فكان الواحد منهم لا يهمل في قيامه وقعوده امرًا ولا يغفل في ملابسه عن زر ولا يترك فيها فتقًا بغير رتق واذا وقف استقامت قامته لان الانسان مستقيم القامة واذا مشى او ركب لا يتوكأ على الخدم كما تفعل اكابر بعض الامم دلالاً وعظمةً بل اعتمد في حركاته على نفسه . وانتزع من عقولهم اكثر الخرافات والاباطيل التي تتولد في الانسان عادة و يكبرها الوهم في مخيلته ما دام في مكانه لا يخرج منه ولا يسيح في الارض فينظر كيف كانت عاقبة المتقين

فانقلاب الاخلاق والعادات والاطوار استلزم انقلاب اللهجة وتغيير التعبيرات ولذا كان العصر الجديد مفتقرًا لاسلوب جديد في النظم والنثر وكان رجال العصر يترقبون حصول انقلاب في الادب كما حصل في السياسة والعادات . فولد فيكتور هوكو والعصر الجديد سنتان وصار رجل هذا الانقلاب الادبي — وسيأتي الكلام على الطريقة الرومانية

صحة العائلة

التبغ

تاريخه وخواصه واضراره

لحضرة نعمة افندي ايليا الصيدلي القانوني

الانسان محاطٌ بأسباب الضرر من كل ناحية كأن عناصر الطبيعية من اعدائه يعاشرها على حذر فيتقي شرّها بما اكتسب بالاختبار من اسباب الوقاية . واذا عرفتَ عدوّك هان عليك اتقاء شرّه بالاحتياط والتحصن . وانما الخوف من عدوٍ يظهر لك بثوب الصديق فيأتيك على غرة ويدس لك السم في الدسم — ومن هذا القبيل المواد التي ندعوها منبهة او منعشة او مطربة كالتبغ والشاي والقهوة وغيرها من المنبهات أو المشروبات الروحية فاننا نعاشرها معاشرة الصديق وهي تنال منا مالا ينالهُ الدُّ الاعداء . فهي اولى بكشف امرها واظهار نفعها او ضرّها ليهون على الناس اتقاء شرها — فنبدأُ بالتبغ :

❊ تاريخه ❊ التبغ واسمه الشائع في التركية دخان وتتن وفي عرف النباتيين تباكم نيكوتيانا Tabacum Nicotiana نبات سنوي من الفصيلة السولونية التي منها اكثر النباتات السامة . سمي تباكم نيكوتيا نسبةً الى جزيرة صغيرة من جزائر الانتيل اسمها تباكو لان الانسان المتمدن اكتشفه فيها اولاً حيث كان سكانها الكرايب يستعملونه كثيرًا والى يوحنا نيكوت الذي ادخله الى فرنسا كما سيأتي . ولم يكن التبغ معروفًا منذ خمسة اجيال في البلدان المتمدنة بل كان محصورًا بين نفر من المتوحشين سكان غابات اميركا وقفارها المجهولة . ولما اكتشف كولمبوس جزيرة كوبا سنة ١٤٩٢ ارسل نوتيين لفحص اراضيها فاخبرا لدى رجوعهما ان السكان يحملون في ايديهم قضبانًا قصيرة مشعلة ويخرجون من افواههم دخانًا فظناهم يعطرون ذواتهم كما يتعطر المتمدنون بالروائح العطرية . وقالا بعد ذلك انهما نظرا اولئك البرابرة يلفون اوراق نبات طويلة فيشعلونها ويدخنون بها كالابالسة . هذه اول مرة رأى بها الانسان المتمدن تلك العادة

البربرية التي شاعت بعدئذٍ شيوعاً عظيماً وكان تأثيره منها في بادىء الرأي شديداً حتى لقب مستعمليها بالابالسة . واول رجل اوربي رآه خادمه يخرج الدخان من فمه ظن النار بلتهمه فاسرع الى الماء يصبه عليه حتى كاد يميته غرقاً قبل ان عرف الحقيقة

اما بدء استعماله في جزائر الهند الغربية فما لا نعلم قدميته وقد كان معروفاً عند جميع هنود اميركا حتى في كندا شمالاً وله عندهم مقام ديني ودخل في عباداتهم وكل اعمالهم المهمة . فالكلومت اي « غليون السلام » كان ضرورياً عندهم للتوقيع على المعاهدات وهود ليل الصداقة والمحبة كالملح كلة عند الامم المتمدنة وكان المتعبدون منهم يعتقدون ان الالهة التي يعبدونها كانت تسرّ باستنشاق رائحة ذلك النبات المقدس العطرية الذكية صاعدة الى العلاء كرائحة البخور الصاعد من مذبح الكنيسة . لا يذكر التاريخ شيئاً عن كيفية اكتشاف اولئك البرابرة عادة استعماله او زمن اكتشافه لكن وجود آلات التدخين كالغليون وانابيب الاستنشاق في اقدم مدافنهم على اكمات تعلوها اشجار عظيمة تقتضي قروناً عديدة لتصل الى ذلك الحجم برهانٌ جلي على قدمها . ثم نقلها الاسبان عن اولئك البرابرة فادخلوها الى اوربا بعد اكتشاف اميركا بسنين قليلة وصادف ادخالها استحساناً لدى اطباء تلك الايام اذ استعملوا التبغ مقيئاً وكانوا يحثون على مركب مقيء يختبرون فعله في مرضاهم فانقاد الكثيرون بذلك الى تدخينه . وفي اواخر القرن السادس عشر عمّ البرتوغال واسبانيا ومن هناك اخذ يمتد رويداً رويداً في كل اوربا وشمالي افريقيا وتركيا ومصر والهند والصين والعجم . واول تبغ نشأ في اوربا غرس في ليسبون للزينة فقط جاء بيزور Gonzalo Hermandes de Bviedo واول من قال بنفعه طبياً نقولا ميناردس Nicola Minardes . ادخل الى ايطاليا سنة ١٥٦٠ والى فرنسا في ايام الملك هنري الرابع اذ جيء بيذوره سنة ١٥٦٠ الى الملكة كاترين دي مديسس ولذلك دعي حشيشة الملكة نقلها يوحنا نيكوت سفير فرنسوا الثاني في البرتوغال ومنه سمي نيكوتيانا كما ذكر قبلاً . وبعد مدة قصيرة استعمل سعوطاً فجيء بعلبة من مسحوقه الى ماري ملكة فرنسا وكانت مصابة بمرض عصبي وزعم الاطباء نفعه في معالجة الامراض العصبية . وفي ذلك الوقت تأسس معمل للسعوط في اشبيلية لاستحضار السعوط الاسباني المشهور . وسنة ١٦٥٧ زرع في البندقية فأتى بدخل عظيم .

لا يذكر شكسبير شيئاً عن استعمال التبغ في البلاد الانكليزية لكن الادلة القوية تؤكد

انه كان معروفاً جيداً في انكلترا في ايامه ولكن استعماله كان محصوراً بين الاغنياء لغلاء ثمنه وكان يدخن بغلايين قصيرة القصبة · وقال بعضهم ان القبطان دراك الانكليزي اتى به من فرجينيا الى انكلترا قبل ان ادخله نيكوت الى فرنسا · ويشك باستعماله في الشرق قبل اكتشاف اميركا لكن ماين يذكر بجغرافيته في النبات انه وجد آثار غلايين في الصين محفورة في الصخور استنتج منها امكان شيوعه عند الصينيين للتدخين منذ زمان قديم لكن ذلك امر غير مؤكد وان سلمنا بصحته فاستعماله لم ينتشر في البلدان المجاورة كانتشاره في اوربا بعد اكتشاف اميركا · وذكر شردان في رحلته الى بلاد فارس سنة ١٦٦٠ ان التبغ وطني فيها منذ اربعماية سنة · ومع ان استعماله لم ينتشر في الشرق الا في الجيل السابع عشر فان الاتراك والاعجام صاروا من اعظم المولعين به وقد شاع في الهند والصين بين الرجال والنساء حتى ان البنات الصينيات اذا بلغن الثامنة من العمر لبسن فوق ثيابهن جيباً من الحرير المزركش يعتنين به غاية الاعتناء يضعن فيه التبغ وآلة تدخينه يصطحبنها في زياراتهن حيثما يذهبن

ظهر مما مرَّ ان استعمال التبغ وطرق استعماله اختراع البرابرة الوثنيين العراة المتوحشين قاطني سهول اميركا المجهولة · اما الانسان المتمدن فلم يكتشف طريقة اخرى لاستعماله بل اقتدى باولئك البرابرة الذين نعتهم اولاً بالابالسة واخذ يستعمله استنشاقاً ومضغاً وسعوطاً كما ترى في ابانها الحاضرة · فتغلبت تلك العادة السيئة الطائلة على العالم اجمع ولكنها لم تستعبده الا بعد جهاد عظيم وحرب عوان كانت تفوز مراراً وتسقط اخرى · وما ذلك الا لعدم خلو الهيئة الاجتماعية في كل مكان وزمان من مجاهدين في سبيل الفضيلة والاخذ بناصرها · فعني ملوك اوربا سنة ١٦٠٤ في مقاومة انتشار التبغ ساعدهم فيها كل ذي نفوذ فوضعوا في سبيله العقبات وحرموا استعماله بقوانين صارمة وقصاصات هائلة

حرم التدخين في روسيا في اواخر الجيل السابع عشر تحت قصاص الجلد اولاً وجدع الانف ثانياً والاعدام ثالثاً ويذكر التاريخ جدع انوف كثيرين في الساحات العمومية عبرة لغيرهم لاستعمالهم التبغ بعد ان جلدوا اولاً حسب نص الشريعة · وحرَّم ملك انكلترا جامس الاوَّل استعماله وقال التبغ مقت للعين وكره للانف واذى للدماغ وخطر للرئتين وكانت مملكة سويسرا تعتبر مستعمليه مجرمين وبقيت تلك الشريعة نافذة الى القرن الماضي · والباباوان اوربان الثامن واينوسنت الثاني عشر حرَّما استعماله تحت القصاص

الكنائسي الشديد . وكذلك فعل عموم كهنة اوربا

وصرحت سلاطين آل عثمان وافتى الائمة والقضاة بان استعماله اثم عظيم وشرّ فظيع يضاد الدين ويضر بالآداب لانه من المخدرات المحظور تعاطيها في الشرع وكثيراً ما كان متعاطوه يموتون اشنع الميتات ويعذبون باقسى انواع العذاب كادخال قصبات الغلايين في انوفهم ونحو ذلك

ثم اقتدى بهم ملوك الشرق فكانت شرائع تحريمه في العجم صارمة جداً حتى اضطرَّ مستعملوه ان يهربوا الى الجبال العالية مفضلين الانفراد عن العالم والنفي بين الصخور ومقاساة العذاب اشكالاً مع حريّة استعماله على رغد العيش في مدنهم وقرام بدونه

ولم تكن نيران تلك الحروب تزداد اضطراماً في اوربا والشرق فقط بل وصلت الى اميركا موطن التبغ الاصلي واكثر مستعمراتها فاقتدى حكامها بجامس الاول ملك انكلترا وحرَّموا استعماله فوُضعت كل العثرات في سبيل انتشاره حتى فرضت بعض الولايات القصاصات الصارمة على مستعمليه . ولا تزال شرائع بوستن المسنونة ضد التبغ باقية الى يومنا هذا وقد أُلقي القبض فيها منذ بضع سنين على عامل يدخن في احد الشوارع وغُرِّم بموجب القانون

ولكن واسفاه لم تدم تلك الحرب طويلاً ولم ينجلِ غبار ذلك الجهاد الاَّ عن انقلاب معسكر الفضيلة واندحاره فنقض البابا بندكت حرم اوربان واينوسنت المذكورين سابقاً لانه كان من المدخنين . ولما أحسَّ ملك فرنسا بالمنافع المالية التي تعود منه لخزينة الحكومة ضحى الانفس الالوف والوف الالوف في سبيل الحصول على دريهمات يضيفها الى خزينة مملكته فاذن بادخاله الى بلاده بعد ان وضع عليه رسماً باهظاً . ثم اقتدى به ملوك اوربا املاً بزيادة مدخول ممالكهم واصبحوا هم انفسهم يتعاطونهُ وبالطبع تناقصت مقاومتهم له سنة بعد سنة فالغوا القوانين التي سنها سلفاؤهم لتحريمه واقتدى الاغنياء بالملوك والعامة بالاغنياء فذهبت كل الاتعاب الاولى سدى واخذ استعماله ينتشر رويداً رويداً فأفسد بخار سمّهِ المميت هواء الجلد النقي وملأهُ بالكربون عوض الاوكسجين وصار تسلية الغني والفقير المتمدن والمتوحش واستعبد الالوف والوف الالوف من الملك الجالس على عرشه الى الفقير في كوخه فانقادوا اسرى ارقاء لتلك العادة البربرية راضخين لجورها وعسفها وهم صاغرون . ومن يتتبع كيفية انتشار التبغ منذ اكتشافه للآن يعلم جلياً عظم استعداد الطبيعة البشرية للتمسك بالعادات التي تاتي باللذة الوقتية من دون التفات الى نتائجها المستقبلة المهلكة . ولا يذكر التاريخ عادة رديئة انتشرت بسرعة

كانتشار التبغ

﴿ تركيبه ﴾ حللوا التبغ كيماوياً فوجدوا اوراقه تحتوي على مواد معدنية بمقدار عشرين في المئة من الاوراق المنشفة على مئة درجة ٠ وهي كربونات البوتاسيوم وكبريتاته وكلوريده وكربونات الكلسيوم وسلكا واملاح نشادرية ونترات وحامض ماليك وليمونيك ١١ ـ ١٤ وحامض اوكساليك ١ ـ ٢ وحامض بكتيك ٥ وكية قليلة من الحامض الخليك ومواد ازوتية ٢٥ والياف خشبية وراتينج ونشا ومواد دهنية وزيت عطري ٤ ـ ٦ ويستخرج من كل رطل من بذوره نحو ثلاث اواق ونصف زيت صالح للاكل٠ وهذه كلها موجودة في النبات بكميات تختلف باختلاف وطنه وتربة ارضه وطرق زرعه اما الدخان المتصاعد عنه فيحتوي على :

١ بخار مائي فيه مواد كثيرة يمكن فصلها منه

٢ كمية قليلة من الكربون الثالث ومنه لون الدخان الازرق وهو المتجمع وقت التدخين على غشاء القسم الحلقي المخاطي للحلق وغشاء الشعب الرئوية المخاطي ويسبب غالباً افرازاً وافراً يخرجه مع السعال بلون لحمي

٣ كية من الامونيا وهي التي تلسع اللسان وتنشفه وتيبّس الحلق وتزيد في ميل المدخن للاكثار من التدخين وتحدث بعملها المنعكس تهيجاً في الغدد اللعابية فتفرط في افرازها وتؤثر في الدم ايضاً

٤ كية من الحامض الكربونيك تختلف باختلاف التبغ وآلة يسبب الميل للنوم والصداع والاعياء الحادث بعد استنشاقه مدة طويلة

٥ مادة زيتية ذات صفات سمّية تعرف بزيت التبغ اذا تحللت وجدت مركبة من شبه قلوي هو النيكوتين المبدأ الفعال في التبغ ومادة طيارة ذات رائحة خصوصية وخلاصة سوداء اللون مرّة الطعم ٠ فالرجفة وخفقان القلب والفالج من امراض المدخنين سببها النيكوتين ٠ ورائحة الدخان التي تبقى طويلاً في أفواه المدخنين وعلى اثوابهم سببها المادة الطيارة ٠ والطعم المقيء الحاد الذي يشعر به المدخن اذا وضع قصبة غليون مستعمل في فمه سببه الخلاصة المرّة

﴿ خواصه ﴾ قد اجمع الكيماويون والاطباء والنباتيون قاطبة بانه في جميع اجناسه من اعظم السموم القتالة المعروفة واسرعها فعلاً ماعدا الحامض الهيدروسيانيك لانه يميت في ثلاث او اربع دقائق بواسطة النيكوتين المادة الفعالة فيه وهي اكثر في

التبغ الاميركي والاوربي منها في السوري والتركي . اما النيكوتين فهو شبه قلوي مركب من عشرة جواهر من الكربون واربعة عشر جوهرًا من الهيدروجين ونسبتهُ في النبات كنسبة ٢ — ٨ في المائة . وهو سيال زيتي ثقيل مخدر سام جدًّا عشر قمحة منه تميت كلبًا بمدة ثلاث دقائق لا لون له اذا كان نقيًا لكنه يصفرُّ متى تعرَّض للهواء اذ يمتص الاوكسجين فيتأكسد . يتولد منه مع الحوامض املاح متبلورة رائحته خنينة متى كان باردًا واذا أُحمي يتصعَّد بخارًا حرّيفًا جدًّا . اذا بخرت نقطة منه في غرفة ضاق التنفس فيها واذا كانت مغلقة النوافذ امات ما قد يكون فيها من الطيور او الضفادع او الحيوانات السفلى . وهو يذوب في الماء والكحول والزيوت الدهنية و يوجد منهُ ثلاثمائة وثمانون قمحة في كل ليبرا (رطل) من التبغ وهي كافية لقتل ثلاثمائة رجل وفي كل سيكار من التبغ ما يكفي لقتل رجلين اذا اخذ محلولا . وقد ذكر حوادث كثيرة امات النيكوتين فيها اشخاصًا في ثلاثين ثانية ولذلك فانهم استخدموه غير مرة للاعدام وجرب الكونت بوكارمه قتل ابن عمه به طمعًا بميراثه . وكثيرًا ما يستعملهُ اهل الموتنتوت لقتل الافاعي لان نقطة منه تميت الافعى بلحظة . واستخدموه ايضًا لابادة الديدان الصغيرة والحشرات المؤذية للنبات في كثير من البساتين والجنائن . اذا وضعت نقطة منه على جرح في رأس طفل اماتته حالاً . ويتحوَّل هذا المبدأ الفعال بالحرارة العالية الى مواد أُخرى سريعة التبخر واقل قوة منه وتسمى بالاصطلاح العلمي بيريدين وبيكولين ولوتيدين . يتكون الكولِيدين في السيكاره والسيكار بالاحتراق التام والبيدين يتولد في الغليون من احتراق ناقص فضلاً عما يتولد في الدخان المتصاعد من المواد السامة كالهيدروجين المكبرت وثاني اوكسيد الكربون واكسيد الكربون والحامض الهيدروسيانيك وكلها سموم قتالة

﴿ اجناسه ﴾ ينمو في المنطقتين المعتدلتين وفي المنطقة الحارة على جانبي خط الاستواء واكثرهُ في وهدة اميركا الشمالية . وهو نيف واربعون جنسًا تختلف باختلاف كمية المواد السمية الموجودة فيها اشهرها التبغ الاميركي ومنه تبغ كوبا وفرجينيا وهافانا وهو يحتوي على ٢ — ٦ في المائة من النيكوتين . والاخضر ويدعى الانكليزي لانه احضر الى انكلترا اولاً . والعجمي في بلاد العجم ومنه التبغ الشيرازي المشهور والتركي والسوري وهو الطفها كلها عطري شهيُّ الرائحة مقبول للتدخين نوعًا قليل المادة السمية فضررهُ اخف والحرهُ الجبلي الذي ينمو في بلاد جبيل من اعمال لبنان والريحاني وابو ريحة بنمو ان في اللاذقية ونواحيها . ومن اجناسه التنبك نبات فارسي غير معروف في الغرب قوي جدًّا

لا يستعمل بعد إلا غسله

﴿ استعماله ﴾ يستعمله بعضهم لمقاصد طبية تتلف اوراقه مع نباتات أُخرى كالمريمية وخلافها وتدخن في النزلة الشعبية المزمنة وقد ترش بصبغة اليود وتدخن في التدرن او تمزج بالحامض الزرنيخوس او املاح الزئبق في حالات مرضية خصوصية ويستعمل منقوعه مقيئاً واوراقه منفطاً ومسحوقه سعوطاً بالدمع الناشئ من تيبس المخاط في الجزء السفلي من القناة الانفية ويؤخذ مسرقاً في بعض الارماد ولكن الاستعمال الاكثر شيوعاً والذي عليه مدار الكلام في هذه المقالة هو الاستنشاق (التدخين) والسعوط والمضغ بقصد التسلية كما يقال وتنبيه الدماغ والحقيقة لتخدير الدماغ بتعله المخدر المسكر كالمشروبات الروحية ونحوها · فالاول وهو التدخين شائع جداً حتى يكاد يندر وجود اثنين في المائة لا يتعاطيانه وهو اسرع الوسائط لادخال سمه الى الجسم كما سيأتي · والثاني وهو السعوط اقل شيوعاً الا في انكلترا وبلاد العجم وبر الترك فانه كثير الشيوع يحملونه في احقاق يتهادونها على سبيل المجاملة والملاطفة اما الثالث وهو المضغ فانه بعيد عن عادات المتمدنين يستعمله بعض الاميركين والنوتية الانكليز لامتناع التدخين عليهم في المراكب خوف الحريق · والتدخين اما بالسيجاره او السيجارا والغليون وهذا الاخير يصنع من مواد مختلفة اشهرها الدلفان الابيض واستعماله قديم جداً في اوربا قبل دخول التبغ اليها وشوهد منه بقايا كثيرة من انقاض الابنية الرومانية في بريطانيا وغيرها وكانوا يستخدمونه قديماً لاستنشاق دخان بعض النباتات لغرض طبي ولم يستخدم للتدخين الا منذ ابتداء سنة ١٦٨٠ فصاغه الاغنياء من الفضة وغيرهم من النحاس والحديد ولم تكن قصبته طويلة ولم يعتنوا بتحسين شكله الا في اواسط القرن الثامن عشر اذ اتقن الهولانديون صناعته فاقتدى بهم سائر الامم

اما التنبك فيدخن به في الشرق فقط بواسطة الشيشة وأحسنه العجمي · ولما اصبح التبغ تجارة عظيمة ذات دخل عظيم تألّفت بعض الشركات لاحتكاره ومزجه ببعض المواد الخفيفة لاصلاح طعمه وتحسين رائحته على زعمها والحقيقة انها تلتمس زيادة الكسب وابتزاز اموال العباد من حيث لا يدرون فزادت الى اضراره اضراراً أُخرى واهم المواد التي يدخلونها في (اصلاح) التبغ الماء والعسل والنبيذ وبعض الاملاح كنترات الصودا ومسحوق الفحم والشيكوريا وتفل القهوة والحامض التنيك وغيرها مما هو معلوم عند أصحاب هذه الصناعة · وقد يحفظون مسحوقه باوراق رصاصية فيزداد ضرراً

باملاح الرصاص

(فعله الفسيولوجي) اثبت مشاهير الاطباء ان التبغ اذا رُشَّت اوراقه بالماء ووضعت على الجلد او فتحت لفافة منه ووضعت على المعدة احدث بعد مدة قصيرة نغاطاً وقيئاً واذا كانت الكمية كبيرة احدث اعراضاً تسممية . لانه لحرافته يهيج ما يلامسه من الانسجة فتمتص النيكوتين منهُ فيحدث التسمم . ذكروا ان بعض الجنود الجبناء يتمارضون بوضع اوراق منه تحت اباطهم قبل الذهاب الى المعارك ليتخلصوا من الخدمة العسكرية وقد عثروا على رجل اراد تهريب كمية من التبغ فخبأها تحت ثيابه مباشرة على جسمه فظهرت فيه اعراض التسمم

واذا اخذ التبغ من الداخل فاستنشاق دخانه اسرع طريقة لادخال سمّه الى الجسم اذا احرق وهو جاف انحلّ قسم كبير من النيكوتين يستنشق بعضه مع المادة العطرية يدل عليه طعمه الخاص به ويتجمع الباقي مع البخار المائي في القسم البارد من الانبوبة المدخن بها ويزداد تراكم النيكوتين والبخار المائي في القسم الاخير بمواصلة الاحتراق فاذا أحرق هذا المتجمع تصاعد عنه بخار حريف قوي جدًّا مملوء نيكوتينا غير منحل وله طعم حرّيف مؤذ جدًّا اما اذا احرق وهو رطب فلا ينحل النيكوتين بل يحمل بكميات كبيرة مع البخار المائي اول الاحتراق فيكره المدخن التدخين لانه لا يبقى في التبغ سوى الطعم الكريه المذكور آنفاً . رائحة التبغ مشهورة لا تحتاج الى وصف فهي كريهة قذرة تنبعث من الافواه ورائحتها كريهة كرائحة القبور او الجيف المنتنة وتعلق في الملابس والمساكن وباللحى والشوارب وتصطبغ هذه عادة بلون اصفر قذر

اما في المضغ فتمتزج كمية كبيرة من النيكوتين مع اللعاب وتدخل المعدة اراد المدخن ام لم يرد وبعد امتصاصها تظهر اعراضها السامة وبالجملة فالتبغ كيفما اخذ استنشاقاً او مضغاً فاذا زادت مقاديره احدث اعراضاً كاعراض سائر السموم — فهو سام . وقليلون يحتاجون الى وصف اعراض التسمم به واشهرها الدوار والقيء الحادث بعد تجربة استعماله ويحدث في التسمم القوي قيء واسهال ودوار واختلال في عمل القلب واذا مشى العليل ترنح كالسكران مع ضعف عام وبرد الجسم واصفراره وانسكاب عرق بارد وتشنجات وضيق التنفس وتمدد الحدقة ويظلم النظر ويضعف النبض . وفي الحوادث القوية جدًّا يفقد الحس تماماً . وكثيراً ما تحدث بعض هذه الاعراض للمبتدىء في استعماله

« سيأتي البقية »

ذهابه بالماء الصرف امتزاجه بمادة دهنية يفرزها الجلد والادهان لاتذوب بالماء اما الصودا فانها تتحد بها فتولد مركباً يذوب في الماء هو الصابون — فاذا استخدمنا محلول الصودا في غسيل ايدينا ووجوهنا نظفها ولكنه قويٌّ يؤثر على البشرة ويضر بالجلد ويقسيه فلطفوا ذلك المحلول بشيء من الزيت او الدهن فتكون من المزيج مادة جديدة هي الصابون • فاذا اشبعوا الصودا بالزيت قلّ فعل الصابون في التنظيف اذ لايبقى في الصودا قوة على اذابة الزيوت اللاصقة بالجلد او غيره • والعادة في اصطناع الصابون ان لا تشبع صوداهُ بالزيت كل الاشباع فيبقى فيها قوة كافية للتنظيف للسبب الذي قدمناه • وأفضل أنواع الصابون لهذا الغرض النوع المعروف بالنابلسي وأما الأنواع المشبعة فانها تفيد في تليين الجلد اكثر مما تفيد في تنظيفه

واما أنواع الصابون العطرية او الفينيكية فلا تأثير لها في الصحة او الشيب اوالنظر كما ذكرتم ولا نرى فائدة صحية في استخدام شيء منها • فالصابون الفينيكي ليس فيه من الحامض الفينيك ما يكفي لمنع الفساد او للتأثير على الحوامل • والكميات العطرية في الصابون المسك او الكولوني لا تكفي للتأثير على الجلد او الشعر او العينين اوغيرها وانما فائدتها تطييب الجلد او الثياب المغسولة به للتمتع بالرائحة العطرية

ومن أصناف الصابون مايعبرون عنه بالصابون القذر يباع بثمن بخس ويستخدم في تنظيف آنية المطبخ ونحوها • واستحضاره ممكن في كل منزل لانه يصنع بغلي الرماد مع مايفضل في المطابخ من العظام والادهان والزيوت في حلة حتى يحول المزيج الى مادة واحدة لزجة اذا بردت تجمد وهي الصابون القذر

اما تأثير الحمل في احداث الفتق فقولٌ لادليل على صحته

التحنيط

(طنطا) محمد افندي عثمان السعدي بالنيابة

زرت المتحف المصري من عهد قريب فوجدت فيه جثثاً محنطة مرت عليها ادهار ولم تتغير فكيف كانوا يحنطون موتاهم وما هي المواد التي كانوا يستخدمونها في ذلك

(الهلال) بلغ التحنيط عند المصريين القدماء درجة من الاتقان لم تبلغها

امة اخرى فحنطوا جثث الموتى من الآدميين والحيوانات وحنطوا الحبوب والاثمار واللحوم . وقد ذكر هيرودوتس طرقهم في التحنيط والمواد التي كانوا يستخدمونها فيه قال :

« وفي مصر اشخاص مخصصون بالتحنيط بموجب قوانين الشريعة وتكون هذه مهنتهم فاذا جيء اليهم بميت اطلعوا الآتين به على نموزجات اموات من خشب مدهون او على طبيعته والمرغوب منها اكثر من سائرها هو على ما يقال مثال من لم اتصل بالتدقيق الى ذكر اسمه ودونه مثال آخر لا يكلف نفقة كثيرة ثم ثالث ارخص من الاولين . ثم يسألون اصحاب الميت على اي مثال يريدون ان يحنطوا ميتهم ثم يتفقون على الاجرة وينصرف اهل الميت ويشتغل المحنطون في منازلهم وهذه طريقة التحنيط من الدرجة الاولى :

« اولاً يستخرجون المخ من الانف بعضهُ بحديدة عقفاء والبعض الآخر بواسطة ادوية يدخلونها في الراس . ثم يشقون الخاصرة بحجر حبشي حاد ويستخرجون الامعاء ويغسلونها ويمرونها بخمر البلح ثم في اطياب مسحوقة ويملاون البطن مرًّا مسحوقاً ناعماً من النوع النقي ثم من مسحوق القرفة وبعض اطياب الا البخور . ثم يخيطون الشق وبعد ذلك يملحون الجثة بان يدهنوها بالنطرون ويبقونها سبعين يوماً . ولا يجوز ان تبقى في الملح المذكور اكثر من هذه المدة . وبعد انقضاء هذه المدة يغسلونها ويلفونها بلفائف قطنية مصمغة بالصمغ العربي وهم يستعملون هذا الصمغ غراء . ثم يأخذ اهل الميت الجثة ويصنعون لها بيتاً من خشب على شكلها يضعونها فيه ويجعلونها في قاعة معدة لهذه الغاية يوقفونها منتصبة على الحائط وهذه هي اغلى طريقة التحنيط

« والذين لا يريدون كثرة النفقة يختارون الطريقة الآتية : يملأون حقناً من دهن يستخرجونه من الارز ويحقنون به جوف الميت من غير ان يشقوه ويخرجوا الامعاء منه . وبعد ان يملأوا الجوف من الدهن المذكور يسدون المخرج لئلاً يخرج الدهن ثم يجعلون الجثة في الملح سبعين يوماً كما في الطريقة الأولى وفي آخر يوم يخرجون الدهن من الجوف وهو شديد القوة حتى يحل الكرش والاحشاء فتخرج معه . والنطرون يذيب اللحم فلا يبقى من الجثة الا العظم والجلد . وبعد هذه العملية يرجعون الميت الى اهله

« واما الطريقة الثالثة فلا يستعملونها الا للفقراء — وذلك انهم يحقنون الجثة بسائل يسمونه سرمايا ويضعونها في النطرون سبعين يوماً ثم يرجعونها لمن اتوا بها

« واما النساء ذوات الشرف فاذا ماتت احداهن فلا يسلمونها الى المحنطين حالاً وكذا اذا كانت جميلة او ذات مقام وانما يسلمونهم اياها بعد ثلثة او اربعة ايام » انتهى

وذكر هيرودوتس وغيره ايضاً طرقاً اخرى وبحث العلماء في تلك المواد واجروا التجارب العديدة ومع ذلك فلا يزالون الى اليوم يعدُّون التحنيط من الفنون التي زالت بزوال دول الفراعنة كالاصباغ الزاهية التي كانوا يلونون بها توابيتهم · ولا يبعد ان يكون المصريون قد دونوا هذه الصناعات في كتب ذهبت في جملة ما ذهب بحريق مكتبة الاسكندرية

مجموعة الافعال الفرنساوية

هو كتابٌ لا يستغني عنهُ طلاَّب اللغة الفرنساوية لانهُ يشتمل على ما لا بدَّ منهُ لاتقان هذه اللغة من تصاريف الافعال القياسية وغير القياسية مما لا يحواه كتابٌ وانما هي مبعثرة في كتب كثيرة يضيق وقت التلامذة عن تصفحها · فعني حضرة محمود بك حمدي السعيد احد متخرجي المدرسة السلطانية بدار السعادة ونجل سعادتلو حافظ بك السعيد من اكابر وجهاء يافا (سوريا) في جمعها ونشرها تسهيلاً لطلاب اللغة الفرنساوية من المشارقة العرب والترك · فبلغت نحو ستمائة فعل منها ٣٨٧ فعلاً قياسياً و٢١٥ غير قياسي مع القواعد اللازمة للتصريف · والكتاب جزءان صفحاتها نيف وثلاثمائة صفحة وفي صدر كل صنف من الافعال قياس يصرفون عليه وفي ذيله امثلة من وزنه وتصريفه بازاء كل فعل منها ترجمته في العربية والتركية · والمؤلف المشار اليه من ادباء الناشئة العربية ومن اكثرهم رغبة في طلب العلم والسعي في نشره وخصوصاً ما يعود منه بالنفع على اهل هذا اللسان · وهو آخذ في تأليف كبير في التاريخ يراعي فيه تنقيب الكتب في تحقيق مسائله وفقهُ الله الى اتمامه

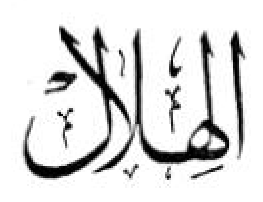
واما كتابه «مجموعة الافعال الفرنساوية» الذي نحن في صدده فيطلب من حضرته في يافا ومن مكتبة الهلال بمصر وثمن النسخة فرنكان والبوسطة نصف فرنك

مقتل ملك الصرب اطلعنا في جريدة الافكار التي تصدر في سانباولو البرازيل على قصيدة لحضرة قيصر افندي ابراهيم معلوف في وصف مقتل ملك الصرب قال في مطلعها:

لا يلتقي سيفي واحد ضدَّانِ ذلُّ العبيد وعزَّة السلطانِ

وتطرق من ذلك الى وصف الحادثة وصفاً تاريخياً ثم ختم القصيدة بقوله :

ان شئت تعرف اصل كل بلية بين الورى « فتش عن النسوانِ »



الجزء السادس من السنة الثانية عشرة

١٥ دسمبر (ك ١) سنة ١٩٠٣ و ٢٦ رمضان سنة ١٣٢١

ملوك الشرق وامراؤه

جزائر القمر (١)

٢ — جزيرة مايوتة Mayotte

مايوتة (ميوطه) تسمى أيضاً ماهوري وهي ذات ظل ظليل وماء سلسبيل ينحدر من جبالها على هيئة الشلالات واعظمها شلالة قومباني . وارفع جبالها يبلغ علوه ٦٤٠ متراً وهو مخروط منتظم الشكل لانه من الجبال البركانية . واول ما نزلت العرب جزر القمر الثلاثة ثم انتقلت منها في القرن الخامس للهجرة الى مايوتة وخرجت الى محل في شمالها يقال له مزامبوره كان بعض الزنوج سكنه قبلاً . وسكن الملاقاش المهاجرون من مداغسكر جنوب هذه الجزيرة . ولما استولى محمد بن حايسا على جزائر القمر اتخذ عاصمته في جزيرة انجوان وذهب سنة ١٥٣٠ م الى مايوته وتزوج جمبه آمنه بنت الوزير ماسيلاهه الحاكم على الجزيرة فولدت له ولداً سماه حايسا . فخلفه في الملك بعد وفاته واتخذ مايوتة عاصمة له بدل انجوان لاعتزازه فيها باخواله واقارب امه وطالت مدة سلطنته حتى بلغت على ما قيل سبعين سنة (٢) . فعمَّر القصور والقلاع في مدينة شينقوني قاعدة هذه الجزيرة

---

(١) لصاحب « فيكتور هوكو وظم الادب عند الافرنج والعرب »

(٢) الظاهر انها خمسون سنة لموافقة تاريخ وفاته بتاريخ زواج امه بأبيه

وانشأ جامعاً لا يزال قائماً حتى الآن على ما فيه من الخراب وعليه آيات قرآنية مكتوبة على القيشاني وهو الفخار المطلي بالطلاء الاخضر وفيه تاريخ البناء سنة اربع واربعين وتسعماية هجرية (١٥٦٦ م) . وبجانب الجامع مقبرة لم يزل يشاهد فيها قبر حايسا ومن خلفه من الامراء والاميرات ايضاً وعلى كل قبر تاريخ بالعربية كما هي العادة في بقية البلاد الاسلامية . فكانت ايام هذا الامير ايام خير وعمران للجزيرة وراحة ورفاه للاهالي . وتوفي سنة ١٥٩٠ بدون ولد ذكر فاستقلت زوجته معينة الاشوره بالحكم على جزيرة انجوان وحكمت بنته مغوانه آمنه على جزيرة مايوته . ثم تزوجت بعربي اسمه «بوانافومو» (كذا) وخلفت منه ولداً سمته علياً وماتت بعد قليل فتولى امر الجزيرة زوجها

وفي ذاك التاريخ مر بجزيرة مايوتة اسطول هولاندي ودوّن اصحابه في سجل اسفارهم قولهم : «في ٨ حزيران سنة ١٦٠٧ رسونا على مايوتة وهي جزيرة جميلة خصبة فيها اثمار كثيرة وبقر وغنم وغير ذلك . ويجد فيها المسافر عيشة راضية وخيراً ورخاء واهلها عراة لا يغطون الا عوراتهم واما النساء فعليهن اغطية وشالات ومحارم . وفي ٦ تموز (يوليو) استأذنا من امير الجزيرة بالسفر واقلعنا عنها بعد ان اخذنا منها مدة اقامتنا ٢٦٦ بقرة و ٢٧٦ معزى عدا الدجاج الكثير والثمار المختلفة» فهذا يدل على عمران هذه الجزيرة وثروتها في ذاك العصر وقولهم بان ذكورها عراة لا يغطون الا عوراتهم فهو حكم منهم على من رأوه في السواحل من الفقراء والعالة

وفي سنة ١٦٢٠ م مات امير هذه الجزيرة المعروف باسم بوانافومو وخلفه في الحكم ابنه علي وامتدت ايام سلطنته ٢٠ سنة ثم خلفه ابنه عمر وملكه ٤٠ سنة (١٦٤٠ — ١٦٨٠ م) وخلف عمر ابنين وهما علي وابو بكر وثلاث بنات وهن جبه عاله ومعينه رقيه ومنادار ووقع التنازع بينهم على الامارة وسرى الى اولادهم واحفادهم وما زالوا في خصام وجدال وقيل وقال حتى اضمحل امر الجزيرة بسبب الظلم والفساد وضعف اهلها بكثرة الحروب والفتن فأغارت عليهم قبائل سكالات من جزيرة مداغسكر سنة ١٧٩٠ ونهبوا القرى والضياع وقتلوا كثيراً من اهلها وحاصروا عاصمتها مدينة شينغوني وفر الكثير من اهلها الى زاوُزي وهي جزيرة صغيرة بين جزيرة مايوته وجزيرة بامانزي الصغيرة ايضاً والمجاورة لها من جهة الشرق . فذهب الامير عمر وهو من تلك السلالة الحاكمة على الجزيرة الى زاوُزي وانشأ فيها قلعة ذات اسوار عالية فاصبحت معقلاً حصيناً بسبب موقعها الطبيعي وصخرتها العالية . فكان يلتجئ اليها للتخلص من شر القبائل الهاجمة عليهم من مداغسكر

ويقيم تارة في مدينة شينقوني واخرى في قلعة زاوزي . ثم خانه على الجزيرة السلطان سليم الثاني وذهب سنة ١٨٠٥ م من عاصمته الى قلعة زاوزي فلما بلغ الساحل المقابل لتلك القلعة وتهيأ لركوب البحر سقط من اصبعه خاتم الملك فتطير من ذلك وفتش عنه طويلاً ولم يجده فأمر بعض اتباعه وخدمه بالبقاء على ذاك الساحل للتحري والتنتيش بين الرمال والحصى على الخاتم وركب هو وبقية اتباعه السفينة واتى قلعة زاوزي . فلما اعيتهم الحيل ولم يجدوا الخاتم رجعوا اليه آيسين فغضب عليهم وامرهم بالاقامة على ذاك الساحل الى ان يجدوه ثم سمح لهم بنقل اولادهم وعيالهم فأنشأوا هناك قرية سموها ام سايره ومعناها بالسواحلي «الخاتم المفقود» وهي اليوم من اهم مدن مايوته وا كثرها تجاره

وكان آخر الامراء على مايوته من تلك السلالة العربية امير يسميه الافرنج اندريان سولي وكان بمعيته سبعة من الرؤساء يحكمون في الجزيرة باسمه ولكنهم ما فتئوا يحاولون الخروج عن طاعته ومحاربته . وبينما كان في ضيق وكرب شديد من قادهم وثوراتهم مرت بجزيرته باخرة حربية آتية من جزائر رئينيون التابعة لفرانسا وزاره ربانها في قلعة زاوزي فشكا له خروج اتباعه عليه وطلب امداده بالاسلحة والمهمات الحربية ليقوى على قمع العصاة واطفاء الثورات فعرض ربان الباخرة الامر على الحاكم الفرنساوي في رئينيون وجرت المخابرات والمذاكرات وفي نتيجتها عقد ربان الباخرة مع امير الجزيرة اندريان سولي معاهدة مؤرخة ٢٥ نيسان (افريل) سنة ١٨٤١ على ترك الجزيرة لفرانسا بالشروط الآتية :

(١) تعيين الف ريال ([illegible]) فرنك في السنة لاندريان سولي ما دام في قيد الحياة ليتخلى عن الجزيرة ويقيم في مداغسكر

(٢) تربية ولديه في مدرسة جزيرة رئينيون على نفقة الحكومة الفرنساوية

(٣) عدم التعرض لاملاكه الخاصة في الجزيرة فتبقى له ولاولاده من بعده

فاعترض على هذه المعاهدة بعض المدعين بحقوقهم على جزيرة مايوتة مثل السيد عبدالله سلطان جزيرة انجوان اذ ذاك وغيره . وكانت انكلترة تحرض المعترضين وتساعدهم فلم يجد ذلك نفعاً وصدرت ارادة لويس فيليب ملك فرانسا بالتصديق على تلك المعاهدة في شباط (فبراير) سنة ١٨٤٣ م فذهب حاكم رئينيون بالمراكب والعساكر الفرنساوية واحتل جزيرة مايوته ورفع العلم الفرنساوي على قلعة زاوزي ووطد الامن في جميع الجزيرة وسلم ادارتها للحاكم الموظف من قبل الحكومة الفرنساوية وهي اليوم من جملة مستعمرات الجمهورية . اه

اميرها اندريان سولي فبعد ان قبض المرتب له سنوياً انهمك في اللذات وانتهاب المسرات وشغف بشرب الابسنت الذي هو اقوى الاشربة الروحية واضرها ولم يمض عليه اكثر من ثلاث سنين حتى وافاه الموت ودفن في تلك الجزيرة بين اشجارها المظلمة ولم يزل قبره يزار فيها .

وبلغ عدد نفوس الجزيرة حسب الاحصاء الاخير ١٨,٠٠٠ واكثرهم من العرب والمولدين وفيهم سكالاف من مداغسكر وزنوج من افريقية وبعض الهنود . وللاوروبيين فيها معامل وفابريكات لعمل السكر واستقطار الروم ولهم مزارع لاستغلال القطن والبن واللوز الهندي المعروف باسم (قاقاؤ) والفانيليه . ولهم ايضاً بيوت مالية وتجارية وقصور عالية وجنات قطوفها دانية من جوز وموز ولوز وغير ذلك . وقد دخلت الجزيرة في طريق النجاح والاصلاح الحقيقي وانقرضت منها دولة الظلم والاستبداد فعسى ان يكون لاهاليها الوطنيين نصيب من النجاح الجديد فيقبلون على مجاراة الافرنج في كل ما هو نافع وغير ماس بدينهم الاسلامي كشرب المسكرات مثلاً فتروج بينهم سوق العلم والادب ويعكفون على تلاوة الجرائد والمجلات العربية فتزول العجمة من لسانهم ويتيسر لهم فهم كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ولا تهدي من احببت فان الله يهدي من يشاء .

٣ — القمر الكبيرة Grande Comore

هي اكبر جزر القمر الاربعة وفيها غابات كثيرة من شجر النارجيل ينتفع الناس بجوزه ويتغذون بأكل لبه وشرب لبنه لعدم وجود المياه الجارية . وكانت الجزيرة منقسمة من القديم بين عدة أمراء يحكمون فيها بواسطة وزرائهم ولعل ذلك هو المراد من عبارة ياقوت الحموي في معجم البلدان . وكانوا في خصام ونزاع دائمين ولا يتوطد الامن وتستتب الراحة في عموم الجزيرة الا بتغلب احد الامراء على البقية فيلقب حينئذٍ بسلطان تيبه اي ملك الملوك وسلطان السلاطين كما تقول العجم (شهنشاه) وتنقاد اليه بقية أمراء الجزيرة مع استقلالهم في داخلية اماراتهم . واما الاحكام الشرعية فهي بيد القضاة وعددهم اثنا عشر ولكنهم كانوا مستبدين ومتغلبين كالامراء

ففي سنة ١٨٤٤ م توفي سلطان تيبه ووقع الشقاق والنفار بين أميرين من أمراء الجزيرة على سلطنة تيبه وهما الامير فومبارو والامير احمد . ومال امام مسقط للسيد

فومبارو وساعده تأييداً لحقوقه على الجزيرة واثباتاً لمداخلته في سياستها. وطلب السيد احمد من الفرنساويين امداده بالاسلحة والمهمات فباعته منه شيئاً ولم تشدد ازره لارتباكها في سياستها الداخلية • وامتدت الحروب الاهلية بين هذين الاميرين ٨ سنوات • وتم النصر لاحمد بموت رقيبه في سنة ١٨٥٢ فقام احد ورثته السيد موسى فومو يطالب بميراثه وقاتل احمد وتغلب عليه والقاه في السجن الى ان مات فيه واستقل موسى في سلطنة تيه • وكان لاحمد ولد ولد يسمى السيد علي فرَّ في أثناء تلك المعامع الى جزيرة مايوته • فلما توفي جده في السجن ذهب بتوسط ومداخلة سلطان زنجبار الى جزيرة القمر الكبيرة واستلم فيها سلطة بامباؤ واظهر الخضوع والانقياد لسلطان تيه وهو موسى فومو • ولكنه مابرح يدس الدسائس ويعمل الحيل السياسية حتى اتفق مع سلطان جزيرة انجوان وتغلب على موسى فومو واخذ منه سلطنة تيه سنة ١٨٨١ واستتب الامر له في جميع جزيرة القمر الكبيرة • فغضب سلطان الزنجبار لتوسطه ومداخلته قبلاً وأعان موسى فومو سنة ١٨٨٣ على استرداد سلطنة تيه من السيد علي وطلب من انكلترة امداده بالسلاح والمهمات فذهبت مساعيه ادراج الرياح وتوفق السيد علي لكبح جماح اعدائه والمحافظة على سلطنة تيه

وفي هذا التاريخ نزل جزيرة القمر الكبيرة فرنساوي اسمه هومبلو (Humblot) مبعوث بارسالية علمية لاستطلاع أحوال الجزيرة وفحص أرضها ومعادنها • فجاس خلال الديار وتعارف على الاعيان والامراء وبعد ان مكث فيها ١٨ شهراً بلغه ذات يوم ان المانيا بعثت برسلها خفية الى السيد علي وعرضت عليه حمايتها ومساعدتها وتعهدت له بتقديم السلاح والنقود والمهمات فاغتنم هومبلو هذه الفرصة وعرض على السيد علي التقرب من فرانسا واستكتبه بذلك كتاباً وذهب به للتصديق عليه من باريس • وكانت فرانسا في شغل شاغل عن الالتفات الى مثل هذه المصلحة الجزئية ولم ترد الدخول في المشاكل السياسية مع المانيا او انكلترة فلم تصدق على هذا الكتاب واوعزت الى هومبلو بتدبير المسئلة بمعرفته وعلى عهدته • فعاد الى جزيرة القمر الكبيرة وافهم السيد علي بأنه مفوض رسمياً من قبل فرانسا فجمع وزراءه ووزراء بقية سلاطين الجزيرة المستبدين على موكليهم وعقدوا مجلساً حرروا فيه معاهدة اتفاق وحماية بينهم وبين فرانسا وامضوا جميعهم وامضى هومبلو بالنيابة عن فرانسا بتاريخ ٥ تشرين ثاني سنة ١٨٨٥

فاغتاظ الالمانيون من هذه المعاهدة وحرضوا احد سلاطين الجزيرة الذين لم

يرضوا بعقدها ولا حضروا مجلسها واعانوه على القيام فسلح رجاله وخرج على السيد علي وحاصره . فاضطرت الحكومة الفرنساوية حينئذ الى التظاهر بالمداخلة استناداً على مابيدها من المعاهدة وأرسلت حاكم مايوتة بالمراكب الحربية فحضر لجزيرة القمر الكبيرة وعقد مع السيد علي معاهدة أصولية في ٦ كانون ثاني (يناير) سنة ١٨٨٦ وشرط عليه عدم مخابرة بقية الدول الاجنبية الا بواسطة فرانسا وبعد امضاء المعاهدة نزلت العساكر الفرنساوية للبر وأيدت السيد علي في سلطنة تيبه وقهرت اعداءه ووطدت الامن في الجزيرة وعين فيها حاكم مايوتة مقيماً من طرفه تم فوض هذه المأمورية لهومبلو سنة ١٨٨٩

فحنق من ذلك أمراء الجزيرة واعيانها واخذوا يشيعون الاراجيف ويتقولون بأنه ملك بلاد الاسلام للنصارى واستوجب لذلك سخط الاهالي وقيامهم عليه واجباره على الفرار الى جزيرة مايوتة . فلما كثر الهرج والمرج ذهبت العساكر الفرنساوية واخمدت الثورة واجلت الوزراء والسلاطين الى مستعمرة اوبق وجمع المقيم الفرنساوي هومبلو القضاة وشكل منهم مجلساً وترأس عليهم وسن الشرائع وقرر الاصلاحات الادارية والمالية وحكم الجزيرة باسم السيد علي الى ان عاد اليها سنة ١٨٩٢ وأمضى المعاهدة المؤرخة في ٥ كانون ثاني من هذه السنة وصدق فيها على جميع الاصلاحات التي اجراها المقيم وعلى الغاء وظائف السلاطين والوزراء من الجزيرة وابقاء سلطنة تيبه فقط مع القضاة الاثني عشر وجعل في كل قرية شيخاً يحكم فيها ويراجع في حكم قاضي الولاية المنسوب اليها ونظمت ميزانية الواردات والمصاريف وخصص راتب معين لسلطان تيبه لا يتجاوزه ولقرار تعيين القضاة ومشايخ القرى وعزلهم بانهاء المقيم الفرنساوي واشارته كما هو الحال في تونس مع الباي والمقيم العام . وتشكل في الجزيرة محكمة مختلطة على نسق المحاكم المختلطة في الممالك العثمانية وسائر مدن الشرق التي يكثر فيها تجار الاوروبيين

وفي جزيرة القمر الكبيرة بركان فارتال يعلوه الدخان في بعض السنين وعلوه ٢,٦٠٠ متر وهي منقسمة الى اثنتي عشرة ولاية اعظمها ولاية بامباو ومقرها مدينة ام روني وهي على شاطئ البحر مرسى للسفن ومحاطة بسور ارتفاعه ٤ امتار وعليه ابراج وفيها قصر لسلطان تيبه ودور مبنية بالحجر وخمس جوامع وابنيتها على القالب العربي الافريقي ونفوسها ٢,١٤٤ وازقتها ضيقة كبقية مدن الشرق . اما الولايات الاثنتا عشرة فيحكمها اليوم ثمانية قضاة ويساعدهم في تدبير شؤونها مشايخ القرى واثنان وستون نفراً من البوليس المنظم على الاصول الجديدة

من اهل البلاد الوطنيين ونفوس الجزيرة يبلغ ٤٤ الف نسمة واهم مدنها ايقونى (١٦٨٥) على ساحل البحر وفومبونى (١١٣٦) وفيها آثار تدل على عمرانها في الزمان الغابر وهي على الساحل الشرقي

وفي هذه الجزيرة شركة اوروبية تدعى (شركة القمر الكبيرة) اسسها هومبلو المذكور سنة ١٨٨٧ ولها مدير ونظار ومعلمون ومهندسون ومتفننون وتراجمة وكلهم من الاوروبيين عدا الفعلة وعدتهم ١,٣٠٠ فاعل من اهل الجزيرة يشتغلون بأجور بخسة اعظمها ٤ ريات في الشهر واقلها نصف ربية في الشهر . وصار للشركة املاك كثيرة يزرعون فيها الفانيلية واللوز الهندي (قاقاو) والبن وقصب السكر ويربون المواشي ويربحون ارباحاً كثيرة وكلما زادت ثروتهم زادوا في مشترى الارض وتوسيع مستملكاتهم وربما يأتي يوم تتملك الشركة فيه جميع اراضي الجزيرة لان الاهالي الوطنيين لا يتيسر لهم مقاومة الشركة ولا مجاراتها لعدم وجود رأس مال بأيديهم ولانغماسهم في الجهل وتمسكهم بالعرف والعادة القديمة وعدم اتفاقهم وتعاونهم على البر ولا يتمكنون ما داموا على الافكار القديمة من من مجاراة الافرنج في سبل الترقي والنجاح

٤ — موهيلى Moheli

وجزيرة موهيلي تسمى ايضاً موالي وكان الحكام عليها من القديم سلالة عربية من السيرافيين كبقية الجزر الاربع في سنة ١٨٣٦ فر اليها من مداغسكر احد الامراء المسلمين لان سكان القسم الشمالي من جزيرة مداغسكر لم يزالوا مسلمين . وكان اسم هذا الامير على رواية الافرنج (هوفه راماناتيقه) فاضافه سلطان موهيلي واحسن وفادته وعينه قائداً لجيوشه وكانت الحرب منتشبة بينه وبين سلطان الهنزوان . فاظهر (هوفه راماناتيقة) اقتداره في الحرب وتوفق لدفع الاعداء وارجاعهم خائبين . ثم اغتنم هذه الفرصة وخلع سيده المحسن اليه وتولى امر الجزيرة مكانه . وبعد وفاته في سنة ١٨٤١ خلفته في الامارة بنته جمبه فاطمة وكان لها مربية فرنساوية اسمها المادام دروه لان الفرنساويين احتلوا من القديم جزائر رئينيون واتخذوها مخزناً للفحم ومرسى للسفن في ذهابها للهند وايابها فعمرت بهم جزائر رئينيون وصار فيها منذ القرن السابع عشر للميلاد مدارس ومرسلون ومبشرون كما في مصر وسوريا وبقية بلاد الشرق وهم لا يفترون ابداً كانوا عن التزلف للاعيان والامراء والتقرب منهم بواسطة التعليم والتطبيب ومقصدهم الاصلي عمل الخير والتبشير

بالدين المسيحي ولكنهم اكتشفوا بهذه الواسطة احوال البلاد واطلعوا على عورات اهلها وخدموا السياسة والتجارة الاوروبية اعظم خدمة

فلعبت المادام دروه في عقل الاميرة جمبه فاطمة واحضرت لها قومانداني الاسطول الفرنساوي فألبسها التاج بالتشريفات والاحتفالات العسكرية كما تتوج الملوك والملكات في البلاد الاوروبية وكان ذلك في سنة ١٨٤٨ · فهاج المسلمون وغضبوا لذلك فتدارك الامر احد الاعيان المتنفذين فطرد المادام دروه من الجزيرة وسعى في زواج الاميرة جمبه فاطمة بابن اخ امام مسقط · فبعد زواجها حولت انظارها عن الفرنساويين وكرهتهم وعاكست النازلين منهم في جزيرتها فجاءت المراكب الحربية لحمايتهم وعقدوا مع الاميرة معاهدة بتاريخ ١٤ شباط سنة ١٨٦٥ وصاروا يحتالون بهذه المعاهدة للتداخل بسياسة الجزيرة وشؤونها الداخلية فضاق صدر الاميرة من ذلك واحتارت في امرها واخذت تفكر في حيلة تبطل بها احكام تلك المعاهدة فتنازلت عن الامارة لابنها محمد وسافرت لاوروبا

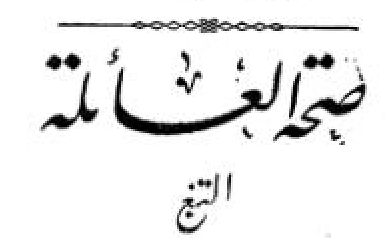
فامتنع محمد عن اجراء احكام المعاهدة بداعي عدم توقيعه عليها ولكن ذلك لم يجده نفعاً فجاءت المراكب الحربية سنة ١٨٦٧ واجبرته على التصديق والاعتراف بها واجراء مضمونها · وعقد معه الفرنساويون معاهدة اخرى في ١٤ حزيران سنة ١٨٧١ · ثم عادت الاميرة فاطمة بعد تغيبها واستلمت ادارة الجزيرة من ولدها وسالمت الفرنساويين وتوفيت سنة ١٨٧٨ فخلفها في الحكم على الجزيرة ابنها عبد الرحمن وجار في الاهالي واستبد على الاجانب وحكم يوماً على احدهم بجزاء نقدي قدره ٢٠ قرش من قروشهم وهو ريال بقيمة خمسة فرنكات اي بما يساوي ١,٠٠٠ فرنك تقريباً فجاءت المراكب الفرنساوية ومركب انكليزي لحماية الاجانب والزموا عبد الرحمن باعادة الجزاء النقدي الذي حصله وبدفع ٣,٠٠٠ ربية تضميناً لهم · ثم شوقوا الاهالي وحرضوهم على اميرهم وكانوا يمقتونه لظلمه واستبداده فثاروا عليه وقتلوه في ١ حزيران سنة ١٨٨٥ واقاموا مكانه محمد شيخ من اولاد السلطان المخلوع سنة ١٨٣٠ بايعاز هوفه راماناتيقة · فقام الامير محمود اخ عبد الرحمن يطالب بحقوقه وجمع عساكره وتهيأ للقتال · فلما رأى حزب محمد شيخ عدم اهلية صاحبهم واقتداره خلعوه وولوا مكانه ابن اخيه مرجاني وانتشب القتال بينه وبين محمود · فتداخل بالامر حاكم مايوتة وجاء بالعساكر الفرنساوية الى جزيرة موهيلي ورجح جانب مرجاني لانه من السلالة الحاكمة قديماً في الجزيرة على جانب الامير محمود لانه من نسل القائد

هوفه الذي اغتصب الملك من السلالة الاولى ومن جميع وزراء الجزيرة واعيانها واقرّ مرجاني في الامارة وشد ازره وعقد معه معاهدة مؤرخة في ٢٦ نيسان سنة ١٨٨٦ وضع بها الجزيرة تحت الحماية الفرنساوية ثم قبض على الرؤساء المشيعين لمحمود وتنام من الجزيرة فسكنت الفتن وعاد الامن وعينت فرانسا مقيماً لها في موهيلي · ثم بتحريض الاجانب واغرائهم ثار الاهالي على مرجاني ففر لدار المقيم الفرنساوي فحاصروه فيها اياماً · فجاء حاكم مايوتة وخلع مرجاني ارضاء للاهالي وولى مكانه الاميرة سلمى ماشمبه بنت الاميرة السابقة جمبه فاطمة سنة ١٨٨٨ وكانت حديثة السن لم تزل تدرس في مدرسة القديس يوسف كلوني بجزيرة رئينيون · فناب عنها في الحكم على الجزيرة اخوها محمود المتقدم ذكره · وذهب مرجاني لباريس يطالب بحقوقه ويلتمس اعادته اميرًا على الجزيرة فلم تلتفت الحكومة الفرنساوية اليه وارسلته سنة ١٨٩٠ للاقامة في مستعمرة اوبوق · وبعد ان اكملت الاميرة سلمى دروسها عادت الى موهيلي سنة ١٨٩٥ واستلمت فيها زمام الاحكام وفي السنة التالية اصدرت الحكومة الفرنساوية قرارًا (دبكره) بوضع موهيلي تحت نظارة المقيم في المايوان وعقدت مع الاميرة واخيها محمود معاهدة على تنظيم مالية الجزيرة وترتيب ميزانية لها على مثال ميزانية جزيرة انجوان وتشكيل ادارة للبوليس وغير ذلك من الاصلاحات النافعة

اما تولية النساء على هذه الجزيرة فالظاهر انه من العوائد القديمة المقتبسة من جزيرة مداغسكر حيث روي عن المسعودي قوله: «ولعل جزائر الزنج منقفو الكلمة لا يحصرهم العدد لكثرتهم ولا تحصى جيوش المرأة المتملكة عليهم» ومملكة مداغسكر التي حاربت الفرنساويين منذ بضع سنين مشهورة واخبارها معروفة.

ونفوس جزيرة موهيلي اليوم يزيدون على ٨,٠٠٠ واكثرهم من العرب والمولدين من الزنج والملقاش والموفاس · وعاصمة الجزيرة مدينة فومبوني وهي في سهل عرضه الف متر ممتد بين الجبل والساحل ولها مرسى للسفن واهلها يزيدون على ٢,٥٠٠ · وفيها جامع وبيوت حجرية قديمة ودار للامارة · وفي الجزيرة مياه جارية وسواقٍ وآثار عمران قديم واسوار متهدمة ولها زراعة وتجارة وفيها أجانب مستعمرون كما في بقية الجزر المتقدم ذكرها · ونساء العرب فيها اقل تسترًا واحتجابًا من نسوة المايوان والقُمر الكبيرة فانهنّ لا يخرجن من بيوتهن بلا حجاب ولا غطاء مطلقاً · ولا ندري ما يكون رأي الاميرة سلمى بعد اطلاعها على كتاب تحرير المرأة اذ لا بد وان تكون من صواحب الراي لاشتغالها بالسياسة والمسائل الاجتماعية

سيا وهي متخرجة من مدرسة سن جوزيف دوكايني بجزيرة رئينيون ووافقة على مبادي العلوم العصرية واحوال الهيئة الحاضرة ولباسها ولباس تابعاتها على آخرزي " (موده) من الازياء الباريسية كما يشاهد في رسوم بعضهن



التبغ

٢ — اضراره وعواقبه

لحضرة نعمة افندي ايليا الصيدلي القانوني

قال الدكتور رتشاردسون بعد اختبار فعل التبغ طويلاً على الحيوانات السفلى ان معظم فعل دخانه يقع على الاعضاء الرئيسية فالدماغ يصفر ويفرغ من الدم والمعدة تصير حمراء ملطخة ببقع مستديرة متراكمة والدم يزيد سيولة والرئتان تصفران كما نراهما وهما معلقتان في حوانيت القصابين والقلب يضعف كثيراً لان الدم لم يبق فيه قوة للعمل فأصبح ينقبض وهو يرتجف خوفاً كأنه عرف تبعة ماهو منوط به من خدمة البدن ولايرى في اليافه قوة تساعده على العمل . لذا استعمل التبغ بكميات صغيرة اي بأن يدخن منه بضع سيجارات في اليوم على مدة طويلة فاضراره وان لم يشعر بها حالاً فهي كثيرة مدخرة في الجسم تظهر عند سنوح الفرصة وسأذكرها بالتفصيل نقلاً عن اعظم نطس الاطباء في أميركا واوربا الذين بحثوا فيها بحثاً مدققاً ودرسوها درساً كافياً في كثيرين من مرضاهم

(١) ضرر التبغ في الحنجرة : يزيد اللعاب وقت التدخين ثم ينقص بعده برد الفعل فيحدث بفعله على غشاء الحلق المخاطي مرضاً خصوصياً يدعى « مرض المدخنين » وهو مرض الحنجرة فتتهيج غشاء الحنجرة المخاطي بفعل الكربون والامونيا الموجودين في الدخان الحار السام بجفف الغشاء فيحدث سعالاً والتهاباً في اللوزتين وصعوبة في ازدراد الطعام وكثيراً مايحدث ذلك ولا يشعر به الا اذا برد الطقس وزادت رطوبة الهواء فيشعر المدخن بجفاف في الحنجرة ثم يظهر التهاب اللوزتين جلياً فيزداد السعال ويشتد المرض

وقد لا يرجى الشفاء اذا لم يمنع التدخين • ويدعي بعضهم استعمال التبغ علاجاً لبعض أمراض الحلق وهي دعوى باطلة فالدخان لا يشفي ولن يشفي مرضاً كهذا ولكنه يسكن التهيج الموضعي مدة فيجد المريض راحة ويظن نفسه متحسناً بواسطة الدخان فيكثر من استعماله ثم لا يمضي الا القليل حتى تعود الاوجاع ويعلم ان تلك الراحة لم تكن الا وقتية وهمية حدثت من فعل التبغ المخدر على اعصاب الشعور وان المرض قد زادت قوته • وليس فعل دخان المعامل في مداخنها اكثر ضرراً من فعل دخان التبغ في حنجرة المدخنين فليتنبه العاقل

(٢) ضرر التبغ في الاسنان واللثة : لثة الاسنان تضعف وتتلوّن بلون أصفر ثابت لفقدها الدم الصحيح وكذلك الاسنان فانها تصفر اصفراراً ثابتاً لا يمكن ازالته الا بأشد العلاجات فعلاً بعد التعرض لاخطار تأثيرها وتحدث حرارته العالية تشققاً في عاجها فتمرض وتنخر وقلما يخلو مدخن من هذا الامر

(٣) ضرر التبغ في الشفتين واللسان : تقرر لدى ثقات الاطباء ان دخان التبغ يحدث سرطان اللسان والشفتين لا بل هو سبب ذلك المرض القتال على الغالب وقد ذكر الجراحون حوادث عديدة من هذا النوع نتجت من فعل حرارة التبغ العالية والتهيج الموضعي باستعمال غليون قصير القصبة استعمالاً طويلاً او سيجار يشعل ويطفأ ثم يشعل مراراً • ويؤيد ذلك انه وجد في المستشفى المخصص لامراض السرطان في لندن الذي يعالج به اكثر من عشرة آلاف مريض سنوياً ان حوادث سرطان الشفة واللسان كانت في الرجال ثلاثة اضعافها في النساء مع ان النساء في المستشفى كنّ بالنسبة الى الرجال كنسبة ٥ — ١

(٤) ضرر التبغ في الرئتين : يضر دخان التبغ بالرئتين كثيراً وهو من أسباب السل الرئوي • وذلك ان غشاء الرئتين دقيق جدًّا لا يقوى على منع دخول الغازات المستنشقة الى الرئتين ومساحة سطحه الف واربعمائة قدم مربع وكل الدم الموجود في الجسم يمر تحت هذا الغشاء الدقيق مرة كل ثلاث دقائق وبما ان بخار الدخان السام الذي يستنشقه المدخن لا يدخل الفم فقط ثم يطرد الى الخارج بل يدخل الى أبعد التجاويف الهوائية و ينتشر على سطح الغشاء المذكور فمع اجتهاد المدخن في اخراجه يمتزج الدم به فينتشر بالاوعية الدموية في كل الجسم بسهولة كلية وقد ظهر للاطباء ان بعض الفعلة بمعامل السيجار يقاسون آلاماً مبرحة من فعل النيكوتين السام على أجسادهم بهذه الكيفية •

وكلٌّ يعلم ان للهواء الفاسد تأثيراً عظيماً في امراض الرئتين بسبب فعل العناصر السامة التي تدخل به الى الجسم على الدم والرئتين فضلاً عن المواد الفاسدة التي تتجمع من نفس الدم داخل الجسم وهي كثيرة في الهواء . وفي استنشاقها مرة واحدة خطر عظيم فكيف اذا استنشقت مراراً فلذلك لاتكون تعبئة الرئتين بدخان التبغ المملوء نيكوتيناً وحامضاً كربونيكياً عدة ساعات في اليوم الا سبباً أكيداً لمرض الرئتين . وقد أثبت الاختبار هذا الامر فلا حاجة الى اقامة دليل عليه — قال الطبيب الشهير دريسدال رئيس أطباء احد المستشفيات في لندن في خطاب عن الصحة العمومية « ان التدخين في الصغر سبب قويٌّ للسل الرئوي »

(٥) ضرر التبغ على الدم : الدم هو السائل الحيي يحمل الى انسجة الجسم واعضائه مايحتاج اليه من الغذاء لبنيانه واصلاح مافسد منه وفيه كل العناصر التي تدخل الجسم بواسطة المجاري الثلاثة « المعدة والرئتين والجلد » فمتى أخذت هذه السموم فعلت فعلها السام المميت بواسطة الدم لان كلما يؤثر فيه يؤثر في كل عضو ونسيج في الجسم ولان دخان التبغ كيفما أخذ يصل الى الدم كان من الضرورة ان تحدث تغيرات مهمة فيه . قال الدكتور رتشاردسن « ان استنشاق الدخان مدة طويلة يحدث اعراضاً صريحة واضحة للعيان ذات صفات خصوصية تجعل الدم سائلاً رقيقاً مصفرًّا وكثيراً ما يظهر على سطح الجسم بلون أبيض مصفر ولسيولته يسهل خروجه فاذا أصيب الجسم بجرح سال الدم منه مدة طويلة وصعب إيقافه » ومعظم فعله يكون على الكريات الصغيرة السابحة في الدم وتعرف بالكريات الحمراء وهي في صحيح الجسم مستديرة ذات سطوح مزدوجة التقعر واضحة الحدود الخارجية وعليها تتوقف قوة الجسم ونموه . فمتى وصل دخان التبغ الى الدم احدث فيها تغييرًا مهماً فتفقد هيئتها المستديرة وتصير بيضية الشكل غير منتظمة وتفقد التجاذب فيما بينها فلا تعود قادرة على الاجتماع فتبقى مخلَّلة مبعثرة ولسان حالها يقول للباحث فيها « ان الرجل الذي أخذتُ منه منحط الجسم ضعيف القوى العصبية والعضلية وسيذهب شهيدًا لشهواته الناشئة باستنشاقه دخان التبغ السام التاماً للذة الوقتية فقط غير مكترث بانذاراتي الكثيرة ونصائحي العديدة اليومية . فالجاهل عدو نفسه » وكثيراً ما تتلبك الدورة الدموية بواسطة تأثير التبغ على الجهاز العصبي

(٦) التبغ يعرض للمرض : التبغ بتأثيره على كريات الدم الحمراء يتلف الجسم وباتلافه يضعفه ويقلل مقاومته للأمراض فيعرضه لاكثرها تقريباً . قال احد ثقات الاطباء

« اذا نظرت الى سكان البلدان التي تكثر فيها الملاريا رأيت وجوههم صفراء وقوام العصبية ناقصة واجسامهم غير نامية نمواً تاماً كأنهم يتمتعون بنصف ضروريات الحياة — تلك حال المدخنين » وقال غيره « اذا اخذنا جماعة من الشبان والشابات اباؤهم واجدادهم اصحاء الاجسام وعلمناهم عادة التدخين منذ نعومة اظفارهم وحصرنا الزواج بينهم فيتسلسل منهم نسل جديد اضعف بنية » فاذا كان هذا فعله في من بلغوا اشدهم فكم بالحري يكون ضرره عظيماً في الصغار والنساء . قال احد الجنود الانكليزية « لم يكن ينجو من الجنود الذين يرسلون الى البلدان التي لا توافق امزجتهم سوى اثنين من كل احد عشر وهما ممن لا يدخنون » وقال الدكتور سمث احد كتاب الانكليز « لا يمكننا تعداد الخير الذي يمنعه الدخان وليس فيه شيء سوى تهيئة البدن للامراض العديدة »

(٧) ضرر الدخان في القلب : يظهر فعله على القلب من النبض وهو ادق دليل عليه فاذا جسته رأيته بالكاد ينقبض لان الدم قد اتعبه وسمه فلم يترك فيه قوة لاتمام عمله ولذلك اصبح القلب ضعيفاً مرتجفاً كأنه ادرك ضعفه فاصبح يقول « قد شلّت اعضائي وانحطت قواي فلم اعد قادراً على القيام بالمهمة المطلوبة مني » كثيرون من المدخنين يصابون بنفرلجيا القلب وخفقانه والنبض المتقطع (انجينا بكتوريس) وماشاكلها وقد تحقق وجود مرض من امراض القلب خاص بالمدخنين يحصل التسمم المزمن بدخان التبغ السام يدعى « تسمم القلب بالنيكوتين » ويؤخذ من احصاءات الاطباء انه موجود في واحد من كل اربعة من المدخنين ، وذلك سبب قوي جداً للاعتقاد بضرر دخان التبغ في اعضاء القلب كضرره في وظائفه

(٨) ضرر دخان التبغ في المعدة : دخان التبغ تخدر والمخدرات تقلل ارتشاح العصارة المعدنية اللازمة لهضم الطعام فيضعف بالضرورة عمل المعدة ويحدث سوء الهضم ويظهر ذلك جلياً لكل من يدخن وهو جائع فانه يفقد قابليته للاكل مع وجود الشوق اليه . هذا فضلاً عن تأثير سمه في آلات الهضم باسرها فلا يمكنها القيام بما يطلب منها من العمل — حتى تعاطي التبغ سعوطاً فانه يحدث هذا الفعل بتهييجه غشاء الانف المخاطي ونقل ذلك التهييج الى المعدة بواسطة الحس السمبائوي ولذلك لا تطول مدة التدخين بدون الاصابة بمرض الدسبسيا وهي من اعظم اسباب ضعف الجسم وقلما يشفى المريض منها اذا لم يبطل التدخين .

(٩) ضرر التبغ على الاعصاب : قد تكاثر في السنين الاخيرة نوع خصوصي في

من الفالج او الشلل معظم فعله على الاعصاب التي تغذي العضلات فيضعفها تدريجاً حتى تفقد قوتها العصبية وينسب وجود هذا المرض الى الافراط في التدخين لان اكثر حدوثه في المدخنين · وذكر اطباء العيون نوعاً من الشلل المتزايد في العصب النظري يسبب العمى يسمى «كمنة التبغ» وهذا الشلل يزول غالباً في بدئه متى ابطل التدخين وبدون ذلك لا تجدي اعظم العلاجات نفعاً · وهو كثير في ايرلاندا حيث يستعمل التبغ القوي وقد ازداد العمى الاوتي كثيراً لدرجة مخيفة ولا سيما في بلجيكا وجرمانيا حتى وفي اميركا أيضاً لكثرة استعمال التبغ القوي · واول من لاحظ ذلك طبيب بلجيكي بحث فيه خصوصاً بايعاز من حكومة بلجيكا · ويقاسي المدخنون امراضاً عصبية كثيرة تظهر فيهم على اشكال مختلفة فترى احدهم سريع التهيج نزق الطبع عبوس الوجه غضوباً لا ينام الليل والآخر يقاسي الآلام المبرحة من ارتعاش اطرافه ولا سيما يديه فلا يقدر على الكتابة او معاطاة الاعمال التي تحتاج الى الدقة في النظر واليدين · ومئات من هذه الحوادث تزول وتختفي اعراضها بعد ابطال التدخين · وكثيرٌ من النساء والاولاد تنتابهم الامراض العصبية المؤلمة من فعل دخان التبغ السام في بنيتهم الضعيفة واجسامهم الضعيفة الذي يتصاعد ليلاً من انفاس رجالهم وابائهم المشبعة سماً · ذكر الدكتور الكسندر احد مشاهير اطباء كنتوكي في اميركا عدة حوادث عمى سببها التبغ وبين علاقته بالامراض العصبية قال «التبغ شائع جداً ونتائجه رديئة وكثيرة وقد كتبت المقالات الطويلة فاوضحت فعل التبغ في تلامذة المدارس وغيرهم بشرح مستوفٍ حيث لم يبق مكان لمزيد. تكتفي اقول بالاختصار ان ازدياد الامراض العصبية الخفية والنفرلجيا ظاهر للعيان يستدعي التفات العموم وفي اعتقادي ان التبغ كالمشروبات الروحية والافيون من اعظم اسباب تلك الامراض وقد اثبتت الادلة ايضاً انهُ سبب قوي للعنّة وغيرها اما راساً او بواسطة · وبالاجمال فقلما وجد مرض وظائفي او عضوي من امراض الجنس البشري الا وهو مصدره او مساعد لهُ»

(١٠) ضررهُ الوارثي: ليس في الدنيا رزيلة يتأكد انتقالها بالوراثة كاضرار التبغ فقد يتعاطى الرجل القوي التبغ كل ايام حياته مقتنعاً بانه لم يصب بضرر لكن اولاده الذين يجب ان يرثوا عنه بنية قوية وصحة جيدة فانهم يحرمون من تلك الحقوق فيولدون ضعافاً نحافاً للحياة قصيرة عرضة لامراض كثيرة · وهكذا اولاد المدخنين العظام فانهم لا يكونون اقوياء كابائهم وكذلك اولاد اولادهم ان كانوا هم من مستعملي الدخان فانهم يولدون انحف

من ابائهم واضعف جسماً وعقلاً . كل هذا قد أيده الاختبار الطويل في حوادث عديدة لم يبق فيها ريب — قال الطبيب الشهير المذكور آنفاً في خطابه « تحققت بعد الملاحظات الدقيقة ان اولاد المدخنين يصابون بالامراض العصبية اكثر مما يصاب به اولاد سواهم واذا كان الابوان من المدخنين فهناك البلية العظمى والطامة الكبرى اذ لا بد حينئذ من ان يكون نسلهما عصبي المزاج عرضة للأمراض العصبية . ومن هؤلاء يخرج الكثيرون مدمنو المشروبات الروحية آفة التمدن والد اعداء الانسانية

(١١) ضرره الادبي : لا مشاحة في ان التبغ يحدث تأثيراً مفسداً في الشعور الادبي فيضعفه ويميت الضمير ويفقد نخافة الفكر والحس الصفتين الخاصتين بالورعين المتعبدين وذوي الآداب الحقة والمبادىء المستقيمة ويخضع الارادة في أغلب الاحوال للشهوة وذلك ظاهر باجلى وضوح في الشبان الذين يبدأون باستعماله في اثناء تكوُّن مناقبهم اكثر مما في الذين تعودوه في الكبر وان كانت ظاهرة في هؤلاء ايضاً) ولا شك في ان التبغ حجر عثرة في سبيل البروسبب لكثير من الرذائل . وهو نقسه رذيلة يندر وجودها وحدها فيصحبها غالباً الميل الى المسكرات وفساد الآداب الا اذا تغلبت العلوم فلطفت الاضرار بعدم فقد الارادة فقداً تاماً . يؤكد ذلك سهولة انفاق ما يجنيه العامل يومياً بعرق وجهه على مشترى سيجارات يحرقها ليفرّ نقسه باحراقها وصعوبة انفاق بضع دريهمات على تعليم اولاده وتهذيبهم او لعمل من الاعمال الخيرية التي تؤول لنفع الوطن

(١٢) ضرر التبغ المادي : اما اضراره المادية فحدث عنها ولا حرج وهي واضحة باجلى مظاهرها في القطر المصري فلا يحتاج الباحث الى تدقيق النظر لاستطلاعها فكيفما ذهبت وحيثما نظرت في أكبر المدن واحقرها ترى اجمل المخازن وانظف النقط في احسن الساحات والشوارع ما كان منها معداً لبيع التبغ . وقد تفنن بائعوه في ترتيب تلك الاماكن واتقانها حتى تستجلب النظر ولا تغرب الشمس الا وتأتي الجرائد اليومية باعلانات عن انشاء محلات جديدة لبيعه وتحسين محلات قديمة بطريقة تستلفت انتباه الجمهور وترغبه في الاقبال على ذلك النبات السام

الفقير في القطر المصري ينفق نحواً من ستين فرنكاً سنوياً في تبغ يحرقه امام عينيه ومثلها على توابعه واعوانه في الشر والاذى كالقهوة وخلافها وقد يترك عائلة كبيرة في احتياج الى القوت الضروري في سبيل سيجارات يدخنها للذته . والمتوسط ينفق نحو ضعفي ذلك . اما الغني المقتدر فقل عن اسرافه ماشئت . كم هم المدخنون في القطر المصري

وكم تبلغ الاموال التي تنفق في سبيل التبغ كل سنة وكم هو مجموع ماينفق في العام — تلك مسئلة أترك الجواب عليها لكل عاقل منصف • التبغ ينفع من جهة بائعيه وشركات حصره ولكنه يضرّ من الجهة الاخرى الوفاً يأنون تحت عبئه • وذلك الربح لو فرضناه عاماً فهو لا يوازي الربح الذي يعود على البلاد من اعمال اولئك المدخنين لو استبقاهم أحياء يرزقون او ابقى اولادهم وأولاد اولادهم اقوياء الجسم اصحاء البنية قادرين على مقاومة الامراض القتالة . واذا جمعت الاموال التي ينفقها المدخنون في التبغ وانفقتها في الاعمال الخيرية كاقامة المدارس والمستشفيات وأماكن العجزة لأمكن لكل بلدة في القطرين المصري والسوري مثلاً ان تنشيء مدرسة لتعليم صغارها على نفقتها وتقيم مستشفى تخفف به أسقام مرضاها — أقول القطرين المصري والسوري خصوصاً لانهما أكثر اضطراراً لما ذكر مما الاحراق دخان التبغ وقد استعبدا لعادة التدخين القبيحة ثم حكم عليهما ان لا يستغلا التبغ من أرضيهما بل يأتيا به من الخارج فتجمع فيهما الدراهم بعرق الجبين وشق النفس وتقدم غنيمة باردة كل سنة لبلدان أخرى وقد ربي في سكانهما حب التدخين بالتبغ الاجنبي وهو أكثر سماً وضرراً ورفضوا الوطني مع ان اضراره اخف فكانهم يساعدون الاجنبي في استنزاف دمائهم وابتزاز اموالهم وهم غافلون

هذا ولابد من انصار ينتصرون لهذا العدو العظيم ولا يعتقدون اضراره ولا يصدقون ماقدمناه فيفوقون اليّ سهام لومهم وتعنيفهم ويسلقونني بألسنة حداد ولكنني أقول الحق ولا أخاف لومة لائم • ان المجاهرة بالحق فرض مقدس لازم ومن اعتصم بالحق اليقين وكانت خدمة الامة والوطن غايته والفضيلة رائده والاختبار وأقوال ثقاة الاطباء والعلماء دليله لايخشى شرًّا ولا يخاف سوءاً وستكون نيران غضبهم عليّ برداً وسلاماً • وقد يعترض آخرون اعتراض المستفيد اذ لم تنجل لهم الحقائق الراهنة تماماً لاستثناآت يرونها فيهم او في غيرهم فدفعاً لاعتراضاتهم اذكرها بوجه الاختصار :

اعتراضات المدخنين : اقوى اعتراضات المدخنين هي :

أولاً : دعواهم بأن بعض الاطباء يؤكدون لهم ان التبغ طعام سلبي يقلل الحاجة للطعام بتقليله مايتلف من الجسم • وقد ظهر لنا سابقاً بطلان هذه الدعوى وفسادها وان التبغ يزيد اتلاف الجسم بفعله السام على اهم اعضائه ولا يقلله • واذا فرضنا المحال وسلمنا بصحتها فلا يكون تقليله المرتشحات الطبيعية دليلاً على لزوم استعماله لان للحامض التربك والزئبق والملاريا نفس هذا الفعل فلماذا لاتحب تلك الغاية والبشر اليوم

لا يحتاجون الا لكثير تلك المرشحات نظراً لعوائدهم الباطلة في المآكل والملابس وقلة الرياضة الجسدية • فضمور الكبد وضعف عمل الجلد والكليتين وانقباض الامعاء من اعظم المفسدات للنمو الادبي والعقلي والتقدم في هذا العصر • وهذه كلها نتائج استعمال التبغ

ثانياً : ان عادة التدخين غير طبيعية في الانسان ومستهجنة ولكنها قد صارت بالطبع من ضروريات الحياة المدنية الاصطناعية وقد اعتاد البشر عليها حتى صارت ملكة يصعب قلعها فهي لازمة لاراحة العقل المتعب والفكر المضنى بمشاق العمل ورداً على دعواهم هذه اجيب انى للتبغ هذا الفعل وهو نفسه يتعب العقل ويضعف الذاكرة وان شعر المدخن بالراحة فراحته ليست حقيقية بل هي وهمية لان التعب باق ولكن فعل الدخان السام المخدر قد أثر على اعصاب الحس فاشلها فلم تعد تشعر به بل هي تزيده والضلالة الاخيرة شر من الاولى • ولا تحوج ضرورة الحياة المدنية في هذا العصر لانفاق الاموال في سبيل احراق التبغ وتسمم دماء الالوف به أكثر من انفاقها في الاعمال الخيرية والنفع العام • كم من رجل قيد نفسه بتلك العادة الفاسدة بقيود أقوى من الحديد فلم ترحم حين طلب الرحمة ولم ترث لمصاب ذويه — يقوى على ترك الطعام اياماً ولكنه لا يقوى على ترك التدخين ساعة واحدة والاغرب انه يبذل جهده في انحال الاعذار الفارغة ويجاهد في سبيله جهاد الابطال المخلصين وهو يشعر تمام الشعور بضرره الفادح ويتأوه جهراً وسراً قائلاً ليتني لم أصر عبداً له احب التخلص من شره وطأته ولكنني لا أقدر لضعف ارادتي

ثالثاً : يقول المعترض ان الكيمياء واختبارات العلماء الحقة تبرهن ان التبغ سام لكن اختبار الالوف يناقض ذلك فلو كان ساماً كما ذكر لكانت حوادث الموت به أكثر بكثير مما بخلافه وها أنا منذ الصغر ادخن اقوى نوع من التبغ وهكذا كان والدي وجدي وكانا بصحة جيدة فلماذا لم نمت به ولماذا لا يموت أكثر المدخنين ان لم نقل كلهم— وجواباً عليه يقال (آ) ان الله جل جلاله لحكمته غير المحدودة وسابق علمه بفساد الانسان وميله للخطيئة والشر جعل في الجسم البشري قوة خاصة توهله لمناسبة الاحوال يتعود بها تدريجاً على اقوى السموم المهلكة حتى الكميات الكبيرة منها ولا يشعر بضررها عاجلاً فالافيون والمورفين والسليماني والبلادونا والاستركنين وغيرها يمكن التعود عليها تدريجاً • ولنا بما نشاهده بالاختبار أدلة عديدة تكفينا مؤنة البحث

لتأييد قولنا · (٢) لمتقد واعتقادنا حق ان اكثر مستعمليه يموتون بالتسمم من النيكوتين تسمماً مزمناً اوحادًّا ولو تأخر ظهور اعراض فعله سنين عديدة

رابعاً : يقولون — كم من طبيب قال ان سيجارات قليلة في اليوم لاتضر بل تساعد الهضم وكم من عاقل يطلب ابطال التدخين وكلاهما من المدخنين فان كان قد اختبر فعله وعرف ماهيته وخواصه ولا يرعوي عن غيه فلماذا نمتنع نحن ولا نقول له ايها الطبيب اشفِ نفسك فالجواب ان الذين يكتفون ببضع سيجارات كل يوم قليلون والاختبار يعلمنا ان السيجارة الواحدة تطلب اخرى والعلبة تطلب علبتين والجنس الواحد يطلب جنساً اعلى · وهكذا يتقدم الانسان بالتدريج رويداً رويداً فيزداد حباً له وغراماً به ولاغرام قيس بليلى · واذا فرضنا انه وجد من اكتفى ببضع سيجارات كل يوم فما هي المنافع التي تنجت عنها · ومن ادعى نفعه للهضم فقد اخطأ خطأً عظيماً كما رأيت في بيان فعله على المعدة · وتدخين زيد الحكيم مع علمه ضرر الدخان لاينفي الحقائق التي قررها ببراهينه المقنعة فالعاقل من نظر الى المبدأ الصحيح وليس الى النقص السائد في زيد او عمرو

هذه خلاصة ما قرره الاطباء والعلماء الباحثون مما اثبته العلم والاختبار وجاء به المدخنون انفسهم فاتضح بها جلياً شر هذا العدو العظيم وظهرت اضراره المادية والادبية على النفس والجسد فمن لي بأنصار يقومون حيث شاع استعماله وكثرت اضراره مقتفين اثار الحكماء الاقدمين فيؤلفون الجمعيات لمقاومة بأسه وشركات حصره من الاتجار به ويجددون الكرة لمقاومة انتشاره · فقد كتب كثيرون بهذا الشأن ولكن كتاباتهم لم تأت بالفائدة المطلوبة والسبب في ذلك الفشل على ما ارى عدم مداخلة السيدات اللواتي اصبح لهن هذه الايام نفوذ عظيم في الحياة الاجتماعية والحكم في الحفلات العمومية فلم يكتبن به شيئاً · فيا ايتها المرأة الشرقية الا تنزلين الى هذا الميدان شفقة على رجالك ومحبة بأولادك وذويك الذين سيكونون رجال المستقبل ؟ · انت القادرة على الاصلاح فلماذا تسكتين · كم من مرة انكر الرجل عليك اموراً عديدة وحمل عليك حملات منكرة فاصلاك بقلمه حرباً عواناً · علت الخطباء المنابر فنددت بما لم يتاسبهم فيك وامتلأت صحف الجرائد باخبارها عما لم يستحسنوه منكِ وندر من صوب سهام لومه الى من يستعمل الدخان فكأن الرجل يرى القذى في عين اخيه ولا يرى الخشبة في عينه · يرتعد المدخن خوفاً اذا رأته سيدة اوربية يدخن ويخاف ولو بعد استئذانها طبعاً لانها اوربية فقط والتدخين من العوائد القبيحة المحظورة امامها بموجب قانون احدثته الهيئة الاجتماعية نظراً لسرعة تأثيره

السام بجسمها الضعيف ومع ذلك فقلّ من يحترم حضورك . يملأ الرجل غرف البيت بدخان التبغ فتفتحين الكوى والنوافذ لطرد الهواء الفاسد لدى خروجه وتحتملين سعاله المزعج مدة الليل والنفس الفاسد والرائحة الكريهة وانت لا تتفوهين ببنت شفة . انسيتِ اننا في عصر بزغت فيه انوار المعارف والعلوم فانمحت ظلمات الجهل ومزقت حجب الغباوة لمعرفة مقامك في الهيئة الاجتماعية وظهرت حقوقك للعيان . ألستِ شريكته ومسؤولة مثله بتقدم بنيك ونجاح امتك . ألستِ القادرة على هز الارض بيسارك كما تهزين السرير بيمينك فلماذا لا تسعين جهدك لمحاربة هذه العادة التي قد تحكمت بالرجل فلم يعد يرجى له الخلاص من شرها الا بك فان لم تنهضي للافاقة الامر بالتي هي أحسن فتمنعين ذويك من استعماله اما بنصائحك اللطيفة او بالتعنيف او بغير ذلك افضى الامر الى ضعف نسلك جيلاً بعد جيل وانت الملومة وذهب بنوك ضحايا الجهل والغباوة على مذابح الشهوات وانت المسؤولة . حاشا ان تتأخري وقد اظهرت لنا الايام الغيرة المستكنة في فؤادك لمحاربة العوائد الباطلة واقتدارك لنبذها ظهريًّا ولا أشك بان ذلك الجهاد سينتهي ولو طالت مدته بالفوز والنجاح ولكن التغلب على عادة قديمة رسخت منذ زمان قديم امرٌ شاق يحتاج الى وقت طويل فقد يحسن ذكر ما يخفف وطأة التدخين الى ان يأتي زمن وهو قريب به يهجر المدخنون دخانهم السام ولا يتأسفون على فراقه وهجره الى الابد

اذا كانت قصبة الغليون من مادة ماصة تمتص المواد الزيتية الموجودة في الدخان قبل وصولها للفم فقد يخف الضرر نوعاً واذا وضع فيها قطعة من القطن مشبوعة بمحلول ثقيل من حامض الليمون او التنين ترشح الدخان قبل وصوله للفم فيتوقف النيكوتين ويتحد مع الحوامض فيخف ضرره وهكذا اذا استعمل السيجار والسيجارة بلبلة من خشب او قصب . اما التدخين بالنارجيلة فمع انه اكثر لبكة فهو الطف ضررًا لان النيكوتين يمرّ بقناة طويلة بعد غسله بالماء واذابة القسم الكبير منه . واما استعمال اشخاص عديدين نارجيلة واحدة فعادة سيئة جدًّا لان مكروب الامراض المعدية اذا وجد وغالبًا يوجد ينتقل من فم الى آخر . فعلى المدخن ان يحمل بلبلة خصوصية يستعملها حين الاقتضاء ولا يدخن سوى ثلثي السيجار او الغليون . وخلاصة ما تقدم ان الدخان سامٌّ مضرٌّ وعديم النفع لكن ضرره ليس اعظم من ضرر المشروبات الروحية ولا اردأ من ضرر الشاي والقهوة مما سيأتي الكلام عليه

جريدة البرازيل ملحقاً بالجرائد التي ذكرنا ظهورها بعد صدور الهلال نذكر جريدة البرازيل لصاحبها قيصر افندي معلوف

باب السؤال والاقتراح

الصحف في الشرق وسبب تعطيلها

(المكسيك) قاسم افندي سليمان

قرأت في الهلال الثاني من هذه السنة ان الصحف العربية التي ظهرت من سنة ١٨٩٢ الى آخر السنة الماضية لم يبق منها حياً الا القليل فما سبب تعطيلها هل هو عدم ثبات اصحابها او قلة المشتركين . وما هي الطريقة لبقائها

(الهلال) ان السبب في تعطيلها مثل غيره من اسباب الفشل في سائر الصناعات . فقد يتعاطى عشرة رجال صناعة واحدة في بلد واحد وسوق واحدة فيفوز بعضهم ويفشل البعض الآخر . واسباب الفشل تختلف باختلاف الاشخاص ولكنها ترجع في الغالب الى سببين أولين : اولهما قصور الرجل في تلك الصناعة او قلة اختباره في تلك التجارة والثاني قلة المال الكافي للصبر حتى ينضج العمل . والمنصفون ينسبون نجاح الذين فازوا منهم الى مهارتهم في تلك الصناعة او كبر رأس مالهم وصبرهم — وهو حكم صحيح . الا اننا نضيف اليه امراً جوهرياً قلما ينتبه له الناظرون في تلك الاسباب . نعني به « الاخلاق » اذ قد يكون الرجل ماهراً في صناعته ويكون رأس ماله كبيراً ولكنه يسقط لسوء خلقه كأن يكون فظاً او مدعياً او متكبراً او طامعاً او بخيلاً او ثقيل الروح او سيء الآداب او نحو ذلك فتذهب مهارته هباء منثوراً

وتصدق هذه الشروط على الصحافة كما تصدق على غيرها من الصناعات ولكنها تتجسم في الصحافة لاسباب خاصة بها . منها ان الانسان لا يقدم على احدى الصناعات المشهورة كالمحاماة او الطب او الهندسة او الزراعة او غيرها الا بعد

ان يتعلمها ويمارسها. ولا يخطر لاحد منها كبرت دعواه ان يتعاطى التجارة مثلاً او الحدادة او غيرهما من الصناعات البسيطة قبل ان يتعلمها او يمارسها . اما الصحافة فما من تلميذ من تلامذة المدارس الكبرى الاّ وهو يعتقد نفسه قادرًا عليها لانها من قبيل الاعمال الفكرية وكل امرئ معجب ببنات افكاره . وكل كاتب يعتقد الفضل في قلمه ورأيه على اقلام سائر الكتاب وآرائهم مثل اعتقاده الفضل في عقله ودينه على عقول سائر الناس واديانهم . ويتمكن ذلك الاعتقاد في حملة الاقلام كلما قلَّ اختبارهم وقصرت مداركهم . ولذلك رأيت اكثر الناس انتقادًا ونعتًا على كتابنا وارباب صحافتنا ابعدهم عن الصحافة واقلهم بضاعة فيها كمعلمي المدارس الصغرى او تلامذة المدارس الكبرى . وفيهم من يحسب العلم والادب او السياسة من اهون الامور وما هي في اعتباره الاّ حبر على ورق . فاذا اطلع على مقالة قرأها باستخفاف وانتقدها بتعنت وطعن في علم كاتبها وادبه

ولا يزال هؤلاء المنتقدون يعتقدون كمالهم وقصور سواهم حتى يغرّر بهم حب الشهرة للاشتغال في الصحافة او الكتابة — والانسان طلاب للشهرة من فطرته والصحافة من اقوى الاسباب المساعدة على ذلك . فيقدم احدهم على انشاء جريدة او مجلة لا يمنعه من ذلك ما قد يحول دون معاطاة التجارة او الصناعة من ضيق ذات اليد . لان الشروع في انشاء الصحف عندنا وخصوصاً في مصر اصبح بعد اطلاق حرية المطبوعات وتخفيض رسوم البريد اقل نفقة من الشروع في اي عمل آخر . لان من اراد ان يتعاطى التجارة لا يستغني عما يقوم بثمن العدة واجرة المكان على الاقل . ومن أحب ان يتعاطى بيع البقالة او التبغ او الخمور او اي شيء فكلها تحتاج الى رأس مال يختلف باختلاف الاحوال ولكنه في كل حال اكثر كثيرًا ما يحتاج اليه الصحافي لاخراج فكره الى حيز العمل . فيقدم على انشاء الجريدة وفي اعتقاده انه لا يكاد يصدر العدد الاول والثاني منها حتى يتكاثر مريدوهُ ويتهافت عليه طلاب الاشتراك يتسابقون الى دفع المال سلفًا فينفق منه للقيام بشؤون الجريدة . واصدار العدد الاول من الجريدة الاسبوعية او المجلة لا يحتاج الى افتتاح مخزن ولا

الى ابتياع عدة او ادوات وانما هي نفقات الطبع والبريد ويندر ان يعجز احد عن دفعها . فاذا صدر العدد الاول اصاخ باذنيه يتسمع لما يقوله الناس عن نفثات قلمه فلا يسمع الا اطراء لان قراء الصحف عندنا يندر فيهم المنتقد المخلص والاكثرون لا يهمهم الا ارضاء مخاطبيهم بعبارات الاطراء . فاذا سألهم عن وقوع تلك الجريدة لدى الناس بالغوا في الاطراء واكدوا له انها لا تلبث ان تسابق اشهر الجرائد فينخدع ولكنه لا يمضي قليل حتى تنكشف له الحقيقة ويعلم ان الصحافة في الشرق من اكثر الاعمال مشقة بل هي اكثر مشقة من الصحافة في اوربا لما يحيط بالكاتب الشرقي من العناصر المختلفة والمشارب المتضاربة مما يعجز امهر كتاب اوربا عن ارضائه — ويرى فوق ذلك ان المشتركين لا يدفعون بدلات الاشتراك الا بعد مضي السنة الاولى على الاقل لضعف ثقتهم ببقاء الجريدة حية الى آخر السنة وقد لا يدفعون مطلقاً . فاذا تجلد وصبر على ذلك سنة لا يصبر سنة اخرى الا نادراً

ذلك هو شأن معظم الصحف التي صدرت في السنين العشر الاخيرة . على ان بعضها صدر الى اجل مسمى لغرض خاص كالطعن في انسان او جماعة او نشر رأي اوالتصريح بفكر . والبعض الآخر اصدره جماعة ليسوا من اهل الصحافة ولا العلم ولا الكتابة فاستكتبوا سواهم ثم رأوا في ذلك مشقة ونفقة فرجعوا — ولا ننكر ان بين اصحاب الجرائد التي تعطلت كتاباً لا يشق لهم غبار وفيهم جماعة من اهل العلم والادب . ففشلهم اما من قلة الثبات لعجزهم عن المال اللازم للنفقة حتى ينضج مشروعهم واما لقصورهم في ما تقتضيه مهنة الصحافة . لان العلم والادب شيء والصحافة شيء آخر نعم ان العلم لازم للصحافة لكنه غير الصحافة وما نسبته اليها الا كنسبة ادوات البناء الى الهندسة او كنسبة الحجارة الكريمة الى الصياغة . فهل يقدر كل من احرز ادوات البناء ان يبني بيتاً وهل يستطيع كل تاجر من تجار الجوهرات ان يصنع خاتماً او عقداً فالعالم قد يكون صحافياً ولكن ليس كل عالم صحافياً ولا كل صحافي عالم

وقد يكون بين اهل الصحافة اناس ليسوا من العلم على شيء ولا يمنعهم جهلهم من معاطاة هذه الصناعة والتكسب منها باستخدام رجال العلم واستكتابهم في ما يرونه

موافقاً لاذواق القراء وافياً بحاجة البلاد . وقد يقدم على انشاء الجرائد او المجلات اناس من اهل العلم الكثير والاطلاع الواسع ولا يلقون اقبالاً كثيراً ليس لقلة علمهم بل لضعف صحافيتهم . وقد ذكرنا الفرق بين العلم والصحافة في مقالة نشرناها في السنة التاسعة من الهلال

وكان في جملة اصحاب الصحف التي تعطلت اناس لا يعجزهم الانفاق على صحفهم اعواماً ولا يهمهم الا اصدارها. فمن لم يكن منهم اهلاً للصحافة من حيث هذه المهنة لم يطل عمر صحيفته . وربما كان لتعطيل بعض الجرائد الاخرى اسباب قهرية لا دخل لها بقوى اصحابها ولا بأموالهم مما لا يمكن حصره

فالشرق العربي في حاجة الى الصحف وخصوصاً المجلات لاننا في عصر الانتقال والناس متشوقون الى المطالعة ولا يمضي عام الا ويزداد القراء مئات وألوفاً بما تخرجه المدارس في سوريا ومصر وغيرها من الشبان والشابات فضلاً عن تنبه غير المتعلمين لطلب الفوائد العلمية والادبية . ناهيك برغبة الناس في استطلاع الاخبار واستماع الحوادث — وفي اعتقادنا انه لو تضاعف عدد المجلات العربية عما هي عليه الآن لما كانت كافية لسد عوز القراء . وانما يشترط في المصدر منها مراعاة الشروط اللازمة للبقاء واهمها :

(١) ان يكون صاحبها اديباً مطلعاً حسن الاختيار للمواضيع على مقتضى الاحوال وبعبارة أخرى ان يكون صحافياً مطبوعاً

(٢) ان يكون ذا مال يكفي للقيام بنفقات مجلته بضعة اعوام بلا كسب ثم لا يرجو منها الكسب الكبير الا في المستقبل البعيد . وقد يستعاض عن المال الكافي للنفقة بمواهب كبرى تعمل عمله

(٣) ان يكون سهل الخلق حسن السياسة معتدل اللهجة . وهذه المناقب ضرورية على نوع خاص في بلاد الشرق لان الشرقي فطر على التساهل والمجاملة والمحاسنة فلا يرضيه الجفاء او الفظاظة ولو في الحق الصريح

واما الجرائد السياسية فانها تفتقر في استبقائها الى المال اكثر مما الى العلم وانما يعوزها سداد الرأي والثبات في سياستها وعدم التحول عن خطتها مع صدق اللهجة

ولا يغرنك ما يزعمه بعضهم ان الجرائد السياسية لا تقوم بغير النفاق فان النفاق أعجز كثيرًا من ان تعيش المشروعات في ظله . واذا عاشت فالى أجل قصير

اقدم طوابع البريد

(ومنه) من هو اول من استنبط طوابع البريد التي تلصق على الكتب والرسائل ومتى

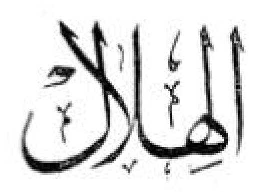
« الهلال » اول من استخدم طوابع البريد للصق على الرسائل الانكليز استخدموها سنة ١٨٤٠ ثم اقتدت بهم دول اوربا وسائر ممالك العالم

السلقة

(مصر) احمد افندي شكري بمحافظة مصر

ذكرت احدى الجرائد اليومية خبرًا غريبًا مؤداه انه يوجد بجهة اصوان نوعٌ من الحيوان يعرف هناك (بالسليقة) يخطف صغار الاطفال حينًا ويجدم وانه خطف غلامًا ولما خرج اهله في اثره لم يهتدوا اليه . وانه نزل اخيرًا بمنزل في جنح الليل وأوشك ان يخطف صبيًا كان نائمًا فصرخ الصبي ففرت (السليقة) ولكن بعد ان شقت وجهه وجردت شيئًا من لحمه واوجبت ارساله الى المستشفى فما هو هذا الحيوان

« الهلال » لا نعرف حيوانًا اسمه السليقة بالياء والظاهر انهم يريدون به السلقة (بكسر السين) وهي انثى الذئب . فكأن اهل اصوان يشكون من سطو الذئب عليهم وهو حيوان معروف . ومن امثال العرب قولهم « اسلط من سلقة »



١ يناير (ك ٢) سنة ١٩٠٤ و ١٩ شوال سنة ١٣٢١

اشهر الحوادث واعظم الرجال

هربرت سبنسر

الفيلسوف الانكليزي الكبير

ولد سنة ١٨٢٠ وتوفي سنة ١٩٠٣ م

هو اكبر فلاسفة العصر عصر الفلسفة والاكتشاف والاختراع وآخر من توفي من علماء القرن التاسع عشر وصاحب الآراء الجديدة في فلسفة العمران والبحث في احوال الانسان واستخراج القواعد والروابط لاعمال النفس ونواميس الحياة مما سنأتي على تفصيله في فصل خاص ونقتصر في هذا المقام على ترجمة حاله

ترجمته

ولد هذا الفيلسوف العظيم في دربي من اعمال انكلترا في ٢٧ أفريل سنة ١٨٢٠ وكان أبوه معلماً للرياضيات في بعض مدارس تلك المدينة ومن أهل الاطلاع والذكاء وكان يحب النظر في المسائل العمرانية ويجادل بعض اخوته ويناظره فيها . وكان هربرت يحضر تلك المباحثات ويصغي لما يدور فيها . وكثيراً ما كان يساعد اباه في مايجريه من التجارب الطبيعية فنشأ وفيه ميل كبير اليها فضلاً عما فطر عليه من حدة الذهن وقوة

العقل فاشتد ميله الى العلم الطبيعي وفلسفته منذ نعومة اظفاره وظهر ذلك فيه بما كان يعانيه من التقاط الحشرات ومراقبة نموها وما تمرُّ فيه من ادوار الحياة والتفريق بين اشكالها والوانها . فدرس مبادىء العلم على ابيه ولما بلغ الثالثة عشرة ارسلوه مع عمه القس توما سبنسر للدرس في بلدة هيتون فبقي في كفالة عمهِ هناك ثلاث سنين فظهرت مواهبهُ خصوصاً في الرياضيات وفاق اقرانهُ فيها . ثم عاد الى بلده فقرأ علم المرئيات . وقبل ان يتم السابعة عشرة انتظم في سلك المهندسين وتعين في السكة الحديدية بين لندن وبرمنهام

وعاد سنة ١٨٤١ الى بلده ونفسه تتجاذبهُ الى الاشتغال بما خلق له من الابحاث الفلسفية . فقضى هناك سنتين جمع في خلالها رواميز عديدة من اصناف النبات وعوَّد يدهُ على الرسم والتصوير فظهر فيه ميل شديد الى الاختراع مع لباقة في يديهِ فادخل في صناعة الساعات وحروف المطابع تحسيناً مهماً

على انهُ ما لبث ان عاد الى ماتدعوه اليه فطرتهُ من الاعمال العقلية فاندفع بكلية الى الاشتغال في صناعة القلم فبدأ بالصحافة — وهي من موارد الرزق الواسعة عند الافرنج — فحرر اولاً في صحيفة صناعية رياضية ثم حرر غيرها وكتب رسائل متتابعة في الحكومة واعمالها وواجباتها ظهرت في جريدة النونكونفورميست سنة ١٨٤٢ وفيها آراء سديدة واحكام صحيحة هي من ثمار ما كان يتعهده من المناظرات العلمية والادبية في صباه — وتدريب الاحداث على المناظرة من أفضل الوسائل لترقية مواهبهم ولذلك اقترحنا في غير هذا المكان على مدارسنا الكبرى ان تؤلف الجمعيات العلمية والادبية من التلامذة وتعودهم على المباحثة والخطابة لتقوى فيهم قوة الحكم وملكة البحث

وكانت خلاصة آراء سبنسر في تلك الرسائل « ان اعمال الحكومات يجب ان تنحصر في حماية الارواح وحفظ النظام والامن وأما تدبير الهيأة الاجتماعية وترقية شؤونها فمن واجبات الامة » — وما أجدرنا ان نعمل بهذا الرأي في مصر وقد غرس في اذهان ابنائها منذ اجيال انهم عالةٌ على الحكومة حتى في ضروريات معائشهم فضلاً عن ترقية شؤون هيأتهم الاجتماعية فالحكومة تنشيء لهم المدارس وتؤلف لهم الشركات وتمد السكك الحديدية والتلغرافات . وما زال ذلك شأنها الى الآن ولكن يسرنا ان نرى الامة المصرية عاملة على التملص من تلك القيود بما اخذت في انشائه من المدارس الاهلية والشركات الوطنية

وقد طبعت رسائل سبنسر المشار اليها في كتب على حدة وكانت اساس ابحاثه الكبيرة

في هذا الشأن بعد ذلك . فانه اعاد الكرة فيه وشدد النكير على الحكومة وأيد أقواله بالادلة القوية على «ان المجتمع الانساني لا يرتقي قهراً وانما هو يسير في ارتقائه على نواميس طبيعية يكفي في استعجالها ان تترك وشأنها وان تداخل الحكومة في تعجيلها قد يؤول الى فساد أمرها وتعطيل سيرها»

وكان لكتاباته وقع حسن عند أرباب الصحف فتسابقوا الى استخدامه للتحرير في صحفهم . فجاء لندن واشتغل من سنة ١٨٤٨ — ١٨٥٢ في تحرير المجلات العلمية والادبية وخصوصاً مجلة الايكونوميست Economist ومجلة وستمنستر Westminster Review ومجلة ايدنبرج dinburgh Review

وكان سبنسر يشتغل في أثناء ذلك يبث آرائه في الاجتماع البشري فنشر سنة ١٨٥١ كتاباً سماه Social Statics ايد فيه آراءه في ارتقاء المجتمع الانساني مع علاقة ذلك بالحكومات بادلة وابحاث لم يسبقه اليها احد . وكان لهذا الكتاب شأن كبير لدى قراء اللغة الانكليزية وخصوصاً في أميركا لانه يناسب آراءهم الديموقراطية

وجرّه البحث في ذلك الى النظر في علاقة العقل بالمادة فأصدر سنة ١٨٥٥ كتاباً في أصول علم النفس سماه The priciples of psychology نظر فيه نظراً تحليلياً في نسبة العقل الى المادة مع ميل شديد الى القول بالنشوء والارتقاء — على ان هذا المذهب الذي اشتهر به داروين بعد ذلك انما هو ظاهر في كل بحث من ابحاث فيلسوفنا . ثم توسعت ابحاثه حتى خرجت من النظر في المجتمع الانساني الى النظر في الطبيعة على اجمالها من حيث هذا المبحث . فال ذلك الى تعظيم فلسفة النشؤ والارتقاء لانها المحور الذي تدور عليه كل آرائه واقواله — وأساس رأيه في ذلك ان العلماء المحدثين ابطلوا أقوال اسلافهم في الطبيعيات والفلك واستبدلوها بأقوال جديدة مبنية على المشاهدة والاختبار فوجب والحالة هذه ان نبطل ما بنوه على تلك الاقوال من فلسفة الوجود ونضع للعلم أساساً جديداً — وكان العلماء يومئذ يتناظرون في وحدة الطبيعة وتبادل العلائق بين العلوم . وقد دافع جماعة منهم عن الارتقاء الجاري في عالم الحيوان . فكان سبنسر يتتبع اقوالهم ويتدبرها فتنبه فيه ميلٌ شديد الى تلك الابحاث فكتب في المجلات العلمية مقالات عديدة في فلسفة الانشاء وفلسفة العادات والاخلاق واسباب التقدم ونواميسه وتوالد العلوم وغير ذلك من الابحاث الجديدة فأعجب الاميركان خصوصاً

بها وأعادوا طبعها مراراً في مجموعات اطلقوا عليها أسماء أخرى ٠ ومذهب النشوء والارتقاء ظاهر فيها كلها .



هربرت سبنسر في كهولته

وفي سنة ١٨٥٨ نضج رأي هذا الفيلسوف في النشوء الارتقاء وتبين له انه يتوقف على نواميس مستقرة في المادة والقوة ويشمل كل ما يجري في الطبيعة من حوادث الوجود — من اهتزاز الجوهر الفرد الى ارقى اعمال النفس — فنشر في ذلك العام بحثاً في الرأي السديمي علل فيه تكون الاجرام من السديم ٠ وقد نشرنا خلاصة هذا الرأي في مواضع كثيرة من الهلال ٠ ثم توسع في تطبيق هذا المذهب على كل ماجريات الطبيعة فبنى عليه مذهباً فلسفياً عززه بالاكتشافات العلمية الحديثة ٠ فنشر سنة ١٨٦٠ منشوراً قال فيه انه عزم على تأليف كبير سماه A system of Synthetic Philosophy قدر انه يجيء في عشرة مجلدات يقتضي لاتمامها عشرون سنة تتضمن البحث في نواميس الطبيعة على اجمالها وتأثيرها على الحياة والعقل وعلى المجتمع الانساني وآدابه — فاذن منشور سبنسر هذا في العام الذي نشر داروين فيه رأيه في مذهب النشوء ٠ ولذلك ظن بعضهم ان سبنسر اقتبس ذلك القول منه ٠ والصحيح ان داروين لم يدع ذلك لنفسه ٠ وقد امتلأ رأس سبنسر من ذلك المذهب قبل ان يخط داروين فيه حرفاً واحداً على اننا لا ننكر ما استفاده سبنسر من ابحاث داروين المبنية على المشاهدة والاختبار في شرح آرائه الفلسفية

قدر سبنسر للفراغ من تأليف كتابه المشار اليه عشرين سنة ولكنه لم يستطع الفراغ منه الأ في ختام القرن التاسع عشر وقد قضى في تأليفه ونشره نحو اربعين سنة . وهو بالحقيقة اعظم مشروع علمي قام باتمامه رجل واحد . وسمى الجزء الاول منه الاصول الاولية First principles قصر بحثه فيه على الوجود وجعله قسمين : الاول في ما لا يمكن معرفته والثاني في نواميس ما يمكن معرفته . وخلاصة رأيه في القسم الاول « ان ادراك الانسان محدود فاذا بلغ حدوده استحال عليه معرفة ما وراء ذلك وان في الطبيعة قوة يستحيل على العقل البشري ادراكها او معرفة شيء من صفاتها من حيث التعقل او البقاء او غير ذلك » وعنده ان هذه الابحاث خارجة عن حدود العقل البشري . وجعل القسم الثاني اساساً لمذهبه الخاص في الفلسفة التي عزم على بسطها في ذلك الكتاب الكبير . فبحث في المادة والقوة والحركة وبرهن اننا حيثما نظرنا في نظام الطبيعة رأينا لناموس الارتقاء دخلاً كبيراً وان الموجودات على اختلاف ماهياتها تتدرج من الكليات الكبرى الى الجزئيات الصغرى وكل ذلك متبادل الاسباب متكافىء الاحوال في شكل غريب . ثم ظهرت الاجزاء الاخرى بالتتابع ومنها كتاب اصول علم الحياة Principles of Biology مجلدان واصول علم النفس Principles of psychology مجلدان وغيرها في فلسفة العمران والفلسفة الادبية وغير ذلك

ومما اصدره من الكتب الاخرى في اثناء ذلك كتاب « تنسيق العلوم » و « التولد الذاتي » ورأيه في ما رتأه فيه من التعليم النفس ودرس العمران والعبودية القادمة . ومن اهم كتبه كتاب العمران الوصفي Descriptive Sociology اراد به وصف احوال العمران في كل العالم بشكل جداول الحاملة يصف طبائع الامم وعاداتهم واعتقاداتهم وسائر احوالهم الاجتماعية على تفاوت درجات تمدنهم او توحشهم . وكان في عزمه ان يصدره في ١٨ جزءاً تصدر متتابعة فاضطر لضيق ذات يده ان يكتفي باصدار تسعة اجزاء فقط منها جزء في وصف حالة العمران في التمدن الانكليزي والثاني في التمدن الاميركاني المنقرض والثالث في شعوب ملقا والزنوج والرابع في قبائل افريقيا وقس على ذلك . ولو اتيح للمؤلف رحمه الله ان يتمه على مقتضى الترتيب الذي وضعه في اول الامر لما كان له مثيل في ما الفه البشر الى هذا اليوم

وخلاصة القول فقد قضى هربرت سبنسر بضعاً وستين سنة وهو يؤلف ويكتب في اصعب المواضيع واوعرها واعترض عمله انحراف الم بصحته على اثر اعلانه عزمه على تأليف كتابه الكبير فخاف اصدقاؤه ان يحول المرض دون اتمامه ولكنه عاد الى صحته واتمه

عاش هذا الفيلسوف عيشة الفلاسفة بمعناها الحقيقي ومن اهم ظواهرها الزهد في الدنيا واحتقار زخارفها الباطلة · ولا غرابة في ذلك لان من كان دأب التنكر في الوجود وحقيقته وكان اقل ما يدور في مخليته الافلاك وحركاتها ونظامها وليست والحياة بجملتها في اعتباره الا ظاهرة من ظواهر هذا الوجود فكيف يهمه ان ينادى بلقب دون لقب آخر او يعلق في صدره قطعة من معدن عليها نقش حفرته يد الانسان او قدة من جلد او نسيج ملون عليها صور بعض الاشكال ؟ — فلا غرو والحالة هذه اذا رفض هذا الفيلسوف الكبير الالقاب والرتب والوسامات حتى من الجمعيات العلمية وابتعد عن المجالس الرسمية حتى الجمعيات العمومية ولم ينضم الى واحدة منها

ومما اتصف به من لوازم الفلسفة الحقيقية انه قضى عمره عزباً لم يتزوج · ولا ريب ان العزوبة سهلت عليه القيام بمشروعاته الكبرى لان للزواج مشاغل تحول دون تلك المشروعات فكان سبنسر يقيم الى اواخر ايامه في نزل او فندق في غربي مدينة لندن · وكان كثير العناية بصحته وملاحظة اسباب الوقاية وترتيب معيشته مع المحافظة الشديدة على آدابه · وكان يتردد الى نادي الاثينيوم يلعب احياناً بالبليار او يسمع الالحان الموسيقية او يشاهد بعض التمثيل ونحو ذلك ترويحاً للنفس · وقد زار قارة اميركا سنة ١٨٨٢ فرحب اهلها به فالقى فيهم خطباً مفيدة ولكنه ما لبث ان اضطر الى الرجوع مراعاة لصحته

وكان رحمه الله شديد المحافظة على المبادىء الصحيحة صادق اللهجة حر الضمير مخلص الطوية · وكان مذهبه في الفلسفة من قبيل ما يسميه العرب « اللاأدرية » وهم فئة من الفلاسفة قالوا بالتوقف في معرفة كل شيء وعلمه · ويسمون في اصطلاح الافرنج Agnostic وهم الذين ينتهون بعد طول البحث في الوجود ومصيره بقولهم « لا ادري »

ومما يزيد فضل هذا الفيلسوف انه قضى ذلك العمر الطويل عاملاً في اوعر المواضيع وهو يحارب الفاقة لان مؤلفاته ليست من قبيل الروايات او التواريخ او غيرها من المواضيع الخفيفة التي يتهافت القراء عليها · ولذلك فربما مضى على الكتاب الواحد من كتبه بضع عشرة سنة ولم ينفد منه الف نسخة — ذكروا انه لما نشر الطبعة الاولى من كتابه في اصول علم النفس لم يطبع منها الا ٧٥٠ نسخة ولم تنفد الا بعد مضي اثني عشرة سنة · ولما طبع كتابه في اصول العمران لم ينفد هذا العدد منه الا بعد ١٤ سنة · ولذلك فقد خسر في اثناء خمس عشرة سنة ٣٢٠٠ جنيه فضلاً عن تعبه في البحث والتنقيب · ولكن الرجل العظيم انما يعظم بالصبر وسعة الصدر فظل سبنسر مواظباً على العمل حتى تولد في الناس رغبة في مطالعة مواضيعه

فشاعت كتبه بين الادباء واهل الاطلاع وراجت سوقها نوعاً ولكنها في كل حال لم تلاق بعض ما تلاقيه كتب الادب من الرواج . فقضى معظم حياته وهو يحارب الفقر وكان قد ترك مهنته الاولى رغبة في العلم ولو لم يتركها لساعدته في طبع كتبه على الاقل فأصبح اذا ألف كتاباً عرضه على ناشري الكتب فلم يجد بينهم من ينفق قرشاً في سبيل طبعه خوفاً من الكساد لان الموضوع جديد وجاف فاضطر ان ينفق على نشر كتبه من جيبه وذلك نادر في اوربا لان المؤلفين عندهم غير الناشرين

فقضى سبنسر ١٢ سنة في اول امره ولم يسترجع من مبيع كتبه ما يساوي ثمن اوراقها واجرة طبعها والاعلان عنها . ولما راجت لم تكن تقوم بنفقات معيشته الا بعد زمن طويل مع قلة تلك النفقات لما تقدم من اقتصاره عن زخارف الدنيا وملاذها ومع ذلك فانه خسر في ١٥ سنة الاولى ١،٢٠٠ جنيه كما تقدم . ولم تبطل خسارته من طبع كتبه الا بعد مضي ٢٤ سنة مع ان غيره من عامة الناس يكتسبون الملايين ويزدادون غنى في كل يوم . واما هو فبعد انقضاء معظم حياته في السهر والعمل سرَّهُ ان يقول « لست افقر مما كنت في بدء العمل » ناهيك بما اصابه من المرض والضعف ولم يثنه شيء عن اتمام ذلك العمل العظيم الذي انتدب نفسه له ولاريب انه لم يثبت في ذلك الطريق الشاق الا لما كان يجده من اللذة في الكتابة . وشأنه في ذلك شأن كثيرين من ارباب الاقلام بيننا الذين يسترزقون من شق تلك القصبة فانهم انما يندفعون الى الكتابة باللذة التي يلاقونها في ذلك ولولاها لما رأيت في ديارنا كاتباً — فلما فرغ سبنسر من العمل أشار في بعض كتبه الاخيرة الى سروره واكتفائه بان الفقر والضعف لم يمنعاه من اتمام مشروعه

من ابلغ ما قيل في وصف الاعداء قول بعضهم

عداي لهم فضلٌ عليَّ ومنةٌ فلا ابعد الرحمن عني الأعاديا

هم عرفوني زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

ومما قيل في وصف الغربة

الفقر في اوطاننا غربةٌ والمال في الغربة اوطان

والارض شيءٌ كلها واحد والناس اخوان وجيران

تاريخ اللغة العربية [1]

باعتبار انها كائن حي تام خاضع لناموس الارتقاء

نواميس الحياة من اهم نواميس الحياة النمو او التجدد وهو عبارة عن دثور الانسجة وتولد ما يحل محلها . ومعنى ذلك ان الجسم الحي مؤلف من خليات لكل منها حياة مستقلة اذا انقضت ماتت الخلية وانحلت اجزاؤها وانصرفت وتولد في مكانها خلية جديدة تتكون من العصارات الغذائية كالدم ونحوه . فالجسم الحي في انحلال وتولد دائمين حتى قالوا ان بدن الانسان يتجدد كله في بضع سنين اي لا يبقى فيه شيء من المواد التي كان يتألف منها قبلاً وبغير هذا التجدد لا يكون الجسم حياً . واذا حدث في جسم الحيوان ما يمنع تجدد الانسجة اسرع اليه الفناء — فالتجدد ضروري للحياة

وحياة الامة مثل حياة الفرد بل هي ظاهرة فيها اكثر من ظهورها فيه . لان الامة انما تحيا بدثور القديم وتولد الجديد فكأن افراد الامة خليات يتألف منها بدن تلك الامة وهو يتجدد في قرن كما يتجدد بدن الانسان في عقد من عقود ذلك القرن

واذا تتبعنا نمو الامة بتوالي الاجيال رأيناها تتفرع وتتشعب فتصير الامة الواحدة امماً يتفاوت البعد بينها بتفاوت الازمان والاحوال . وكل امة من هذه تتشعب بتوالي الادهار الى أمم أخرى وهكذا الى غير حد وهو ما يعبرون عنه بناموس الارتقاء العام

اللغة كائن حي وتتبع الاحياء في الخضوع لهذه النواميس ما هو من قبيل ظواهر الحياة او توابعها وخصوصاً ما يتعلق منها باعمال العقل في الانسان كاللغة والعادات والديانات والشرائع والعلوم والآداب ونحوها . فهذه تعد من ظواهر حياة الامة وهي خاضعة لناموس النمو والتجدد ولناموس الارتقاء العام . ولكل من هذه الظواهر تاريخ فلسفي طويل نعبر عنه بتاريخ تمدن الامة او تاريخ آدابها او علومها او حكومتها او اديانها او نحو ذلك . وهي ابحاث لا تبذة فيها فلسفة ونظر — ومن هذا القبيل تاريخ اللغة وادابها

والبحث في تاريخ اللغة على العموم يتناول اولاً النظر في نشأتها منذ تكونها مع ما مر عليها من الاحوال قبل زمن التاريخ كتكون الافعال والاسماء والحروف وتولد صيغ

---

(١) نقلاً عن الطبعة الثانية من كتابنا « الفلسفة اللغوية » تحت الطبع

الاشتقاق واساليب التعبير ونحو ذلك والبحث في هذا كله من شأن الفلسفة اللغوية وقد فصلناه في ما تقدم من هذا الكتاب . ثانياً النظر في ما طرأ على اللغة من التأثيرات الخارجية بعد اختلاط اصحابها بالامم الاخرى فاكتسبت من لغاتهم الفاظاً وتعبيرات جديدة كما يقتبس اهلها من عادات تلك الامم واخلاقهم وادابهم وما يرافق ذلك من تنوع معاني الالفاظ بتنوع الاحوال مع حدوث صيغ جديدة والفاظ جديدة . ثالثاً النظر في تاريخ ما حوته اللغة من العلوم والآداب باختلاف العصور وهو « تاريخ اداب اللغة » وهذا التقسيم تقريبي اذ لا تجد حداً فاصلاً بين هذه الاقسام

واذا تدبرت تاريخ كل ظاهرة من ظواهر الامة كالآداب او اللغة او الشرائع او غيرها باعتبار ما مرَّ بها من الاحوال في اثناء نموها وارتقائها وتفرعها رأيتها تسير في نموها سيراً خفياً لا يشعر به الا بعد انقضاء الزمن الطويل . ويتخلل ذلك السير البطيء وثباتٌ قوية تأتي دفعة واحدة فتغير الشؤون تغييراً ظاهراً . وهو ما يعبرون عنه بالنهضة وسبب تلك النهضات على الغالب احتكاك الافكار بالاختلاط بين الامم على اثر مهاجرة اقتضتها الطبيعة من قحط او خوف . او يكون سبب الاختلاط ظهور نبي او متشرع او فيلسوف كبير او نبوغ قائد طماع يحمل الناس على الفتح والغزو وامثال ذلك من اسباب الاختلاط . فتحتك الافكار وتتمازج الطباع فتتنوع العادات والاخلاق والاديان والآداب — واللغة تابعة لكل ذلك بل هي الحافظة لآثار ذلك التغيير فتحفظها قروناً بعد زوال تلك العادات او الآداب او الشرائع واذا تبدل شيء منها حفظت آثار تبدله

وسنقتصر في هذه العجالة على تاريخ اللغة العربية في دورها الثاني وهو تاريخ الفاظها وتراكيبها بعد تكونها . ولكن الافاضة في ذلك تستغرق مجلداً كبيراً والمراد الآن الالمام بالموضوع تاركين الافاضة فيه لوقت آخر

❊ تاريخ الفاظ اللغة ❊ واذا تدبرنا ما مرَّ على اللغة العربية من المؤثرات الخارجية بعد تكوّنها وارتقائها حتى اكتسبت ما اكتسبته من الالفاظ وضروب التعبير رأيناها قد مرّت في ثمانية اطوار او اعصر وهي :

(١) العصر الجاهلي : ويراد به الزمن الذي مرَّ على اللغة العربية قبل الاسلام ولا يمكن تعيين اوله لضياع ذلك في ثنيات العصور التي مرت قبل زمن التاريخ . ولكننا نعتقد ان اللغة العربية نشأت ونمت اي تميزت فيها الاسماء والافعال والحروف وتكونت فيها معظم الاشتقاقات والمزيدات وهي لا تزال في حجر امها اي قبل انفصالها عن اخواتها الكلدانية

والعبرانية والفينيقية وغيرها من اللغات السامية . وبعبارة اخرى ان أم هذه اللغات ويسمونها اللغة السامية او الارامية تمَّ نموّها فتكونت افعالها واسماؤها وحروفها واشتقاقاتها ومزيداتها قبل ان تشتت اهلها او نزحوا الى فينيقية وجزيرة العرب وما بين النهرين حيث اختلفت لغة كل قوم منهم بعد ذلك النزوح باختلاف احوالهم فتولدت منها اللغات السامية المعروفة . فالساميون الذين نزلوا جزيرة العرب تنوعت لغتهم تنوعاً يناسب ما يحيط بهم من الاحوال او يجاورهم من الامم فتميزت عن اخواتها بأمور خاصة هي خصائص اللغة العربية . وتشعبت هذه اللغة في اثناء ذلك الى فروع يختلف بعضها عن بعض باختلاف الاصقاع وهي لغات الحجاز واليمن والحبشة . وتفرعت لغة كل من تلك البقاع الى فروع باعتبار القبائل والبطون مما لا يمكن حصره — كل ذلك حدث قبل زمن التاريخ

ويكفينا في هذا المقام البحث في لغة الحجاز وحدها وهي اللغة العربية التي وصلت الينا فقد كانت قبل تدوينها (اي قبل الاسلام) لغات عديدة تعرف بلغات القبائل وبينها اختلاف في اللفظ والتركيب كلغات تميم وربيعة ومضر وقيس وهذيل وقضاعة وغيرها كما هو مشهور — واقرب هذه اللغات شبهاً باللغة السامية الاصلية ابعدها عن الاختلاط وبعكس ذلك القبائل التي كانت تخالط بالامم الاخرى كاهل الحجاز مما يلي الشام وخصوصاً اهل مكة وبالاخص قريش فقد كانوا اهل تجارة وسفر شمالاً الى الشام والعراق ومصر وجنوباً الى بلاد اليمن وشرقاً الى خليج فارس وما وراءه وغرباً الى بلاد الحبشة . فضلا عما كان يجتمع حول الكعبة من الامم المختلفة وفيهم الهنود والفرس والانباط واليمنية والاحباش والمصريون غير الذين كانوا ينتجعون اليها من جالية اليهود والنصارى

فادى ذلك الاختلاط الى ارتقاء لغة قريش بما اقتبسته من الالفاظ والتراكيب على ما يلائم احتياجات اهلها . وزاد ذلك الاقتباس خصوصاً بالنهضة التي حدثت في القرنين الاول والثاني قبل الاسلام بنزول الحبشة والفرس في اليمن والحجاز على اثر استبداد ذي نواس ملك اليمن وكان يهودياً فاضطهد نصارى اليمن في القرن الخامس للميلاد وخصوصاً اهل نجران فطلب اليهم اعتناق اليهودية فلما ابوا قتلهم حرقاً وذبحاً فاستنجد بعضهم الحبشة فحمل الاحباش على اليمن وفتحوها واستعمروها حيناً واذلوا ملوكها اعواماً ثم انف احد ملوكها ذو يزن فاستنجد الفرس على عهد كسرى انو شروان فانجده طمعاً بالفتح فاخرج الاحباش من اليمن بعد ان ملكوها ٧٢ سنة وكانوا في اثناء ذلك يترددون الى الحجاز وحاولوا فتحه في اواسط القرن السادس فجاؤا مكة بافيالهم ورجالهم

ولم يفلحوا . واهتم اهل الحجاز بقدوم الحبشة الى مكة حتى ارخوا منه وهو عام الفيل . ولما فتح الفرس اليمن اقاموا فيها واختلطوا باهلها بالمبايعة والمزاوجة وتوطنوا وكانوا يقدمون الى الحجاز واهل الحجاز يترددون اليهم

فكان لهذه النهضة تأثير كبير في اللغة العربية بما دخلها من الالفاظ الغريبة وما اقتبسته من التراكيب الاجنبية ولكن اكثره ضاع فيها وتنوع شكله ولم يعد يتميز أصله . على اننا نستدل على تكاثر الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية بخلو اخواتها من امثال تلك الالفاظ . فاذا رأينا لفظاً في العربية لم نر له شبيهاً في العبرانية او الكلدانية او الحبشية ترجح عندنا انه دخيل فيها . واكثر ما يكون ذلك في أسماء العقاقير او الادوات او المصنوعات او المعادن او نحوها مما يحمل الى بلاد العرب من بلاد الفرس او الروم او الهند ولم يكن للعرب معرفة به من قبل . او في اسماء بعض الاصطلاحات الدينية او الادبية واكثر ذلك منقول عن العبرانيـة او الحبشية لان اليهود والاحباش من أهل الكتاب

فمن أمثلة ما أخذه العرب عن الفرس على ما ذكره صاحب المزهر « الكوز الجرة الابريق الطشت الخوان الطبق القصعة السكرجة السمور السنجاب القاقم الفنك الدلق الخز الديباج التاختج الرختج السندس الياقوت الفيروزج البلور الكعك الدرمك الجردق السميد السكباج الزيرباج الاسفيذباج الطباهج الفالوذج اللوزينج الجوزينج البغرنج الجلاب السكنجبين الخنجبين الدارصيني الفلفل الكرويا الزنجبيل الخولنجان القرفة النرجس البنفسج النسرين الخيري السوسن المرزنجوش الياسمين الجلنار المسك العنبر الكافور الصندل القرنفل » «١» اهـ وعندنا ان بعض هذه الالفاظ غير فارسي وليس هنا محل تحقيقه

ومما اقتبسوه من اليونانية واللاتينية الفردوس والقسطاس والبطاقة والقرسطون والقبان والاصطرلاب والقسطل والقنطار والبطريق والترياق والقنطرة وغيرها كثيرٌ

وأما مانقلوه عن الحبشية فأكثره لايدل على أصله لتغير شكله ولان الحبشية والعربية اختان تتشابه الالفاظ فيهما . والمشهور عند علماء العربية من الالفاظ المقتبسة من الحبشية ثلاثة كفلين والمشكاة والهرج . لكننا لا نشك في انهم اقتبسوا كثيراً غيرها وخصوصاً ما يتعلق منها بالاصطلاحات الدينية . من ذلك قولهم « المنبر » وهو عند العرب « مكان مرتفع في الجامع او الكنيسة يقف فيه الخطيب والواعظ » وقد شقهُ صاحب القاموس من « نبر » اي ارتفع وفي ذلك الاشتقاق تكلف . وعندنا انه معرب « ومبر » في الحبشية اي كرسي او مجلس او عرش

ومن هذا القبيل لفظ « النفاق » وهو عند العرب « ستر الكفر في القلب واظهار الايمان » وقد شقوهُ من « نفق » راج او رغب فيه وليس بين المعنيين تناسب فاضطروا لتعليله الى استعارة خروج اليربوع من نافقائه فقالوا « ومنه اشتقاق المنافق في الدين » وهو تكلف نحن في غنى عنه اذا عرفنا ان « نفاق » في الحبشية معناها الهرطقة او البدعة او الضلال في الدين • وهي من التعبيرات النصرانية التي شاعت في الحبشة بدخول النصرانية فيها وكذلك لفظ « الحواري » شقه صاحب القاموس من « حار » بمعنى البياض وقال في معنى الحواريّ انه سمي بذلك لخلوص نية الحواريين ونقاء سريرتهم او لأنهم كانوا يلبسون الثياب البيض والاظهر ان هذه اللفظة معرب حواري في الحبشة ومعناها فيها الرسول وهو المعنى المراد بها في العربية تماماً • وكذلك « برهان » وقد شقها صاحب القاموس من « برهن » وشقها غيرهُ من « بره » بمعنى القطع وان النون زائدة فيها وهي في الحبشية « برهان » اي النور او الايضاح مشتقة من « بره » عندهم اي أتضح أو انار • وقس على ذلك كثيراً من أمثاله • ناهيك بأسماء الحيوانات او النباتات او نحوها فان « عنبسة » من اسماء الاسد عند العرب وهي اسم الاسد بالحبشية

وقد أخذوا عن العبرانية كثيراً من الالفاظ الدينية كالحج والكاهن والعاشوراء وغيرها وأكثرها نقل الى الصيغ العربية لتقارب اللفظ والمعنى في اللغتين لانهما شقيقتان ويضيق هذا المقام عن ايراد الامثلة

ولا ريب ان العرب اقتبسوا كثيراً من الالفاظ السنسكريتية ممن كان يخالطهم من الهنود في أثناء الاسفار للتجارة او الحج • لان جزيرة العرب كانت واسطة الاتصال بين الشرق والغرب • فكل تجارات الهند المحمولة الى مصر او الشام او المغرب كانت تمر ببلاد العرب ويكون للعرب في حملها او ترويجها شأن — وقد عثرنا في السنسكريتية على الفاظ تشبه الفاظاً عربية يغلب ان تكون سنسكريتية الاصل لخلو اخوات العربية من أمثالها كقولهم « صبح » و « بهاء » فانهما في السنسكريتية بهذا اللفظ تماماً ويدلان على الاشراق او الاضاءة • ولا يعقل انهما مأخوذان عن العربية لان السنسكريتية دونت قبل العربية بزمان مديد • ولعلنا بزيادة درسنا اللغة السنسكريتية ينكشف لنا كثير من امثال ذلك

على اننا نرجح ان العرب اخذوا عن الهنود كثيراً من الاصطلاحات التجارية واسماء السفن وادواتها واسماء الحجارة الكريمة والعقاقير والاطياب مما يحمل من بلاد الهند والعرب يعدُّونها عربية او يلحقونها بالالفاظ الفارسية تساهلاً • كالمسك مثلاً فقد رأيت

صاحب المذهر يعدهُ فارسياً وهكذا يقول صاحب القاموس · وهو بالحقيقة سنسكريتي ولفظه فيها « مشكا » و ذكروا « الكافور » بين الالفاظ الفارسية وهو هنديٌّ على لغة اهل ملقا ولفظه عندهم « كابور » · وقد ذكروا أيضاً ان القرنفل فارسي والغالب عندنا انه سنسكريتي لان اصله من الهند وقس عليه — وسنعود الى هذا البحث

وبالجملة فقد دخل العربية الفاظ كثيرة من معظم اللغات التي كانت شائعة في التاريخ القديم ممن خالط العرب كالمصريين القدماء والحثيين والفينيقيين والكلدان والهنود والفرس حتى الزنوج والنوبة وغيرهم مما لم يعد تمييز أصله ممكنا لتقادم عهده واختلاف شكله · وبعض تلك الاقتباسات اخذها العرب رأساً عن أصحابها والبعض الآخر حملت اليهم على يد الامم الاخرى كما نقل لهم اليهود لفظ « نبي » من اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) واصل معناه فيها « رئيس العائلة » او « رب المنزل » وقد بينا ذلك في ما تقدم من هذا الكتاب · وكما نقل لهم الفرس « الشطرنج » عن اللغة الهندية السنسكريتية فحسبها العرب فارسية وقالوا انها تعريب « شترنك » بالفارسية ومعناها ستة الوان — ولعلهم يريدون « ششرنك » — والصواب انها لعبة هندية قديمة كانت تسمى باللغة السنسكريتية « شتورنكا » اي الاجزاء الاربعة التي يتألف منها الجند عندهم وهي الافراس والافيال والمركبات والمشاة · فأخذها الفرس عنهم نحو القرن السادس للميلاد وأخذها العرب عن الفرس فحسبوها فارسية وتكلفوا في تعليلها كما رأيت

ولم يقتصر العرب على اقتباس الالفاظ من اللغات الاخرى واستبقائها على حالها ولكنهم صرفوها واشتقوا منها الافعال ونوعوا معناها على ما اقتضته احوالهم · فقد رأيت كيف شقوا من لفظ النبي « نبأ » و « تنبأ » و « نابأ » · ومن هذا القبيل « اللجام » وهو من « لگام » في الفارسية فشقوا منه اولاً « ألجم الدابة » البسها اللجام و « التجمت الدابة » مطاوع الجم وجمعوا لجام على لجم والجمة ثم استخدموه للمجاز فقالوا « ألجمه الماء » اي بلغ فاه وقالوا « لفظ لجامه » اي انصرف من حاجته مجهوداً من الاعياء والعطش · وقولهم « التقي ملجمٌ » ارادوا به انه مقيد اللسان والكف · ومن ذلك ما شقوه من لفظ « ديوان » وهي العجمية فقالوا « دوّن » اي كتب اسمه في الجندية · وقس على ذلك كثيراً من الالفاظ الدخيلة التي يعتقد العرب انها عربية وقد شقوا منها الافعال والاسماء مثل « سراب » وهي تعريب « سيرآب » في الفارسية اي مملوء ماء · والزمهرير من « زم اريز » بالفارسية اي ضباب بارد · وجزاف من « گزاف » بالفارسية اي العبث من الكلام · والفنك من « تنك »

في الفارسية ضيق وقد شقوا منها افعالاً واسماء ترجع الى هذا المعنى

ثم ان اكثر ما ادخله العرب الى لغتهم من الالفاظ الاجنبية لم يكن له ما يقوم مقامه في لسانهم . على ان كثيراً منه كانت له عندهم اسماء مشهورة — لا يبعد ان يكون بعضها دخيلاً ايضاً فغلب استعمال الدخيل الجديد واهمل القديم . من ذلك ان العرب كانوا يسمون الابريق « تامورة » والطاجن « مقلى » والهاوون « منحاز » او « مهراس » والميزاب « مثعب » والسكرجة « الثقرة » والمسك « المشموم » والجاسوس « الناطس » والتوت « الفرصاد » والاترج « المتك » والكوسج « الاثط » والباذنجان « الانب » والرصاص « الصرفان » والخيار « القثد » . . . فهذه الاسماء وامثالها اهملها العرب قبل الاسلام بعد ان استبدلوها باسماء دخيلة — فعلوا ذلك عفواً بلا تواطوء او قصد وانما هو ناموس النمو يقضي عليهم بذلك — وستاتي بقية الكلام

تاريخ علم الادب

عند الافرنج والعرب

لكاتب فاضل

٣٠ — الطريقة الرومانية

اسلوب الطريقة الرومانية ابتدأ ظهوره في مؤلفات شكسبير امام الادب وأمير البلاغة . ثم نسج على منوال هذه الطريقة أدباء الالمان وراجت بضاعتهم فيها . ثم جاء فيكتور هوكو وكشف أساس الطريقة وأوضح مزاياها وصار امامها المشار اليه بالبنان

﴿ الادب عند الانكليز ﴾ فالانكليز كانوا في مقدمة الامم الاوربية التي انتبهت من غفلة القرون الوسطى وبادرت الى اصلاح لسانها ووضع فنون الادب والعلم فيه . وقبل ظهور الادب الانكليزي كان الانكليز أنفسهم يمتنون بأشعار المداحين وشعراء الربابة من الفرنساويين . وكانت اللغة الفرنساوية لسانهم الرسمي على عهد ملكهم كليوم الفاتح (١٠٢٧ — ١٠٨٧) ومن خلفه عليهم من السلالة النورماندية . ولذا بقيت

الكلمات الفرنساوية مستكثرة في اللغة الانكليزية شأن الكلمات العربية في التركية والفارسية . ثم اشتغل الانكليز بتهذيب لغتهم واصلاحها فأصبحت اليوم من أغنى اللغات الجديدة أدباً بعد اللسان الفرنساوي . ونبغ فيهم وليم شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦ م) وجمع في مؤلفاته ماتفرد به قورنيل وراسين من فن المبكيات وما اختص به موليير وبومارشه[1] من فن المضحكات وصار اماماً في كثير من الفنون الادبية كفن التراجيديا التاريخية والدرام والكوميديا والاغاني المعبر عنها بالشعر الموسيقي (ليريك) . فكان في افانين الادب كما قال الشاعر العربي :

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

والف شكسبير نحواً من ٣٥ رواية ترجمت لجميع اللغات الاوروبية وترجمها للفرنساوية فرانسوا بن فيكتور هوكو وطبعت في ١٨ مجلداً . ولم تزل رواياته تمثل على مراسح الفرنساو بين والطليان وغيرهما من الامم . وتمثل أحياناً في الاستانة وأزمير ومصر والاسكندرية أيضاً . وأشهر ماتمثل منها (روميو وجوليت) وهما فتى وفتاة تحابا حباً شديداً وقاسيا تباريح الجوى بسبب العداوة التي بين أهل الفتى المحب وبين أهل محبوبته . على مثال مايقع بين قبائل العرب من العداوات التي تحول بين العاشق والمعشوق . بل على مثال مايحدث في سوريا وفلسطين بين العائلات والبيوت القديمة من العداوات الجاهلية المانعة لوصال المتحابين ليومنا هذا . ففي أواخر القرن التاسع عشر الميلاد حدث في طرابلس حادثة هائلة تشابه عشق روميو وجوليت من وجوه لا سيما في اقتران المحبين سراً بمرفقة فقيه من المشايخ كما اقترن روميو بجوليت على يد الراهب لورانس وأفضى الامر الى هلاك المحبين في الحادثتين هلاكاً تذرف الدموع لقص خبره وتنفطر القلوب لمشاهدة تمثيله . فالتهويل بالموت في الحادثة الممثلة مما يجعلها من فن المبكيات . وتز بين

(١) بومارشه (١٧٤٢ — ١٧٩٩) هو الاديب الفرنساوي صاحب رواية (حلاق اشبيلية) و (زواج فيغارو) وقد انتقد في الروايتين المذكورتين على اخلاق المعاصرين وفساد آدابهم وصوّر فيها مايشبه مجون ابي نواس

المجلس بظرف الراهب أو لطف الفقيه مما يقرب الحادثة الممثلة لفن المضحكات الذي مثلنا له فيما سبق برواية تارتوف لانها أحسن نموذج لهذا الفن . ولكن الفرق عظيم بين تارتوف وبين لورانس . لان تارتوف تمثال مجسم للرياء والمكر يخدع الناس بحمل السبحة بيده ويصيد قلوب المغفلين باظهار النسك وكثرة العبادة . وليس فيه شيء من الظرف والمجون ولا العلم والادب المتصف بهما أبو زيد السروجي بطل مقامات الحريري . بخلاف الراهب لورانس أو الشيخ ... فانهما من ذوي الناموس والوجدان . ولم يتداخل كل منهما في الحادثة التي تخصه الا لاصلاح ذات البين . فيظهر الواحد منهما على المرسح بهيئة الكمال والوقار وعيون المتفرجين ترمقه بالاستحسان والاعتبار . ومع ذلك فوجوده في الرواية مما يقربها لفن المضحكات

ومن روايات شكسبير المشهورة أيضاً هاملت وهو اسم ولد لملك من ملوك الدانيمارك في قديم الزمان . وخلاصة الرواية أن أم هاملت اتفقت مع عمه وهو أخ الملك وكان شاباً حسن المنظر فسق الملك بها وتولى مكانه وتزوج أم هاملت فانتقم هاملت من عمه وقتله . وكان لهاملت معشوقة بديعة الحسن تلاهى عنها بتدبير الحيل في أخذ الانتقام فماتت كمداً . وأبلغ ما في الرواية حديث هاملت مع حفار القبور وهم يحفرون قبر معشوقته ويشربون من القرعة . ويتنادمون . فالنكات الفلسفية التي يفوه بها حفار القبور مما يقرب الرواية لفن المضحكات مع انها من ابكى المبكيات . وقتل الملك على الوجه المتقدم له أمثال في التاريخ . منها قتل أم خالد بن يزيد لمروان بن الحكم في الدولة الاموية . ولم تزل الممثلة الشهيرة ساره برنار تمثل على المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية وتلبس لباس الرجال كما تمثل دور النسير وهو ابن نابوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا في رواية (ليكلون) التي نظمها شاعر العصر ادمون روستان . ومن روايات شكسبير أيضاً ماقبت وهو قائد لجيوش دونقان ملك ايقوسيا من بلاد الانكايز . قتل سيده وتغلب على ملكه وحكم من سنة ١٠٤٩ الى سنة ١٠٥٧ م . فصور الشاعر قصته في تلك الرواية وخلاصة الكلام فيها : ان ماقبت اجتاز يوماً مع رفيق له بمفازة مقفرة فمرا بثلاث

عجائز ساحرات كأنهن جنيات

فقالت احداهن : — السلام عليك ياماقبت يا أمير غلاميس

وقالت الثانية : — السلام عليك ياماقبت يا أمير قاودور

وقالت الثالثة : — السلام عليك ياماقبت يامن سيكون ملكاً على ايقوسيا

فقال رفيقه بانقو : — أعوذ بالله منكن أيّ النسوة أنتن ؟ أمن الانس أم من الجان ؟ تفاءلتن بكل خير لرفيقي ولم تنبئنني بشيء

فقالت كبراهن : — اما انت فنخبرك باحسن مما أخبرنا به رفيقك لان عاقبته مشؤمة ويموت بلا ولد يخلفه في الملك . واما نسلك فسيملك على ايقوسيا ويمتد الملك فيهم . قلن ذلك واختفين كلمح البصر . وكان الامر كما تنبأن به

ففي يوم من الايام نزل الملك دونكان مع بعض خواصه عند ماقبت فبالغ لهم في الضيافة والاكرام وفرش للملك في مخدع ولقرنائه في الغرفة المجاورة وكانت زوجة ماقبت حريصة على تحقيق ما أخبرت به الساحرات فحرضت زوجها على قتل ضيفه وسيده . فدخل في ظلام الليل الحالك واخذ خنجراً لاحد القرناء وهم غارقون في النوم وغطه في صدر الملك . فلما قتله اخذته الرهبة واستولى عليه الخوف والدهشة من هذا الجرم وغاب عن رشده . فتداركت زوجته الامر ودخلت المخدع وغرقت يديها من دم المقتول ولطخت وجوه قرنائه وايديهم لاتهامهم بايقاع الجرم . فتمت الحيلة وجلس ماقبت وزوجته على سرير الملك ولكن لم يهدأ روع لدى ماقبت ولا استراح ضميرها . فصور الشاعر ندامتها في الفصل الاخير من روايته بابدع اسلوب وابلغ تعبير . واخرجها على المرسح حاملة مشعلا وهي لا ترى في عينيها الا الظلام وتفرك يديها كانها لم تنق من لطخ الدماء ولا ذهبت الرائحة منها مع ما تطيبت به من طيب جزيرة العرب وعطرها المشهور وتحسب زوجها معها فتقول له : اغسل يديك والبس ثوب النوم وقلل من اصفرار لونك الخ . . . ومن روايات شكسبير ايضاً اوتيلو بين فيها غيرة الزواج وشدته على زوجته . وترجمها نظماً الفرنساوية الفردودفينية وله غير

ذلك من الروايات

وجل مهارة شكسبير في تصوير اخلاق الرجال وتوصيفهم وبيان المزايا الخاصة بكل فرد من افرادهم . فسلك في الادب طريقة مستحدثة حاد فيها عن لهجة القدماء المؤسسة على اساليب اليونان والرومان ونبذ وراء ظهره قواعد الطريقة المدرسية ولم يلتفت في الرواية الى وحدة الزمان والمكان ولا تصنع في الانشاء ولا تقصد فيه ايراد البديع من الكلام ولا تهافت على التشابيه والاستعارات . بل اخذ ما يلهمه اياه الوجدان ويمليه عليه الضمير ويصور الاحساسات الباطنية والاداب الاجتماعية بلهجة مالوفة للعموم آخذة بمجامع القلوب يتقلب فيها من طور الحلم والجود والكرم الى طور الغضب والبطش والاستبداد وبين عوامل الحب والبغض واليأس والقنوط والحسد والطمع وحب الانتقام والتكبر والتجبر والتفاخر والتكاثر الى غير ذلك مما هو مغروس في طينة الانسان من الاخلاق والطبائع ويظهر تاثيرها على النفس بعبارات سلسة جلية ليس فيها تصنع ولا تعمل

ثم نبغ في الانكليز الشاعر ميلتون ١٦٠٨ — ١٦٧٤ م وكان كاتبا لقروموبل الشهير فلما مات وانقرضت دولته غدر الزمان بالشاعر وعمي بصره وذهب ماله فاملى على زوجته وبنتيه كتاب « الجنة الضايعة » وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة ١٦٥٨ بشعر لا قافية له ورتبه على اثني عشر غناء فجاء من احسن ابنية الشعر الانكليزي ومن ابدع ما الفه شعراء الامم الاوروبية بعد كتاب (المضحكة الالهية) المشابه لرسالة الغفران

فتحسنت اللغة الانكليزية واتسعت دائرة الادب والتخيلات الشعرية فيها ومال ادباؤها لقراءة الاشعار القومية الدارجة التي نظمها في القرون الوسطى التروبادور والزوفير وهم من شعراء الربابة المعاصرين لعرب الاندلس واوجدوا للشعر شكلاً جديداً واسلوباً مبتكراً . ونبغ فيهم مثل شلي (١٧٩٢ — ١٨٢٢ م) وزوجته واللورد بايرون وكان ذا نفس عال وتخيل واسع فنظم القصائد المعروفة بالشرقيات وتشيع فيها لليونان تشيع العجم للسادات وتفاني في حبهم ولم يزل غرام

الشوق يلعب برأسه اثناء حرب الموره الى ان حطهُ العشق والهيام من اعلى قصور لوندره الى اسفل اكواخ ميسولونكي وهي قرية على ساحل خليج قورنت الفاصل بين شبه جزيرة الموره وبقية بلاد اليونان . وبسبب وخامة تلك القرية وعدم نظافتها كان هواؤُها فاسدًا فاصابت الحمى الشاعر الانكليزي المرفه وعجلت بروحه الى الآخرة ونقلت جثته الى انكلترا واقيم له في ميسولونكي تمثال يشاهده السائح في تلك البقاع . فاللورد بايرون هو موسس الطريقة الرومانية باللغة الانكليزية وله في الشعر الدراماتيقي رواية مانفرد نظمها في ايطاليا على نسق رواية فوست وذكر فيها السحر والارواح وخوارق الطبيعة وله ايضاً رواية دون جيان نظمها على اسلوب مبتكر . وكلتا الروايتين يمثلان الآن على المراسح الباريزية

ومن مشاهير ادباء الانكليز والترسقوت (١٧٧١ــ ١٨٣٢ م) كتب بالانكليزية اكثر من سبعين قصة تاريخية بين سنتي ١٨١٤ و ١٨٣٢ كلها في غاية التدقيق عول عليها المؤرخون ومنهم ميشله المؤرخ الشهير . لان صاحب القصص له في الوقائع التاريخية نظر دقيق وشروح وافية قلما يتيسر للمؤرخ الاحاطة بها ونسج على منوال والترسقوت في القصص التاريخية وليم غودوين . ثم ظهر في عالم التحرير المؤلف النحرير والديلوماتي الشهير بنيامين الاسرائيلي صاحب القصص السياسية وهو الذي اشتهر في الخارج باسم اللورد بيقونسفيلد ونبغ في فنون الادب والسياسة وساح سنة ١٨٣٩ في ايطاليا واليونان وبلاد الارناؤُط وبر الاناضول وسورية ومصر والحبشة ونشر كتب سياحاته على طرز قصصيّ وبين فيها آراءه السياسية وعرب المقتطف بتصرف قصة سياحته في سورية وفلسطين وله قصة أخرى عنوانها اسكندر بك الارناؤُط . وصار هذا الاسرائيلي رئيساً لوزارة المحافظين وكان مخالفاً في السياسة لغلادستون رئيس حزب الاحرار . فثبت بيقونسفيلد امام مطامع روسيا وعارض في اجراء معاهدة اياستافانوس المنعقدة سنة ١٨٧٧ ولكنه طمع في الاجرة على هذه الخدمة وربح اكثر من اللازم في تجارته وتوفي سنة ١٨٨١

فيفهم مما تقدم ان اول واضع لاساليب الطريقة الرومانية وليم شكسبير . ولكن

اول ناسج على منوال هذه الطريقة ومظهر لمزاياها هم شعراء الالمان . وجميعهم من انكليز والمان وفرنساويين اقتبسوا افانين الادب من الاسبانيين والطليان المخالطين للعرب في القرون الوسطى



صحة العائلة

النهم يجلب السقم . والبطنة تذهب الفطنة

من الناس من يأكل ليعيش ومنهم من يعيش ليأكل والأول أقرب للصفات الانسانية من الثاني . نعم ان الحياة تتطلب التلذذ بالحواس والتمتع بما يحيط بالانسان على قدر الامكان . ولكن للمرء ملذات عقلية اذا ألفها وتعوّدها احتقر ملذات الجسد وأهملها — لولا لزومها للبقاء . ولذلك فان الطبيعة جعلت تلك الملذات الحيوانية قهرية يشتهيها الجسد ويتهالك في طلبها واذا طال امتناعها عليه أصيب بالمرض أو بالبله أو بما يشبههما — تلك قاعدة عامة في الحيوان على اختلاف أنواعه . وقد وضعت له الطبيعة نواميس تقضي عليه بالكف عن تلك الملذات متى تناول ما يكفي منها للبقاء . ولذلك فالحيوانات قلما تصاب بعواقب الافراط بشيء من ملذات الجسد الاّ الانسان فانه شذّ عن هذه القاعدة فتفنن بأصناف الملذات وانغمس فيها وسابق العجماوات اليها — فهي تغتذي اما بالمواد النباتية أو بالحيوانية وهو يغتذي بهما جميعاً وربما سابق النبات على الاغتذاء بالمواد الترابية . ولا بأس عليه من ذلك لولا انه افرط فيه واكثر من تناوله فحمل أعضاءه فوق طاقتها وجلب لنفسه التخم والضعف وغيرهما من عواقب الافراط

ويهمنا في هذا المقام افراطهُ بالطعام — فقد وجد الاطباء بالبحث والاستقراء ان الانسان يتناول من الطعام عادةً اكثر مما يحتاج اليه جسمه وان الامراض الناجمة عن النهم اكثر كثيرًا من الناجمة عن المسكر . حتى أصبحوا يعالجون كثيرًا من الاسقام

الصحف العربية الحية

﴿ جزائر الغرب ﴾ السيد شرشلي مصطفى بن احمد محرر جريدة المبشر

اطلعت في هلالكم الثاني من هذه السنة على جدول ضمنتموه اسماء الجرائد والمجلات العربية التي صدرت بعد مجلة الهلال (سنة ١٨٩٢) الى آخر سنة ١٩٠٢ مع بيان مواضيعها واسماء اصحابها ومحل صدورها . فما زلت مسروراً بمطالعة تلك المقالة حتى انتهيت الى قولكم « ولم يبق منها حياً الانحو العشر فانقلب سروري الى كدر . وقد انتدبتني اللجنة المكلفة بتنظيم المؤتمر العلمي الرابع عشر باعتبار اني سكرتيرها ان اطلب من حضرتكم بيان اسماء الصحف التي لا تزال حية الى اليوم لترسل اليها منشورات المؤتمر خدمة للعلم واذا امكن ان تضيفوا اليها اسماء الجرائد التي صدرت بعد سنة ١٩٠٢ ولا تزال حية كانت الفائدة اتم

﴿ الهلال ﴾ ان تحقق صدور الجريدة او المجلة اهون كثيراً من تحقق بقائها حية لان كثيراً من الجرائد تحتجب عاماً او بضعة اعوام حتى نظنها تعطلت ثم تبرز وعذرها في صدرها . فلا يمكن والحالة هذه ان نقدم احصاء دقيقاً للجرائد التي لا تزال تصدر . وعليه فاننا ذاكرون في ما يلي ما اتصل بنا في هذا الموضوع ونلتمس من اصحاب الجرائد الحية التي فاتنا ذكرها ان ينبهونا الى ذلك لنذكرها في الهلال قياماً بواجب التاريخ

واليك اسماء الصحف التي صدرت بين سنة ١٨٩٢ و١٩٠٢ ولا تزال حية وقد اكتفينا بذكر اسمائها لان مواضيعها واسماء اصحابها وتواريخ انشائها وامكنة صدورها مذكورة في الهلال الثاني المشار اليه . وهذه اسماؤها مرتبة بحسب سني ظهورها :

الراعي العام . طرابلس . الروضة . الحق . الارغول . الظاهر . الطبيب . الاخلاص . الارز . مصر . الثريا . الرائد المصري . التوفيق . طبيب العائلة . المرصاد (برسيليا) . المعلومات . البصير . المأمون . المشرق . انيس الجليس . المنار . الهدى . المنار الاسلامي . الضياء . المرصاد (بالقاهرة) . المحبة . الجامعة . المناظر . مرآة الغرب . اللواء . الرئيس . المفتاح . الصواب . الاخاء . عين شمس . الصباح . المجلة الصحية . مجلة المجلات . الصخرة . النصير . المنارة . الطب الحديث . الاستقلال . العمران . الاحكام الشرعية . الاقبال . الرموز . المحيط (باميركا) . السلام

اما الجرائد العربية التي صدرت في اثناء سنة ١٩٠٣ فتراها في الجدول الآتي :

المجلة المدرسية	ادبية	شهرية	سيد محمد	مصر
المحيط	«	«	عوض واصف	«
الحرية	سياسية	اسبوعية	ابراهيم نجار	«
الراوي	«	يومية	طلعت باشا	«
الجوائب المصرية	«	«	خليل مطران	«
العلم الصناعي	ادبية	شهرية	فوزي وفهمي	«
الافكار	سياسية	اسبوعية	الدكتور ابو جمره	سانباولو
مجلة السيدات	نسائية	شهرية	روزا انطون	اسكندرية
الامام	سياسية	اسبوعية	ابو شادي و واصف	مصر
الفضيلة	ادبية	شهرية	سليم العضم	اسكندرية
الاقبال	سياسية	اسبوعية	صليبا وغصن	لورنس اميركا
المودة	نسائية	نصف شهرية	سليم فرح	اسكندرية
مسامرات النديم	ادبية	شهرية	رمزي وحلمي	مصر
الاعتدال	حقوقية	«	عازر حلمي	«
الصيحة	سياسية	اسبوعية	محمود الشاذلي	طنطا
القاهرة	«	نصف شهرية	بشير يوسف	مصر
المهاجر	سياسية	اسبوعية	امين غريب	نيويورك
عروس النيل	ادبية	نصف شهرية	سليم قبعين	مصر
العصر الجديد	«	شهرية	محمود صادق سيف	«
الاوقاف المصرية	«	اسبوعية	محمود غالب	«
الطغراء	سياسية	«	جورج بارد	«
الكاروز المنير	دينية	شهرية	جرجس يافي	«
السودان	سياسية	نصف اسبوعية	فارس نمر	الخرطوم
الطرائف	ادبية	اسبوعية	رشيد مصوبع	مصر
الثمار	«	«	الخازن والعازار	اسكندرية
الشبيبة السورية	اتقادية	«	جمعية الشبان السوريين	ريوجانيرو
المؤانس	ادبية	«	« محب »	مصر

الشرق	سياسية	يومية	جاويش وعبده	الاسكندرية
مجلة ابقراط	طبية	نصف شهرية	الدكتور يسري	مصر
النيل	سياسية	اسبوعية	غانم وقمبين	«
العصر العباسي	«	«	محمد وعزمي	«
الانسانية	انتقادية	«	محمد ابو النصر	«

واتماماً للفائدة نذكر الصحف العربية الحية التي ظهرت قبل صدور الهلال مرتبة بحسب البلاد التي تصدر فيها على حروف الهجاء وبجانب كل صحيفة موضوعها ومواعيد صدورها غير الجرائدة الرسمية العثمانية

(١) الصحف التي تصدر منها في القاهرة

الاهرام	سياسية	يومية	المقطم	سياسية	يومية
الحقوق	حقوقية	اسبوعية	المؤيد	«	«
الفلاح	سياسية	«	الوطن	«	«
المحاكم	حقوقية	«	الهلال	ادبية	نصف شهرية
المحروسة	سياسية	«	الوقائع المصرية	«	اسبوعية
المقتطف	علمية	شهرية			

(٢) الصحف التي تصدر في الاسكندرية

الاتحاد المصري	سياسية	اسبوعية

(٣) الصحف التي تصدر في بيروت

الاحوال	سياسية	يومية	لسان الحال	«	يومية
البشير	دينية	اسبوعية	المصباح	سياسية	اسبوعية
ثمرات الفنون	سياسية	اسبوعية	النشرة الاسبوعية	دينية	«

(١) الصحف العربية التي تصدر في سائر انحاء العالم

لبنان	سياسية	اسبوعية	لبنان	الحاضرة	سياسية	اسبوعية	تونس
المبشر	«	«	الجزائر	كوكب اميركا	«	ثلث اسبوعية	نيويورك
الرائد التونسي	رسمية	«	تونس				

فيؤخذ من مجمل ما تقدم ان الجرائد العربية الحية التي تصدر في كل انحاء العالم لا يزيد عددها على المئة الا قليلاً ولا يخلو ان يكون قد فاتنا ذكر بعضها للاسباب التي

قدمناها فنرجو تنبيهنا الى ذلك . ومجموع الجرائد العربية التي ظهرت في العالم من اول عهد الصحافة الى آخر سنة ١٩٠٣ على اختلاف مواضيعها واماكنها نحو اربعمائة صحيفة منها ١٥٠ صدرت قبل صدور الهلال و٢٥٠ صدرت بعده فيكون معدل البقاء في الجرائد العربية ٢٥ في المئة

اسماء الاشهر القمرية

مصر . عبد الجواد افندي محمد بقصر الدوباره

نرى القمر يولد صغيراً ثم ينمو حتى يتكامل ثم يعود فيصغر حتى يصير محاقاً فما تعليل ذلك . وما هو سبب تسمية الشهور القمرية باسماء محرم صفر الخ

الهلال . قد فصلنا دورة القمر في الهلال السادس من السنة العاشرة اما اسماء الشهور ففي سبب تسميتها اختلاف واليك ما توصلنا اليه من ذلك :

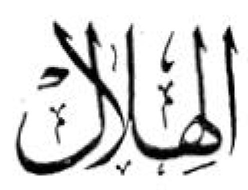
(١) محرم . سمي بذلك لانه ما برح في الجاهلية وفي الاسلام من الاشهر الحرم التي حرّم فيها القتال وهو يقابل طيبت من الشهور العبرانية (يناير) ولعل السبب الاصلي في منع الحرب فيه كثرة امطاره وصعوبة السفر فيه

(٢) صفر . وهو مشتق من صفرَ اي خلا وقد سمي بذلك لاصفار مكة من اهلها اذا سافروا فيه الى الحرب على اثر قعودهم عنها في محرم او لعل اصلها (سفر) وهو الرحيل الى الغزو ثم ابدلت السين صاداً . وقال رؤبة بل سموه صفراً لانهم كانوا يغزون فيه القبائل فيتركون من اغاروا عليه صفراً من الامتعة والقول الاوّل اقرب الى الصواب . وهو يقابل شهر شباط (فبراير)

(٣) و (٤) الربيعان الاوّل والثاني واسماها يدلان على اصل تسميتها وكانا يقعان في الربيع ويقابلان ادار ونيسان من الاشهر العبرانية (مارس وافريل)

(٥) و (٦) الجماديان الاولى والثانية (الآخرة) وهما يقابلان ايار وسيوان (مايو و يونيو) وفيهما يكف المطر فيجب ان يكون في معناها ما يدلّ على ذلك والواقع انهما مشتقان من الجماد وهو اليبس او جفاف الارض من مياه المطر ويؤيد ذلك ان لفظ جمادى في اللغة صفة للعين التي لا تدمع فيقولون « فظلت العين جمادى » اي جامدة لا تدمع فيائل ذلك قولنا « السماء جمادى » اي جامدة لا تمطر

(٧) رجب . مشتق من رَجبَ فلاناً هابه وعظمه سموه بذلك لان العرب قبل



الجزء الثامن من السنة الثانية عشرة

١٥ يناير (ك ٢) سنة ١٩٠٤ و ٢٧ شوال سنة ١٣٢١

اليابان وكوريا

الآداب الاجتماعية فيهما

كثر تحدث الناس في هذه الاثناء بروسيا واليابان بالنظر لما قام بينهما من الخلاف الذي يخشون افضاءه الى الحرب . فرأينا ان نغتنم تشوق الناس الى معرفة احوال هاتين الدولتين وننشر ما يهمهم معرفته من أحوالها الاجتماعية والسياسية . وبما اننا قد نشرنا آداب الروس الاجتماعية في الهلال الثالث من هذه السنة نكتفي الآن ببسط احوال اليابان ونشفع ذلك بخلاصة أحوال كوريا لانها ذات شأن في الخلاف المذكور

١ — اليابان

اليابان في آسيا بمثابة بريطانيا العظمى في أوروبا فهي مجموع جزر منفردة عن سائر القارة وقد نالت مقاماً عظيماً في السنوات الاخيرة بعد نهضة أهلها حتى صارت تعد بين دول الارض العظمى وسارت في مضمار التقدم شوطاً بعيداً حتى صار لها الكلمة النافذة في سياسة الشرق الاقصى لاسيا بعد ظفرها بالصين في أواخر القرن الماضي

وتاريخ اليابان القديم مضطرب لكثرة الغزوات وتعدد الشعوب التي نزلت فيها ولعل سكانها الحاليين سلالة الجالية الصينيين والمنشو والكوريين واخلاط من سكان القارة وكانت قصبتها قديماً كيوتو لكنها اليوم توكيو وهي يدّو القديمة

ويلقب امبراطورها بالميكادو ومعناه صاحب الباب العالي وكان الامبراطور في الاعصر القديمة يقلد أحد رجاله قيادة الجند فتحصر فيه السطوة والنفوذ . وكانت البلاد منقسمة الى ثماني عشرة ولاية يحكمها ولاة يعينهم القائد ويأخذ عليهم الضمانات والرهائن ولما ثقلت وطأتهم على السكان رأى اليابانيون التخلص من حكومتهم أفضل الامور وارتأوا اعادة السطوة للميكادو ففعلوا ذلك سنة ١٨٦٨ بعد ان استقال القائد الاخير وبعد ان جرى بينهم مواقع صغيرة وهكذا اتم اليابانيون ثورة عظيمة في أحكامهم وبلادهم بدون سفك دم كثير . وفي سنة ١٨٧٣ تنازل الميكادو عن حقوقه المطلقة والف حكومة دستورية فانتخب مجلساً للنواب وعين سناتو وتألفت وزارة وأقيم في الولايات مجالس انتخابية فانتقلت اليابان من طور الى طور

وكان اليابانيون في الاعصر الوسطى لايخرجون من بلادهم الا باذن خاص ولا يسمحون لاجنبي بالدخول اليها الا فيما ندر . وفي القرن السادس عشر جاءها نفر من تجار البورتغاليين وتبعهم بعض المرسلين لكن اليابانيين طردوا البورتغاليين لما آنسوا فيهم من الرغبة في اخضاع البلاد ثم جاء الهولانديون في أوائل القرن السابع عشر فأذنوا لهم في النزول في بعض الموانئ واستقلوا بتجارة اليابان . على ان الفضل في فتح أبواب البلاد عائد الى الاميركيين لانهم أجبروا اليابانيين على قبولهم واقتفى الانكليز خطواتهم ثم أخذت اليابان ترحب بالقادمين وتنتفع بمعارفهم وعلومهم وصناعاتهم وعقدت المعاهدات التجارية مع ثماني عشرة دولة أجنبية

وتقدم اليابان في السنين الاخيرة أسرع من تقدم اية دولة كانت في العصور القديمة والحديثة وقد انتشرت فيها المدارس الكلية والجامعة وسكك الحديد والتلغرافات وأقيمت المباني ومعامل السفن وسيرت المراكب التجارية في البحار وانتظمت أعمال البريد وصنعت الآلات البخارية وأقيمت المعامل وأنشئت الجرائد السياسية والعلمية . وتسابق الشبان اليابانيون الى مدارس أوروبا واميركا يطلبون العلم فنالوا قصب السبق وقام فيهم العلماء والساسة والكتاب والمؤرخون والاطباء والجراحون والباحثون والمكتشفون حتى صارت اليابان كاحدى الممالك المتمدنة في اوروبا . واليابانيون

كالصينيين شكلاً وتقاطيع وجه مع فرق بين الشعبين — فاليابانيون أجمل من الصينيين وكبراؤهم تضرب ألوانهم الى البياض وفي أنوفهم قنى أما الفلاحون فضخام الاجسام قويُّو العضل

واليابانيون أذكياء العقول يحبون العلم والصناعة وهم يتشوقون الى المزيد في كليهما. وقد زاد في شوقهم ماشاهدوه من تقدم الاوربيين ونجاحهم وقوتهم وثروتهم فهم يحبون ان يضارعوهم ولذا أخذوا يقلدونهم في جميع أعمالهم وحركاتهم وانما يخشى ان يتمادوا في ذلك فينقلوا عن أهل الغرب كثيراً من العادات الضارة التي يشكو منها الاوربيون وان يتغاضوا من بعض ماعندهم من حميد العادات والمزايا بما يغالون فيه الافضلية من مزايا الاوربيين وهو ليس كذلك

وهم صنع الايدي لايناظرهم في الاعمال اليدوية مناظر كنسج المنسوجات الدقيقة والتطعيم والتنزيل وصناعة الخزف الصيني والبرونز ونقش الخشب والتمبق والطلاء ومصنوعاتهم منتشرة في الآفاق بفضل اتساع نطاق تجارتهم الاجنبية

وهم كرام الاخلاق ذوو نفوس أبية ومزايا حميدة ومن عاداتهم المبارزة صوناً للشرف وافتداء له وكانوا ينتحرون على أسلوب خاص بهم يسمونه بلغتهم «هارا كيري» ومعناه الموت السعيد فاذا غضب الامبراطور على واحد منهم او قضى عليه بالعقاب جمع هذا أصدقاءه وخلانه وطعن نفسه عند أسفل المعدة ثم دعا بجلاد ماهر ليقطع رأسه

ونساؤهم ذوات ظرف ورقة وبساطة ولطفهنّ مشهور وبعضهنّ كالاوربيات لوناً الا شفاههن فانهنّ يصبغنها حمراء واسنانهن وهي سوداء . وهن نحيفات الاجسام رشيقات الحركات قصيرات القامات . واليابانيون في الغالب كثيرو العضل خفاف الحركة كما يظهر من لاعبي الالعاب الرياضية فيهم لكن علامات الشيخوخة تبدو عليهم باكراً ففي الثلاثين يتجعد الوجه وتكثر غضونهُ

وكانوا فيما مضى ينقشون اجسادهم بالوشم على ان هذه العادة آخذة بالزوال تدريجاً فلا يرى في مدنهم من فيه وشم الا ساقة المركبات . وأهل المدن يلبسون الثياب

الافرنجية لكن سكان الارياف والقرى محافظون على لباسهم القديم وهو من القطن او الحرير بحسب ثروة صاحبه مؤلف من جبة طويلة تصل الى القدمين ذات اردان واسعة فيها جيوب يحملون بها بعض حوائجهم ولفات من الورق يستعملونها عوض المناديل وفوط المائدة . ويلبس الاغنياء تحت هذه الجبة ضرباً من القسطان ويلبس الفقراء سراويل فاذا اشتد البرد اكثروا من التدثر ويتقون المطر باردية من القش او من الورق المشمع او المشبع زيتاً . ويتمنطقون بمنطقة عريضة واحذيتهم من الخشب والشيالون منهم يلبسون احذية مصنوعة من القش

وهم شديدو الاعتنا بشعورهم فالرجال يحلقون مقدم الرأس ويقصون شعر مؤخره . اما النساء فيحفظن الشعر كله فيرفعنه من الامام ويجمعنه حزمة واحدة في قحف الرأس يشددنها بالدبابيس ويفرقنه من اليمين واليسار . واذا خرجن الى ظاهر البيت فلا يغطين رؤوسهن ويبقى الشعر على ما هو عليه نحو اسبوع . وفي الليل يضعن تحت اعناقهن وسادة من الخشب لا تمس الراس ليبقى الشعر كما هو . وبعد الزواج تحلق النساء شعور حواجبهن ويطلين الاسنان بشيء اسود كالحبر ويضعن البودرة على وجوههن ويحمرن الشفاه ولذا كانت البنات احسن صورة من المتزوجات . ومن غريب عادات اليابانيات انهن عطل من الحلى .

والزواج الباكر شائع بينهم ويغلب ان يكون العريس في الثانية والعشرين والعروس في السادسة عشرة . وهم اليوم يأذنون للخطيبين في الاجتماع قبل عقد الزواج وفي يوم العرس يعرض جهاز العروس في بيت زوجها ويحتفل بالزواج هناك على مذبح يصنعونه لهذه الغاية يزينونه بانواع الازهار ويضعون عليه صور آلهتهم وتتشح العروس بثوب ابيض ويسدل عليها نقاب ابيض ايضاً ويأتي بها قومها الى بيت العريس وكلهم بالملابس الفاخرة ويطوف بها فتاتان من صديقاتها تمثلان الفراش وهو شعار السعادة والهناء عندهم . ويشرب العروسان من وعاء واحد تسعة كؤوس من الساكي وهو شراب اليابانيين ثم تقام وليمة يجلس اليها المدعوون ويشرب كل منهم تسعة كؤوس من ذلك الشراب

وقد وصفت سيدة انكليزية عيشة اليابانيين البيتية فقالت من حديث طويل « لا اعرف شعباً على وجه الارض يصرف فيه الرجال والنساء من العناية بأولادهم مايصرفه اليابانيون فان عواطفهم واميالهم ومحبتهم متجهة الى أولادهم فاذا جلس الاب والام اخذا يلاعبان الصغار ويسليانهم واذا خرجا من البيت اخذاهم معهم وامسكا بايديهم وهم يأخذونهم للتنزه ويعتنون بهم اعتناء شديداً وكبار الاولاد يعتنون بصغارهم فيرقصونهم ويلاعبونهم ويغنون لهم ويسرون بذلك كل السرور . ومن ابهج ما يراه المرء في الصباح نفر من الآباء وقد جلسوا بجانب جدار وكل منهم يحمل ابنته او ابنه ويلاعبه ويضحكه ويهش له ومع انهم يفضلون الذكور لكن محبتهم البنات شديدة . وأولادهم في الغاية من الرقة واللطف والطاعة وهم على الدوام مستعدون لخدمة والديهم وتبدو فيهم الرزانة صغاراً ولعل ذلك ناتج عن كثرة مخالطتهم لآبائهم وأعمامهم وهم بعد في سن الطفولية ولان لباسهم أشبه شيء بلباس الباقين على فرق في الحجم والاقدار »

وهم يحلقون شعور الاطفال من الذكور حتى اذا ما بلغوا الثالثة اطلقوها ثلاثاً فوق الاذنين وفي مؤخر الرأس وحلقوا الباقي فاذا بلغوا الخامسة عشرة دخلوا في مصاف الرجال وتزيوا بزيهم . اما البنات فيطلقن شعورهن ولهن في عقصها تفنن غريب

ومدارسهم متقنة مجهزة باصناف الادوات والآلات والمعارض والمكاتب والخرط وهم يتقنون فن الاستنتاج من المعاينة ويدرسون الكتابة الصينية والاولاد يحترمون معلميهم ووالديهم ولذا فالعقوبات نادرة في المدارس وتتعلم البنات الاعمال البيتية والطبخ والتطريز وما أشبه . وعليهن ان يعرفن كيف يخطن أثوابهن ويتلهين بقراءة الكتب من فكاهية وروايات ولهذه الكتب في اليابان مكاتب خاصة يستعير القوم منها الكتب ويأخذونها الى بيوتهم . وتتقن البنات تزيين البيوت ووضع الازهار ويبلغن فيها الغاية من الاجادة

والاستحمام شائع في اليابان ولا يختلون له كما يفعل الاوربيون وقد قال فيهم

احد كتبة الاجانب « انهم لا يرون اشتراكهم فيه عيباً كما اننا نحن لا نرى عيباً في لبس نسائنا الدكولته »

وبيوت اليابانيين دور واحد او دوران وهي من الخشب والسقف على شكل مثلث تنتهي اطرافه وراء الجدران وامتعتهم قليلة وأثاثهم بسيط كالحصر والوسائد والاغطية وبعض المواعين لطبخ الارز وسائر الاطعمة

اما ديانة اليابانيين الاصلية فالشنتوية ومعنى اللفظ « سبيل الآلهة » ويراد بها الايمان بالهٍ مالىء الكون لكن صلوات اهل الارض لا تصل اليه · وهم يعبدون اسلافهم ويعتقدون ان الميكادو وهو امبراطورهم ابن اله الشمس فطاعته واجبة عليهم وتعاليمهم الادبية تقتصر على وجوب المحافظة على طهارة القلب · وهم يقدمون التقدمات للارواح على مذابح بسيطة وكانوا فيما سلف من الدهر يضحون الضحايا البشرية على قبور امرائهم ويختارون مدافنهم الآن في أجمل البقاع وفيها يدفنون رفات الاموات او رماد الاجساد بعد حرقها

وقد أدخلت الى بلادهم الديانتان الكنفوشية والبوذية · وأخذ المتعلمون منهم الآن يتفقهون بتعاليم داروين وسبنسر فنقلوا كتبهما الى اليابانية وكانوا في القرن السابع عشر يؤمنون بتناسخ الارواح وبان نهاية الكمال في انغماس النفس في نفس بوذه · وفي اليابان كثيرون من المرسلين من دعاة الدين المسيحي

ومساحة بلاد اليابان ١٤٧,٦٥٥ ميلاً مربعاً وعدد سكانها ٤٢,٢٧٠,٣٦٠ نفساً منهم ٢١,٥٦١,٠٢٣ ذكراً و ٢١,١٤٧,٢٤١ انثى اي ان الذكور يزيدون على الاناث نحو نصف مليون نفس

٢ — كوريا

الكوريون جيل من البشر متوسط بين الصينيين واليابانيين يسكنون شبه جزيرة متصلة بمملكة الصين ويفصلها عن اليابان بحر اليابان فهي واقعة بين الصين واليابان وما برحت منذ القدم مطمحاً لعيون الفريقين وغزاها كل منهما في دوره وأجبر ملكها

على تقديم الطاعة له ودفع الجزية . وكانت منفردة عن العالم كالصين لكنها فتحت أبوابها سنة ١٨٨٣ لقبول الاجانب فدخلها التجار والقناصل . وسكانها كالمغول في تقاطيعهم وهم أشداء البنية أقوياء الاجسام ولغتهم أشبه باليابانية منها بالصينية يكتبونها بحروف الثانية . و بلغت البلاد اوج مجدها بين القرنين السابع والثالث عشر . وكان لها صلات مع بلاد الفرس والعرب وقد وجد فيها آثار فارسية وأهلها على البوذية

والكوريون اهل سلام ودعة والنساء لايخرجن من بيوتهن في النهار وانما يؤذن لهن في الخروج للتنزه في الليل . وعلى الرجال حينئذ ان يلتزموا البيوت فمن خرج منهم عوقب بالسجن . وهم بسطاء المعيشة الى حد ان لا تجارة أجنبية في البلاد لان الاهالي لايحتاجون الى شيء منها . فأثاث بيوتهم قليل رخيص وطعامهم بسيط والتدخين والسكر فاشيان فيهم حتى لقد يرى الرجال مطروحين في الازقة والشوارع . وكوريا كبريطانيا العظمى مساحة وعدد سكانها نحو ١٣ مليونا وحكومتها ملكية . وكانت للصين سيادة على البلاد حتى قامت الحرب سنة ١٨٩٤ بينها وبين اليابان من اجل هذه السيادة وافضت الحرب بتحول السيطرة الى اليابان فعني اليابانيون في ترقية شؤون كوريا وادخلوا فيها بعض الاصلاحات الحديثة . والاهالي يشتغلون ثلاثة أشهر للملك وهم يعتبرون العلم والعلماء ويكرمونهم لكن علومهم محصورة في درس تعاليم كنفوشيوس

ومن غريب عاداتهم انهم لايتخلون عن قصبة التبغ التي يدخنون بها وطولها نحو متر فهم يحملونها في اليد الواحدة ويعملون باليد الاخرى حتى ان الفعلة منهم يشتغلون كذلك ويزيدهم ارتباكاً في العمل طول الاردان واتساعها حتى ان عشرين واحداً منهم لايقومون بعمل ثلاثة من الرجال . وقد أصدر الملك منشوراً يأمرهم به باستبدال هذه الاردان باكمام قصيرة ضيقة وفعل ذلك بنفسه على سبيل القدوة فلم يلق مصيخاً لاوامره فعاد الى تطويلها كما تراه في الرسم

وملك كوريا الان يسمى « هاني بي » تولى الملك سنة ١٨٦٤ ولم يسم امبراطوراً الى سنة ١٨٩٧ وكانت حكومته قبل حرب اليابان والصين (سنة ١٨٩٤) مطلقة فلما تداخلت اليابان في شؤونها قيدتها بعض التقييد

صحة العائلة

الاشربة الروحية

لحضرة نعمة افندي ايليا الصيدلي القانوني في دمنهور

كان الشرقي منذ سنين قليلة اذا قرأ في احدى الجرائد ان سكيراً ارتكب ذنباً ارتجف قلبه واقشعر بدنه واذا ذكر لجماعة بأن اوربا وأميركا بلاد المرسلين الذين يكرزون في بلادنا بانجيل المسيح اصبحت مرسحاً للقبائح والرذائل الناجمة عن المشروبات الروحية وان كثيرات من نسائها يتوسدن الشوارع والازقة سكارى وينغمسن في الشرور والآثام فضلاً عما يرتكبه رجالهنّ وبنيهنّ من المحرمات والمعاصي — اذا ذكرتَ ذلك لهم فانهم لايصدقونك بل يعدونك متعصباً لبلدك واذا عددت لهم مايحدث في البلدان المتمدنة في اوربا واميركا بلاد الغرائب والعجائب بلاد العلوم والاختراعات منبع المنافع والفوائد وفي أعظم مدنها واكبر بيوتاتها من الشرور على أثر استعمال الاشربة الروحية فانهم يستعيذون بالله ويكبرون ان يأتي التمدن باعمار كهذه . اما الآن فبعد ماساكنا الاجانب وساكنونا واقتبسنا منهم التمدن الحديث صار يسهل علينا فهم ماذكر ولا يعجب السامع من استماع تلك الاحاديث فقد راجت تجارة بنت الحان فيما بيننا وأي رواج واخذ شباننا وشاباتنا يتسابقون الى اقتباس العوائد الاجنبية ولا سيما ما كان منها مضراً فبعد ان كان يترنم احدنا بقول القائل :

واهجر الخمرة ان كنت فتىً　　كيف يسعى في جنون من عقل

اصبح لسان حاله يقول :

فادفنوني وادفنوا الراح معي　　وضعوا الاقداح حول المقبرة

وصار الكاس محبوباً مفضلاً في سائر المدن والبلدان على الماء الزلال والجلوس في الحانات لرشف الخمرة اولى من الذهاب الى المعابد والمتاجرة بالمشروبات الروحية لقصف الاعمار اولى من العمل الشريف لتقدم البلاد ونجاحها . يضنّ الواحد بدرهم ينفقه في سبيل الخير و بجود بما تملك يداه لتخدير دماغه وقتل افكاره واظهار طبيعته الحيوانية

فكم من «سكرة» اودعت اصحابها مدة طويلة في السجون وكم من حانة تواردا اليها الشبان لمعاقرة الخمرة فخسروا آدابهم وانحط مقامهم في الهيئة الاجتماعية وافسدوا ماابناه آباؤهم فانغمسوا بالملذات الباطلة وراحوا ضحية الشهوات البهيمية • كانوا يشيرون الى من ذاق مسكراً بالاصابع لاستقباح عمله وأما الآن فانهم يهزؤن بمن يقول لست معتاداً على شربه ويعدونه نذلاً جباناً • كان المسلم يرتعد خوفاً من سماع صوت الاقداح ويستنكف من شم رائحة المسكر لتحريمه في الشرع الشريف فصار الآن اكثر عكوفاً على معاطاته بجرع الزجاجة من العرق أو الكونياك كأنه لم يخالف شريعته • وقد كثرت المتاجرة بالاشربة على أنواعها المختلفة فندر ان تجد بلداً الا والحانات منتشرة فيه كانتشار اماكن التبغ تسق فيها السموم القتالة وتبتز الاموال من الجيوب لامانع يمنع ولا حكومة تردع • ويسرنا ان حكومتنا العثمانية قد حظرت استعماله على مستخدميها وباليتها جعلت أمرها عاماً وباليتهم يعملون به كما حظرت حكومات اوربا واميركا ذلك تحت طائلة القصاص وقامت الجمعيات العديدة من رجال ونساء لابطال المسكرات والمتاجرة بها فان لم ننهض لملافاة الامر فتؤلف الجمعيات العديدة من رجال ونساء لمقاومة المسكرات والمتاجرة بها • ونجاهد في منع هذه الرذيلة وأمثالها حباً بالوطن وخير ذويه ساءت حالنا الادبية كما ساءت حال الغرب بما اقتبسناه عنه من عادة السكر • ولذلك جئت بهذه المقالة مقتطفة من أقوال مشاهير الاطباء والحكماء والعلماء وقد اوضحت اضرار الاشربة الروحية على ما أثبته العلم والاختبار كما بينا اضرار التبغ في المقالة الاولى • وقد قسمت الكلام فيها الى خمسة اقسام الاول في الاشربة الروحية وتأثيرها في الابدان والعقول الثاني في استعمالها طبياً الثالث في الرد على حجج شاربيها الرابع في أسباب الميل اليها والسكر بها الخامس في كيفية التخلص منها

١ ــ الاشربة الروحية وتأثيرها في الابدان والعقول

ان الكتب المنزلة تحرّم تلك الاشربة ولم تقم ديانة في بلاد و بين أمة من اقدم ازمنة التاريخ الى الآن الا واشارت الى القبائح التي تنتج عنها . على ان العلم والاختبار اثبتا بالبرهان ان عادة المسكر من اعظم آفات التمدن الحديث . ومع نتائجها المهلكة الظاهرة على الاعضاء ولا سيما المعدة حال دخولها اليه فقد احدث شيوع الاعتقاد بانها من المنبهات ميلاً قوياً لتعاطيها علاجات عمومية لامراض عديدة . اثبت الدكتور بومون

في درسه فعل الكحول ان تأثيره يظهر اولاً على المعدة وان قليلاً منه يكفي لظهور الاحتقان الخارجي . واذا كانت كبيرة فينتفخ من عملها غشاء المعدة المخاطي ويسود وقد لا يشعر شاربها بسوء العاقبة بل يظن نفسه صحيح الجسم كعادته وكثيراً ما يتوهم لتورطه في الشرب انها نافعة له . اذا طال زمن استعمالها تلتهب المعدة وتصاب بالقروح الرديئة القتالة والامراض السرطانية المميتة ويبلى الجسم بامراض عديدة منها وظائفية ومنها عضوية . فمن العلل الوظائفية اختلال وظائف المعدة اما عاجلاً او اجلاً ويعقب ذلك الخلل مرض كل عضو في الجسم فتسمع اصوات غريبة في الراس تحدث عن سرعة تدفق مجرى الدم الحار المسم في الشرايين المخدرة لدى مروره بجانب الاذن ويتعب النظر برؤية بقع سوداء ومظاهر خيالية كنسيج العنكبوت ثم تحدث الكثة الكحولية فيتعطل النظر وينتهي الامر احياناً بفقده تماماً . اما تمدد اوعية الدم في الجلد ولا سيما في الوجه والانف فيزداد يوماً بعد يوم الى ان يصبح حالة ثابتة . وكثيراً ما تظهر أمراض جلدية وخصوصاً اكزيما الاصابع والابام وقصبة الساق ويشعر شاربه بظماء شديد لا يمكن تسكينه الا بالكحول فقط وذلك التسكين موقت . اما الكبد والكلية فيفسد عملها وتكونان مرة بطيئتي العمل تحتقنتين واخرى سريعتين . وكل الاعضاء تتأثر من استعمال الكحول فلا يترك واحد منها بدون تعطيله حتى يتطرق خلل تلك الاعضاء الى بنيتها ويبليها بتغيرات مرضية مميتة . اما الامراض العضوية الناجمة عن المسكر فالاكثر شيوعاً منها هو:

اولاً الحؤول الدهني الذي يؤثر بكل عضو في الجسم ولا سيما القلب : وذلك ان دقايق الدهن المتكاثرة في دم مدمني الكحول ترسب بعد مدة قصيرة في بعض الانسجة بكميات عظيمة جداً حيث لا حاجة اليها ويغلب رسوبها في القلب حتى تتراكم فيه وتحل بالتدريج محل انسجة جدرانه العضلية فتذهب قوته وتجعله عرضة للسقوط والانحطاط اذا اضطر الى اجهاد عظيم . وكثيراً ما ينفجر من شدة الانقباض . وهذا الحؤول هو اعظم سبب لامراض القلب على اجمالها . ووجد الاطباء ان اكثر المصابين بامراض القلب في مستشفيات اوربا واميركا هم من شاربي المسكرات

ثانياً داء السكتة : ان دقايق الدهن المذكورة قد ترسب في جدران الشرايين كما ترسب في القلب . ويغلب حدوث ذلك الحؤول في شرايين الدماغ اكثر مما في غيره ويستدل على وجوده بقوس الاشياخ وهي حلقة صفراء تكون حول قرنية العين والحالة

المذكورة تدلُّ على التغييرات المميتة الحادثة عن رسوب الدهن في الدماغ

ثالثاً السل الكحولي : قد اثبت الدكتور رتشاردسون ان المصابين بهذا السل لا تجديهم العلاجات نفعاً . ومع كل الوسائط الفعالة يتقدم المرض حتى ينتهي بالموت وقد يصيب هذا المرض اصحاء الاجسام واقوياء البنية الذين يظنون المشروبات الروحية لا تؤثر فيهم وكثيراً ما يظهر المرض فيهم بعد فوات الفرصة فيندمون حين لا ينفع الندم

رابعاً امراض الكبد : تتغير هيئة الكبد الى شكل خصوصي فتفقد الحس بالكلية ولا تتأثر بشيء من العوامل الفعالة في الجسم وتصبح هيئتها الخارجية مثل النعل الصلب المتقلص . وقد وجدت كبد المعتدلين بالشرب ايضاً مملوءة بالدهن من حوول ينتج امراضاً كثيرة اعظمها شيوعاً الاستسقاء البطني

خامساً امراض الكلى : اكثر امراض الكلى التي تعرف بمرض بريت هي نتيجة استعمال المسكرات اذ تخور قوى الكلى من افراطها في العمل فتحدث فيها التغييرات الحوولية الحادثة في باقي الاعضاء الرئيسية . قال احد ثقات الاطباء ان سبعة اثمان امراض الكلى في انكلترا من عواقب الكحول . وقد اظهرت التجارب العديدة ان عمل الكلى يضعف كثيراً تحت تأثير الكحول لتطرد من الجسم السموم التي تسبب اكثر الامراض الوظائفية والعضوية ولكن يتغلب حدوث امراض الحبل الشوكي العضوية وغيرها في مدمني المسكرات

سادساً الارق الكحولي : مع ان الكحول يؤثر اولاً في الكثيرين تأثير المنومات فنتائجه الاخيرة الارق . واذا نام العليل فنومه متقطع اشبه بغيبوبة متعبة لا يصح ان تدعى نوماً لان في النوم الطبيعي يقلُّ توارد الدم الى الدماغ الا كمية قليلة تكفي لاصلاح عمله . ومن ذلك الغيبوبة التي تحدث ايضاً في السكير من احتقان الدماغ احتقاناً مفرطاً فيصير الى حالة تشبه الحالة التي تسبق داء السكتة (ان لم يحفظ دائماً مستيقظاً مدة عمل الدماغ السقيم لسبب توارد الدم بكثرة الى شرايينه المفلوجة) فيقع في سبات داء السكتة فيرى الاحلام المتعبة والجن والارواح والرؤى المزعجة وقلما يرتاح متى صحا . وقد يحدث هذا النوم من تناول الكلورال وخلافه من المخدرات

سابعاً الامراض العصبية : ليس في البشر قوم يعرضون الامراض العصبية الناتجة عن حوول الاعصاب ومراكزها مثل مدمني المسكرات لان استمرار احتقان الدماغ والحبل الشوكي يسبب تضخماً في الاغشية التي تغلفهما وقاية لمحتوياتها الضعيفة وهذا التضخم يسبب حوولاً دهنياً وصلابة

تبطل عملهما بالكلية ثم تشل. وذلك الشلل الوقتي الظاهر مدة وجود الشخص تحت فعل الكحول يسلبه قوى الاعصاب سلباً جزئياً او كلياً بالنسبة الى الجرعة المأخوذة و يصير حالة ثابتة. ثم تفقد القوة الحاكمة على العضلات ويظهر فقدها في تمايل السكير وترنحه في مشيه. وليس الفالج الجزئي والكلي والصرع وغيرها من الامراض العصبية الا نتيجة الكحول. جرب الدكتور كاوك منذ بضع سنين تجارب كثيرة لاختبار تأثير الكحول بمجرعات منبهة على الوظائف العصبية واستعان بآلة دقيقة لقياس مدة الشعور بالنسبة الى حواس مختلفة فوجد نقصاً عظيماً في حس العصب البصري والحس العضلي والاعصاب الخصوصية المتعلقة بالشعور الجلدي

ثامناً الجنون الكحولي : ان هذيان السكارى حالة معلومة لاتحتاج الى وصف وهي تصبح بالتدريج ثابتة بسبب حوول الدماغ بفعل الكحول. لان الدماغ (المخ) في حالته الصحية مادة لينة لاتكاد تحفظ قوامها لولا الجمجمة واذا أريد فحصه تشريحياً وجب وضعه في الكحول عدة أسابيع لكي يقسو. اما دماغ السكير فانه صلب قاس وقد تكون كية الكحول فيه كثيرة حتى يمكن استقطارها منه بعد الموت وكثيراً ماوجدوا الكحول صرفاً في تجاويف الدماغ فأمكن اشعاله بعود من الكبريت. ولذلك فان المسكرات تعدُّ من اعظم اسباب الجنون وقد وجدوا من بعض الاحصاآت في فرنسا ان ٢٤ في المائة من الذكور كان الكحول سبباً لجنونهم وكذلك نصف الموجودين في بيمارستان دبلن. وقال بعضهم في تقرير رفعه للبارلمان في الجنون « ان الاشربة الكحولية سبب جنون ٦ في المائة من المجانين على العموم ». وقال الدكتور باركر اشهر أطباء مدينة نيويورك « ان أشهر الكتبة في هذا الموضوع ينسبون نصف حوادث الجنون في انكلترا الى الاشربة الكحولية ». وقال الدكتور روش قبل ثبوت انتقال الميل للمسكر بالوراثة « ان ثلث حوادث الجنون في أميركا سببها الكحول » وقال الدكتور هو « ان نصف حوادث البله في ولاية مساشوستس بأميركا ناتج من الكحول وقد وجد ٧ أشخاص بله في عائلة واحدة كان والداهم سكيرين وان نصف البله في انكلترا هم من والدين سكيرين وهكذا في أسوج ونروج وبطرسبرج واكثر مدن اوربا »

تاسعاً الكحول يعرض للمرض : ان كثرة الاختبار ودقة الملاحظة في هذا الموضوع لم تترك محلاً للشك في ان استعمال الكحول من اعظم المؤثرات لتعريض الجسم للامراض وليس القائل بنفعه في منعها الا في ضلال مبين. قال الدكتور اندرسن من

كلاسكو « ان ادمان الاشربة الروحية اقوى الاسباب التي تعد الجسم لقبول جراثيم اخبث انواع الكوليرا الموجودة وان ٩٠ في المائة من الذين ماتوا حين انتشار الوباء في وارسو سنة ١٨٣٢ كانوا سكيرين » واماتت الكوليرا كل سكير في مدينة تفليس وهي تحوي عشرين الفاً من السكان • واصاب الوباء في مستشفى بارك في نيو يورك مائتي شخص واربعة اشخاص ستة منهم كانوا من عائفي المسكرات فشفوا ومات ثلثا الباقين وكانوا من شاربي الكحول • وفي أثناء انتشار الحمى الصفراوية مؤخراً في أميركا كان عدد المصابين بها من السكيرين عظيماً جداً بالنسبة الى غيرهم • وكان اربعة اخماس الذين ذهبوا فريسة الكوليرا سنة ١٨٣٣ من شاربي الكحول • وقد عاف سكان موسكو وبطرسبورج استعمال المسكرات اذ تأكدوا الموت بالاستمرار على معاطاتها • وقال المستر هوبر « ان السكيرين كانوا يموتون كالذبان في الكثرة وان الكحول يعدّ ايضاً المعدة امراض أخرى شبيهة بالكوليرا واقل ضرر في شاربي الكحول ينتهي بموته » • ويقول الجراحون في مستشفيات المدن الكبيرة أنهم قلما يتوقعون نجاح العمليات الجراحية في شاربي الكحول كما في غيرهم • واصغر عملية لا تحدث ازعاجاً طفيفاً لعائف المسكر تنتهي غالباً في شارب الكحول بموته • قال ستانلي « لا يقدر سكير ان يعيش في افريقيا » وقد ثبت ان الجنود الانكليزية تقاسي الامراض القوية في الاماكن الحارة بالنسبة الى استعمالها المسكرات وامتناعها عنها • وقد استشهد الدكتور كاربنتر تصديقاً لهذا القول بمرض الجنود الاوربية في معسكر مدراس سنة ١٨٤٩ حيث قسمهم الى ثلاثة اقسام ممتنع عن المسكر ومعتدل في شربه ومدمن له • فكانت نتيجة التقارير ان المقيمين في المستشفيات كانوا ٦٠ من الاول وستة وستين من الثاني ومائة من الثالث • وبالاجمال فان الكحول يمرض البدن لامراض كثيرة يطول المقام بذكرها تفصيلاً فاكتفي بذكر اسمائها فقط وهي : النقرس • داء المفاصل • أمراض القلب • سوء الهضم • امراض الكلى • الاستسقاء • السمن • امراض الكبد • داء السكتة • حؤول العضلات • الرجفة • القروح • الجنون • الفالج • اليرقان • داء النقطة • السل • الملانخوليا • السرطان • العمى • الشلل • الهستيريا • التشنج التهاب المعدة • التهاب الامعاء • التهاب العين • الجمرة • الخراج • الدود • انسداد الاوعية اللبنية • الاغماء • الديابيت • تيبس مفاصل الفك • البله • العنة • الجنون مرض بريت • مرض الشرايين • ضمور الكبد • احتقان الكبد • الحؤول اجمالاً اوامراض اخرى في اعضاء الجسم ووظائفه • وقد ذكر احد الاطباء الذين زاروا

مستشفى بلفي في نيويورك ان ثلثي الامراض التي تعالج فيه اتتها السكر ٠ وقد يمكن ايراد امثلة كثيرة غير هذه تأكيداً لما تقدم

عاشراً الكحول يقصر العمر : يسهل جداً اثبات تقصير الكحول للحياة كسائر السموم. قال الدكتور باركر من نيويورك ، ان الاحصاآت اظهرت ان عشرة أشخاص من عائفي المسكر يموتون بين سن ٢١ و٣٠ في مقابل واحد وخمسين من شاربي الكحول وظهر من تقارير شركات ضمانة الحياة ان حوادث الموت في شاربي الكحول خمسة اضعافها في المتمنعين. ومع اعتراضات محبي المسكر والمعتدلين بشربه وادعائهم بان الكحول لا يضرهم وانه منبه ضروري يقي من الحمى والبرد والسل ونحوها وتأكيد بعض العلماء بانه يحفظ الجسم ويمنع الانحلال وبالنتيجة مطيل للحياة — فقد ابان المستر نيسون المدقق الانكليزي وغيره من الثقات بالاحصاآت التي لا يمكن انكارها انه ينتظر من الشبان في السنة العشرين ان يعمروا اربعاً واربعين سنة او خمسين ولا يكون معدل عمر السكير في تلك السن الا ١٥ ونصف وفي الثلاثين من العمر ينتظر حياة مجتنب الكحول ستة وثلاثين سنة ونصف بينما يتأكد موت السكير قبل الرابعة عشرة ٠ وقد قسمت احدى شركات ضمانة الحياة في لندن ضماناتها الى قسمين الى مجتنبي المسكر والمعتدلين في شربه فوجدت في الاثني عشرة سنة الاخيرة ان حوادث الموت في الاول اقل منها في الثاني بنحو الربع اي يموت ثلاثة من عائفي المسكر مقابل اربعة من المعتدلين في الشرب. وقال الدكتور هوس « الا في اسوج مليون وخمساية الف نفس اي نصف عدد السكان معدل مشروب الواحد منهم سنوياً ماية وخمسين ليتر (ومالاً) من الكحول ولذلك امتاز الاسوجيون بقصر القامة وعدم التمييز » ويموت في اميركا سنوياً بفعل المسكرات ما بين ستين الف وماية الف ٠ اما في اوربا فيموت عدد اعظم من هذا ٠ والخلاصة ان الاشربة الروحية تميت في هاتين القارتين شخصاً في كل دقيقتين ونصف فاذا كان قبر كل واحد اثني عشر قدماً مربعاً وصفت تلك القبور الواحد بجانب الاخر شغلت خطاً يبلغ طوله من راس هورن في جنوبي اميركا الجنوبية الى القطب الشمالي ٠ وستأتي بقية الكلام

من تخيلات الشعراء في وصف الخمر قول بعضهم :

وراح من الشمس مخلوقة	بدت لك في قدح من نهار
هواءٌ ولكنهُ جامدٌ	وماءٌ ولكنه غير جار

تاريخ اللغة العربية

باعتبار انها كائن حي نام خاضع لناموس الارتقاء

١ — العصر الجاهلي

ذكرنا في ما تقدم امثلة مما دخل اللغة العربية من الالفاظ الاجنبية قبل زمن التاريخ في ما عبرنا عنه بالعصر الجاهلي · ونحن ذاكرون الآن ما لحق الفاظها الاصلية من التنوع والتفرع في ذلك العصر · والادلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بالواضح الصريح فنذكر اولاً ما نستدل عليه من مقابلة العربية باخواتها العبرانية والسريانية ثم ما تشهد به حال اللغة العربية نفسها

(١) مقابلة العربية باخواتها : من الحقائق المقررة ان العربية والعبرانية والسريانية كانت في قديم الزمان لغة واحدة كما كانت لغات الشام ومصر والعراق والحجاز في صدر الاسلام · فلما تفرق الشعب السامي اخذت لغة كل قبيلة تتنوع بالنمو والتجدد على مقتضيات احوالها فتولدت منها لغات عديدة اشهرها اليوم العربية والعبرانية والسريانية — كما تفرعت عربية قريش بعد الاسلام الى لغات الشام ومصر والعراق والحجاز وغيرها · ولكن الفرق بين فروع اللغة السامية ابعد مما بين فروع اللغة العربية لتقيد هذه بالقرآن وكتب اللغة · فاذا راجعت الالفاظ السامية المشتركة في العربية واخواتها رأيت مدلولاتها قد اختلفت في كل واحدة عما في الاخرى · والادلة على ذلك لا تحصى اذ لا تخلو المعجمات من شاهد او غير شاهد في كل صفحة من صفحاتها فنكتفي بالاشارة الى بعضها على سبيل المثال

فلفظ « الشتاء » في العربية مثلاً هو اصل مادة « شتا » في القاموس وكلُّ مشتقاتها ترجع في دلالتها الى معنى الشتاء (الفصل المعروف) فقالوا شتا في المكان اقام فيه شتاء وشتا فلان دخل في الشتاء واشتى القوم اشتاء اجدبوا في الشتاء ... الخ · ولم يدلنا صاحب القاموس على اصل هذا المعنى في هذا اللفظ ولكنه اورد رأي المبرّد في ذلك فقال ان الشتاء « جمع شتوة » وان الشتوة « الغبراء التي تهب فيها الرياح والارض يابسة فيهيج الغبار » وفي قوله تكلفٌ · على اننا اذا راجعنا هذه المادة في اللغات السامية رأينا الاصل في دلالتها « الشرب » او « الري » او « الصب » فهي كذلك في العبرانية والسريانية الى اليوم · وقد شقوا منها الافعال والاسماء لمعانٍ كثيرة ترجع الى الري ونحوه — الا فصل الشتاء فانهم شقوا له كلمة من اصل

آخر يقرب منه لفظاً . ويؤخذ من مراجعات كثيرة ان المادة الاصلية (شتا) كانت تدل على الرطوبة او الري في اللغة السامية فلما تفرقت القبائل كما تقدم تولدت منها المشتقات وتنوعت معانيها على مقتضى الاحوال فتولد منها لفظ الشتاء للمعنى المعروف له في العربية واهمل معنى الشرب او الري منها . ومع ذلك فلو تدبرت معاني مشتقات هذه اللفظة في اخوات العربية رأيتها تختلف في الواحدة عما في الاخرى

واذا بحثنا عن لفظ « شهر » في العربية بالمقابلة مع اخواتها رأينا اصل الدلالة فيه الاستدارة ثم سموا القمر به لانه مستدير ثم اطلقه العرب على الشهر لانهم كانوا يوقتون بالقمر . على ان دلالته على القمر لا تزال باقية في العربية الى اليوم وكذلك في السريانية فان ܣܗܪܐ (سهرا) تدل عندهم على الشهر والقمر واما العبرانية فان القمر فيها لفظاً مشتقاً من مادة اخرى هي ירח (يرح) والاصل في معناها « الدوران » فاشتقوا منها « يارح » للدلالة على القمر وعلى الشهر . ومن هذه المادة في العربية « رواح » اي العشي . فكانوا يقولون « راح فلان » اي جاء او ذهب في العشي — اي ان اصل المعنى راجع الى « العشي » بغير تقييد بالذهاب او المجيء مثل قولهم اصبح وأمسى . ثم غلبت فيها الدلالة على الذهاب في العشي ثم صارت للدلالة على مطلق الذهاب — حدث كل ذلك التنوع بلا قصد ولا تواطؤ .

ومن بقايا « يرح » في العربية مادة اشكل على أئمة اللغة معرفة اصلها فعدّها بعضهم فارسية وعدّها آخرون يونانية واكتفى غيرهم بانها غير عربية وهي بالحقيقة سامية الاصل نعني بها لفظ « أرّخ » او « ورّخ » او « أرّخ » بمعنى وقّت والاظهر عندنا انها من بقايا اسم الشهر عندهم (يرح) — والابدال بين الخاء والحاء هيّن — ومنه « التاريخ » تعريف الوقت ثم تنوع معنى هذه اللفظة فصاروا يدلون بها على علم التاريخ اي ذكر الوقائع والحوادث

ومن هذا القبيل « كتب » فان الاصل في دلالتها « حفر » في الحجارة او الخشب » فالظاهر انهم استعملوها في اول عهدهم بالكتابة وكانوا يكتبون على الحجارة او الخشب حفراً او نحتاً شأن الكتابة عند الامم القديمة . فلما صاروا يكتبون بالمداد على الرقوق او الاقمشة تحوّل معناها الى الكتابة المعروفة ولم يبق لدلالتها على الحفر اثر في العربية وان كنا نرى اثر ذلك في « قطب » ونحوها من تفرعات « قطّ » حكاية صوت القطع . فيلوح لنا ان الاصل في دلالة كتب (او قطب) على الحفر انهم كانوا يقولون مثلاً « قط بالخشب » اي قطع في الخشب او حفر الخشب ثم الصقوا الباء بالفعل فصار

« كتب » او « قطب » كما الصق عامتنا الباء المذكورة بفعل المجيء فبدلاً من ان يقولوا « جاء به » قالوا « جابَه » وصرفوه فقالوا « يجيبهُ وجابوهُ ويجيبوه » بدلاً من « يجيء به وجاؤُا به ويجيئون به » · ومثل « كَتَبَ » ايضاً « سَطرَ » فانها كانت تدلُّ في الاصل على الحفر ثم تحوَّل معناها الدلالة على الكتابة لسبب عينهِ · ولا تزال « سطر » تدلُّ على الحفر ايضاً في العبرانية واما في العربية فقد بقيت الدلالة على ذلك في انطجانس هو « شطر » او نحوها

وكثيراً ما تحوَّل المعنى في بعض الالفاظ بانتقاله من الكل الى الجزء او من الصفة الى الموصوف مثل « اللحم » في العربية فان معناها في اللغات السامية « الطعام » على اجماله ثم خصصه العرب بالدلالة على اهمّ الاطعمة وهو اللحم · والاصل في « طبخ » الدلالة على « الذبح » واللفظان متشابهان فتحوَّل معناها في العربية الى معالجة اللحم للطعام واستعملوا للذبح كلمة تقرب منها لفظاً · و « الملح » اصل دلالته في اللغات السامية كلها من « ملح او ملأ » اي نبع الماء · ثم تحوَّل معناها الى اكبر مستودعات الماء وهو « البحر » ونظراً لظهور الملوحة في مياه البحار اكثر من سائر صفاتها ولان الملح يستخرج منها سمّوا الملح بها والظاهر ان هذه اللفظة كانت في امهات اللغات السامية والآرية قبل تفرقها · فان اسم البحر في اليونانية يشبه ان يكون مبدلاً من « ملح » او ان تكون ملح مبدلة منه وكذلك في اللغة السنسكريتية فان الاحرف الاصلية في اسم البحر في اليونانية [illegible] ونحوها في السنسكريتية

ويقال نحو ذلك في « عَبَد » فانها في اللغات السامية تدلُّ على العمل وخصوصاً الحرث في الحقل ولم يبق من مشتقات « عبدَ » في العربية ما يدل على معناها الاصلي الا « المعبدة » اي « المجرفة » او « المحراث » وفي ما خلا ذلك فان عبَد ومشتقاتها انما تدلُّ على العبادة ومنها « العبد » اي الرق و « التعبُّد » لان خدمة الحقول كان اكثرهم من الارقاء · ولما كان اكثر الارقاء من الزنوج دلَّ المولدون بلفظ العبد على الزنوج السود خاصة

ومن هذا القبيل « الثلج » والاصل فيه الدلالة على البياض ثم اطلق على اشهر المواد البيضاء · وكذلك « مرء » فان اصل دلالتها في اللغات السامية على القوة ومنها الى الرئاسة ومنها الى اقوى الكائنات وهو الانسان · ولا تزال في السريانية تدل على الرب فقط وهي عندهم [illegible] (مرا) او « مريا » اما في العربية فغلبت فيها الدلالة على الرجل · واما العبرانية والسريانية فللدلالة على الرجل فيها الفاظ اخرى ترجع في اصل معناها الى القوة

وكأن هذا اللفظ قديم مشترك في امهات اللغات فانه في اللاتينية vir ونحوه في الهندية

ولهذا السبب استعمل العرب « بَعْل » للزوج وهو يدل في الاصل على السيد او الرب ومنه البعل اسم اكبر آلهة الشعوب السامية ومنها « هبَل » كبير اصنام الكعبة (راجع الهلال الثالث من السنة الخامسة) و يظهر من مراجعة امهات اللغات الآرية ان هذا اللفظ انتقل منها الى اللغات السامية قبل تفرق شعوبها لانه في السنسكريتية « بالا » القوة وفي اللاتينية Val-ere قوي . او لعل الآريين نقلوه عن الساميين

ومن أمثلة ما فقد أصله من الالفاظ السامية في اللغة العربية وبقي فرعه لفظ « الشِعْر » بمعنى المنظوم . فقد شقه صاحب القاموس من « شعر الرجل » بمعنى فطن واحسَّ فقال « وسمي الشاعر شاعراً لفطنته وشعوره » ويلوح لنا من خلال هذا التعليل تسامح لا يرتاح العقل اليه . والا ظهر عندنا ان « الشِعر » مشتق من اصل آخر فيه معنى الغناء او الانشاد او الترتيل فقد من العربية وبقي في بعض اخواتها — ففي العبرانية اصلٌ فعليٌ لفظه שור (شور) ومعناه صات او غنى او رتل ومن مشتقاته שיר (شير) قصيدة أو انشودة وبها سمي نشيد الاناشيد في التوراة وامثاله من القصائد او الاناشيد التي رتلها اليهود في أسفارهم او حروبهم . واليهود أقدم اشتغالاً بالنظم من العرب . فالظاهر ان العرب اخذوا عنهم كلمة « شير » للقصيدة او الانشودة كما اخذوا غيرها من اسماء الآداب الدينية والاخلاقية وابدلوا ياءها عيناً على عادتهم في كثير من امثال هذا الابدال . فصارت « شِعر » اطلقوها على الشعر باجماله . فلما جمعت اللغة عدُّوا هذا اللفظ من مشتقات « شَعَر » . واما أصل مادة « شور » فقد ذهب من العربية والقياس في مقابلة الالفاظ بين العربية والعبرانية يقضي ان تلفظ هذه الكلمة في العربية « سور » بالسين ولا نجد في هذه المادة عندنا ما يماثل هذا المعنى الا اذا اعتبرنا تسمية فصول القرآن سوراً واحدتها « سورة » فيكون المراد بها الانشودة او الترتيلة من قبيل التجويد

ومن امثلة تنوع المعاني ان لفظ « الورق » في العربية أصله من « يَرَق » اخضرَّ ومنه ورق الشجر لاخضراره ولا يزال من هذه المادة في العربية « اليرقان » للمرض المعروف وهو اخضرار الجلد او اصفراره . وقد شقه صاحب القاموس من « ارق »

وقس على ذلك مئات من الامثلة تشهد على ما لحق الفاظ اللغة العربية من تنوع معانيها ومدلولاتها قبل زمن التاريخ باعتبار مقابلتها بالفاظ اخواتها السامية

(٢) النظر في اللغة العربية وحدها : على اننا لو اقتصرنا على مراجعة المعجمات

العربية وحدها لاتضح لنا هذا الناموس بأجلى بيان اذ نرى للمادة الواحدة او اللفظ الواحد عدة معان متنوعة من معنى واحد · وبالطبع ان الاصل في اللفظ الواحد ان يدلّ على معنى واحد ثم يتنوع المعنى على مقتضيات الاحوال · ولا نحتاج في اثبات ذلك الى ايراد الشواهد لانه بديهيّ وانما يحسن بنا ان نشير الى اسباب ذلك التنوع وهي كثيرة وقد ذكرنا بعضها في ما تقدم من الكلام في مقابلة الالفاظ العربية بالفاظ اخواتها كاشتقاق معنى الملح من البحر ومعنى الثلج من البياض وغير ذلك مما بينه تناسب في المعنى · وقد تكتسب الكلمة معنى جديداً من عادة او عقيدة مثل قولهم « بنى على اهله او باهله » بمعنى تزوّج وليس في اصل فعل البناء هذا المعنى وانما اكتسبهُ من عادة كانت جارية عند العرب وهي ان الداخل باهله كان يضرب عليها قبة ليلة الزفاف · ومن هذا القبيل تحول معنى القمر الى الشهر لانهم كانوا يوقتون بالقمر

ومن اسباب زيادة النمو في اللغة العربية غير النحت والابدال والقلب التصحيف وهو التبادل بين الاحرف المتشابهة شكلاً كالباء والتاء والثاء والنون والياء او الجيم والحاء والخاء او الدال والذال او الراء والزاي او السين والشين وقس عليه · فن امثلة ما ورد بمعنى واحد وسببه التصحيف قولهم رجل صلب وصلت والدبر والدثر والكرت والكرب ورغات ورغاب والجلجلة والحلحلة وجاض وحاص والناخة والنافجة وهو كثير · وقد ذكر منه علماء اللغة مئات · والغالب ان ذلك التصحيف لم يحدث الا بعد تدوين اللغة لانه خطأ بقراءة الخطوط

ومما اختصت به لغة العرب من نتائج هذا النمو ورود الالفاظ الكثيرة للمعنى الواحد فعندهم للسنة ٢٤ اسماً وللنور ٢١ اسماً وللظلام ٥٢ اسماً وللشمس ٢٩ وللسحاب ٥٠ اسماً وللمطر ٦٤ وللبئر ٨٨ اسماً وللماء ١٧٠ اسماً وللبن ١١٢ اسماً والعسل نحو ذلك وللخمر مئة اسم وللاسد ٣٥٠ اسماً وللحية مئة اسم ومثل ذلك للجمل · اما الناقة فاسماؤها ٢٥٥ اسماً وقس على ذلك اسماء الثور والفرس والحمار وغيرها من الحيوانات التي كانت مألوفة عند العرب واسماء الاسلحة كالسيف والرمح وغيرها · ناهيك بترادف الصفات فعندهم للطويل ٩١ لفظاً وللقصير ١٦٠ لفظاً ونحو ذلك للشجاع والكريم والبخيل مما يضيق المقام عن استيفائه

ومن خصائص اللغة العربية اسماء الاضداد فان فيها مئات من الالفاظ يدلّ كل منها على معنيين متضادين مثل قولهم « قعد » للقيام والجلوس « ونقح » للعطش والري و « ذاب » للسيولة والجمود و « أفند » للاسراع والابطاء و « أقوى » للافتقار

والاستغناء وقس على ذلك

ومن خصائصها ايضاً دلالة اللفظ الواحد على معانٍ كثيرة فمن الفاظها نيف ومئتا لفظ يدلُّ كل منها على ثلاثة معانٍ ونيف ومئة يدلُّ الواحد منها على اربعة وكذلك التي تدلُّ على خمسة معانٍ . وقس على ذلك ما يدلُّ على ستة معانٍ فسبعة فثمانية فتسعة الى خمسة وعشرين معنى كالحميم والقن والطيس ومما تزيد مدلولاته على ذلك « الخال » فانها تدلُّ على ٢٧ معنى واللفظ « العين » ٣٥ معنىً واللفظ « العجوز » ٦٠ معنىً

فتكاثر المترادفات والاضداد ودلالة اللفظ الواحد على معانٍ كثيرة لا يحدث الا من تفرع الفاظ اللغة ومعانيها بالنمو والتجدد وتكاثر الدخيل . وبالطبع لم يتكون للشيء الواحد مئة اسم او مئتان الا بتوالي الاجيال . واحدث تلك الالفاظ اكثرها استعمالاً واقدمها اقربها الى الاهمال

٢ — الالفاظ الاسلامية

العصر الاسلامي : نريد بالعصر الاسلامي في صدد اللغة العربية الزمن الذي مرَّ باللغة بعد ظهور الاسلام حتى كتبت العلوم الاسلامية كالتفسير والحديث وسائر العلوم الشرعية واللغوية ونحوها اي الى عصر النهضة العباسية . ولا مشاحة ان الاسلام اثر في اللغة تأثيراً كبيراً هو تابع لتأثيره في العادات والآداب والاعتقادات . ويدخل في ذلك ما طرأ على اللغة من الاصطلاحات الدينية والفقهية واللغوية والادبية . وما دخلها من الالفاظ الادارية على اثر انشاء الحكومة ودوائرها وفروعها ثم الالفاظ العلمية والفلسفية بترجمة كتب اليونان والفرس والهنود الى العربية . ولذلك قسمنا الكلام في العصر الاسلامي الى ثلاثة فصول نقتصر في هذا الفصل على ما دخل اللغة العربية من التغيير بسبب العلوم الاسلامية وهو ما عبرنا عنه بالالفاظ الاسلامية ونفرد لكل من التغييرات الادارية والاجنبية فصلاً خصوصياً في ما يلي

فتأثير العلوم الاسلامية على اللغة يكاد يكون محصوراً في تنويع الالفاظ العربية وتغيير معانيها للتعبير عما احدثهُ الاسلام من المعاني الجديدة بلا ادخال الفاظ اعجمية الاَّ نادراً

واشهر ما حدث من التنوعات في الالفاظ العربية في العصر الاسلامي الاصطلاحات الدينية والشرعية والفقهية واللغوية وكانت الفاظها موجودة قبل الاسلام ولكنها كانت تدلُّ على معانٍ اخرى فتحولت للدلالة على ما يقاربها من المعاني الجديدة . فلفظ « المؤمن » مثلاً كان

معروفاً في الجاهلية ولكنه كان يدل عندهم على الامان او الايمان وهو التصديق فاصبح بعد الاسلام يدل على المؤمن وهو غير الكافر وله في الشريعة شروط معينة لم تكن من قبل . وكذلك المسلم والكافر والفاسق ونحوها . ومما حدث من الاصطلاحات الشرعية الصلاة واصلها في العربية الدعاء وكذلك الركوع والسجود والحج والزكاة والنكاح فقد كان لهذه الالفاظ واشباهها معان تبدلت بالاسلام وتنوعت . وقس على ذلك الاصطلاحات الفقهية كالايلاء والظهار والعدة والحضانة والنفقة والاعتاق والاستيلاء والتعزير واللقيط والآبق والوديعة والعارية والشفعة والمناسخة والفرائض والقسامة وغيرها

ويقال نحو ذلك في الاصطلاحات اللغوية التي اقتضتها العلوم اللغوية كالنحو والعروض والشعر والاعراب والادغام والاعلال والحقيقة والمجاز والنقض والمنع والقلب والرفع والنصب والخفض والمديد والطويل وغيرها من اسماء البحور وضروب الاعراب والتصريف وهي كثيرة جداً ولها فروع واشتقاقات — حتى لقد اصبح اللفظ الواحد معنى فقهيٌ وآخر لغويٌ وآخر عروضي وآخر ديني مما لا يمكن حصره

وكما احدث الاسلام الفاظاً جديدة للتعبير عن معانٍ جديدة اقتضاها الشرع الجديد والملك الجديد فقد محا من اللغة الفاظاً قديمة ذهبت بذهاب بعض اعتقادات الجاهلية وعاداتهم . من ذلك قولهم المرباع والنشيطة والفضول والاتاوة والمكس والحلوان ونحو ذلك من الالفاظ التي ذهبت بذهاب معانيها وكلها من قبيل الاصطلاحات القديمة فقامت مقامها الفاظ تؤدي ما قام مقام تلك الاصطلاحات بعد الاسلام

على اننا لا نشك في اهمال كثير من الالفاظ العربية في القرنين الاولين للهجرة ولا سبب لذلك غير ما يقتضيه النمو من التجدد والدثور — يكفي لتحقيق ذلك مراجعة المعجمات وتدبر الفاظها فانك ترى فيها مئات والوفاً من الالفاظ التي بطل استعمالها ولا نظنهم جمعوها في صدر الاسلام الا لانها كانت شائعة على السنة العرب . وقد يعترض على ذلك ان تلك الالفاظ انما اهملت في العصور الاخيرة . فلا تنكر اهمال بعضها في هذه العصور ولكن جانباً كبيراً منها اهمل في الاعصر الاولى فضلاً عما قلَّ استعماله قبل الاسلام حتى لقد كان احدهم يسمع اعرابياً يتكلم فاذا ذكر الفاظاً مهملة أُغلق على السامع فهمها ولو كان لغوياً . يروى عن ابي زيد الانصاري انه قال « بينا انا في المسجد الحرام اذ وقف علينا اعرابي فقال يا مسلمون بعد الحمد لله والصلاة على نبيه اني امرؤ من هذا الملطاط الشرقي المواصي اسياف تهامة عكفت علينا سنون محش فاجتبت الذرى وهشمت العرى وجمشت

النجم واعجت البهم وهمت الشحم واقحت اللحم واحجنت العظم وغادرت التراب مورا والماء غورا والناس اوزاعا والنبط قعاعا والقدبيل جراعا والمقام جعجاعا يصبحنا الهاوي ويطرقنا العاوي فخرجت لا اتلفع بوصيده ولا اتقوت ببيده فالمخصات وقعه والركبات زلعه والاطراف فقعه والجسم مسلهم والنظر مدرهم أعشو فأغاش واضحى فأخنش اسهل ظالعاً واحزن راكعاً فهل من آمر بمير او داع بخير وقاكم الله سطوة القادر وملكة الكاهر وسوء الموارد وفضوح المصادد — قال ابو زيد فاعطيته ديناراً وكتبت كلامه واستفسرت منه ما لم اعرفه » وابو زيد الانصاري من فطاحل ائمة اللغة . وامثال هذه كثيرة في اخبار العرب

باب السؤال والاقتراح

الالفاظ الاعجمية في اللغة العربية

(الاسكندرية) اسعد افندي حليم

قرأت مقالتكم في الهلال السابع من هذا العام في « تاريخ اللغة العربية » بلذة وشوق لحداثة هذه الابحاث عندنا ولا اكتم عنكم ما استولى علي من الدهشة لقرأته عن رجوع كثير من الالفاظ العربية الى أصول فارسية اوهندية او يونانية اومصرية مما لم يقله أحدٌ من علماء اللغة الى اليوم . ولذلك فاني استأذنكم في ملاحظة ليست من قبيل الاعتراض ولكنني أستزيدكم ايضاحاً — قلتم مثلاً ان المسك والكافور دخيلان في العربية والاول هندي سنسكريتي والثاني هندي ملقيّ فلماذا لا نقول انهما عربيا الاصل دخيلان في اللغة الهندية وما هي القاعدة في تعيين أصول الالفاظ

(الهلال) نشكر لحسن ظنكم ونثني على ملاحظتكم لانها تدل على حبكم الحقيقة ورغبتكم في البحث عنها — أما تعيين أصل اللفظ لالحاقه باللغة المأخوذ منها فيحتاج الى نظر لايكفي فيه المشابهة اللفظية اذ كثيراً ما تتفق كلمتان

من لغتين في لفظ واحد ومعنى واحد ولا تكون بينهما علاقة وانما يقع ذلك على سبيل التوارد بالاتفاق — الا اذا دلت القرائن على انتقال احداهما من لغة الى أخرى وساعد الاشتقاق على ذلك . فاذا اتفق لفظان متقاربان لفظاً ومعنى في لغتين وكان بين أهل تينك اللغتين علائق متبادلة من تجارة او صناعة او سياسة جاز لنا الظن ان احداهما اقتبست من الاخرى . فاذا كان ذلك اللفظ من أسماء المحصولات او المصنوعات او الادوات فيرجح الحاقه باللغة السابقة الى ذلك كلفظ « المسك » مثلاً فانه موجود في العربية وفي الفارسية وفي السنسكريتية وفروعها . فاذا عرفنا ان المسك يحمل الى العالم من تونكين وتيبت ونيبال والصين وان الهنود القدماء كانوا يحملون الاطياب الى الامم القديمة ويمرون بسفنهم ببلاد العرب ترجح عندنا ان العرب اخذوا هذه اللفظة عن الهنود كما أخذها الفرس منهم او لعلها انتقلت الى الفارسية من العربية . لان الفرس يعدونها عربية كما يعدها العرب فارسية . او هي في الفارسية باعتبار انها فرع من السنسكريتية كما هي في الانكليزية بطريق التفرع وكما هي في اللاتينية لانها أخت السنسكريتية ومن اللاتينية انتقلت الى الفرنساوية لانها فرع من اللاتينية

ويقال نحو ذلك في « كافور » فان العرب يعدونها فارسية والفرس يقولون انها عربية وهي موجودة ايضاً في السنسكريتية واللاتينية وفروعها . فبايها نلحقها ؟ ففي مثل هذه الحال يجب البحث في مصدر الكافور فاذا علمنا انه يصدر من اليابان والصين ومن ملقا وان اسمه باللغة الملقية « كابور » ترجح عندنا انه ملقي الاصل . وكذلك « الزنجبيل » الجذور المعروفة فان العرب يقولون انها تعريب « شنكبيل » في الفارسية والفرس يقولون انها عربية — ولم نجد شنكبيل في القاموس الفارسي — واذا بحثنا عن اسم هذا العقار في اللغات الاخرى رأينا اسمه في اليونانية « زنجباريس » وفي اللاتينية « زنجبار » فأول ما يتبادر الى الذهن انه من « زنجبار » البلد المعروف وانه سمي بذلك لانه كان يحمل منه او لسبب آخر . فاذا رجعنا الى منبت هذا العقار رأيناه هندياً ورأينا اسمه في اللغة السنسكريتية « زرنجابيرا » مشتقة من « كرنجا » او « زرنجا » اي القرن لمشابهة جزوره به فيترجح عندنا انه سنسكريتي الاصل

ومن هذا القبيل « الفلفل » فان العرب يقولون انه فارسي والفرس يقولون انه عربي وهو موجود ايضاً بنحو هذا اللفظ في الانكليزية والالمانية واللاتينية ويوجد ايضاً في السنسكريتية ويلفظ فيها « پيالا » او « فيفالا » ولما كان الفلفل من محصولات الهند واجوده يرد من مالابار ترجح ان هذه اللفظة سنسكريتية الاصل . ومعنى « پيالا » عندهم ايضاً « التينة المقدسة »

ويقال عكس ذلك في الالفاظ الدالة على محصولات بلاد العرب او حيواناتها كالقهوة مثلاً فانها موجودة في الفارسية وفي كل لغات اوربا فالأرجح انها عربية الاصل لان هذه اللفظة كانت عند العرب قبل اصطناع القهوة اسماً من اسماء الخمر فاطلقوها على قهوة البن . ومثل ذلك اسماء الجمل والزرافة والغزال وغيرها من اسماء الحيوانات العربية وربما كان منها ما هو مأخوذ في الاصل من لغة غير عربية

واذا كانت اللفظة المشتركة بين لغتين من قبيل المصنوعات فالحاقها باصحاب تلك الصناعة من الامتين اولى . فقد اختلط العرب بالفرس وخصوصاً بعد الاسلام وأخذوا منهم كثيرًا من الالبسة والانسجة ولم ينقلوها الى لسانهم بل عربوها وابقوها على ما هي كالسراويل والتبان (ومنها الجبة) والتبان والجورب والديباج والارجوان والسرموج والقفطان والطربوش والبابوج — كما فعل اهل هذا المصر باسماء الالبسة الافرنجية التي اقتبسوها من الافرنج في قدمهم الاخير كالبنطلون والجاكت والاستيك وغيرها — واقتبس العرب من الفرس كثيراً من انواع الاطعمة والاسلحة والفرش والادوات وابقوها على لفظها الاعجمي وهي كثيرة يضيق هذا المقام عن ذكرها ومنها الجلاب والجلنار والبنفسج والخشاف والخوذة والدسكرة والدولاب والدهقان والسرجين والسرداب والطنبورة والفرسخ وغيرها كثير . فالحاقها بلغاتها الاصلية يسوغه اولاً التاريخ لانه يدلنا على ان العرب اقتبسوا تلك المواد من الفرس فاذا تأيد ذلك بالاشتقاق اللغوي كان الدليل اثبت — مثل « جلاب » فانها مؤلفة في الاصل الفارسي من « كل آب » اي ماء الزهر و « خشاف » من « خوش آب » و « سرداب » من « سرد آب » او « سردابه » بيت الثلج من « سرد » اي بارد

والطربوش من « سر بوش » اي غطا الرأس . والبابوج من « پابوش » اي غطاء القدم

وكثيرًا ما يكفي الاشتقاق اللغوي وحده في معرفة اصل اللفظة بشرط ملاحظة مقابلة اللغات . فاذا وجدنا لفظة في العربية ومثلها في الفارسية او اللاتينية او اليونانية مثلاً ولم يساعدنا التاريخ على معرفة حقيقة اصلها عمدنا الى اشتقاقها وصيغتها فاذا لم يكن لها مجانس في اخوات العربية وكان لها ذلك في اخوات الفارسية واللاتينية او اليونانية ترجح انها فارسية . مثل « البلاط » مثلاً بمعنى « قصر الملك » فقد عدها العرب عربية وشقوها من البلاط المعروف لان القصور تفرش به . ولكن هذه اللفظة في اللاتينية Palatium ومعناها قصر الملك . فاذا ادعى مدع انها عربية الاصل وان الرومان اقتبسوها من العرب قلنا ان الرومان يرجعون باصلها الى تلّ كان في رومية بهذا الاسم نزل عليه اوغسطس قيصر واقام فيه فسمي قصره به . واذا أعجزنا الدليل التاريخي عمدنا الى الاشتقاق فان Pala في السنسكريتية معناها الحامي او المدافع وكان الملوك القدماء انما يبنون القصور للتحصن بها

وقد لا يهدينا التاريخ مطلقاً كما في لفظ « جاموس » فان التاريخ لا يساعدنا على معرفة اصلها هل هي عربية او فارسية فاذا رجعنا الى الاشتقاق لم نر لها اشتقاقاً في العربية اما في الفارسية فانها مركبة من لفظين « كاو » ثور او بقرة و« ميش » كبش ولكن الجاموس هندي الاصل ومعنى «جاوميشا» في السنسكريتية « البقرة الكاذبة »

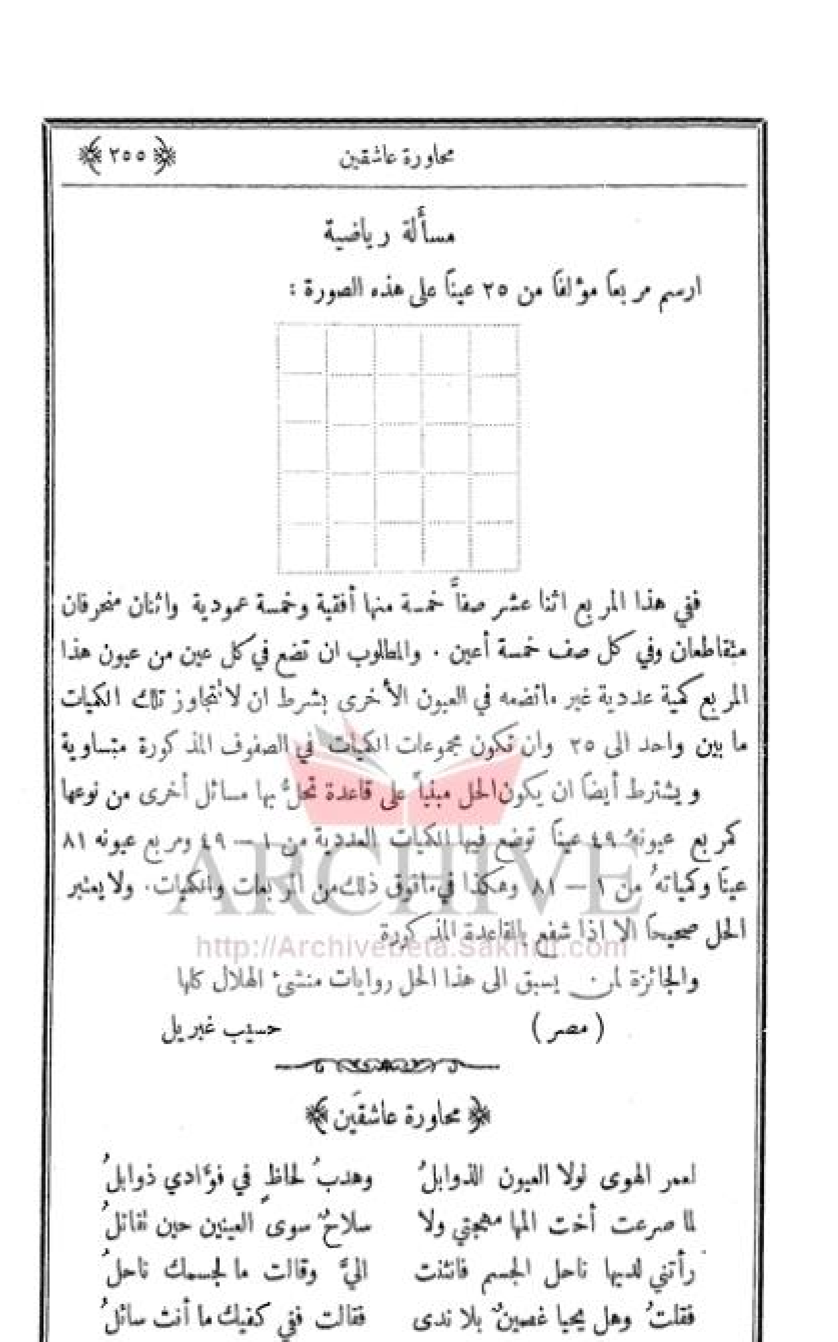
شجرة غريبة

﴿دورس دي كوا بالبرازيل﴾ جرجس افندي يوسف اندراوس

قرأت في جريدة تصدر في باسوى من ولاية ميناس (بالبرازيل) انهم وجدوا على مسافة عشرة أميال من المدينة المذكورة شجرة محيطها نحو مئة متر ورقها مثل ورق التين نهارًا و يظهر ليلاً كالاهلة ويضيء كالنجوم . واذا وقف تحت ظلها انسان او حيوان غلب عليه النعاس فينام نوماً عميقاً ينتهي بالموت بعد ساعة او بضع ساعات

مسألة رياضية

ارسم مربعاً مؤلفاً من ٢٥ عيناً على هذه الصورة :



في هذا المربع اثنا عشر صفاً خمسة منها أفقية وخمسة عمودية واثنان منحرفان متقاطعان وفي كل صف خمسة أعين . والمطلوب ان تضع في كل عين من عيون هذا المربع كمية عددية غير ما تضعه في العيون الأخرى بشرط ان لا تتجاوز تلك الكميات ما بين واحد الى ٢٥ وان تكون مجموعات الكميات في الصفوف المذكورة متساوية

ويشترط أيضاً ان يكون الحل مبنياً على قاعدة تحلُّ بها مسائل أخرى من نوعها كمربع عيونه ٤٩ عيناً توضع فيها الكميات العددية من ١ — ٤٩ ومربع عيونه ٨١ عيناً وكمياته من ١ — ٨١ وهكذا في ما فوق ذلك من المربعات والكميات . ولا يعتبر الحل صحيحاً الا اذا شفع بالقاعدة المذكورة

والجائزة لمن يسبق الى هذا الحل روايات منشئ الهلال كلها

(مصر) حسيب غبريل

محاورة عاشقَين

لعمر الهوى لولا العيون الذوابلُ	وهدبُ لحاظٍ في فؤادي ذوابلُ
لما صرعت أخت المها مهجتي ولا	سلاحٌ سوى العينين حين تقاتلُ
رأتني لديها ناحل الجسم فانثنت	اليَّ وقالت ما لجسمك ناحلُ
فقلتُ وهل يحيا غصينٌ بلا ندى	فقالت ففي كفيك ما أنت سائلُ

فقلت ولكن قد ذوى من لظى الهوى — فقالت وهل يذوى ودمعك وابلُ
فقلت لعلّ الشمس عنه تحجبت — فقالت ففي خدّيَّ شمس تماثلُ
فقلت اتبدو الشمس والبدر طالعٌ — لعمركِ قد قلّت لديّ الوسائل
فقالت عجيبٌ ما ذكرتَ وانني — واياك دوماً نورنا متكاملُ
وملتُ بها نحو الرياض فآنست — ازاهر ورد غصنها يتمايل
فقالت أرى غصناً يميل ولاهوًا — أبِنْ هوانا والهواء تبادل
فقلت ولا بدع فان شموله — سرتْ فحكتها منكِ تلك الشمائل
وان احمرار الورد بين غصونهِ — كخديك لما داهمتنا العواذل
فلولا الحيا ماراق وردٌ لناظر — ولا حُييتْ الواردين الخمائلُ
ولولا الهوى ما ماس غصن بلا هوا — ولا أحدقت بالقلب تلك السلاسلُ
فأنتِ منحت الورد نور ملاحةٍ — ونار التياع فهو زاهٍ وذابلُ
وعلمتني وصف الجمال ولم اكن — جهلت ولكن كان لي عنه شاغلُ
الى ان تراءى لي هواكِ وانه — وعيناكِ ذا سحرٌ وهذي قنابلُ
فاشغلني الا عن الغزل الذي — يمثل لي الغزلان وهي تغازلُ
وان غبتُ ناجي البدر عني فانني — اذا لم أسلْ عنكِ فالطرف سائلُ

«مصر» «ابراهيم زيدان»

﴿ نفح الازهار في منتخبات الاشعار ﴾ هو كتاب يشتمل على مختارات من الشعر العربي لفحول الشعراء جمعه المرحوم شاكر البتلوني ورتبه حسب ابواب الشعر كالغزل والحكم والفخر والمدح والرثاء والتاريخ وقد طبع مرارًا وراجت طبعاته فعمد امين افندي هندية الكتبي الشهير في القاهرة الى نشره للمرة السابعة فطبعه طبعة نظيفة بحرف جميل تام الشكل وقد ضبطه وصححه الشيخ ابراهيم اليازجي صاحب الضياء ووقوف اليازجي على ضبطه يضمن سلامته من الخطأ. والكتاب يباع في مكتبة الناشر وسائر المكاتب وثمن النسخة خمسة قروش والبريد قرش

ضاقت صفحات هذا الهلال عن بقية التقاريظ وعن باب الاخبار العلمية

صحة العائلة

الاشربة الروحية

لحضرة نعمة افندي ايليا الصيدلي القانوني في دمنهور

(١) تأثير الاشربة الروحية في الابدان والعقول (تابع ما قبله)

غش الاشربة الكحولية : كثيرًا ما تغش الاشربة الكحولية بالسكّر المحروق وسلفات البوتاس او سلفات الحديد او الشبة او الحامض الكربك او الكولشيك او التبغ او الفليفله او الزنجبيل او الافسنتين او الحامض الكبريتيك او ملح الطرطير او كربونات البوتاس او املاح الرصاص او ماء الغار او الدودة او البقم او زيت النفط او الجنطيانا او الافيون او خلافها . لكن معرفة ذلك لا تهم كثيرًا لان الكحول صرفًا كان او ممزوجًا ببعض هذه المواد او كلها فانه سام اكثر منها ووجوده صرفًا نادر

تأثير الكحول في المعتدلين بشربه : لا ينجو المعتدلون في شربه من آفات شرّه اذ يعتريهم « التسمم الكحولي المزمن » وتظهر اعراضه فيهم والصحة كباقي الامراض وكثيرون يموتون ضحية النقرس والروماتزم والنفرالجيا والدسبسيا والانحطاط العمومي في الاعصاب باستعمال جرعات صغيرة حيث لا يمكن اجتناب نتائجه المهلكة لانه سام مهما كانت جرعته قال الدكتور سمث « مهما تكن جرعة الكحول فعمله واحد » وقال الدكتور تشامبرلن « ان الجرعات الصغيرة المتعددة مدة طويلة تحدث ضررًا من اعظم الاضرار التي يحدثها الكحول » وقيل بدون مبالغة « ان الاعتدال في شرب المسكرات يأتي بنفس الاضرار الحادثة من ادمانه لان المدمن يبدأ كالمعتدل » . وقال الدكتور ملر في كتابته عن الكحول « الكحول للجسم البشري كالدبوس الذي ترفع به فتيلة السراج فكل ارتفاع ينتج لهيبًا اكثر لمعانًا واذا لم يزد الزيت وتجدد الفتيلة انطفأ السراج هكذا يفعل الكحول في الجسم » وقال الدكتور كاربنتر « ان اكبر كمية من الكحول يمكن تناولها بدون احداث النتائج السامة المهلكة المذكورة هي من ٨ دراهم الى ١٢ درهمًا كل يوم وقد يمكن احتمال كمية اكبر ولكنها تعمل فعلها المميت المار ذكره ولو ببطء ، وبهذه الطريقة

المؤسسة على الحقائق العلمية والتي يسلّم بها المحامون عن الكحول يتسمم قسم كبير من شاربيه رويداً رويداً . والخلاصة ان الاستمرار على شرب كيات قليلة اشد ضرراً من شرب كيات كبيرة مرات قليلة ولذلك فالمعتدل في المشروبات الروحية حتى البيرا والنبيذ التي هي اخف انواعها هو اكثر تعرضاً للامراض العصبية المزمنة وانواع الحوول الكثيرة ممن يعاقر الخمرة مرة كل شهرين او ثلاثة اشهر»

تأثير الكحول بالوراثة : لا يقاسي السكير وحده عواقب تلك الرذيلة بل قد يعمّر ستين اوسبعين سنة ويتمتع برغد العيش مستخفاً بالشرائع الطبيعية وتحذير الاصدقاء فاذا نظرت الى اولاده الذين كان يجب ان يلدهم مثله اقوياء الاجسام واصحاء العقول تجدهم ضعفاء عصبيين معتوهين ضعيفي العقول لظهور ذنوب ابائهم فيهم . قال الدكتور ادموندس «ان الوفاً من الناس ورثوا الضعف من آبائهم فتنتابهم امراض دماغية واوجاع مختلفة فيعيشون مضطربي العقول لان اباءهم كانوا سكيرين» وقال الدكتور بارك «ان تأثير الكحول الوراثي يظهر بطرق مختلفة فيورث الابناء ميلاً قوياً الى ادمان المسكر وقد يكون فيهم نوع من السكر المدعو Paroxysmal اي انهم يمتنعون عن الشرب مدة طويلة ويعاهدون انفسهم ان لا يذوقوا مسكراً لكنهم لايلبثون طويلاً حتى تنقضي مدة حكمهم على انفسهم فيستسلمون لشهواتهم ويكون ولعهم بالمشروبات الروحية عظيماً فهؤلاء سكيرون بالارث وهم اكثر تعاسة من ابائهم ويكون اولادهم اكثر تعاسة منهم الا اذا كانت سيرة الام غير مشوبة . وهذا التأثير الوراثي لا ينحصر في اولاد السكيرين فقط بل ينتج عنه الجنون والبله وداء السكتة وغيرها من الامراض الدماغية والعصبية في اولاد السكير لانهم يرثون منه الاستعداد لتلك الامراض وتتوارثها ذراريهم

وليس في العالم المتمدن بلد تظهر نتائج فعل الكحول في اهله مثل ظهورها في اسوج وتروج — الا اهالي جزائر صندويج الذين كادوا ينقرضون من السكر . دخلت الاشربة الى نروج سنة ١٨٢٥ وكانت الرسوم المضروبة عليها فاحشة فلم تمض عشر سنين حتى تزايد عدد المجانين خمسين في المائة وعدد الاولاد المولودين بلهاً او معتوهين مائة وخمسين في المائة . اما اسوج ففيها مليون ونصف على الاقل من الذين ينفق كل منهم سنوياً ما بين ٨٠ — ١٠٠ كوارت (اي نحو ٢٠٠ — ٢٥٠ رطلاً مصرياً) من الويسكي وقد يشارك الاطفال اباءهم في شربه وكثيراً ما يستخدمونه لتنويم الاطفال باعطائهم قطعة من القماش مبلولة به يمتصونها . قال الدكتور هوس « وكانت نتيجة ذلك ان السكان اخذوا ينقرضون وتزايد

الانتحار فيهم وتعاظمت الذنوب والاثام وتكاثر البله في المواليد » وقال الدكتور شاركو الطبيب الفرنساوي الشهير « ان اولاد السكيرين يرثون استعداداً لكل الامراض العصبية » وقد سلم جهابذة الاطباء بهذه الوراثة وسموها Toxicopathie

تاثير الكحول في الاخلاق : تأثير الكحول في الاخلاق يظهر جلياً بنتائجه السريعة . لان الدماغ يستعبد لتاثير الكحول فتضعف الارادة وتتسلط على الانسان شهواته واميال فتظهر تحت تأثير المسكر اخلاقه الحقيقية ويذهب عنه تأثير العلم والتربية التي كانت تكبح جماحه فتمنعه من ارتكاب المحرمات . وتصبح كل الاميال التي كانت خاضعة لحكم الارادة مطلقة التصرف وتظهر فيه كل الشهوات الدنيئة الحيوانية ويرتكب السكير من المعاصي ما يخجل كثيراً من سماع اسمه في حالة الصحو وبندر قتل النفس عمداً الا اذا كان القاتل سكراناً حيث يشعر بالاحتياج الى ما يميت ضميره ويضعف قواه الادبية ويقلل اعتباره للحياة البشرية . واذا طال زمن ادمان المسكرات يصير ذلك الانحطاط الادبي بعد قليل حالة ثابتة وصفها الدكتور فاذرجيل بما يأتي « من اوضح نتائج المسكرات ما نراه في سكير جائل بثياب بالية وقد انحطت قواه العقلية والادبية وانقطعت آماله لفوات زمن التوبة فيلتمس الانزواء في زوايا الحانات تنبعث من فيه رائحة المسكر وقد فرغ جيبه وليس له طاقة بالعمل ولا هو يريده . فسدت صفاته المدنية فاصبح حالة على سواه كالدودة الوحيدة وقد خسر احترام نفسه عند نفسه لما جرّه اليه الكسل وضعف الارادة من ارتكاب الدنايا ولم يعد يخجل من التوغل في انواع الفواحش . يهون عليه الكذب وربما اقسم الايمان المغلظة على صدقه في ابرع ما كذب الكاذبين فيه . لا يردعه رادع عن استخدام الوسائط الدنيئة للحصول على دريهمات قليلة يشتري بها جرعة من ذلك الشراب المميت اصل بلائه وشقائه » . وقال جماعة من مشاهير القضاة ان الكحول سبب لتسعة اعشار الذنوب بين الامم المتمدنة فهو يخمد العقل ويميت الضمير ويخدّر الفكر ويقود شاربه الى استسهال السرقة والقتل . يضم شاربو الكحول الى الذنوب التي يرتكبونها ما يرتكبه نساؤهم واولادهم مما يساقون اليه كرهاً من المحرمات باحتياجهم للقوت اليومي والتخلص من الورطات التي اسقطهم فيها ذلك الوحش المفترس (الكحول) ومما يدل على ان ازدياد الذنوب ينتج عن تأثير الكحول ما نراه من النتائج المحزنة حال دخوله الى بلد من البلدان . فكم من بلاد قضى اهلها الاجيال الطوال لا يشوب عيشهم شائبة لان الكحول لم يدخلها فلم يحدث فيها قتل ولا سرقة ولا خصام ولا تعدٍ على نفس او عقار او اغتصاب

من اي نوع كان ولا ما يكدر الراحة او يقلق البال فلما انشئت فيها الحانات وفشا داء المسكر ظهرت نتائجه حالاً: الشرب أدى الى الكسل والكسل اورث الفاقة والفاقة ادت الى السرقة لان من يبذر امواله في الامور المحرمة لا يمكنه البقاء في تحصيل معاشه بطرق جائزة لان تاثير الكحول قد امات ضميره ونبه فيه الشهوات والكسل فآل ذلك الى التعدي على النفوس وعدم اعتبار حقوق الغير فاصبحت تلك الاماكن الناعمة البال مرسحاً تخفص فيه كل انواع الآثام وكثر العمل على رجال الحكومة ولم يكن لم عمل قبلاً

و يظهر تاثير المشروبات الروحية في ارتكاب الذنوب من تزايدها بتزايد السكيرين على نسبة متبادلة. ففي سبع سنين (بين ١٨١٢ و ١٨١٨) كان ما ينفق من المسكر في انكلترا و وابلس خمس ملايين جالون وكان معدل المسجونين السنوي في تلك المدة احد عشر الفاً. ومن ١٨٢٦ الى ١٨٣٢ اي في سبع سنين اخر صارت كمية المسكر تسعة ملايين جالون وصار عدد المسجونين سنوياً واحد وعشرين الفاً وسبعماية. ومما يؤكد ان تلك الزيادة انما كانت من ازدياد المسكر وليس من ازدياد السكان تضاعف الذنوب مع عدم زيادة الاهلين سوى الثلث. قال الدكتور نوط من اسكوتلاندا ان كمية المسكر كانت سنة ١٨٢٣ مليونين وثلاثماية جالون فصارت ١٨٣٧ ستة ملايين وسبعماية وستة وسبعين الفاً وسبعماية وخمسة عشر جالوناً وقد زادت الذنوب اربعماية في المائة والحميات الف وستماية في المائة والوفيات ثلاثماية في المائة ونقص معدل الحياة ٤٤ في المائة. ولما توقفت مستحضرات الكحول في ايرلندا ١٨٠٨ نقصت الذنوب نقصاً عظيماً ولما استؤنف العمل سنة ١٨١٠ ازدادت اربعة اضعاف ويُنسب السبب في تلك الزيادة الى عمل الكحول الهدام في طبيعة الانسان البشرية باماتة الارادة والضمير وقوة الحكم وتنبه الشهوات فضلاً عن الميل القوي المتولد للسرقة (Kleptomania) وقد ظهر للعيان ان الشرور العمومية اساسها كلها المسكر فاماكن المومسات والمحلات العمومية مرتبطة بعضها ببعض اشد الارتباط والسكر والفسق يعملان يداً بيد. قال احدث مشاهير الاطباء عن تأثير الكحول في الاداب «اذا لم يحدث الكحول الجنون والبله وداء السكتة فهو يضعف الضمير و يقتل الارادة ويحرر الانسان من سلطة العقل ويجعله عبداً للشهوات البهيمية» ويعدهُ الدكتور كاربنتر اقوى مؤثر لاضعاف الارادة وتهييج اقوى الشهوات. وقال الدكتور اليشع هريس رئيس المجمع الاميركي الطبي وكاتب مراسل لجمعية السجون في نيويورك «ان اثنين وثمانين الفاً من مئة الف مسجون اخطأوا وهم تحت فعل الكحول» (ستأتي البقية)

تاريخ علم الادب

عند الافرنج والعرب — لكاتب فاضل

٢١ — الطريقة الرومانية عند الالمان والفرنساويين

اما الالمان فأقدم تأليف أدبي لهم اغاني هيلدبراند نظمت في القرن التاسع للميلاد بلسان الالمان كما نظمت اغاني رولان بلسان رومان . وفي القرن الثالث عشر جمع ديوان نيبلونجن كما جمعت قصة عنتر وذكر فيه الحروب التي حدثت بين قبائل نيبلونجن وبين اتيلا الذي هجم عليهم من الشرق وأبادهم . فهذا الديوان هو كتاب الحماسة الالمانية . ثم حدث الانقلاب الديني وظهر لوتر مؤسس أحكام الديانة البروتستانتية وترجم للالمانية الكتب المقدسة فاتسعت بذلك دائرة اللغة وتهذبت نوعاً ما وظهر نفر من الكتاب والشعراء والعلماء ومع ذلك استمر الالمان للقرن الثامن عشر الميلاد محرومين من فنون الادب المعتبرة عند الادباء . وكان الامراء والاعيان في المانيا مكبين على تحصيل الادب الفرنساوي وعلى حفظ الاشعار الفرنساوية والتمثل بها والتكلم بالفرنساوية في نوادي سمرهم ومجلساتهم وضيافاتهم تشبهاً بملوك بروسيا وبما يجري في القصر الملوكي ببرلين . اذ الناس على دين ملوكهم . وكان لفريدريك الثاني ملك بروسيا اعجاب شديد بالشاعر الحكيم فولتير الفرنساوي فقربه اليه وأحله في قصره محلاً رفيعاً . والحاصل كانت بضاعة الادب الفرنساوي رائجة عند الالمانيين كرواجها عند الروس . وكرواجها أيضاً بعد حرب القرم في الاستانة العلية ومصر القاهرة . حضرتُ يوماً في مدرسة العلوم السياسية بباريس امتحان طالب تركي استانبولي أجاب جواباً مقبولاً عن اكثر الاسئلة التي القيت عليه بما يتعلق بأحوال فرانسا وشؤونها الداخلية اللازم معرفتها لابنائها . فلما انتبه له المعلم وسأله عن البوسنة والهرسك وعن أحوال مسلميها وجده لا يعرف شيئاً عنها ولا يدري ان كان فيها مسلمون ام

لا . ورأيت في باريس أيضاً تلميذاً مصرياً يحسن التكلم والكتابة بالفرنساوية ويتكلم العربية ولايكتبها وله والدة تركية تحرر له المكاتيب باللغة العثمانية ولم يكن هو يعرف اللغة العثمانية لاتكلماً ولا كتابة سوى بعض عبارات متعارفة ربما كانت والدته تعرف قدر ذلك من العربية فيتيسر لهما التفاهم والتكلم باللغة العربية التركية وأما المخابرة التحريرية فلم يتمكنا منها الا بواسطة الترجمان والكاتب مع ان كليهما ليسا بأميين بل هما على جانب من العلم والادب . فالانهماك باللغة الاجنبية ادى الى ان الولد أصبح لا يعرف لغة أمه كما تجب معرفتها ادبياً وطبيعياً . لان لغة الأُم هي اللغة الطبيعية التي يسميها الفرونساويون (لانغ ماترنيل) ويسميها الاتراك (لسان مادر زاده) ومادر هي الأُم بالفارسية

وهكذا كانت الحال في المانيا بسبب تهافتهم على أدب اللغة الفرنساوية في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر اي ما بين سني ١٧٧٠ — ١٧٨٠ م جاء ادباء الالمان بطرز جديد من الادب كان له رواج على مراسح اللعب وأقبل الناس عليه اقبالاً عظيماً . مع ان الطرز الجديد الذي جاؤا به كان عارياً عن تلك الصور والاساليب البديعة التي في مؤلفات أهل الطريقة المدرسية وخالياً عن ذلك التصنع اوالتعمل الذي كانوا يتكلفونه وبمجرداً عن تلك المحاسن التي كانوا يؤلفونها تأليفاً . وانما كان كلام الادباء الالمانيين في هذا الطرز الجديد صادراً عن تأثر وتهييج وانفعال في النفس . وعن احساس في القلب . فنفخ هذا الانفعال والاحساس الروح في كلامهم وصيره كلاماً حياً تألفه ارواح المستمعين وتحن اليه . ولم يقصد أدباء الالمان فيما الفوه الامتياز بالفضل والعلم بين الخواص وانما كانت غايتهم افهام كلامهم لعوام الناس ولجميع الاصناف من اولاد البلد الذين يقال لهم (بورجوا) . فمن اجل هذا عدلوا عن الاخذ بمالي الطبقة من الانشاء المصنع واستعملوا اللهجة المألوفة بين قومهم وابناء بلدهم وجعلوا اهتمامهم في نفخ روح الحياة في كلامهم وادخلوا فيه كل مايحدث انفعالاً في النفس وتهيجاً في العواطف بغير تهافت على البديع من الالفاظ ولا على رعاية القواعد وصوروا في كلامهم الغرائب والعجائب التي تتشوق الاسماع لاستطلاع

حقائقها ولا تطمئن القلوب الا بعد الوصول لنهايتها . فان الاذن تعشق بطبعها الاخبار ولذا نرى عوامنا في كل قطر و بلد يدورون وراء القصاص (الحكواتي) من قهوة الى أخرى ويتلذذون باستماع مايتلوه عليهم من اخبار عنترة بن شداد والزير ابي ليلى المهلهل والزناتي خليفه وعلي الزيبق عايق زمانه وقصة الملك سيف والملك زاد بخت بن شهرمان و جميع ماورد في الف ليلة وليلة من الحكايات . واذا بات بطل الرواية في ضيق وكرب لايهدأ بالهم ولا تنام أعينهم الا بعد تمام الخبر وفهم ماجرى له

وكان ادباء الالمان اذا الفوا رواية فاجعة أخذوا موضوعها مما يرونه في قومهم ويشاهدونه في بلادهم واذا بحثوا عن الوقائع التاريخية اختاروا مباحثهم من تواريخ القرون الوسطى لاسيما من القصص والحكايات الدارجة على السنة الامم الالمانية والجرمانية ترجيحاً لها على تواريخ القرون الاولى وعلى قصص اليونان والرومان . كما فعل كوته (١٧٤٩ — ١٨٣٢ م) شيخ ادباء الالمان فانه اختار فوست بطلا لروايته الشهيرة بهذا الاسم . وتداول اسم فوست على السنة العامة في المانيا وفي انكلتره قبل تأليف هذه الرواية الالمانية واشتهرت سيرته بين الناس بأنه من السحرة الذين باعوا الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ولا كانوا مؤمنين واختار بطلاً لرواية أخرى اكمونت وهو أمير في البحر هولاندي الاصل اشتهر في تاريخ الالمان بخدمته لشارلكين وانتصاره على الفرنساويين وعلى ملكهم فرانسوا الاول المستنجد بالسلطان سليمان القانوني . ومن بديع ما ألفه ايضاً الشاعر كوته قصة وارتر ثم ديوان الشرقيات (ديفان اوريتال) وهو مجموع أشعار نظمها على اسلوب غريب وقلد فيها ديوان الحافظ الشيرازي احد مشاهير شعراء العجم المتوفى سنة ٧٩٤ هـ او ٧٩١ هجرية وكان الحافظ ممن اجتمع بتيمورلنك حينما ضبط شيراز وجرى بينهما لطائف مشهورة . وقد ترجم ديوان الحافظ للغات الاوروبية كما ترجمت مؤلفات الاكابر من شعراء الفرس مثل الفردوسي صاحب الشهنامة المتقدم ذكرها ومثل الشيخ مصلح الدين سعدي صاحب الكلستان والبستان وترجمه الى الفرنساوية

الموسيو باربيه دومينار مدير مدرسة الالسنة الشرقية بباريس . والكاستان مترجم للعربية والتركية ويدرس في عموم المكاتب العثمانية وكان الصليبيون اسروا مؤلفه وحبسوه في طرابلس الشام وشغلوه في بناء الابراج المحيطة بها من جهة البحر . فرق له احد الاغنياء من اعيان حلب وافتداه بمال وخلصه من الاسر وكانت وفاته سنة ٦٩١ هـ . فافرنج زماننا يحترمون سعدي قدر ما احترمه اسلافهم وذكره فيكتور هوكو في مؤلفاته ونقل عنه . ومن مشاهير أدباء الالمان شيلر (١٧٥٩ — ١٨٠٥ م) وكان معاصرًا لكونه ورفيقاً له فاتخذ وليم تل بطلاً لروايته المشهورة بهذا الاسم . وكان وليم تل المذكور رئيساً للعصبة التي خرجت في بلاد السويس على حكامها من النمساويين وحررت البلاد من قيد اسارتهم سنة ١٣٠٧م . والمذكور من خبره في التاريخ ان الدوق اي والي بلاد السويس المعين من قبل امبراطور الالمان نصب ذات يوم عوداً في ساحة المدينة ورسم في رأسه تاج الدوقية وأمر الناس بالخضوع امامه . فرفض وليم تل الانقياد لهذا الامر الذي فيه التحقير والاذلال لنوع الانسان مع ما اختصه الله به من الكرامة وورد في القرآن الشريف « ولقد كرمنا بني آدم »(١) . وكان وليم تل من اشد الابطال بأساً وامهرهم رمياً بالنبل فغضب عليه الوالي واحضره بين يديه وحكم عليه بوضع تفاحة على رأس ولده وفلذة كبده ورميها بالقوس والنشاب . ففعل ذلك وقلبه يتميز من الغيظ واصاب الهدف بعد ان كان الخطاء اقرب اليه من الصواب . فصور الشاعر هذه القصة التاريخية وبين فيها عوامل الاستبداد وعدم صبر النفس الابية على الظلم والجور والاستعباد وكان شيلر يلقب بشاعر النساء والشبان لتأثير اقواله فيهم اكثر من تأثيرها في المتأدبين من الرجال المائلين الى التعمل والتصنع في الكلام والى الانشاء العالي الطبقة . لان كلامه كان سهلاً بسيطاً خالياً مما في الطريقة المدرسية من اصول الصك والسبك ومن انواع البديع والاستعارات وفيه كثير من الالفاظ العامية

(١) ولقد كرَّمنا بني آدمَ وحملناهم في البرِّ والبحرِ ورزقناهم من الطيباتِ وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلاً . آية : (٧٠) سورة (١٧)

والتراكيب المتداولة ولكنه كان على السامع اشد تأثيراً واخذاً بمجامع القلوب

فبعد ان كان الالمان في الادب عيالاً على الفرنساويين وليس عندهم من المؤلفات الادبية الا ما هو ترجمة او تقليد لما حرر بالفرنساوية على نهج الطريقة المدرسية صاروا ائمة في الادب يقتدى بهم وينسج عن منوالهم . واشتهرت الطريقة التي سلكها كوته وشيلر وليسنغ ومن اقتفى اثرهم بالطريقة الرومانية نسبة للغة رومان — وهي اللاتينية الدارجة التي جاء بها جنود الرومانيين وموظفوهم الى بلاد الغولوا والسلت اي لفرنسا فتحرفت فيها وامتزجت بلسان الفرانك وانقلبت الى اللغة الفرنساوية الحالية . فكلمة رومان كانت تطلق في القرون الوسطى على ما دوّن بلسان رومان من فني المنظوم والمنثور . وذلك مثل يمين ستراسبورغ وهو اقدم الابنية في لسان رومان ومثل رومان رولان ويقال لها ايضاً اغاني رولان ورومان ارثور ورومان المائدة المستديرة ورومان الثعلب ورومان السيد وكثير غير ذلك فكانت المحررات الرومانية اي المدونة بلغة رومان تعتبر من التآليف الجاهلية بالنسبة للمحررات اللاتينية وهي ما حرر باللغة اللاتينية من التواريخ المقدسة وسير الصالحين والقديسين والصلوات الدينية . فاللسان اللاتيني كان اذ ذاك لسان المدارس والكنائس والمعول عليه في العلم والدين وكان في سبكه تصنعٌ وتمحلٌ ومراعاةٌ لقواعد الفراماطيقي والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية : ويبلغون علوم الآلات في العربية الى اثني عشر علماً كما لا يخفى . فلغة رومان لم يكن فيها شي من ذلك بل كانت على فطرتها الطبيعية وليس في سبك عباراتها ادنى تصنع ولا تهذيب . فلما اختار ادباء الالمان مواضيع رواياتهم من رومان القرون الوسطى ورجحوه على مؤلفات اللاتين واليونان سميت طريق ادبهم بالطريقة الرومانية . واطلقت كلمة (رومانتيك) الفرنساوية على الادب المستحدث تسمية له باسم اجنبي كما اطلقت كلمة (فرانك) الجرمانية على قبائل الغولوا والسلت وقيل لهم فرنساويون

فطريقة رومانتيك المنسوبة لفيكتور هوكو تولدت في المانيا واشتهرت برقابتها للطريقة المدرسية وبميلها لاظهار قريحة القرون الوسطى وتصوير اخلاق اهلها

وعوائدهم وحماسة فرسانها وصلابتهم في الدين وتعصبهم للمذهب وتهورهم في المسائل ومبالغتهم في الاخبار وتصديقهم بالخرافات والخزعبلات . واراد اهل الطريقة الرومانية الفوز على اهل الطريقة المدرسية — لا بانتقاء الالفاظ وسبك العبارات وانسجام المعاني ومراعاة القواعد — بل بالاتيان بكل ما يحدث انفعالاً في النفس ويفتح مجالاً للتصور والخيال . ولذا عمدوا الى القصص الدارجة على الالسن والمنقولة عن الاسلاف والجدود ووضعوها في قالب شعري والفوا بها رواياتهم واهملوا اساطير القرون الاولى من الاسرائيليات والخرافات اليونانية والرومانية . وجاء الفيلسوف الالماني هكل وفسر تفسيراً فلسفيا حقيقة الطريقة الرومانية وهو يبحث على الصور المختلفة التي تغلب فيها العقل البشري فوجد ثلاث طرق في صناعة الادب منذ نشأته الاولى الى زمانه وهي :

(١) الطريقة الرمزية (سيمبوليك)
(٢) الطريقة المدرسية
(٣) الطريقة الرومانية كما سنذكره

ويظهر الفرق بين الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية لكل مدقق حضر تمثيل رواية مؤلفة على نهج الطريقة المدرسية مثل مؤلفات راسين ومنها رواية (اندروماق) اليونانية و (استير) و (اتالي) الاسرائيليتين ومثل مؤلفات قورنيل ومنها (هوراس) وهي رواية الاخوة الثلاثة الرومانيين ثم حضر في مراسح الاستانة وازمير او مراسح مصر واوربا تمثيل رواية فوست مثلاً . فأول ما يشاهد عند رفع الستار شيخ عليه الهيبة والوقار جالس على كرسي في غرفة المطالعة وامامه مائدة تراكمت فوقها الكتب والدفاتر والاقلام والمحابر وهو يفكر فيما يكون اليه المرجع والمآب ويقلب على ضوء السراج اوراق الكتاب الذي خط فيه جابر ومسلمة علوم السحر والكيمياء ويتلهف على ايام الشباب وزمن التصابي ويقول :

اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخسر للعلماء

وبعد ان يستولي اليأس على هذا الشيخ الفاني ينفخ في رأسه الوسواس الخناس

الذي يوسوس في صدور الناس ويحرضه على دعوة الشيطان اليه وتلاوة العزائم عليه فبأسرار التلاوات وخواص الطلسمات يظهر صاحب الاسم والعزيمة المتوسل بها وهو خادم من الجنة و يعلمه ما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر. وهكذا يقول الخادم للشيخ فيبيع الآخرة بالدنيا و يشتري الضلالة بالهدى ويتعلم منه ما يعيد له الشباب والفتاء ولعل ذلك بواسطة الاكسير الذي من خواصه اعادة الشباب وقلب المعادن الى الذهب على زعم المتقدمين فينهمك الشيخ فوست في اللذات ويغرق في الهناء والمسرات ويعشق بنتاً يقال لها مارغريت فيراودها عن نفسها ويفرق بسحره بينها و بين امها و يستهويها بالجواهر واللآلي و يطغيها الشيطان ...... فتستحق لعنة الله والملائكة والناس اجمعين. فيتميز اخو مارغريت من عهر اخته و يقف لعاشقها بالمرصاد و يبارزه بالسيف فيقتل بوخزة خفية من ذاك الخادم الجني المرافق لفوست. فتستحي مارغريت من هذه الفضائح ويذهب الرشد منها فتقتل الولد الذي حملت به من فوست ويأخذها حاكم البلد بما جنت يداها و يلقيها في السجن فيأتي عاشقها لتهريبها وهذه اشد ساعة على مارغريت حيث يتنازع قلبها عوامل الحب من جهة وعوامل الندامة من اخرى فلا تجد لها ملجأ غير رحمة الله التي وسعت كل شيء فتحول وجهها عن عاشقها وتتوب الى الله توبة خالصة. وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم [1]. فيغفر الله لها ما تقدم من الذنب وما تأخر و يقبضها اليه فتخر ميتة وتذهب نفسها الناطقة الخالدة الى عالم الارواح على شكل الحمامة التي وصفها ابن سينا بقوله

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وتنشق في آخر الليل سماء المرسح وتظهر مارغريت بأبهى الحلى والحلل في أعلى عليين بجانب اخواتها تحف بهن الملائكة المربون. وفوست ينظر اليها والعبرات

(١) سورة الانعام آية ٥٤

تسيل من عينيه . واختلفوا في فوست فقالت طائفة بأنه من الهالكين ومقره في الدرك الاسفل من النار . وقالت طائفة أخرى لا بل استشهد في الحب وتاب الى الله فتاب الله عليه والله خير التوابين . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ان الله كان تواباً رحيماً . انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً (١)

ويرى المتفرج على هذه الرواية افعال السحر والسحارات المكارات اللواتي يطبخن المواد السحرية في القدر ويصببنها بين المفارق ليسحرن المارين في الطرق ويرى أيضاً اعمال الشيطان الرجيم وغوايته لمن يتبعه من الانس ومقدرته على خرق العوائد واظهار العجائب وحكه في هذه الدنيا الدنية الفاسدة وكيفية استعاذة النصارى منه بالصليب ولذا جعل أهل القرون الوسطى قبضات سيوفهم على شكل الصليب ليتعوذوا بها من شر الشيطان الرجيم . وبهذا يكون السيف قاطعاً بقبضته في الروحانيات وبحده في الماديات

ولما ذهب نابوليون الاول بعساكره الى بروسيا اجتمع في برلين بالشاعر كوته مؤلف رواية فوست المذكورة وحادثه طويلاً وعجب به واحسن عليه بنيشان الافتخار فاتجهت نحو مؤلفاته افكار الادباء من الفرنساويين كما اتجهت قبلا افكار ادباء الالمان نحو مؤلفات فولتير حينما كان في سراي برلين من المقربين . وكانت اساليب الطريقة الرومانية دخلت فرانسا على عهد نابوليون الاول بواسطة شاتوبريان وما دام دوستايل

اما الاول فهو الامام الذي اقتدى به في الادب فيكتور هوكو وقال : « أما ان اكون شاتوبريان اولاشي » . واسمه فرانسوا رينه فيقونت دوشاتوبريان نسبة لشاتوبريان اي لقصر بريان المشيد على نهر لوار بالقرب من نانت . وحيث كان من اشراف العائلات ذهب ايام الانقلاب الكبير الى اميركا وساح بين اهاليها المتوحشين وعاد منها لانكلترا ثم لفرانسا ونشر قصة (اتلا) وذكر

(١) سورة النساء آية ١٦

فيها ما شاهده في سياحته من عجائب الامم المتوحشة . ثم نشر قصة (رينه) وقص فيها اخبار نفسه و بين افكاره وانفعالاته بسبب ما كشف له من الحقائق المزعجة . وامتاز بين الكتاب برونق الانشاء وكثرة التصورات والاحساسات وبشدة الهيام وفصاحة الكلام فراجت بضاعته في الادب ونشر حينئذ (حكمة الديانة المسيحية) واقبل على تدقيق هذا الدين وخرج لمشاهدة الاماكن التي ظهر فيها والبلاد التي انتشر بين اهاليها فساح في اقطار فلسطين وسوريا ومصر وبر الاناضول ونشر سنة ١٨٠٩ م كتاب (الشهداء) وبين فيه كيفية ظهور الدين المسيحي على الدين الوثني ونشر سنة ١٨١١ (دليل السياحة من باريس الى القدس) وعرف الفرنساويين بشؤون القرون الوسطى بعد ان كان ادباؤهم مشغوفين بتعريف القرون الاولى وبتقليد ادباء اليونان والرومان . وكانت جريدة الدبا المشهورة بحسن الانشاء وجودة التحرير حديثة الظهور فاقبل على التحرير فيها وبرع في قوة التصوير والوصف والتلوين وكان لكلامه تأثير على النفوس فصار لمؤلفاته دخل كبير في ظهور اساليب الطريقة الرومانية . ودخل شاتوبريان الوزارة الخارجية وتعين سفيراً ثم ناظراً للخارجية

اما المادام دوستايل فهي بنت الوزير نيكر الشهير . اشتغلت بالعلوم والمعارف كما هي عادة سيدات النساء في ذلك العصر ونبغت في فنون الادب واصبحت عالمة فاضلة يشار اليها بالبنان . فحررت سنة ١٨١٠ م كتاباً مفيداً عن المانيا . وكتبت عن الادب باعتبار ماله من العلائق بتشكيل الهيئة الاجتماعية . فدرست درساً فلسفياً ادب اليونان واللاتين . وبينت مدخل الدين المسيحي في تقريب عقول اهل الشمال من عقول اهل الجنوب . وذكرت الخواص المميزة لكل من الادب الطلياني والاسباني والانكليزي والالماني . وما لكل منها من العلائق بالفكر السياسي والادبي . وشرحت تأثير الدين والاخلاق والشرائع على فنون الادب . واستنتجت من تدقيقاتها العميقة ان الفكر البشري تابع لناموس الارتقاء مع المعاني الاخلاقيه والفلسفية والعلمية والسياسية . . . . . . الخ ولكنه لم يتبع ناموس هذا الارتقاء في التخيلات الشعرية ولا في التصورات الخيالية . فعندها ان الشاعر كاوميروس مثلا لا يذهب رونق

كلامه وطلاوته ولا في عصر من العصور ولا يسمح به الدهر مرة اخرى

ثم ظهر لامارتين الشاعر السياسي الشهير ونظم ديوان التفكرات الشعرية فكان اول بناء من ابنية الشعر الجديد الموسيقي (ليريك) وخالف فيه اساليب من تقدمه كما خالف المتنبي اساليب الشعراء الجاهلية . واشتمل ديوان لامارتين على تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد وعلى استغراقات في الحب وتجليات لطيفة و وصف مظاهر الكون وعالم الطبيعة وصفاً بديعاً . ومن أحسن ما نظمه قصيدة (البحيرة) التي ترجمها نظماً للسان العثماني سعدالله باشا سفير الدولة العلية في فيانا و باريس سابقاً . وفهمت بان احمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم القصيدة المذكورة للعربية . وساح لامارتين في الشرق وأحسن عليه ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان بمزرعة (جفتلك) في ولاية ازمير فمكث فيها وفي ربى لبنان وحرر سياحته الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية في ثمانية مجلدات ونظم ديوان الالحان الشعرية والدينية وغيرها

تاريخ اللغة العربية

باعتبار انها كائن حي نام خاضع لناموس الارتقاء

٣ — الالفاظ الادارية في الدولة العربية

كانت مصالح الدولة قبل الاسلام عبارة عن مناصب كبار الامراء من قريش في الكعبة كالسدانة والسقاية والرفادة والقيادة والمشورة والاعنة والسفارة والحكومة والعمارة وغيرها وكلها عربية يدل لفظها على معناها . فلما ظهر الاسلام وفتح المسلمون الشام والعراق ومصر وفارس انشأوا على انقاض دولتي الروم والفرس دولة دوّنوا فيها الدواوين ونظموا الجند وسنوا القوانين على ما اقتضاه تمدنهم مما لم يكن له مثيل في جاهليتهم فاضطروا للتعبير عن ذلك الى الفاظ جديدة فاستعاروا بعضها من لغات القوم الذين أقاموا بينهم وخصوصاً الفرس واليونان والرومان واستعملوا لما بقي الفاظاً عربية حوّلوا معانيها حتى تؤدي معاني تلك الموضوعات كما فعلوا في الاصطلاحات الشرعية واللغوية . ولو شئنا الاتيان على كل ما حدث من تلك الالفاظ لما وسعه غير المجلدات فنكتفي بالامثلة

(الالفاظ الادارية العربية) : اول الالفاظ الادارية التي حدثت في الدولة العربية « الخليفة » فانها كانت تدل في الاصل على من يخلف غيره ويقوم مقامه بدون تخصيص ثم انحصر معناها في من يخلف النبي واول الخلفاء ابو بكر . ومنها صارت تؤدي معنى « السلطان يحكم بين الخصوم والسلطان الاعظم والحاكم الذي يستخلف عمن قبله » ويقال نحو ذلك في سائر مناصب الدولة كالوزارة والامارة والنقابة والكتابة والحجابة والشرطة ونحوها . فان الوزارة كانت تدل على المعاونة ثم تغير معناها باختلاف الدول واختلاف حال الوزراء فيها . ومثل ذلك « الكاتب » فقد رأيت في ما تقدم ان الاصل في دلالة « كتبَ » الحفر على الخشب او الحجر لانهم كانوا يكتبون بالحفر فلما كتبوا بالمداد صار معناها الكتابة المعروفة ولما ظهر الاسلام احتاجوا الى من يكتب السور فكان الذين يكتبونها يسمّون كتبة الوحي . وكان بعضهم يكتبون بين الناس في المدينة فلما تولى ابو بكر استخدم كاتباً يكتب له الكتب الى العمال والقواد ولما تولى عمر ودوّن الداوين استخدم الكتبة لضبط اسماء الجند واعطيائهم فصار الكاتب يدل على الكتابة والحساب . ولما استبد الكتاب في الدولة المصرية وغيرها صار الكاتب بمعنى الوزير . ويراد بالكاتب الآن العالم المنشىء

ومن ذلك لفظ « الدولة » فقد كانوا يريدون به « انقلاب الزمان والعقبة في المال والفتح في الحرب » ثم دلوا به على الملك ووزرائه ورجال حكومته ولم يكن لها هذه الدلالة قبلاً

و « الحجابة » تدل في الاصل على الستر والمنع فالحاجب الساتر او المانع فكان حاجب الخليفة من اصغر رجال الدولة فلما ضعف الخلفاء واستبد الحجاب صار معنى الحاجب عندهم مثل معنى الوزير

وقس على ذلك سائر مناصب الدولة كالامارة والشرطة والقضاء والحسبة والنقابة والامامة وغيرها من اصطلاحات الجند كالمسترزقة والمتطوعة والعلوفة والعسكر وضروب الحرب وابواب الهجوم كالزحف والكر والفر والبيات والكفاح والغرة . وصنوف الاسلحة كالدبابة والكبش والعرادة وغيرها ناهيك باصطلاحات الدواوين على اجمالها كقولهم الثغور والعواصم والاقليم والقصبة والعمل والولاية والضياع والحكومة والسكة والتوقيع والوظيفة والخراج والجزية والعشور والمرافق والصوافي والجوالي والجباية والوقف والمصادرة والمستغلات والصدقة والمكوس والمراصد ودار الضرب والضمان

والدفاتر والجرائد والخرائط والايغار والراتب والجاري والعطاء والماهية والبيعة والدعوة والختم والخطط والمطالعة والمؤامرة وغير ذلك كثير جدًا . فالالفاظ المذكورة عربية الأصل واكثرها كان معروفاً قبل الاسلام ولكن مدلولاتها تغيرت بتغيراحوال المسلمين بعد انشاء دولتهم اذ حدث بإنشائها معان جديدة اضطروا في التعبير عنها الى الفاظ جديدة فتوعوا مما عندهم اما عمداً أو عفواً فصارت الى ما هي عليه

« فالخراج » مثلاً كان معناها في الجاهلية الكراء والغلة ويدل ذلك على معنى ضرب الخراج في الاسلام فانهم كانوا يعدّون الارض ملكاً لهم وقد سلموها لاهلها على سبيل الايجار بالكراء فصار معنى الخراج بعد ذلك « ما وضع على رقاب الارض من حقوق تؤدى عنها » ثم صار الخراج مقاسمة او مساحة أو مسحاً او سقياً واكثرها الفاظ جديدة لمعان جديدة

و « الحكومة » كانت تدل في الجاهلية على الفصل بين المتخاصمين لانها مصدر حكَم اي قضى وتلك كانت أعمال صاحب الحكومة في الجاهلية ثم تحول معناها الى « ارباب السياسة او رجال الدولة »

و « السكة » في الاصل الحديدة المنقوشة التي كانوا يضربون عليها النقود ثم سميت النقود بها واشتقوا منها الافعال والاسماء لهذا المعنى

« والتوقيع » الاصل فيه « التأثير » من قولهم « وقع الوبر ظهر البعير توقيعاً اثر فيه » ثم استعملوه في الاسلام لما يوقعه الكاتب على القصص المرفوعة الى الخليفة او السلطان او الامير فكان الكاتب يجلس بين يدي السلطان في مجالس حكمه فاذا عُرضت قصة (عرضحال) على السلطان امر الكاتب ان يوقع عليها (يؤشر) بما يجب اجراؤه . ثم تحوّل معناها الى اسم علامة السلطان كالامضاء عندنا — وعلى نحو هذا النمط تحوّل معنى « الامضاء » اليوم الى التوقيع ومعناه في الاصل « التنفيذ » فكان توقيع السلطان على القصة عبارة عن أمر رجال الدولة في امضائها اي تنفيذ توقيعه ثم تحوّل معناها الى التوقيع اي وضع العلامة على الصكوك ونحوها

ومن هذا القبيل « الوظيفة » فان الاصل في معناها « ما يقدَّر من عمل وطعام ورزق وغير ذلك . ومنها وظّف عليه الخراج ونحوه اي قدّره » فاستعملها كتاب الدولة العربية لهذا المعنى مع بعض الانحراف فقالوا « وظّف الرجلَ توظيفاً عين له في كل يوم وظيفة » فالموظّف الذي يأخذ الوظيفة او الراتب . ثم توسعوا في لفظ الوظيفة فدلوا بها على المنصب

او الخدمة المعينة . والمشهور ان استعمالها لهذا المعنى من اصطلاحات هذا العصر ولكنه اقدم من ذلك كثيراً فقد استعملها لهذا المعنى جماعة من فحول الكتبة كابن خلدون في مقدمته والمقريزي في خططه وغيرهما . وتولد في أثناء تحول هذه اللفظة الى هذا المعنى الفاظ أخرى لتقوم مقامها في معناها الاول كالراتب والجاري والماهية (وهذه فارسية الاصل من « ماه » شهر والماهية الشهرية) — واستحدثوا لفظة أخرى للمنصب لم يكن لها هذا المعنى من قبل وهي « الخطة » فمعناها في القاموس « الارض التي تنزلها ولم ينزل بها نازل قبلك » و « الخُطة » بالضم « الخصلة وشبه القصة والامر والجهل » فاستعملوها بمعنى المنصب لعلاقة لا نعلمها — ومن ذلك قول ابن خلدون « الوزارة ام الخطط الاسلامية والرتب الملوكية »

انتقال اللفظ من معنى الى آخر : وانتقال الالفاظ من معنى الى آخر بلا علاقة ظاهرة بين المعنيين كثيرٌ في اللغة العربية ومنها الاضداد أي اللفظ ذو المعنيين المتضادين واسباب هذا الانتقال كثيرة يصعب تتبعها في كل ما نراه من الاختلاف في معاني اللفظ الواحد او مشتقاته لكننا نذكر اربعة منها على سبيل المثال

(۱) دخول كلمة أعجمية لفظها يشبه لفظ كلمة عربية فيجعلونها من مشتقاتها كما فعلوا بالبلاط بمعنى القصر فانهم اخذوها عن اللاتينية فاشبهت لفظ البلاط الحجر المعروف فجعلوها من مشتقات « بلط » ومن هذا القبيل « الشارع » بمعنى الطريق فقد عدّها صاحب القاموس من مشتقات « شرَعَ » واصل مادة الشرع والابتداء فاستعار عند وصوله الى لفظ « شارع » ان يحلل دلالتها على الطريق فقال « وهو الطريق النافذ الذي يسلكه جميع الناس صيغة فاعل بمعنى المفعول » وهو تكلف لا حاجة اليه لان اللفظة فارسية مركبة من « شاه » ملك و « را » طريق ومعنى الجملة الطريق الاعظم او الطريق الملوكي وهذا هو المراد بها عندنا

(۲) استعمال لفظين معاً لمعنىً ثم اهمال احدهما بالاستعمال التماساً للاختصار فيبقى الآخر للدلالة على ذلك المعنى مثل قولهم « ارتفاع » بمعنى جباية فيقولون « ارتفاع الدولة » و يريدون مقدار جبايتها اي مجموع دخلها . وليس في هذه اللفظة ما يلمح منه هذا المعنى ولاذكره لها القاموس . واصل هذه الدلالة انهم كانوا يستعملون ارتفاع مع لفظ جباية فيقولون « ارتفاع جباية الدولة » اي مقدار ما بلغت اليه جبايتها (من ارتفع السعر اي غلا) ثم اسقطوا « الجباية » للاختصار فظلت « ارتفاع » وحدها لتفيد ذلك المعنى . ومثل

ذلك قولهم « اشفى العليل » بمعنى « امتنع شفاؤه » اي ضد معنى المادة الاصلي (الشفاء) وسبب هذا التضاد ان « اشفى » من مشتقات « شفا » الواوية بمعنى الاشراف او الاقتراب وليس من مشتقات « شفى » اليائية كما اوردها القاموس . فكانوا يقولون « اشفى المريض على الموت » اي اشرف عليه ثم اختصروه فقالوا « اشفى المريض » لنفس هذا المعنى والتبس على صاحب القاموس اصل مادتها فعدّها من مشتقات شفى . وكذلك قولهم « عقد له » بمعنى « ولاّه » وليس في مادة « عقد » ما يقرب من هذا المعنى ولا رأينا في القاموس انها تستعمل لمعنى الولاية ولكنها كثيرة الورود في كتب التاريخ لهذا المعنى . والاصل في هذه الدلالة ان الخلفاء في صدر الاسلام كانوا اذا وجهوا جيشاً الى حرب عقدوا له الالوية وسلموها الى الامراء لكل امير لواء وكان توجيههم الى الفتح يتضمن معنى الولاية على البلاد التي يفتحونها . ثم صار الخلفاء بعدهم يعقدون ذلك اللواء للامراء عند توليتهم بعض الامارات فيقال « عقد له اللواء على البلد الفلاني » اي ولاّه اياه ثم اختصروها فقالوا « عقد له » — ولمثل هذا السبب يستعمل كتابنا اليوم « برهة » بمعنى الزمن القصير وهي تدل في الاصل على الزمن الطويل فالظاهر انهم كانوا يقولون « برهة قصيرة » او « برهة وجيزة » للزمن القصير ثم استعملوا برهة وحدها لهذا المعنى

(٣) تفرع اللفظ الواحد بالقلب والابدال الى الفاظ كثيرة تدل على تفرعات المعنى الاصلي . وامثلة ذلك كثيرة في اللغة لا حاجة الى ذكرها . ولكن قد يتنوع المعنى ويبقى اللفظ على حاله فيندر ان يهتدى الى سبب ذلك التنوع — ومن اغرب الامثلة على ذلك « جنّ » ومشتقاتها فانها تدل على معانٍ كثيرة ترجع الى ... الظلمة والاختفاء والجنون والجنّ والجنة » ولا يخفى ما بين هذه المعاني من التباين والتناقض . فلنتبع هذه اللفظة الى اصلها لعلنا نهتدي الى تعليل هذا الاختلاف :—

يظهر لنا ان هذه المادة قديمة في تاريخ اللغة بدليل وجودها في كل اللغات السامية وامهات اللغات الآرية . فهي في العبرانية والسريانية على نحو ما هي في العربية لفظاً ومعنىً . وفي السنسكريتية « جان » الروح وكذلك في الفارسية وهي في اليونانية واللاتينية تدلُّ على الولادة او التسلسل وهما من فروع المعنى الاصلي . و « جانا » في السنسكريتية « مسكن الارواح او الآلهة » ولعل هذا هو الاصل في دلالة لفظ « الجنّة » (الفردوس) في اللغات السامية ايضاً . ثم تنوقلت حكاية الخليقة عند الساميين اجيالاً قبل تدوينها فعرض في اثناء ذلك انتقالهم الى اعتقاد التوحيد فأثر هذا الانتقال على معنى تلك اللفظة وتحوّل الى

ما تعلمه . فلما كُتب سفر الخليقة كان المعنى الاول قد تنوسي من اللغة العبرانية فضاع كما ضاع معنى لفظ « عدن » . فجرَّ ذلك الى الرجم في تفسيرها بعد ذلك . اما في السنسكريتية فلفظ « أدن او عدن » معناه الاكل او الطعام — وربما كان هذا هو المراد بجنة عدن في حكاية سفر الخليقة لان الله خلق الانسان ووضعه في « جنة عدن » وغرس له فيها الاشجار ليأكل ومنعه من شجرة الخير والشر كأنه اقامه في جنة فيها اكلٌ . ثم ان دلالة مادة « جان » او « جن » على الروح في اللغات السامية لا يزال اثرها باقياً في لفظ « الجان » العربية والاصل في دلالتها « كل ما استتر عن الحواس من الملائكة او الشياطين » اي الارواح على اطلاقها . وكان اعتقاد الناس في سبب الجنون انه عبارة عن حلول تلك الارواح في المجنون فعبروا عن الجنون بلفظ مشتق من « الجان » فقالوا « جنَّ الرجل على المجهول زال عقله او فسد او دخله الجن » . ونظراً لاختفاء الارواح عن حواس البشر وخصوصاً عن انظارهم دلوا بتلك اللفظة على الظلمة والاختفاء او الاستتار فقالوا جنَّ الليل اظلم وجنه الليل ستره . فتعال بذلك تنوع معنى هذه اللفظة الى المعاني الخمسة التي ذكرناها . وكل ما يشتقات هذه اللفظة من المعاني يرجع الى احدها — وقس على ذلك

(٤) اكتساب اللفظ معنى جديداً من عادة شائعة كما اكتسب لفظ « بنى » معنى الزواج من ضرب القباب على العروس ليلة الزفاف وجملة « عقد له » معنى « ولاه » وقد تقدم ذكرها

وبالجملة فقد حدث في اثناء التمدن الاداري في الدولة الاسلامية نهضة عقلية احدثت تغييراً كبيراً في اللغة لفظاً ومعنىً . وليس ما ذكرناه الا امثلة قليلة

(الالفاظ الادارية الاعجمية) : اما الالفاظ الاعجمية التي اقتبسها العرب في اثناء انشاء دولتهم فكثيرة ايضاً نأتي بأمثلة منها — من اقدم ما اقتبسوه من الالفاظ الادارية الفارسية « الديوان » على عهد عمر بن الخطاب فانه اول من دوّن الدواوين في الاسلام فوضع الديوان على نحو ما كان عند الفرس واستعار له لفظه الفارسي . فاستعمله اولاً للدلالة على ديوان الجند فكانوا اذا قالوا الديوان أرادوا ديوان الجند فقط ثم اطلقوه على سائر الدواوين والحقوا به الفاظاً تميز بينها كديوان الانشاء وديوان العرض وديوان الضياع وديوان الخراج وهي كثيرة . ودلوا به على الكتاب الذي تدوَّن فيه اسماء الجنود فكانوا اذا قالوا فلان من اهل الديوان ارادوا انه ممن اثبتت اسماؤهم في ذلك الكتاب . ثم اطلق

الديوان على كل كتاب ثم انحصر في الدلالة على الكتب التي تجمع فيها الاشعار فاذا قالوا ديوان فلان أرادوا به مجموع اشعاره

وقس على ذلك كثيراً من الالفاظ الفارسية المتعلقة باصطلاحات الحكومة وخصوصاً الجند والاسلحة ونحوها كالخوذة والجامكية والجزية والدولاب والدانق ودهقان والدانق ورستاق وسباهي والبريد وزنديق وكسرى ونيشان وبائق والطراز ونحوها

والالفاظ اليونانية الادارية قليلة في اللغة العربية ومنها الاسطول والمنجنيق والدرهم والبطاقة والقنداق والكردوس والليان

واما الالفاظ اللاتينية فمنها البلاط (بمعنى قصر الملك) والدينار والدمستق . وربما ادخلوا الفاظاً تركية او هندية او كلدانية او نبطية او نحوها مما يضيق المقام عن استيفائه

حل المسألة الرياضية

حضرة منشئ الهلال الاغر

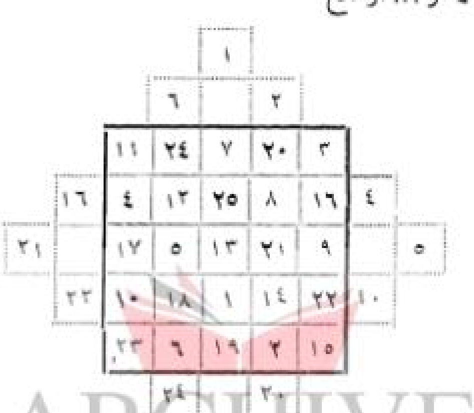
اطلعت على الاجوبة التي وردت على مسألتي المدرجة في الهلال الماضي عن وضع الاعداد من ١ — ٢٥ في مربع ذي ٢٥ عيناً بحيث تكون مجموعات الصفوف الاثني عشر متساوية . وقد بلغت هذه الاجوبة بضعة عشر جواباً اختلف كتابها في كيفية حل تلك المسألة . على ان بعضهم اخطأ المراد منها فاستخرج حلاً هو غير المطلوب . اما الذين أصابوا فقد اتفقوا في النتيجة واختلفوا في القاعدة — اتفقوا في وضع الاعداد في العيون المذكورة بحيث يكون مجموع أعداد كل صف من صفوف المربع المشار اليه ٦٥ واختلفوا في القاعدة المؤدية الى ذلك . على ان بعضهم حلوا المسألة ولم يذكروا قاعدة او ذكروا قاعدة غير تامة فأجوبتهم مخالفة لشروط السؤال وهم اربعة بهنام افندي مخائيل بالمراغة وطه افندي محمد كاتب دائرة احمد ابو الفتوح باشا في بلقاس وباسيلي افندي عبد النور بالاسكندرية ومصطفى افندي ابو زيد في الاقصر . وأما الذين ذكروا القاعدة فمنهم من بنى حله على اسباب حسابية فجمع الارقام من ١ — ٢٥ فبلغت ٣٢٥ قسمها على ٢٥ فالخارج ١٣ هو متوسط ما يجب وضعهُ في كل عين من عيون المربع . وان ٥ × ١٣ = ٦٥ وهو مجموع كل صف . فوضع العدد الاوسط

١٣ في العين الوسطى وتوخى وضع الارقام الباقية في العيون الاخرى بحيث يجتمع منها ٦٥ في كل صف من الصفوف الاثني عشر. وأصحاب هذه الطريقة اختلفوا في كيفية توزيع تلك الارقام ولم يجمعوا على قاعدة ثابتة . ولو أتموا التوزيع بناء على اسباب حسابية معقولة لكان فيها الجواب المطلوب في سؤالنا — لاننا طلبنا القاعدة ومرادنا قاعدة معقولة تغني عن طلب البرهان . وأصحاب هذه الطريقة اثنان اسكندر افندي سلامه خوجة رياضة بمدرسة مكرم بقنا وتوفيق افندي روفائيل قربه في طنطا — ومن الذين ذكروا طريقة الحل واحدٌ وهو أمين افندي طاسو بالاسكندرية بدأ برقم واحد وضعه في أول صف الاوسط من صفوف المربع وجعل الارقام التي تليه من الجانب والاعلى والاسفل بزيد بعضها بالعشرات وبعضها بالاحاد وبعضها بغير ذلك على طريقة مركبة تؤدي الى الحل المطلوب ولكنها غير مبنية على أسباب حسابية — ومنهم من جعل أساس الحل جملة معلومة يستعاض عن أوائل الفاظها بأرقام ترتب في عيون المربع بالتتابع والنتيجة صحيحة لكنها غير مبنية على سبب حسابي . وصاحب هذا الحل محمود افندي سيد احمد بالمنيا. ومنهم من ذكر قاعدة استخرجها من علم الاوفاق وهي ابسط الطرق واضبطها ولا تحتاج الى اعمال الفكرة وأصحاب هذا الحل اربعة عبد الرحمن افندي الطوير بمدرسة الحقوق الخديوية ومحمود افندي شريف بمكتب التلغراف بقنا واسماعيل افندي فهمي مدرس الرياضة بمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية في اسيوط ويوسف افندي ديانه بمصر . واليك مثال من هذا الحل في مربع عيونه ٢٥ عيناً (انظر الشكل في الصفحة التالية)

ارسم على كل جانب من جوانب المربع المذكور صفوفاً يقل كل صف منها عينين عن الصف الذي تحته فيكون عدد الصفوف الخارجة اثنين من كل جانب في مربع عيونه ٢٥ عيناً وثلاثة في مربع ذي ٤٩ عيناً وأربعة في ذي ٨١ عيناً — فاذا رسمت هذه الصفوف كما تراها في الشكل ضع الارقام من ١—٢٥ في عيونه مبتدئاً بالواحد في العين العليا المفردة ومنها بانحراف نحو اليسار ترتب الارقام بالتسلسل فتنتهي بالخمسة في آخر الصف الاول المنحرف ثم ابدأ بالستة من اول الصف المنحرف الثاني وتتبع عيونه الى آخرها وفيها الرقم عشرة . ثم ابدأ بالحادي عشر



من اول الصف الثالث وهكذا حتى ينتهي الصف الخامس بالرقم ٢٥ فاذا فرغت من ذلك انقل مافي الصفوف الخارجة الى أبعد مايقابلها من العيون الخالية في وسط المربع كانك تنقل تلك الصفوف من الجانب الواحد وتضمها كما هي بجانب الصفوف التي تقابلها من الجانب الآخر القاعدة بازاء القاعدة . فاذا فعلت ذلك تمتلئ عيون المربع الاصلي وتكون مجموعاتها من كل ناحية متساوية و يفعل نحو ذلك في كل مربع مفرد مهما يكن عدد عيونه ٤٩ او ٨١ او الخ



فالقاعدة الاخيرة أبسط القواعد وأضبطها ولكنها خالية من كل برهان لان العقل يطلب السبب في رسم تلك الصفوف خارج المربع وترتيب الارقام على تلك الصورة وهذا مادعانا الى نشر هذا الاقتراح . على اننا نعتبر هذا الحل جواباً لاقتراحنا لاننا لم نقيد طلبنا هناك بذكر البرهان . واما الجائزة فهي لحضرة عبد الرحمن افندي الطوير لانه السابق في ارسال حله فليرسل من يعتمده الى ادارة الهلال فنسلم اليه روايات منشئ الهلال كلها — وفي الحقيقة اننا لانزال نعدُّ المسألة غير محلولة حتى نرى برهانها . فنقترح على حضرات القراء الآن ذكر الاسباب الرياضية التي يبنى عليها العمل في حل هذه المسألة . وقد جعلنا روايات منشئ الهلال جائزة أخرى لمن يسبق الى ايراد ذلك البرهان

مصر حبيب غبريل

باب السؤال والاقتراح

الراديوم

(القاهرة) حسن افندي محمد العامري

قرأت كثيراً مما كتبته الجرائد الافرنجية والعربية عن الراديوم ففهمت من مجمل ما هنالك انه معدن ذو قوة شديدة وانه احدث في الآراء العلمية انقلاباً عظيماً ولكنني لم أفهم كيف عرفوا تلك القوة ولا ما هو ذلك الانقلاب الذي حدث وقد عودتنا الهلال بسط الآراء العلمية وتقريبها من الافهام ولو كانت من قبيل الفلسفة العالية فهل لكم ان تبسطوا لنا امر هذا المعدن الجديد

(الهلال) ما فتئ الانسان من اول عهده يبحث عما يحيط به من الموجودات واصلها ومصيرها واقدم الاقوال في أصل هذه الموجودات رأي الفيلسوف طاليس اليوناني من اهل القرن السادس قبل الميلاد وخلاصته ان الماء اصل الكائنات على اختلاف مظاهرها . ثم انتقلوا الى العناصر الاربعة (الماء والهواء والنار والتراب) فقالوا انها هي الاصل وان من تركيبها بعضها مع بعض على نسب متفاوتة تتولد الموجودات كلها ثم ظهرت آراء أخرى لا فائدة من ذكرها . حتى اذا أشرق التمدن الحديث وصار اعتماد العلماء على التحليل والتركيب توصلوا الى ما هو أساس الكيمياء الحديثة — وخلاصة ذلك ان الارض وما عليها وكل ما تصل اليه ابصارنا و بصائرنا من الاجرام مؤلفة من مواد بعضها بسيط وبعضها مركب والمركب ينحل الى مواد بسيطة لا تقبل الانحلال فالحديد مثلاً معدن بسيط لا يقبل الحل وهكذا أيضاً الذهب والفضة وكثير من المعادن ولكن الماء مركب من عنصرين هما الاوكسجين والهيدروجين والملح مركب من عنصرين هما الكلور والصوديوم والخشب مركب من عدة عناصر منها الكربون (الفحم) والهيدروجين والاوكسجين وغيرها . والحجر الكلسي مركب من كربون واوكسجين وكلسيوم وقس عليه كثيراً من المواد التي نظنها بسيطة وهي مركبة من عدة مواد والمواد

البسيطة تسمى باصطلاح العلماء الطبيعيين عناصر

وقد أحصى العلماء العناصر البسيطة التي تتألف من تركيبها بعضها مع بعض سائر مظاهر المادة فاذا هي نحو سبعين عنصراً معظمها جامد وبعضها غاز أو سائل

ولما وصلوا الى هذه النتيجة طلبوا الزيادة فعمدوا الى البحث عن حقيقة تلك العناصر وخصوصاً لما تبين لهم من اختلاف تركيبها وتحليلها باختلاف اوزانها ومقاديرها . وقد فصلنا ذلك في باب « اركان العلوم الطبيعية » في السنة الثالثة من الهلال — وخلاصته ان العناصر المذكورة لا تتركب بعضها مع بعض الا على نسب معينة جرماً ووزناً . فجرهم ذلك الى القول بالرأي الجوهري وهو : ان العناصر مؤلفة من اجزاء صغيرة جداً لا تدرك الا بالوهم تسمى الجواهر الفردة وعلى خواص هذه الجواهر تتوقف خواص العناصر المؤلفة منها . ولهذه الجواهر صفات عامة تشمل كل جوهر من جواهر المادة وصفات خاصة تختص بجواهر كل عنصر على حدة . فصفاتها العامة هي (١) انها غير قابلة للانقسام او التجزؤ (٢) انها متساوية حجماً (٣) انها سابحة في مادة لطيفة جداً يقال لها ايثير (٤) انها لا تتماس . والصفات الخاصة ان لجواهر كل عنصر وزناً خاصاً بها هو وزنه الجوهري الذي يتركب به مع العناصر الاخرى فوزن الجوهر الفرد من الهيدروجين واحد ووزن الجوهر الفرد من الكلور ٣٥ ½ ووزن الجوهر من الصوديوم ٢٣ وهكذا في سائر العناصر . فاذا تقرر ذلك اتضح لنا معنى تركب العناصر بعضها مع بعض بأجرام محدودة وأوزان محدودة . فتركب ٣٥ وزناً ونصف وزن من الكلور مع ٢٣ وزناً من الصوديوم عبارة عن تركب جوهر واحد من الكلور مع جوهر من الصوديوم . فارتاح العلماء الى هذا الرأي وعللوا به معظم الظواهر الكيماوية ولكنهم طلبوا الزيادة ايضاً فتوغلوا في درس هذه الجواهر وراقبوا خصائص المواد وتركيبها وتحليلها . ونظراً لميل العقل الى التوحيد المطلق قالوا ان العناصر التي ندعوها بسيطة ونظنها غير قابلة الحل الى ما تتألف هي منه لا يبعد ان تكون مركبة من عناصر ابسط منها وربما رجعت كلها الى عنصر واحد بسيط في غاية اللطافة هو المادة الاصلية . ومن تركب جواهره بعضها ببعض على نسب مختلفة تتكون العناصر العديدة . فاصبح مرجع المواد عندهم الى مادة واحدة . ثم نظروا مثل هذا النظر في القوى الطبيعية وهي النور والحرارة والكهربائية والمغنطيسية والجاذبية فوجدوا انها ترجع الى قوة واحدة تختلف مظاهرها باختلاف الاحوال لانها تتحول بعضها الى بعض بسهولة . فاضطروا الى تعليل ذلك التحول واسبابه فرجعوا

الى الرأي الجوهري فقالوا ان القوة عبارة عن حركة في جواهر المادة وتختلف ظواهرها بين ان تكون حرارة او كهربائية او نور باختلاف نوع تلك الحركة بين ان تكون اهتزازية او دورانية او خطرانية او غيرها

ذلك هو رأي العلماء في المادة والقوة اي ان المادة ترجع الى الجواهر الفردة والقوة عبارة عن تحرك تلك الجواهر . وما زال هو الرأي المعول عليه الى أواخر القرن الماضي حتى اكتشفت أشعة رنتجن سنة ١٨٩٦ في عرض ابحاثهم في خصائص الاشعة الكهربائية (راجع الهلال الاول من السنة العاشرة) فبينوا من ذلك وغيره ان في المواد أشعة غير منظورة لها تأثير كياوي وطبيعي وانها تختلف قوة باختلاف المواد ومن اقواها الاورانيوم وانها تنتقل في الفراغ . فعمدوا الى تعليلها على جاري عادتهم في الحقائق الجديدة فلم يستطيعوا ذلك الا بتغيير الرأي الجوهري المتقدم ذكره . فارتأوا ان الجوهر مؤلف من اجزاء صغيرة سموها « اليكترون » . وكان تقديرهم لحجم الجوهر ان قطره جزء من مئة مليون من القيراط اي اذا صف مئة مليون جوهر الواحد بازاء الآخر شغلت مسافة قيراط واحد . وان في ذرة الليكوبوديوم تريليون من تلك الجواهر (اي ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) واما الالكترون فان مئة الف منه اذا تراصت لا يزيد طول أقطارها معاً على قطر جوهر واحد . ونسبة حجم الالكترون الى حجم الجوهر كنسبة واحد الى مئة مليون مليون $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ او كنسبة حبة رمل الى الهرم الكبير — وان الالكترونات المذكورة عبارة عن آحاد كهربائية بعضها سلبي وبعضها ايجابي وان السلبية منها في استعداد للاندفاع فاذا سنحت لها الفرصة افلتت وذلك هو الاشعاع المتواصل في المادة . وهو ينافي الرأي الجوهري لان الجواهر الفردة على الرأي الجديد مؤلفة من القوة فالقوة بهذا الاعتبار هي اصل الوجود . وما المادة الا ظاهرة من ظواهرها مما لا نبحث فيه الآن . وانما المراد الوصول الى علاقة ذلك بالراديوم

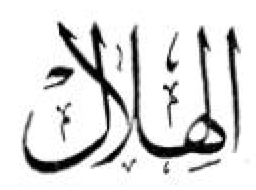
ذهب العلماء الى القول بالاشعاع المذكور بعد اكتشاف اشعة رنتجن مما شاهدوه في الاورانيوم من ظواهر الاضاءة لان المادة المذكورة من خصائصها اذا عرضت على النور ثم حملت الى الظلمة اضاءت ضوءا خفيفاً كما تضيء المواد الفصفورية في الظلام وكانوا يظنون سبب تلك الاضاءة ما تمتصه الاورانيوم من النور . ثم وجد الموسيو بكريل سنة ١٨٩٦ ان الاورانيوم وكل مركباته تضيء من نفسها فكان لذلك الاكتشاف تاثير كبير لانه

يطابق رأيهم الجديد وواصلوا البحث لعلهم يكتشفون ما يؤيد هذا الرأي

واتفق منذ بضعة اعوام ان سيدة اسمها مدام كوري من تلميذات مدرسة الطبيعيات والكيمياء في مدرسة البلدية في باريس اتمت دروسها وطُلب منها على جاري عادة المدارس عندهم ان تؤلف كتاباً في بحث جديد قبل استلام الدبلوما . فجعلت موضوع ذلك البحث الاشعاع المذكور في المعادن وخصوصاً الاورانيوم . فوجدت في بعض اكاسيده المستخرجة من مناجم بوهيميا قوة على الاشعاع اكثر مما في معدن الاورانيوم نفسه . فخطر لها ان يكون سبب تلك القوة مادة غريبة تخالط ذلك الاكسيد اقوى على الاشعاع منه . فعمدت الى استفراد تلك المادة بطرق كثيرة يطول شرحها وكانت كلما قلّت كمية الاورانيوم فيها زادت قوتها على الاشعاع حتى استفردتها خالصة فكانت قوتها على الاشعاع اعظم من قوة الاورانيوم مليون ضعف . لكنها لم تستطع بعد جهاد عظيم ان تستفرد منها الا عشر القمحة من طنّين كاملين من ذلك الاوكسيد . فعمدت الى درس خصائصها فعلمت انها معدن جامد وزنه الجوهري ٢٢٥ فسموه « راديوم » ومعناه الشعاع في اللاتينية . فلما اطلع العلماء على ذلك الاكتشاف اشتغلوا في استفراد الراديوم ودرسه وفي جملتهم جيزال الكيماوي الالماني الشهير فاستخرج من الطن اربع قمحات من بروميد الراديوم ـ واشار الاستاذ سويس على حكومة النمسا ان تصرح لمدام كوري في استخدام ماتريده من ذلك الاكسيد لان الثانية كانت تحول بينها وبين اقتنائه والاتفاق عليه . ثم اتحد الاستاذ كوري مع امرأته في البحث والتجربة . فوجدوا في السنة الماضية ان في الراديوم خاصية اشعاع الحرارة من نفسه بحيث يبقى احمى مما يحيط به درجةً او بعض الدرجة وانه يشع كهربائية . فازدادوا استغراباً واعجاباً وتوسموا في ذلك الاكتشاف نوراً يساعدهم على كشف كثير من غوامض الطبيعة — على انهم ابدوا به رأيهم الجديد في اصل المادة . واهمّ ما توهموه على اثر ذلك (١) تحوّل المادة الى قوة (٢) تحوّل العناصر بعضها الى بعض (٣) انحلال الجواهر الفردة الى قوة تنبعث الى كل الجهات . وكل ذلك آراء تخيلية لا عبرة فيها . وانما العبرة في ما هو ثابت من خصائص ذلك المعدن الجديد وما يتوقعون اكتشافه في المعادن الاخرى وسنرى ما يأتي به الغد

الابواب الاخرى

ضاقت صفحات هذا الهلال عن بابي عجائب المخلوقات و « المطبوعات الجديدة » فوعدنا الاهلة القادمة



الجزء العاشر من السنة الثانية عشرة

١٥ فبراير (شباط) سنة ١٩٠٤ و٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٢١

اشهر الحوادث واعظم الرجال

اكبر خان

مؤسس دولة المغول في الهند

ولد سنة ١٥٤٢ وتولى سنة ١٥٥٦ وتوفي سنة ١٦٠٥ م

(عظماء الشرق) ليس بين قرائنا من لا يعرف شيئاً عن بونابرت والاسكندر ويوليوس قيصر وواشنطون وغيرهم من قواد أوربا وأميركا وعن ارسطو وسقراط وداروين ونيوتن واديسون وغيرهم من علمائها حتى تلامذة المدارس فانهم يتعلمون تراجم عظماء المغرب قبل خروجهم منها وقلما نرى حتى بين محبّي المطالعة ورجال الادب بيننا من يعرف شيئاً عن نادر شاه وتيمور لنك وجنكز خان واكبر خان وعباس شاه وغيرهم من نوابغ المشرق وقواده وهم لا يقلون عن قواد المغرب بسالة وسياسة وحزماً وفيهم من يفوق هؤلاء من وجوه كثيرة . فيجدر بنا ونحن من أبناء المشرق ان ننشر مآثر رجاله وأعمالهم وقد نشرنا في ما تقدم من سني الهلال ترجمة

نادر شاه الفارسي الملقب بنابوليون الشرق وترجمة تيمورلنك الفاتح المغولي العظيم ونحن ذاكرون في مايلي ترجمة اكبر خان القائد المغولي العظيم مؤسس دولة المغول في الهند وهي من اعظم دولها وأطولها عمرًا

﴿ الهند ﴾ حظ الهند من التاريخ مثل حظ مصر فانها ما برحت مطمحاً لانظار الامم الفاتحة من أقدم أزمنة التاريخ وكانت قبل زمن التاريخ يسكنها قبائل همجية يشبهون سكان وادي النيل في ذلك الزمن فهبط عليهم من أعالي الافغان جبلٌ من البشر أقوى منهم بدناً وعقلاً يقال لهم الآريون اخوان الاريين الذين عمروا أوربا . فاحتلوا الهند واستبدوا في أهلها وغيروا شؤونها وانشأوا فيها الديانة البرهمية وسنوا الشرائع — كما هبط الساميون من اسيا على وادي النيل وأسسوا دول الفراعنة وانشأوا التمدن المصري القديم

وفي القرن الرابع قبل الميلاد جاءها الاسكندر فاتحاً فاخترق الهند حتى البنجاب وأسس فيها مدائن كثيرة ثم قفل راجعاً . فلما مات الاسكندر ذهبت شوكته منها وحاول خلفاؤه السلوقيون في سوريا اخضاعها فلم يفلحوا . وفي القرن الثاني للميلاد زحف المغول والاسكثيون على الهند فتغلبوا على البنجاب ولكن قدمهم لم ترسخ في البلاد لان أهلها الهنود والاريين كانوا يكرهونهم ولكنهم أقاموا بينهم وظلوا يتقاطرون اليها فأصبح أهل الهند في أوائل النصرانية خليطاً من الهنود والاريين والاسكثيين وقد انقسمت الى ممالك وامارات يحكمها أمراء متفرقون

فلما ظهر الاسلام وتوغل المسلمون في الفتح كانت الهند من جملة مرامي نبالهم ومغارس اعلامهم فهاجموها مرارًا فلم يتيسر لهم فتحها الا في أواخر القرن الاول للهجرة في كهولة الدولة الاموية . ففتحوا السند وجبوا خراجها ثم خرجت من أيديهم في أوائل العصر العباسي حتى اذا استفحل أمر السلطان محمود الغزنوي ابن سبكتكين في أواخر القرن الرابع للهجرة غزاها اثنتي عشرة غزوة ففتح منها بلاداً لم يفتحها غيره من المسلمين وكان حيثما نزل كسر الاصنام ونشر الاسلام حتى تجاوز البنجاب وكشمير

وتوالى على الهند بعد الدولة الغزنوية عدة دول من المسلمين اكثرها صغيرة

ولم يمتد سلطانها الا على بقع صغيرة لمدات قصيرة . واكبر الدول الاسلامية التي تولت الهند بعد الغزنوية الدولة الطغلاقية التركية من سنة ١٣٢٠ م الى ١٤١٤ م والدولة المغولية او التيمورية من سنة ١٥٢٦--١٨٥٧م ومؤسسها واكبر ملوكها «اكبرخان» الذي نحن في صدده

﴿ نسبهُ ﴾ هو من سلالة تيمورلنك القائد المغولي الشهير . فان هذا الرجل العظيم اسس في اواخر القرن الرابع عشر دولة واسعة الاطراف في اسيا انقسمت بعد موته الى اقسام حاول حفيدة ابو سعيد لم شعثها فبادرته المنية سنة ١٤٦٩ فاختلف اولاده على اقسامها فاصاب ثالثهم عمر شيخ مرزا امارة فرغانة او خوكند وراء النهر . ومن اولاد عمر شيخ شاب اسمه بابر (الاسد) خلف اباه بعد موته سنة ١٤٩٤ وهو في الثانية عشرة من عمره وبعد حروب كثيرة افتتح سمرقند عاصمة مملكة تيمور سنة ١٤٩٧ ثم فتح كابول سنة ١٥٠٤ وما زال يتقوى ويتأهب وعيناه طامحتان الى الهند وكانت في حوزة العائلة الاودية الافغانية وملكها يومئذ ابراهيم اللودي . فحاربه سنة ١٥٢٦ في سهل بانيت حرباً قضت على دولته هناك . ثم حارب بابر امراء آخرين في حديث يطول شرحه حتى انتهى الى ملتان في جنوبي البنجاب والى بهار في وادي الكنج . وتوفي بابر سنة ١٥٣٠ ومملكته تمتد من نهر آمو في اواسط اسيا الى ضفاف الكنج في اسافل البنكال . فخلفه عليها ابنه «همايون» ونصب عينيه ان يثبت قدمه فيهاضد الافغانيين حكام دهلي وأن يتم مشروع ابيه في فتح الهند فحاربهم مراراً . وكان له ولد اسمه «اكبر» تولى قيادة أهم تلك المواقع وهو في الرابعة عشرة من عمره وغلب الافغانيين في سهل بانيت المذكور سنة ١٥٥٦ فقضت تلك الواقعة بخروج الدولة من الافغانيين الى المغول ولم يعش همايون بعد ذلك الأشهراً قليلة فخلفه ابنه اكبر صاحب الترجمة وهو لا يزال غلاماً

﴿ اكبرخان ﴾ قد رأيت مما تقدم ان جد اكبر واباه (بابر وهمايون) شرعا في استعمار الهند وقد تركا له اتمام ذلك العمل العظيم ولم يكن في حوزته من الهند عند وفاة والده الا بعض مملكة البنجاب . فأعمل اكبر سيفه ورأيه حتى توفق الى

انشاء مملكة كبيرة — ولما توفي والده كان اكبر يحارب الافغانيين في بعض انحاء البنجاب وقائد جند المغول رجل تركي الاصل اسمه بيرام كان همايون يجله لما نال من النصر على يده . فلما توفي همايون وأكبر لا يزال غلاماً تولى بيرام الوصاية عليه ولقبوه «خان بابا» اي والد الملك فلما بلغ اكبر أشدّه شعر بثقل تلك الوصاية فأراد خلعها بالقوة فانتشبت الحرب بين الرجلين وانقضت باندحار بيرام ثم جاء مستغفراً فعفا اكبر عنه وأجرى له رزقاً واسعاً فأحب العزلة والانقطاع الى الصلاة والتقوى فاغتاله وهو مسافر الى الحج رجلٌ أفغاني وقتله انتقاماً لوالده وكان بيرام قد قتله في بعض المواقع

فاستقل اكبر في الملك ونفسه تتطلب الفتح . وكانت بلاد الهند منقسمة الى امارات صغيرة بعضها اسلامية وبعضها برهمية وقد استفحل النزاع فيما بينها فوضع نصب عينيه ان يجعلها مملكة واحدة تحت لوائه . وكان المسلمون الاتراك والافغان الذين حكموا الهند قبل المغول قد نشروا الاسلام فيها وخلفوا امراء يحكمونها فتغلب اكبر على هؤلاء وجعل اماراتهم تابعة لمملكته وحارب الملوك الهنديين غير المسلمين من الراجبوت وجعلهم تحت سيطرته — غلب بعضهم بالحرب واكتسب البعض الآخر بالمحالفة ووطد علاقاته معهم بالمصاهرة وولاّهم اماراتهم وبالغ في اكرامهم فنصروه على مناظريه من المغول والافغان في اعالي الهند وفي البنكال

﴿ مناقبهُ ﴾ وكان اكبرخان رجلاً عظيماً حسن السياسة جديراً بتأسيس الدول عالماً بالاسلوب الذي يجب اتخاذه لتوطيد اركان الدولة . فلما استتب له الامر عمل على تقريب عظماء الهند منه فعهد اليهم من مناصب الدولة كالقيادة والامارة والوزارة اكثر مما يتوقعون فولىَّ ابن امير جيبور حاكماً على البنجاب وكان قد تزوج اخته وراجا مان سنغ احد اولاد الملوك الهنديين كان قد حارب عن اكبر في وقائع مهمة فولاه حكومة البنكال . وجعل وزيره على بيت المال اميراً هندياً اسمهُ راجا تودال مال وكان من اهل الادارة المالية فنظم الري في تلك البلاد . وكان قواد فرسانه ٤١٥ قائداً منهم ٥١ من الهنود . وفي تلك السياسة ما يشبه تصرف العرب المسلمين في صدر الدولة العباسية اذ قربوا الفرس منهم وولوهم شؤون الدولة وقيادة الجند

ولكن اكبرخان زاد على ذلك اموراً لم يأتها العباسيون فأبطل الجزية التي كانت تؤخذ من غير المسلمين وساوى بينهم وبين المسلمين سياسياً ومدنياً . وكان في أثناء مروره ببلاد الهند قد شاهد بقاعاً كثيرة مهملة تحتاج الى حرث وزرع فبحث عن سبب الاهمال فاذا هو ناتج عن كثرة ما كانت تضرب به الحكومة قبله على الارض من الخراج الكثير حتى فضل الاهالي القعود على الاشتغال مجاناً للحكومة وموظفيها . فبعث رواداً ومهندسين زراعيين يتفحصون الاراضي ويدبرون شؤونها فقسموها الى أقسام بقدر محصول كل منها بنحو ٥٠٫٠٠٠ روبية يعهد بكل قسم منها الى واحد من ضباطه يسمى « كاروري » وكتاب بيت المال يرسلون هؤلاء الضباط الى تلك الاقسام ليعملوا فيها حرثاً وغرساً وريّاً ويستغلونها على نحو ماوضعه السلاطين الاكراد والشراكسة في مصر وغيرها من نظام الاقطاع او الالتزام

ثم نظر الى المسلمين فبذل العناية في ترقية شؤونهم فبنى لهم المساجد وقسمها الى رواقات تعلم فيها علوم الدين واكرم العلماء والاتقياء وخصوصاً الشرفاء الذين ينتسبون الى الصحابة الاولين . وظل مع ذلك على رفقه واحترامه الديانة الوطنية فلم يتعرض لاحد من البراهمة في شيء بل أظهر اهتماماً كبيراً في دياناتهم وأمر بترجمة كتبهم من السنسكريتية الى الفارسية ورغبهم في المحافظة على شرائعهم وآدابهم الا ما كان منها مخالفاً للآداب العمومية او نواميس الانسانية كالعذابات الشديدة التي كانوا يستخدمونها في اثناء المحاكمة وتضحية الحيوانات وتزويج الذكور قبل البلوغ . ولكنه لم يستطع ابطال احراق الارامل مع ازواجهن اذا ماتوا على انه أشار بابطاله وجعله اختيارياً

وعمد الى الادارة فنقل مركز الحكومة الهندية من دهلي الى أكرا وانشأ مدينة فتحبور سكري ليجعلها عاصمة لمستقبل الهند ثم عدل عنها الى اكرا وبنى كثيراً من الحصون والقلاع وخصوصاً في العاصمة . وقد امتدت مملكته من أواسط افغانستان في الشمال والغرب الى اوريسا على سواحل البحر البنكالي شرقاً والى السند جنوباً فأخضع الهند من اقصائها الى اقصائها وقسمها الى ولايات يحكم كلاً منها أمير أوزال مفوض في حكومتها عسكرياً ومالياً . وحكومة كل ولاية ثلاثة أقسام عسكرية

ومالية وقضائية وخاف ثورة الجند فنظمه على نظام جديد وأبدل ما كان يدفع اليهم من النقود باقطاعات جعل مرجعها الى العاصمة وجعل مجلس القضاء مؤلفاً من أمير عدل وقضاة في المدن الكبرى وفعل نحو ذلك في سائر المدن والقرى . ووضع نظاماً للمشور وتحصيلها يدل على ادارة وعدل

ومن جملة ادلة اعتداله ورفقه وسعة صدره انه كان يعقد في أيام الجمعة مجلساً يحضره أئمة الاسلام وكهنة البراهمة وعلماء النصرانية والمجوسية واليهودية و يأخذ في مذاكرتهم ومناظرتهم بلطف وتعقل و يصغي لما يوردونه من البراهين وكان شديد الاهتمام بذلك . ومما ذكروه في ترجمة حاله الرسمي بكتاب « اكبر نامه » مجلس عقد للمناظرة في الدين بين قسيس اسمه رديف وجماعة من ائمة المسلمين والفقهاء « الملأ » فجرى الجدال بسكون وتعقل ولم تمس كرامة الكاهن بكلمة وذلك يندر وقوعه حتى في ارقي الامم المتمدنة

﴿ دين جديد ﴾ على ان ذلك التساهل جره رويداً رويداً الى الشك في ديانته وتدرج الى وضع دين جديد استقصاه من مجمل ما كان يسمعه من براهين اهل الاديان الاخرى جعل اساسه اللاهوت الطبيعي وجعل نفسه داعياً الى ذلك الدين . فكان يسجد للشمس في كل صباح على مشهد من الناس باعتبار انها نائبة عن النفس المقدسة الحالة في الطبيعة . وكان الجهلاء من رعاياه يسجدون له رغم ارادته . فجر ذلك كله الى غضب اعوانه المسلمين لاعتقادهم ان تساهله في المناظرات جره الى الخروج من الاسلام . وزد على ذلك انه كان في جملة نسائه واحدة برهمية من اميرات الهند وأخرى مسيحية . فعجل ذلك على حياته فقضى سنيه الاخيرة والدسائس محدقة به من كل جانب واكثر الناس سعياً عليه اهله وذووه وخصوصاً ابنه سليم الذي تولى بعده وسمي جهان جير مع انه كان يحبه حباً شديداً . وفي سنة ١٦٠٥ توفي اكبر خان ودفن في ضريح في سيكاندرا بنوه له بشكل متوسط بين اضرحة البوذيين والمسلمين اشارة الى مذهبه المختلط . ولهذا الضريح احترام عظيم عند عظماء الامم فقد زاره اللورد نورثبروك السياسي الانكليزي الشهير حكمدار الهند سنة ١٨٧٣

وحمل اليه غطاء ثميناً غطي به الرخامة التي تغطي جثة ذلك القائد العظيم

﴿ علماء عصره ﴾ ونبغ في عصره جماعة من رجال العلم والفضل — ولا ينبغ هؤلاء الا في ظل العدل والحرية وكان اكبر خان يحب العلم والعلماء ويكره الادعاء والرياء. وكان مع حلمه ورقة جانبه لا يعفو عمن يرتكب احدى هاتين الرذيلتين وخصوصاً اذا ارتكب الغش في العلم — وممن اشتهر من العلماء في عصره خان اعظم مرزا ابن مرضعه وكان من رجال العقل والبحث وظل زماناً يحتقر رأي اكبر خان في الدين حتى حج مرة وعاد من حجه وهو مصدق لذلك الدين — وكان شاعراً له القصائد الكثيرة . ومما يؤثر من أقواله ما معناه « ينبغي للرجل أن يتزوج اربع نساء : فارسية لتحادثه وخراسانية لتدير بيته وهندية لتربي أولاده وتركية (من وراء النهر) ليستعين بها على تخويف الثلاث الاخر »

واشتهر في عصره أيضاً مرزا عبد الرحمن ابن بيرام خان وصيه القديم وكان عنده بمنصب خان خانان أي أمير الامراء وكان مع ذلك من رجال العلم يعرف اللغة التركية والفارسية والهندية ونقل كتاب مذكرات بابر من التركية الى الفارسية وهي لغة ديوان اكبر خان يومئذ — ومنهم المؤرخ نظام الدين احمد مؤلف « طبقات اكبري » وفيه سيرة اكبر خان وتاريخ أعماله . ومنهم المؤرخ السني عبد القادر بدوني مؤلف تاريخ البدوني المعروف بمنتخبات التواريخ ومنقح « تاريخ كشمير » وكان بدوني هذا من أهل الاطلاع الواسع قرأ على أشهر علماء ذلك العصر وقد نقل كتاب راماياتا و بعض كتاب مهابهاراتا من السنسكريتية الى الفارسية . ولكتابه « منتخبات التواريخ » منزلة رفيعة عند علماء التاريخ . ومن مشاهير العلماء الشيخ أبو الفضل مؤلف كتاب « عين اكبري » وكان من المقربين الى اكبر خان وكذلك كان أخوه فيضي وغيرهم

ومن مساعي اكبر خان في تنشيط العلم انه أنشأ مكتبة كبيرة جمع اليه أشهر الكتب واثمنها من أطراف مملكته ومن سواها — قال صاحب كتاب « عيني اكبري » انها كانت تقسم الى عدة أقسام وفيها كتب الشعر والنثر في اللغات الهندية والفارسية

واليونانية والقشميرية والعربية مرتبة في الاقسام المذكورة باعتبار لغاتها . وكانوا يقرأون هذه الكتب على اختلاف لغاتها بين يدي اكبر خان وكان شديد العناية في استماعها وتفهمها . فاذا وصل القارىء الى مكان وقد حان النهوض وضع اكبر بيده علامة في المكان الذي وصل اليه القارىء ليعود اليه في الغد . وكان يجيز القراء بالاموال والهدايا فلم يترك كتاباً تاريخياً أو فلسفياً الا سمعهُ وتدبره

والخلاصة فقد كان عصر هذا الرجل العظيم من العصور الذهبية في الهند مثل عصر المأمون في بغداد والحكم في الاندلس والسلطان سليمان في القسطنطينية وغيرهم من عظماء الرجال الذين خدموا العلم ونظموا الحكومات بعد أن مهَّد لهم أسلافهم الممالك بالسيف . أما اكبر خان فهو الفاتح وهو المنظم وهو المعلم فلا يشبهه من هذا القبيل الاّ نابوليون بونابرت

تاريخ اللغة العربية

باعتبار أنها كائن حي نام خاضع لناموس الارتقاء

٤ — الالفاظ العلمية في الدولة العربية

نريد بالالفاظ العلمية ما اقتضاه نقل كتب العلم والفلسفة الى اللغة العربية في العصر العباسي من الالفاظ الجديدة لتأدية ما حدث من المعاني مما لم يكن له مثيل في لسان العرب كالاصطلاحات الطبية والكيماوية والفلسفية والطبيعية والرياضية والفلكية والمنطقية وما الحق بذلك من اصطلاحات علم الكلام والتصوف ونحوهما . وشأن أهل العصر العباسي في نقل تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها مثل شأننا في نقل علوم هذا العصر من الفرنساوية والانكليزية والالمانية وغيرها . بل هم كانوا أحوج منا الى اقتباس الالفاظ الاعجمية وتنويع المعاني العربية لاستغنائنا عن كثير من ذلك بما وصل الينا مما اقتبسوه ونوَّعوهُ من تلك الالفاظ

ولم تقتصر تلك النهضة العلمية على تنويع الالفاظ وتبديلها ولكنها احدثت تنويعاً في التعبير يسهل علينا تصوره لكثرته في نهضتنا هذه مما سنذكره في حينه — فالتغيير الذي

مثل ذلك في النهضة العباسية ونقلة العلم يومئذ من غير اهل اللسان العربي . على أننا لو فحصنا لغة ذلك العصر وقابلنا بين عبارة كتب الطب والفلسفة وعبارة كتب الادب لرأينا الفرق بينهما واضحاً . واذا دققنا النظر في سبب ذلك الفرق رأينا عبارة اصحاب الفلسفة تمتاز بامور هي سبب ضعفها وركاكتها منها : (١) استخدام فعل الكون بكثرة على نحو ما يستعمله اهل اللغات الافرنجية (٢) كثرة الجمل المعترضة الشائعة عندهم (٣) الاكثار من استعمال الفعل المجهول (٤) استعمال ضمير الغائب « هو » بين المبتدا والخبر حيث يمكن الاستغناء عنه ٥ ادخال الالف والنون قبل ياء المتكلم في بعض الصفات كقولهم روحاني ونفساني وبرهاني ونحو ذلك مما هو مألوف في اللغات الارية ولا يستحسن في اللسان العربي

ومن التعبيرات التي اقتبسها العرب من اللغة اليونانية ما لم يكن لهم مندوحة عنها ولا بأس منها مثل تركيب الالفاظ مع لا النافية وادخال ال التعريف عليها كقولهم اللانهاية واللاأدرية واللاضرورة . ومن هذا القبيل صوغ الاسم من الحروف مثل قولهم اللمية والكيفية والكمية . وكذلك نقل الالفاظ من الوصفية الى الاسمية كقولهم المائية والمنضجة والخاصة . ومن هذا القبيل اقتباسهم بعض التعبيرات الفارسية الادارية مثل قولهم « صاحب الشرطة » و « صاحب الستار » وهو تعبير فارسي

٥ – الالفاظ العامة

كل ما ذكرناه من امثلة نمو اللغة العربية في العصر الاسلامي انما هو قاصر على تفرع الفاظها وتجددها بما اقتضاه الشرع والعلم والفلسفة والادارة والسياسة . وهناك تغييرات أخرى ناتجة عما طرأ على الآداب الاجتماعية من التغيير فضلاً عن التجارة والصناعة وما اقتضاه كل منها من تنوع الالفاظ العربية او اقتباس الالفاظ الاجنبية كاسماء الانغام الموسيقية والالحان وفروعها . غير ما اقتبسه المسلمون من العادات الاجنبية وما يتبع ذلك من اسماء الالبسة والاطعمة والاحتفالات مما تغني شهرته عن ايراده

وهناك تغييرات أخر اصابت الفاظ اللغة بغير داع من الدواعي التي قدمناها بل هي جرت في ذلك على ناموس الارتقاء العام القاضي على الاحياء بالتجدد والتنوع والتفرع لاسباب بعضها معلوم وبعضها غير معلوم . والغالب في هذا التنوع أن يكون بالانتقال من معنى كلي الى معنى جزئي او من معنى الى ما يشبهه او يتعلق به مما يعبرون عنه بالتوليد . فالالفاظ

المولدة هي التي احدثها المولدون بعد ان دوّنت اللغة وضبطت الفاظها في اوائل الاسلام . والالفاظ المولدة اكثر كثيراً مما يظن اللغويون بل هي تتولد على الدوام بلا انقطاع . وكل ما تقدم ذكره من الالفاظ الاسلامية والادارية والعامية والتجارية انما هو من قبيل المولد ولكنهم قلما يسمونها مولدة — وعندهم ان القاموس هو الحكم الاصل في العربي والمولد والعامي فما لا يذكره القاموس بين الالفاظ العربية عدوه عامياً او مولداً وحظروا استعماله . ولكن القاموس وحده لا يكفي للحكم في ذلك لانه لم يحوِ كل ما تناقلته ألسنة البلغاء وتداولته أقلام الكتاب ولا كل ما نطقت به العرب . وقد انتبه الى ذلك ائمة اللغة في العصر الاسلامي وما بعده ونبهوا اليه — قال ابن فارس « ان لغة العرب لم تنته الينا بكليتها وان الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير » وقال السيوطي « ومع كثرة ما في القاموس من النوادر والشوارد فقد فاته اشياء ظفرت بها في أثناء مطالعتي لكتب اللغة حتى هممت ان اجمعها في جزء مذيلاً عليه » فعدم ورود اللفظ في القاموس لا يدلّ دائماً على انه عامي او ضعيف . ناهيك بالفاظ كثيرة اكتسبت بالحضارة معاني جديدة لم يدونها القاموس لان الائمة اعتبروها من قبيل الالفاظ العامية ولكن الكتّاب استعملوها وفيهم المشاهير المشهود لهم بالبلاغة وسلامة الذوق :

فالاصل في معنى « البيت » في القاموس البناء المعروف والشرف والشريف . فكانوا يقولون بيت بني تميم اي شرفهم وفلان بيت قومه اي شريفهم وبيت القصيدة أحسن اياتها قال « والعامة تقول هو من بيت فلان اي من عائلته » مع ان استعمال البيت بمعنى العائلة مما تداولته أقلام البلغاء وفي مقدمتهم ابن خلدون وقد عرَّفه بقوله « البيت ان يعدّ الرجل في ابائه اشرافاً مذكورين تكون له بولادتهم اياه والانتساب اليهم تجلة في اهل جلدته » وقال « وكان بنو اسرائيل بيتاً من اعظم بيوت العالم »

و « الحضارة » الاصل في معناها سكنى المدن اي ضدّ البداوة فلما تحضَّر العرب وكثر الترف في مدنهم صار معنى الحضارة عندهم « التفنن في الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والفرش وغيرها » ويقال نحو ذلك في « العمران » فان اصل معناها من عمر الرجل في المكان سكن فيه ثم صارت تدل على معنى المدنية والحضارة . وهذا ما أصاب لفظ « التمدن » فانها من تمدن الرجل اي تخلق باخلاق اهل المدن ثم دلوا بها على مثل ما تدل عليه الحضارة او العمران او المدنية

وقد استعملوا « ركاب السلطان » بمعنى موكبه ولا تجد لهذه اللفظة هذا المعنى في

القاموس ولكن الكتاب استعملوها له · وكذلك « كافة » فقد نبه القاموس أنها تستعمل في مثل « جاء الناس كافةً » اي كلهم وانها لا تدخل عليها أل التعريف ولا تضاف · ولكن بلغاء الكتاب قد استعملوها في الحالين مراراً — قال ابن خلدون « لما كان الجهاد فيها مشروعاً لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام » وقال صاحب ادب الدنيا والدين « وفرض جميعه على الكافة كان اولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكافة »

ومن الالفاظ التي استعملها الكتاب القدماء واقتدى بهم كتابنا مع ان استعمالها يخالف قول القاموس تخصيص « القينة » بمعنى المغنية والاصل اطلاقها على الامة مغنيةً كانت او غير مغنية — و « المقراض » و « المقص » فان الاصل في استعمالهما بالمثنى لأنهما مقراضان ومقصان اي شفرتان فيقال « قرضته بالمقراضين » و « قصصته بالمقصين » وقلما نرى بين الكتاب القدماء أو المحدثين من يستعملهما كذلك بل هم يقولون قرضته بالمقراض وقصصته بالمقص · والاصل في « المأتم » الاجتماع على العموم ثم خصصوه بالاجتماع في مجمع النياحة · و « أرق » في الاصل للسهر في مكروه ثم صار عاماً

ومن الاستعمالات الجارية على أقلام الكتاب وهي خطأ باعتبار القواعد المدونة قولهم « بدأ به اولاً » والصواب « بدأ به أولُ » مثل قولهم قبلُ وحكمهما واحد · ومن هذا القبيل جمع حاجة على حوائج وعادة على عوائد وهما شائعتان عند الكتاب مع مخالفتهما للقاعدة · وكذلك جمع ريح على ارياح خطأ ولكن الحريري استعملها ومثله جمع ارض على أراضي وجمع الجواب على أجوبة · وقولهم « شتمه بثالث » غلط اذ لا يقال شتمه الا لثاني من الثلاثة والاصل في « القافلة » الرفقة الراجعة فصارت تطلق على الرفقة المسافرين ذهاباً او اياباً · وقس على ذلك تنوعات كثيرة يعدها القاموس خطأ وقد نبه الى خطأها جماعة من فطاحل البلغاء وألفوا في تصحيحها الكتب · واشهر ما ألفوه كتاب درة الغواص في اوهام الخواص لابي محمد الحريري صاحب المقامات وقد شرحها وعلق عليها كثيرون منهم ابن بري بن عبد الجبار النحوي المتوفى سنة ٥٨٢ هـ وابو عبد الله المعروف بحجة الدين الصقلي المتوفى سنة ٥٥٥ وابن المظفر المكي المتوفى سنة ٥٦٨ وابن الخشاب النحوي وابو بكر الانصاري واحمد الخفاجي المصري وغيرهم · وكل من هؤلاء اضاف الى ذلك الكتاب الفاظاً من هذا القبيل فاتت صاحب الدرة ونبهوا الى خطأ استعمالها · ومع ذلك فالطبيعة غلبت على آرائهم واقوالهم لان ما عدوه خطأ انما هو من نتائج النواميس الطبيعية التي لا بدَّ منها — سنة الله في خلقه

روسيا واليابان

قواتها العسكرية

روسيا

كانت الجندية في روسيا اختيارية الى ١٣ يناير سنة ١٨٧٤ فجعلتها الحكومة الزامية بأمر عال مؤداه ان كل روسي بلغ الحادية والعشرين من عمره يمكن تجنيده. ثم عدلت ذلك القانون في ١٣٠ كتوبر سنة ١٨٧٦ وفي ٢٦ يونيو سنة ١٨٨٨ ووضعت نظاماً جديداً مؤداه: ان الروسيين الذين يبلغون الحادية والعشرين من أعمارهم في كل مملكة الروس عددهم ٨٧٠,٠٠٠ رجل كل سنة يؤخذ منهم ٢٧٥,٠٠٠ للخدمة العسكرية تحت السلاح ويجعل الباقون في الرديف او في المستحفظين (زاباس) ومدة الخدمة العسكرية في روسيا اوربا خمس سنوات تحت السلاح و ١٣ في الرديف وخمس سنوات في الزاباس. وفي روسيا أسيا سبع سنين تحت السلاح وست سنين في الرديف. وفي القوقاس ثلاث سنين تحت السلاح و١٥ سنة في الرديف — لا فرق في ذلك بين النصارى وغيرهم من سائر الطوائف ولا يعفى من العسكرية عندهم غير الا كليروس والاطباء والمعلمين

وفي سنة ١٨٩٦ بلغ عدد الشبان الذين أدركوا الحادية والعشرين ٩٨٧,٩١٧ شاباً فيهم ٥٠,٦٤١ من اليهود و٣٦,٣٨٢ من المسلمين والباقون مسيحيون. أخذ منهم ٢٧٥,٢٤٧ للجندية تحت السلاح وتفرق الباقي في الرديف والبوليس وأُطلق بعضهم لعدم لياقتهم للخدمة

والقوزاق وهم فرسان الروس احدى عشرة فرقة تنسب الى أماكن اقامتها وهي دن وكوبان وتيرك واستراخان وأورنبرج وأورال وسيبيريا وسميرتسك وترانسبيقالا وأمور واوسوري. وهم ثلاث طبقات (١) الجندون تحت السلاح (٢) رديف تحت الطلب بخيولهم وأسلحتهم (٣) رديف تحت الطلب بأسلحتهم و بدون خيول. وقوزاق الروس

مشهورون لا حاجة الى وصفهم . ومن جملة مزاياهم انهم تدربوا على خوض المياه بخيولهم ولو كانت عميقة مخافة ان تحول الانهر دون وصولهم الى مواقع الحرب

والجند الروسي مؤلف من ٢٤ فرقة . والفرقة عبارة عن جنرال واركان حربه وطابوري مشاة وكوكبة فرسان والطوبجية وطابور مهندسين فضلاً عن قسم المحلات والمخازن . والفرقة مؤلفة من ١,٠٣٠ ضابطاً و٤٧,٦٥٣ جندياً و١٦,٩٦٥ جواداً و١٢٤ مدفعاً . ويلحق كل فرقة جنود من الرديف وأصحاب الحصون والبوليس ونحو ذلك — وتقدر قوات روسيا العسكرية في وقت السلم بنحو ٨٩٦,٠٠٠ منهم ٣٦,٠٠٠ ضابط . ومجموع ما يمكنها تجنيده في وقت الحرب ٤,٥٠٠,٠٠٠ رجل فيهم ٦٣,٠٠٠ ضابط

اما البحرية الروسية فتختلف عن بحريات سائر الدول بالنظر الى حال مملكة الروس الجغرافي . فهي تقسم بهذا الاعتبار الى اربع عمارات تختلف نظاماً وقوة اهمها عمارة البحر البلطيك او العمارة الغربية وللقيصر عناية خصوصية في تقويتها (٢) عمارة البحر الاسود وهذه لا يجوز لها الخروج الى البحر المتوسط الا في احوال مخصوصة . اعظم بوارج هذه العمارة تسمى « جورج الظافر » تليها « الرسل الاثنا عشر » و« القديسون الثلاثة » (٣) عمارة البحر الصيني وهذه تزايدت في العامين الأخيرين لحماية فرضتي فلاديفوستك وبورأرثر (٤) عمارة بحر قزوين لحماية المواصلات الحديدية بين باكو واوسون ادا ولمحاربة الفرس عند الاقتضاء

والبحرية الروسية آخذة في الازدياد منذ بضعة أعوام فقد كانت روسيا تنفق عليها نحو خمسين مليون روبل في العام فتزايد كل عام عما قبله وبلغت سنة ١٨٩٨ نحو ٩٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل فضلاً عن مخصصات أخرى لانشاء القلاع والحصون . ويبلغ عدد الرجال البحرية نحو ٣٢,٠٠٠ منهم ٢,٦٢٧ ضابطاً . وأما البوارج وسائر السفن فقد بلغت ٢٢٠ منها ٢٨ بارجة اكثرها من الدرجة الاولى وبعضها من الثانية والثالثة و١٤ دارعة لحماية الشواطئ و١٧ طرادة من الدرجة الاولى و١٢ من الثانية والثالثة و٤١ سفينة مدفعية و١٣٧ دارعة بين نسافة وغيرها

وقد انشأت روسيا في الاعوام الاخيرة عمارة سمتها العمارة المتطوعة سيكون لها شأن في حربها الاخيرة وهي عبارة عن ١٥ دراعة تشتغل في اثناء السلم بالتجارة فاذا احتاجت الدولة اليها سلحتها واستخدمتها . والسفن المذكورة تتراوح في أيام السلم بين اودسيا وفلاديفوستك وبوارثر تحمل تجارة الشاي بين الصين والبحر الاسود وقد يستخدمونها لنقل الجنود

اليابان

والجندية في اليابان أيضاً الزامية فكل ياباني بلغ السنة العشرين من عمره يمكن طلبه للخدمة العسكرية فيخدم سبع سنين منها ثلاث تحت السلاح والباقي رديف تحت الطلب . فاذا فرغ الجندي من مدة الرديف اصبح من المستحفظين ولا يزال كذلك خمس سنين أخرى . والجند الياباني مؤلف من الحرس الملوكي والفرق الست والجندارمة والبوليس والرديف والمستحفظين وهذه مقاديرهم في أيام السلم

١١,٢١٣	الحرس
٧٦,٣٥١	الفرق الست
١,٠٦٥	الجندارمة
٤,٥٧٧	البوليس
٨٣,٠٨٠	الرديف
١٠٤,٩٥٤	المستحفظون
٢٨١,٢٤٠	

هذا هو مقدار ما تستطيع اليابان تجنيده في حال السلم يضاف اليه ٢٩,٠٠٠ فرس . اما في زمن الحرب فربما استطاعت تجنيد نحو ١,٢٥٠,٠٠٠

وأما البحرية اليابانية فمؤلفة من ست بوارج من الدرجة الاولى و٤ لحماية الشواطئ و٢٣ طرادة و١٧ دارعة مختلفة وعمارة التوربيد عبارة عن ١٦ نسافة من الدرجة الاولى و٢٣ من الثانية و٢٨ من الثالثة غير ما ابتاعته بالامس على أثر ظهور خبر الحرب

صحة العائلة

الاشربة الروحية

لحضرة نعمة افندي ايليا الصيدلي القانوني في دمنهور

٢ — استعمال الكحول طبياً

يبحث الاطباء كثيراً في هذه الايام عن استعمال الكحول في الطب لان الموضوع مهم جدًّا واستعمال الكحول طبيا هو الحصن القوي الذي يلتجئ اليه شاربو المسكرات في الدفاع عن انفسهم . وما سماح الاطباء باستعماله منبهاً ومقوياً وحافظاً للقوى الحيوية ومجددها الا نقطة سوداء في جبين الطب اضعفت حجة القائلين بتركه . يقول زيد ان استعمال الكحول طبياً سبب ويلات كثيرة ويقول عمرو ان الامتناع عن معاطاة المشروبات الروحية تعصب وخيم . ومن اراد ترجيح احد القولين فلينظر الى ما كان منها مطابقاً للحقائق العلمية والنصوص العقلية والشعور العام فيقبله وما كان مناقضاً فيرفضه . وما من علاج يستعمل كاستعمال الكحول لانه يعطى صرفاً بهيئة مشروبات روحية ومركباً مع علاجات أخرى بهيئة صبغات وخلافها من الاستحضارات الاقرباذينية فضلاً عن وصفه باسماء مختلفة كالمنعشات والمقويات والمنوعات وخلافها

صفات الكحول الطبية : الكحول في المواد الطبية من المقويات للاعصاب والمنبهات والمقويات والمخدرات والمعرقات والمدرات البول والكاويات وبهذه الصفات العديدة ينخدع محبوه و يظنونه نافعاً في كل مرض . ولكن الخصائص الطبية لعقار ليست ملازمة له وا كيدة الفعل في الجسم بل هي دليل على الحالة التي يعمل بها الجسم نحو العقار . وغنيٌّ عن البيان ان الخصائص الطبية المذكورة الفاظ مترادفة للدلالة على امراض تطابقها يسببها الكحول في الجسم . فاذا قيل ان الكحول يفعل كذا وكذا يراد انه يسبب ذلك العمل في الجسم ونحن انما نعرف تأثير العلاج في الجسم المريض بملاحظة تأثيره فيه في حالة الصحة

قال بريرا الطبيب الكاتب الشهير « اذا وضعنا النباتات في الكحول اماتها سريعاً » وقال أيضاً « ان العلق اذا غمست في الكحول ماتت بعد دقيقتين او ثلاث وكذلك الضفادع والحيات » . وذكر ان قلب السلحفاة لا يزال ينقبض بعد استخراجه من جسمها مدة ساعات فاذا وضع في الكحول توقف عن الانقباض بعد دقيقة . والكحول اذا وضع على الاعصاب شلها واذا نزع العظم عن دماغ حمامة ووضع الكحول على المخ انتفضت واختبطت اختباط السكير واذا وضع بعضه في كاس ماء فيه جراثيم حية اماتها حالاً . واذا وضع على الجلد ولم يتبخر احدث حكاكاً قوياً او على غشاء العين المخاطي او غشاء الفم سبب تهيجاً عظيماً . واذا وصل الى المعدة صرفاً احدث حكاكاً والتهاباً وتقرحاً كما اثبت ذلك الدكتور رومون في تجاربه العديدة . اذا مزج بالدم قتل كرياته وزاد الشحم وأضعف الدم لسهولة مروره في الاوعية الشعرية وجمد الفيبرين وأخر العناصر المغذية في الحويصلات الحيوية . واذا كانت الكمية كبيرة تلون الدم الشرياني والوريدي لوناً داكناً وهو اللون الذي يمتاز به اشراف الانكليز ويعدونه دليلاً على شرف الارومة . ولكن الكحول لا يبقى في الدم لانه يخترق كل نسيج ويجتمع في انسجة الاعصاب اكثر مما في غيرها الا الكبد فانها تتناول القسم الاكبر منه حال وصوله الى المعدة بواسطة الوريد البابي . اما فعله على العصب فهو تقليل شعوره فمن غسلت اعصابه بالكحول يتعطل الحس فيها بالنسبة الى الكمية التي استعملت

فالكحول اذاً سم للنباتات وقاتل للعلق والضفادع والحيات الصغيرة ويهيج الجلد والاغشية المخاطية ويقتل الدم ويشل العصب وعليه فقد حكم الاستاذ كريستسن والدكتور بريرا والدكتور تيلر والاستاذ اورفيله وغيرهم من الثقات « ان الكحول سم حريف مخدر » وقال الدكتور سميث « الكحول سم للمراكز العصبية » وقال الدكتور باركر « اكدت الابحاث الفسيولوجية ان الكحول سم »

معاملة الفطرة الغريزية للكحول : الفطرة الغريزية تعامل الكحول معاملتها للسموم . اذا دخل الكحول المعدة احتقن غشاؤها المخاطي وأفرز المادة المخاطية دفاعاً عن نفسه وتزداد قوة الاوعية الماصة لتخرجه سريعاً من المعدة واذا وصل الى الدم

انتقل به حالاً الى الكبد فيسرع الكبد للتخلص منه فيصل ذلك الدم المسموم الى القلب فيعرفه حالاً فيحاول اخراجه فلا يقدر على ذلك رأساً فيجهد كل قواه بدفع الدم الى اطراف الدورة الدموية للاسراع في طرده بواسطة الاوعية المخصصة لطرد المواد الفاسدة ولذلك يقوى النبض وتكثر ضرباته . وأول الاوعية التي يصل الدم المسرع اليها الرئتان فتتفثانه بكميات كثيرة . ولذلك كانت رائحة نفس السكير كرائحة الخامير والكليتان والجلد يشاركان الرئتين بطرد الكحول وقد وجد في البول والعرق

والخلاصة ان الاعضاء المفرزة تتعاون كلها للتخلص من الكحول . ولا يعامل الطعام والمواد المغذية للجسم مثل تلك المعاملة فلو كان الكحول نافعاً او لازماً لما قابلته الفريزيات الحيوية بتلك المعاملة . اذا دخل المعدة تفاحة او كسرة خبز او كاس لبن (حليب) تحولت حالاً الى ماينفع الجسم فتنهضم وتتمثل وتختفي اي انها لا تعود تظهر مطلقاً كلبن او خبز او تفاح . اما الكحول فانه يدخل الجسم كحولاً ويتركه كما دخله ولا يزال على حاله وعوضاً من تحويله وهضمه يدع الجسم الى اخراجه باسرع واسطة كما يظهر من النفس بعد أخذه ولو باربع وعشرون ساعة وقد يبقى في الجسم طويلاً وقد استقطروه من دماغ احد السكيرين بعد شرب ست وثلاثين ساعة

واذا شرحنا الجسم بعد تناول الاطعمة الاعتيادية ووجدنا شيئاً منها في الدماغ او الكبد أو غيرها لحكمنا انها ليست طعاماً للجسم لانه لم يستعملها وكذلك فيما لو خرجت منه كما دخلت اليه . فالنتيجة التي لا بد منها ان الكحول ليس طعاماً ولا غذاء بل هو سم ناقع . قال الدكتور باركر « ليس الكحول غذاء ولا يجوز استعماله شراباً » . اما القائل بنفعه طعاماً فبنى قوله على عدم خروجه كله اذ يتأكسد بعضه ويظهر باشكال تدل انه قد طرأ عليه تغيير في الجسم . ولكن الكمية التي طرأ عليها التغيير قليلة جداً لا تزيد على ٤ دراهم في مدة ٢٤ ساعة . وزد على ذلك ان التغيير الكيماوي الذي يطرأ على الكحول في الجسم لا يدل على انه طعام لان مثل هذا التغيير يطرأ على الكينين والاستركنين ومواد اخري لا يسلم احد باخذها طعاماً والا فما هو نفع الطعام وماذا يقصد به ؛ والجواب ان الطعام يؤخذ لزيادة حرارة الجسم وقوته والتعويض عما

يتلف من الانسجة وقد ظهر ان الكحول لا يغذي عضواً من اعضاء الجسم بل هو لا يستطيع ان يحمل ما حمله قبلاً والسكير لا طاقة له على احتمال الاتعاب كغيره وحرارة الجسم تنخفض به فهو اذا غير نافع

هل يعطي الكحول قوة : ارتأى الاستاذ ليبك منذ بضعة اعوام ان الكحول « طعام تنفسي » اراد انه يحترق في الجسم فيولد حرارة وقوة. فسرّ السكيرون برأيه وظنوا أخذ قدح من المويسكي سبيلاً حسناً الى الطعام وأن الانسان اذا سكر وجد في نفسه قوة عظيمة. ولكنه لم يقم حجة فسيولوجية لاثبات هذا القول ولكنه استنتج من محبة جيرانه وسكان بلاده للبيرا والخمر والكنياك وشيوعه في كل الامم تقريباً انه لا بد من فائدة في استعمال الكحول فارتأى رأيه ايضاحاً لملاحظاته. وقد عني الاساتذة دوري وبرين ولالمند من كيماوي الفرنسيس في فحص رأي ليبك جلياً فاثبتوا ان الكحول يخرج من الجسم كما دخله بدون تغيير ولذلك لم يزد في قوته او حرارته

وقد بحث ايضاً الدكتور سميث فيما ذكره الكيماويون المار ذكرهم فرأى رأيهم وأعظم حجة جاءت لاثبات ما ذكر خلو الدم والمبرزات من رماده (نتيجة احتراقه) قال الدكتور سميث « ان عمل الكحول الصريح انما هو خفض قوة الاعصاب » وجاء في الجرنال الطبي الانكليزي « ان الحقائق مجموعة من تجارب العلماء تبرهن ان القوة الحيوية لا تزداد بفعل الكحول » وقال الدكتور تشيرس ان عمل الكحول الوحيد خفض قوة الاعصاب في الجسم » وقال الدكتور رتشاردسن « اذا كان فعل الكحول العام خفض الحرارة الحيوانية بسرعة فكيف يمكنه ان يزيد القوة » ويؤيد ذلك ايقافه اوجاع الجسم حتى لا يشعر بها . اما القائل بأنه يغذي ويقوي فهو خطاء عظيم فالالتجاء اليه التماساً للقوة كالبحث عن الشمس في ظلام دامس تحت الارض »

هل يفيد الكحول في التنبيه : اذا كان المراد بالتنبيه تقوية الجسم الضعيف فالكحول لا يفيد شيئاً للاسباب التي قدمناها أما اذا كان المراد تهييج العمل العصبي لظهور القوة فيكون الكحول منبهاً ولكن كما ينبه السوط او المهماز حصاناً متعباً فهو لا يزيده قوة ولا يقلل تعبه بل يبعثه على استعمال قوة اكثر من القوة المدخرة فيه لباقي حياته .

والكحول يهيج الغريزيات الحيوية بالملاصقة لبعض الانسجة و يضطرها بناموس المدافعة عن النفس ان تزيد عملها لطرد السم الى خارج الجسم وهذه الزيادة في القوة تدعى تنبيهاً . وهل ينفع هذا رجلاً انهك المرض قواه وضعفت بنيته . قال الدكتور ادموند «ان المنبه هو ما يخرج القوة » واذا سأل سائل لماذا يشعر المتعب بالراحة بعد شربه الخمر فالجواب ان الكحول يخفض الشعور ويخدر كالكلوروفورم فيشعر المتعب بالراحة لانه لا يعود يعلم بتعبه وباحتياج جسمه للاصلاح . واذا واصل العمل زاد في اضعاف الجسم وأصبح اكثر احتياجاً للراحة وخصوصاً بعد ان ينتهي عمل الكحول التخديري . واذا اصابت الحمى رجلاً مدة طويلة تعب جسده في طرد ما يحتويه من المواد الفاسدة فاذا أخذ كحولاً يطرد كما تطرد تلك المواد فلا يكون قد ساعد الاعضاء المتعبة بازدياد قواها بل زاد حملاً ثقيلاً عليها . أي عاقل يريح فرساً متعباً باضافة حمل الى حمله . فالذي يشفى من الحمى بعد تناول الكحول فشفاؤه ليس من الكحول . وقد اتضح بألوف من البراهين ان المحمومين يشفون بدون الكحول اكثر مما به . كانت الحمى تعالج قديماً بالمقيئات والمسهلات والفصد والمدرات للعاب لزعم القدماء ان القوة الحيوية في الجسم زائدة عما تحتاج اليه فيجب اخراج قسم منها وقد أمات هذا العلاج ألوفاً ممن أصيبوا بالحمى وكان يرجى شفاؤهم . ثم تغيرت تلك الطريقة وقرر الاطباء رأي القائلين بأن الحمى تنقص قوى المريض ولذلك حاولوا زيادتها بجرعات من البراندي ونحوه من المستحضرات الكحولية بناء على ان الكحول مقوّ وقد تبرهن معنا ان الكحول لا يزيد القوة بل يضعفها ويسلبها فلا يجوز الالتجاء اليه عند الحاجة الى التقوية . واذا فرضنا ان الكحول منبه فالعليل لا يحتاج الى التنبيه بل الى اخفاء اعراض المرض . قال الدكتور ادموندس من انكلترا « الصواب ان العليل يحتاج الى الراحة والسكينة والتغذية بطعام سهل الامتصاص لحفظ قواه المنحطة وتقويتها» وقال الدكتور رتشاردسون « يتوهم كثيرون ان الكحول يقوي ويقول عدد ليس بقليل من الضعفاء انهم لولاه لما كانوا احياء . فشعور أولئك بالقوة بعد المنبهات شعور كاذب ينسب النفع الى ما هو مضرّ اذ لا مشاحة بأن الكحول لا يعطي قوة

للدماغ او للعضلات وانما هو يقوي المتعب في الدرجة الاولى من عمله لمعاطاة عمل كبير وينشط العقل ويهيج العضلات ولكن لمدة قصيرة جداً ولا يعمل شيئاً جوهرياً ولا يعوض عن شيء مما أتلفه بل يقود للخراب والفناء . النار تريك منظراً لامعاً جميلاً ولكنها تترك كل شيء خراباً وهكذا الكحول »

هل يقي الكحول من الانحلال : زعم الاستاذ ليك امكان استخدام الكحول معوضاً عما يتلف من الانسجة لحفظ الاحتراق اللازم لتوليد الحرارة لكن الدكتور سميث أثبت ان المشروبات الروحية تزيد الاتلاف ولا يرجى نفعها في توقيف انحلال الجسم بل هي تأتي بنتيجة تعاكس المطلوب على خط مستقيم

هل يقي الكحول من السل : قال بعضهم مؤخراً ان الكحول يمنع السل بطريقة خفية لا تزال مجهولة فشاع استعماله كثيراً بين المسلولين حتى صار القليلون منهم في المدن الكبيرة يموتون وهم صاحون . والبرهان الذي يقدمونه اثباتاً لهذا المعتقد واهن جداً . فشفاء المسلولين مع استعمالهم المسكر لا يذهب الى استعماله بل لاسباب أخرى كثيرة كحسن المناخ والوسائط الهيجينية والاحتياطات الصحية . وقد أثبت الدكتور رتشاردسون من لندن « ان الكحول نفسه سبب للسل » وليس لدينا شيء يحمل على الاعتقاد ان شاربي الكحول هم أقل تعرضاً لهذا المرض من سواهم انما الذي نراه هو ان حوادث الموت فيهم أكثر مما في سواهم . وقد نتج من ملاحظات الدكتور المذكور مؤخراً ان أقوى السل وأشده خطراً هو الحادث من فعل الكحول وان اثنين في المائة من حوادث الموت بالسل ناتج عن هذا السبب

استعمال الكحول طبياً يقود للسكر : تولدت عادة تعاطي المسكرات من اعطاء الاطباء مشروبات الكحولية كمقويات حين الضعف . يصف الطبيب لعليله أحد المشروبات الروحية فيجد جسمه محتاجاً للقوة فيكرر ماوصفه الطبيب بدون استشارته قدحاً بعد قدح فلا يمضي وقت طويل الا وقد أصبح سكيراً مغرماً بمعاقرة بنت الحان ليس له طاقة بتركها . وهناك عدد كبير من المشروبات الروحية تباع تحت اسم « المشروبات المرة » تحتوي على مزيج من المواد السامة وضروب من المورسكي يندر

وجود احدها خالياً من الكحول كما أثبت ذلك التحليل الكيماوي خلافاً لما يدعيه صانعوها وبائعوها . وبهذه التراكيب الجهنمية وخلافها هلك ألوف ممن لم يكن يشك بحسن آدابهم فذهبوا فريسةً لشهواتهم وملذاتهم الباطلة

استعمال الكحول طبياً لتخفيف الافراط من المسكر : يتناول المعتدل قدحاً من الخمر ليهيج تصوراته فاذا زاد تأثيره اصبح العقل خاملاً وتصوراته كدرة فيأخذ قدحاً آخر لشفائه من تلك الصعوبة غير عالم ان دواءه هذا هو سبب دائه . يستيقظ صباحاً ورأسه ثقيل وعضلاته ضعيفة واعضاؤه مرتجفة فيأخذ قدحاً من الروم للتخلص مما يشعر به من الضعف والانحطاط فيشعر بالتحسين ويزعم ان الروم علاج نافع . ويساعده في زعمه نصح الاطباء باستعماله مقوياً لان المبدأ واحد سواء شكا العليل من ضعف الحمى او ضعف المويسكي فلا يلام السكير اذا لجأ للكحول لشفاء ضعفه وانحراف صحته وغيره لا يلام لاتخاذه علاجاً مقوياً ومنبهاً برأي الاطباء واستحسانهم

الكحول في هذيان السكاري : قد تأكد ان الكحول سبب ذلك الهذيان ومع ذلك فقد ظل الناس زماناً طويلاً يعتقدون انه علاج ضروري لمقاومته . ومع ان بطلان هذا العلاج ظاهر فاستعماله موافق للاعتقاد بان الكحول يزيد القوى العصبية . اما ضعف الاعصاب واختلال موازنة الجسم فلا تظهر ظهوراً جلياً مثل ظهورها في هذا المرض ولذلك يكون استعمال الكحول فيه اعظم دليل على انه لا يزيد قوة العصب . ولذلك فمشاهير الاطباء ابطلوا استعماله لهذا الغرض وسيبطلونه في سائر الامراض ويستعيضون عنه بما ليس فيه ضرر . قال الدكتور جامس ادموند « استنتجت بالبحث المدقق ان الكحول لا ينفع قطعياً في معالجة الهذيان بل هو يؤذي العليل وربما يعجل موته » وقال الاستاذ بالمر من كلية متشيكان « اذا تتبعنا الطريقة القديمة قتلنا نصف المرضى الذين نشاهدهم اما في اتباع الطريقة الجديدة فقد نخلص الكل »

الكحول للامهات : كثر جداً شرب النساء للكحول كثيره فازداد ضرره زيادة مخيفة وسبب ذلك نصح الاطباء والمرضات للامهات المرضعات باستعمال الخمر والبيرا فلم تنحصر تلك الاضرار فيهنَّ بل تجاوزتهنَّ الى اطفالهنَّ لان كمية كبيرة

من الكحول تذهب الى اللبن فتؤثر في بنية الاطفال الضعيفة وكثيرًا ما تجد الام طفلها نكدًا متعبًا فتأخذ كأسًا او كأسين من الخمر قبل ارضاعه بساعة فيهدأ حالاً وهي لا تعلم ان ذلك الهدو حدث عن التسمم بالكحول . قال الدكتور ادموند « ان اكثر سيدات الانكليز يستعملنَ البيرا السوداء حين الارضاع وقد لا يصحو الاولاد منذ الولاده الى وقت الفطام » فاذا ابتدأت الحياة في احوال كهذه فلا غرو اذا انغمس العدد العظيم من شبان الانكليز وشاباتهم في المسكرات ولا عجب اذا ضرب المثل بسكرهم فقيل «سكرة انكليزية» . وقد لاحظ الرومان قديمًا هذا الامر فحرَّمت شرائعهم استعمال المشروبات الروحية للنساء وهنَّ يرضعنَ اولادهنَّ

ماذا تحقق التجارب : يشهد كثيرون من الاطباء ان الكحول غير نافع في حفظ القوى او زيادتها وفي لندن مستشفى لا تعطى فيه الادوية التي يدخلها الكحول وهو موكول لعناية الدكتور ادموندس وقد قدم الدكتور المذكور خطابًا عديدة في مدينته نيويورك في هذا الموضوع وقد دلت التجارب في المستشفى المذكور امكان معالجة المرضى بالعقاقير التي لم يدخلها الكحول ومنذ تأسيس المستشفى لم يحدث ما يؤخر مدة الشفاء او يأتي بنتيجة غير مرضية وفي ثلاثة حادثة جراحية يضطر الاطباء فيها غالبًا الى الكحول لم يستعمل فيها ومع ذلك فكانت النتائج حسنة في جميعها . ثم اقتفت بعض المستشفيات آثار المستشفى المذكور فحصلت على تلك النتائج . قال الاستاذ ملر احد اطباء اسكوتلاندا « الكحول لا يشفي مريضًا » وقال الدكتور بوتم امام جمعية الطب الانكليزية « لا اعرف مرضًا ازاله الكحول » وقال الدكتور جونسون الانكليزي « المشروبات الكحولية علاجات غير لازمة » وقد قبح الفا طبيب من الانكليز استعمال الكحول طبيًا . ورفع ثلاثة طبيب في مدينة لندن وحدها استدعاء يطلبون به منع تجارة الكحول لاعتقادهم ان المشروبات الكحولية غير لازمة طبيًا . وكتب الاستاذ يندل الى جرنال طبي في مدينة لويس قبل يذكر آراء اطباء انكلترا في الكحول قال « بعد المخابرة مع اطباء هذه البلاد مدة طويلة تأكدت ان اكثر الرجال العظام يعتبرون الكحول مضرًا وكثيرون ايضًا يشكون

بنفعه في الامراض وهذا هو رأيي أيضاً » . وقال الدكتور ارنست هارط منشئ الجرنال الطبي الانكليزي في اجتماع جمعية الاعتدال « ان الاطباء كلهم متفقون في ان الكحول ليس طعاماً ولا مقوياً » وفي انكلترا الآن جمعية تدعى الجمعية الطبية الانكليزية للامتناع عن المسكرات بين اعضائها جماعة من اعظم اطباء الانكليز . وقد عالج اطباء كثيرون مئات من الحوادث في أمراض متنوعة مزمنة وحادة وقلما اضطروا لاستعمال الكحول وفي اكثر من ٦٠ حادثة في الحمى التيفويدية لم يعط الكحول مقوياً او منبهاً الا الى واحد او اثنين ومع ذلك فالكل شفوا ولم تطل مدة النقاهة كما هي العادة في تلك الحمى . أما اذا أريد استعمال الكونياك او خلافه من المشروبات الروحية فليكن حينما يراد تهييج فعله السام كما في صب ماء بارد اووضع قضيب محمى على الحبل الشوكي اوادناء روح النشادر من المنخرين



أشعة حيوية

اكتشاف عظيم الاهمية

بغت الناس عند اكتشاف أشعة رنتجن لانهـا تخترق الجوامد وتنفذ في الاجسام المظلمة على غير عهدهم بالنور . ثم زالت بغتتهم من تلك الاشعة لما قرأوا اكتشاف أشعة الراديوم الخفية ومقدار قوتها وغرابة ظواهرها ما حمل العلماء على تغيير آرائهم في الطبيعة ونواميسها على ما بيناه في الهلال الماضي . ونحن ذاكرون فيما يلي اشعة جديدة ربما أنستهم القديم وقد يترتب على تمام درسها قلب كثير من الحقائق الطبية المتعلقة بأعمال العقل كاستطلاع الغيب وقراءة الافكار ونحو ذلك

تنبه العلماء بعد اكتشاف أشعة الراديوم الى البحث في هذا السبيل فتوفق اثنان من اساتذة مدرسة نانسي بفرنسا وهما بلوندلو وشاربتيه الى اكتشاف أشعة غير منظورة تشعها الاجسام الحية وخصوصاً العضل والعصب سمياها أشعة N وذلك ان الموسيو بلوندلو وجد بالاختبار ان الخشب والزجاج والكاوتشوك اذا ضغطت انبعثت منها أشعة يظهر تأثيرها على المواد التي تضيء من نفسها مثل كبريتور الكلسيوم وبعض المركبات الفصفورية . فاذا أدنيت الكبريتور المذكور من قطعة خشب او زجاج او كاوتشوك وهي تحت الضغط تزايد لمعانه فعمد الى تجربة ذلك في المواد الاخرى كالراتنجات والكبريت فوجد بعضها ترسل تلك الاشعة بدون ضغط . ثم جرب ذلك في المعادن فوجد الفولاذ المسقي قوة عظيمة على الاشعاع . فأية أداة فولاذية من النصال او المبارد او نحوها اذا أدنيتها من كبريتور الكلسيوم زادت اضاءته ولمعانه ولو حال بينهما جسم غريب وقد جربوا ذلك وبين المادتين لوح من خشب السنديان ثخانته ثلاثة سنتيمترات . أما الفولاذ غير المسقي فلا تأثير له — ومن غريب قوة الاشعاع في الفولاذ المسقي انها تكاد تكون خالدة . فقد امتحنوا نصالاً من الفولاذ اتآكل استخرجوها من بعض المدافن القديمة فوجدوا قوة الاشعاع فيها مثلها في أحدث الادوات الفولاذية — وقد يعدُّ ذلك من قبيل أشعة الراديوم

ولكن الغريب في هذه الاشعة ما اتفق اكتشافه للموسيو شاربنتيه . فالمذكور جرب ذلك في الاجسام الحية وخصوصاً على العضل والعصب فوجد للاجسام المذكورة قوة شديدة على الاشعاع وقد أجرى امتحانه على قطع من بلاتينو سيانور الباريوم — وهي من الاجسام المنيرة — فأدناها من جسد الانسان فرأى نورها يتزايد خصوصاً وهي بقرب العضل أو العصب بحيث يدل تفاوت اللمعان المذكور على ما تحت الجلد من عصب او عضل او دهن ويزداد بزيادة عمل العضل او العصب . وقد يمكن الاستدلال على مجرى العصب من منشأه الى تفرعه وتتبع تفرعاته الى منتهاها بمراقبة ذلك اللمعان . ويسهل تعيين مركز القلب وتمييز حدوده بقطعة من كبريتور الكلسيوم أو بلاتينو سيانور الباريوم تدنيها من جدار الصدر فتظهر المساحة التي يشغلها

القلب أشد لماناً لانه عضلٌ . ولا يخفى ما في ذلك من الفائدة في فحص الامراض الصدرية

ومما يزيد أهمية ذلك الاكتشاف ان زيادة العمل العضلي او العصبي تزيد اللمعان بنسبة مقدار ذلك العمل فاذا صنعت نظارة عدستها من احدى المواد المنيرة ونظرت بها الى الدماغ متنقلاً في كل أجزائه تبين لك أي جزء منه أكثر عملاً من الآخر . فلو جربت ذلك في خطيب وهو في موقف الخطابة يتكلم لرأيت الجزء المختص بوظيفة النطق المسمى « مركز بروكا » وهو في مقدم الدماغ اكثر اشعاعاً من سائر اجزاء الدماغ لافرق رفع الخطيب صوته او خفضه . وقس على ذلك امتحان سائر المراكز الدماغية

وأجرى الاستاذ ماير من نانسي أيضاً مثل هذه التجارب في النبات فوجد فيه اشعاعاً يكون على أضعفه في الزهر ثم يتزايد في الاجزاء الخضراء حتى يصير على معظمه في الجذور وهو شديد أيضاً في الحبوب عند تفريخها . ولا يزال العلماء عاملين على درس هذه الاشعة واكتشاف خصائصها . وجملة القول ان اكتشاف هذه الاشعة لا يقل أهمية عن اكتشاف أشعة الراديوم لعلاقته بالاعمال الحيوية وخصوصاً في أعمال الدماغ . ولعلهم اذا واصلوا التجارب في هذا السبيل ان يتوفقوا الى اكتشاف خصائص أخرى تساعدنا على تفسير كثير من الحوادث التي يعدها العلماء من الغوامض والخرافات والناس ينسبونها الى ماوراء الطبيعة

(اختراع سوري) ذكرت جريدة الهدى التي تطبع في نيويورك ان أمين افندي جرجس أبي زيد السوري نزيل وشنطون استنبط آلة دقيقة الصنع لابواب العربات العمومية كالترامواي والاومنبوس بحيث تقفل وتفتح من نفسها بوضع قطعة من النقود او تذكرة بحجم معلوم ووزن معلوم يلقيها الراكب في الآلة قبل دخوله المركبة فينفتح الباب من نفسه فيدخل الراكب وحده لان الباب لا يسع اثنين وقد تغني هذه الآلة عن استخدام باعة التذاكر (الكومسارية)

(اخطار السفن في الضباب) يمر على بعض البحور أيام والضباب عاقد لواءه فوقها وتصبح السفن السابحة فيها عرضة لخطر من الاصطدام بسفن أخرى او بالصخور



الجزء الحادي عشر من السنة الثانية عشرة

١ مارس (اذار) سنة ١٩٠٤ و ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٢١

اشهر الحوادث واعظم الرجال

الامبراطوران المتحاربان

١ — امبراطور الروس

هو القيصر نقولا الثاني ولد سنة ١٨٦٨ وهو اكبر انجال المرحوم الامبراطور اسكندر الثالث ووالدته البرنسس دكمار ابنة ملك الدنمارك . تولى الملك بعد وفاة والده سنة ١٨٩٤ وفي تلك السنة تزوج بالبرنسس الكسندرة ابنة غراندوق هيس وقد ولد له أربع أناث اولغا وتاتيانا وماري وانانستاسيا . وللقيصر اخ واختان الغراندوق ميخائيل والغراندوقتان خينيا وأولغا . وله أيضاً أربعة أعمام وعمة

يتصل نسب العائلة القيصرية من جهة الاناث بميخائيل رومانوف الذي سمي قيصراً سنة ١٦١٣ بعد انقضاء بيت روريك . ومن جهة الذكور بالدوق كارل فريدريك هولستين قطرب المولود سنة ١٧٠ واشهر ملوكهم بطرس الاكبر

والقيصر نقولا مطلق التصرف في احكام مملكته شرعياً وقضائياً وتنفيذياً ويستعين على ذلك باربعة مجالس يحلها ويعقدها متى شاء وحكمه نافذ على نحو ١٣٠،٠٠٠،٠٠٠ من الناس يسكنون نحو سبع الكرة الارضية. دخله السنوي لا يمكن تعيين مقداره وانما هو عبارة عن ريع اراضٍ مساحتها ١٠٠،٠٠٠ ميل مربع اكثرها مزارع وحقول وبعضها غابات وأحراج فضلاً عن مناجم الذهب وغيره من المعادن في سيبيريا

ويعدُّ قيصر الروس أرهب ملوك العالم واشدهم بطشاً واعظمهم تأثيرًا في النفس وأكثرهم اشتغالاً في توسيع نطاق مملكته وزيادة ثروتها مع رغبته في المحافظة على السلام وهو في عيني رعاياه ممتاز عن سائر الملوك بما له من الرئاسة على الكنيسة فضلاً عن المملكة فينظرون اليه نظرهم الى ما هو أرقى من البشر وخصوصاً عامة الشعب من اهل القرى — يروى ان عجوزًا من نساء القرى كانت من جملة الجماهير القادمين لحضور الاحتفال بتتويجه فاصابها ما اصاب الاكثيرين بسبب الازدحام في ذلك اليوم فحملت الى المستشفى. فلما ذهب القيصر لزيارة اولئك المصابين دنا بعض رجاله من فراشها وسألها عن سبب قدومها في ذلك الازدحام فقالت «لأرى القيصر» فقال «لماذا لا تنظرين اليه الآن وهو واقف بجانبك» فقالت «اراك تهزأ بي كأني لا أعلم ان القياصرة لم يخلقوا لمثل ذلك»

على ان الاحترام المذكور لم يقلل شيئاً من اسباب متاعبه في سياسة ذلك الملك الواسع. قال البرنس لوبانوف الوزير الروسي الشهير «ان ادارة هذه المملكة لا يستطيعها رجل من البشر مهما يكن من قوته» وقد أحس القيصر بهذا الحمل الثقيل في الليلة التي توفي فيها ابوه فبعد ان كان ميالاً الى الانبساط شديد الرغبة في محادثة اقرانه في اوقات السرور كما شاهده أهل مصر في اثناء زيارته هذا القطر سنة ١٨٩١ فأصبح بعد توليه الملك هادئاً كثير التفكر قليل الكلام وهو يعدُّ منصبه عبئاً ثقيلاً لا يتمناه لألد أعدائه — ومع ذلك فهو نحيف البدن وخصوصاً بالقياس على والده لانهُ كان رحمهُ الله قوي العضل عامر البنية يلوي نعال الفرس بانامله. وكذلك كان معظم سلالة رومانوف فانهم من الجبابرة فقد كان طول بطرس الاكبر نحو سبعة اقدام ونقولا

الاول كان أطول أهل مملكته . اما القيصر الحالي فلم يرث قامة اجداده لانه يعدّ دون الربعة طولاً وهو أقصر من امرأته القيصرة الكسندرة . وكان عند زيارته مصر حليق اللحية فأصبح الآن مرسلها اشقر الشعر ازرق العينين اقرب الشبه بعائلة والدته مما بعائلة والده ولذلك فهو كثير الشبه بابن خالته البرنس اوف ويلس ولي عهد انكلترا حتى لا يستطاع التمييز بين صورتيهما



القيصر نقولا الثاني عند زيارته مصر وهو ولي عهد

فالقيصر مطلق التصرف في شؤون دولته ولكنه لا يخلو من مشيرين من اهل الثقة والتعقل . ورجال الروس معدودون في الطبقة الاولى بين رجال السياسة في اوربا

واعظم هؤلاء في روسيا الآن اثنان الموسيو دي ويت وزير المالية والموسيو بوبدونوستزف نائب المجلس المقدس (سينود) والاول باذلٌ اقصى جهده في اصلاح مالية البلاد وتحسين حال العامة من أهل الفاقة عملاً برغبة القيصر في ذلك . وترى مساعيها في هذا السبيل ظاهرة وخصوصاً في سيبريا بانشاء الخط الحديدي الكبير الذي يقطعها من الغرب الى الشرق والشمال . وسيبيريا قابلة للاصلاح وهي بقاع واسعة الاطراف كثيرة الانهار والبحيرات

واشتهر القيصر بحنوه ودعته ورفقه حتى بالاحزاب المضادة لسلطانه — ذكروا ان

بعض تلامذة المدارس من أهل الثورة رفضوا مبايعته في اول ولايته فلما بلغه ذلك ما زاد على قوله « اذا لم يرق لهم ان يكونوا من رعاياي المخلصين فليخرجوا من روسيا في ٢٤ ساعة وليقيموا في مملكة اخرى حتى يكتسبوا رعويتها ثم يعودون لاتمام دروسهم هنا اذا شاؤا » فلما بلغ اولئك التلامذة قوله خجلوا من انفسهم وأقسموا يمين الطاعة



القيصر نقولا الثاني بعد التتويج

وأما حياته البيتية فانها مثال في رقة الجانب والرأفة حتى على الخدم والاعوان فقد شق عليه بعد زواجه ان يخرج خدمه من قصر انيتشكوف ليقيم خدم امرأته مكانهم.

وهو كثير العناية بوالدته والاحترام لها والروسيون على اختلاف احزابهم يحترمونها كما يحترم الانكليز شقيقتها الملكة الكسندرة امرأة الملك ادوارد

والروس مشهورون بتمسكهم بالمذهب الارثوذكسي والقياصرة اكثر الناس تعلقاً به واقربهم الى الورع والتدين وقد وجهوا العناية الى اتقان الكنائس وانفاق

الاموال الطائلة في تشييدها و زخرفتها وقد اشرنا في ما تقدم الى الدخل العظيم الذي يستولي عليه القياصرة ولذلك فهم عائشون في بذخ وترف تقتضيه السلطة المطلقة واليك وصف بعض قصورهم وكنائسهم ملخصة من كتاب مشاهد اوربا واميركا لحضرة ادوار بك الياس مما شاهده عياناً — قال في اثناء وصفه شارع نفسكي في بطرسبورج

• والذي يقف في هذا الشارع العظيم يمكن له الوصول منه الى كثير من مشاهد بطرسبرج المشهورة • من ذلك كنيسة كازان (العذراء) الكاتدرائية ولها شهرة ذائعة في الخافقين فانها قائمة على ١٣٢ عموداً ضخماً من الرخام تشبه عمد كنيسة القديس بطرس في رومه وقد بنيت على النسق الكورنثي وهو الذي تحيط به اعمدة كهذه ولها قبة من النحاس الاصفر قطرها عشرون متراً وقد طليت بالذهب فكأنما هي ذهب خالص بما تشع من الانوار وما يظهر فيها من الجمال الساحر للانظار • والقبة هذه قائمة على عمد عدتها ستة وخمسون قوائمها وتيجانها من النحاس الاصفر المغشي بالذهب أيضاً وفي جدرانها اعلام غنمها الروس في حروبهم الكثيرة مع الاتراك والنمسويين والالمان والفرنسيس والايرانيين • والى جانب هذه الاعلام مفاتيح المدن التي دخلها جيش الروس عنوة وضعت كلها تذكاراً لفعال الابطال الذين غنموها وعنواناً على فخر الامة بجيشها الباسل • واما هيكل الكنيسة وايقوناتها فقد صنعا من الفضة الخالصة وفي الكنيسة صور للعذراء كثيرة ورسوم أخرى دينية ولم يقتصر الروسيون على تحلية هذه الايقونات بالفضة والذهب بل هم رصعوها بحجارة الالماس الكبيرة وهذا اتقان خاص بالروسيين دون سواهم

• وفي هذا الشارع بعد الكنيسة المذكورة المكتبة القيصرية المشهورة وهي من اعظم مكاتب الارض في كثرة المجلدات ان لم تكن اعظمها • فيها نحو مليون وستمائة الف كتاب مطبوع واكثر من أربعين الف كتاب بخط اليد وثمانين الف رسم متقن لجوانب الارض وكل هذه النفائس الثمينة في خدمة الذين يطلبون العلم من أهل البلاد وساكنيها • وبناء المكتبة واسع فخيم لهُ طبقتان وقد قسم أقساماً جمة بعضها للكتب الدينية والبعض للكتب الفلسفية او الطبية او الرياضية او غير هذا من مواضيع العلم والمعرفة وقد رأيت فيها كتباً عربية قديمة العهد منها كتب بخط اليد ومنها ما هو مطبوع وتوراة يونانية من الجيل الخامس وجدها الاستاذ تشندورف في دير طورسينا • وفي المكتبة أيضاً معرض لادوات الكتابة من اول امرها الى الآن وأول كتاب روسي طبع في هذه السلطنة وغير ذلك

من التحف التي لا تعد • وقد أسس هذه المكتبة العظيمة القيصر بطرس الكبير وعنيت القيصرة كاترينا الثانية بتحسينها من بعده • وكيفما سرت في انحاء المكتبة ترى رسوم هذا القيصر وهذه القيصرة اقراراً بفضلهما واحياء لذكر مآثرهما

• وفي هذا الشارع قصور عديدة للامراء والسراة لا يستفيد القارىء من عدها واشهرها قصر نقولاي كان جلالة القيصر الحالي يقيم اذ كان ولي العهد • وينتهي هذا الشارع بدير نفسكي الشهير وهو مقام رئيس الاساقفة واعظم أديرة روسيا شهرة وثروة ويعد من الاديرة القيصرية وهي ستة ثلاثة منها في روسيا اولها دير نفسكي هذا والثاني في ترويتسا والثالث في كيف وثلاثة في الخارج هي دير طورسينا ودير اورشليم ودير أتوس عند مدخل الدردنيل في بلاد الدولة العلية • ودير نفسكي هذا مبني على شكل حصن عظيم تحيط به الخنادق والاسوار القوية وهو اغنى اديرة روسيا بماله من الاوقاف وما فيه من الذخائر والكنوز بدأ به بطرس الكبير على مثل ما تقدم ووهبته الامبراطورة اليصابات سنة ١٧٥٢ ما استخرج من الفضة مدة سنة كاملة من مناجم روسيا التي اكتشفوها وقتئذ فبلغ ذلك ١٨٠٠ كيلو • واهديت اليه هدايا لا حصر لها ولقيمتها ازينت كنيسته بالذهب في اكثر جوانبها وعلقت فيها الايقونات الثمينة المرصعة وملئت جوانبها بالمصابيح الفاخرة والنقوش البديعة حتى ان منظر هذه الكنيسة في داخل الدير ليعد من اجمل ما تراه العين • والى يمين الكنيسة قبر القديس نفسكي الذي نقله بطرس الكبير من موسكو وقد صنع القبر من الفضة الخالصة وفوقه انجيل مغشى بالفضة وصليب من الذهب وامامه شمعدانان كبيران من الفضة هدية القيصر اسكندر الاول وتحف أخرى لا محل لذكرها • وعيد هذا القديس من الايام المشهورة في روسيا تقام له صلوات ويحضر القيصر بنفسه صلاة العيد في كنيسة هذا الدير واكثر الاحيان يتناول الغداء مع رئيس الاساقفة بعد الصلاة في منزله الكائن داخل سور هذا الدير العظيم • وفي فناء الكنيسة مدافن لبعض أمراء الاسرة القيصرية واشراف الدولة الروسية وهو بوجه الجملة من المشاهد العظيمة في هذه العاصمة

« على ان الذي مر كله لا يذكر في جنب القصر الشتوي المشهور وما له من الاهمية الكبرى في مدينة بطرسبرج فان الواقف في الميدان المتسع امام هذا القصر الباذخ يرى اعظم المساكن لاعظم القياصرة ويرى متحف ارمتاج وقصر أركان الحرب ودار وزارة البحر وندوة الاعيان والمجمع المقدس وكلها تشرف على نهر النيفا حيث يبني رصيف

عظيم الى جوانبه سفارات الدول الكبرى وقصور الامراء العظام حتى اصبحت تلك البقعة مركز روسيا وقلبها ونقطة السؤدد والفخامة فيها. فليس يخفى ان حكومة روسيا مطلقة غير مقيدة وللقيصر في أمورها القول الفصل غير ان جلالته يعمل في مهام الدولة برأي مجلس الاعيان وهو مركب من وزراء البلاد وكبرائها وأصحاب الشأن الخطير فيها فيغني ذلك عن البارلمان أو مجلس النواب . والمجمع المقدس يفصل في الامور الدينية كلها وله رأي في المسائل الادارية الكبرى أيضاً يرأسه القيصر كما انه يرأس مجلس الاعيان فلا عجب اذا قلنا ان القوة والعظمة في روسيا تنحصر في تلك البقعة التي بني فيها القصر الشتوي وماذكرنا من القصور الاخرى

• ولطالما سمعت بشمم هذا القصر وبدائع صنعه وتاقت النفس مني الى رؤيته فأوصيت الدليل بعد استقراري في عاصمة الروس ان يأخذني اليه فقام بالامر وجاء في احد الايام باذن يمكن لنا به دخول القصر وهو ذو ابواب ومداخل عدة منها ماخص بآل البيت القيصري ومنها ما اعد لسفراء الدول ومنها باب لوزراء الدولة الروسية وقوادها يدخلون لقضاء المهام وتلقي الاوامر العالية ومنها باب لعامة الناس والسائحين دخلناه والهيبة ملء الفؤاد لما رأينا من عظمة البناء في خارجه فان القصر هذا واسع عظيم الهيئة له اربع طبقات بنيت كلها على عمد متناسقة من الرخام وفوق عمده ونوافذه وابوابه آيات من النقش والزخارف وضعت على نسق ترتاح لمرآه النفس وتحدث بعظمة البانين وبالمال الطائل الذي انفق على تشييد مثل هذا المبنى الفخم . وارتقينا من ذلك الباب سلماً عريض الذرى صنعت كلها من الرخام الابيض النقي حتى انتهينا الى بهو عظيم يعرف بقاعة اسكندر وهي قاعة فسيحة الجنبات قامت على عمد من الرخام يتوج كل عمود منها نقش دقيق وقد اعدت من عهد بعيد لذكر مجد الدولة الروسية في الحروب واحياء الذكر لابطالها وقوادها المشهورين ففيها ٢٥٠ صورة محكمة الصنع تمثل اولئك القواد من أيام القيصرة كاترينا الثانية الى هذا العهد . وهناك يستقبل القيصر امراء البحر وقواد الكتائب من رجال اسطوله وجيشه فيرى القادم صور اولئك الرجال وصوراً أخرى تمثل بعض الحوادث العظيمة مثل دخول الروس مدينة برلين سنة ١٧٦٠ وباريس سنة ١٨١٢ وحصار وارنا سنة ١٨٢٨ واستيلائهم على ارضروم سنة ١٨٢٥ وغير هذا من الحوادث التي يفخر الروس بمثلها . وفي صدر هذه الرسوم كلها رسم بطرس الكبير بقده الطبيعي وضع في برواز غالي الثمن وكل ذلك يذكر الرائي بمجد

الامة الروسية وفعال ابطالها في الحروب

• وقاعات هذا القصر العظيم اكثر من ان تعد هنا ولا مجال لوصف شيء منها غير القليل • اذكر منها قاعة الكساندرا كلها بيضاء مذهبة لمنظرها تأثير يفرح النفوس ويشرح الصدور وقد زاد بهاؤها في ان ادوات النور من الشمعدانات والثريات فيها صنعت من اللازورد الغالي الثمن ومقاعدها وكراسيها محلاة بالذهب الوهاج وملبسة بالحرير الابيض من احسن انواعهِ • وتليها قاعة بطرس الكبير وهي حمراء اللون كسيت جدرانها ومقاعدها بالمخمل الاحمر وفيها رسم هذا القيصر العظيم تحيط به الملائكة وشعار الدولة الروسية صنعت بماء الذهب ولها منظر فائق الجمال • وفي صدر هذه القاعة عرش القياصرة وهو مقعد كبير من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة لا يقعد فيهِ القيصر الا مرة او مرتين في العمر • وقد اعتاد القياصرة في المدة الاخيرة استقبال سفراء الدول في هذه القاعة في رأس السنة وهو الاستقبال الذي يقول فيهِ القيصر شيئاً عن سياسة الدول ويرنُّ صداهُ في كل اقطار الارض

• والعائلة القيصرية قدوة للامة الروسية كلها في الورع والتدين فلا يفوت افرادها حفلة عامة للصلاة ولها تمسك بالدين الارثوذكسي مشهور حتى ان امراء الروس لا يجوز لهم الاقتران باميرة غير ارثوذكسية ولا بدَّ للاميرة الاجنبية من اعتناق المذهب الارثوذكسي قبل الاقتران بواحد منهم وهذا الذي جرى لجلالة القيصرة الحالية والقيصرة الاخيرة وكثيرات غيرها • فلما كانت هذه منزلة العبادة عندهم فهم اقاموا في داخل القصر الشتوي الذي نحن في شأنهِ كنيسة بنيت على اسم العذراء تقام فيها صلوات عامة في بعض المواسم والاعياد الكبرى وقد وضعوا على باب هيكلها صورة للعذراء ثمينة مرصعة بالالماس والياقوت والزمرد وبعض هذه الحجارة يساوي الوفاً من المال • وهنالك خزانة غالية الثمن وضعت فيها عظام يقولون انها بعض عظام ماريوحنا المعمدان ومريم المجدلية وقد أرسلت الصورة والعظام هذه الى قياصرة الروس من فرسان مالطة المشهورين اعترافاً منهم بفضل القياصرة على اهل النصرانية عامةً • ويحتفل في هذه الكنيسة بقداس عظيم يوم عيد الغطاس من كل سنة يحضرهُ القيصر وأمراء البيت القيصري وكبراء السلطنة ورؤساء الدين وقواد البر والبحر وبعد الصلاة يسير القيصر في جمع غفير من الشعب ورجال الحرس الامبراطوري الى نهر النيفا وتنصب فوق الجليد مظلة كبيرة يحتفلون تحتها بصلاة يحمل فيها رئيس الاساقفة صليباً يغطسهُ في الماء المصلى فوقهُ ويرش بهِ القيصر

واعضاء عائلته وبقية الحاضرين ثم يأخذ كل واحد شيئاً من ذلك الماء المصلى فوقهُ في زجاجةٍ ويبقيهِ في بيته للتبرك وقد رأيت منهُ زجاجة في غرفة القيصر نقولا الاول باقية في هذا القصر من أيام الامبراطور المذكور

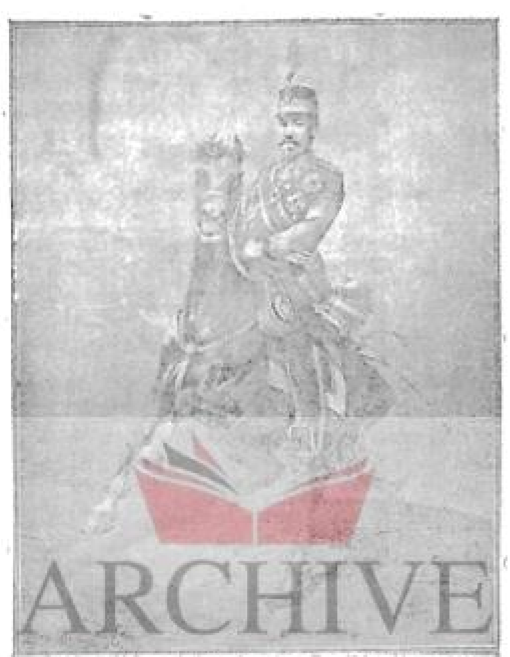
« وأجمل ما في هذا القصر العظيم وأثمنهُ قسم منهُ خصص لجواهر القياصرة ونفائس التحف النادرة المثال وقد وضعت هذه الجوهرات الثمينة في غرفة متينة ابوابها من حديد يقوم بحراستها أثنان من ضباط الحرس الامبراطوري فاذا اذن لاحد الناس بالدخول اليها دخل معه الضابطان وأوصدا من ورائه الابواب فيرى من غالي الحجارة الثمينة ما يبهر الانظار ويسحر الافكار في جملة ذلك حجر من الالماس عظيم القدر والقيمة قيل انه كان في عين معبود للهنود في مدينة دهلي اسمه المغول الكبير وكان في العين الثانية الحجر المشهور باسم « كوه نور » اي جبل النور وهو الآن في حوزة الدولة الانكليزية والحجران من اثمن جواهر الارض طرًّا واعظمها جمالاً • ويقال في كيفية وصول ذلك الحجر الى قياصرة الروس ان هندياً سرقهُ من عين الصنم وفرَّ بهِ الى مدينة مالابار في جنوبي الهند فلقيه ربان لسفينة بورتغالية واشترى الالماسة منه بالف جنيه ولما عاد الى اوروبا باعها لتاجر اسرائيلي باثني عشر الف جنيه وباعها التاجر لصائغ ارمني في مدينة امستردام بهولاندا وهي مشهورة من قدم بصناعة الالماس وطرائق قطعه ونحته وصقله وكان هذا الصائغ الارمني روسي التبعة اسمه لازاريف فعرف بالامر الكونت اورلوف وهو يومئذ من كبراء الدولة الروسية واصحاب الثروة الطائلة فيها فاستقدم اليه الصائغ واشترى الجوهرة منهُ بنصف مليون ريال روسي ومعاش سنوي لذرية البائع مقدارهُ الفا ريال • ثم حمل الكونت ذلك الحجر الى القيصرة كاترينا الثانية وقدمه هدية لها ووزنه ١٥٨ قيراطاً فهو من اكبر الجواهر حجماً ووزناً • وللحجر الآخر الذي كان في عين الصنم بدهلي قصة أخرى تحكي هذه فان الفاتحين من ملوك ايران مثل نادرشاه ومحمود الغزنوي استولوا عليه مدة ثم عاد الى قبضة سلاطين دهلي حتى اتيح للانكليز دخول الهند والاستيلاء على بعض خزائنها فكان هذا الحجر الثمين اكبر ما احرزوا من الجواهر واعظمها فارسلوه الى امستردام ليضلع ويقطع • وكان الامير الهندي دوليب سنغ الذي أخذ هذا الحجر من خزائنه بعد ان طردهُ الانكليز من مملكته لا يتحسر على شيء قدر تحسرهِ على تلك الجوهرة الثمينة واشتهر هذا الامير بالتجائه الى روسيا وعمل الدسائس الكثيرة ضد انكلترا فلما أخفق سعيه ورأى ان الحكمة في التسليم للقوة طلب الصفح من الملكة فكتوريا



القيصر نقولا الثاني بلباس القوزاق

فصدر أمرها بالعفو عنه ولما جاء لمقابلتها بعد العفو قال لها اني ارجو جلالتك في امر صغير قالت ما هو قال ان تسمحي لي بنظرة من كوه نور وهي تلك الالماسة العظيمة فاني اشتاق لرؤيتها اكثر من شوقي لرؤية الوطن والخلان فامرت الملكة باحضار الجوهرة وقدمتها له · فاخذها بيده وجعل يقلبها ويعجب بباهر نورها ثم ردها الى الملكة قائلاً اني بكل احترام اقدم هذه الهدية العظيمة الى امبراطورة الهند وملكتي المعظمة فقبلتها الملكة باسمة شاكرة وانصرف الرجل · وابن هذا الامير الهندي اسمه البرنس فكتور دوليب سنغ ربي في انكلترا واقترن بابنة اللورد كوفنتري احد اشراف الانكليز من عهد غير بعيد وجاء القطر المصري متنزهاً غير مرة » اه

٢ — امبراطور اليابان



امبراطور اليابان على جواده

يدعو اليابان مملكتهم « نيبون » أي مشرق الشمس ويسمونها أحياناً نيبون العظمى كما يسمي الانكليز مملكتهم بريطانيا العظمى لانها مؤلفة من جزر نيبون اكبرها . ويلقبون امبراطور اليابان « كوتاي » ويعرف في الخارج باسم الميكادو أي « الباب الشريف » على نحو تسمية حكومة الدولة العثمانية بالباب العالي . واليابان يكرهون التفخيم في القابهم

والامبراطور الحالي اسمه « موتسو هيتو » ولد في كيوتو سنة ١٨٥٢ فهو الآن في الثانية والخمسين من عمره وخلف اباه على كرسي الملك سنة ١٨٦٧ وهو في الخامسة

عشرة — ويزعم انه متسلسل من جد اسمه جيموتنو أي ابن السماء وانهُ الملك المئة والحادي والعشرون من أعقابه. وان دولتهم تأسست سنة ٦٦٠ قبل الميلاد — وفي سنة ١٨٦٩ تزوج موتسوهيتو الاميرة هروكو بنت الامير ايتشيجو أحد عظماء الاشراف. والزواج عند اليابانيين ترتيبيٌّ بمعنى ان الرجل حتى الامبراطور نفسه لا يختار زوجته بطريق المحبة. وليس له ان يتزوج فتاة من العائلة المالكة بل هو يختار امرأته من احدى العائلات الخمس العظمى في اليابان. ويجوز له ان يقتني احدى عشرة زوجة من العائلات الوسطى مع ان تعدد الزوجات محرم في مذهبهم. ولا تسمى امبراطورة الا الزوجة الاولى. وقد ولد للامبراطور ثلاثة عشر ولداً خمسة ذكور وثماني اناث توفي اكثرهم والباقون هم (١) ولي العهد واسمهُ يوشيهيتو ولد سنة ١٨٨٦ وهو ضعيف البنية (٢) الاميرة ماساكو ولدت سنة ١٨٨٨ (٣) الاميرة فوساكا ولدت سنة ١٨٩٠ (٤) الاميرة نوبوكو ولدت سنة ١٨٩١ (٥) الاميرة توشيكو ولدت سنة ١٨٩٦ — وقد تزوج ولي العهد سنة ١٩٠٠ الاميرة ساكادو فولدت له سنة ١٩٠١ غلاماً قوي البنية

والامبراطور طويل القامة ليس في رعيته رجل اطول منهُ. يمشي بقدم ثابتة. وكان في أول حكمه يلبس اللباس الياباني ثم بدله باللباس الافرنجي ويغلب ان يتخذ السراويل (البنطلون) من نسيج أحمر وسائر البدلة بيضاء. وقد يتخذ ثوبه من اللون القرمزي والابيض وقبعتهُ سوداء. وفي الايام الاخيرة اكثر ما يظهر للناس بثوب عسكري يشبه أثواب القواد ويتقلد سيفاً مذهباً ويزين صدره بالاوسمة المرصعة. وهو يكره البحر والنزول فيه ولذلك لم يقتنِ يختاً خصوصياً مع ان بلاده محاطة بالمياه وكثيراً ما يضطر لركوب البحر الى احدى الجزر فينتقل في مركب بخاري

ولما تولى الملك أخذ في تعلم اللغات الافرنجية فرأى ذلك شاقاً عليه فعدل عنهُ وهو يتداول مع السفراء والسياح من الافرنج بواسطة التراجمة. وقد ذكر بعض الذين خبروه من النزالة الانكليزية في يوكوهاما انه من الفطنة والتعقل والحكمة على جانب عظيم ومع انهُ قضى طفوليته منقطعاً عن الناس على عادة ملوك الشرق في تربية أولادهم فقد تمكن من مطالعة آداب لغته واكثرها عن الصين وعلمائها وفلاسفتها. وأتقن كتابة

الشعر وترتيب الازهار على النمط الياباني . وقد فطر على حب الاطلاع وله ارادة قوية ورغبة شديدة في اقتباس التمدن الحديث وتنوير اذهان رعاياه . فبعد ان كان معدوداً عندهم حاكماً روحياً لا ينظر اليه أحدٌ ويبقى حياً واذا ذكروه قدسوه كما يقدسون الآلهة واذا جاس اليهم في حفلة أو جمعية تقنع وقعد بعيداً ولم يكن يلبس الثوب مرتين ولا يتناول طعامه من طبق واحد دفعتين — فقد أصبح يجالس الامراء ويفاوضهم ويركب في مواكبهم . ومع ذلك فانه قاسى في سبيل الحصول على هذه الحرية عذاباً شديداً . وكان نصيره في هذا الجهاد المركيز ايتو اكبر رجال سياسته



المركيز ايتو — اكبر ساسة اليابان

و « المركيز ايتو » اسمه هيرومي ايتو ولد في ولاية تشوشو من أعمال اليابان سنة ١٨٤١ وتلقى العلم فيها على قدر ما كانت تسمح به حالة تلك الايام . فلما تجاوز العشرين من عمره تاقت نفسه الى اكتساب العلوم العالية . وكانت ذكرى أوربا ترنُّ في أذنيه فجاء انكلترا سنة ١٨٦٣ فاطلع على علومها وتفقد أسباب تمدنها فأضاف معارف الغرب الى معارف الشرق واتخذ من المزيج قوة أهلته لاكبر المناصب فكان

اكبر وسيلة ساعدت أمة اليابان على تلك النهضة التي أدهشت العالم وبهرت العقول

وأخذ ايتو منذ عاد الى بلاده يتدرج في المناصب حتى بلغ اعلاها . فتولى سنة ١٨٦٨ حكمدارية هيوجو وكانت في حالٍ تدعو الى والٍ ذي دراية في السياسة الخارجية فلم يروا أليق منه لذلك . ولكنه لم يلبث سنة في هذا المنصب حتى رأت الحكومة انها تحتاج اليه في اصلاح المالية فولته وكالة نظارة المالية وشخص سنة ١٨٧٠ الى اميركا فقضى فيها سنة يدرس نقودها وما يتعلق بها . فلما عاد الى منصبه ظهرت نتائج ابحاثه في سرعة تقدمه فترقى سنة ١٨٧٣ الى رتبة الوزارة وتولى نظارة الاشغال العمومية ومنزلته ترتفع في عيني الامبراطور يوماً عن يوم فلم تدخل سنة ١٨٨٥ حتى عهد اليه بتشكيل الوزارة . فتولى رئاسة النظار ثلاث سنوات متوالية ثم اعتزل هذا المنصب وتنقل في مناصب أخرى بخدمة الامبراطور . فكان تارة رئيس الخاصة وطوراً صاحب الختم وآونة رئيس مجلس الشرفاء ونال لقب كونت

وعاد سنة ١٨٩٢ الى الوزارة وما زال فيها الى سنة ١٨٩٦ وجرت الحرب بين اليابان والصين في تلك الاثناء فأبان فيها من الدهاء والحزم ما خلد له الذكر الجميل . فلما انقضت الحرب كافأه الامبراطور بلقب ماركيز . ثم عاد الى الوزارة ثالثة سنة ١٨٩٨ ورابعة سنة ١٩٠٠ ولكنه لم يمكث في كليهما الا بضعة اشهر . ثم اقتضت صحته ومصالح بلاده انتقاله الى اوربا

ترى من سرعة ارتقاء هذا الرجل في مناصب الدولة انه ذو مواهب سامية . غير ان المواهب السامية لا تقتضي الاتيان بالمنافع الكبرى حتماً الا اذا تمهدت لها الاحوال وكان صاحب المواهب راغباً في الاصلاح . اما ايتو فأنه توفق الى خدم جزيلة يندر ان تتأتى لرجل وخصوصاً في الشرق وسبب نجاحه انه لم يشرع في عمل قبل ان يدرسه ويتفحصه وقد سار الى اوربا واميركا غير مرة لهذه الغاية . ومن أهم تلك الاعمال انه ادخل الشورى في الحكومة اليابانية فبعد ان كانت حكومة مطلقة وقول الملك فيها شريعة المملكة جعلها شوروية . ولا يخفى ما يحول دون ذلك من المشقة في أمة كان يزعم المتمدنون انها من الامم الخاملة .

بدأ بتأسيس الشورى سنة ١٨٨٣ فوضع لها اللوائح وطال به أمر التنقيح والتعديل لغرابة هذا النظام عندهم حتى تقرر رسمياً سنة ١٨٨٩

وخلاصة نظام الحكومة اليابانية ان الامبراطور هو رأس المملكة وله سلطة الاجراء بمساعدة مجلس شوراه وهم مسئولون بين يديه عن اعمالهم وهو يوليهم ويعزلهم . وهناك أيضاً مجلس خاص يبحث في المسائل الهامة المتعلقة بالمملكة مما يعرضه الامبراطور . وللامبراطور ان يشهر الحرب ويدعو الى السلم ويعقد المعاهدات . وفي اليابان مجلس للاعيان ومجلس للنواب فلا يسن الامبراطور قانوناً الا بمصادقتهما

ومن اعمال ايتو أيضاً أنه أصلح الجندية اليابانية في البر والبحر وبذل في سبيل ذلك العناية الكبرى . ولولا هذا الاصلاح ما استطاعت اليابان ان تتغلب على الصين في حروبها سنة ١٨٩٣ — ١٨٩٦ ولا حدثتها نفسها بالوقوف امام جنود الروس . وللمركيز ايتو لائحة في بناء السفن لا يزال العمل جارياً بها وقد جعلت أسطول اليابان من أمنع الاساطيل

والسر في نجاح مشروعاته واخراجها من القوة الى الفعل انما هو ثقة الامبراطور فيه وانقياده له ولولا ذلك لذهب سعي المركيز هباء منثوراً . ولكنه تسلط على رأي الامبراطور تسلطاً عجيباً وهان عليه اقناعه في ما يشرع فيه من الاصلاح . وخلاصة القول ان الله رضي عن اليابان فمنحها وزيراً حكيماً وسلطاناً سامعاً فلم تمض عليها ثلاثون عاماً حتى انتقلت من مصاف الامم الخاملة الى أرقى مدارج المدنية

يقيم المركيز ايتو الآن في عزبة له اسمها (أويسو) قرب مدينة طوكيو وهو يحب الرياضة البدنية كثيراً ولكنه يفرط فيها حتى تتوالى عليه النزلات الشعبية . وقد وخطه الشيب ولكنه يخضب شاربيه ولحيته . وهو الآن في العقد السابع من عمره لكنك اذا نظرت الى عينيه او سمعت صوته ظننته أصغر من ذلك كثيراً . وهو يلبس اعتيادياً اللباس الافرنجي وفوقه القباء الكبير المزرر من الامام كما تراه في الرسم وعلى رأسه طاقية افرنجية ويحسن التكلم بالانكليزية واذا خاطبته وذكرت نهضة اليابان الاخيرة تلمست من مجمل كلامه اعجاباً بما كان له من الباع الطولى في ذلك

ومن أخلاقه التي يجب أن تكون مثلاً لكل شرقي – سواء كان من رجال السياسة أو العلم أو لاي فرد من أفراد الناس – انه مع رغبته في اقتباس عوامل التمدن الحديث والاقتداء بآداب المتمدنين وترغيب مواطنيه في اقتباسها لم يكن يقبل عادة افرنجية ولا عملاً افرنجياً الا بعد ان يلبسه حلة يابانية محافظة على جامعة الوطن واحتراماً لعوائد البلاد وشعائر أهلها . فهان عليه نشر ما أراد نشره من الامور النافعة ولم يحط من منزلة أمته . فما أجدره ان يكون مثالاً لاناس بين ظهرانينا نراهم اذا اقتبسوا عادة افرنجية بالغوا في المحافظة على أصلها اكثر من محافظة أصحابها عليها وان يكن في بعض تفاصيلها ما يخالف الآداب الشرقية

وديانة اليابان وثنية مثل ديانة أهل الصين ففيها من الديانة الشنتوية احدى عشرة طائفة ومن البوذية ١٢ طائفة في ٣٠ مذهباً . وليس للحكومة ديانة معينة ولا هي تحمل الناس على دين دون آخر فالاديان حرة عندهم ولذلك فالمرسلون المسيحيون قلما يلاقون اضطهاداً حتى كثروا هناك واكثرهم من الكاثوليك والبروتستانت

والتعليم الابتدائي الزامي عندهم وعدد التلامذة في مدارسهم نحو ٨,٠٠٠,٠٠٠ غلام بين السادسة والرابعة عشرة . وفيها مدرسة جامعة مؤلفة من ست كليات للقضاء والعلم والطب والادب والهندسة والزراعة والحكومة تنفق عليها . وفي اليابان ٢٥ مكتبة فيها ٤٤١,٠٣٤ مجلداً وينشر فيها من المطبوعات كل سنة نحو ٢٧,٠٠٠ كتاب و ٧٥٣ صحيفة بين يومية وأسبوعية وشهرية وعدد النسخ التي تنشر منها نحو ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسخة

مساحة جزيرة اليابان ١٤٧,٦٥٥ ميلاً مربعاً وعدد سكانها ٤٢,٢٧٠,٦٢٠ نفساً بينهم ٤,٥٣٣ من اهل الصين و ١,٩٦٠ من الانكليز و ١,٠٢٥ من الاميركان ونحو الف نفس من الالمان والفرساويين والبروتوغاليين و ٢٦٩ من الروس . ويلحق بجزر اليابان جزيرة ايزو وتسمى ايضاً هوكيدو عدد سكانها ١٦,٩٧٨ نفساً

صحة العائلة

الاشربة الروحية

لحضرة نعمة افندي ايليا الصيدلي القانوني في دمنهور

٣ — بحث في احتجاج مستعملي المسكرات

(١) الكحول غذاء : يقول شاربو المسكرات ان الكحول طعام ويستشهدون باشخاص كثيرين عاشوا اسابيع عديدة وهم لا يقتاتون بغير الكحول والماء . فيجابون على هذا ان أشخاصاً عديدين لبثوا ثلاثين الى ستين يوماً لا يتناولون سوى الماء الزلال وقد ظلوا احياء بدون مساعدة الكحول وقد رأينا فيما مرَّ انه لا يتغير في الجسم فهو هو في الآلة التي ستقطره وفي المعدة وفي الدم وفي الدماغ وفي الكبد وفي الانسجة وفي النفس وفي العرق وفي البراز . وبالاختصار لا يستعمل الجسم الكحول بل يطرده منه كما يطرد السموم فهو ليس غذاء بل سم زعاف . قال رتشاردسون « لا اعتبر الكحول طعاماً الا اذا اعتبرت الكلوروفورم والايثير كذلك »

(٢) الكحول مضاد للفساد فهو يحفظ الجسم : اذا وضعتَ في الكحول تفاحة او حيواناً لا يدركه الفساد او الانحلال فاستنتج محبوهُ انه يقي انسجة الجسم من الانحلال . هل يتصور العقل غروراً اعظم من هذا ؟ السليماني والحامض الكبريتيك والمستحضرات النحاسية والحامض الكربوليك كلها من مضادات الفساد فمن يستعملها لحفظ الجسم او اطالة الحياة ؟ ومع ذلك فلو سلمنا ان الكحول حقيقةً يمنع انحلال الانسجة فيكون بذلك مانعاً لناموس الانحلال الطبيعي وبالنتيجة يكون عمله مضراً جداً لان عمل الحياة متوقف على التغييرات الحادثة في انحلال مادة الانسجة وكلما يمنع هذا الانحلال يمنع العمل الحيوي ويقاوم احوال المادة الضرورية للحياة . فمن

هذا يظهر وهن اعتراض السكيرين . يزعمون ان ما يفقده الجسم باستعمال الكحول هو أقل منه في الممتنعين عن شربه اذا تساوت باقي الاحوال فكانهم يقولون الكحول يمنع التغييرات الحيوية ولذلك يحفظ الجسم من الانحلال والتلاشي وعلى هذا الاساس يصفونه لمن يقدم على عمل شاق منهك للقوى الجسدية. يقولون ان كمية المواد المنحلة التي تظهر في بول السكير وغيره من المفرزات اقل مما في من لا يشرب المسكر فيستنتجون ما قيل سابقاً بمنع الكحول الانحلال . تلك نتيجة مدهشة لا يدركها الا المغرم بالمسكرات . لان النتيجة الحقيقية التي يجب استخراجها من تلك المقدمات ان الكحول يمنع الاعضاء المفرزة من اخراج المواد الميتة السامة في الجسم الحادثة من انحلال مادة انسجته وهي اكثر تصديقاً وأقرب الى الحقيقة لا بل هي الحقيقة بعينها لان الكحول نفسه سم يخرجه الجسم بواسطة الاعضاء المخصصة فيه لطرد المواد المائتة وتلك الاعضاء لا تقدر على اكثر مما فرض عليها من العمل . فاذا شغلت معظم قواها لاخراج الكحول عجزت عن اتمام واجباتها في اخراج المواد المنحلة ولذلك يزداد تجمع المواد المذكورة يوماً بعد يوم وتزيد ثقل الجسم وهذا هو سبب انتفاخ هيئة السكير الخارجية . وتجمع تلك الانسجة ليس سمناً صحيحاً ومع ذلك فلا يزال بعض العلماء يقولون بشرب الكحول لمنع انحلال مادة الجسم فعلى هذا يصدق عليه قول بولس « العلم الكاذب » فان كان في الكحول قوة لمنع الانحلال او يظن بوجودها فيه ولاجلها جاز استعماله فيجوز لنا ايضاً استعمال الحامض التنيريك والزئبق اللذين بين الدكتور فايف من ايدنبرج انهما يفعلان نفس ذلك الفعل . غير ان الدكتور سميث وغيره بينوا جلياً ان الكحول لا ينقص انحلال الجسم بل يزيده كما يظهر من ازدياد كمية الحامض الكربونيك الخارجية من الرئتين مع ان كمية اليوريا الخارجة من الكلى هي أقل ولذلك تغير هذه الحقيقة وجه البرهان وتفند زعم القائلين بان الكحول طعام سلبي

(٣) الكحول يقوي العضلات : كثيرون من الفعلة والمسافرين والجنود يستعملان الكحول لانه في زعمهم مقوٍ فاذا تعب العامل تناول قدحاً من المسكر

ممزوجاً بالماء فيشعر بتحسين حاله ويتوهم زيادة في قوته غير ان تلك القوة لم تكن الاَّ خداعاً . يظن شارب الكحول انه أقوى منه قبلاً وأقدر على الاعمال الشاقة وأكثر احتمالاً للتعب والبرد لكن الامتحان يظهر له فساد معتقده فالشعور بالشيء والعمل به امران مختلفان . فالكحول قد غشه لانهُ خدَّر الاعصاب او شلها ففقدت حسها الطبيعي ولذلك ظن شاربه انه قوي حيث لا يعلم بتعبه . يشلُّ البرد القارس اليدين فتفقد الحس حتى يمكن وضع الاصابع بالنار بدون الشعور بفعلها المحرق لكن ذلك لا يمنع من الاحتراق . وقد جرب ذلك الدكتور كاولك وغيره ورفعوا نتائج ابحاثهم الى الجمعية الطبية الاميركية لمنع المسكرات فقالوا « ان شاباً صحيح الجسم تناول ٤ اواق طبية من الهوسكي فنقصت قواه اجمالاً ثلاثة وثلاثين وثلث في المائة ونقصت قواه الحقيقية نقصاً عظيماً وكان معظم الخسارة في الرجلين . وظهر من تجارب أخرى عديدة ان الكحول ينقص القوة العضلية » وقال الدكتور برنتن « ان اقل كمية منه تضعف قوة العضلات » وقال الاستاذ باركر من نيويورك « تقرر ان الكحول متى دخل الجسم ينقص حرارته ويقلل قوته ويقصر الحياة بنسبة ٤٠ في المائة »

(٤) الكحول يزيد حرارة الجسم : ان الشعور بالدفء لدى شرب الكحول كاذب لان الدورة الدموية في الجسم تختلف موازنتها فيشعر بظهور زيادة الحرارة مدة بضع دقائق غير ان الترمومتر يدل على انخفاضها . قال الدكتور باركر « ان الاختبار أظهر فساد دعوى القائلين باستعمال المشروبات الروحية حتى البيرا والنبيذ لمنع البرد » وهكذا قال الدكاترة كين وكان وهايس وغيرهم . وقد انتخب الذين بعثوا للتفتيش عن السر جون فرانكلن من النوتية من لم يذق مسكرًا على الاطلاق ليقووا على احتمال البرد . وقال الدكتور جانوي استاذ المواد الطبية في كلية بلفي من خطاب لتلامذته « الكحول لا يساعد شاربيه على احتمال البرد » وأيد قوله بالحادثة الآتية قال «عينت الحكومة رجلاً لمسح الاراضي في الولايات الشرقية وكان البرد قارساً فاختار مساعديه ممن لا يذوقون مسكرًا وذهب لهذه الغاية أيضاً جماعة أخرى مؤلفة من أناس تعودوا المسكر فمات واحد من الاولين وهلك الآخرون

كلهم اذ لم يكن لهم طاقة باحتمال البرد » وقال السر جون رتشاردسون « احسن مولد للحرارة هو الطعام الكافي والمهضم الجيد اما المشروبات فانها تنبه وقتياً ولكنها تخفض القوة المقاومة للبرد » وقال الدكتور هوكر وهو طبيب بعثة السر جون روس الى القطب الشمالي « الكحول يضر حتى الحاجة الى عمل شاق مدة طويلة في مكان بارد لان الذي يتناوله يرى نفسه بعد أخذه بربع ساعة اكثر تعباً وأعظم برداً مما بدونه » وقال الاستاذ ميلر « ان الحكومة العسكرية الروسية تحظر استعمال الكحول على الجنود وهم في الاماكن الباردة ومن واجبات القواد ان يفحصوا انفاس الجنود صباحاً فرداً فرداً فاذا وجدوا بينهم من تناول مسكراً ارجعوه لان البرد يضرهم وقد يميتهم » وقال الدكتور كاربنتر « ان شركة خليج هدسن حرمت المشروبات في البلدان الشمالية التي دخلت تحت دائرة نفوذها مدة سنتين فنجحت نجاحاً عظيماً » وهذا قاله رتشاردسون عن صحة وآداب الجنود القادمين من كندا وقبائل الهنود

(٥) الكحول يقي من الحرارة المفرطة : المحامون عن الكحول اشبه بذلك الرجل الذي كان ينفخ في البارد والحار أي انهم يدافعون عن الكحول في كل حال . قال الدكتور باركز « لا يخفض الكحول قوة السكير لاحتمال الحر بل يعرضه أيضاً للمرض المعروف بضربة الشمس » وقال الدكتور كاربنتر وغيره من ثقات الاطباء « ان زعم القائلين بلزوم المشروبات الروحية في الاقاليم الحارة زعم فاسد » وقال الدكتور جون بل « ان الذين لا يشربون سوى الماء الزلال هم اكثر قوة من شاربي المسكر على احتمال الاتعاب والتعرض للاخطار في كل اقليم » . كل من يتعاطى عملاً يستدعي حرارة عالية كما في الاعمال الحديدية ومعامل الغاز والسكر وخلافها يجد ان المشروبات الروحية تضره كثيراً جرب ذلك في اثني عشر حداداً يعملون في مرفأ بورتسموث في انكلترا فستة منهم لم يعطوا سوى الماء الصرف والباقون أعطوا ما اعتادوه من البيرا فتعب الاخرون في نهاية اليوم الاول اكثر من الاولين وهكذا كان تعبهم يتزايد في الايام التالية وفي آخر اليوم السادس قال شاربو الماء انهم لم يشعروا عمرهم براحة في اعمالهم كما في تلك الحال . وقال الدكتور بل ان الجنود الهندية

الانكليزية لم تتمتع بصحة جيدة مثل تمتعها في مصر العليا حيث لم يكن يعطى لها مشروبات كحولية نظراً لصعوبة النقل وعظم الحر اذ بلغت درجة الحرارة في الظل ١١٨ فهرنهيت وقد وجد أيضاً ان من كان من الجنود الانكليزية في الهند ممتنعاً منعاً مطلقاً عن المسكرات احتمل تعب المشي الطويل في حر ذلك الاقليم اكثر من شاربه ووجد أيضاً في اميركا ان اكثر الذين يصابون بضربة الشمس مدة الحر الشديد هم من السكيرين وقلما يصاب سواهم

(٦) الكحول منبه : يقولون ان الكحول منبه وهكذا يفعل الافيون والستركنين والحامض الهيدروسيانيك واذا سئل ما هو المنبه لاجيب ان المنبه سم والتنبيه التسمم . ولما يؤخذ الكحول او غيره من السموم تتعاون الاعضاء على اخراجها من الجسم كما تقدم . وهذا الشغب العظيم والاضطراب القوي في الادارة الحيوية يدعى تنبيهاً . هذا تأثير الجرعات الصغيرة منه اما نتائج الجرعات الكبيرة فهي تهيج وقتي يعقبه انحطاط الجسم انحطاطاً عظيماً وشلل جزئي او كلي وقال الدكتور برودي « المنبهات لا تولد قوة عصبية » وعلى فرض ان الكحول منبه فالحقائق التي تقررت تمنع استعماله حيث يستعملونه

(٧) الكحول يقي الجسم من المرض : يستعمل الواحد كحولاً بجرعات صغيرة او كبيرة لدفع بعض الامراض كالجدري والهواء الاصفر (الكوليرا) ويأخذ الآخر جرعات كبيرة من الكونياك لمنع البردية وغيرهم يتعاطى الكحول كالنبيذ والكونياك مدة الشتاء دفعاً للبرد . فلو سلمنا بصحة دعوى هؤلاء فلا يزال ضرر كل واحد من الامراض المذكورة وغيرها مما لم يذكر أخف من أضرار الكحول وحده ولكن كيف نسلم بدعوى أظهر فسادها اختبار الاطباء العديدين فضلاً عن ادلة كثيرة تثبت ان الكحول هو السبب الرئيسي لامراض كثيرة عوضاً عن ان يكون الواقي منها . ولو كان يقي من الامراض حقيقة لكان شاربوه من أحسن الناس صحة ولعمر السكيرون اكثر من غيرهم لكننا نجد الامر بالعكس وقد قررت شركات ضمانة الحياة ان معدل عمر السكير في شبوبيته خمس معدل عمر مجتنب المسكر (الباقي للآتي)

فالروم الارثوذكس نحو ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس ثم الكاثوليك ١٤,٠٠٠,٠٠٠ ثم المسلمون ٥,٣٠٠,٠٠٠ ثم اليهود ٤,٦٥٠,٠٠٠ وكان اليهود منذ بضع عشرة سنة أكثر من المسلمين فاصبحوا اليوم أقل منهم ولا يزالون آخذين بالتناقص والمسلمون قد تضاعفوا وهم آخذون في الزيادة

والجند الروسي مؤلف من كل المذاهب الخاضعة لروسيا على نسبة ذلك الاحصاء تقريباً فما يجمع من الشبان للقرعة العسكرية كل عام نحو ٩٥٠,٠٠٠ نفس منهم نحو ٤٠,٠٠٠ من اليهود ونحو ٥٠,٠٠٠ من المسلمين . وقد يرتقي القائد المسلم الى أعلى رتب الجندية وليس هو أقل من القائد المسيحي غيرة على دولة الروس ودفاعاً عن سلطانها

وفي روسيا ٦٣,١٩١ كنيسة للروم الارثوذكس و٥,١٥٦ كنيسة كاثوليكية و١,٨٦٦ كنيسة انجيلية و ١,٢٧٥ أرمنية و٩,٢٥٤ جامعاً للمسلمين و٦,٣١٩ كنيساً لليهود — وفيها نحو ١٠٠,٠٠٠ كاهن أرثوذكسي و ٣,٦٣٠ كاهناً كاثوليكياً و ٦٠٥ من القسس الانجيليين و ٢,٠٢٥ قسيساً أرمنياً و ١٧,٩١٤ من مشائخ المسلمين و ٥,٦٧٣ حاخاماً

روسيا واليابان

أسباب الحرب وسبب رغبة انكلترا في نصرة اليابان

كتب الينا غير واحد يسألونا عما دعا الى النزاع بين روسيا واليابان حتى انشبت الحرب بينهما . وما هو السبب الذي حمل انكلترا على تمني الانتصار لليابان . وجواباً على ذلك نقول بالاختصار : —

بدأ الخصام بين هاتين الدولتين عند انقضاء الحرب الصينية اليابانية سنة ١٨٩٥ وسببه ان الحرب المذكورة انما انتشبت بين الصين واليابان تنازعاً على مملكة كوريا وانقضت بخروجها من سلطة الصين الى سيطرة اليابان فادخلت اليابان فيها الاصلاحات التي كانت تطلبها لها . وكان من نتائج تلك الحرب أيضاً تنازل الصين لليابان عن بورارثر وطاليانوان والجزيرة المجاورة لها وقطعة كبيرة من الارض داخلة في منشوريا . ففرحت اليابان بهذه النتيجة وطمحت آمالها الى الاستقلال بكوريا . فلو أتيح لها ذلك لاصبحت من الدول العظمى . وكان من آمالها أيضاً ان تمد سلطانها في منشوريا كلها فينتشر اليابانيون في القارة وتتسع مملكتهم لان جزيرتهم ضاقت بهم ولا غنى لهم عن أرض يستعمرونها لهذه الغاية .

ولذلك فان القسم الذي نالوه من منشوريا أصبح مزدحماً بالتجار والعمال من أهل اليابان وكلهم مبتهجون بذلك الاستعمار

ولكن ابتهاجهم لم يمكث طويلاً لان دول أوربا اوجست خيفة من هذه الدولة الناهضة في عصر الحرية لئلا تمد سطوتها رويداً رويداً على منشوريا وغيرها من بلاد الصين فتصير دولة شديدة البطش تخافها الدول على ممالكها او تخاف على الاقل وقوفها في سبيل مطامعها في الشرق الاقصى • فطالت المفاوضة بهذا الشأن وافضت الى محالفة ثلاثية بين روسيا والمانيا وفرنسا قضت على اليابان بالتخلي عن البلاد التي كانت قد اكتسبتها من الصين — سبكوا لها ذلك بقالب النصيحة على أسلوب لطيف ولكنه كان بالحقيقة أمراً لا بدَّ من تنفيذه والاَّ فما وراءه الا السيف • فلم ير الميكادو بدًّا من الاجابة فانسحب من منشوريا وغيرها حالاً وفي نفسه مثل ما في نفس الفرنساويين عند انسحابهم من الالزاس واللورين • وقام في نفوس اليابانيين ان المحرك الاكبر لهذه الحسارة روسيا فنشأت الضغائن بين هاتين الدولتين واصبحت اليابان تعدُّ دولة الروس عدوتها من ذلك الحين • وتضاعفت تلك العداوة لما اذنت الصين لروسيا سنة ١٨٩٨ باحتلال بورارثر وطاليانوان وما يجاورهما • لان هذه البلاد كانت طعمة لليابان من قبل كما تقدم وقد أخرجت منها قسراً

وكانت روسيا قد احتلت منشوريا لاسباب اهمها تسوية مسألة اليابان فلما تمت المحالفة وانسحب اليابانيون ماطلت روسيا في الانسحاب من منشوريا فخاطبتها اليابان في ٨ اكتوبر سنة ١٩٠٣ خطاباً رسمياً طلبت منها فيه ان تنسحب من منشوريا محافظة على بقاء الصين سالمة — وهو الجوب الذي احتج به أصحاب المحالفة على اليابان لما طلبوا منها الانسحاب من تلك البقعة مع انها كانت قد اكتسبتها بالحرب • فاجابت روسيا اجوبة لم تخرج عن الوعد والتسويف فاحست اليابان ان الروس يماطلونها ولا ينوون الانسحاب وان لا بدَّ من الالتجاء الى السيف فاخذت في اعداد المهمات فجمعت اسطولها وأوصت على الفحم وابتاعت جانباً كبيراً من الحبوب ونحوه من الزاد والذخيرة وعهدت بقيادة الاسطول الى الاميرال طوغو وتأهبت للخروج من المداولة الى المبارزة • وفي ٦ يناير الماضي صدر جواب روسيا فلم يعجب اليابان فكتبوا في ١٣ منه كتاباً يطلبون فيه مطالبهم بالحاح فلم يجبهم الروس عليه الاَّ بعد ٢٥ يوماً • ففي ٨ فبراير الماضي أعلنت اليابان قطع العلائق لاعتقادها ان الروس انما يماطلون لانهم على غير استعداد للحرب وكانت هي مستعدة فهجم اسطولها على بورارثر في نصف الليل بين ٨ و٩ من فبراير وهو بداءة الحرب

وأما رغبة الدول وخصوصاً انكلترا وأميركا في انتصار اليابان وانكسار الروس فمبنية على اسباب تهمُّ أوربا بجملتها وهي عبارة عما بين الشرق والغرب من التنازع القديم وكان في الازمنة القديمة بين الفرس واليونان ثم صار بين أثينا والرومان ثم بين هؤلاء والعرب ثم بين المسلمين والافرنج وتسلسل على هذه الصورة حتى أصبح الآن بين أوربا والصين . ومعنى ذلك ان نهضة اليابان وفوزها على الصين أخافا دول أوربا من مستقبل تلك الدولة اذا تمكنت من امتلاك الدين ونشرت عوامل التمدن فيها فينتظم جيشها وأهل الصين كما لا يخفى يبلغ عددهم نحو ثلث عدد العالم برمته وهم أقوياء الابدان وانما يوقفهم عن الفتح جهلهم فاذا دخلوا في حوزة اليابان وتثقفوا ساروا تحت قيادة رجال منهم فيكتسحون العالم المتمدن الى جزائر بريطانيا العظمى . وقد بيَّن مخاوف اوربا من هذا القبيل احد كتابهم المشهورين برواية سماها « الخطر الاصفر » وهي مشهورة عندهم مثّل فيها ما يمكن وقوعه من تمدن الصينيين وحملهم على ممالك اوربا واكتساحها . فتداركت الدول هذا الخطر باخراج اليابانيين من حدود الصين حفظاً لسلامتها كما تقدم ولم يخطر لهم ان يأول ذلك الى خطر اعظم كثيراً من ذلك بما توخته روسيا من توطيد سلطانها في منشوريا وما يترتب على ذلك من مطامعها في الصين . فاذا تأتى لها فتحها وتدريب جندها كان الخطر الاصفر على أوربا منها اشد كثيراً مما على يد اليابان . لان اليابان يسهل الفصل بينهم وبين الصين بالاساطيل وتهديد جزيرتهم بها . وأما روسيا فلن يفصل بينها وبين الصين واذا رسخت قدمها فيها فلن يستطيع نزعها . ولذلك فالدول كلها تفضل انكسار الروس وانما تظاهرت انكلترا وأميركا بذلك لمصالح أخرى لهما في ذلك الشرق

والحرب الحاضرة اما ان يفوز بها الروس قريباً فتمهد لهم السيطرة على الصين او ان يفوز اليابانيون فيكون ذلك اتمهيد لهم . ولكن العارفين لا يقدّرون الفوز لليابان الاّ موقتاً ولا بد أخيراً من فوز الروس — وهل اذا فاز الروس تبقى الدول الاخرى على الحياد مع ما يهددها من الخطر أم تتصدى للحرب بعضها مع روسيا وبعضها عليها وما تكون العاقبة بالنظر الى الموازنة الدولية — كل ذلك من الخبآت المخيفة التي ستنكشف ونرجو ان تكون العاقبة خيراً

لدينا كثير من المطبوعات ضاق هذا الهلال عن ذكرها وعن غيرها من أبواب المجلة بما تدعو اليه الحالة الحاضرة من التوسع باحوال الروس واليابان وشؤون الحرب

كيفية اشهار الحرب

نظراً لما تداولته الجرائد واختلفت فيه الآراء في بداءة الحرب المنتشبة اليوم في الشرق الاقصى عما كان من مبادرة اليابان الى الحرب قبل الاعلان الرسمي رأينا ان ننقل فصلاً خاصاً بهذا الموضوع من كتاب « حقوق الملل ومعاهدات الدول في الحرب » لصاحبه الامير امين ارسلان قنصل الدولة العلية في بروكسل قال : —

﴿ كيفية اشهار الحرب ﴾ كان لاشهار الحرب في الاعصر الخالية طرق مختلفة وكيفيات متنوعة . فالرومان كانوا يتفذون منادياً خاصاً للحرب معروفاً بهذه الصفة الى حدود الدولة التي رغبوا في محاربتها فيصيح باعلى صوته معلناً اشهار الحرب ثم ينتزع سهماً و يطلقه الى ارض العدوّ

وكانت الحرب تعلن في القرون الوسطى بكتاب موقع بامضاء الملك ومهره يحمله رسول خاص من كبار اهل البلاط الى الملك الآخر

ولما اعلن فردريك المعروف ببار باروس الحرب الصليبية ارسل الى السلطان صلاح الدين الايوبي رسولاً يحمل اليه كتاباً يخطره باشهار الحرب وانفذ الملك شارل الخامس ملك فرنسا الى ادوار الثالث ملك انكلترا بلاغ الحرب مع خادم حقير من خدم بلاطه فاندهش ملك انكلترة وارتاب في صحة الكتاب ولكنه لما فحص مهر الملك وثق بصحته وتأهب للقتال

على انهم لم يلبثوا طويلاً حتى عادوا في الجيل الخامس عشر والسادس عشر الى عادة ارسال منادٍ باشهار الحرب يطوف الشوارع بجمع الناس . فلما اشهرت ماري ملكة انكلترا الحرب على هنري الثاني ملك فرنسا انفذت الى مدينة ريمس حيث كانت قاعدة الملك منادياً حربياً خاصاً وطاف في اليوم نفسه منادٍ آخر في شوارع لندره وساحاتها مصحوباً بحاكم المدينة وثلاثة فرسان يبوقون امامه ابلاغاً للشعب باعلان الحرب

وآخر بلاغ على هذه الكيفية حدث في بروكسل عام ١٦٣٥ لما أراد الملك لويس الثالث عشر اعلان الحرب على بلجيكا اذ أرسل منادياً حربياً خاصاً اسمه دالنسون فجاء المدينة على جواده وفوقه درعه وقلنسوته وبيده شارة الملك وهي عصا مرسوم عليها ازهار الزنبق يتقدمه نافخ بوق . فلما وصل ساحة المدينة الكبرى امام قصر الحاكم استأذن في مقابلته فلم يجبه الى ذلك فأخذ نسخة من اعلان الحرب والقاها على الشعب المجتمع وخرج من المدينة مسرعاً . فلما وصل الى القرية الاولى من حدودها

نصب خشبة وعلق عليها نسخة أخرى من الاعلان بعد ان نبه شيخ القرية بصوت البوق

اما في أيامنا هذه فكيفية اعلان الحرب تكون اما رأساً الى الدولة المعادية او كما فعلت فرنسا لما أعلنت حربها السبعينية على بروسيا اذ كلفت سفيرها بنديتي بتبليغ الدولة البروسيانية اعلان الحرب في ١٥ تموز ١ يوليو وأما ان تكون بطريقة أخرى كمظاهرة او اخطار نهائي . ولا أهمية لكيفية البلاغ وصورته بل المهم المظاهرة واعلان النية وأهم منه تحديد الوقت وتعيين الساعة التي تبدأ بها الحرب

فان السرب لما اشهرت الحرب على بلغاريا عام ١٨٨٥ كلفت في ١٤ نوفمبر معتمد دولة اليونان في صوفيا ان يبلغ امارة البلغار بان الحرب تبدأ الساعة السابعة صباحاً . وفي اليوم نفسه زحفت جنود السرب على بلغاريا من ثلاث جهات

ان استدعاء السفراء ومعتمدي السياسة يعدّ اليوم من علامات قطع العلائق السلمية بين الدول ولكنه لا يعدّ دائماً علامة لاشهار الحرب . فاذا طال الامر كذلك وجب اخطار الدولة الاخرى بنيتها

والحرب تنتج أحياناً عن سبب عرضي او من اتيان عمل يمس حقوق دولة أخرى او يحط من مقامها تعتبره سبباً للحرب فيجب عليها حينئذ اخطار الدولة التي أتت ذلك الامر ببلاغ نهائي يعرفه الافرنج بكلمة (Ultimatum) أولتيماتوم والبلاغ المذكور هو عبارة عن لائحة سياسية بعبارة صريحة قاطعة نهائية تتضمن الاقتراحات المطلوبة محددة تحديداً جلياً وتطالب المجاوبة عليها جواباً باتاً بلا مطل ولا ابهام وقد يحددون مهلة الجواب فاذا مضت عدّ ذلك الصمت اعلاناً للحرب

والمهلة يجب ان تكون معقولة اي لا طويلة تسمح للعدو بزيادة التأهب ولا قصيرة بنوع ان يعقبها زحف الجنود سريعاً

وقد لا يعينون مدة للجواب بل يكتفي بالقول انه اذا رفض البلاغ تكون الدولة الاخرى على بصيرة من أمرها . فاذا كان كذلك لا يعدّ رفض البلاغ بمثابة اعلان الحرب بل يجب انفاذ لائحة أخرى معلنة بذلك . وجملة الكلام ان الغاية من كل ذلك ألاّ تكون الحرب مباغتة ولا الزحف مفاجئة بل ليكون الخصمان على حذر وبصيرة من الامر

واما اذا كانت الدولة مدافعة فلا يجب عليها اعلان الحرب على الدولة التي بادأتها بالعدوان لان الدفاع من مبادي الحقوق الاولية

(نشر اعلان الحرب في الجرائد) ومن واجبات الدول المحاربة اخطار رعاياها

بان الحرب قد اشهرت بينها وبين الدولة الفلانية لان الحرب تقضي بتغيير العلاقات بين الامم المتحاربة فوجب والحالة هذه اخطارها بذلك . ولكل دولة اليوم جريدة رسمية تنشر فيها اعلان الحرب بعد ابلاغها الى المجالس النيابية اذا كانت الحكومة دستورية

❊ مذكرة الجيب الهندسية ❊ اهدانا حضرة ابراهيم افندي زكي مهندس مركز دمنهور كتابًا لم ينسج على منواله في العربية ويندر مثاله في الافرنجية . الا انه تذكرة المشتغلين في الهندسة فلم يغادر شاردة من شوارد هذا الفن وفروعه الا دونها فيها كالري والنيل واوقات الزراعة وتصرف الآلات الرافعة والمدارف والمواسير ومواد وادوات البناء والحفر والردم وقياس الاخشاب والبراميل . وجداول بمقدار قوى الاعداد وجذورها وجداول اللوغرثمات والجبر وحساب المثلثات والقطاعات المخروطية وقواعد الضوء والصوت والحرارة والايدروستاتيك ومراكز الثقل والاحتكاك والتصادم ومقاومة المواد والاعتاب والجملونات والشقوق والحيطان والقناطر والممرات والبرشام والجاو يطات والسكك الحديدية والآلات البخارية والعمارة والطبوغرافيا واراتيك جسور النيل وقواعد عمومية على الانهر وحفظ شواطئها . وكل ذلك مفصل ومبوب وموضح بالرسوم والاشكال والجداول والقواعد على اسلوب مفيد جدًا وقد ذيله بفهرس مطول والحق به ذيلاً نشر فيه الاوامر العالية والقرارات التي يهمّ المهندس الوقوف عليها واوراقًا بيضاء لتعليق ما يعن للمهندس تعليقه لنفسه . وصفحات الكتاب نحو سبعماية صفحة متوسطة بحرف دقيق وورق رقيق ومتين ليسع المواد التي اراد المؤلف تدوينها فيه وقد جلده بشكل مستطيل يسهل حمله بالجيب فالمذكرة المشار اليها عبارة عن قاموس هندسي لا يستغني عنه المشتغلون بالهندسة النظرية او العملية بكل فروعها وثمن النسخة مئة وخمسة وعشرون قرشًا و يطلب من مكتبة الهلال بمصر

❊ الافكار ❊ انشأ الدكتور سعيد افندي ابو جمره جريدة الافكار في سانباولو منذ عام وبعض العام فنالت في هذه المدة القصيرة من الاستحسان والاقبال مالم ينله سواها في اعوام لما حوته من النصائح الصحية والابحاث الفلسفية فضلاً عن الاخبار العمرانية والفوائد التهذيبية العائدة بالنفع على القراء وخصوصًا في البرازيل ولم يدخر صاحبها الفاضل وسعًا في تحسينها وتوسيع نطاقها فراى حرصًا على ما يجتمع فيها مما لا يتأتى لكاتب الا بعد العناء والتنقيب ويندر اجتماعه في جريدة واحدة ان يجعلها بشكل مجلة اسبوعية ليسهل جمعها وتجليدها لتحفظ في جملة ذخائر العلم والادب فنهنىء رصيفنا صاحب الافكار ونرجو لجريدته دوام الارتقاء



الجزء الثاني عشر من السنة الثانية عشرة

﴿ ١٥ مارس (اذار) سنة ١٩٠٤ و ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٢١ ﴾

ديانة الروسيين القدماء

وكيف تنصَّروا

كانت ديانة الروس قديماً وثنية مثل ديانات سائر الشعوب الآرية في ذلك العهد وكانت لهم آلهة عديدة يقدمون لها القرابين ويذبحون الذبائح أشهرها ستة وهي (١) بيرون اله الرعد والبرق والحرب والسلام (٢) واجديوغ اله الشمس (٣) ديدلادو رب النور (٤) دوموفوي اله المساكن (٥) فوديانوي اله المياه (٦) ليشي اله الاحراج وكان عندهم ايام معدودة من السنة يعيدون فيها لكل من الالهة . وما زال الروسيون على الوثنية الى أواخر القرن العاشر للميلاد وهم آخر من تنصر من دول أوربا

ولما ظهر الاسلام وبلغت فتوح المسلمين الى اعالي اسيا كان الروس او الصقالبة في جملة الامم المتوحشة وكان تجار الرقيق يحملون جماعات منهم الى اسواق بغداد والبصرة ودمشق وقرطبة وطليطلة يبيعونهم بيع الامتعة وكانوا يعرفون بالمماليك الصقالبة فيستخدمهم الخلفاء في بلاطهم حرساً او جنداً او خصياناً وربما كان في بلاط الخليفة الوف منهم قد اعتنقوا الاسلام وأصبحوا من أقوى أنصاره وخصوصاً في دولة بني أمية بالاندلس ولم تتألف من الروس دولة يحكمها أميرٌ الا في أواسط القرن التاسع للميلاد

وكان المسلمون في إبان مجدهم ومعظم سلطانهم وقد خفقت اعلامهم على القارات الثلاث. فكان أمير الروس في جملة ملوك اوربا يومئذ الذين كانوا يوفدون الوفود الى خلفاء المسلمين وأمرائهم وخصوصاً الى عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس . فقد كانت رسل ملوك الالمان والصقالبة والافرنج والروم يتزاحمون ببابه يحملون اليه الهدايا وأسباب المسالمة. وكان الخلفاء يكرمون وفادة اولئك الرسل ويوفدون رسلاً مثلهم

وأقدم من علمنا بارساله من المسلمين الى ملك الصقالبة احمد ابن فضلان أنفذه الخليفة المقتدر العباسي في اول القرن الرابع للهجرة فلما عاد من رحلته كتب رسالة يصف بها أحوال الروس ومعتقداتهم مما شاهده بعينه وهو أقدم من توفق له ذلك . وهاك نص مقالته مما يتعلق بديانتهم وفيه شيء من عاداتهم قال :—

« ورأيت الروسية وقدوافوا بتجارتهم فنزلوا على نهر اتل فلم أر أتم ابداناً منهم كأنهم النخل شقر حمر لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه ويخرج احدى يديه منه ومع كل واحد فاس وسكين وسيف لا يفارقه منها شيء وسيوفهم صفائح مشطبة افرنجية من حد الظفر الواحد منهم الى عنقه مخضر شجر وصور وغير ذلك وكل امرأة منهم على ثديها حقة مشدودة من حديد واما من نحاس واما من فضة واما من ذهب على قدر مال زوجها ومقداره في كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضاً وفي أعناقهن أطواق ذهب وفضة لأن الرجل اذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقاً وان ملك عشرين الفاً صاغ لها طوقين وكذلك كل عشرة الاف درهم كلما ازداد يزداد طوق امرأته فربما كان في عنق الواحدة منهن اطواق كثيرة . واجل الحلي عندهم الخرز الذي يكون على السفن يبالغون فيه ويشترون الخرزة منه بدرهم وينظمون عقوداً لنسائهم وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غايط ولا يغتسلون من جنابة كأنهم الحمير الضالة يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم باتل وهو نهر كبير ويبنون على شاطئه بيوتاً كباراً من الخشب ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والاقل والاكثر ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه ومعه جواريه والروقة للتجارة ...

وساعة موافاة سفنهم الى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيذ حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الانسان

وحولها صور صغار وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الارض . فيوافي الى الصورة الكبيرة ويسجد لها ويقول يارب قد جئت من بعد ومعي من الجواري كذا وكذا راساً ومن السمور كذا وكذا جلداً حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته ثم يقول وقد جئتك بهذه الهدية ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة ويقول اريد ان ترزقني تاجراً معه دنانير ودراهم فيشتري مني كلما أريد ولا يخالفني في جميع ما أقول . ثم ينصرف فان تعسر بيعه وطالت ايامه عاد بهدية أخرى ثانية وثالثة فان تعذر عليه ما يريد حمل الى صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألهم الشفاعة وقال هؤلاء نساء ربنا وبناته فلا يزال الى صورة صورة يسألها و يستشفع بها و يتضرع بين يديها فربما تسهل له البيع فباع فيقول قد قضى ربي حاجتي واحتاج ان اكافيه فيعمد الى عدة من البقر والغنم ويقتلها ويتصدق ببعض اللحم ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها ويعلق رؤوس الغنم والبقر على ذلك الخشب المنصوب في الارض . فاذا كان الليل وافت الكلاب فاكلت ذلك فيقول الذي فعله قد رضي ربي عني واكل هديتي

• واذا مرض احدهم ضربوا له خيمة ناحية عنهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ولا يقربونه ولا يكلمونه في كل أيام مرضه لاسيما اذا كان ضعيفاً او كان مملوكاً فان برئ وقام رجع اليهم وان مات أحرقوه . وان كان مملوكاً تركوه على حاله حتى تأكله الكلاب وجوارح الطير . واذا أصابوا سارقاً او لصاً جاؤوا به الى شجرة طويلة غليظة وشدوا في عنقه حبلاً وثيقاً وعلقوه فيها أبداً حتى يتقطع بالرياح والامطار . وكان يقال لي انهم يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلها الحرق فكنت أحب أن أقف على ذلك حتى بلغني موت رجل منهم جليل فجعلوه في قبره وسقفوه عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها . وذلك ان الرجل الفقير يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها والغني يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة اثلاث فثلث لاهله وثلث يقطعون له ثياباً وثلث يشترون به نبيذاً يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها . وهم مستهترون بالخمر يشربونها ليلاً ونهاراً وربما مات الواحد منهم والقدح في يده واذا مات الرئيس منهم قال اهله لجواريه وغلمانه من منكم يموت معه فيقول بعضهم انا فاذا قال ذلك فقد وجب لا يستوي له ان يرجع ابداً ولو أراد ذلك ما تُرك . واكثر ما يفعل هذا الجواري . فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه من يموت معه فقالت احداهن انا فوكلوا بها جاريتين يحفظانها ويكونان معها حيث ما سلكت حتى انهما ربما غسلتا رجليها بايديهما واخذوا في

شأنه وقطع الثياب له واصلاح ما يحتاج اليه والجارية في كل يوم تشرب وتغني فارحة مستبشرة . فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية حضرت الى النهر الذي سفينته فيه فاذا هي قد أخرجت وجعل لها اربعة اركان من خشب الخدنج وغيره وجعل حولها ايضاً مثل الاناس والكبار من الخشب ثم مرت حتى جعلت على ذلك الخشب واقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهمه وهو بعد في قبره لم يخرجوه ثم جاؤا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات والديباج الرومي والمساند الديباج الرومي ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت ففرشت على السرير الذي ذكرناه وهي وليت خياطته واصلاحه وهي تقتل الجواري ورأيتها جوانبرة (كذا) مكفهرة فلما وافوا قبره نحوا التراب عن الخشب ونحوا الخشب واستخرجوه في الازار الذي مات فيه فرأيته قد اسود لبرد البلد وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهة وطنبوراً فاخرجوا جميع ذلك واذا هو لم يتغير منه شيء غير لونه فالبسوه سراويل وزناناً وخفاً وقرطقاً وخفتان ديباج له ازرار ذهب وجعلوا على رأسه قلنسوة من ديباج سمورة وحملوه حتى ادخلوه القبة التي على السفينة واجلسوه على المضربة وأسندوه بالمساند وجاؤا بالنبيذ والفواكه والريحان فجعلوه معه وجاؤا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه فجاؤا بكلب فقطعوه نصفين والقوه في السفينة . ثم جاؤا بجميع سلاحه فجعلوه الى جانبه ثم أخذوا دابتين فاجروهما حتى عرقتا ثم قطعوهما بالسيوف والقوا لحمهما في السفينة ثم جاؤا ببقرتين فقطعوهما ايضاً والقوهما في السفينة ثم أحضروا ديكاً ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها والجارية التي تقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة من قبابهم .

فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاؤا بالجارية الى شيء عملوه مثل ملبن الباب فوضعت رجلها على اكف الرجال وأشرفت على ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها فانزلوها ثم اصعدوها الثانية ففعلت كما فعلت في المرة الاولى ثم انزلوها واصعدوها ثالثة ففعلت فعلها في المرتين ثم دفعوا اليها دجاجة فقطعت راسها ورمت به فاخذوا الدجاجة فالقوها في السفينة فسألت الترجمان عن فعلها فقال قالت في المرة الاولى هوذا أرى أبي وأمي وقالت في المرة الثانية هوذا أرى جميع أقرباني الموتى قعوداً وقالت في المرة الثالثة هوذا مولاي قاعد في الجنة والجنة حسنة خضرا ومعه الرجال والغلمان وهو يدعوني فاذهبوا بي اليه . فمروا بها نحو السفينة فنزعت سوارين كانتا معها ودفعتهما الى المرأة التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها ونزعت خلخالين كانتا عليها ودفعتهما

الى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها وهما ابنتا المعروفة بملك الموت . ثم أصعدوها الى السفينة ولم يدخلوها القبة فجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا اليها قدحاً من نبيذ فغنت عليه وشربته فقال لي الترجمان انها تودع أحبابها بذلك ثم دُفع اليها قدح اخر فاخذته وطولت الغناء والعجوز تستحثها على شربه والدخول الى القبة التي فيها مولاها . فرأيتها وقد تبلدت وأرادت الدخول الى القبة فادخلت رأسها بين القبة والسفينة فاخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري فلا يطلبن الموت مع مواليهن ثم دخل القبة ستة رجال .... ثم اضجعوها الى جانب مولاها فامسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلاً مخالفاً ودفعته الى اثنين ليذبانه وأقبلت ومعها خنجر عظيم عريض النصل وأقبلت تدخله بين اضلاعها وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت . ثم وافى أقرب الناس الى الميت فاخذ خشبة فاشعلها بالنار ثم مشى القهقري نحو قفاه الى السفينة والخشبة في يده الواحدة والاخرى على قفاه وهو عريان حتى احترق الخشب المعبا الذي تحت السفينة ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحد خشبة وقد الهب رأسها فيلقيها في ذلك الخشب وتأخذ النار في الحطب ثم في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية وجميع ما فيها . ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتد لهب النار واضطرم تسعرها وكان الى جانبي رجل من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذي معه فسألته عما قال له فقال انه يقول انتم معاشر العرب حمقى لانكم تعمدون الى أحب الناس اليكم واكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب فتأكله الهوام والدود ونحن نحرقه في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته . ثم ضحك ضحكاً مفرطاً وقال من محبة ربه له قد تهب الريح حتى تأخذه في ساعته . فامضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والجارية والميت رماداً ثم بنوا على موضع السفينة وكانوا اخرجوها من النهر شيئاً بالتل المدور ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة خذنج وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا » انتهى كلام ابن فضلان

وما زال الروسيون على الوثنية الى أواخر القرن العاشر للميلاد اي بعد حكاية ابن فضلان ببضع عشرات من السنين اذ تولى شؤونهم الامير فلاديمير من سنة ٩٨٠ — ١٠١٥ م وعلى يده تنصر الروسيون



الامير فلاديمر — مدخل النصرانية الى روسيا

وفلاديمر هذا ليس أول من تنصر من ملوك الروس فقد سبقه الى ذلك أميرة يقال لها أولغا تولت حكومة الروس سنة ٩٤٥ م وكانت من التعقل والحكمة على جانب عظيم وكانت الديانة المسيحية قد امتدت سرًّا في بعض رعاياها وكانوا لا يجسرون على المظاهرة بها خوفًا من الاضطهاد وعلمت الاميرة اولغا بهم وسألت عن سبب تسترهم فقصوا عليها شيئًا من معتقدهم فضلاً عما توسمته فيهم من العفة والصدق والامانة فأثر ذلك في قلبها واشتغل خاطرها في أمر اخراها . فلم تجد راحة من هذا البلبال الا بالذهاب الى القسطنطينية وهي مقر الكنيسة الشرقية للبحث في هذا الشأن فمهدت بمقاليد الحكومة الى ولدها سفياتوسلاف وشخصت الى القسطنطينية فأعجبها ما فيها من الفخامة وأسباب البذخ وزارت بعض المعابد فبهرها ما هنالك من أسباب الرهبة والخشوع

وكان البطريرك القسطنطيني يومئذ بولفكتوس فعلمها الطقوس الدينية وعمدها في كنيسة اجياصوفيا الشهيرة ، ثم عادت الى بلادها وأخذت ترغب ابنها في النصرانية فلم يطعها فتأسفت لذلك ولكنها كانت تعامل رعاياها المسيحيين معاملة حسنة جدًّا — فلما توفيت سنة ٩٥٧ خلفها ابنها المذكور وتولى الامارة خمس عشرة سنة قضاها في

الحروب ونحوها ولما توفي اختلف اولاده على الملك بعده ثم افضى الى أحدهما « فلاديمر » سنة ٩٨٠ م

واتفق في أيام هذا الامير ان جنوده عادوا من حرب وقد ظفروا بأعدائهم وكان من عادتهم في مثل هذه الحال ان يقدموا لاكبر آلهتهم ذبيحة بشرية فينتخبون من بين أهل البلاد شابًا أو شابة يذبحونها بين يدي الصنم . فوقع اختيارهم في ذلك العام على ابن رجل مسيحي فوقعت القرعة على الغلام فطلبوه من أبيه فأنبهم على ذلك العمل وأخبرهم ان الاله الحقيقي هو خالق الكل فاغلظوا له القول فأجابهم ووبخهم فهددوه بالقتل وقالوا « قدم ابنك للآلهة لانها تطلبه » فأجاب الرجل « اذا كانت هي تريده حقيقة فلترسل احدًا من قبلها لاخذه » فازداد حنق الشعب وهموا بالرجل وابنه وقتلوهما . فلما بلغ ذلك الحادث الى الامير فلاديمر تأثر له قلبه وتولته الشكوك في اصنامه وأقر اخيرًا على رفضها واعتناق ديانة الهية . فشاع خبره في الممالك المجاورة فعملت كل طائفة على ادخاله في ديانتها . فجاءته رسل الملوك من اوربا واسيا وفيهم المسلمون واليهود والنصارى من الشرق والغرب وكل منهم يدعوه الى ديانته

وكان اول من جاءه منهم وفد بلغاري يدعونه الى الاسلام وشرحوا له عقائده وأركانه فلما رآه يحرم الخمر اجابهم « ارجعوا من حيث اتيتم لان الخمر فرح الروسيين لا يعيشون بدونها » ثم جاءه وفود الاديان الاخرى فلم يقنعه احد منهم واخيرًا جاءه رسول البطريرك القسطنطيني ومعه الهدايا الفاخرة وكان على جانب عظيم من العلم والفصاحة واسمه كيرلس . فلما وقف بين يديه اخذ يقص عليه عقائد المذهب الارثوذكسي بفصاحة وبلاغة خلبا لبه . واخيرًا اراه صورة تمثل يوم الدينونة وفيها الامم وقوفًا وبعضهم الى اليمين وبعضهم الى اليسار وقص عليه خبرها فتأثر فلاديمر تأثيرًا عجيبًا من منظر تلك الصورة وبلاغة ذلك الخطيب ولكنه تمهل لزيادة البحث . فأرسل جماعة من اشراف مدينته الى الممالك المجاورة وطلب اليهم ان يتفحصوا احوال تلك الديانات في اماكنها . فعادوا وقد بهرهم منظر كنائس القسطنطينية بنوع خاص وقالوا للامير « لم نر احسن من ديانة اليونانيين لاننا

وقفنا في كنيستهم فلم نعلم أفي السماء نحن ام على الارض اذ ليس على الارض منظر ابهى من ذلك » فصمم على التنصر ولكنه لم يكن يستطيع ذلك الا بالتنازل لامبراطور القسطنطينية فاستنكف من التذلل فاخترع طريقة توصله الى المطلوب بشرف . وذلك انه جرد لمحاربة اليونان في القرم وكانت من املاكهم وحاصر خرصون ثم فتحها فكتب الى الامبراطور يهدده بفتح القسطنطينية او يزوجه اخته فاجابه « لا يجوز للمسيحي ان يزوج اخته لوثني فاذا تنصرت زففناها اليك » فاجابه بالقبول وتنصر واعتنق الديانة المسيحية على المذهب الارثوذكسي وتسلطت هذه الديانة في بلاد الروس من ذلك الحين

والروسيون من اكثر الامم النصرانية تمسكاً بالدين ومحافظة على تقاليده وكانت عاصمتهم لما تنصر فلاديمير في كيف ثم انتقلت الى موسكو وجعلوا يبنون فيهما من الكنائس والقصور ما لا مثيل له في اقطار العالم . واشهر تلك الاماكن « الكرملين » وفيه اعظم قصور الروس وافخر آثارهم واليك تعريف الكرملين كما وصفها عزتلو ادوارد بك الياس وقد شاهدها شهادة عين منذ بضع سنين

قصور الكرملين

او بذخ الروس وتدينهم (١)

« الكرملن اهم اقسام موسكو وهو في منتصف البلدة آخره متصل بنهر مسكوفا بني على رابية مرتفعة واسعة قام فوقها القصر الامبراطوري والكنائس والاديرة . وقد جمعت هذه الابنية العظيمة كلها في الدائرة التي تعرف باسم الكرملن وأحيطت بسور واطىء محيطه نحو الفي متر . وللكرملن هذا عند الروس مقام عظيم واعتبار فائق حتى أن بين أمثالهم مثلاً معناه ان الكرملن يعلو كل شيء ولا يعلوه غير السماء . وله

(١) نقلاً عن مشاهد اوربا وامير كا

مداخل عدة منها مدخل الخاص وهو باب عظيم علق فوقه ايقونة السيد المسيح جاء بها القيصر الكسي من بلدة سمولنسك وهم يضيئون امامها مصباحاً لا يطفأ في الليل ولا في النهار. وقد جرى الروس على عادة قديمة في عهد القيصر الذي ذكرناه واتبعوها بأمره هي انهم اذا مرّوا من تحت هذه الصورة رفعوا القبعات احتراماً لها وخشوعاً وصار الاجانب في موسكو يفعلون فعلهم أيضاً. ولما دخلتُ الكرملن من ذلك الباب اذهلني كثرة ما يضمه ذلك المكان من الابنية العجيبة والكنائس فانك كلما سرت خطوات معدودة وجدت أمامك كنيسة تزيد في محاسنها وغرائبها عن التي تقدمتها فقصدت قبل كل أمر قصر القياصرة الذي يقيمون فيه عند زيارة موسكو او حين حضورهم للتتويج. فارتقينا سلماً عريضاً من الرخام النفيس درجاته منبسطة لا يكاد الصاعد عليها يشعر بعناء الصعود وفي آخرها رسوم تاريخية منها رسم تتويج اسكندر الثالث ومشائخ الاقاليم يقدمون له الخبز والملح علامة الخضوع وغير هذا من رسوم الحوادث المشهورة. والقصر عظيم الاتساع فيه ٧٠٠ قاعة وغرفة ورحبة. شرع نقولا الاول في بنائه سنة ١٨٣٨ على اطلال القصور السابقة التي أفنتها النار او تهدمت من طول الزمان. فما تم البناء الا سنة ١٨٤٩ وأنفق عليه حوالي ١٢ مليون ريال روسي. وفي أول القسم الجديد من هذا القصر الفخيم رحبة مستطيلة قائمة على عمد من الرخام المصقول وهي توصل الى قاعات ثلاث لها شهرة ذائعة في أوروبا كلها وقد سميت بأسماء القديسين الذين أعطيت اسماؤهم لأشرف الوسامات الروسية وهي قاعة القديس جورجيوس وقاعة القديس اسكندر نفسكي وقاعة القديس اندراوس

« اما قاعة جورجيوس فسميت باسم القديس الذي تحترمه الطوائف الارثوذكسية وتروى عنه حكاية التنين وقد جعلوا طول هذه القاعة الفخيمة في قصر كرملن ٦١ متراً وبنوها من الرخام الابيض البديع تزينه عروق من الذهب ورسوم كثيرة. وارض هذه القاعة من الخشب المصقول مثل اكثر القاعات الكبرى في قصور الملوك والاشراف وسقفها قائم على عمد ودعائم من الرخام أيضاً نقش عليها بماء الذهب تاريخ الفتوحات الروسية واسماء المواضع التي ملكها الجيش الروسي. وعلى الجدران

اسماء الفرق التي أمتازت بالاقدام في هذه الحروب والقواد الذين شادوا لهذه السلطنة صروح الفخار في معامع النزال وأحسن اليهم بوسام القديس جورجيوس وهو أعلى وسام يناله المرء عندهم بسبب بسالته واقدامه . وفي آخر القاعة تماثيل قواد عظام من الفضة مثل القائد برماك الذي فتح سيبيريا وفيها ثريات لا يقل عدد شموعها عن ٤٫٥٠٠ شمعة وكلها آية في الفخامة والبهاء . ويتصل بهذه القاعة العظيمة قاعة القديس اسكندر نفسكي وهي حمراء الجدران محلاة برسوم ذهبية طولها ٣١ مترًا وعلو قبتها ٢١ مترًا وفي هذه القاعة صور تمثل حياة القديس نفسكي الذي سميت القاعة باسمه وفيها ١٤ شباكًا امامها مرائي ترى فيها ماوراء القصر من المناظر وحركة المارين



القيصر والقيصرة بمركبتها يطوفان في الكرملين

« ثم قاعة القديس اندراوس وهو يعد حامي بلاد الروس ووسامه أشرف وسامات الدولة الروسية أنشأه بطرس الكبير سنة ١٦٩٧ وقد جعلوا هذه القاعة العظيمة خاصة بالعرش ولونها ازرق معرق بالذهب وضعوا في صدرها عرش القياصرة يحمله نسران عظيمان والقيصر يجلس عليه حين قدوم المهنئين بعد حفلة التتويج . وطول هذه القاعة ٤٩ مترًا وهي محاذية للقاعتين السابقتين تكوّن معها خطًا واحدًا وتتصل بهما بابواب فسيحة فطول القاعات الثلاث كلها ١٤٦ مترًا ولها منظر غاية في الجمال وهي

تقام فيها الحفلات العظيمة وتولم الولائم للسفراء ورؤساء الكنيسة وكبراء الدولة بعد انقضاء حفلة التتويج . ووراء قاعة العرش هذه قاعات للحرس الامبراطوري ثم قاعات القيصرة وسيدات الشرف من الاميرات اللاتي يسرنَ بمعيتها وكل هذه القاعات من الرخام الثمين المذهب وفي بعضها عمد بديعة الشكل من حجر المالكيت واما رياشها وأدواتها فيكفي ان يقال بانها تليق باعظم القصور واعظم القياصرة ولا حاجة بعد هذا للاسهاب وقد رأيت ان قاعة الطعام في هذا القصر كل كراسيها ومناضدها من الفضة الخالصة وأدوات الاكل كالملاعق والسكاكين من الذهب . وهنالك حمام على النسق الشرقي كله رخام وبلور ورسوم ذهبية وستائر ثمينة كتب فوق بعضها الفاظ شرقية وكل معداته دالة على منتهى الرغد . وكنيسة القصر هذا فاخرة فخيمة صنع بابها من الفضة المطلاة بالذهب ومثله الهيكل

« هذا كله في القسم الجديد من قصر القياصرة في الكرملن واما القسم القديم فانه باق على حاله من أيام القيصر فيودور الكسوفتش والد بطرس الكبير وهو بنى هذا المنزل لاولاده فله عند الروسيين اعتبار عظيم . ولهذا القصر القديم اربع طبقات كان بطرس واخوتهُ يشتغلون في الاولين منها بالصنائع كالرسم والنجارة والحدادة وغيرها ويقيمون في الدورين الباقيين والغرف كلها واطئة بسيطة اذا قابلتها بقاعات القصور الحديثة. منها غرفة الرقاد فيها سرير من الحديد قديم في غاية البساطة لوالد بطرس الكبير وبساط صنعتهُ ابنة ذلك القيصر العظيم بيدها وصندوق كانت توضع فيه عرائض المتظلمين والمشتكين . فكان القيصر ينزل في آخر النهار الى هذا الصندوق ويأخذ ما فيه من الاوراق بنفسه ثم ينظر فيها وينصف اصحابها . وفي داخل هذه الغرفة غرفة أُخرى صغيرة خصت بالعبادة توقد فيها الشموع حول الايقونات ليلاً ونهاراً . ومررنا من الدهليز الى القسم المخصص للمجمع المقدس حيث كانت تعقد جلساته للمفاوضة في الامور الدينية وفي جدران هذا القسم صور تمثل الحوادث الدينية المذكورة في التوراة والانجيل

« وعلى مقربة من قصر القيصر هذا دار التحف الامبراطورية وهي ذات

طبقتين الاولى منها للعربات الفاخرة كان يستعملها القياصرة في حفلات التتويج ترى في اشكالها المختلفة صناعة كل عصر وذوق أهله وأكثر العربات القديمة ضخمة ثقيلة واسعة تشبه القاعة الكبرى كثيرة الزخرف وأما العربات الحديثة واخصها التي استعملها اسكندر الثاني مدة تتويجه فجميلة رشيقة فاخرة قليلة الادوات والقسم الذي فوق العجلات منها كله ذهب واطلس نفيس . وقد كان القياصرة يسيرون في شوارع موسكو بعد التتويج بعرباتهم هذه ولكنهم صاروا يركبون الخيل ويسيرون على ظهورها ليراهم الناس جميعاً من بعد تتويج اسكندر الثالث . وفي هذا القسم غير العربات المختلفة اسلحة استعان بها بطرس الكبير على زمرة من الجنود طغوا وبغوا يعرفون باسم اوسترلتز وهم اشبه بالمماليك الذين اباده محمد علي في مصر او الانكشارية الذين اباده السلطان محمود في الاستانة

« هذا جل ما في الدور الاسفل من دار التحف واما الدور الاعلى ففي صدره صورة الامبراطورة كاترينا الثانية امتطت جواداً مطهماً وقد ركبت كما يركب الرجال لا كما يركب النساء في هذا العصر وتردت باثواب الفرسان فلا يظنها الرائي لاول وهلة من النساء . وفي غرف هذا المتحف انواع الاسلحة من قديمة وحديثة وشرقية وغربية وفيها شيء كثير أهدي الى قياصرة الروس من سلاطين آل عثمان وملوك ايران وامراء خيوا وبخارا والبانيا والجركس . هذا غير اسلحة القياصرة الكثيرين مرتبة في دائرة واسعة وضعوا في وسطها رايتين للقائد يرماك فاتح سيبيريا وراية للبرنس بازارجسكي الذي انقذ الروس من دولة بولونيا في سنة ١٦١٢ اخرى للامبراطور الكسي وغيرها لبطرس الكبير وسواه تشهد بمفاخر الروس وفعالهم في الحروب

« وفي هذه الدار غرف وضعت فيها مجوهرات القياصرة والقيصرات وملابسهم الرسمية والاكاليل الفاخرة وعصي الملك الثمينة والحلى النفيسة وهي تامة هنالك مرتبة ترتيباً تاريخياً يوافق مدة هؤلاء القياصرة فترى ملابس كل قيصر او قيصرة في موضعها حتى الاحجبة التي كانوا يعلقونها تحت قمصانهم وكذلك كراسيهم او هي العروش يجلسون عليها في ساعات الحكم والامارة اذكر منها عرش القيصر الكسي وهو مرصع

بنحو ثمانمائة حجر من الالماس . وعرش ايفان فيه نحو تسعمائة حجر من الالماس والفيروز اكثرها هدايا من شاه ايران في ايامه . وقد جلس جلالة القيصر الحالي على هذا العرش يوم تتويجه وعرش بطرس الكبير فيه الفان ومائتا حجر من الالماس ورأيت هنالك كرسي الملك قسطنطين آخر ملوك الدولة الشرقية في الاستانة صنع من العاج وقد نقل من الاستانة الى موسكو بمساعي الامبراطورة صوفيا وهو الذي جلس عليه اسكندر الثاني يوم تتويجه

« ومما يذكر بين تحف هذه الدار العظيمة سيف عثماني مرصع بالالماس وسرج عربي مرصع ايضاً ولجام وركابات صنعت على النمط العربي وهي من الفضة محلاة بالذهب وقد اهديت هذه كلها الى الامبراطورة كاترينا الثانية من السلطان سليم الثالث . وهنالك آنية من الذهب وبقية المعادن الثمينة لا تعد اكثرها هدايا لقياصرة الروس من اقيال الشرق والغرب من ذلك آنية للمائدة كاملة كلها من الذهب الخالص تستعمل في ولائم التتويج . ومنضدة وسيف وديك ونسر من الفضة اهديت من مدينة باريس في أيام نابليون الاول وقصع جميلة قدم عليها الخبز والملح للقياصرة علامة الخضوع وطاقم صيني من انفس انواعه صنع في معمل سيفر المشهور واُهدي من نابوليون الاول لاسكندر الاول . ورأيت هنالك كرسي خان خيوا استولى عليه الروس سنة ١٨٧٣ وكرسي عباس ميرزا سلطان ايران اخذ سنة ١٨٢٧ وسرير لبطرس الكبير كان يضجع عليه مدة الحروب وسرير لاسكندر الاول لهذه الغاية وسريرين لنابوليون بونابارت وقعا في قبضة الروس سنة ١٨١٢ حين تقهقر ذلك الفاتح العظيم عن بلادهم بعد واقعة موسكو . وأما ملابس القياصرة الموجودة في هذه الدار فيعجز القلم عن وصفها ويضيق المقام اذكر منها ملابس اسكندر الثالث وقرينته وهما والدا القيصر الحالي وهي حلة من الحرير الاصفر الفاخر فوقها رسوم النسر الروسي بالقطيفة السوداء ولها ذيل طويل مبطن بالفرو الابيض الثمين وفي صدرها (بطرشين) اكليريكي عليه رسوم النسر الروسي والملائكة وفوقها التاج البطريركي مرصع بانفس الحجارة الكريمة على اشكالها وفي قمته نسر من الذهب فوقه صليب من

الفضة . وأما حلة القيصرة فقد صنعت كلها من الفضة الرقيقة وبطنت بالحرير الابيض وزركشت برسوم مماثلة لما ذكرنا عن حلة القيصر وفوقها تاج اصغر من تاج القيصر ولكنه لا يقل عنه جمالا وثمناً . وهذه حلة ثقيلة لا يمكن للقيصرة المسير بها ولكن الاميرات التابعات لها يرفعن جوانب الحلة من وراء القيصرة مدة وقوفها في حفلة التتويج ومسيرها القليل . وقد وضعوا هاتين الحلتين داخل قباء او مظلة من الحرير الاصفر المزركش بالرسوم الروسية يتدلى من جوانبها اهداب حريرية صفراء وهي قائمة على عمد رفيعة من الفضة المحلات بالذهب عدتها اثنا عشر يمسك بكل منها قائد من قواد السلطنة الروسية ويرفعون هذه المظلة فيسير من تحتها القيصر والقيصرة بابهة عظيمة »

ديانة اليابانيين

اليابان والصين متقاربتان لغة وخلقاً وادباً ولكن اليابانيين أقل تديناً من الصينيين واضعف اعتقاداً بالغيب او تعلقاً بما لا يقع تحت الحواس . والديانة اليابانية الاصلية يقال لها « الشنتوية » من شنتو في الصينية ومعناها « طريق الآلهة » ويعبرون عن هذا المعنى باليابانية بقولهم « كامي نوميتشي » . والشنتوية قديمة في اليابان وقد نشأت من عبادة الاسلاف لانهم كانوا يؤلهون الآباء ويبنون لهم الهياكل ويقدمون لهم الذبائح بل كانوا يؤلهون الحيوان والنبات والانهر والصخور والرياح والنار والاجرام السماوية حتى الى زمن غير بعيد . فقد ألهوا بعض آباء الميكادو وشبهوه بالشمس وبنوا له هيكلاً جعلوا أخته كاهنة له وأصبح بناء الهياكل للآباء سنة عند اليابنيين من ذلك الحين ولكل هيكل كهنة وسدنة يغلب أن يكونوا من اعقاب ذلك المعبود او بعض اعوانه ولا يزال ذلك شأنهم الى هذا اليوم

فعبادة الآباء من القواعد الاساسية في ديانة اليابان ولا يخلو بيت من بيوتهم من مذبح عليه تماثيل بعض الاسلاف تقدم لهم العبادة كما تقدم لايقونات بودا وغيره .

وأشهر تلك المعبودات عندهم مامثلوا به آباء امبراطورهم الميكادو ولذلك فقد اختلطت أخبار ملوكهم ووقائع دولتهم بالاقاصيص الخرافية ولم يمكن تمييز التاريخ عندهم من الخرافات

يعتقد اليابانيون انهم صفوة الخلق وانهم أول الخلائق وليس في حوادث الخليقة عندهم ذكر للامم الاخرى. وعندهم انه كان في بدء الخلق ثلاثة آلهة تولد منهم بتوالي الازمان ازواج من الآلهة الصغرى كل زوج منها أصل لصنف من المخلوقات وآخر تلك الازواج «ايساناجي» و«ايسانامي» ومنهما نشأت الارض والشمس والقمر والمخلوقات الحية. ومن الآلهة الإله يعبر عنه بالشمس تولدت منه العائلة الحاكمة في اليابان وأول ملوكها «جيموتنو» متسلسل من «تنجو نوميكوتو» حفيد الشمس. ولذلك فالملك يسمى عندهم «تيوشي» أي ابن السماء. ويعتقدون ان الشمس لما ولت «تنجو» هذا سلمت اليه «طريق الآلهة» وعاهدته على بقاء السلطة في نسله مابقيت الشمس والقمر والقت اليه ثلاثة أمور مقدسة وهي المرآة والسيف والحجر وقالت له «انظر الى هذه المرآة نظرك الى روحي واحفظها معك واعبدها كما تعبدني»

وما زالت الديانة الشنتوية المذكورة سائدة وحدها في اليابان حتى انتقلت اليها الديانتان البوذية والكونفوشية من الصين ثم تغلبتا عليها وخصوصاً من القرن التاسع الى القرن السابع عشر للميلاد حتى كادت الشنتوية تمحي تماماً. ناهيك بما دخلها من اعتقادات الديانتين الاخريين. فنهض في القرن المذكور ومابعده جماعة من علماء الدين لاحياء الشنتوية فألفوا فيها الكتب ونقوها مماخالطها من الاعتقادات الاخرى. وأشهر أولئك «المصلحين» ثلاثة مابونشي (من سنة ١٦٩٧ — ١٧٦٩ م) وموتوري (١٧٣٠ — ١٨٠١) وهيراتا (١٧٧٦ — ١٨٤٣) وقد بلغت مؤلفات هذا الاخير نحو مئة كتاب. فتحركت عواطف اليابانيين واتحدوا لنصرة ديانتهم الاصلية وابطال الديانات الاخرى وخصوصاً البوذية ونصرهم ملكهم على ذلك فهبوا هبة واحدة لكنهم لم يتمكنوا الا من بعض مطاليبهم فنقوا ديانتهم مما خالطها

وجعلوها رئيسية وحلوا قيودها لكنهم لم يستطيعوا محو الديانة البوذية على انهم طردوا كنهتها من هياكلهم واستولوا على ما اختزنوه فيها من الثمنات . ومع ذلك فالبوذية مازالت باقية في اليابان وهياكلها عامرة والحكومة لا تزال تنفق عليها وربما كانت هي والشنتوية في منزلة واحدة . ولعل تلك الثورة الدينية بين الشنتوية والبوذية آلت الى تنازع السلطة بين اليابان والصين لاختلاط الدين بالسياسية عندهم

وخلاصة تعليم هيراتا المذكور ان اقدم واجبات الميكادو الاحتفال بعبادة الآلهة وان الميكادو الاول تلقن كيفية الملك من اسلافه المعبودين وقد علموه ان كل ما يحدث في هذا الكون انما يحدث بارادة ارواح الآلهة في السماء والارض . ولذلك وجبت عبادتهم والحكومة معناها « العبادة » فالملوك كانوا يصلون للآلهة ويتوسلون اليهم ان يعطوا رعاياهم خبزهم اليومي وان يوازروهم بما يحتاجون اليه من لوازم الحياة والوقاية من المؤثرات الطبيعية وكان الملوك يحتفلون مرتين في العام احتفالاً عاماً يسمونه احتفال الطهارة . وان الرعايا يجب ان يقتدوا بملوكهم في العبادة فيؤلهون آباءهم ويعبدونهم وبما ان الآلهة كثيرة العدد فليختاروا منها الاهم . وتقام العبادة في الهياكل وهي كثيرة عندهم ربما زاد عددها على ٤٠٠٠٠ فمن لم يستطع حضور الصلاة في الهيكل فليصل في البيت

ومن تعاليم هيراتا في تفسير معنى قولهم « اله الريح والاهته » قوله « والاصل في تسميتها الدلالة على دعامة السماء ودعامة الارض لان الريح تتسلط على ما بين السماء والارض وتحمل السماء كما يحمل عمود البيت سقفه فالصلاة لها تكون هكذا « أقول بلهفة : تنازلا و باركاني اغفرا خطاياي التي تنظرانها وتسمعانها وقد ارتكبتها فانفخاها عني واذهبا الارواح الشريرة من بين يدي لئلا تقف في سبيلي وارفعا الى الآلهة الاصلية في السماوات والارض ما أقدمه كل يوم من الادعية . اوصلاه اليها بهبوبكما »

والهياكل الشنتوية في اليابان طبقات منها هياكل الولايات وهياكل المدن وهياكل القرى فاذا ولد لهم مولود حملوه الى الهيكل الاقرب يلتمسون حماية الآلهة له . وآلهة كل بلد لها تأثير خاص في كل ما حواه ذلك البلد من الحيوان والنبات

وينسبون مابين البلاد والقرى من الاختلاف عدد في سكانها وماشيتهم وخصب مغارسهم الى اختلاف قوى الآلهة التي تحميهم

واكثر معبوداتهم عدداً واكثرها انتشاراً الهة المنازل ففي كل منزل مقام مقدس كصندوق فيه الواح مغطاة بورق وعليه كتابة ملونة هي عبارة عن القاب الاله «ايزي» وغيره من الآلهة التي يرجعون اليها في مطالبهم المنزلية ويقدم رب المنزل بين يدي هذه الالواح شراباً يابانياً يسمونه «ساكي» وارزاً واغصاناً من شجرة عندهم يسمونها الشجرة المقدسة تشبه شجرة الشاي — يفعل ذلك في اول الشهر وفي ثانيه والخامس عشر والثامن والعشرين منه ويضعون على ذلك الصندوق كاساً فيه زيت يضيئونه كل مساء. وهاك الصلاة التي يتلوها صاحب المنزل كل ليلة هناك: «باحترام اسجد اولاً للاله العظيم رب القصرين ثم للثمانمئة ربوة من الالهة الارضية وللالف والخمسمئة ربوة من الالهة التي أسست لها الهيا كل الكبرى والصغرى في الولايات والجزائر (اليابان) وللالف والخمسمئة ربوة الالهة الذين يخدمونهم ولآلهة القصور الفرعية والهيا كل الفرعية .... اتضرع الى هؤلاء جميعاً ان يتنازلوا لغفران خطاياي التي ارتكبتها عرضاً وقد رأوها وسمعوها واطلب اليهم ان يباركوني حسب نعمتهم ويعلموني اتبع القدوة المقدسة واصنع خيراً في طريقي»

(البوذية) واما الديانة البوذية فقد نشأت في الهند وانتشرت في الصين ثم نقلت الى اليابان وتغلبت على تعاليم الشنتوية لان البوذية اقرب الى العقل البشري لما فيها من التوحيد والحث على الفضائل والتعبير عن حاسات البشر. وأساس تعاليمها ان الانسان خلق شقياً يقضي حياته بالتألم والشقاء لايريدون بالتألم مايحدثه الجرح او المرض او نحوه بل هو شعور يحدث للانسان اذا تأمل ما هو داخل في تركيبه اذ يرى انه مركب من عقل وبدن او من ارادة وعواطف. ومصدر تألمه عجز ارادته عن التسلط على عواطفه وخصوصاً اذا كان حي الضمير فانه يكون اذ ذاك اشقى المخلوقات فيقضي حياته تعيساً حزيناً. ثم اذا تأمل في نفسه لم يستطع ادراك وجوده فضلا عن ماهيته ويعبرون عن ذلك بالجهل



بوذا

فالتألم والجهل اساس ديانة البوذية والوسيلة الوحيدة للتخلص منها درس الكتب الدينية والاتجاه الى « القوة الابدية الثابتة » وبهذه القوة يلتمسون الخلاص من عوامل هذه الحياة الزائلة . ولكنهم لم يبينوا مرجعهم بعدها الى الخلود او الى الزوال لان بوذا نفسه لم يجسر على القطع في ذلك وانما جعل همه الاتجاه الى تلك القوة التي سماها « ثابتة »

ولقد عرّف بوذا اباطيل هذا العالم بعبارات لا نظن النصرانية عرّفتها بابلغ منها فخاطب تلامذته قائلاً « ان هجرتنا في هذه الحياة الدنيا تبتدىء منذ الازل لا يعرف لها اول بدأت منه ولا أصل نشأت عنه . انظروا الى البحور الاربعة العظمى انها ليست اعظم من دموعكم التي سكبتموها في اثناء هجرتكم الطويلة في هذا العالم فكم حزنتم وبكيتم لانكم بليتم بما لا تحبون ومنعتم مما كنتم تلتمسون . انكم منيتم بفقد الوالد والوالدة والاخ والاخت والبنين والبنات . وكم فقدتم من الاهل والاصدقاء وخسرتم من الاموال والعقارات . و بتوالي هذه الخسائر عليكم بكرور الاجيال يزداد حزنكم ويزداد انسكاب دمعكم وانتم تائهون في ديار غربتكم »

وقس على ذلك من عبارات الحزن والزهد . ولهم امثال وحكم مرجعها كلها الى مثل ما تقدم كقولهم « يجمع المرء ازهاراً ليسرّ بها قلبه فينهال عليه الموت انهيال السيل على القرى فيغرقه » و « ليس في الارض قناعة ولو صبّ الذهب بالمازيب » و « لا تحب شيئاً لان فقد المحبوب شرٌّ عظيم ومن لا يحب شيئاً ولا يبغض شيئاً فهو مطلق السراح . والحب مصدر الحزن وينبوع الخوف »

ويعرفون التقمص على كيفية خصوصية فعندهم ان الانسان اذا مات ظلّ وجدانه حياً حتى يتصل بصنف من الارواح او العناصر لا يعرفون ما هو فيحلُّ في جرثومة حية يولد منها ثانية . ولا يزال ينتقل من جسم الى آخر حتى ينجو من التألم المتقدم ذكره

وعندهم ان الانسان مسؤُول عما يعمله كما يعتقد أهل الاديان الالهية عندنا ومن وصاياهم الدينية « ليس في طبقات السماء ولا على سطح الارض ولا في قاع البحر ولا على قمم الجبال وما ينجيك من عواقب اعمالك » ويعتقدون ان الشقي ولو تاب ونال الخلاص فهو لا ينفك عرضة للعقاب على خطاياه السابقة . فلو ان سارقاً تاب عن السرقة ثم بلي بأذية فتلك الاذية عقاب له على ما اقترفه من قبل . ولكنهم يقولون انها تُنجيه من عذاب ابدي في جهنم . وعندهم ان الانسان اذا بعث بعد الموت يقف امام الملك « ياما » فيسأله هل رأى في حياته على الارض البلايا الخمس وهي الحداثة والشيخوخة والقصاص والمرض والموت

والبوذية لا تسلم بنفس مستقلة عن الجسد بل هي تقول باتحادهما وأنهما يتألمان ولا تبحث في ما وراء ذلك

واساس الفضائل عندهم وصايا سلبية تشبه الوصايا العشر من بعض الوجوه ولكنها خمس وهي (١) لا تقتل حياً (٢) لا تسرق (٣) لا تزن (٤) لا تكذب (٥) لا تشرب المسكرات . ومن وصايا الرهبان عندهم « ضع الهراوة والسيف جانباً والتزم الحشمة والشفقة . وكن شفوقاً على كل مخلوق حي . لا تنقل الكلام لئلاّ تسبب الخصام . اجمع بالسلام ما يفرقه الناس بالخصام . شجع اصدقاءك

تكلم ما يلذ الاذن و يبلغ القلب. كن سروراً للشعب . لا تنطق بالحمق او الكلام الباطل . قل الحقيقة العائدة بالمنفعة الممتلئة بالحكمة. لا تأكل الا مرة في اليوم . لا ترقص ولا تغن الخ »

ومن تعاليم البوذية عن المحبة ما يشبه التعليم المسيحي ولكنهم بدلاً من ان يوصوا بالمحبة فانهم ينهون عن البغضاء ومن اقوالهم « من يستطيع كبح جماح غضبه فذاك فارس ماهر . تغلب على الغضب واغلب الشرّ بالخير واغلب الطمع بالقناعة والكذب بالصدق . والمداوة لا تنقضي بالمداوة على هذه الارض . ذلك هو الناموس الابدي »

واما الاحسان الى الاعداء في النصرانية فلا شبيه له عند البوذيين ولكنهم يقولون « اذا آلمني احد او فرحني فاني لا اعده مسيئاً ولا محسناً ولا انا اعرف المحبة ولا البغض لاني في السرور والحزن سواء . وفي الاهانة والشرف واحد »


شيطان بوذي

و يعتقد البوذية ان التربية متوقفة على قوة داخلية في الانسان فيقولون « حرّض نفسك بنفسك . امتحن نفسك . اكبح نفسك كما يكبح الفارس فرسه . اقطع الحواس الخمس واترك الخمس وتغلب على الخمس . وما نحن الانتيجة ما نفكره »

وعندهم روح شرير يشبه الشيطان عندنا ويسمونه « مارا » واليه ينسبون الشرور التي تقع للناس . ولكن فلاسفة البوذيه ينسبون اليه كل عمل فيقولون حيث تكون العين ومرئياتها والاذن ومسموعاتها والفكر واعماله هناك يكون مارا »

فترى مما تقدم ان التعاليم البوذية من أرقى التعاليم الدينية فلا غرو اذا فضلها اليابانيون على ديانتهم الاولى مع ما فيها من الاغراق في الوثنية والخرافات المغايرة للتعقل ولكن جمهور العامة لا يزالون يحنون الى ديانتهم القديمة لما فيها من اكرام

الآباء والسجود لهم وستغلب البوذية عما قليل لاسباب ترجع الى الانتخاب الطبيعي وبقاء الانسب وفي اليابان شيء من المذهب الكونفوشي وقد بسطنا هذا المذهب في السنة السابعة من الهلال

البحرية الروسية



الاميرال الكسيف

نائب قيصر الروس في الشرق الاقصى

الروسية اكبر دول البر وأشدهنّ بطشاً واكثرهن جنداً وأما في البحر فانها لا تعدّ من الطبقة الاولى لان طبيعة المملكة الروسية تقضي عليهم بذلك . على ان القياصرة ما برحوا من أيام بطرس الكبير يسعون في تقوية بحريتهم حتى لا تقوى عليها بحرية دولة أخرى ومن اكثر القياصرة سعياً في ذلك الاسكندر الثالث القيصر السابق فقد بذل عنايته في هذا السبيل وانفق فيه أموالاً لم ينفقها احدٌ من اسلافه حتى توفي رحمه الله والبحرية الروسية في الطبقة الثالثة بين دول البحار . ولما تولى القيصر الحالي وجه عنايته بنوع خاص الى البحرية على ان يجعلها تضارع البحرية الانكليزية لاعتقاده ان تلك

المملكة الواسعة لا تتقدم في معارج المدنية تجارة وصناعة الا اذا فتح لها مسالك في البحار الكبرى • وللقيصر المذكور مع فرنسا مداولات في هذا الشأن منذ تبوأ الاريكة القيصرية ذكروا في جملتها مفاوضة من مقتضاها ان تتعاون الدولتان على أنشاء أسطول يملك مياه البحر المتوسط ويكون للروس مخزن للفحم على سواحل فرنسا — ولم يتم لهم ذلك كما يشاؤون

على انهم عملوا على تقوية بحريتهم من جهات أخرى فانشأوا ميناء حربياً في بحر البلطيك عند فرضة ليبو فاقاموا فيها الاسوار والقلاع وابتنوا مرفأ يسع أسطولاً كبيراً واحتفل القيصر في فتحها احتفالاً شائقاً شهده بنفسه في صيف سنة ١٨٩٣ وفعل نحو ذلك في قلاع سباستبول على البحر الاسود وقلاع فلاديفستك على البحر المحيط • فتحدث الناس يومئذ بمستقبل البحرية الروسية وتوقعوا من وراء ذلك الاستعداد حرباً عظيمة تهتز لها أوربا وآسيا ونخشى ان يصدق توقعهم

والجند الروسي في البحر لا يقل بسالة ومهارة عن القوزاق في البر كما تشهد بذلك الحوادث التاريخية من عهد بطرس الكبير الى الحروب الاخيرة ولا يزال حصار سباستبول يرن ذكره في الآذان الى هذا اليوم وسيبقى دهراً طويلاً وقد كان للعمارة الروسية شأن كبير في الدفاع عن تلك المدينة التي تكاتفت دول أوربا العظمى على حربها فثبتت امام قنابلهن ثبوت الجبال ولم يستطيعوا دخولها الا تسلقاً على جثث الرجال

تجند روسيا بحريتها من سكان الشواطىء مثل فنلاند ونحوها ومع ذلك فان معظم رجال البحرية عندها من سكان أواسط المملكة ولذلك فانهم زرق العيون كثانبو الشعر بارزو الوجنات مما يدل على أصلهم التتري — ولا بأس من ذكر شيء من معيشتهم اليومية في سفنهم :

يبدأ النهار عندهم في الساعة الخامسة من الصباح فينفخ بالصفارة فينهضون ويحلون أسرتهم وهي شباك تعلق بالحبال ثم يدعون للشاي ويتناولون معه طعاماً آخر يسمى بلسانهم « كاشا » وبعد الطعام يجتمعون للصلاة على ظهر الباخرة باحترام وشوق شديدين فيصلي فيهم بعض كبار الضباط • فاذا فرغ من تلاوة الصلاة الربانية رأيت الجمهور يتموج برسم علامة الصليب على صدورهم • والروسيون مشهورون بتدينهم وصدق تقواهم وغيرتهم على أوطانهم ودولتهم ومن هذا القبيل اعتبارهم القيصر أرق من البشر

وبعد الصلاة يتفرق الرجال لبعض الاعمال الوقتية وفي الساعة الثامنة يستقدمون بالطبل

والصفارة فيجتمعون على ظهر الباخرة في صفوفهم فتعطى لهم الاوامر اللازمة كل واحد حسب رتبته ووظيفته وتجري بعض الحركات العسكرية على سبيل التمرين وقد يمرنون في الهجوم والدفاع واطلاق المدافع وارسال الطوربيد ونحو ذلك من المناورات البحرية والكل يشتغلون كباراً وصغاراً . وبعد الفراغ من العمل تبطل الرسميات ويصير الكل أخوة يلعبون ويرتاضون بدناً وعقلاً

فاذا دنت الساعة الحادية عشرة توجهت الانظار والقلوب نحو المطبخ واصبحوا جميعاً في انتظار الصفير الذي يدعوهم للطعام . فاذا ازفت الساعة سمعوا منادياً ينادي « بروبوتا فيرخ » اي « الاجتماع على ظهر السفينة » فينقض البحرية انقضاض الصاعقة ويصطفون هناك وهم ينظرون الى المنادي وينتظرون الاوامر وهم يعلمون انهم انما دعوا للطعام . وبعد قليل يجيئونهم بجلة فيها طعام مطبوخ هو في الغالب مايسمونه بلسانهم « بورش » شوربة كرنب باللحم او « تشي » يخنة الجزر او سواها من البقول المطبوخة باللحم . وقبل تفريقها فيهم يتقدم القبطان ويذوقها ويحقق صدق طبخها . وطعامهم ايام الجمعة السمك فقط

وبعد مناولة الغذاء يذهبون الى القيلولة وينهضون في منتصف الساعة الثانية للعمل . وفي الساعة الخامسة يتقدمون للطعام ثم يسمعون النداء للشرب وهو قولهم « تشاروتشكا » ولهم في ذلك النداء عبارة يغنونها بنغم مفرح هذا لفظها :

تشاروتشكا مايا	سيريبرانايا
نازولتون بلوديه	بستافلينايا

ومعناها « يا قدحي الفضي على الطبق الذهبي »

فاذا غابت الشمس انقطع العمل وركنوا الى الراحة او الى اللعب ولهم العاب كثيرة يقضون بها الليالي اكثرها من قبيل التمثيل او الرقص او الترتيل او الغناء او نحو ذلك حتى يأون الرقاد

وبالجملة فالبحري الروسي يتمتع براحة وسعادة لايتمتع بمثلهما الجندي البري وهو شديد الغيرة على وطنه يستهلك في الدفاع عن قيصره الى آخر نسمة من حياته . ومن أقرب الشواهد على ذلك ما قرأناه بالامس عن ثبات ذلك الربان في شمولبو اذ فضل الموت على ظهر السفينة على التسليم

واقعة شمولبو

قفا بنا في شمُلبو حول ميناها نرثي من الروس ابطالاً فقدناها
جرت لهم في مجال البحر معركة يضيق ذرع القوافي عند ذكراها
ما كان ثمَّ سوى طرادةٍ لهم والمدفعية كورتيز بمرساها
فاستصوبت سفن اليابان غدرهما ياقاتل الله عنا من تولاها
وأقبلت تبلغ العشرين بارجة تكاد تعثر كبراها بصغراها
كالعيس تمعن في تسيارها خبباً وقد عراها الطوى في طيّ بيداها
لم تكترث لاعتراض العاذلين على قتالها في الحمى الكوريّ اعداها
ولم تحافظ على عهد الوفاء وهل يرجى وفا العهد ممن ينكر الله
وأعلنت انها تبغي نزالهم او انهم أسراها حسب دعواها
فلم تبال بها كورتيز وانطلقت كانها لم يكن للموت مجراها
سارت ولو لم تكن تغلي مراجلها كفت عزائم من فيها لاغلاها
وانقضَّ من خلفها الطراد تدفعه حماسة تترك الجلمود امواها
وكان صوت نشيد النصر مرتفعاً يطبق الارض أقصاها وأدناها
فيستفزهم الذود عن وطن ودولة لم يخوضوا الموت لولاها
فيالها وقعةً هزت فرائصنا عند السماع فماذا لو شهدناها
سفينتان على الاسطول اقدمتا لاتعبآن بنارٍ منه اصلاها
وهكذا دام اطلاق القنابل من كلتيهما والمنايا رهن مرماها
لكن احداهما أودى بها ضررٌ فبات تحت حجاب اللجّ مثواها
واختار ربان كورتيز منيته لما رأى ضيق منجاه ومنجاها
فقال للجند فرّوا ثم اتلفها نسفاً لكي يمنع اليابان جدواها
وظل منتصباً في ظل رايتها يرنو اليها فتغشاه ويغشاها
ولم يزل رافعاً نحو العلى يده حتى توارى عن الابصار مرآها



ففرّ حينئذ من جندها عددٌ ... وفضل البعض ان يقضوا واياها
والبحر احمر من هدر الدماء وقد ... طفت على سطحه اجساد قتلاها
اما العداة فما كانت خسارتهم ... اخفّ وقعاً على ما قد علمناها
فالروس قد اغرقوا نسافتين لهم ... وعطلوا قطعة ما حاش جرحاها
وسوف يلقون من غارات جيشهم ... ما يترك الرعب في طكيو وأنحاها

(بيروت) جرجي مخله سعد



بغلة ولدت مهراً



بغلة ترضع مهرها

(ريوكلارو . البرازيل) رشيد افندي يعقوب الصائغ

كثيراً ما سمعت وقرأت في الهلال وغيره ان البغال لاتتناسل وهذا هو رأي

مطبوعات جديدة

تكاثرت المطبوعات الواردة علينا للتقريظ حتى ضاق وقتنا عن مطالعتها وضاقت صفحات الهلال عن تقريظها فنرجو من أصحابها عذراً اذا اختصرنا في وصفها

(ديوان التعاويذي) التعاويذي هو ابو الفتح محمد بن عبيدالله بن عبدالله المعروف بسبط ابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ قال ابن خلكان « انه كان شاعر وقته لم يكن فيه مثله جمع شعره بين جزالة الالفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها وهو في غاية الحسن والحلاوة وفيما اعتقده لم يكن بمائتي سنة من يضاهيه » وقد جمع ديوانه بنفسه وصدره بخطبة بليغة ورتبه في أربعة فصول وكلما جدده بعد ذلك سماه الزيادات · وقد ظل هذا الديوان مقيداً بالخط حتى تصدى لطبعه ونشره المستر مرجليوث استاذ اللغة العربية في مدرسة اوكسفورد الجامعة وهو واسع الاطلاع في لسان العرب وتاريخهم وآدابهم · وقد ضبط الديوان المذكور بالشكل الكامل وصدره بجدول ذكر فيه كتب التاريخ والادب التي ورد ذكر التعاويذي اوشعره فيها · وذيله بفهرسين المجديين الاول ذكر فيه أسماء الممدوحين والمهجوين وغيرهم ممن جرى ذكرهم في الديوان · والثاني أورد فيه المعاني التي عرض ذكرها في بعض أبيات الديوان — وفي هذا الفهرس فائدة كبرى للباحثين في آداب العرب وعاداتهم واخلاقهم لانه يدلك على ما قاله الشاعر في وصف الضيافة مثلاً او استقراض الكتب او دست القاصد او رمي البندق او حال الكتاب او الوزراء او غير ذلك وقد يكون الوصف المذكور وارداً في بيت او بضعة أبيات في اثناء قصيدة مدح او هجو — وبالجملة فاننا نثني على حضرة الناشر ثناء جميلاً لعنايته في نشر هذا الاثر العربي ونحث محبي الادب على مطالعته · والكتاب نحو خمسمائة صفحة ويطلب من مكتبة الهلال وثمن النسخة مجلداً ٤٠ قرشاً وأجرة البريد ثلاثة قروش

(فتاة اسرائيل) أخذ حضرة عبد المسيح بك الانطاكي صاحب جريدة العمران في تأليف سلسلة روايات تاريخية سماها « روايات تاريخ النصرانية الاكبر » سيأتي فيها على تاريخ الديانة النصرانية وما رافقها من الحوادث في سياق روايات أدبية غرامية تلذ مطالعتها ويشتاق المطالع الى اتمامها على نحو ما فعله في روايات تاريخ الاسلام · وهو مشروع عظيم الاهمية كبير الفائدة ولكنه كثير العقبات يحتاج الى عزم ثابت واطلاع واسع · فنرجو

ان يتوفق حضرة المؤلف الى اتمامه فيكون قد خدم اللغة العربية خدمة كبرى —
و « فتاة اسرائيل » هي الحلقة الاولى من تلك الروايات وتبحث في الوسط الذي
ولد فيه السيد المسيح مع وصف حالة اليهود يومئذ وحالة الدولة الرومانية وأحوال
المصريين اذ ذاك وكيفية تضحيتهم عروس النيل الى غير ذلك من الفوائد التاريخية • وقد
صدرت في ٢٧٥ صفحة كبيرة وتطلب من المكاتب الشهيرة وثمن النسخة خمسة فرنكات

(الوفاق والطلاق) هي رواية اجتماعية غرامية ادبيــة مزينة بالرسوم تأليف
طولستوي الفيلسوف الاجتماعي الشهير وقد نقلت الى العربية وطبعت بنفقة ابراهيم افندي
فارس صاحب المكتبة الشرقية وتطلب من حضرته وثمن النسخة ستة قروش

(نسمات الصبا في منظومات الصبا) هو ديوان شعري نظمه حضرة جرجي افندي
عطية احد شعراء بيروت ونجل الاستاذ شاهين افندي عطية واكثره في وصف المناظر
الطبيعية والاختراعات الحديثة والفضائل الانسانية والاداب العصرية ونحو ذلك مما تقتضيه
روح العصر من ترك المدح والهجو ونحوها • والكتاب يطلب من ادارة جريدة لبنان
الغراء في بعبدا وثمن النسخة ستة قروش

(الجاري في الحساب التجاري) هي المرقاة الرابعة لدرس السنة الرابعة في
الحساب لحضرة الياس افندي جرجس بهنا • وهو كتاب نحن في غاية الافتقار اليه لانه
يبحث في ما يحتاج اليه التجار والصناع وغيرهم من المعاملات الاصطلاحية او الحسابات
التجارية كتحويل الموازين والنقود والاقيسة الانكليزية والفرنساوية والعثمانية والسورية
والمصرية بعضها الى بعض من اصغر تلك الاصطلاحات الى اكبرها • واستخراج الفوائد
البسيطة والمركبة على اختلاف الازمنة وقواعد الخصم والتحويل باختلاف انواعها
والتعديل على انواعه وفي الغرامة والميراث وغير ذلك مما لا يستغني عنه تاجر

(دليل البريد) صدر دليل البريد المصري لهذا العام وهو حافل بقوانين هــذه
المصلحة وقواعدها وتعليماتها مطولاً في نحو ٢٨٠ صفحة • وفي كل سطر منها شاهدٌ على
انتظام مصلحة البريد المصري ونشاط سعادة مديرها وان كان ذكر عنايته ونشاطه
وسهره على هذه المصلحة اصبح من قبيل تحصيل الحاصل لاشتهار ذلك بين الخاص والعام

(كتاب التمرين على البيان والتبيين) هو المرقاة الثانية من مراقي علم الادب للشيخ
طاهر الجزائري وهو عالم شهير بين أهل الادب في سوريا ومصر وفيهم جماعة كبيرة
من مريديه ولذلك فلما أصدر كتبه تهافتت المدارس على اعتمادها في تمرين الطالب على

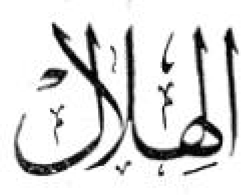
ما رق وراق من النثر والنظم ليتمثل ذلك في مرآته ويقوى النور في مشكاته

(تدريب اللسان على تجويد البيان) وهذا للشيخ طاهر المشار اليه ايضاً جعله تتمة للدرقاة الثانية ذكر فيه فن التجويد وشروطه وأحكامه ومخارج الحروف وصفاتها كالمجهورة والمهموسة والشديدة والرخوة والمصمتة والمذلقة وغيرها وكلاماً في التفخيم والترقيق وأحكام النون الساكنة والتنوين والادغام والمد والابدال والتسهيل والاسقاط. والوقف على أنواعه وغير ذلك من احكام التجويد. والكتابان مطبوعان بنفقة احمد افندي حسن طباره محرر جريدة ثمرات الفنون ببيروت ويطلبان من المكاتب الشهيرة وثمن الاول قرش ونصف والثاني قرشان

(ديوان الكاشف) صدر الجزء الاول من هذا الديوان لناظمه احمد افندي الكاشف بالقرشية بمصر وقد صدره بصورته تليها مقدمة في ترجمة حاله ثم قائمة بأسماء شعراء العصر من سنة ١٢٢٠ — ١٣٢٠ للهجرة مرتبة على حروف الهجاء يبلغ عددها نحو المئة . ويلي ذلك منظومات كاشف افندي في المدائح والتهاني وأكثرها في جلالة السلطان وسمو الخديوي وفي وصف بعض المهرجانات وقصائد أخرى في وصف بعض الاختراعات او المناظر او الوقائع . وفي الخاتمة بقية اسماء الشعراء وعدتهم نيف والاثون شخصاً . والكتاب المذكور يباع في مكتبة الهلال وثمن النسخة عشرة قروش وأجرة البريد قرش ونصف

(ماري تودور) هي رواية غرامية تاريخية أدبية تأليف فيكتور هوكو وقد نقلها الى العربية حضرة ابراهيم افندي سامي وطبعت على نفقة المكتبة الشرقية وتطلب منها وثمن النسخة فرنكان ما عدا اجرة البريد

(الايضاحات الجلية) هو كتاب ديني قبطي في حقيقة الارثوذكسية تأليف الشماس ميخائيل شحاته واعظ الكنيسة القبطية الارثوذكسية بالسويس قال في مقدمته انه نهج في تأليفه منهج أولاد العسال والمكين وغيرهما من اواسط علماء الطائفة القبطية وأخذ عنهم . والكتاب يطلب من المؤلف ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ثمانية قروش صاغ وأجرة البريد قرش ونصف



الجزء الثالث عشر من السنة الثانية عشرة

١ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٤ و ١٥ محرم سنة ١٣٢٢

كوريا وامبراطورها

كتبنا في الهلال الثامن من هذه السنة فصلاً مختصراً عن كوريا ثم رأينا الحالة تدعو الى التوسع في هذا الموضوع فعدنا اليه والعود احمد (انظر الخارطة)

﴿ جغرافية كوريا ﴾ كوريا شبه جزيرة شكلها مربع مستطيل يحيط بها البحر من ثلاث جهات وتتصل من الجهة الرابعة بمنشوريا من مملكة الصين . يحدها من الشرق بحر اليابان ومن الغرب البحر الاصفر وخليج كوريا . ومن الشمال الغربي منشوريا ويفصل بينهما نهر يالو . ويحدها من الجنوب بوغاز يفصلها عن اليابان يقال له بوغاز كوريا . عاصمتها مدينة سيول في منتصفها نحو الغرب وأشهر مدنها على الساحل الغربي من الشمال الى الجنوب وي تشو (او ويجو) عند مصب نهر يالو ثم ان تشو (او انجو) تليها بينانج (او بينانغ) في البر . ثم شينانبو وبعدها هوانج شيو ثم هاي تشو تليها شمولبو وهي فرضة سيول وبعدها كونسان ثم موكبو . وعلى الساحل الشرقي سيانج تشيو ثم ون سان وأخيراً فوسان في بوغاز كوريا . ومن أشهر المدن على ذلك البوغاز ماسانفو . ويقطع كوريا طولاً من الشمال الى الجنوب خطٌّ حديدي يبتدئ من وي تشو في الشمال على الضفة اليسرى لنهر يالو فيمرُّ بجانب أن تشو ثم بينانج الى سيول ومنها يمر بعيدا عن وان تشو وكوي سان ثم بجانب سانج شو وتاي كو حتى ينتهي الى فوسان في الجنوب وبعضه لا يزال تحت الانشاء . وبين سيول وشمولبو خطٌّ آخر

ويحيط بكوريا وراء البحور من الشرق جزائر اليابان ومن الغرب مملكة الصين وجزء من منشوريا ينتهي برأس داخل في البحر اسمه بورارثر وهو في ايدي الروس وفيه جرت اكثر المعارك البحرية بين روسيا واليابان في هذه الحرب . ويحد منشوريا من الشرق جزء صغير من سيبيريا اي املاك روسيا في اسيا ينتهي في بحر اليابان بفرضة حصينة اسمها فلاديفستك فيها حامية روسية . وفي هذه الفرضة ينتهي الخط الحديدي العظيم المعروف بسكة حديد سيبيريا . فانه ينشأ من بطرسبورج في الغرب وينتهي في فلاديفستك بالشرق بعد ان يمرّ بروسيا اوربا ويقطع سيبيريا في أعالي تركستان ثم شمالي مملكة الصين فاذا بلغ منشوريا مرّ في أعاليها من الغرب الى الشرق حتى ينتهي بفلاديفستك . وقبل وصوله اليها يتفرع منه خط في محطة يقال لها خاربين ويسير جنوباً حتى ينتهي في بورارثر بعد ان يمر بمحطات تشنج تشن وتشانج تو وموكدن وهاي تشونج وطاشي كيو وطاليانوان قرب بورارثر . ويتفرع من هذا الخط عند طاشي كيو خطان يسير أحدهما غرباً الى فرضة نيوشوانج ومنها الى كوبانج تسي حتى يتصل بسكة حديد الصين التي تمرّ بشان هاي كوان وهي فرضة مقابل بور ارثر ثم يمالكو على خليج بتشيلي ثم بتين سين ومنها الى باكين . والخط الآخر الذي يتفرع عند طاشي كيو يسير شرقاً الى نجام تنج عند مصب نهر يالو مقابل وي تشو . ويجانب نجام تنج على خليج كوريا مدينة انتنج . وعلى ساحل الصين الشرقي مما يقابل كوريا من الشمال الى الجنوب شيفو ثم واي هاي واي ثم كياشاو ثم هايشا وبعدها نانكين وأخيراً شانغهاي (انظر الخارطة)

(مساحتها وتعدادها) مساحة بلاد كوريا ٨٢,٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها كان يختلف تقديره بين ٨,٠٠٠,٠٠٠ و ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فلما أحصوهم في أواخر القرن الماضي وجدوهم عبارة عن ٢,٣٥٦,٢٦٧ عائلة عدد افرادها جميعاً ١٠,٥٣٨,٩٣٧ نفساً ذكورهم يزيدون على أناثهم نحو ١٠٠,٠٠٠ نفس . ومعظم سكان كوريا من أهلها والغرباء فيها قليلون لا يزيد عددهم على ثلاثين الفاً اكثرهم من اليابان — عدد سكان سيول (العاصمة) ٢٠٠,٠٠٠ وفي شمولبو عدد كبير من الاجانب شأن المدن البحرية

في كل بلاد وا كثر الغرباء من اليابانيين ففيها وحدها نحو ٦٠٠٠ ياباني — عدد سكان يناتيج ٣٠٠٠٠ نفس

ولغة كوريا متوسطة بين اللغات المغولية التترية واليابانية مثل مركزها الجغرافي وكانت تكتب بالاحرف المقطعية الصورية مثل لغات الصين ثم شاع فيها استعمال أحرف الهجاء ولاتزال الاحرف المقطعية مستعملة عند الاشراف من أهلها

(ديانتها) ديانة كوريا الاصلية تشبه ديانة اليابانيين أي عبادة الاسلاف ثم انتقلت اليها الديانة البوذية وشاعت بين أهلها فأنشأوا لها الاديرة والهيا كل. واما الكونفوشية فانها ديانة الطبقة العليا من أهلها ولها منزلة رفيعة عندهم وهم يتسابقون الى درس آدابها وتعاليمها في كتب الصين ويرجون من وراء ذلك الرقي في مصالح الحكومة



كونفوشيوس صاحب الديانة الكونفوشية

(الديانة الكونفوشية) سميت بذلك نسبة الى كونفوشيوس الشارع الصيني الشهير الذي نبغ في القرن السادس قبل الميلاد وقد نشرنا ترجمة حياته في السنة الاولى من الهلال ونكتفي الآن بذكر منزلته وتعاليمه على وجه الاختصار

(منزلة كونفوشيوس) لا تقتصر تعاليم كونفوشيوس على الامور الدينية ولكنها تتناول العلم والسياسية والآداب العمومية . فقد جاء هذا الرجل العظيم بلاد الصين في عهد المملكة الوسطى من سلالة « شو » وقد فسدت احكامها واختل نظامها وانتشر فيها تعدد الزوجات وانحطت منزلة المرأة وكانت الاديان فوضى والشعب في شقاء من فساد حكومته . واليك ما قاله منسيوس احد اتباع كونفوشيوس في هذا الصدد « وكان العالم قد آل الى الانحلال فاختل النظام وانتشر الفساد علماً وعملاً حتى سطا الوزراء على ملوكهم وتعدى الابناء على آبائهم فارتعد كونفوشيوس لهذه المشاهد المخيفة فعوّل على الاصلاح .

على انه لم يكد يقال « مات كونفوشيوس » حتى صاح حاكم الصين يومئذ « ويحي قد مات كونفوشيوس فمن يعيني على هذه الحكومة بعده » كأنه لم يشعر بحقيقة مقامه الا بعد وفاته . فبنى له هيكلاً تقدم له فيه الذبائح اربع مرات في العام . فلما مات تلامذته ومريدوه أفسد الناس أقواله وكتبوا الكتب ضد تعاليمه فانقسم الصينيون فئتين فئة تقول بقوله وفئة تناقضها . فلما كان القرن الثالث قبل الميلاد على عهد عائلة تسين اقتضت سياسة مؤسس تلك العائلة محو كل آثار العلم ليبقى الناس في غياهب الجهالة . ولكن عمرها لم يطل فخلفتها عائلة « هان » فاصلحت ما أفسدته تلك وسار مؤسسها بنفسه سنة ١٩٤ ق م لزيارة قبر كونفوشيوس بقرب نهر « مي » شمالي قصبة « لو » وقرّب له ذبيحة ثوراً وامر بجمع كتاباته وسائر تعاليمه وتدوينها وحفظها

وأصبح قبره من ذلك الحين مزاراً لملوك الصين على ان أعظم ملوك العائلة الحاكمة الآن جثا امام تمثاله ثلاث مرات وكان في كل مرة يلصق جبينه بالتراب تحت قدمي التمثال وقد لقبه ملوك الصين بالقاب شتى ولكنهم يسمونه اليوم « كونغ » الاستاذ القديم والحكيم الكامل

وكانوا في بادىء الرأي يقدمون له بعض انواع العبادة فاصبح قبره بعد الميلاد المسيحي حجاً تأمه الناس بالذبائح والقرابين وأمر الامبراطور ان تقدم له الذبائح في كل المدارس الملوكية وغير الملوكية في سائر انحاء المملكة . ولم يمر القرن السابع بعد الميلاد حتى بنيت له الهياكل والقاعات العلمية المزدانة بافخر ما يتفاخر به الصينيون . فاصبح ذلك الفيلسوف المهمل معبوداً يحترمه مئات الملايين من الناس

(تعاليمه وأخلاقه) كان هذا الفيلسوف العظيم سهل الاخلاق صغير الدعوى



قبر كونفوشيوس

يدلك على ذلك انه لما قام بتعاليمه لم يختقر شيئاً من أقوال أسلافه وقد قال محدثاً عن نفسه « لم أولد عالماً ولكنني أحب القديم فسعى في الحصول عليه » وقد سمى نفسه « الناقل لا « الواضع » وبالحقيقة انه قلما جاء بشيء جديد ولكنه جمع اختبارات أسلافه ورتبها وبوّبها على أسلوب يوافق أهل الصين وهو لم يدَّع الوحي ولكنه قال انه مرسل لشهادة الحق والمحافظة على النواميس القديمة

وقلما بحث كونفوشيوس في أصل الخليقة أو مصيرها ولا في مصير الانسان ولكنه اكتفى باصلاح الحال . وقد علم أربعة أمور — الآداب والاخلاق والتقوى والاستقامة

أما رأيه في الخليقة فقد قال الدكتور ليك ان اعتقاده بالخالق لم يكن واضحاً استدل على ذلك من مطالعة كتبه فقد رآه يذكر فيها حاكماً عاماً يسميه « تي » او « شنغ تي » يعتقد انه يدين جميع الامم ويجازي كلاً حسب عمله ان خيراً وان شراً ولكنه يعبر عنه بلفظ « السماء » اكثر مما بلفظ « الاله » فيقول مثلاً « ان من يغضب السماء ليس له من يصلي اليه » وقوله « ان السماء تعرفني »

وبناء على ذلك فانه قلما رق الشعور الديني في الصينيين فضلاً عن تنشيطه عبادة

الاسلاف والارواح . فقد كان يقدم القرابين للاموات كأنهم حضور ويذبح للارواح كأنها شاهدة . على انه لم يعترف صريحاً ببقاء تلك الارواح . وسئل مرة هل تشعر أرواح أسلافنا بما نقدمه لها من القرابين فاجاب « اذا قلت لكم انها تشعر خفت على اهل الحنو والمحبة من الابناء والاحفاد ان يتلفوا مقتنياتهم في سبيلها . واذا قلت انها لا تشعر خشيت من أهل العقوق ان يبادروا أسلافهم بلا دفن . فلا حاجة بكم ان تحققوا احد الوجهين الآن وسيأتي يوم تحققون ذلك بأنفسكم »

فيستدل مما تقدم اما انه لم يكن يعتقد احد الوجهين او كان يعتقده وابى التصريح به على ان الباحث في معتقده قلما يرى ما يدل على اعتقاد له متين بالحياة المستقبلة

ومن تعاليمه في المرأة أقوال أثرت تأثيراً عظيماً في الهيأة الاجتماعية الصينية منها قوله « ان الرجل نائب السماء وهو رئيس كل شيء . وأما المرأة فانها خاضعة لتعاليمه معينة له في تنفيذ مباديه فهي لا تأتي عملاً من عند نفسها بل تكون طوع ارادته مذعنة له في أحوالها الثلاث اذا كانت صغيرة اطاعت والدها وأخاها الاكبر فاذا تزوجت اطاعت زوجها فاذا ترملت أطاعت ابنها . ولا يليق بها ان تتزوج ثانية ولا يجوز لها الامر او النهي وانما عملها قاصر على اعداد الطعام والخمر . ولا بدَّ من احتجابها حتى لا تكون معروفة خارج عتبة بيتها لا بالخير ولا بالشر . وهناك خمس بنات لا يحسن تزوجهن (١) ابنة اهل العصيان (٢) ابنة البيت المختل نظامه (٣) ابنة عائلة ارتكب أهلها الرذيلة في غير جيل واحد (٤) ابنة عائلة مصابة بداء الجذام (٥) كل فتاة فقدت والدها وأخاها الاكبر

والمرأة يحل طلاقها عند ستة أسباب ينظر فيها من ثلاثة اعتبارات واليك علل الطلاق (١) عصيان والدي الزوج (٢) العقم (٣) الفجور (٤) الغيرة (٥) الثرثرة كثرة الكلام (٦) السرقة . واما الاعتبارات التي قد تعارض هذه الاحكام (١) ان لا يكون لها بيت ترجع اليه (٢) اذا سبق لها انها شاركت زوجها بالحداد على والديه ثلاث سنوات (٣) اذا كان زوجها فقيراً وأثرى بعد التزوج بها

فترى مما تقدم ان المرأة حقيرة في عيني كونفوشيوس ولعل ذلك هو السبب في قصور الهيئة الاجتماعية الصينية عن مجاراة الامم المتمدنة في مراقي المدنية مع قدم عهدها وتوفر أسباب الارتقاء لديها

ومن تعاليمه في سير رجال السلطة وأهل الاحكام قوله « اذا حكمت الناس

بالضبط فمن يستطيع ان لا يكون مطيعاً . وجه رغائبك الى الصلاح فيصلح لك الشعب لان النسبة بين الرئيس والمرؤوس كالنسبة بين الريح والعشب فاذا هبت الريح على العشب انثنى »

ومن تعاليمه في تعامل الناس قضية مأثورة تشبه الآية الذهبية المشهورة عند المسيحيين وهي قوله « مالا تريد ان يفعله الناس بك لا تفعله انت بسواك » وهي حكمة سامية لكنها سلبية لا تقابل بقول السيد المسيح « كل ما تريدون ان يفعلهُ الناس بكم فافعلوه انتم بهم فان هذا هو الناموس والانبياء » فانها حكمة ايجابية تأمر بالعمل لا بالكف عنه

والفضيلة التامة عنده أن الانسان اذا اعتزل الناس فليلازم الرزانة والسكون واذا باشر عملاً فلينجزه باعتناء وتعقل واذا عامل الآخرين فليعاملهم باخلاص

وسئل كونفوشيوس عن رأيه في مقابلة الاذى بالاحسان فاجاب « اذا فعلتم ذلك فبماذا تقابلون الاحسان . قابلوا الاذى بالعدل وقابلوا الاحسان بالاحسان » ويقول في الانتقام « لا تسكن انت وقاتل ابيه تحت سماء واحدة . واذا رأيت قاتل اخيه فلا تتكلف الذهاب الى بيتك للبحث عن سلاح تقتله به . واما قاتل صديقه فلا تسكن معه في مملكة واحدة » ولا يخفى ما في ذلك من التحريض على الانتقام وترى اثره ظاهرًا في احكام اهل الصين الى اليوم

هذه هي تعاليم كونفوشيوس وهي كما ترى من ارق التعاليم الوثنية ولذلك لم يكن لها رواج الا عند الطبقة العليا من الكوريين

وفي كوريا جماعة من دعاة النصرانية واكثرهم من الكاثوليك وقد بلغ عدد المتنصرين من أهلها ٣٠٠٠٠ كاثوليكي و ٣٠٠ انجيلي . وقد أنشأت جمعية الكنيسة الانكليزية مدرسة ومستشفيين . وللمرسلين الاميركان مستشفيان في سيول أيضاً وقد بلغ عدد المبشرين المسيحيين منذ بضع سنوات ثمانين مبشرًا انجيلياً وثلاثين كاثوليكياً

(المدارس) المدارس حديثة في كوريا لم تدخلها الامم المبشرين المسيحيين من الانكليز والاميركان والفرنساويين وغيرهم . ففي سيول مدرسة انكليزية فيها معلمان

ومئة تلميذ ومدارس لتعليم اللغات اليابانية والفرنساوية والصينية والروسية ومدرسة اميركانية . وفيها بضع عشرة مدرسة للاطفال تعلم فيها اللغتان الكورية والصينية فقط وقد أنشأ الالمان فيها مؤخرًا مدرسة لتعليم اللغة الالمانية . والحكومة تساعد كل هذه المدارس على نفقاتها



اساتذة احدى مدارس كوريا وتلامذتها

﴿ ميزانيتها وجندها ﴾ معظم دخل حكومة كوريا من خراج الارض ومبلغ ذلك نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ ريال ثم عوائد الكمارك ومبلغها نحو ١,١١٠,٠٠٠ ريال وعوائد المنازل ٢٠٠,٠٠٠ ريال وعوائد أُخرى بحيث يبلغ المجموع ٥,٠٠٠,٠٠٠ ريال وبلغت النفقات سنة ١٨٩٧ نحو ٤,٢٣٨,١٨٦ ريالاً يستولي الامبراطور منها على ٥٠٠,٠٠٠ ريال اي نحو ٥٠,٠٠٠ جنيه والباقي ينفق في مصالح الحكومة ولوازم الجند . وكان الجند الكوري عبارة عن خمسة آلاف رجل لا يحسنون الحركات العسكرية ولا استخدام السلاح فلا ينفعون لهجوم ولا دفاع . وكانت الحكومة قد انتبهت لذلك

النقص في جنديتها منذ بضعة اعوام فعهدت سنة ١٨٩٦ الى اميرالاي من الجند الروسي وثلاثة ضباط وعشرة صف ضباط تدريب جندها فنظموا فرقة للحرس الملوكي مؤلفة من الف جندي اسلحتهم من بنادق بردان مصنوعة في روسيا . وفي سنة ١٨٩٨ رجع الضباط الروسيون و بقيت فرقة الحرس الملوكي سائرة على ما تعلمته من الحركات العسكرية وأخذ ضباطها يعلمون جنود الفرق الاخرى . وقد أنشأوا فرقة من الضابطة

(تاريخ كوريا) كوريا كما تراها في الخارطة واقعة بين الصين واليابان ولذلك فما برحت من اقدم ازمانها عرضة لطامعها . ولدفاعها عن ذلك تاريخ يطول شرحه فنقتصر على ما كان من ذلك بعد تولي الدائلة الحاكمة الآن في كوريا ومؤسسها اسمه « تاي تسو » او « ليتان » استلم زمتها سنة ١٣٩٢ م وتوالى الحكم في اعقابه الى اليوم . فاتفق في ايام احدهم « سيونغ سيونغ » الذي حكم كوريا من سنة ١٥٠٦ الى ١٥٤٤ ان اليابانيين طمعوا فيها فجردوا عليها جندًا كثيفًا فدفعهم الكوريون فعادوا خاسرين فتربصوا الى سنة ١٥٩٧ في ايام الامبراطو تيكوساما وهو من اعظم امبراطوري اليابان واعلام همة فجند للانتقام من كوريا حملة ذكر اوكاونسي مؤرخ تلك الحرب وقد شاهدها بعينه انها كانت مؤلفة من ٠٠٠ و١٦٣ مقاتل فافتتح كوريا واحتل ثلاثة ارباعها وأخرب كثيرًا من بلادها . وكانت كوريا قد استنجدت الصين فانجدتها بمئة الف مقاتل لكنها لم تستطع دفع ذلك القائد الياباني . على ان الاقدار غلبت على كليهما فمات تيكوساما سنة ١٥٩٨ فضعف أمر اليابان فانسحبوا وقد رضوا من الغنيمة بالاياب . ثم عادوا الى الحرب وعاد الكوريون الى الدفاع فلما ملوا الوقوف امام اليابانيين صالحوهم على ما يرضيهم فأمضوا سنة ١٦١٥ معاهـدة تقضي على الكوريين بجزية يحملها وفد من رجال حكومتهم حتى يضعوها بين يدي امبراطور اليابان اعترافًا بالتسليم وما زالوا يفعلون ذلك الى سنة ١٧٩٠

وفي اثناء ذلك تغلب المنشو على الصين واستلموا ازمتها وهددوا كوريا ولم ينفعها الدفاع فاسترضتهم سنة ١٦٣٧ بجزية ثقيلة تؤديها لهم في كل عام وتعترف بسيطرة

المنشو عليها. وهي مع ذلك لا تزال على صلحها مع اليابان تجنباً للحرب لانها بين عدوّين أيهما انفرد بها التهمها. ولم تحدث بينها و بين احداهما حرب من ذلك الحين. على انها استفادت من ارسال الوفود الى باكين في كل عام فوائد ادبية وعلمية ذات شأن لانهم كانوا يتداولون مع بعض الافرنج المقيمين في تلك العاصمة ويسمعون بأخبار التمدن الحديث و ينقلون تلك الاخبار الى سيول — يحكى ان بعض أولئك الوفد التقى في بعض خطراته الى باكين برجل افرنجي اسمه جان نيوك فأعطاه كتباً و بنادق ونظارات مكبرة (تلسكوب) ونحوها من المخترعات الافرنجية الحديثة فانبهر الكوري وحملها الى بلاده وهو يتحدث بغرائبها و يعرضها على اهله وذويه

وكان في جملة ما نقل على هذه الكيفية كتب وأخبار تتعلق بالديانة المسيحية فاهتم امبراطور كوريا سنة ١٧٨٤ في الامر وكلف وفده بزيادة البحث فجرّ ذلك الى توارد المبشرين من الطوائف النصرانية فانتشرت الديانة المسيحية كما تقدم

وتوالت على كوريا شؤون مختلفة في اثناء ذلك أهمها تداخل الافرنج في احوالها من جملة تداخلهم في احوال الشرق الاقصى على اجماله وتغيرت يومئذ العلائق بين كوريا واليابان وتوقفت كوريا عن إنفاذ الوفود لحدث في أواخر القرن الماضي ما دعا الى تداخل اليابانيين بشؤونها فقضى ذلك بمعاهدة تقضي لليابان بنائب يقيم في سيول مرعي الجانب وان تفتح ثلاث فرض كورية لتجارة اليابان وان يكون لليابانيين الحق في الالتجاء الى المرافئ الكورية اذا اشتد عليها النوء او احتاجت الى الحمى ولبحريتها ان ينزلوا الى الشواطئ بلا معارض . وما زال ذلك شأنها حتى حدثت الحرب الاخيرة بين الصين واليابان على ما بيناه قبل الآن

﴿الكوريون﴾ اكثر الكوريين يشتغلون بالزراعة فمنهم نحو سبعين في المئة فلاحون ومعظم صنائعهم الاخرى تابعة للفلاحة فالنجارون والحدادون والحياكون والبناؤون انما يخرجون من الحقول والمزارع ليصطنعوا ما تحتاج اليه الحراثة والدراسة او ما يلزم اصحاب الحقول من المساكن والثياب والآنية وهم مع ذلك يتعاطون الفلاحة حتى معلمي المدارس فانهم من ابناء الفلاحين وكذلك الصيادون فان الرجل يلقي شبكته

و يتربص لاستخراج صيده وامرأته تشتغل في الحقل . وكذلك تفعل اكثر نساء الكور بين نانهن يشتغلن في تنظيف القطن او الحرير او الكتان . والفلاحون انفسهم يقضون ساعات الفراغ في اصطناع الاحذية والحصر والكراسي وغيرها من الآنية الخشبية حتى خدمة الحكومة والتجار واصحاب الفنادق والحوانيت فان لهم علاقة بالفلاحة او بالفلاحين والحكومة معظم دخلها من خراج الارض والاهالي يعيشون على ثمار الارض

وللكوريين سليقة طبيعية للفلاحة وفيهم سذاجة الفلاحين وصبرهم على العمل فالرجل عبد حقله يعمل فيه يومه بلا ضجر ولا ملل ولا يخرج من قريته الا الى السوق ليبتاع بعض حاجياته واهم حيوانات الحقل عندهم الثور والخنزير واهم اصناف الزراعة الارز فانه معظم طعامهم يأكلون منه ستة اضعاف ما يأكلونه من سائر الحبوب . ولا يعافون شيئاً من لحوم الحيوانات بريها وبحريها حتى الكلاب فانهم يأكلون لحمها فضلاً عن لحم الخنزير والبقر . ولا يأكلون اللحوم الا ودمها فيها ويأكلون بعض الاسماك نيئة وبعض اللحوم مجففة ولهم اطعمة غريبة تعافها اذواقنا وهم اهل شره وبطنة ولذلك فالتخم تتوالى عليهم والدسبسيا متسلطة فيهم

وألبسة الكوريين بيضاء اللون على الاطلاق فالفقير والغني والصانع والزارع والتاجر كلهم يلبسون اثواباً بيضاء وانما تتفاوت اثمانها بتفاوت انواع النسيج . فالبسة الشرفاء ربما بلغ ثمن الثوب منها بضع مئات من الريالات واما شكلها فيكاد يكون واحداً فالثوب عبارة عن قفطان تحته سراويل ويلبسون على رؤوسهم قبعات كثيرة الشبه بقبعات بعض امم الافرنج

والمرأة الكورية تقضي معظم حياتها وراء الحجاب الا بعض اهل الوجاهة فانهن يخرجون بنسائهم في بعض الليالي ويندر ان تخرج المرأة الى السوق في النهار . واهم اعمال المرأة عندهم تربية اطفالها واذا تجاوزت الفتاة سن العشرين ولم تتزوج عدُّوا ذلك مصيبة كبرى عليها وعلى اهلها . ومن اكبر اسباب الطلاق عندهم العقم وقد تعمل المرأة اعمال الرجال كتربية دود الحرير او نسج النعال القش وقد تفتح حانة لبيع الخمر او مدرسة للتعليم ولكنها لا تشتغل بالتطريز ولا تبيع الاثمار — تلك هي القاعدة في نساء الطبقة العليا واما نساء الطبقة الوسطى فقد يتعاطين كل تلك الصنائع الا الطب والتعليم

فالمرأة الكورية من اكثر نساء العالم عملاً واقتصاداً وعليها تتوقف سعادة العائلة وهي مع ذلك مظلومة محتقرة يحمّلها الرجل ما لا تطيقه من الاعمال الشاقة و يجلس هو

في الكسل والرخاء والترف ومع ما مرّ عليها من ادوار الضغط والذل لاتزال الى اليوم اعظم تأثيرًا في شؤون الحياة الاجتماعية من رجلها واكثر عملاً ونشاطاً وهمة وذكاء . تعمل عمل الرجل في السوق وفي البيت وتقوم مقام الثور في الحقل تخيط وتطابخ وتغسل وتكوي وتحرث وتزرع وتحصد وترتب البيت وتربي الاطفال وتعزي العائلة



بنّاء كوري يبني جدار المنزل

ويبني الكوريون منازلهم بالاحجار على اسلوب خاص بهم فيصنعون شبكة ينصبونها عامودية ويضعون الاحجار في اخليتها كما ترى في الرسم ثم يطلونها بالطين ويغطون اسطحة منازلهم بالقرميد بدون استثناء فاذا اطللت على المدينة خيل لك انك ترى ارضاً مفروشة بالقرميد

ومن غرائب الاحكام القضائية التي كانت جارية عندهم الى أمد قريب ان يأخذوا العائلة بجرم فرد من افرادها . واليك ما رواه المستر هملتن وكان قد خالطهم وعاشرهم اعواماً :

الرجل الخائن يعاقب بقطع رأسه ورأس رجل من ذوي قرابته الى الدرجة الخامسة وتسمم والدته وامرأته وابنته او يستعبدن

المرأة الخائنة	تعاقب بالتسميم
الرجل القاتل	يقطع رأسه وتسمم امرأته
المرأة القاتلة	تشنق او تسمم
الرجل السارق	يشنق او يقطع رأسه او ينفى وتستعبد امرأته وتصادر امواله

من يدنس القبور يقطع رأسه ورأس واحد من ذوي قرابته الى الدرجة الخامسة وتسم والدته وامرأته وابنته

المزوّر . يشنق او يقطع راسه وتسم امرأته

﴿ امبراطور كوريا (١) ﴾ هو الامبراطور « هني بي » يتصل نسبه بمؤسس هذه العائلة سنة ١٣٩٢ م كما تقدم . وبينه وبين ذلك الجد ١٢ عقباً فهو العقب الثالث عشر له . وقد تولى الملك سنة ١٨٦٤ وهو في الثالثة عشرة من عمره وهو الآن في الرابعة والخمسين تزوج في الخامسة عشرة اميرة اسمها « مين » في نحو سنه فولدت له غلاماً هو ولي عهد المملكة . والامبراطور قصير القامة بالنظر الى معدل طول الكوريين سمح المحيا باسم الوجه وخصوصاً اذا تكلم رخيم الصوت . لا يعرف شيئاً من اللغات الافرنجية ولا اللغات الاسلامية (العربية والتركية والفارسية) ولكنه يحب الاطلاع على العلم الحديث فهو يطالعه في الكتب التي ترجمت الى الكورية لتعليم مبادىء العلوم . وقد ألمَّ بكثير منها . وهو يتكلم الصينية ويكتبها جيداً وله اطلاع واسع على تاريخ شعبه . وهو رقيق الجانب محبٌّ لتقدم بلاده عامل على مصلحتها وقد يقضي ليلة بعد ليلة ساهراً مع وزرائه للبحث في شؤون الحكومة الى الفجر . على انه لا يخلو من الضعف من بعض الوجوه بالقياس على ما نعلمهُ من أحوال العالم المتمدن وأما بالنظر الى أحوال أسلافه فانهُ يعدُّ من اكبر محبي الاصلاح

وسرُّ ما يظهرُ من ضعفه استسلامه الى ذوي شوراه ورئيسهم « يي يونكيك » رئيس ادارة قصره فانه يتسلط عليه بواسطة نساء ذلك القصر ودسائسهن وسوء آدابهن فمن أراد شيئاً من الامبراطور عهد به الى احدى اولئك النساء او رشي بعض الوزراء فينال ما أراده . ولم يتفق لوزير ما اتفق لهذا الرجل من النفوذ بما يتخذه من الوسائل و يبذله من الاموال حتى الامبراطور نفسه فانه يخافه ويرجوه لما يحتاج اليه من الاموال

(١) انظر رسمه في اول الهلال الثامن من هذه السنة

ومن اكثر أهل قصره نفوذاً واقتداراً الاميرة « أوم » وهي على جانب من الدهاء ولولا ذلك ما استطاعت التسلط على الامبراطور والتغلب على ارادته لانها قبيحة الخلق ولا تسلط النساء على الضعفاء غالباً الا بجمالهن واما الاميرة « أوم » فانها من قبح المنظر على جانب عظيم فهي ضخمة البدن مع استرخاء وفي وجهها آثار الجدري . اسنانها متعرجة متقاطعة صفراء الوجه بلون الزعفران . في عينها حولٌ ربما كان من أثر طاعون أصابها في صباها و يندر ان ينجو كوريٌّ منه . ومما يزيدها تشويهاً انها تحاول اصلاح تلك القبائح بالتخطط والتبرج . ومع ذلك فهي مالكة قياد الامبراطور وهو لا يكاد يجري أمراً بغير ارادتها حتى في تصرفه مع نسائه الأُخريات

وأما نظام الحكومة الرسمي الذي يظهر للناس فهو عبارة عن مجلس مؤلف من ستة وزراء ورئيسهم وستة مستشارين والسكرتير وقول الامبراطور هو النافذ . وادارات الحكومة يديرها تسعة نظار والنظارات تسعة الخاصة والداخلية والخارجية والاشغال العمومية والمالية والحربية والحقانية والمعارف والزراعة واكثر هذه النظارات قد تحسنت ادارتها بعد حرب سنة ١٨٩٦ لولا ما تقدم من الدسائس الداخلية

صحة العائلة

الاشربة الروحية

لحضرة نعمة افندي ايليا الصيدلي القانوني بدمنهور

فصل في احتجاج مستعملي المسكرات

(٨) الكحول يساعد على الهضم : الشارب المعتدل يشرب درهماً صباحاً يقوي معدته لقبول الطعام ثم يأخذ بعد الطعام درهماً آخر ليساعدها على الهضم . يساعد الهضم لانهُ يذيب الطعام ويجزئ عناصره وقد رأينا فيما مر ان الكحول لا يفعل

ذلك بل يقسي الانسجة ويؤخر الهضم ولا يزيد قوة العصير المعدي بل يسلب قوتها للعمل اذ يرسب منها اهم عنصر فيها للهضم وهو البيسين بهيئة مسحوق ناعم أبيض اللون وقد جربوا ذلك في الكلاب فاعطوها كحولاً مع الطعام فوجد ان الهضم لا يبدىء الا بعد الأكل باثنتي عشرة ساعة لان المعدة اضطرت ان تطرد الكحول منها قبل بدئها بالهضم

(٩) الكحول مأخوذ من الحبوب : يقول من اعيته الحيل ان الكحول مستخرج من الحبوب فان كان مضراً فلماذا لا تضر الحبوب التي أخذ منها . كل شيء على الارض سمٌّ قليل . فنجيب ان الكحول يستخرج من الحبوب لكنه لا يوجد فيها . وهكذا الدخان يخرج من الخشب لكنه لا يوجد فيه بل يحدث من احتراق مادته . فالكحول يستخرج من اتلاف الاثمار والحبوب واختمارها . والاعتقاد بوجود قليل من السم في كل شيء باطلٌ . نعم قد كثر غش المبيعات في هذه الايام حتى ندر وجود طعام غير ممزوج بأشياء سامة لكن الطبيعة لا يوجد فيها شيء من ذلك

(١٠) الهويسكي لا يضر : مدخن الافيون وشارب الابسنت وآكل الزرنيخ كلهم يدافعون بسلاح واحد وكل يذهب فريسة لذاته . السكير لا يعلم ما يعمله الكحول لان الكحول خداع وقد فقد الشعور والحس فلم يعد يدري باضراره . أما الاصدقاء والاقارب فيرونها وهو نفسه يراها في الآخرين فهل يختلف جسمه عن أجسامهم أو هل أنسجته من حديد او يختلف الكحول الذي يشتر به عما يشتر به خلافه كلاً ؛ فالكل واحد

(١١) المشروبات النقية ليست رديئة : يقول بعضهم « لو وجد مشروب نقي كما كان يوجد قبلاً لما بلغنا الى هذه الحالة التعيسة فأشرب كاساً من هذه الخمر فانها نقية وقد صنعتها في بيتي لنفسي فهي لا تضرُّ » فالكحول دواء سامٌّ وجد بين المشروبات وليس ضرر ما يغش به باعظم من ضرره فالخمر الصرف هو سم زعاف صرف . الكحول فعله واحد سواء أخذ من برميل الهويسكي او الروم او الكونياك او البيرا او مما يصنع في البيت او من « المشروبات المرة » التي يقال انها لاتحوي كحولا

وهو ألد عدوّ يجب ان نحاربه معها تنوعت الهيئة التي يظهر بها

(١٢) الشرب باعتدال غير مضر — كل انسان حتى السكير يعترف بان الافراط من المسكرات مضر و بعض الوجهاء يعتقدون ضرره اذا افرط في شربه ولكنه منعش غير مضر اذا شرب باعتدال وهذا أيضاً اعتقاد فاسد أضرّ بالوف من البشر لان الدرهم الواحد يزاد الى اكثر وخمر البوردو قد يبدل بآخر وهكذا بالتدريج يصبح الشريب المعتدل سكيراً والنقطة الاولى الصغيرة تولد حباً وميلاً لجرعات اكبر و (سكر) في اللغات الافرنجية مأخوذة من أصل لاتيني معناها (سم) . فالكحول سام واذا دخل الجسم البشري يسممه بقدر الكمية المأخوذة منه . وقد وجد الاطباء ان الشرب المعتدل يولد مرضاً يسمونه التسمم الكحولي المزمن وهو مخطر جداً ولا سيما على الشيوخ . وهو من أعظم الاسباب التي تعرض الجسم لداء السكتة والفالج وغيرها

(١٣) الاطباء يصفون الكونياك والخمر لمرضاهم والضعفاء : بكل أسف يقال ان عدداً عظيماً من الاطباء يصفون الكحول لمرضاهم عن غير انتباه وقد ظهرت نتيجة ذلك في الوف من السكيرين الذين لا يوجدون في غير الحانات الماقرة الحقيرة وقد بينا عدم ضرورة استعماله فيما تقدم

(١٤) العلماء يصفون الكحول : ومما يوجب الاسف ان يخضع العلم للرذيلة والشهوات الفاسدة لتعلق بعض رجال العلم بالكحول . فاشارة هؤلاء باستعماله مسببة عن شهواتهم فقط لا عن معارفهم . وهو حكم لا يجوز قبوله لان معظم العلماء قد بينوا اضراره وعلموا بالابتعاد عن شروره وقال الدكتور باركس « لو لم يكن الكحول معروفاً لاختفى نصف الشر الموجود بين البشر وزال الفقر والشقاء » وقد تبرهن في ما تقدم انه لا يصلح غذاء ولا دواء فلينتبه المخدعون ويصلحوا ما صدر قبلاً من الخطأ في أقوال سابقة ويحذروا من استعمال الكحول لاي سبب كان

(١٥) كل الامم تستعمل الكحول : كثيرون يقولون بما ان استعمال الكحول عمومي فالميل اليه اذاً طبيعي . فلو سلمنا ان ذلك الميل تولد بالوراثة فما فائدة العقول وأية أمة لا يوجد فيها الكذب والسرقة وغيرها من أنواع المعاصي والذنوب فاذا كان

السكر شرًّا فشيوعه لا يؤخذ عذرًا لوجوب استعماله ولكنه ليس عموميًّا فهنود اميركا الشماليين مثلاً لم تكن لهم معرفة بالكحول فلما وصل اليهم لقبوه «بالماء الناري» وكان ادخاله اليهم من اعظم الاسباب لانقراضهم وهناك قبائل كثيرة متوحشة لا تزال تجهل هذا السم المميت . فضلاً عن ان الميل للمشروبات الكحولية ليس طبيعيًّا . قدم للطفل كوبًا كأسًا يرفضه حالاً وما من حيوان يحبه من طبعه وان كان الانسان قد عوَّد بعض الحيوانات على تعاطيه كالخنزير مثلاً فانه اقوى مشابهة للانسان بطلب المسكر . ذكر الدكتور فاويار احد كتبة القرن الماضي ان كلبًا لعامل بيرا تعوَّد البيرا حتى احبها فصار يلحسها بلسانه من الحوض ولم تمرّ عليه سنين عديدة حتى اعتراه مرض النقرس فتورمت اعضاؤُهُ كلها ومات بالاستسقاء ومع انه قد يولد ميلاً اصطناعيًّا لشربه فذلك الميل لا يغير فعله في الجسم فهو يبقى سمًّا والجسم يعامله كما يعامل السموم مع الميل الوراثي او الاكتسابي اليه

(١٦) استعمال المشروبات الروحية ينبوع عظيم شيدته الحكومة : يقول بائعو المشروبات الروحية انهم يستخدمون سنويًّا لاصطناع المشروبات ويها نحو خمسماية الف رجل ويحترق اكثر من ثلاثين مليون قنطار (مصري) من الحبوب يدفعون عنها للحكومة رسمًا سنويًّا مقداره ستون مليون جنيه او نحو خمس مدخول البلاد فما أعظم خسارة الحكومة بفقد هذا المبلغ العظيم وما أقل شفقة البشر لعدم ايجاد عمل لخمسماية الف رجل . فيجابون ان ما اقل شفقة البشر باتلافهم ثلاثين مليون قنطار من الحبوب تعمل ستين مليون رغيف من الخبز وزن كل رغيف ٤ ارطال لا بل ما اقل الشفقة بعملها سمًّا لاماتة البشر فضلاً عن ان تلك المشروبات التي تعطي الحكومة دخل ستين مليون جنيه سنويًّا تطلب من الحكومة ايضًا مائة مليون جنيه لنع ثمانماية الف صعلوك من السكيرين عن اقلاق الراحة والامن العام وزد على ذلك ما تطلبه العناية بثلاثين الف مجنون تلقى تبعة اضرارهم على عاملي الكحول . فما أقل النفع لدى مقابلته بالضرر . وما أعظم الخسارة التي تنتج من عدم الانتفاع بعمل اولئك الفعلة الذين يشتغلون بتحضير المسكر وقتل عدد كبير من السكيرين

المسلمون في مملكة الروس

ذكرنا في جملة الشعوب الخاضعة لروسيا نحو خمسة ملايين من الرعايا المسلمين فاذا اضفنا اليهم مسلمي امارتي بخارا وخيوا زاد مجموع مسلمي روسيا ومستعمراتها على تسعة ملايين على هذه الصورة :

٢,٨٠٠,٠٠٠	في روسيا اوربا
٢,٥٠٠,٠٠٠	« القوقاس وسيبريا وتركستان (سنيون)
٨٥٠,٠٠٠	« « « « (شيعيون)
٢,٤٠٠,٠٠٠	« بخارا
٨٠٠,٠٠٠	« خيوا
٩,٣٥٠,٠٠٠	



امير بخارا

وأمير بخارا السيد عبد الاحد بهادر خان تولى اريكة بخارا سنة ١٨٨٥ بعد وفاة أبيه الامير مظفر الدين وقد تثقف وتعلم في مدارس الروس — دخلت بخارا في سيطرة روسيا على عهد أبيه [1] والامير الحالي يظهر غيرة شديدة على مصلحة الروس مثل سائر المسلمين الخاضعين لروسيا في مملكتها اومستعمراتها . ولذلك فلما انتشبت الحرب بين الروس واليابان بعث أمير بخارا تلغرافاً الى القيصر يشاركه في الاستياء من اليابان ويعرض خدمته بالجند والمال . وكذلك فعل خان خيوا . فاجابهما القيصر شاكراً وبعث اليهما بالهدايا وعلامات الرضاء والامتنان — على ان اهل الامارتين انفسهم ابدوا من أسباب المشاركة للروس في هذه الحرب ما استوجب ارتياح القيصر . فعقد بعضهم الجميات لجمع الاعانات للجرحى والمصابين من الروسيين ووقف الخطباء في الجوامع يدعون للقيصر بالنصر على اعدائه

وأما جند بخارا فعدده ١١,٠٠٠ رجل منهم ٤,٠٠٠ في مدينة بخارا . وجند خيوا ٢,٠٠٠ رجل واذا أراد الاميران نصرة الروس بالجند جمعا اضعاف ذلك . وهم يحبون القيصر لانه يحترم شعائرهم الدينية ويكرم وفادتهم ويعاملهم بالحسنى



المسلمون في جند الروس يحلفون يمين الطاعة بين يدي فقيه مسلم

(١) راجع ما كتبناه عن بخارا وأميرها في الهلال التاسع من السنة الحادية عشرة

أما مسلمو روسيا في القوقاس وتركستان وروسيا أوربا فمنهم جمع كبير في الجند الروسي المحارب. لان التجنيد في روسيا يتناول كل الرعايا على اختلاف المذاهب والنحل ففي الجند الروسي نحو ٥٠,٠٠٠ من المسلمين وفيهم الضباط والعساكر وفي جملتهم جماعة من مشاهير القواد

والمسلم في الجند الروسي يؤدي واجباته الدينية كأنه في دولة اسلامية فان لكل جماعة منهم شيخاً او فقيهاً يصلون بين يديه ويخطب فيهم . وعند انتظامهم في الجندية يتولى الشيخ الاكبر عندهم تحليفهم يمين الطاعة والثبات في خدمة الدولة الروسية كما ترى في الرسم

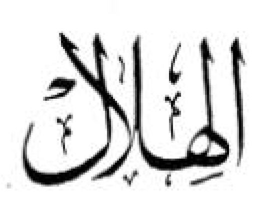
ويظهر من الاخبار الواردة الينا على السنة الجرائد بعد انتشاب الحرب ان المسلمين نهضوا نهضة عامة لنصرة الروس وخصوصاً لان الدولة التي نهضوا لمحاربتها وثنية. واليك نص المنشور الذي بعث به شيخ الاسلام في بلاد القوقاس الى سائر مسلمي القوقاس وهاك تعريبه :

النصيحة لعموم المسلمين

« من عبد السلام اخوند شيخ الاسلام في القوقاس والرئيس الروحي لعموم المسلمين الى المسلمين الذين هم تحت رئاسته السلام . ولقد أرسلت اليكم مع هذا رسالة دينية لتكتب وتتلى في المساجد والجامعات بعبارتها المؤثرة ونصها الصريح

« ايها المسلمون ان سردارنا الاكرم وحيينا الحكمدار الاعظم قد بلغانا امر اعلان الحرب من دولة اليابان الخائنة على دولتنا الروسية التي تجب علينا اطاعتها لانها ولية أمرنا وتجب علينا المدافعة عن أملاكها لان تلك الاملاك وطننا . فدعوة حكمدارنا واجبة اطاعتها بكل مسرّة وارتياح والواجب علينا جميعاً ان نكون على أهبة تامة لمقاتلة الدولة الغادرة واعلموا ان مال المسلم منكم وروحه دين للوطن يجب انفاقه له كلما احتاج هذا الوطن اليه فلنظهر في هذه الاونة عواطفنا الصادقة نحو حكومتنا الروسية التي نرى منها دائماً العناية بنا والرعاية لحقوقنا لتعرف دائماً أبداً انا صادقون في حبها . فانتم الذين أظهرتم لروسيا منذ ٢٥ سنة في محاربتها مع الدولة العثمانية تلك الشجاعة والبطش والاخلاص جدير بكم ان تظهروا لها الآن فوق ذلك ان عدوها هو عدوكم واعلموا ان عدوكم مجوسي وثني وقد لعن الله في كتابه العزيز المجوس والوثنيين فعليهم اللعنة الدائمة

١٧ ذي الحجة عبد السلام



الجزء الرابع عشر من السنة الثانية عشرة

﴿ ١٥ أبريل (نيسان) سنة ١٩٠٤ و ٢٩ محرم سنة ١٣٢٢ ﴾

تيبت واهلها

﴿ جغرافيتها ﴾ تيبت ويسميها العرب « تُبَّت » بقعة بيضية الشكل طولها من الشرق الى الغرب ١٦٠٠ ميل ومعظم عرضها من الشمال الى الجنوب ٧٠٠ ميل ومجمل مساحتها نحو ٧٠٠,٠٠٠ ميل مربع واقعة في قلب اسيا يحدها من الشمال بلاد المغول وتركستان الشرقية ومن الجنوب بلاد الهند ومن الشرق الصين الاصلية ومن الغرب مملكة قشمير . وبلاد تيبت كثيرة الارتفاع يبلغ ارتفاع أعلى جبالها ١٧,٦٠٠ قدم فوق سطح البحر ويفصلها عما أحدق بها من الممالك جبال وعرة تجعل السلوك اليها شاقاً . فيفصلها عن بلاد الهند في الجنوب جبال حمالايا الشهيرة بارتفاعها العظيم ويفصلها عن بلاد الصين في الشرق سلسلة جبال يونلين وعن تركستان وبلاد المغول في الشمال جبال كوين لون

وأما من الغرب فانها تستدق حتى تنتهي الى قشمير بسهول بامير الفاصلة بين تركستان الروسية وبين الهند . ونظراً لوعورة تلك الحدود ظلت تيبت قروناً متطاولة ممتنعة على السياح وأهل الرحلة . ومع وقوعها في المنطقة المعتدلة فانها تعد من البلاد الباردة بالنظر الى ارتفاعها العظيم عن سطح البحر . والفرق بين جوها وجو الهند كبير

فالمنتقل من الهند الى تيبت ينتقل بغتة من الحر الى البرد . وبسبب وعورتها وما يحدق بها من الجبال العالية قلما مرَّ بها جند فاتح مع كثرة تجريد المغول على الهند والصين من قديم الزمان حتى جنكيزخان القائد المغولي الشهير لما أراد اكتساح الهند فانه زحف اليها عن طريق بخارا وافغانستان . ولذلك امتنع على سياح الافرنج الوصول اليها الى عهد غير بعيد . واقدم من وطئها منهم فراير اودوريك فقد وصل عاصمتها « لاصا » نحو سنة ١٣٢٨ م وبعد ذلك بثلاثة قرون دخلها انطونيو اندرادا بطريق الهند من جهة الغرب . وفي سنة ١٦٦٣ دخلها الأبوان كروبر ودورفيل بطريق الشرق الى « لاصا » ثم نزلا منها الى الهند بطريق نيبال . وفي أوائل القرن الثامن عشر دخلها الاباء الكبوشيون . واول رجل انكليزي وطئها جورج بوجل سنة ١٧٧٤ وكان قد سار بمهمة سياسية من حكدار الهند الى بعض أمراء تيبت ثم دخلها غيره

وتقسم تيبت من حيث جغرافيتها الطبيعية الى ثلاثة أجزاء تمتد عرضاً من الشرق الى الغرب وتزداد ارتفاعاً ووعورة من الجنوب الى الشمال . فالجزء الجنوبي أكثرها خصباً وعمراناً والجزء الشمالي اكثرها وعورة وهو مهجور تسرح فيه الحيوانات البرية وبعض القبائل الرحل من الترك والمغول . والجزء المتوسط عبارة عن سهول ترعى فيها الماشية ويسكنها قبائل من أهل الرحيل يقال لهم « بودبا » . فالجزءان الجنوبي والاوسط هي البلاد التي يصح ان تسمى عامرة وهما يقسمان الى أربع ولايات (١) نكارى في الغرب بين درجة ٧٤ و٨٥ من الطول الشرقي (٢) دوخام او خام في الشرق (٣) تسانغ في الوسط بازاء نكاري (٤) أوس بازاء دوخام . وهاتان الاخيرتان واقعتان في الوسط وقد تسميان باسم واحد « اوتسانغ »

﴿ سكانها ﴾ يعتقد اهل تيبت ان جدهم الاول قرد تزوج بشيطانة تيبتية يسمونها « سرنمو » فولدت منه ستة أولاد وحالما فطموا سكنوا الغابات ثم عادوا بعد بضع سنين وقد صار عددهم ٥٠٠ فاستغرب أبوهم ذلك ولكنهم كانوا جياعاً فعمد الى خمسة أصناف من الحنطة حمل شيئاً منها وصعد الى جبل تيسي ورماها من قمته

الى أولئك القردة فكانوا كلما اكلوا منها قصرت أذنابهم وتساقطت شعورهم ثم نطقوا وصاروا آدميين واكتسوا بورق الشجر . على ان الاعتقاد بالتسلسل من القرد ليس خاصاً بأهل تيبت بل هو يشمل كثيرين من أهل اسيا الوسطى وفي جملتهم قبائل التنكوت وغيرهم . وأصحاب رأي الارتقاء يرون تلك الخرافة من بقايا الحقيقة التي ذهب اليها داروين عن تسلسل الانسان والقرد من اصل واحد



تاجر تيبتي

اما باعتبار ماهو معروف من اصناف البشر فالتيبتيون من الجنس المغولي وقد وصفهم بعض الذين عاشروهم وخبروهم فقال انهم بالاجمال متوسطو القامة خفاف العضل أقوياء البنية سود العيون منحرفوها كبار الافواه سمر الشعور خفاف اللحى . وهم معتدلو المزاج ثابتون في العمل لطفاء الخلق يحبون الموسيقى والرقص والغناء مع ميل شديد الى الانبساط واللهو . فجاء ذلك مؤيداً لما كان يعتقده العرب فيهم واليك ما قاله ياقوت في هذا الشأن — قال :

« وقرأت في بعض الكتب ان تبّت مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخم من احدى جهاته لارض الهند ومن جهة المشرق لبلاد الهياطلة ومن جهة المغرب لبلاد الترك ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات سعة وقوة ولاهلها حضرٌ وبدوٌ وبداويهم

ترك لاتدرك كثرة ولا يقوم لهم احد من بوادي الاتراك وهم معظمون في أجناس الترك لان الملك كان فيهم قديماً وعند أحبارهم ان الملك سيعود اليهم · وفي بلاد التبت خواص في هوائها ومائها وسهلها وجبلها ولا يزال الانسان بها ضاحكاً مستبشراً لاتعرض له الاحزان والاخطار والهموم والغموم يتساوى في ذلك شيوخهم وكهولهم وشبانهم ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وانهارها · وهو بلد تقوى فيه طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره وفي أهله رقة طبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي وأنواع الرقص حتى ان الميت اذا مات لايداخل أهله كثير الحزن كما يلحق غيرهم ولهم تحنن بعضهم على بعض والتبسم فيهم عام حتى انه ليظهر في وجوه بهائمهم » اه .

وبلاد تيبت على الاجمال قليلة السكان حتى ان جانباً كبيرًا من بقاعها الشمالية لايسكنه البشر على الاطلاق ومعظم السكان في الجنوب والوسط · ونظرًا لكثرة القبائل الرحل فيهم يصعب احصاؤهم لكنهم يقدرون عددهم بوجه التقريب بنحو ٦,٠٠٠,٠٠٠ نفس — ذلك هو تقدير الروسيين لهم على ان غيرهم يقدرهم باضعاف ذلك والغالب انهم لايزيدون على هذا العدد

والديانة الغالبة في تيبت البوذية او هي فرع منها تسمى اللامائية نسبة الى كهنتها عندهم · وكانوا قبل ظهور هذا الدين يعتقدون ديناً اسمه « البوني » وقد غلبت البوذية عليه لكنه لايزال معتبرًا عند جماعة كبيرة من الاعيان وله اديار ومعابد كثيرة ويسمى اتباعه غالباً « بونبو » اي الشيعة السود تمييزًا لهم عن اهل اللامائية فانهم حمر أو صفر

واهل تيبت طبقتان أهل القرى ويسمون بلسانهم « بولبة » وأهل البادية واسمهم « جمبة » ولبدو التيبت عادات غريبة لا يشاركهم فيها أحد فهم يأكلون طعامهم نيئاً سواء كان لحماً او خضارًا او غير ذلك لانهم لا يعرفون الطبخ ويطعمون خيولهم اللحم بدلاً عن العشب ويستخدمون اغنامهم في حمل الاثقال لضخامتها وقوتها فيجعلون النير في أعناقها ولا ينزعونه عنها شتاء ولا صيفاً الا نادرًا · واذا سافروا

لتجارة نقلوا على اغنامهم احمال الملح والانسجة مما يحمل من تيبت الى الهند او غيرها . والجمبة أهل تجارة يتناقلون بهذه الاغنام واحمالها وربما ساق التاجر منهم نحو ١٠٠٠٠ منها الى هندستان في الشتاء فيبيعون أحمالهم ويعودون في الربيع واحمالهم من محصولات الهند كالانسجة الهندية والرز والحنطة والاطياب

وأما أهل القرى فمنهم المزارعون والصناع وأصحاب الاسواق وفيهم طبقة ممتازة هي طبقة العلماء ويسمون بلسانهم « لاما » واللاما طبقات ولأهل كل طبقة لقب خاص فمنهم التنكانا والفهجاوار وغيرهما

﴿ محصولاتها ﴾ اكثر اشتغال التيبتيين في التجارة والحكومة تساعدهم على ذلك وتعين من جندها من يرافق قوافلهم للخفارة ويسمى هؤلاء الخفراء « كربون » ولا سبيل عندهم للنقل غير القوافل المؤلفة من البقر او الهجن المزدوجة السنام وهي كثيرة هناك . واعظم اسواق التجارة عندهم في ديكارشي واللاصا فتصل القوافل اليهما في دسمبر ويناير من الصين ومغوليا ودوخام وتسي شوان وبوتان وسكيم ونيبال وقشمير ولداك

ومن أشهر محصولات تيبت المسك ومسكها مشهور بجودته ويفرزه غزال يسمى غزال المسك . واليك ما ذكره العرب من أمر هذا المسك وكيفية تولده — قالوا :

« والارض التي بها ظباء المسك التبتي والصيني واحدة متصلة وانما فضل التبتي على الصيني لامرين احدهما ان ظباء التبت ترعى سنبل الطيب وانواع الافاويه وظباء الصين ترعى الحشيش والامر الآخر ان أهل التبت لا يعرضون لاخراج المسك من نوافجه واهل الصين يخرجونه من النوافج فيتطرق عليه الغش بالدم وغيره . والصيني يقطع فيه مسافة طويلة في البحر فتصل اليه الانداء البحرية فتفسده . وان سلم المسك التبتي من الغش واودع في البراني الزجاج واحكم عفاصها ورد الى بلاد الاسلام من فارس وعمان وهو جيد بالغ . والمسك حال ينقص خاصيته فلذلك يتفاضل بعضه على بعض وذلك انه لا فرق بين غزلاننا وبين غزلان المسك في الصورة ولا الشكل ولا اللون ولا القرون وانما الفارق بينهما بأنياب لها كأنياب الفيلة ولكل

ظبي نابان خارجان من الفكين منتصبان نحو الشبر او أقل او اكثر فينصب لها في بلاد الصين وتبت الحبائل والشرك والشباك فيصطادونها وربما رموها بالسهام فيصرعونها ثم يقطعون عنها نوافجها والدم في سررها خام لم يبلغ الانضاج فيكون لرائحته زهوكة تبقى زماناً حتى تزول . وسبيل ذلك سبيل الثمار اذا قطعت قبل النضج فانها تكون ناقصة الطعم والرائحة . واجود المسك واخلصه ما ألقاه الغزال من تلقاء نفسه وذلك ان الطبيعة تدفع سواد الدم الى سرته فاذا استحكم لون الدم فيها ونضج أذاه ذلك وحدث له في سرته حكة فيندفع الى أحد الصخور الحادة فيحتك بها فيلتذ بذلك فينفجر ويسيل على تلك الاحجار كانفجار الجراح والدماميل اذا نضجت فيجد الغزال بخروج ذلك لذة اذا فرغ ما في نافجته اي سرته (وهي لفظة فارسية) اندمل وعادت فدفعت اليه مواد من الدم فتجتمع ثانية كما كانت أولاً فيخرج رجال التبت فيتبعون مراعيها بين تلك الاحجار والجبال فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور وقد أمكن الانضاج فيأخذونه ويودعونه نوافج معهم فذلك افضل المسك والفخرة وهو الذي تستعمله ملوكهم ويتهادونه بينهم وتحمله التجار في النادر في بلادهم » اه

(لاصا — عاصمة تيبت) ومعنى « لاصا » في لغة تيبت « أرض الاله » وهي مدينة عامرة واقعة في سهل ارتفاعه عن سطح البحر نحو ١٢٠٠٠ قدم تحيط به الجبال من كل ناحية وهي مستديرة الشكل قطرها نحو ميل كان حولها سور بنوه في القرن السابع عشر ثم تهدم لما احتلها الصينيون سنة ١٧٢٢ شوارعها الكبرى واسعة وأما الصغرى فانها في غاية القذارة . ابنيتها في الغالب من الطوب المجفف بالشمس الا منازل الامراء فيدخلها شيء من الحجر . واللاصا مركز ديانة أهل تيبت واليها يحجون لكثرة ما فيها من الاديار وبيوت العبادة البوذية فيؤمها الحجاج من أقصى البلاد حتى حالايا ومنشوريا . واكثرهم يجيئون يلتمسون غفران خطاياهم « من بوذا الحي » ويتوسلون اليه ان يمدّ لهم عمراً سعيداً . ثم يعودون الى بلادهم بالآثار المقدسة والذخائر المباركة كالسبحات والاصنام الصغيرة ونحوها . ولذلك كثر باعة هذه الاحجار هناك يخدعون البسطاء بانها من بقايا بوذا أو من اظافره أو عظامه او من عصاه او

بيته . ويكثر الاختلاط في ابان الحج وتتعدد أشكال الوجوه وضروب اللغات ولكن الغالب عليها كلها المغول بوجوهم العريضة وعيونهم الضيقة

ويصل التجار الى اللاصا في اثناء شهر دسمبر واكثرهم يجيئون من غربي الصين ومعهم الانسجة الحريرية والطنافس والادوات الصينية ويأتي غيرهم وتجارتهم انواع الحلى الذهبية والسلع الروسية والسجاد الثمين والحجارة الكريمة وأصناف الفرش والخيول والماشية والتبغ . ويأتي آخرون من شرقي تيبت يحملون المسك التيبتي الشهير بكيات كبيرة وغير ذلك — وتجارة الشاي الصيني رائجة هناك واكثر اشتغال أهل اللاصا بنسج الاقمشة المعروفة بالنسيج التيبتي واصطناع بعض أصناف الخزف

سكان اللاصا يقدرون بنحو ٦٠,٠٠٠ نفس اكثرهم من أهل تيبت وفيهم بعض الصينيين والقشامرة وبعض اهل بوتان ونيبال في أعالي الهند . والقشامرة اكثرهم مسلمون واكثر أصناف التجارة في أيديهم ولهم المساجد الاسلامية وهم يمتازون عن سائر أهل اللاصا بهندامهم وبشكل جماجمهم لانهم من الجنس القوقاسي . وفي اللاصا يقيم أمير البلاد ويسمونه في اصطلاحهم « دالاي لاما » ويقيم في قصر خاص به يسمى « بوتالا »

﴿ تاريخهم ﴾ أن تاريخ هذه البلاد مظلم لا فائدة من تعداد الآراء في شأنه وانما يقال بالاختصار أنها دخلت في حوزة الصين سنة ١٧٢٣ وهي تحت ايالة أمير ولاية تسي شوين من ولايات الصين . ولامبراطور الصين معتمد عال معه مساعد وهما يتوليان ادارة الجند والخارجية . وأما ادارة الداخلية والمعاملات الدينية ففي أيدي الوطنيين . ويتعين المعتمدان المشار اليهما لمدة ثلاث سنين وتحتهما قائدان كبيران يسميان بلغة البلاد « دولاهي » وخازنان يقيم أحدهما في اللاصا والآخر في ديكارشي . ثم ثلاثة قومندانية يقيمون في اللاصا وديكارشي ودنكري على حدود نيبال . ويليهم ثلاثة صف ضباط وتحتهم الجند درجات . وعدد الجند الصيني هناك لا يزيد عادة على ٤,٥٠٠ رجل منهم ١,٠٠٠ في اللاصا و ١,٠٠٠ في ديكارشي و ١,٠٠٠ في جبانكشي و ٥٠٠ في دنكري

اما ادارة الحكومة الملكية فمفوض أمرها الى الدالي لاما يساعده عليها موظف يشبه رئيس الوزراء عندنا يسمونه « نوموخان » بلسان المغول أي ملك الشريعة . وهو يتولى ذاك المنصب طول الحياة وتنتخبه حكومة الصين من بين رؤس الكهنة العظام عندهم وكلٌ من هؤلاء والدالي لاما في جملتهم اذا ماتوا حلت أرواحهم في أطفال يقومون مقامهم متى بلغوا رشدهم ويساعد النوماخان على ادارة شؤن الحكومة خمسة وزراء أربعة منهم للمالية والقضاء والخراج والداخلية والخامس للامور الدينية . ويتولى كل ولاية من الولايات الاربع التي ذكرناها حاكم يسمونه بلسانهم « بكابلون » ومعه أركان حرب وكلهم تحت ادارة النوموخان ويلي هؤلاء الامراء ولاة صغار

﴿ كهنتهم ﴾ وهم الذين يسمونهم « لاما » وكانوا يتزوجون ثم اقلعوا عن هذه العادة فهم اليوم ينذرون البتولة ولباسهم البرود الصفراء وهي ثياب الحكام في تيبت . واللاما العظيم المقيم في « لاصا » هو سر بوذا ومقرّ نفسه وهو رئيس الكهنة فاذا مات ينظرون في من يخلفه فيختارون ولداً فيه علامات خاصة ويرفعونه الى مقام الرئاسه وجماعة اللاما أشبه شيء بالرهبان يسكنون أديرة خاصة بهم ويحلقون رؤوسهم ولباسهم نسيج أحمر صفيق خشن يرفعون طرفه الواحد فوق الكتف ويلفون الآخر حول الوسط وهم قذرون وبعضهم حفاة لكن الآخرين يلبسون أحذية ذات كعوب عالية ويعلقون في ثيابهم سبحة واسطوانة للصلاة طولها نحو أربعة قراريط وقطرها كذلك وعلى ظاهرها منقوش هذه العبارة « أيها الحجر الكريم في النيلوفر . آمين » ويشدون الى أسفل الاسطوانة خيط ينتهي بثقل من الرصاص أو نحوه فلا تبرح الاسطوانة تدور وعندهم ان كل دورة هي بمثابة صلاة يقدمها الحامل ويرددها الى السماء ولا ينفرد الكهنة بحملها بل ذلك شائع في العامة أيضاً وعلى باب كل بيت واحدة أو اثنتان منها يديرها أهل البيت والاضياف عند دخولهم وكذلك في الاهراء والمخازن ويقيمون على الانهار والينابيع بيوتاً يملأونها بهذه الاساطين تدور بقوة الماء

ورهبانهم أغنياء ولاديرتهم نصف البلاد ولا يبرح القوم يقطعونهم الاراضي

ويتركون لهم التركات وهم لا يدفعون ضرائب عن أراضيهم ولا يأتون عملاً ولهم عبيد تقوم بزراعة الارض واستثمارها ومع تذرهم البتولة فهم في الغالب ساقطو الآداب والهمم ولذا باتت أديرتهم مهاوي فساد يهرع اليها كل كسل، فاتر العزم وبدأ الاهلون يظهرون سخطهم وكرههم لهم

تاريخ علم الادب

عند الافرنج والعرب — لكاتب فاضل

٣٢ — ظهور فيكتور هوكو

فجميع من ذكرناهم من الشعراء الفرنساويين وغير الفرنساويين تقدموا على فيكتور هوكو او عاصروه ومهدوا له طريق الادب الجديد . وكانت النفوس في ابتداء القرن التاسع عشر تائقة لرؤية أسلوب مستحدث في النظم والنثر ولحصول انقلاب في الادب كما حصل انقلاب في السياسة . لان الناشئة الجديدة من الخواص كانوا نافرين من قيود الطريقة المدرسية . وجمهور العوام كانوا متألمين من استبداد أصحاب الانقلاب الكبير باسم الحرية . فان رؤساء هذا الانقلاب لم يكتفوا بتغيير شكل الحكومة بل هدموا أساس الدين وسببوا حدوث الفوضوية في الامة . أي انهم فرطوا في جانب الدين والسياسة كما فرط قبلهم ذوو التيجان من الملوك المستبدين فكان الجمهور يترقب ظهور امام في الادب يعيد لهم الرجاء والامل بالله . والشعراء يترقبون ظهور هذا الامام ليخلص فن الادب من القيود الذي قيده بها بولو في كتابه المسمى (آر بوئتيك) أي صناعة الشعر . فكانوا يتمنون كسر هذه القيود واعطاء الحرية التامة للفكر كما كسرت سلاسل الاستبداد وهدم بيت المظالم الاوهو حبس الباستيلية الشهير واطلق سراح المحبوسين فيه ظلماً وعدواناً

فظهر فيكتور هوكو وبرع في اللغة الفرنساوية وفي طرق الافادة بها . وفضلاً

عن معرفته بالمفردات والتراكيب اللغوية صار له خبرة بما للكلمات من القيمة الموسيقية اي بالنغمة التي تحدثها كل كلمة والتأثير الذي يحصل من جميع نغمات الكلمات وألحانها . لان الكلمة عند خروجها من الفم لها نغمة مخصوصة ولحن بحسب مخارج الحروف . وتختلف المخارج باختلاف الالسنة ولذا ورد في الحديث الشريف (اقرؤا القرآن بلحون العرب)

وقد عبر أئمة البلاغة من العرب عن هذه القيمة الموسيقية (باجراس الكلم) ولا يخفى ما في هذا التعبير من الحلاوة لان الصوت يرن بالالفاظ رنة الجرس . وصار لفيكتور هوكو أيضاً مهارة بعلم القوافي . فقوافيه عامرة مختلفة ليس فيها ما هو مكرر او مبتذل بل جميعها ترد على غير ما ينتظره السامع . والخلاصة كان يعرف أي كلمة يلزم وضعها في أي بيت وأي بيت يقتضي انتقاؤه لاي موضوع . وساعده الحظ في السفر الى رياض الاندلس التي تتغذى القرائح بنفحات ازهارها وتقر العيون بحسن مناظرها . فصار ذهنه كأنه آلة بديعة تفي بوظيفة السيناتوغراف والفوتوغراف معاً . فيصور ما يمر به من مشاهد الكون ويطبع ما يسمعه من حوادث الدهر ويعرضه على القراء والمستمعين بدون ان يضيع منه خبراً او يغفل منظراً . فصور في أشعاره الخمائل وهي الشجر المجتمع الكثيف وكيفية تلاعب النسيم باوراقها والاغصان الملتفة وما ترسمه على بساط المرج الاخضر من الظل الظليل والجبال الراسية وما ينحدر عنها من الماء السلسبيل والانهار الجارية وما ينعكس على مرآة سطحها من ضياء القمر وشعاع الشمس . ووصف صفير البلابل وهديل الحمام وبغام الظباء وسجع اليمام وذكر غدوها ورواحها ما بين الرياض المزهرة والاشجار المثمرة والجداول المنحدرة وصور غير ذلك أيضاً تصويراً حقيقياً باوضح بيان وافصح تعبير حتى يخال من يقرأ أشعاره انه ينظر الى لوح من الالواح المصورة بقلم الرسام وفرشاته . ويسمع خرير الماء وصوت مزمار الراعي وهو يتناقص كلما ابتعد مع محبوبته في جوف الغابة . وجعل الالفاظ تلبس المعاني كما يلبس الثوب على الجسم فجاءت الفاظه طبقاً على معانيه . وكان بمجرد نظره في المواد تتفجر المعاني من قريحته فيزنها بميزان الحس ويصوغ لها على

قدرها قوالب من الالفاظ والتراكيب كاحسن صائغ للحلى وامهر سباك للمعادن .
فكانت طريقته بادىء الامر عبارة عن وصف الطبيعة ومناظرها البديعة ثم هجم على
قواعد المتقدمين وأساليبهم هجمة الامة المستيقظة من غفلتها وكسر القيود التي قيديها
بوالو عقول الشعراء ونبذ قواعد الطريقة المدرسية وراء ظهره وأصلح عروض الشعر
الفرنساوي وغير تركيبه بمقاطيع مختلفة وجوز تكميل معنى البيت بالبيت الذي بعده
فوضع الجملة الواحدة في بيتين مما لم يجوزه المتقدمون وجعل نظم الشعر موافقاً لاحتياجات
الفكر . وفتح لاخوانه من ذوي النشأة الجديدة طريقة مستحدثة في الادب كانوا
هائبين اقتحامها والولوج فيها

فأوجد فيكتور هوكو بذلك الطريقة الرومانية وحاد فيها عن استعارات
الطريقة المدرسية وتشبيهاتها القديمة . ولم يتخذ كلام المتقدمين منوالاً لينسج عليه
كما فعل اندره شينيه خاتمة أهل الطريقة المدرسية . بل اتخذ الذوق الطبيعي
والاحساس الباطني دليلاً له في النظم والنثر كما فعل المتنبي والمعري وأهل طريقتهما
الخارجين عن أساليب العرب المتقدمين . فكما شعر فيكتور هوكو بشيء صوره
بقلمه كما يحس به في قلبه بدون تهافت منه على ترصيع الكلام بجواهر البديع وتدبيجه
بحلل المجاز والتشابيه . فان أتى بشيء منها في كلامه عفواً بلا تصنع ولا تكلف
فنعم . والا فهو لا يهتم الا بالمعاني وبما يتخيله فيها من حقائق الشعر واذا أراد
تعيين الزمان مثلاً لم يتكلف ترتيب تلك الجمل المصنعة ولم يذكر حركات العقرب
على مينا الساعة ولا شبه ذلك بدوران الفلك ولا بمنازل الشمس بل قال بسوقه الطبيعي:

« غداً اليوم الخامس والعشرون من حزيران سنة الف وستمائة وسبع
وخمسين ... » كما ورد في مطلع رواية قروموبل وهي من الروايات التشخيصية
المنظومة شعراً . فهذا مقتضى البلاغة في تعيين الزمان . وهذه الشطرة المطابقة
الحال أبلغ من سواها . ومن المثال السابق الذي مثلنا به من كلام اندره شينيه .
فكان السالك نهج هذه الطريقة اذا عطش قال هات اسقني كما قال أبو نواس

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهرُ

وأما السالك نهج الطريقة المدرسية فكان يحيد عن السوق الطبيعي ويصنع كلامه ويقول « ألا ماء بارد نطفي به حرارة جوفنا » كما قال ذاك البارد المتفي

فايضاحاً لحقيقة الطريقة الرومانية لا نرى بدًّا من تلخيص القواعد التي أوردها بوالو في صناعة الشعر ثم تلخيص القواعد التي ذكرها فيكتور هوكو في مقدمة رواية كروموبل وعارض فيها بوالو وجميع المنتسبين للطريقة المدرسية

٢٣ — طريقة بوالو

نظم الشاعر الفرنساوي بوالو كتابه الموسوم بصناعة الشعر سنة ١٦٧٤ م وهي أرجوزة طويلة محكمة البناء عالية النفس جامعة لقواعد الشعر وانواعه · اعتنى الشاعر في انشائها كثيرًا وفكر فيها طويلاً لتكون قاعدة ونموذجاً في الشعر واقتفى في نظمها وتأليفها اثر الشاعر اللاتيني هوراس وهو نقل عن أرسطوطاليس في كتابه الموسوم بصناعة الشعر ولارسطوطاليس في الشعر كتاب آخر لخصه القاضي أبو الوليد ابن رشد وطبع هذا التلخيص المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانسه من ايطاليا سنة ١٨٧٣ ولا نظن بوالو اطلع على قصيدة ابن رشيق ولا على مؤلفاته في هذا المبحث لأن الافرنج لم يكن لهم المام بأدب العرب في القرن السابع عشر وانما كانت عنايتهم باللغة العربية قبل ذلك حينما ترجموا كتب علمها الى اللاتينية ولم يعودوا لدرسها الا في اواخر القرن الثامن عشر حينما نبغ شيخ المستشرقين سيلفستر دوساسي في باريس وشرح مقامات الحريري وألف الكتب المعتبرة · ولما ظهر ضيا باشا من متأخري الادباء العثمانيين وقرأ العربية ثم الفرنساوية اقتفى اثر بوالو ونظم بالتركية كتابه المعروف بالخرابات وانتقد فيه على كثير من شعراء الترك والفرس والعرب · فجاء كمال بك وانتقد عليه في رسالة سماها تخريب الخرابات وخطأه في كثير من مباحثه

فالفصل الاول من كتاب بوالو في صناعة الشعر يشتمل على تفصيل القواعد التي اجملناها في الكلام على الطريقة المدرسية · واكثر المؤلف في هذا الفصل من الحض على مراعاة قواعد النحو والصرف والمعاني وغير ذلك من علوم الآلات ·

وحذَّر كثيرًا من الابتعاد عن سلامة الذوق ولو قدر شبر . وشرع في الفصل الثاني والثالث في تطبيق هذه القواعد العمومية على أفانين الشعر المختلفة وعرف كل فن منها على حدته و بلغت فنون الشعر عنده الى نحو أربعة عشر فناً . منها أنواع الغزل والتشبيب والمرقصات والمطربات وما احتوى على ذل العشق ورقة الكلام والادوار المنسوجة على منوال شعراء التروبادور المعاصرين للاندلسيين . ومنها أنواع المدح وأنواع الهجاء والهزل والسخرية والذم المشابه للمدح ومنها أنواع الرثاء ونحو ذلك . وتكلم أيضاً عن الروايات التمثيلية وهي (التراجيديا) أي الفاجعات و(الكوميديا) اي المضحكات وعرف كلاً منها و بين الشروط المقتضى مراعاتها في تأليف الرواية التمثيلية ولزوم وحدة الزمان والمكان والعمل . وعرف الشعر الموسيقي وهو النشيد والتلحين المسمى عندهم (ليريك) من كلمة لير وهي العود الذي يغنى عليه . وعرف أيضاً الشعر الحماسي المسمى عندهم (إيبوبه) ومعناها في الاصل الخطبة التي يقولها الخطيب

فالشعر الموسيقي يمتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية أو الفردية أي المتفردة في ذات صاحبها . وذلك أن الشاعر يرى الحسناء فيشعر بالحب و بأمل الوصال . ويظهر له رقيب فيشعر ببغضه و بانقطاع رجائه من الوصال . و ينال معروف الكريم فيشعر بالشكر له . ويموت صديق له فيشعر بالتفجع عليه . فبسبب هذه المشاعر تفيض نفس الشاعر بالغزل والنسيب والمدح والهجاء والرثاء . ويشاهد أيضاً بدائع المخلوقات و ينظر في خلق الارض والسموات فتفيض نفسه بالتسبيح والتهليل والتقديس والترتيل . فكل واحد مما ذكر فن من أفانين الشعر الموسيقي . ويختلف عروض كل منها وقوافيه باختلاف المشاعر التي يشعر بها واختلاف الالهام الذي يهبط عليه . ويعتريه من ذلك دهشة أو انذهال وحيرة وسرور وانشراح أو انقباض وحزن فيظهر اثر ماذكر في نظمه وشعره

وأما الشعر الحماسي فهو رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان . فقولنا رواية أي خبر يفصل هذا النوع من الشعر عن الشعر الموسيقي لانه نشيد وغناء

وعن الشعر الدراماتيقي أي الدرام لان أساسه العمل . ولا يلتبس بالتاريخ الذي هو خبر ورواية أيضاً لان موضوع التاريخ الوقائع الصحيحة بلا اطرآء ولا غلو . واما الشعر الحماسي فموضوعه الوقائع الملفقة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادر الفروسية واشهر كتب الحماسة الالياذة والاوذيسة لهوميروس اليوناني . و (انيد) لفرجيل اللاتيني . والكوميذية الالهية لدانتي الطلياني . والجنة الضائعة لملتون الانكليزي . وتخليص اورشليم لطاسو الطلياني وهانرياد لفولتر الفرنساوي والحماسة النابوليونيه لفيكتور هوكو . وعند أهل الشرق ماهابهاراته وراماياته للهنود والشنهامه للفرس وكتب الحماسة للعرب واشهرها كتاب الحماسة لابي تمام حبيب ابن اوس الطائي وقد طبعه مع شرح أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي عليه المستشرق الالماني فريتغ سنة ١٨٢٨ في مطبعة مدينة بونه . والجزء الاول من عكاظ الادب هو في الحماسة الحميدية فهو (ايبوبة) الحرب اليونانية الاخيرة كما حرر فيكتور هوكو الايبوبة النابوليونية . ومن أمعن النظر في الشعر العربي وجد اكثره من قبيل الشعر الموسيقي أي النشيد والاغاني وهو الممتاز بخاصته الشخصية وباظهار الحواس الباطنة ووجد فيه أيضاً من الشعر الحماسي وهو الذي روى فيه أخبار الحروب وأطنب بشجاعة الشجعان . ووجد المقامات تشابه ما عند الافرنج من فن الكوميديا . غير ان صاحب المقامات جعل اهتمامه في انتقاء الالفاظ وبلاغة التعبير ولم يلتفت كصاحب الكوميديا لدرس اخلاق الرجال وبيان المزايا الخاصة بافراد القوم او الهيئة الاجتماعية . وكان الباحثون في ادب العرب لا يجدون فيه مثالاً « للدرام » الآتي تعريفه فجاء عبد الرحيم افندي احمد وعرض على المستشرقين في المؤتمر الحادي عشر المنعقد سنة ١٨٩٧ م في باريس رسالة الغفران للمعري وبين مشابهتها بالكوميديا الالهية ووعد بنشرها . وكان يوسف ضيا باشا الخالدي استنسخ رسالة الغفران المذكورة سنة ١٣٠٧ هـ من النسخة القديمة المحفوظة الآن بمكتبة الكوبريلي وهي تجاه نظارة المعارف وتربة السلطان محمود في الاستانة . وهم اذ ذاك بطبعها فحال دونه سفره لبلاد الاكراد واشتغاله السنين الطوال بترتيب القاموس

الكردي وتدوين قواعد هذا اللسان الذي نبغ من ابنائه امثال صلاح الدين الايوبي صاحب الفتح القدسي . فاذا نشرت رسالة الغفران[1] كما تطبع ترجمة الالياذة الآن في مطبعة الهلال تمكن قراء العربية من الاطلاع على فن جديد في ادب العرب غير الشعر الموسيقي والشعر الحماسي . والمأمول ممن ينشر رسالة الغفران ان يقابل بين النسخة المصرية والنسخة الاستانبولية لكيلا يقف ذهن المطالع كما حصل في المثال المنقول سابقاً من كتاب اعجاز القرآن للباقلاني بسبب وجود بياض في الاصل . ومن دقق النظر في لزوميات المعري عرف ما هو عليه هذا الشاعر الحكيم من علو الفكر واتساع القريحة ولم يشتبه في ان كتابه الموسوم بالايك والغصون لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من فنون الشعر والادب الا أحصاها . وقد أطنب المؤرخون في كلامهم على كتاب الايك والغصون وزعموا انه في ماية مجلد . ولكن اذا نظرنا في قولهم ان اللزوميات في خمسة مجلدات ثم رأيناها مطبوعة في الهند في مجلد واحد وفي مصر في مجلدين حملنا ذلك على الظن بأن المائة مجلد من كتاب الايك والغصون هي بمثابة عشرين مجلداً من اللزوميات طبعة الهند او أربعين مجلداً طبعة مصر . وعلى كل فهو من أعظم دوائر المعارف الادبية في لسان العرب . ولا يعجز عن الاتيان بمثلها رهين المحبسين . والايك هو الشجر الكثير الملتف فكأنه أشار بهذا الاسم الى ان الكتاب شامل لاصول الادب وفروعه

ثم ان بوالو بعد ما فرغ من بيان القواعد العمومية للشعر وبيان فنونه ولزوم اتباع الصدق والحقيقة فيه ذكر في الفصل الرابع من كتابه في صناعة الشعر ما ينبغي ان يتخلق به الشاعر من الاخلاق الحميدة وما يجب ان يحض عليه من الخير والمعروف . فاعترضوا عليه بذلك وقالوا بأن هذا الفصل من مباحث علم الاخلاق لا من مباحث الشعر والادب . ولاموه أيضاً على اعتباره الشعر في مجرد قوالب الالفاظ وعلى تحديده بالحدود والتعاريف والزام الشاعر بمراعاة هذه الحدود في كل فن من فنونه

---

(١) (الهلال) رسالة الغفران تحت الطبع الآن في مطبعة هندية

وعدم الخروج عنها . وقالوا بأن الشعر هو الهام من الله والطبيعة ونور يفيض على القريحة التي فيها استعداد طبيعي لقبوله ولا يمكن تعليم ذلك ولا تحديده بالحدود والتعاريف والصحيح ان بوالو يعترف بأن أساس الفكر اي المعاني الشعرية لايمكن تعليمها بالقواعد ويقول بأنها هبة من الله واستعداد فطري وغريزي في قريحة الشاعر. وانما الذي يدخل عنده تحت القواعد المذكورة هو شكل التعبير اي قوالب الالفاظ التي تقاد بها تلك المعاني الشعرية

الاساطيل

تاريخها وانواع سفنها وملحقاتها المهلكة

ركوب البحار قديم وأقدم الامم عناية في الاسفار البحرية الفينيقيون ولكنهم كانوا يسافرون في طلب الرزق بالتجارة او الاستعمار الى شواطىء البحر المتوسط . وعنهم أخذ اليونان والمصريون وغيرها من دول تلك الشواطىء . فلما كثر السالكون في هذا البحر قام التنازع بينهم كما قام من قبل على اليبس . والانسان يدفعه الجشع الى الاستئثار بالمنفعة ومحاربة اخاه على بلغة حتى تضيق القارة على اثنين ويتنازع الاخوة على درهمين فنشأ من جراء ذلك ماعبر عنه بالقرصانية اي السطو على السفن وانتزاع ما تحمله من الارزاق ونحوها وهي أقدم حروب البحر . وأقدمها ما انتشب بين الفينيقيين واليونانيين اوالمصريين او بين اليونانيين أنفسهم . ومما دعاهم الى ذلك ضيق اليبس عن أن يسع مطامعهم فعمدوا الى السفن يسطون عليها وينهبونها وما زالت القرصانية شائعة الى عهد غير بعيد

على ان القتال على سبيل القرصانية جرّ اليونانيين الى اتقان سفنهم وتقويتها فاصبحت الاساطيل من جملة عدد الحرب وحصون الدفاع عندهم . واليونانيون أسبق الامم الى انشاء الاساطيل والقتال في البحار اما فيما بينهم او بينهم وبين الفرس أو غيرهم . ثم نشأت الاساطيل الرومانية فالقرطاجية فالعربية فالتركية فالافرنجية وغيرها حتى بلغت ما هي عليه الآن

وأشهر الوقائع الحربية في الزمن القديم حرب أهل كورنتية واهل كورسيريا سنة

٩٦٥ قبل الميلاد — واليك اشهر الوقائع البحرية بعدها في التاريخ القديم

(١) واقعة سلاميس في مياه قبرص بين اليونان والفرس سنة ٤٨٠ ق م وكانت سفن اليونان ٣١٠ بقيادة تمستوكاس فغلبت سفن الفرس وكان عددها ٢٠٠٠ سفينة وقائدها احشويرش ملك الفرس

(٢) واقعة يوريميدون في مياه قبرس أيضاً سنة ٤٦٩ ق م بين اليونان والفرس واليونان الغالبون

(٣) واقعة سيز يكون باسيا الصغرى سنة ٤١٠ ق م وفيها استولى الاثينيون بقيادة السيبيادس على أسطول المقدوميين

(٤) واقعة ارجينوزة في الارخبيل اليوناني سنة ٤٠٦ ق م بين أهالي أثينا وأهل سبارطة والاثنيون الغالبون

(٥) واقعة كنيدوس في اسيا الصغرى سنة ٣٩٤ ق م بين الاثينيين والمقدوميين وقد غلب الاثينيون

(٦) واقعة بوغاز ميلة في صقلية سنة ٢٦٠ ق م بين الرومانيين والقرطاجنيين وفيها نال الرومان اول فوز على القرطاجنيين وأسروا خمسين سفينة من سفنهم

(٧) واقعة تريبانوم سنة ٢٤٩ ق م تغلب فيه القرطاجنيون على الرومانيين

(٨) واقعة اكتيوم سنة ٣١ ق م في جزائر اليونان بين اوكتافيوس قيصر ومارك انطونيوس ومعه كليو بطرا ، وفيها غلب اوكتافيوس واستولى على ٣٠٠ سفينة

ولو أردنا تعداد كل الوقائع البحرية لضاق بنا المقام وخصوصاً بين الروم والقوط او بينهم وبين العرب او الاتراك او بين دول الافرنج كالواقعة الشهيرة بين الروم والقوط سنة ٢٩٦ م وفيها انتصر كلوديوس امبراطور الرومان واستولى على ٢٠٠٠ سفينة من سفن القوط ، وواقعة ليبانتو قرب كروتية سنة ١٥٧١ م وفيها اتحدت أساطيل اسبانيا والبندقية وجنوا ومالطة والبابابوس الخامس بقيادة دون جون اوستريا على أسطول العثمانيين فغلبوه وأوقفوا المسلمين عن فتح اوربا كما اوقفهم عنه شارل مرتل من قبل . ناهيك بوقائع الاجيال الاخيرة بين دول أوربا وهي تعد بالمئات

(مسير السفن وأسلحتها) كانت سفن الحرب في عهد الدول القديمة تسير بالشراع وأسلحتها النبال والحجارة ترمى بالاوتار أو المقاليع او المجانيق ثم اخترعوا النار اليونانية

فصاروا يرمون بها عن ظهور السفن كما ترى في الشكل الاول . ثم اخترعوا البارود وكلاهما من ثمار قرائح المشارقة . فالنار اليونانية اخترعها رجل من أهل الشام اسمه كالنكوس وأما البارود فالافرنج يعدونه من مخترعاتهم ومخترعه عندهم اسمه شوارتز وقد بينا في تاريخ التمدن الاسلامي صفحة ١٤٥ من الجزء الاول انه من اختراعات العرب



(ش ١) اسطول عربي يحارب الروم وهم يرمونه بالنار اليونانية

فليراجع هناك . فلما شاع استخدام البارود واصطنعوا المدافع والبنادق جعلوه من جملة معدات الدفاع في السفن الحربية ثم استنبطوا التوربيد والالغوم لحماية المرافيء . واول من استخدمها من الدول العظمى روسيا — استخدمتها في حرب القرم سنة ١٨٥٤ لكنها لم تأت بالفائدة المطلوبة . ثم عمل على اتقانها الاميركان في أثناء حربهم الاهلية سنة ١٨٦١ ثم الانكليز وغيرهم . ثم اخترعوا القنابل المفرقعة التي اذا سقطت في مكان انفجرت وعطلت ما حولها

وما زالت السفن تجري بالريح الى أوائل القرن الماضي • فالسفن التي جاء بها بونابرت الى مياه الاسكندرية ثم حطمها نلسن في جون ابي قير كانت مسلحة بالمدافع ولكنها كانت شراعية • فلما اكتشفوا مرونة البخار واصطنعوا الآلات البخارية استخدموها للسفن فسارت بها وهو تحسين ذو بال انبهر له العالم في ذلك الحين • والاميركان أسبق الامم الى انشاء السفن البخارية فان أول سفينة سارت بالبخار انشأوها هناك سنة ١٨٠٧ وسموها « كليرمون » • واما أوربا فالانكليز اسبق دولها الى استخدام البخار في السفن • وأول سفينة مخرت في مياه أوربا بناها الانكليز في سكوتلاندا سنة ١٨١٢ وسموها كومت Comet طولها ٤٢ قدماً وعرضها ١١ قدماً وقوتها أربعة أحصنة وكانت السفن يومئذ تتحرك بدواليب جانبية تظهر فوق الماء على نحو الرفاصات التي تمخر في الماء الرقراق اليوم ثم جعلوها مستترة تحت الماء واخترعوا لولباً يجعلونه في مؤخر السفينة تحركه الآلة البخارية فيدفع السفينة الى الامام • وزادت العناية في انشاء السفن الكبرى وأهملت الاشرعة بالتدريج فانشئت الاساطيل تسير بالبخار ومن جملتها الاساطيل الدولية التي اشتركت في حصار سباستبول في حرب الروسية سنة ١٨٥٤ ثم تفننوا في أشكال البواخر وتسييرها وضبط حركاتها حتى بلغت ما هي عليه الآن

(تدريع السفن) فلما اخترعوا المدافع والقنابل المفرقعة والقنابل المفرقعة أصبحت السفن الحربية قريبة العطب فاذا أصابتها قنبلة في بعض جوانبها خرقتها فتتعطل آلاتها وتتوقف عن الحركة أو تدخل اليها المياه فتغرقها • فاعملوا الفكرة في ما يقيها من ذلك فلم يجدوا خيراً من تصفيحها بالحديد وهو ما عبروا عنه بالتدريع ويقال ان أول من قال بالتصفيح الاميركان في الولايات المتحدة • ولكن المشهور ان أول من صفح السفن الفرنساويون اكتفوا أولاً بتصفيح الجانبين فابتنوا خمس سفن بطنوا جوانبها بصفائح من الحديد ثخانتها اربعة قراريط ونصف • الاولى اسمها « تونانت » Tonante عليها ١٦ مدفعاً ثم بناؤها في بريست سنة ١٨٥٥ ثم اصطنعوا اخواتها • وكان لهذه المدرعات حظ من العمل في الحرب الروسية • فان ثلاثاً منها ضربت كنبورن في البحر الاسود في ١٧ اكتوبر من ذلك العام فاسرع الانكليز الى الاقتداء بالفرنساويين فاصطنعوا في ذلك العام دارعتين هما اربوس وتروز رستا في كنبورن ايضاً في ٢٤ اكتوبر المذكور فبادر الفرنساويون اذ ذاك الى تحسين اختراعهم فاستنبطوا التصفيح الكامل فانشأوا سنة ١٨٥٩ سفينة كبيرة سموها « لا كلوار » La Gloire (المجد) محمولها ٥,٦٠٠ طن وقوتها ٨٠٠

حصاناً فهبت عوامل الغيرة في قلوب الانكليز لانهم رأوا الدول الاخرى قد سبقتهم في البحرية وخصوصاً الفرنساويين فاهتمت حكومة انكلترا في تحسين بحريتها فألفت لجنة لدرس الموضوع فاقروا على انشاء السفن البخارية وتحويل بعض ما عندهم من السفن الشراعية الى بخارية فلم ينفعهم غير تقليد الفرنساويين بالتصفيح الكامل فانشأوا دارعة سموها « ورير » (Warrior) محمولها ٩,٢٠٠ طن وقوتها ٥,٤٧٥ حصاناً واشتهرت هاتان السفينتان في ذلك العهد وتجادل الناس في أفضلهما ثم عمدت سائر الدول الى انشاء المدرعات وتفننوا في أشكالها واقدارها واوضاع الاسلحة فيها



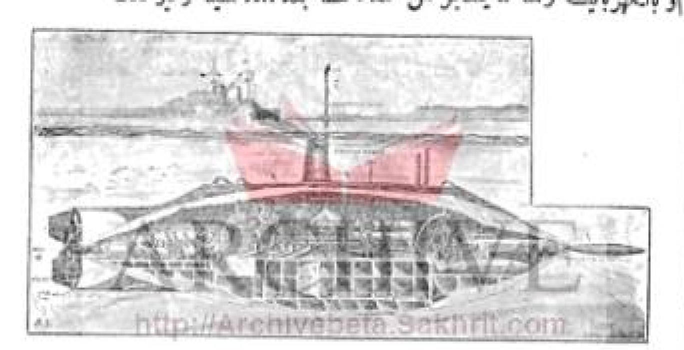
(ش ٢) دارعة كروية

واختلف شكل الدارعة وحجمها باختلاف المراد منها فجعلوا بعضها بساريتين والبعض الآخر بلاسارية وغيرها قصيرة الجدار فوق سطح الماء أو مستطيلة دقيقة اوعريضة قصيرة واحدث تلك الاشكال الدارعة الكروية التي اخترعها استوكس الاميركاني بالامس وهي عبارة عن سفينة كروية الشكل ثلثاها تحت الماء وحول الثلث الظاهر شرفة يسير عليها الناس وفوقها الآلات الحربية كالمدافع ونحوها ٠ وفي الوسط مرقب كالمنارة ٠ وترى في

الشكل الثاني صورة هذه الدارعة وقد فتح جانبها في الرسم ليظهر تركيب آلاتها

وتفننوا في استخدام السفن الحربية فخصصوا بعضها للهجوم وبعضها للدفاع والبعض الآخر للمطاردة او المدافعة او لارسال الطوربيد او للغوص في الماء او الطواف في البحار أوخرق السفن أو ارسال المخابرات او لغير ذلك وسموها باسماء تناسب الغرض منها كالسابقات والطرادات والغواصات والحراقات مما يضيق المقام عن تفصيله

(الطوربيد) ومن أهم المخترعات الحربية البحرية الطوربيد وقد تقدم ان الروسيين استخدموهُ في حرب القرم ثم الاميركان . وهو عبارة عن مقذوفات كالقنابل المستطيلة ترسل في الماء تحت السفن او فيما بينها ثم تنفجر فتفتح في البحر هوَّة تبتلع السفينة أو السفن الى قاعها . ثم تفننوا في اصطناع الطوربيد وفيه ما ينفجر بالمصادمة او بالكهربائية ومنه ما ينفجر من تلقاء نفسه بعد مدة معينة وغير ذلك



(ش ٣) غواصة لاطلاق الطوربيد تحت الماء

قد رسمت هذه الغواصة مقطوعة قطعاً عمودياً لتظهر آلاتها وكيفية العمل بها : (١) الطوربيد منطلقاً من مقدم السفينة (٢) طوربيد محفوظ للاطلاق عند الحاجة (٣) المدخنة وفيها المرقب فوق الماء (٤) سطح السفينة (٥) اللولب الرقاص (٦) مخازن المعات (٧) مخازن الهواء المضغوط (٨) مائدة عليها النظارة لمخابرة المراقبين خارجاً (٩) الآلات المحركة للسفينة (١٠) مخازن الماء

وفي سنة ١٨٧١ اخترع بعضهم طوربيداً يعرف بالسمكة البيضاء الرأس وابتاعت انكلترا سرّ ذلك الاختراع واصطنعت لهُ سفناً خاصة ثم اقتدت بها الدول

الاخرى وأصبح الطوربيد المذكور شائعاً . وكانوا يطلقون الطوربيد أولاً تحت الماء من فوهة في أسفل مقدم الدارعة ثم وجدوا في هذه الطريقة خطراً فاصطنعوا سفناً صغيرة تغوص في الماء لا يبدو منها الا رأس المدخنة وحول المدخنة مرقب يشاهدون منه حركات سفن الاعداء فوق الماء ويرسلون الاوامر الى المقيمين في داخل الغواصة لاطلاق الطوربيد يميناً أو شمالاً أو غير ذلك كما ترى في الشكل الثالث

فالغواصة المذكورة كثيرة الشبه بالسمكة في أحد طرفيها اللولب المحرك لها في مسيرها وهو بمنزلة ذنب السمكة والطرف الآخر عبارة عن رأس السمكة ومنه يطلق الطوربيد من أنبوب بواسطة الهواء المضغوط . وأما قنبلة الطوربيد التي تطلق من ذلك الانبوب فانها تسير الى المكان المطلوب حتى تنفجر حال مصادمتها الدارعة أو لتبقى الى وقت يعين بآلة ملصقة بها . لان القنبلة المذكورة مستطيلة الشكل والمادة المفرقعة مستقرة في رأسها وبجانب الرأس غرفة صغيرة سرية فيها الآلات اللازمة لتعيين العمق الذي يجب أن تسير القنبلة فيه



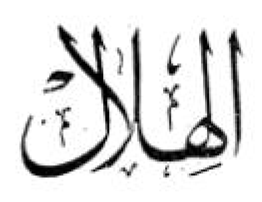
(ش ٤) اللغم في صندوقه والاسلاك ممتدة منه

﴿ اللغوم ﴾ واللغوم من قبيل الطوربيد أيضاً لانها مؤلفة من مواد مفرقعة

لكنها لا تطلق اطلاقاً مثلها وانما هي توضع في صناديق ترسل في الماء حتى تستقر في المكان المراد لغمه . وفي الصندوق آلة منظمة على اسلوب خاص . واللغم من حيث اطلاقه على ثلاثة أنواع : الاول بين صندوقه وبين البر أو السفن الأخرى أسلاك كهربائية تحت الماء فاذا أراد أصحاب اللغم اطلاقه عالجوا الاسلاك فيشتعل اللغم بالكهربائية وينفجر فينفتح في الماء شبه وادٍ يبتلع ماهنالك من السفن . والنوع الثاني يطلق بالكهربائية أيضاً لكن يشترط في اطلاقه ان تصطدم به السفينة فتتم الدائرة الكهربائية المتصلة فيطلق اللغم . واما النوع الثالث فلا علاقة له بالكهربائية وانما هو عبارة عن صناديق قد وضعت فيها المواد المفرقعة على أسلوب ميكانيكي فاذا أصابت الصندوق صدمة اشتعل اللغم وانفجر حالاً . ويستخدم النوع الأول في المرافيء التي يكثر فيها مرور السفن التجارية او دوارع الدول المحايدة فتسير آمنة . والثاني يستخدم في المرافيء او البواغيز التي يقل مرور السفن التجارية او المحايدة فيها . واما الثالث فيوضع حيث يراد قطع الطريق على العدو والصديق . ونظن اللغم الذي انفجر بالامس في مرفا بورارثر واغرق دارعة الاميرال مكاروف قائد الاسطول الروسي من النوع الثاني أو الثالث



الاميرال مكاروف — قتيل اللغم في ١٣ افريل الجاري



الجزء الخامس عشر من السنة الثانية عشرة

١ مايو (ايار) سنة ١٩٠٤ و١٥ صفر سنة ١٣٢٢

بطرس الاكبر

اعظم قياصرة الروس

ولد سنة ١٦٧٢ وتولى سنة ١٦٨٢ وتوفي سنة ١٧٢٥

﴿ نسبه ﴾ يتصل نسب هذا القيصر بمخائيل رومانوف ابن المطران روستو فلاديت وكان لروستو هذا نفوذ وسطوة في روسيا وكان بوريس احد مغتصبي كرسي المملكة قد حمله على الترهب هو وزوجته كرهاً ثم تولى الملك ديمتريوس فأخرج روستو من السجن واتقدم سفيراً الى بولونيا فسجنوه هناك . وفي اثناء سجنه كانت روسيا في اضطراب والشعب ناقم على الحكومة واهل المطامع والظلم يتنازعون السلطة حتى انف اشراف المملكة من ذلك فعقدوا جمعية سنة ١٦١٣ وانتخبوا ميخائيل رومانوف المذكور ملكاً عليهم وهو لا يزال في الخامسة عشرة من عمره . فسعى اولاً في افتداء والده فافتداه ونصبه بطريركاً على روسيا فكانت الحكومة بالحقيقة لروستو وبالاسم لمخائيل . وتوفي ميخائيل سنة ١٦٤٥ وخلفه ابنه الكسيس ميخائيلوفتش وسنه ١٦ سنة وهو والد بطرس الاكبر . وكان الكسيس تعباً للاصلاح فأدخل صناعة الاقمشة الى بلاده وبذل جهده في الاصلاح ولكن الاضطرابات الداخلية والفتن الاهلية حالت بينه و بين غرضه فتوفي سنة ١٦٧٧ وقد تزوج امرأتين ولد له من الاولى ذكران هما فيدور وايفان وست بنات ومن الثانية بطرس وتاليا وقد اوصى بالملك لفيدور لانه اكبر اولاده

﴿ بطرس ﴾ هو ابن القيصر الكسيس المذكور ولد في مدينة موسكو في ٣٠ مايو سنة ١٦٧٢ . توفي والده وهو في الخامسة من عمره فتولى المملكة اخوه الاكبر فيدور وكان فيدور ضعيف العزم والعزيمة لايليق بالاحكام وكان اخوه ايفان مثله بالضعف فمرض هذا واشتد عليه المرض فأوصى بالمملكة لبطرس وسنه عشر سنوات لعلمه ان ايفان لايقوى على سياسة الملك لضعفه

وكان في جملة اخوات بطرس فتاة اسمها صوفيا وكانت ذات ذكاء ودهاء فلما رأت ايفان ضعيفاً وبطرس صغيراً طمعت بالسلطة فدخلت في الامر كمن يطالب بحقوق ايفان لانه اكبر منه . وكان في جملة الجند الروسي وجاق اشبه شيء بوجاق الانكشارية عند الدولة العلية يقال له وجاق الاسترلتس فاغرتهم صوفيا على التمرد فثاروا بدعوى تأخر مرتباتهم فأعطيت لهم مطاليبهم فادعوا سواها ولم ينفكوا حتى اعملوا اسلحتهم في بلاط الملك فقتلوا بعضاً من اخوة بطرس واقاربه واجروا فظائع كثيرة تقشعر منها الابدان وانتهت تلك الدسائس باشتراك ايفان وبطرس في الاحكام تحت وصاية اختهما صوفيا وهذا ما كانت تسعى فيه هذه الداهية . وكان ذلك سنة ١٦٨٢ فصارت الاحكام اليها والحل والعقد بيدها ولكنها رأت بعد حين ان اخاها ايفان لا يصلح للملك فخلت عنه واستبقت بطرس واستوزرت رجلاً يدعى الامير بازيل غالتزين وكان من اعقل الناس واقربهم الى الحكمة والتبصر وحسن التدبير فأول شيء وجه اليه انتباهه وجاق الاسترلتش لانه رأى من تمردهم واستبدادهم ما يخشى منه على قوام الدولة فاستخدم الحكمة والدراية في تشتيت شملهم وتفريق كلمتهم وتفرقهم في انحاء المملكة وهم لا يشعرون وتخلصت المملكة من شرهم (موقتاً) ولم يضطر في ذلك لسفك الدماء كما حصل في ابادة وجاق الانكشارية في الاستانة وجماعة المماليك في مصر

ثم رأت صوفيا ان اخاها بطرس يزداد نفوذاً في الرعية يوماً فيوماً فخافت ان يتمكن بعد قليل من نزع السلطة من يدها فاتحدت مع وزيرها على قتله فاستدعي هذا من كان لايزال في موسكو من جماعة الاسترلتش واغراهم على قتل بطرس فعلم بطرس بالامر ففرّ الى دير يدعى دير الثالوث الاقدس وهو معدّ لحماية العائلة الملوكية ولما استقر به المقام هناك استدعى احزابه اليه وفيهم النمسويون وغيرهم من الغرباء وخطب فيهم يستحثهم على قتل اخته صوفيا لانها السبب الرئيسي لجميع هذه المتاعب



جرس ايفان فليكي بموسكو

هو اعظم اجراس الدنيا سقط من قبته لعظم ثقله وانكسر ولا يزال ملقى على الارض هناك وعلوه ثمانية امتار ومحيط فوهته ٢٤ مترًا يمكن لعشرين شخصاً ان يجتمعوا تحته وعليه نقوش دينية

ففاز حزب بطرس وجيء بالوزير والملكة صوفيا الى ما بين يديه فعفا عنهما على ان تذهب صوفيا الى الدير كما كانت قبل الملك وان يبعد الوزير الى مدينة كرغا . وقتل جانياً من الاحزاب فخلا له الجو فعاد الى كرسي الملك وليس من يناظره عليه وكان ذلك من حسن حظ العالم الروسي لان بقاء هذا القيصر عليهم كان سبباً لرفعهم من حضيض الجهالة والهمجية الى افق التمدن والمعارف

وتزوج بطرس سنة ١٦٨٩ بابنة احد رعيته على مقتضى العادة التي كانت جارية عندهم اذ ذاك . وهي ان الملك اذا اراد التزوُّج جيء اليه بعدة من اجمل بنات المملكة فتتناولهن سيدة قصره وتضع كل واحدة منهنّ في غرفة على حد ثم تأتي بهنّ وقت الطعام وتقف بهنّ حول المائدة فيأتي الملك متنكرًا او غير متنكر فالتي تقع في عينيه موقعاً حسناً يخلع عليها خلعة العروس فتكون امرأته وبُفرّق اثواباً اخرى على البنات الاخريات

وكان بطرس يتقدم يوماً فيوماً في الاختبار والمعرفة وكان يعتقد ان مملكة النمسا اقرب

المالك الى التمدن والعلم فدرس لغتها واللغة الفلمنكية • واما الاعمال الحربية فكانت افكاره متجهة فيها لمحاربة التتار وتفريق الاسترلتش تفريقاً تاماً وابادتهم • ففرق الاسترلتش وحارب التتار ولكنه لم يفز عليهم فوزاً تاماً • فترك الاعمال الحربية وعمد الى اصلاح المملكة فأخذ يدرب جنده على الفنون العسكرية وأتى ببناة السفن الحربية وبنى جانباً منها • ومما رغب رعيته في الطاعة انه كان اذا أمرهم بتعلم شيء بدأ هو بتعلمه قبلهم بل كان يعامل نفسه كاقل واحد فيهم فاذا نظم جنداً دخل هو فيه بصفة ضارب الطبل او نفر عسكري وهي من الامور الغريبة التي لم يسبقهُ اليها أحد من الملوك ونظراً لخلو روسيا اذذاك ممن يحسنون التنظيمات العسكرية كان يستقدم اليه رجالاً من الدول الاخرى الاوربية • وكان في جملة اعوان بطرس في هذه التنظيمات رجل ايطالي اسمه لوفورت وكان من اهل الحسب والحزم • فلما رأى مقاصد هذا القيصر تعهد له بتنظيم جند جديد على النمط الحديث الذي يريده ويكون له عوناً على وجاق الاسترلتش الذي كان الى ذلك العهد لا يزال عثرة في طريق الاصلاح كما كان وجاق الانكشارية في الاستانة فاذن له بذلك فنظم جنداً من الفرنساويين الهاربين من بلادهم وعددهم ١٢ الفاً فسرَّ بطرس بذلك واقام لوفورت هذا قائداً عاماً عليهم

وكانت الحدود الروسية من جهة ممالك الصين غير متفق عليها فألف بطرس وفداً روسياً اجتمع بوفد صيني وقرروا الحدود ولم يعهد بالصين انها انفذت وفداً سياسياً قبل ذلك الحين لعقد اتفاق مع احدى الدول وكان وفد الروس تحت رئاسة غالوين حاكم مقاطعة سيبريا واصطحب الوفد الصيني قسيسين احدهما برتغالي اسمه بريرا والآخر فرنساوي اسمه جربلون وهما يعرفان اللغة الصينية واللاتينية وأتى غالوين برجل نمساوي يعرف اللسانين الروسي واللاتيني وكانت اللغة اللاتينية واسطة المخابرة بين هاتين الدولتين • فعينوا الحدود وعقدوا اتفاقاً باللغة اللاتينية ايضاً يقضي بالمسالمة بينهما وكان ذلك الاتفاق وسيلة لترويج المصالح الروسية في بلاد الصين فبعث القيصر سفيراً الى بلاد الصين فروج التجارية بين المملكتين

وفي سنة ١٦٩٥ حارب الدولة العلية وكان هو في جملة الجند المحارب ولكنه لم يفز ثم عاد الى الحرب سنة ١٦٩٦ ففتح قلعة ازوف

(اصلاحاته) ومن اهم اعمال هذا الرجل العظيم تنكرهُ وطوافه في ممالك أوروبا لاكتساب الصنائع الحديثة فرحل الرحلة الاولى متنكراً بصفة خادم ومعه ثلاثة من

كبار قواده سنة ١٦٩٧ فساروا يتجولون ويتفقدون احوال البلاد التي يمرون فيها وعينا بطرس تنظران الى كل شيء يرى فيه غرابة او اتقاناً ويقرر في ذهنه ان يدخل كل ذلك في مملكته حتى دخلوا برلين عاصمة بروسيا وهم في لباس اهل المشرق وعلى رؤوسهم القلانس المرصعة وسيوفهم مسترسلة على احقائهم . واما بطرس فكان لابساً على الزي النمسوي ومعه امير بلباس فارسي وهناك افترقوا ثم اجتمعوا في امستردام وبطرس بزي قبطان فزار معملاً للسفن في قرية امستردام فاعجبه ما فيه من اجتهاد العمال واتقان صناعتهم ودقة ادواتهم فدخل في ذلك المعمل بصفة احد الفعلة وتزيا بزيهم وعاش عيشتهم . ولما اتقن صناعة السفن دخل معامل الحديد والحبال والمطاحن والمعاصر ومعامل الورق والاسلاك المعدنية ودعي اسمه في سجل الفعلة بطرس ميخائيل وكانوا ينادونه المعلم بطرس

ومن الغريب انه كان وهو في حالة الفعلة يلاحظ حالة بلاده ويبعث الاعلامات اليها امراً او نهياً . ودرس فوق هذه الصنائع فن التشريح وعمل عمليات جراحية

وبعد اتقانه كل هذه الفنون سار بصفته الملوكية لزيارة وليم ملك انكلترا فنال منه كل رعاية واكرام ثم عاد الى معمل السفن واصطنع فيه سفينة كبيرة بيده تحمل ستين مدفعاً . وكان اثناء وجوده في المعامل ينتخب من يختبر مهارتهم في الصناعة ويبعث بهم الى موسكو ليعملوا هناك على نفقة حكومته . وعاد مرة اخرى الى بلاد الانكليز واتقن فيها بعض الصنائع التي لم يتممها في امستردام واتقن هناك صناعة الساعات وغيرها

ويقال بالاجمال انه اتقن بنفسه هذه اكثر الصنائع والفنون ولا سيما صناعة السفن ودرس من العلوم شيئاً كثيراً كالطبيعيات والرياضيات وغيرها

وفي سنة ١٦٩٨ برح انكلترا عائداً الى بلاده فمر ببلاد الفلمنك وصحب جانباً من ارباب الصنائع والحرف والمهندسين والطوبجية وسار بهم وفرقهم في اماكن مختلفة من بلاده لبث صنائعهم بين ظهراني رعيته . ومر بطريقه على النمسا ليشاهد ما عندها من العلوم والمعارف العسكرية حتى لا تفوته فائتة وكان مع ذلك يراقب احوال ما يمر به من الدول سياسياً وادبياً وتجارياً وكان في نيته ان يمر بالبندقية فجاءه نبأ عن فتنة ظهرت في بلاده فعاد اليها سراعاً واخمد تلك الفتنة بقتل جماعة من القسيسين والاسترلتش لانهم كانوا سبب ذلك العصيان

ولما هدأت الاحوال اخذ في تدريب جنده على النظام النمسوي والبسه الملابس

القصيرة على نمط واحد وجعل اساس نظام ذلك الجند المساواة بين الرفيع منهم والوضيع وأخذ من الجهة الثانية في انشاء القلع والجسور والحصون واصلاح السفن ولم يقصر اصلاحه على الامور العسكرية ولكنه وضع قوانين ونظامات ادارية ومدنية ودينية وابطل الرهبنة القاضية بعدم الزواج فغضب عليه جماعة الاكليروس • وعكف على نشر فن الطباعة والمعارف والآداب لتنوير اذهان رعيته • وابطل عادة التحجب القاضية بان لا يرى الرجل زوجته الا بعد الاقتران بها وصار من يطلب زواج ابنة يعاشرها ويختبر اخلاقها قبلاً • وابطل الالقاب التبجيلية التي كانت تستعملها الرعية في مخاطبة ملوكهم وابدلها بكلمة (احد رعيتكم)

وكان مع انهماكه في هذه الاصطلاحات لا يغفل عن توطيد علائق المودة مع الدول المجاورة وفي مقدمتهن الدولة العلية فعقد معها معاهدة صلح عادت عليه بالنفع الجزيل

☙ حروبه ❧ ثم قامت الحرب بينه وبين اسوج ولم يفزغ من فشله لم يثبط عزيمته فعاد ثانية واوقد نار الوغى وعاد مكللاً بالظفر • وكان في جملة البلاد التي افتتحوها بلدة مريبنبورغ على حدود ليفونيا استأسروا نساءها وكان في جملتهن ابنة اسمها كاترينا احبها بطرس بعد ذلك وتزوجها واصبحت بعد حين امبراطورة عظيمة حكمت مملكة روسيا عدة سنين وذاع صيتها في الآفاق



مدفع القيصر او قيصر المدافع من ايام بطرس الاكبر

ولما عاد بطرس من حرب الاسوجيين ظافراً عكف على اصلاح موسكو عاصمة بلاده

الى ذلك العهد واسس مدينة على اسمه سماها بطرسبورج وهي عاصمة الروسيين الى هذا اليوم

وعادت الحرب بينه وبين الاسوجيين عدة مرار كان الفوز في اغلبها له حتى استولى على اقليم انغريا وعاد الى موسكو ولم يستقر له المقام فيها حتى اضطر لمحاربة البولونيين ثم الاسوجيين وكان الفوز تارة لهذا الجانب وطوراً لذاك ولكن الاغلب للروسيين ٠ وكان من عواقب تلك الحروب اختلال العلائق الودية بين الروسيين والعثمانيين وقامت الحرب بين الفريقين سنة ١٧١١ واظهر بطرس في تلك الحرب شجاعة الابطال وكذلك امرأته كاترينا فانها كانت تركب امام الجند تحثهم وتزور الجرحى وتشجعهم ولكن العثمانيين ضيقوا عليهم كثيراً وخصوصاً في موقعة البروث ولولا حكمة كاترينا وتدبيرها بعقد الصلح مع العثمانيين لما عاد من الروسيين مخبر ٠ ومن مقتضى تلك المعاهدة عود مدينة ازوف وما يلحق بها من الضواحي الى كنف الدولة وهدم عدة قلاع صغيرة واقعة على نهر ازوف ٠ ولما تمَّ الصلح على هذه الصورة عاد كل من الفريقين الى حال سبيله

ولم يفارق السعد بطرس الا في محاربته الدولة العلية اما فيما خلا ذلك فكان السعد خادماً له وقلما قام لحرب الا عاد ظافراً وعلى الخصوص مع الاسوجيين

ولما هدأ بطرس من الحروب عنَّ له ان يتجوَّل في بلاد اوربا بصفته الملوكية يتفقد احوالها ويتدبر شؤونها فلما وصل امستردام سار توًّا الى المعمل الذي تعلم فيه صناعة السفن منذ ١٨ سنة فاذا به قد تحسن عن حالته الاولى ٠ ولا تسل عما لاقاه هذا الامبراطور من الاحتفاء في تلك المدينة لانهم كانوا قد عرفوه قبلاً بصفة عامل في معاملهم وكان كلما زار مدينة لاقى احتفالاً يليق به ولا سيما في فرنسا وانكلترا ثم عاد الى بلاده

عدله ﴿ كان لبطرس ولد اسمه الكسيس من امرأته الاولى ﴾ (غير كاترينا) وكان ذميم الاخلاق مسرفاً وقد تزوج بامرأة فاضلة ماتت ضحية قسوته عقيب ولادة فشق ذلك على بطرس فكتب اليه يوبخه وينهاه عن غيه ويهدده بحرمانه من ولاية العهد اذا لم يكف عن غروره ومما قاله له « اني امهلك فترة من الزمن لتقلع عما انت فيه فاذا اصررت على غيك فاني محرمك من حق الملك ولا يغرنك مني الحنو الابوي لاني ابذل نفسي عن وطني فكيف لا افتديه بولدي وخير لي ان اولي امر بلادي اجنبياً يصونه من ان اعهد به الى ولدي واعز الناس عندي ويهدمه لان شعبي ووطني اعز شيء عندي »

وكان قد ولد لبطرس في اثناء ذلك غلام من كاترينا فكتب اليه الكسيس انه

يتنازل عن ولاية العهد لولده الجديد فكتب اليه بطرس « قد اطلعت على كتابك فاذا انت تخاطبني في امر الولاية بعدي كأني استفتيك بها وقد قلت لك انه يهمني من امرك ما انت فيه من سوء التصرف وقد اوعزت اليك ان تنصرف عن ذلك فلم تجبني فقد كتبت اليك كتابي هذا وهو آخر كتبي اليك . فبالله ما الذي تفعله بامتي بعدي وانت تحتقرني في حياتي فلا اشك بانك تدوس كل مشروعاتي وتميت كل مقاصدي وانا اعلم انك لو وعدتني الوعود الوثيقة بعدولك عن غيك لا تلبث بعد موتي حتى تعود الى غوايتك اذ يعدل بك اصحاب اللحى (القسوس) الى اغراضهم ويحملونك على نقض ما ابرمته لانهم واثقون ان يفوزوا بواسطتك لما يرونه من ميلك الى مواساتهم فبما قد عققت نعمتي ولم تطعني فيما اردت من الخير لبلادك منذ بلغت اشدك فالبدار الى اصلاح هذا الخلل واسع في ما تصير به اهلاً لولاية الملك بعدي والا فالانتظام في سلك الرهبنة اولى بك والاقامة بين الرهبان اقرب الى طباعك فعليك بالاجابة على هذا والا فاني اعاملك معاملة الاشرار المتمردين والسلام »

فاجابه الكسيس انه يفضل الترهب وعوّل على الفرار من وجه ابيه حتى يسكن غضبه فشق ذلك على بطرس ولكنه عمد الى التروي وطول الاناة وكتب الى ولده يستقدمه اليه وينصح له ان يطيعه فخاف الكسيس عقاب والده فجاءه في موسكو سنة ١٧١٨ وتقدم اليه وجثا عند ركبتيه وقبلهما ثم جلسا يتحادثان فظن الناس انهما تصالحا

وفي الصباح التالي امر بطرس بتسليح فرقة من الحرس وضرب الجرس الكبير وكان لا يامر بضربه الا لامر ذي بال وبعث الى اكابر الدولة واعيانها فحضروا الى دار الحكومة ثم امر بالكسيس فجاؤا به مجرداً من سلاحه فمثل بين يدي والده وجثا امامه باكياً ودفع اليه كتاباً يتضمن الاعتراف بخطائه والتماس اعفائه من ولاية العهد وحقن دمه

فامسكه الامبراطور بطرس بيده واوقفه ثم خلا به في غرفة مدة يسأله بعض الاسئلة ويهدّده بالقتل اذا لم يجب عليها الجواب الصريح ثم عاد به الى حيث المجلس منعقد وقرأ اعلاناً يتضمن مؤاخذته لعدم اعتنائه في التعلم وسوء سلوكه مع زوجته وميله الى فتاة من رعاع الناس وذهابه الى فينا ودخوله في حماية النمسا وقال انه بذلك هتك حرمته وخانه وبنى على ذلك استحقاقه القتل ولكنه يعفو عنه شفقة عليه واما ولاية العهد فحرمه منها رسمياً امام ذلك المجلس فاذعن الكسيس لذلك . ثم عاد بطرس فتفكر في عاقبة الامر فرأى ان وجود الكسيس حياً بعد موته يكون سبباً لعوده الى التمرد ومناظرة اخيه على

الملك فتعود الفتن وتصبح البلاد في خطر السقوط فعاد الى استنطاقه ليستعلم منه عن الاحزاب التي كانت تنصره في اعماله الماضية وبعد البحث والتنقيب تبين للناس من اقراره انه كان مقاوماً لمقاصد ابيه ويود قتله والتولي مكانه وان بعض القسيسين وافقوه على ذلك ·
فوقف بطرس في الجمهور وقال ما ملخصه :

« ان الشرائع الالهية والقوانين البشرية تمنع افراد الرعية من الحكم على اولادهم اما نحن فلنا السلطة المطلقة في الحكم نظراً لما ظهر من اعمال ولدنا الكسيس ولكن لما كان الطبيب الماهر لا يطبب نفسه بنفسه بل يدعو طبيباً آخر فاخشى تهوري في حكمي على ولدي هذا ولا سيما بعد ان اقسمت بالله ان اعفو عنه فاتقدم اليكم ان تحكموا عليه بمقتضى حقوق الدولة والامة والوطن ولا تسلكوا سبيل التملق »

فاجابه القسيسيون ان هذه القضية ليست من متعلقاتهم وان للملك وحده حق الحكم ولكنهم ادخلوا في جوابهم هذا ما يدل على ميلهم الى العفو عنه · وبعد الاخذ والرد وتكرار جلسات المجلس مراراً اقروا على اعدام الكسيس وكان المجلس مؤلفاً من ٤٤ عضواً وارادت كاثرينا التوسط في العفو عن قتله فلم يصغ بطرس الى كلامها

ولما صدر الحكم احضر ولده وقرأ صورة الحكم علانية على مسمع من الجميع وفي جملتهم الكسيس فاصابه تشنج غيبه عن هداه ولما فاق طلب مواجهة ابيه وبكى الاثنان بدموع الندامة والحنو وطلب الولد من ابيه فعفا عنه علانية ولكنه مات بحضور ذلك الديوان في اليوم الثاني من قراءة الحكم

ولم نأت على تفصيل هذه الحادثة بنوع خاص الا لانها تدل دلالة صريحة على عدالة بطرس وحبه لرعيته ورغبته في مصلحتهم حتى بذل ابنه الاكبر فداء عنهم · ولا ننكر ما في عمله هذا من القسوة والمغالاة في الصرامة ولكنه اوقع الرعب في قلب الرعية كافة وجعل للعدالة تمثالاً حياً نصب اعينهم اما ولده الآخر فلم يعش الا اربع سنوات

وفاته وصفاته ولما فرغ بطرس من حروبه وقد صفا له كاس الزمان واتسعت مملكته اراد ان يقاسم امرأته كاثرينا في ذلك لانها شاركته في اكثر اعماله الحربية فتوجها في ١٨ مايو سنة ١٧٢٤ فتذكرت وهم يضعون التاج على رأسها في الكنيسة ما وصلت اليه من النعم بعد ان كانت من احقر الناس فاحبت تقبيل ركبة القيصر فمنعها

وفي اول السنة التالية (١٧٢٥) اشتد المرض على بطرس ومات على ذراعي كاثرينا ودفن بالتجلة والاكرام وخلفته هي على سرير الملك



بطرس الاكبر بلباسه الملكي

كان بطرس الاكبر ثابت العزم رابط الجاش حسن التبصر بالعواقب حازماً مجداً صبوراً على العمل هماماً نشيطاً وكان قوي البنية لطيف المزاج جميل الخلقة طويل القامة معتدلها ذا هيبة ووقار مقداماً لا يخشى المصاعب والاهوال ولو كان ممن تربوا تربية حسنة وتثقفوا في المدارس من صغره لاوصل بلاده الى اكمل مما اوصلها اليه . وكان في زمن شبابه يحب الزهو ومعاشرة النساء وربما كان ذلك من اشد العوامل في تهذيب اخلاقه ولين جانبه . وكان مع ذلك محباً للبحث في الامور العسكرية والمباحث السياسية . وبالاجمال انه من اعظم بني الانسان في اطواره . ومن غريب ما يحكى عنه انه كان في صغره يخاف ركوب البحار خوفاً شديداً ولكنه اصبح بعد يسير اول من خاطر في ركوبها عن خبرة وارتياح . وخلاصة القول ان هذا الرجل مجتمع الغرائب فقد كان لوطنه امبراطوراً عظيماً ولرعيته اباً حنوناً ولحقوقهم قاضياً عادلاً ولجندهم قائداً عظيماً ولابنائهم معلماً ولصناعتهم مؤسساً ولدولتهم مصلحاً كبيراً

ويذكرون لبطرس الاكبر وصية تعرف باسمه دوّن فيها ما يريد من خلفائه على الملك ان يسعوا فيه ومن جملة ذلك « الاقتراب من الاستانة ومن بلاد الهند بقدر الامكان ومحاربة شاه العجم وامتلاك شواطىء البحر الاسود وبحر البلطيك » وغيرها

ومن اعماله التي لا تزال آثارها باقية الى الآن انه الغى منصب البطريرك من بلاده وذلك ان الروسيين تنصروا على يد بطريرك القسطنطينية كما ذكرنا في الهلال ١٣ من

هذه السنة وكان يتولى ادارة الكنيسة في روسيا اسقف يوليه البطريرك المذكور وظلوا على ذلك الى سنة ١٥٨٦ اذ تمكن الملك ثيودور بمساعدة البطريرك الانطاكي يومئذ من استمالة سائر البطاركة الشرقيين فوافقوه على انشاء بطريركية خامسة في روسيا . فانتخب البطريرك الروسي الاول سنة ١٥٨٩ واسمه ايوب . وما زال البطاركة يتوالون في روسيا حتى الغى ذلك المنصب بطرس الاكبر سنة ١٧٢١ لما رآه من تداخل البطاركة في السياسة وانشأ في مكانه مجمعاً دائماً (سينود) يقيم في بطرسبورج ولا يزال كذلك الى اليوم



الاميرال سكريدلوف

ولد سنة ١٨٤٤ فهو في الستين من عمره وقد انتظم في الحربية منذ شبابه ومهر فيها وشهد حرب الروسية الاخيرة مع الدولة العلية فابدى مهارة عظيمة فنال من القيصر وسام صليب القديس جورجيوس واشتهر من ذلك الحين وجعلت دولة الروس تعهد اليه في مهماتها وفي جملتها تسوية مسألة كريد الاخيرة فقد كان قائداً لاسطول الروس هناك . وتعين سنة ١٩٠١ اميرالاً لاسطول الباسيفيكي في اثناء حرب البوكسرس في الصين واظهر مهارة غريبة في تلك الحرب . فلما انتشبت الحرب الاخيرة في الشرق الاقصى عينه القيصر في السنة الماضية اميرالاً لاسطول البحر الاسود ثم جعله اميرال اسطول البحر البلطيك . حتى اذا اصاب الاميرال مكاروف ما اصابه استدعاه القيصر لقيادة اسطول الشرق الاقصى مكانه . وهو ربع القامة ممتلئ الجسم قوي البدن حاد المزاج قوي الارادة طلاب للعلى ويعدّ من خيرة رجال الروس

تاريخ علم الادب

عند الافرنج والعرب لكاتب فاضل

٢٦ — هوكو والادب الفرنساوي

ولما ألف فيكتور هوكو رواية كروموبل التمثيلية سنة ١٨٢٧ وضع لها مقدمة بين فيها ما هو الاساس الذي انشأ عليه ابنية اوراقه وما هو أصل الشجرة التي اثمر فرعها فاكهة روايته . كما وضع المعري مقدمة للزوم ما لا يلزم وافتتحها بقوله « كان من سوالف الاقضية اني أنشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكذب والميط » . ثم ذكر القواعد التي راعاها في تأليف هذا الكتاب وبين اللوازم التي تلزم القافية بدون أن يفتقر اليها حشو البيت وأتى لها بالامثال والشواهد المعتبرة من كلام الحكمة والموعظة الحسنة كما هو مفصل في بابه . فخلاصة مقدمة كروموبل :

ان الانسان منذ النشأة الاولى الى الزمان الحاضر تقلب باعتبار التمدن أي الحضارة والعمران في ثلاثة ادوار : (١) القرون الابتدائية (٢) القرون القديمة (٣) القرون الاخيرة . وحيث كان الشعر سابقاً على الاجتماع الانساني وملازماً له فقد تقلب معه أيضاً في ثلاثة أشكال :

(١) الشعر الموسيقي أي الغناء[1] (ليريك)

(٢) الشعر الحماسي أي الحماسة (ابيك)

---

(١) قد يتغنى المرء بالشعر الحماسي ايضاً . لان الغناء انما هو تلحين الشعر موسيقياً كان او حماسياً . ولكن الغالب في الغناء اظهار ما في نفس الانسان من الحس والشعور ولذا خصصناه هنا بالشعر الموسيقي الممتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية وكتاب الاغاني ألفه ابو الفرج الاصفهاني مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد . ولكنه جامع لكل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء فهو ديوان العرب

(٣) الشعر الدراماتيقي أي الهائلة (دراماتيك)

وذلك ان الانسان لما انتبه في القرون الابتدائية لعوالم الموجودات — وكانت قريبة عهد بالحدوث — انتبه معه الشعر . فانبهر من رؤية بدائع المخلوقات واسكرته الدهشة حتى لم يكن أول كلامه الا « هيلة » . وكان تفكره تجلياً وجذباً وتصوره وحياً لقربه من موجد الكائنات وهوالله . فكان يناجي بقلبه ويهلل بلسانه كما يتنفس برئتيه . ولم يكن لعوده الا ثلاثة اوتار الخالق والنفس والمخلوقات.[1] غير أن هذا السر المثلث يشمل كل ما في الوجود . وكانت الارض مقفرة تقريباً وليس عليها من بني آدم الا بطون وفصائل ولم توجد بعد القبائل ولا الشعوب وكان لهم آباء لاملوك . وكل عرق من عروق البشر متمتع ببقائه ولامعرفة لافراده بالملكية ولا بالشريعة ولا بالخصومة ولا بالحرب . بل الكل لكل واحد والكل . فكان الاجتماع الانساني شركة لا شيء فيها يضايق أفراد الانسان . فكانوا يعيشون عيشة الرعاة والبداوة التي ابتدأ منها كل تمدن وعمران . وهذه المعيشة أوفق ما يكون لسانحات الفكر وهواجس القلب . فكانت نفس الانسان سائحة على جناح الاهواء سابحة في بحر الخيالات وفكره اشبه بسحابة تسيرها الرياح وتغير شكلها ووجهتها بحسب مهبها . فهذا هو الانسان الاول . وهذا هو الشاعر الاول . فهو شاب وموسيقي . ودينه الصلاة بمعناها اللغوي فقط وهو الدعاء وشعره الغناء . فهذا الشعر وهذا الغناء الذي للقرون الابتدائية هو « سفر التكوين »

ثم زال عن الانسانية هذا الشاب رويداً رويداً . واتسعت فيها جميع الدوائر . وصار البطن قبيلة والقبيلة شعباً وامة . واحتشد كل مجتمع من هذا الاجتماع الانساني العظيم حول مركز مشترك وتأسست الممالك . وحلت طبيعة العمران محل طبيعة البداوة . وتبدلت الخيام بالقصور ومحطات الرجال بالمدائن وتابوت العهد بالهيكل .

(١) لايخفى ان فيكتور هوكو جينما الف رواية كرومويل كان من حزب الملوكيين المتمسكين بالدين الكاثوليكي ولذا فهو يرى التثليث في كل امر ومسئلة

وأصبح رؤساء هذه الدول المستحدثة رعاةً — المواشي — بل الشعوب والامم . وتبدلت عصا الرعاية بصولجان الملك . ووقف كل شيء وتعين . واخذ الدين شكلاً مخصوصاً وانقلبت الصلاة من المعنى اللغوي الى المعنى المصطلح عليه عند أهل كل مذهب . وتعينت أقوالها وأفعالها بحسب ذلك المذهب . وضرب الاعتقاد نطاقه على العبادة . وعلى هذا الوجه اقتسم الكاهن والملك أبوة الشعب . وعلى هذا الوجه قامت مقام الشركة الابوية الجمعية الثيوقراتية وهي الدولة الجامعة أحكامها بين الديانة والسياسة . وازدحمت الشعوب والامم على سطح الكرة فتضايقوا وتخاصموا وانشبت بينهم الحروب واصطدمت الممالك بعضها ببعض وطغى قوم على قوم فاوجب هذا الطغيان مهاجرة الشعوب والامم وتغريبهم ورحلاتهم . وتصور الشعر هذه الوقائع العظيمة وانتقل بذلك من الافكار الى الاشياء وتغنى بالقرون والشعوب والممالك وصار حماسةً وولد هوميروس . فهذا الشاعر في الحقيقة أحسن معرف للاجتماع الانساني في القرون القديمة . وكل ما في هذا الاجتماع بسيط وحماسي . والشعر عندهم دين والدين شريعة أي قانون . فبعد بكارة الدور الاول ظهرت طهارة الدور الثاني من ادوار الانسانية . واستولى نوع من الوقار والاحتشام على الاخلاق البيتية والاخلاق العمومية . ولم تحفظ الشعوب من عوائد بداوتها الاحرمة الغريب ورعاية ابن السبيل . وصار للعائلة وطن يربطها ونشأت محبة الوطن والدار وزيارة القبور . فالتعبير عن مثل هذا التمدن لايمكن ان يكون باشعار الحماسة . ونقلبت اشعار الحماسة في اشكال كثيرة بدون ان تضيع خاصتها المميزة لها . فاذا تأملنا كلام الشاعر اليوناني پندار وهو من أهل القرن الخامس قبل الميلاد والملقب بأمير الشعراء الغنائيين لجودة قريحته في الشعر الموسيقي نجد كلامه كهنوتياً اكثر مما هو أبوي وحماسياً اكثر مما هو موسيقي . وفي هذا الدور الثاني من أدوار العمران ظهر المؤرخون وجمعوا الآثار وأرخوا القرون ومع ذلك فظهور التاريخ لم يستلزم محو الشعر من الوجود بل استمر التاريخ حماسةً وكان المؤرخ هيرودوس كأنه هوميروس ثانٍ . ومن نظر في روايات التراجيديا القديمة التي الفها شعراء اليونان ومثلوها على

مراسحهم تبينت له جلياً أساليب شعر الحماسة ورأى علوهم في كل شيء وتجاوزهم الحد في العظمة والجبروت والهيبة والفخامة . فالاشخاص الممثلة في هذه الروايات هم من الجبابرين وانصاف الآلهة والآلهة . ومواضيع الروايات احلام وهواتف ومقدرات والواحها تمداد نفوس وتشييع جنازات وحروب وغارات . وما كان ينشده الرواة من الاشعار كان يشدو به الممثلون . ففن التمثيل عند اليونان كان مقتصراً على هذا فقط . وكانوا يبنون مراسحهم على سفح الجبل بلا سقف يقي حر الشمس ومطر السماء وانما هي درجات بعضها فوق بعض على شكل نصف الدائرة المسمى عندهم (امفيثياتر) وموضع التمثيل على الارض في صحن المرسح وهو غاية في السعة والجسامة ويستوعب تمثيل معبد بفنائه وسراي بدوائرها وقصورها وابراجها ومدينة بأسواقها ومعسكر بهماته وكذا محل المتفرجين يستوعب ثلاثين الف متفرج . مع ان مراسح الاوروبيين لا تستوعب الاربعة آلاف . والمرسح الفرنساوي في باريس لا يستوعب الا ١,٤٠٠ ومرسح الاوبره فيها يستوعب ٢,٢٠٠ ومرسح الشاتله وهو اكبر المراسح في باريس يستوعب ٣,٦٠٠ وكان التمثيل عند اليونان يبتدئ في الصباح ولا ينتهي الا في المساء وربما مثل في المرة الواحدة روايتين او اكثر . وكان الممثلون يفخمون اصواتهم ويعظمون قياقتهم ويتبرقعون بالبراقع المناسبة للرواية حتى يحاكي الواحد منهم الجبار العتيد او البطل الصنديد الذي يمثل دوره . فيمثل بروميثه بن تيتان وهو مقيد بالسلاسل فوق جبل قفقاس والنسر يأكل في احشائه . لانه صور من طين الارض على هيئة الانسان ثم أراد ان يأخذ من نار السماء او نورها لينفخ فيه الروح فاغضب الآلهة وجازاه كبيرهم بذاك الجزاء على ما اقترفت يداه . ويمثل أيضاً انتيغون وهي في أعلى الابراج تفتش عن أخيها الذي كان في معسكر الاعداء من الفينيقيين . وقد ذكر خبرها الشاعر سوفوقل في رواية نظمها قبل الميلاد بأربعمائة سنة وسماها (اديب الملك) ونسج على منوالها الشاعر الفرنساوي فولتير وسمى روايته الفرنساوية بهذا الاسم أيضاً . واديب هذا ابن ملك من ملوك اليونان قتل أباه وملك على قومه وتزوج بأمه بدون علم منه فلما وقف على حقيقة الامر لم يتحمل هذه المصيبة

فقلع عيني نفسه بيديه وخرج من مملكه هاجاً وابنته انتيغون تقود به . ويمثل المثلون أيضاً على مراسح اليونان مركباً كبيراً ينزل منه خمسون أميرة بما يتبعهن من الخدم والحشم كما في الرواية التي ألفها الشاعر ايشيل قبل الميلاد بخمسة قرون . فكان يجتمع على مراسحهم فخامة البناء مع فخامة الكلام . ويمتزج التاريخ بالدين . وكان اول المضحكين عندهم من الكهان . وكانت العابهم احتفالات دينية ومواسم أهلية . فجميع الروايات المحزنة اليونانية هي من أشعار الحماسة . وجميع الشعراء المتقدمين عيال على هوميروس ورواياتهم مستنتجة من الالياذة والاوذيسة ومواضيع الجميع منها يعود الى محاصرة تروادة

٣٦ — الديانة المسيحية والادب

ثم أخذ هذا الدور الثاني من أدوار الشعر يتقلص ويتعتق كما تعتق العمران القديم . وجاء الرومانيون ونسجوا على منوال اليونانيين ونسخ شاعرهم فيرجيل عن هوميروس وانتهى دور الشعر الحماسي وفتح دور جديد للشعر والتمدن بظهور الديانة المسيحية . فالديانة الوثنية مادية ظاهرية والديانة المسيحية روحانية باطنية . فلما حلت احداهما محل الاخرى ودخل الايمان بالمسيح قلب التمدن القديم قتله ووضع في جنازته المتعفنة جرثومة التمدن الحديث وثبت بتعاليمه دعائم الاخلاق . واول حقيقة جاء بها هذا الدين هي القول بوجود حياتين للانسان . احداهما فانية والثانية خالدة . احداهما على الأرض والثانية في السماء . وأعلم الانسان بانه مركب من حيوانية ونطق اي من جسد ونفس . وبأنه نقطة الفصل المشترك . وهو في علم الهندسة النقطة المشتركة بين خطين والخط المشترك بين سطحين والسطح المشترك بين جسمين . او بأنه الحلقة المشتركة بين سلسلتين من المخلوقات احداهما تتألف من الماديات والثانية من الروحانيات . احداهما تبتدي من الجماد وترتقي للانسان . والثانية تبتدى من الانسان وتصعد الى الله

ربما فقه بعض الحكماء المتقدمين شيئاً من هذه الحقائق ولكن أول من أوضحها وجلاها الانجيل الشريف . فأصحاب الديانة الوثنية خبطوا خبط عشواء وساروا في

ظلام الليل على غير هدى ولم يفرقوا في طريقهم بين الحق والباطل . والبعض من فلاسفتهم افاض من نبراس حكمته على الاشياء نوراً طفيفاً لم يضيء منها الا الجانب الاصغر وزاد في الظل الممتد وراء جانبها الاكبر . فنشأ من ذلك جميع تلك الاشباح والخيالات التي وردت في فلسفة المتقدمين واساطيرهم . لان اضاءة تلك الاشياء بتمامها لا يتيسر الا بنور الحكمة الالهية . فلما جاء امر الله قام النور الالهي مقام هاتيك الانوار المرتجة التي أتت بها الحكمة الانسانية . وكان فيثاغورس وبقراط وسقراط وافلاطون سرج الليل فجاء المسيح بن مريم (عليهما السلام) ضوءًا للنهار . فحيث كانت عبادة الاوثان ديانة مادية لم يخطر على بال الاقدمين التفريق بين الروح والجسد كما في الديانة المسيحية . بل اوجدوا شكلاً وهيئة لغير الماديات وشخصوا المعنويات . فكل شيء عندهم مرئي محسوس متجسد . وآلهتهم مفتقرون لسحابة يختفون فيها عن الابصار . فهم يأكلون و يشربون وينامون . وتصيبهم الجراح فتسيل منهم الدماء . ويلقى بهم من السماء الى الارض فينحطون كما حدث لفولكين اله النار حينما حملت به أمه من (جوبيتر) المشتري كبير الآلهة ووضعته في أشنع صورة فاستنكفت منه ان يكون ابنها ورمت به الى الارض فهبط على جزيرة ليمن من جزر الممالك العثمانية وانكسرت رجله . وذهب لبركان اتنا ووضع فيه كور الحديد . فهو يعرج من وقعته و يشتغل في صنعته ابد الابدين ودهر الداهرين . ومن هولاء المعبودات ما هم آلهة ومنهم ما هم أنصاف آلهة فقط . ودنياهم معلقة بسلسلة من الذهب يمسكها كبير الالهة . وشمسهم يجرها في مركبه اربع رؤوس من جياد الخيل . وجهنمهم هاوية عميقة يعين الجغرافيون فوهتها على سطح الكرة . وجنتهم على جبل اوليمبوس في تساليا يسكنها الالهة ويتلذذون بنعيمها . فالديانة الوثنية عجنت جميع المفتريات من اساطيرها في طينة واحدة وصغرت آلهتها وكبرت اوادمها حتى تشابه الفاني بالحي الذي لا يموت . فالابطال الذين تكلم عنهم هوميروس في اشعاره كادوا يكونون أقراناً للمعبودين . فأبوا الفوارس اجاكس غضب على جوبيتر وهو راجع من محاربة تروادة واعلن الحرب عليه وعلى جماعته . واشيل عنترة الحروب

اليونانية يضاهي في القوة والشجاعة المريخ (مارس) اله الحرب وجلاد الفلك . بخلاف الدين المسيحي فأنه فرق بين المادة والروح . وحفر واديا عميقاً بين الجسد والنفس وواديا آخر بين الانسان والالهة . فبظهور النصرانية وبنشر تعاليمها دخل قلب الناس شعور جديد لم يكن معروفاً للمتقدمين واتسعت دائرة هذا الشعور عند المتأخرين اتساعاً غريباً . فهذا الشعور هو المالنخوليا اي السوداء وهي أشد من الوقار المستولي على قلوب القدماء وأخف من الحزن . فالنصرانية وضعت في طبع المتدينين بها المزاج السوداوي وجعلت الصلاة للفقير كالغنى للغني وأسست بين الناس المساواة والشفقة والحرية . فمنذ أدخل الانجيل النفس بين الحواس ووضع الخلود وراء الحياة اصبح المتمسكون به يرون الاشياء بشكل جديد



الجنرال كورباتكين

قائد جند الروس البري في الشرق الاقصى

الشعر واللغة

نبذة من مقدمة الالياذة للبستاني

قال ابو بكر الخوارزمي « من روى حوليات زهير واعتذارات النابغة وحماسيات عنترة واهاجي الحطيئة وهاشميات الكميت ونقائض جرير وخمريات ابي نواس وتشبيهات ابن المعتز وزهريات ابي العتاهية ومراثي ابي تمام ومدائح البحتري وروضيات الصنوبري ولطائف كشاجم ولم يخرج الى الشعر فلا اشبَّ الله قرنه » وهو كما ترى قول متحمّس مولع بالشعر وقد اتاته الفطرة منه حظاً وافراً . والاَّ فالخروج الى الشعر متعذرٌ على من لم يكن ذلك في طبعه . على ان هذا القول صادقٌ على من كان الشعر في سجيته فان مطالعة نفيس الشعر تُشحذ الذهن وتهذّب اللفظ وتجلو المعنى فتستقيم بذلك وجهة الشاعر المطبوع

واللغة العربية شعرية بطبعها لتفرُّع مفرداتها وتنوُّع اشتقاقاتها القياسية على اسلوب لا يُرى له مثيل في اللغات الآرية . والقوافي مزدحمة فيها ازدحاماً يسهل النظم . وهي بخلاف ما يزعم بعض الاعاجم جزلة التركيب محكمة الانسجام . وفيها من طرق الحذف والتقدير والتقديم والتأخير ما ينفسح معه المجال للشاعر لصوغ عبارته على قوالب شتى . وتلك مزية تُمدح عليها اللغة في الشعر وان عيبت في النثر حيث يُقصد الجري على نمطٍ واحد جليّ . وهي على الجملة متسمة الشعر اكثر منها للنثر . فشعرها منذ القدم ارفع طبقةً من معظم نثرها وجيده اسهل منالاً من جيد النثر حتى لقد تجد النثر شعراً في كثير من الاحوال

ولا شك ان الزمان قد طوى كثيراً من الفاظها الوضعية . ولكن ما بقي منها فوق حاجة الشعراء لتأدية المعاني الفطرية والافكار البديهية والاوصاف الخلقية والحقائق الحِكَمية وسائر ما توخى تدوينه قدماء الشعراء كهوميروس وفنذاروس وفرجيليوس وهوراس . فهي بهذا المعنى لا تقصر بشيء عن لغة الالياذة اليونانية المشهورة بجزالة تركيبها ورقتها وانسجامها وإحكام وضع المفردات فيها

ولا ترجح اليونانية على العربية الا باتساعها لمشاكلة الالفاظ للمعاني وتوفر اسباب النحت فيها لصوغ الالفاظ المركبة . وفي ما سوى ذلك لا اخال لها رجحاناً بل ترجح العربية في اتساع المفردات وتشعُّب طرُق التركيب والخروج بقياس الاشتقاقات الى ما لا نهاية له من المعاني

ولقد بدا لي اثناء التعريب من ثروة العربية في الالفاظ الوضعية القديمة ما اغناني عن الانحراف بالمعنى على نحو ما اضطرَّ اليه بعض نقلة الافرنج على ما تقدم في الفصل السابق . ورأيت من المماثلة بين اللغتين في دقة الوضع ما يدهش له الناظم والناثر . وبنبئك ذلك ان العرب لم يغفلوا وضع شيء من الالفاظ الدالة على جميع مطالعاتهم ومحسوساتهم حتى اصبحت مفردات اللغة في زمنهم رابيةً على حاجة التعبير ولا سيما في الحسيّات . وما هذا النقص البادي الآن في إحكام التعبير وخصوصاً في المعنويات الاَّ نتيجة اهمال الخلف اقتفاء آثار السلف

وهو معلومٌ ان الالياذة نُظمت في زمنٍ كانت احوال المعاش فيه قريبة لاحواله بين قدماء العرب . ولهذا كان على المعرّب ان يقابل معانيها بما رادفها من لغة العرب بلا انحرافٍ ولا تأويل واللغة متسعة لذلك . فاذا وصف الناظم السلاح وهو سلاح العرب ففي اللغة لفظةٌ بل الفاظٌ للدلالة على كل ما قال من الشكة اي السلاح الكامل الى الحجر . فلا يعدم الناقل وسيلةً للتعبير عن كل ما ذكر من السيوف والمدى ومناصلها واغمادها . والرماح والزجاج وكعوبها واسنتها وصعادها . والدلاص والابدان والدروع وحلقها وزردها وقتيرها . والخوذ والترائك والمغافر وبيضها وقوانسها وعذباتها . والتروس والجواشن وحرابيها وحمائلها وهدّابها . والقسيّ وما لازمها من النبل المقذّذ والسهم المريش والوتر والفوق والفرض والسرية والنيزك . وسائر ما أُهمل او كاد يُهمل من معدّات الهجوم والدفاع كالفأس والحذفة والنطيس — واذا اتى على ذكر الخيل فما من لغةٍ اوسع من العربية بأوصافها وتمثيل عدوها وجريها وتطبيقها وتقريبها وحضرها وارتفاعها — واذا ذكر الحروب وعليها مدار الالياذة فلم تتفنن امة فوق العرب بوصف القتال والنزال والمجاولة والمصاولة والمشق والرشق والحذف والقذف والماصعة والنفح بالمناصل والضرب بالمعاول والوخز بالعوامل . وقس على ذلك جميع ما تناول وصف الاحوال المعاشية والروابط القومية والاحكام العرفية والمناظر الطبيعية من وهادٍ وهضابٍ ومطرٍ وسحابٍ وبحرٍ وبرّ وزرعٍ وضرعٍ وماء وهواء وارضٍ وسماء . — بل قد تجد خزانة العربية اجمع وثروتها اوسع بما حوت من الالفاظ المفردة التي لا يعبر عنها في لغات الاعاجم الاَّ بعبارات . واني موردٌ لك الآن امثلةً مما عُبر عنه في اليونانية بكلمتين فأكثر ويتيسر ردُّه في النقل العربي الى كلمةٍ واحدة في الافعال والاوصاف والموصوفات . ذلك كالسَّلهب للجواد الطويل . والاجيد للجواد الطويل العنق . والاجرد للفرس القصير

الشعر . والقبّ للخيل الضامرة والقياديد للخيل الطويلة . والتبيع والتبيعة لولد البقر لحولٍ واحدٍ والحوليّ لابن سنة من ذوات الحوافر وغيرها . والسديس للذي اتمّ خمس سنين والجبهاء للعريضة الجبهة . والاكبس لمن اقبلت جبهته وادبرت هامته من الناس . والطّحور للقوس البعيدة المرمى . والزِّجاج والمطاردْ للرماح القصيرة . والثلة لجماعة الغنم والمعز . والرّعيل للقطعة من الخيل . والصوار لقطيع البقر . والدسيع لمغرز العنق من الكاهل والوتيرة لما بين المنخرين . والبأديل اللحم بين الابط والثندوة او لحم الثدي . وصرّح بمعنى رمى ولم يُصب وامثال ذلك مما سترى منه في الالياذة شيئاً كثيراً

ومن جميل المشاكلة بين اليونانية والعربية في الاصل والتعريب على نمطٍ واحدٍ جري بعض الالفاظ مجرىً واحداً باللغتين في الحقيقة والمجاز . فمن ذلك ما تشترك فيه معهما لغاتٌ كثيرة كاطلاق لفظة (γεροντες) الشيوخ بطريق المجاز على الزعماء وكبار القوم . ومنه ما لا يكاد يتعدّاها الى غيرها كاستعمال لفظة (خيتي) (χαιτη) للشعر وورق الشجر ويقابلها الفرع بالعربية

وبين اليونانية والعربية فرقٌ كبيرٌ في نسج العبارات وتركيب الجمل من حيث التقديم والتاخير وصيغ الاشتقاق والجموع والحروف والنحت وتركيب الاسماء ولكن نهج كل لغة حسنٌ في بابه واسباب الفصاحة متيسرة لابناء كل لغة اذا احكموا الرصف على نهجهم

ولكن للعربية مزيتين في مفرداتها تقصر اليونانية وسائر اللغات عن مجاراتها فيهما . وهما كثرة المترادفات في الالفاظ الدالة على المعنى الواحد وتعدد المعاني للفظة الواحدة . فقد ذكروا عشراتٍ ومئاتٍ من الالفاظ الموضوعة لمسميات معينة من الحيوان كالاسد والحية والبعير والناقة والفرس والثور والكلب والهر . والمأكولات كالتمر واللبن والعسل . والمشروبات كالماء والخمر . والسلاح كالسيف والرمح . والصفات كالطويل والقصير والكبير والصغير والشجاع والجبان والكريم والبخيل . وغير ذلك من مألوفهم كالنور والظلام والشمس والقمر والسحاب والمطر والتراب والحجر . ولهم مثل ذلك في الافعال . فقد عدّ احدهم اكثر من الف فعل يمكن اطلاقها على معنى واحد . ويقابل ذلك تعدد معاني اللفظ الواحد فاذا تصفحت معاجم اللغة وقرأت باب الخال والحالْ والعين والعجوز وامثالها تولاّك العجب لكثرة معاني كل كلمة منها

ولقد يعلم اللبيب ان كلّ تلك المترادفات لم توضع في اللغة على نية الوضع بل وقع ذلك اتفاقاً : إما لمنقولٍ عن الاعاجم . واما لاختلاف المدلولات في لغات القبائل المتباعدة . واما للمح صفة مقصودة يتغير بها المعنى تغيراً طفيفاً لا يُشعر به لوحدة المسمى . فالخمرة

مثلاً انما سميت كذلك لاختيار موادها فاذا قيل الراح لمح الى الروح والارتياح . او الرحيق نظر الى صفائها وطيب رائحتها . او السلسبيل قصدت سهولة مساغها وحلو جريها . ولكن هذه المميزات فقدت في الاستعمال واصبحت المترادفات متشابهة يقوم كلٌّ منها مقام الآخر مع انه لا يوجد في الاصل ترادفٌ تامٌّ في مفردات اللغة الا في ما صدر عن لغتين لقبيلتين مختلفتين كالليث والورد للاسد او نقل من لغة الاعاجم الى العربية مع بقاء اللفظ العربي فيها كالمينا من اليونانية للفرضة البحرية

وان للناظم فائدةً من هذا الاتساع اذ يتيسر له ان يلتقط من هذه المترادفات ماوافق بحره وقافيته . فقد اتفق لي اثناء التعريب ان استعملت كثيراً من اسماء الاسد كالليث والغضنفر والضرغام والقسورة والهزبر والورد والضيغم . ولكن هذه الفائدة لا تذكر في جنب ما يلقيه هذا التراكم من العثرات في سبيل المنشىء الناثر والطالب الراغب في الاحاطة باوابد اللغة وشواردها . حتى لقد يرتبك بها الشاعر في بعض الاحوال . ومن ذا الذي تحمله الدعوى الى زعم الالمام بجميع هذه المترادفات بل الى اي حافظة تعي خمسمئة اسم للاسد ومئتين للحية ومئتين وخمسين للناقة . وما عسى ان تكون الجدوى من وجود اربعمئة اسم للداهية . ونعم القول قول الثعالبي «ان اكثار اسماء الدواهي من الدواهي» . فامثال هذه المترادفات عبء ثقيل على كاهل اللغة . فانما يحسن حفظها في مطوّلات المعاجم للرجوع اليها في استجلاء غوامض الكلام والشعر القديم ضناً بذلك الذخر الثمين ان يتشتت وتذره عوامل الغموض والنسيان سدى ولكنه لا يجدر بالطلاب والكتاب ان يتشبثوا بوحشيها ومهملها لئلا تستغلق عباراتهم وتجهد قرائحهم على غير جدوى فيتعبون ويتعبون ويثقل روحهم على روح المطالع

وقد جرت للعرب منذ القديم عادة حميدة في مجاراة الزمان وسنن الطبيعة واهمال ما تقادم العهد على نبذه . فكانوا يتحاشون في شعرهم ونثرهم ايراد الالفاظ المهملة في عصرهم . وفي روايات الاصمعي كثيرٌ من كلام الاعراب المتوغلين في البداوة مما لم يكن يفهمه اهل زمانه لاهمال النطق به والعدول عنه الى مرادف اسهل واحلى . وايضاً فانهم لم يكونوا يكثرون من استعمال الالفاظ الدالة على معانٍ مختلفة الا في ما شاع من معانيها مطَّرحين ما غمض منها او احتاج الى تأويل . ولهذا كان شعر المولدين اقرب مما سواه الى فهمنا لقرب عهده منا وخلوه من كثير من غوامض الكلام . ويتلوه شعر المخضرمين ثم شعر الجاهليين . فحسبنا ان نتبع خطتهم فنبلغ بالنظر الى عصرنا ما بلغوا بالنسبة الى عصرهم فيسقط ما قضى عليه الزمن بالسقوط ويبقى ما صلح للبقاء

السلطان عبد المجيد فانه اذا خلع على أحد بقي في عائلته وكان لها حق التصرف به ويغلب ان تسترجعه الدولة بعد ان تدفع قيمته للورثة او تصرح لهم بنزع الاحجار الكريمة عنه وارجاع ما بقي

ومن عادة الدولة من هذا القبيل انه اذا أحرز أحدهم وساماً ثم أنعم عليه بوسام آخر من نفس النوع ولكنه أرفع منه درجة او درجات فعليه ان يرجع الوسام القديم ويأخذ الجديد فاذا كان أحدهم حائزاً الوسام المجيدي الرابع مثلاً وأنعم عليه بالمجيدي الثاني فعليه ارجاع القديم واستلام الجديد واما اذا أنعم عليه بالوسام العثماني وكان حائزاً المجيدي او بالعكس فلا يرجع شيئاً

البخر — رائحة الفم

﴿ شبراخيت ﴾ محمد افندي قنديل وكيل التلغراف

لي صديق كريه رائحة الفم منذ عشر سنوات وقد أعيته الحيل في معالجته وقد قيل له ان السبب في ذلك مرض في الانف فما قولكم وهل من علاج لذلك

﴿ الهلال ﴾ لرائحة الفم الكريهة أسباب كثيرة ذكرناها في الهلال العشرين من السنة الرابعة وقد يكون سببها مرض في الانف يقال له في اصطلاح الاطباء (اوزينا) يصيب الغشاء المخاطي المبطن للانف فتتساقط منه قشور دقيقة وتتصاعد عنه رائحة كريهة تظهر انها خارجة من الفم لاستطراق بينهما . وأما العلاج فيختلف باختلاف سبب العلة ولا بد من مشورة طبيب ماهر

الطاعون — تاريخ ظهوره

﴿ ترزينا — البرازيل ﴾ الياس افندي ابو مشرق

أي متى ظهر الطاعون لاول مرة وفي أي مدينة ومن اكتشف مكروبه

﴿ الهلال ﴾ الطاعون ويسميه بعض الافرنج الموت الاسود او الوباء الشرقي او الوبا الغدي ويسميه عامة أهل الشام (صوابُ) ويسميه المصريون (الكبة) هو داء فتاك شديد الوطأة ويؤخذ من المصادر التاريخية القديمة انه قديم جداً فأول مرة ذكرت فيه اعراضه في القرن الخامس عشر قبل الميلاد كما يؤخذ من نص الاصحاح التاسع وما بعده من سفر الخروج فقد قيل هناك انه ضرب اطنابه في مصر (سنة ١٤٩١ ق م) ولكنه ظهر ظهوراً عاماً بعد ذلك سنة ٧٦٧ ق م فعمّ سائر أقطار المسكونة ثم ظهر سنة ٤٥٣ ق م في رومية العظمى ففتك فيها فتكاً ذريعاً ثم ظهر في أثينا سنة ٤٣٠ ق م وامتد منها الى مصر والحبشة . ثم ظهر في الارخبيل اليوناني ومصر وسوريا سنة ١٨٧ ق م واشتد حتى كان يميت الفي نفس في كل يوم



ميكروب الطاعون

أما ميكروبه فقد اكتشفه اثنان في وقت واحد سنة ١٨٩٤ أحدهما الدكتور يرسين الن .اري والآخر الدكتور كيتازاتو الياباني وشكل هذا الميكروب قصير طرفاه مستديران يتلون بألوان الانيلين فيتشبع طرفاه من الصبغ اكثر مما يتشبع وسطه وقد لا يتلون وسطه . واذا غمس في محلول يودور البوتاسيوم فيه شيء من اليود ثم غسل

بالكحول زال اللون منه تماماً خلافاً لغيره من أنواع الميكروب . ويستنبت ميكروب الطاعون عادة في المرق والجلاتين ونحوهما مما يستنبت فيه الميكروبات الاخرى . ومن أهم خصائصه التي تبنى عليها وسائل الوقاية منه انه لاينتقل بالماء ولا يطير في الهواء كغيره من ميكروبات الاوبئة الاخرى

مطبوعات جديدة

(أشهر مشاهير الاسلام) صدر الجزء الثالث من هذا الكتاب لحضرة مؤلفه صديقنا رفيق بك العظم وفي شهرة الكاتب ورواج الجزئين السابقين مايغنينا عن الاطناب في هذا الجزء وان لم يسعنا غير التصريح بمزية هذا التأليف النفيس على سائر ماظهر من أمثاله في العربية لسلامة ذوق مؤلفه وتوخيه مايلائم هذا العصر من ترتيب المواضيع وتبويبها وتمحيص الحقائق بالمقابلة والمراجعة والقياس الصحيح على غير المألوف في مؤلفات القدماء . فضلاً عما يبديه من الملاحظات العمرانية او السياسية او الادبية في عرض الكلام

وموضوع هذا الجزء سيرة رجال عمر بن الخطاب وهم ابو عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص فقد ذكر نسب كل منهم وحاله في الجاهلية والاسلام وسيرته في قومه واسلامه وصحبته وحروبه وفتوحه وخطبه وأخلاقه وسيرته الى وفاته وكل ذلك بالتدقيق والاسهاب . ولذلك استغرقت ترجمة هؤلاء الثلاثة الجزء الثامن كله وصفحاته نحو ١٧٠ صفحة كبيرة . ويتخلل كلامه في تلك التراجم فصول انتقادية في العمال وفي القبور ودعوة المسلمين الى الاخاء وتحقيق الكلام في حريق مكتبة الاسكندرية . وخلاصة رأيه في ذلك ان هذه المكتبة احرقها الرومان قبل الاسلام وان رواية أبي الفرج الملطي عن احتراقها على يد عمرو بن العاص بأمر عمر بن الخطاب قد وضعها أبو الفرج المذكور لغرض في نفسه اذلم يذكرها أحد قبله . وهو رأي جماعة كبيرة من المؤرخين . ولما الفنا كتابنا « تاريخ مصر الحديث » منذ

بضع عشرة سنة جارينا أصحاب هذا الرأي . ثم توفقنا بتوالي البحث في هذا الموضوع الى الاطلاع على نصوص تاريخية خطية لو اطلع عليها اولئك لعدلوا عن رأيهم وسنأتي على بيان ذلك في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الاسلامي الذي يصدر في أثناء هذا الصيف ان شاء الله . ويطلب كتاب أشهر مشاهير الاسلام من مكتبة الهلال وثمن النسخة من الجزء الثالث خمسة قروش وأجرة البريد قرش

(جمعية السلام السورية) جاءنا قانون هذه الجمعية وقد تأسست في اراراكوارا بالبرازيل في ٥ نوفمبر سنة ١٩٠٣ وغايتها « العمل على دوام الالفة بين السوريين المقيمين في ناحية اراراكوارا ومساعدة من تمسه الحاجة منهم » فنثني على حضرات المؤسسين جزاهم الله خيراً

(المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية . والمكاري والكاهن) امين افندي ريحاني نزيل نيويورك من خيرة الناشئة السورية في الولايات المتحدة ومن أهل الاطلاع على آداب الافرنج وآراء فلاسفتهم المتأخرين . فتولد له رأي في السياسة والدين والهيئة الاجتماعية يظهر من خلال كتاباته مهما يكن موضوعها . وقد نهج في الانشاء العربي نهجاً خاصاً أطلق فيه العنان لقلمه على نسق لم يسبق له مثل في العربية وقد تحدى فيه بعض كتاب الافرنج ممن يتسابق القراء الى مطالعة كتاباتهم وقد كان لبعضهم تأثير كبير في تهذيب الاخلاق وبث روح الحرية — على ان هذا الاسلوب من الانشاء لا يزال غريباً على قراء العربية لحداثته — ومما ألفه ريحاني افندي في هذا السبيل كتاب « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » وهو كتاب فلسفي انتقادي سبكه في قالب هزلي وجعل الكلام فيه على لسان بعض الحيوانات وضمنه رسوماً هزلية تساعد على بيان غرضه من ذلك الكتاب . ومن هذا القبيل كتابة « المكاري والكاهن » وفيه انتقاد على بعض أحوال الكهنة . والكتابان يطلبان من ادارة جريدة الهدى في نيويورك

(جرائد ومجلات) (١) الحاقي : هي جريدة اسلامية سياسية ادبية تصدر بمصر مرة في الاسبوع لصاحبها « غازي جهان بك زاده علي حاقي بك » بدل اشتراكها جنيه مصري في الممالك الاسلامية وثلاثون فرنكاً في سواها (٢) السعادة العظمى : هي مجلة علمية اسلامية تصدر في تونس الغرب مرة كل شهر لمنشئها عبده محمد الخضر بن الحسين بدل اشتراكها ثمانية فرنكات في المملكة التونسية وعشرة في الجزائر وطرابلس

و ١٢ في سواها (٣) الاجابة : هي جريدة تجارية زراعية تصدر بمصر مرة بالاسبوع باسم « شركة الشهيلات العمومية » اشترا كها قرشان في الشهر (٤) الصواب : جريدة علمية سياسية أدبية تصدر في تونس الغرب لصاحبها محمد بن فرحات الجابي بدل اشترا كها ثمانية فرنكات بتونس وعشرة في الجزائر و ١٣ فرنكاً في سائر البلاد (٥) المنهل : هي مجلة علمية تاريخية أدبية تصدر بمصر مرة في الشهر لمنشئها عطيه افندي حنا قيمة الاشتراك ٣٠ قرشاً بمصر و ٤٠ في الخارج (٦) الفق القبطي : نشرة دينية تهذيبية تصدر بطنطا مرة في الشهر لمحررها الشماس باسيلي بطرس واعظ بكنيسة طنطا اشترا كها خمسة قروش في السنة (٧) شريف : جريدة سياسية تصدر في لاهور (الهند) في اللغة الاوردية مرة في الاسبوع لمنشئها السيد جالب دهلوي • فتمنى لهذه الجرائد والمجلات الثبات والنجاح

(روايات) (١) زواج التوأمين : هي رواية ادبية غرامية تعريب علي افندي فهمي الالفي وسيد افندي كامل وتطلب منهما بمصر (٢) في بيوت الناس : هي رواية تهذيبية ادبية عصرية تأليف « شاب فقير » تشتمل على حوادث شهدها بطل الرواية بعينه وثمن النسخة قرشان والبريد ٢٠ بارة (٣) اسرار ديوان التفتيش : وهي الرواية السادسة من حديقة الفكاهة واسمها يدل على موضوعها ثمن النسخة قرشان وتطلب من المكتبة الشرقية بمصر (٤) تاج الملوك : هي رواية تمثيلية ادبية حكمية ذات خمسة فصول لمنشئها ابراهيم افندي عناني بمدرسة الحقوق الخديوية وهي تباع في مكتبة الهلال وثمن النسخة ثلاثة قروش والبريد نصف قرش (٥) مكارم الاخلاق في أحوال العشاق : هي رواية أدبية شعرية نثرية تأليف الفقيد جرجس افندي زكي كاتب بالمحكمة المختلطة سابقاً ثمن النسخة خمسة قروش وأجرة البريد نصف قرش

(تقاويم) (١) تقويم المساحة : هو روزنامة هجرية لسنة ١٣٢٢ عملت في ادارة عموم المساحة التابعة لنظارة الاشغال العمومية وفيه من الفوائد الزراعية والاحصائية والادارية الرسمية وغير الرسمية ما لا يوجد في سواه ويطلب من مكتبة الهلال وثمن النسخة قرشان ونصف والبريد قرش (٢) نتيجة قبطية مصححة لسنة ١٦٢٠ للشهداء صدرت من بطركخانة الاقباط الكاثوليك مصدرة بصورة غبطة بطريركها وهي تطلب من هناك (٣) مطبوخ المكتبة العمومية : وهو المعروف بمطبوخ الارمن ترجمه عن الارمنية الخوري سوكياس ورتبيت جريان الارمني الكاثوليكي وطبع بنفقة المكتبة

العمومية في بيروت ويطلب منها وثمن النسخة قرش ونصف خالص أجرة البريد

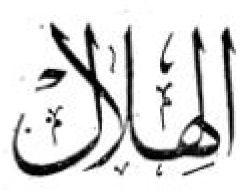
(مشروع ارثوذكسي في نيويورك) ورد الينا تقرير عن خلاصة مشروعي انشاء كنيسة واقتناء مقبرة لابناء الطائفة الارثوذكسية في نيويورك ويليه وصف حفلة تدشين الكنيسة المذكورة كما روته الجرائد العربية مع رسوم اكثر مشاهد الحفلة ونبذة في نشأة الكنائس المسيحية وتغير هيأتها الداخلية والخارجية وما فيها من الآنية ونحوها بقلم سيادة المطران رفائيل هواويني الدمشقي اسقف الطائفة الارثوذكسية في اميركا فنهنئ اخوتنا الارثوذكسيين بسيادة المطران ومشروعاته ونرجو لهم التوفيق على يده

(ديوان الهمذاني) بديع الزمان الهمذاني مشهور بمقاماته التي نسج الحريري على منوالها ولم نكن نعرف للهمذاني شعراً مجموعاً في ديوان حتى عني حضرة الشيخ عبد الوهاب رضوان ومحمد شكري افندي المكي بنشره عن نسخة خطية كانت عند سعادة احمد بك تيمور مصححة بقلم الشيخ الشنقيطي فجاء كتاباً في نيف وثمانين صفحة تحوي نحو الف وستماية بيت من الاشعار البليغة وهو يباع في مكتبة الهلال وثمنه ٥ قروش صاغ والبوسطة قرش

(نتيجة الفرضيين في تبين فرائض الوارثين) هو كتاب في المواريث لحضرة الشيخ حسن حسين الملاحة الفوي وضعه على مذهب الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان في شكل جداول مطولة يستخرج بها الجواب على أي سؤال من مسائل المواريث بأقرب سبيل والكتاب يطلب من مكتبة الشيخ محمد علي المليجي بمصر

(القوانين الجديدة) احدثنا المطبعة العمومية بمصر مجلداً فيه قانون العقوبات الاهلي المصري بموجب الامر العالي الصادر في هذه السنة وقانون تحقيق الجنايات بموجب ذلك الامر وملحق التعديلات على لائحة ترتيب المحاكم الاهلية وتعيين اختصاص كل محكمة والقاعجلة اوامر · والكتاب بجملته يطلب من المطبعة المذكورة ومن مكتبة الهلال وثمن النسخة منه عشرة قروش وأجرة البريد قرش

(البورصة) هي رسالة في البورصة وأعمالها وحالاتها وايضاح كثير من اصطلاحاتها التي لا تزال مغلقة على كثيرين وفي ذيل الرسالة قصيدة في وصف البورصة وتحذير الناس من حبائلها تأليف حضرة نسيم افندي العازار وتطلب من حضرته ومن سائر المكاتب وثمن النسخة قرش والبريد عشر بارات



الجزء السادس عشر من السنة الثانية عشرة

﴿ ١٥ مايو (ايار) سنة ١٩٠٤ و٢٩ صفر سنة ١٣٢٢ ﴾

جمعية الصليب الاحمر والحرب

﴿ الحرب ﴾ اختلف كتبة العمران في تعريف الحرب · وتعريفها بالحقيقة بسيط ولكن السبب في ذلك الاختلاف اختلافهم في الجهة التي نظروا منها · فقال بعضهم « الحرب اختلاف بين فريقين يفصل بقوة السلاح » وقال غيرهم « الحرب داء الامراء » وقال اميل دي جيراردين الكاتب الفرنساوي « الحرب عبارة عن القتل والسلب تعلمهما الحكومة للشعب بكمالها الفخر وتضرب لها قبب النصر » وآخرون يعدّ الحرب من ضروريات الحياة كما يعدون الاوبئة الوافدة اذ بدونهما تضيق الارض بمن عليها · وقد قدروا عدد الناس الذين ماتوا بالحرب من اول التاريخ الى اليوم بنحو ٧٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نفس اي نحو خمسة اضعاف سكان الكرة الارضية · واذا اعتبرنا مضاعفة هذا العدد بالتناسل على توالي الاجيال بلغ شيئاً كثيراً وتحقق عندنا ان الارض تضيق عنه · فالحرب بهذا الاعتبار ضرورية مثل كثير من الشرور التي يعرف الناس اضرارها وتنزل الشرائع في تحريمها وتسعى الحكومات في منعها ومع ذلك فانها باقية على ممر الاجيال والقرون وستبقى الى ما شاء الله

وقد كتب في الغاء الحرب وسعى في ابطالها جماعة كبيرة من عظماء الرجال وفحول الكتاب في اوربا واميركا في اواسط القرن الماضي · فكتبوا الكتب والمقالات وعرضوا تشكيل جمهورية عامة اعضاؤها ينتدبون من امم العالم المتمدن في اوربا واميركا وانشاء محكمة دولية تحلّ ما قد ينشأ من الخلاف والمشاحنات بالتحكيم · فعقدوا المؤتمرات والقوا

الجمعيات والقوا الخطب في هذا السبيل والدول صامتة لا تبدي حراكاً كأنهم يصيحون في واد او ينفخون في رماد · فتبادر الى اذهان الناس في سبب ذلك الفشل ان الدول الكبرى التي يحكمها الملوك تطمع في الفتح ولا يطمع في ذلك الا اصحاب الحكم الملكي وخصوصاً المطلق · اما الجمهوريات فلا تطمع للفتح او الاستعمار · فقام بالامس اكبر ملوك الارض اطلاقاً واستبداداً واقدرهم على تجريد الجيوش نعني به قيصر الروس الحالي فدعا الدول الى عقد مؤتمر للسلم غايته نزع السلاح وابطال الحروب · فسايروه وعقدوهُ في لاهاي ولكنه لم ينفرط عقده حتى اتشبت الحرب في الترانسفال ثم في الشرق الاقصى وصاحب الحرب الاخيرة هو الذي دعا الدول الى السلم

فالحرب مع ظهور ويلاتها وفظائعها يظهر انها ضرورية باقية — على ان بقاءها يدلُّ في كل حال على ضعف الانسان وتسلط القوة الحيوانية فيه على القوة الانسانية · وفي اعتقادنا ان الحروب من اكبر الادلة على بقاء البشر بعيدين عن التمدن الحقيقي · فهل قدّر للانسان ان يبقى كما كان على عهد قايين وهابيل يقتل اخاه منافسةً على بلغة او حسداً منه على مجد باطل لا حقيقة له الا في تخيلاته واوهامه ؟

واغرب من ذلك قيام جمهور من مشاهير الكتبة للدفاع عن الحرب وفيهم جماعة من رجال النصرانية كالقديس اوغسطينوس ولوثير المصلح الشهير ناهيك بالفلاسفة والعلماء والشعراء مثل باكون ودانتي ومونتسكيو وغيرهم وفي اعتقادهم ان الحرب ما زالت من قديم الزمان من اقوى دعائم الوطنية · ومن ادلتهم على ذلك ان الحروب عبارة عن احتكاك المواهب والقوى والاحتكاك يعقبه في الغالب نهضة عامة كما حدث على اثر فتوح الاسكندر من نشر العلم وتوسيع نطاق التجارة وكما عقب الحروب الصليبية نهضة افاقت بها اوربا من غفلتها بما اقتبسته عن المسلمين في اثناء تلك الحروب · وينسب غيرهم الى الثورة الفرنساوية وحروب نابوليون نشر مبادىء الحرية والمساواة في العالم · وردَّ غيرهم بان تلك النتائج لم يكن منها بدٌّ ولو لم تحدث الحرب

ومهما يكن السبب فالانسان لم يستطع ابطال الحرب حتى الآن فهي ملاصقة للبشر ومرافقة لدولهم وشعوبهم وهم يبذلون الوسع في استنباط الوسائل المهلكة والآلات المدمرة كالطوربيد والالغام والقنابل المفرقعة والمدافع الرشاشة وغيرها مما يضمن الظفر · فلما رأى العقلاء واهل الحنان ذلك حولوا عنايتهم الى تخفيف ويلات الحروب بقدر الامكان فوضعوا لها القوانين والشرائع والحدود وبينوا الحقوق المتبادلة للدول

والف بعضهم الجمعيات لمعالجة الجرحى والمصابين في ساحة الحرب وهي ما يعبرون عنها بجمعيات الصليب الاحمر

(جمعيات الصليب الاحمر) ويراد بها الجمعيات التي تشكلت لاعالة الجرحى في الحرب وهي حديثة لم يمض على انشائها نصف قرن . واما قبل ذلك فربما تبرع بعض الناس باعالة الجرحى بلا قياس ولا قاعدة وكان العرب قبل الاسلام وبعيده يعول الجرحى في حروبهم النساء يحملن القرب والضمائد ويطفن ساحة الحرب يسقين العطاشى ويضمدن جراح الجرحى وكان يحدث نحو ذلك في بعض الامم الاخرى مما لا يشفي غليلاً حتى تأسست جمعيات الصليب الاحمر

وقد سموها بهذا الاسم اشارة الى جمعية تألفت في أوائل القرن الحادي عشر للميلاد في أورشليم . وسبب تأليفها ان مدينة أمالفي في ايطاليا اشتهرت منذ القرن العاشر للميلاد بالتجارة فكان أهلها اكثر تجار الارض انتشاراً في الشرق وخصوصاً مصر وفلسطين فكانوا اذا قدموا أورشليم شاهدوا ما يقاسيه الحجاج اللاتين من العذاب في أسفارهم وخصوصاً اذا اصابهم مرض او فاقة . فتقدم جماعة من أولئك التجار سنة ١٠٢٣م الى الظاهر بالله الخليفة الفاطمي بمصر ان يأذن لهم بانشاء بيمارستان (مستشفى) في أورشليم لاعالة المرضى والفقراء من حجاج اللاتين . فاذن لهم فانشأوه باسم القديس يوحنا وادارة شؤونه في ايدي اخوية انقطعت لهذه الغاية وتكاتف اغنياء أوروبا على اعانته وبذلوا الاموال الطائلة في تنشيطه . وكان أعضاء تلك الاخوية او الجمعية يسمون Hospitallers نسبة الى Hospital اي بيمارستان . وكانوا يمتازون عن سائر الناس بلابس خاصة مثل سائر أخويات تلك الايام المعروفة باخويات الفرسان . فكان الفرسان الهيكليون مثلاً يتشحون برداء اسود عليه صليب ابيض والفرسان البيمارستانيون كانوا يتشحون بأردية بيضاء عليها صلبان حمراء والفرسان التيوتونيون كان صليبهم اسود على رداء ابيض

فلما أراد أهل القرن الماضي انشاء جمعية لمعالجة جرحى الحرب اتخذوا الصليب الاحمر شعاراً لهم لانه كان شعار جمعية غرضها مثل غرضهم — واليك ما جاء في كتاب « حقوق الملل في الحرب » للامير امين ارسلان قال :

« والفضل في الانتباه لحالة الجرحى والاشارة بوجوب استنباط طريقة لسرعة معالجتهم وتمريضهم يعود الى رجل سويسري الاصل من أهل البر والاحسان يدعى هنري دونان وكان قد تفقد عام ١٨٥٩ ساحات الحرب التي نشبت بين فرنسا والنمسا في شمالي ايطاليا

وشاهد اهم معاركها المعروفة باسم سولفرينو وكان قد سقط بها اربعون الفاً بين جريح وقتيل ونحو ذلك العدد من المرضى وكان قد اخذ على نفسه الاعتناء بمواساة الجرحى ومعالجتهم فشاهد بلواهم بام عينه وسمع انينهم وعويلهم وبكاءهم باذنيه مما تتفطر له القلوب فنشر بعد الحرب كتاباً سماه تذكار سولفرينو شرح فيه ما رآه ووصف حالة أولئك احسن وصف مما أهاج العواطف وأثار الحاسات الانسانية في عموم الطبقات ومختلف البلدان وشاركه في جهاده الخيري جمعية خيرية سويسرية • وكانت الغاية أولاً تأليف الجمعيات في كل البلاد لمساعدة جرحى الحروب • ولكن أشار بعض الالمان بوجوب تعاهد الدول على صيانة تلك الجمعيات وعدم التعرض لها وغير ذلك مما استلفت انظار الحكومة السويسرية فدعت في ٦ يونيو سنة ١٨٦٤ جميع الحكومات الاوربية والاميركية لعقد مؤتمر دولي في جنيفيا وساعدت فرنسا ذلك المشروع كثيراً فتم انعقاده في ٨ اوغسطس ووضعوا مشروعاً قرروا فيه كيفية معاملة الجرحى في حومة الوغى وصادق عليه معتمدو الدول الاوربية اجمع ووافقت عليه أخيراً تركيا والعجم واليابان وسيام والكونغو وغيرها وأضيف الى ذلك المشروع بنود خاصة بالمعارك البحرية لم يتم مصادقة الدول عليها حتى الآن • ولا يسعنا في هذا المختصر الا اقتطاف اهم ما جاء في ذلك المشروع من الامور التي تختص بمعاملة جرحى الحرب

١ — قرروا وجوب حياد المستشفيات وعدم ضربها أو مسها اذا كان فيها مريض او جريح على شرط الا يكون فيها جند ما لاي عذر كان سواء للهجوم او الدفاع

٢ — صيانة الاطباء والممرضين والجنود النقالة والكهنة • فاذا وقعوا في قبضة العدو لا يمكن عدهم أسرى حرب ولكنهم اما يبقون في اجراء وظيفتهم عند العدو واما يرجعون الى معسكرهم مخفورين وليس في ذلك المشروع ذكر للجمعيات الاخرى التي تتألف عادة عند انتشاب الحرب لمساعدة الجرحى ولكنهم في الغالب يحسنون معاملة القائمين بها • والسكان الذين يعتنون بالجرحى يعفون من ضرائب الحرب وغرائمها

٣ — الاعتناء بجميع الجرحى على السواء بقطع النظر عن مللهم او اجناسهم او مذاهبهم ويحق للقواد اعادة الجرحى الى معسكرهم اذا تعذر عليه تمريضهم

٤ — اعادة الجرحى الذين لا يصلحون للحرب بعد شفائهم الى بلادهم

٥ — لا يحق لاحد التعرض لعجلات الجرحى او لقطرها الا اذا كان سيرها مضراً بحركات الجند وترتيب صفوفه فيحق للقائد اجبارها على السير في طريق آخر

وقد اتفقوا تسهيلاً لتمييز تلك العربات وعمال تلك المستشفيات على علامة تظهر عن بعد فاختاروا العلم السويسري اعترافاً بفضل تلك البلاد على هذه الجمعية وهو صليب احمر على علم أبيض يرفعونه على قمم المستشفيات او على ظهور العربات والقطارات ويتقلده الممرضون والمستخدمون على سواعدهم

وقد ابدلت الدولة العثمانية الصليب الاحمر بهلال احمر أبان الحرب الاخيرة مع الروسية وصار الهلال من ذلك العهد علامة مستشفيات الدول الاسلامية وأشار البعض بوجوب اختيار علم آخر جديد ليس فيه اشارة الى ديانة او انتماء الى أمة

وأثارت هذه المسألة خلافاً شديداً بين الفرنسويين والبروسيين في الحرب السبعينية واشتد الاحتجاج بين بسمارك والكونت دي شودردي من أجل كيفية معاملة الجرحى وكان كل فريق يلقي الذنب على الفريق الآخر بلا جدوى ولا طائل

وأما الدولة الروسية فقد جمعت في كراس صغير جميع التعليمات اللازمة لهذا الشأن ووزعته على جنودها وكلفتهم حفظ قواعده والعمل بموجبه » اه

وفي صدر هذا الهلال صورة وفد من الممرضين والممرضات قد اوفدتهم جمعية الصليب الاحمر الروسية الى الشرق الاقصى وأعضاء هذه الجمعية من النساء والرجال وادارتها بيد الدكتور ارابورف • وزعيمها البرنس مستشرسك مستشر سكايا • وقبل سفر هذا الوفد ذهبوا لمقابلة القيصر وامرأته ووالدته • وقد بلغ عدد الذين أوفدتهم هذه الجمعية الى ساحة الحرب ٧٤٤ نفساً وفيهم الاطباء والتلامذة والممرضات والمساعدون ومعهم من المعدات ملء ٧٤ عربة « واكون » وفي جملة ذلك ٨٫٨٧٥ فرشة وكثير من الالبسة واللفائف والعقاقير ويستعدون لارسال ٤٤٥ شخصاً آخرين مع ٦٣ عربة فيها كل اللوازم و ١٫١٢٥ فرشة

أما اليابانيون فقد تقدم انهم وافقوا على انشاء تلك الجمعيات وكانوا قد نكبوا بالثورة الاهلية ورأوا من غوائل الحرب عشرات الالوف من جرحاهم ليس لهم من يعولهم فانشأوا جمعية سموها « هاكو أيشا » اي جمعية الاحسان العمومية فلما اتفقت دول أوربا على انشاء جمعيات الصليب الاحمر سموا جمعيتهم هذه جمعية الصليب الاحمر اليابانية واعضاؤها نحو ٩٠٠٫٠٠٠ نفس ولهم عناية كبرى في تدريب الممرضات على اعالة الجرحى في الحرب فتقضي الممرضة في ذلك ثلاث سنوات في درس متواصل • وعند الجمعية المذكورة جيش طبي مؤلف من ٢٧٩ طبيباً و ١٫٥٥٨ ممرضاً وممرضة و ٦٤٠ مساعداً غير التلامذة •

وفي طوكيو مستشفى خاص بهذه الجمعية لدرس التمريض وقد فتحت ابوابه في حال السلم لمعالجة الفقراء مجاناً . اما في حال الحرب فيتحول حالاً الى مستشفى عسكري يرسلون منه الممرضين والممرضات وفوداً وفي هذا الرسم وفدٌ من الممرضات ومعهن رئيستهُ على مركبة يجرها الرجال وعليهن ملابس خاصة بهذه الجمعية



وفد من الممرضات اليابانيات

مرسل من جمعية الصليب الاحمر اليابانية الى ساحة الحرب

قال محمد الوراق :

سأُلزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وان عظمت منه علي الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذي فوقي فاعرف قدره ... واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فان قال صنتُ عن ... اجابته نفسي وان لام لائم
وأما الذي مثلي فان زلَّ او هفا ... تفضلتُ ان الحرَّ بالفضل حاكم

تاريخ علم الادب

عند الافرنج والعرب — لكاتب فاضل

٣٦ — الديانة المسيحية والادب

وعدا هذا ففي التاريخ الذي انتشرت فيه الديانة المسيحية حدث في العالم انقلاب كبير لم يتيسر معه ان لا يحصل انقلاب في العقول . لان الانقلابات التي حدثت قبل ذلك التاريخ كانت عبارة عن سقوط دولة وقيام أخرى ولم يكن لذلك تأثير كبير في قلوب العموم . بل المصيبة الحاصلة من تلك الانقلابات كانت كالصاعقة لا تصيب الا الاماكن العالية والمقامات المرتفعة فعبروا عنها باشعار الحماسة . ففي الاجتماع الانساني القديم كان الفرد سافلاً حتى كانت المصائب لا تؤثر عليه الا اذا نزلت بيته وأصابت أهله . ولا يعرف الواحد من أهل تلك القرون الخالية البؤس ولا التعاسة خارج الآلام البيتية . ولا كان يسمع في تلك الاجيال بأن المصائب العمومية الحادثة في المملكة تمس المعيشة الفردية . فلما حدثت تلك الانقلابات الكبيرة ابان انتشار الديانة المسيحية وأصبحت الامم الاوروبية في هرج ومرج يتلاطمون كالامواج في البحر العجاج وانقرض التمدن القديم باستيلاء الاقوام البربرية على ممالك الرومان حدث من ذلك تأثير في قلوب العامة وانفعال في نفس كل فرد من افرادهم . وأخذوا يفكرون في مصائب الدهر ومرارة الحياة وعرفوا بأن هذه الدنيا الفانية ما هي الا هزؤ ولعب وكدر وتعب لا ينبغي للعاقل ان يغتر بها . فهذا الشعور الذي ولد اليأس في قلوب المشركين كما علم من حال الاديب الروماني قاتون ، ولد في قلوب المتنصرين الماليخوليا وهي السوداء

وفي ذلك التاريخ أيضاً تولد فكر التجسس والاختبار . لان تلك الوقائع العظيمة كانت أشبه برواية كبيرة مثلت على مرسح الدنيا وشهد المتفرجون عواقبها المدهشة .

فهذه الوقائع عبارة عن وثبة وثبها الشمال على الجنوب وتغير بسببها شكل العالم الروماني . فأصبح يقاسي نزاع الموت وبلغت روحه التراقي . فلما مات هذا العالم قام جمهور من النحويين والبيانيين والسفسطائيين يتقاتلون على جنازته ويقلبون جسده الذي لاحراك به . ويشرحون ويفسرون ويسبرون ويحللون ويناقشون ويجادلون كانهم ذباب يتساقط على جيفة التمدن القديم . فمن سعادة هؤلاء المشرحين للعقول وحسن حظهم انهم وجدوا جيفة يجرون عليها اول تجاربهم ويسبرون قروحها بمباضعهم . فكان اول جسد شرحوه جسد امة ميتة

وعلى هذا الوجه نرى الآن ظهور جنية الماليخوليا والتفكر بجانب عفريت التحليل والتضاد . ونجد في أحد طرفي هذا الدور الانتقالي البياني الشهير لونجين (٢١٠ — ٢٧٣ م) ولد في حمص من سوريا والف باليونانية في علم البيان رسالة الاعجاز التي ترجمها بوالو للفرنساوية . ونجد في الطرف الآخر القديس اوغوستين (٣٥٤ — ٤٣٠ م) صاحب المؤلفات اللاتينية . فجميع أدباء القرون الوسطى استقوا افانين العلم والادب من حياض الروم في القسطنطينية . ولا يجوز لنا احتقار هذا الدور الانتقالي من أدوار الادب لان فيه النطفة التي تخلقت وولدت وكبرت حتى صارت عروساً تتمتع اليوم بديع جمالها . فكتبة ذاك الدور — وزجوا بعضهم هذا التعبير الحر مع انه سوقي مبتذل — زبلوا رياض الادب ليجني المتأخرون ثمارها

فحيث كان هناك دين جديد وأمة جديدة اقتضى ان ينشأ على هذين الاساسين أبنية جديدة في الشعر . لان شعر المتقدمين كان حماسة صرفاً وبسبب تأثير الدين الوثني والفلسفة القديمة كان الشعراء لايدرسون من الطبيعة الواجب عليهم تقليدها الا وجهاً واحداً وهو وجه الجمال . وينبذون وراء ظهورهم جميع مالا علاقة له بشيء من نموذج الجمال بدون ان تأخذهم رأفة على صناعة الادب المقتضى لها تقليد ما في الطبيعة من خير أو شر . فهذه الطريقة كانت في بادئ أمرها معتبرة . ولكن باضطرادها على قياس واحد زال رونقها وذهبت طلاوتها ونقصت قيمتها كما هو شأن كل ما اضطرد على وتيرة واحدة . فلما ظهر الدين المسيحي جرّ الشعر الى الحقيقة

ووضعه في مكانه . وصارت قريحة الشاعر النصراني ترى الموجودات بعين أوسع وأرق مما كانت تراها قريحة الشاعر الوثني . فشعرت هذه القريحة الجديدة بأن المخلوقات ليست كلها جميلة باعتبار الانسان بل الشنيع منها بجانب الجميل والمستظرف بقرب المستقبح والشر اكثر من الخير والظلام سابق النور والجد مخلوط بالهزل وكلام السخرية وراء الاعجاز بالفصاحة . فقالت القريحة في نفسها :

أحكمة الشاعر النسبية الجزئية أحسن من حكمة الخالق المطلقة الكلية ؟

أبلغ من حد الشاعر ان يقوّم ما اعوجّ على زعمه من خلق الله ؟

وهل الابتر والاجدع والاجذم أجمل من كامل الاعضاء ؟ وهل يحق لصناعة الادب ان تنزع بطانة الثوب الذي تردت به الانسانية والحياة والمخلوقات ؟

وهل يجوز نزع عضلة من الجسم او لولب من الدولاب ان أريد انتظام دورانه ؟

وهل من الواجب على المطرب ان لا يعرب ؟

ثم نظرت هذه القريحة الجديدة في وقائع العالم فوجدتها مضحكةً مرهبةً معاً واعتراها المزاج السوداوي بسبب الاعتقاد المسيحي وأثر عليها أيضاً الانتقاد الفلسفي المستفاد من ذلك الدور الانتقالي فخطت في الادب خطوة كبرى زلزلت بها العالم العقلي وقلبت عاليه سافله وحذت في الشعر حذو الطبيعة وخلطت في اختلاق المعاني النور مع الظلام وكلام السخرية مع الاعجاز بالفصاحة بدون ان تمزج أحدهما بالثاني . و بتعبير آخر جمعت في الشعر بين النفس والجسد و بين الحيوانية والنطق . لان الشعر والدين متلازمان والنقطة التي يدير منها أحدهما يسير منها الآخر . فأوجدت في الشعر نموذجاً جديداً وأسلوباً غريباً بالنظر المتقدمين . وشرطت فيه شرطاً قلب شكله وأصلح قالبه . فهذا النموذج وهذا الشرط هو كلام السخرية الذي يظهر في قالب الكوميدية . فهذا هو الفرق الذي يفرق في نظرنا بين صناعة الادب الجديدة وصناعة الادب القديمة وبين الشكل الجديد الحي والشكل القديم الميت . او بتعبير اشهر من هذا ولو كان مبهماً هذا هو الفرق بين ادب الطريقة الرومانيـة وادب الطريقة المدرسية . فيقول لنا حينئذ اهل الطريقة المدرسية :

ـ ها نحن أمسكناكم واخذناكم بالسنتكم . انتم تتخذون من القبيح نموذجاً للتقليد ومن كلام السخرية اسلوباً لصناعة الادب ؟؟؟ ولكن اين اللطافة في ذلك اين حسن الذوق ؟ اما تدرون ان صناعة الادب ينبغي لها ان تقوّم ما اعوج من الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الواجب عليها اعلاء شأن الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الاجدر بها انتخاب الاحسن مما في الطبيعة ؟ هل ادخل المتقدمون القبيح او السخرية في كلامهم ؟ هل مزجوا الكوميديا بالتراجيديا ؟ فاتبعوا يا سادة اساليب المتقدمين واقتفوا في فنون الادب اثر ارسطو و بوالو ولاهارب ...... الخ

— وفي الواقع ان حجج اهل الطريقة المدرسية دامغة . ولكن لسنا مكلفين بالرد عليهم لاننا لا نريد وضع قواعد جديدة ولا تقييد العقل بالعقال كما قيدوه . اذ حمانا الله من القواعد . . وانما نحن حققنا وجود امر . فنحن مؤرخون ولسنا منتقدين ولا مشرعين . فهذا الامر موجود سواء اعجبهم اولم يعجبهم . فقريحة الشعر الجديد تولدت من انضمام نموذج السخرية بالكلام الى نموذج الاعجاز بالفصاحة . وهي غزيرة المنبع في ابتكاراتها مختلفة الاشكال في تصويراتها . بخلاف الشعر القديم فانه وحيد الشكل وحيد الاسلوب لبساطته واضطراده على وتيرة واحدة . فهذا هو الفرق الحقيقي والاساسي بين ادب الطريقتين الرومانية والمدرسية

نعم ان المتقدمين لم يجهلوا بالكلية حقيقة الكوميديا ولا السخرية التي نحن بصددها اذ لا بد لكل شيء من اصل . وجرثومة الدور الثاني لا بد ان تكون في الدور السابق عليه . ففي الالياذة كل من (فولكين) و(تيرسيت) نموذج لهذه السخرية والكوميديا . والاول مثال للآلهة وقد مر ذكر السبب في عرجه وليس على اعرج من حرج . والثاني مثال للبشر ووصف هوميروس في الفصل الثاني من الالياذة هذره في المنطق وهذيانه في الكلام وبين كثرة جلبته واستهزائه بجميع الناس حتى بالملوك . فكان في محاربة تروادة مضحكة اليونان يسخر بهم ويسخرون منه لان فيه جميع النقائص والعيوب . ومن امثلة السخرية ايضاً مكالمة منيلاس مع بواب القصر في رواية (هيلانه) التي نظمها الشاعر اليوناني اوريبيد في القرن الخامس قبل الميلاد

ومن السخرية أيضاً ما نراه عند اليونان من الاشخاص الخارقة للطبيعة كالذي نصفه الواحد انسان ونصفه الآخر سمكة والذي بعين واحدة في جبهته وعرائس الجن اللواتي يظهرن على الانس كانهن حور الجنان كل واحد من ذلك نموذج للسخرية . غير ان ادباء اليونان الاقدمين لم يتمكنوا من ايفاء هذا الموضوع حقه بسبب ما في اشعار حماستهم من الفخامة وما في رواياتهم من العظة والجلالة . فالسخرية في كلامهم ليست في موقعها لانها مستورة بجلالة الشكل الحماسي . واسلوب الحماسة يفوق فيها على أسلوب السخرية ويمنعها من الظهور والبيان . بخلاف الادباء المتأخرين فان أسلوب السخرية له في شعرهم ورواياتهم موقع مهم . وهو في كل موضع من كلامهم . ويصورون بهذا الاسلوب الشناعة والفظاعة من جهة والهزء واللعب من جهة اخرى . ويلحقون به في الدين الف وسوسة وأباطيل غريبة وفي الشعر الف معنى مبتكر وتصور بديع فأسلوب السخرية هو الذي اوجد في القرون الوسطى جميع هذه المخلوقات التي اعتقد الناس وجودها بين الانسان والله من عوالم الجن والروح والملك وملؤا بها الهواء والماء والارض والنار فلم يبق محل في الفضاء الا وهي ساكنة فيه . ومنها من هو على اكتافنا يكتب أعمالنا ومنها من يأكل ويشرب معنا من طعامنا وشرابنا ومنها من يلبسنا لبس الجلد على اللحم ولا يخرج منا الا بالضرب الشديد والتعذيب . وهذه السخرية هي التي جعلت لشيطان النصارى قرون التيس وأرجل الخنزير وأجنحة الخفاش وجرت الشاعر دانتي الطلياني وملتون الانكليزي الى تصوير تلك الصور الجهنمية العجيبة ووصفها بالاوصاف الهائلة والاشكال المخيفة . حتى جاء في القرن السادس عشر المصور الشهير ميكل انجلو ونقش على جدار كنيسة في الفاتيكان الذي يسكنه البابا صورة مفخمة بديعة سماها اليوم الآخر وهو يوم العرض والحساب . ولو قرا القرآن الكريم لصور جهنم ترمي بشرر كالقصر كانه جمالة صفر . ومن أمثلة هذه السخرية أيضاً الخادم الجني ميفستوفلس المرافق لفوست في الرواية المتقدم ذكرها ومنها الساحرات التي مركزهن في رواية ماقبت وأنواع كثيرة من الخدام والرصد القائمين على حفظ الكنوز المخفية والعيون الجارية والاشجار الكبيرة . وكذا الحوت الذي يظهر في

البحر كالجزيرة المعشبة والثعابين التي تحاكي في الضخامة الفيلة وتحرق بنفسها كل مخضر ونحوذلك . فالمتأخرون عبروا عن جميع ماذكر بكلام أفصح وأبلغ من كلام المتقدمين

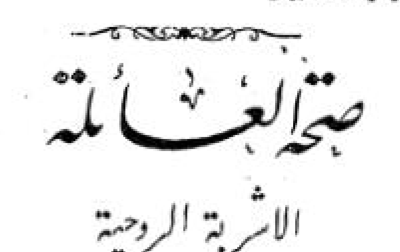
فأسلوب السخرية ماهو في نظرنا الا ضد قام بجانب أسلوب الاعجاز بالفصاحة ليميزه ويظهره . لان الاشياء تتميز بضدها . فهو أغزر المنابع التي فتحتها الطبيعة لصناعة الادب . فطريقة المتقدمين أورثت الملل والكلال باضطرادها على نسق واحد ومراعاتها لاسلوب واحد وهو أسلوب الاعجاز . لان الاعجاز على الاعجاز والبلاغة وراء البلاغة والبيان تلو البيان متعب للفكر مجهد للذهن . فاذا فصل بينها بكلام السخرية تفكه العقل وارتاح مما أجهده واضناه واستأنف السير نحو الاعجاز وهو في نشاط وارتياح بسبب توقفه بكلام السخرية والهزل . ثم لا يخفى ان الجميل اذا قرن بالقبيح زاد جماله رونقاً وصفاء وتلألؤا واعتلاء ولذا كانت الجنة التي وصفها ميلتون ألذ وأشهى من جنان الايليزه التي وصفها هوميروس وفرجيل . لان ميلتون صور تحت جنة عدن جهنما أشد دهشة ونكالاً من (تارتار) المتقدمين . ولولم يصف لنا دانتي حبس ذلك الجبار العنيد في برج مدينة بيزه وسد باب البرج عليه حتى هلك جوعاً بعد ان اكل أولاده لما وجدنا طلاوة لحسن فرانسواز دو ريمني ولا لجمال بياتوريس التي دخلت به بجنان النعيم اذ لو لم يكن في كلامه تلك الشدة والقسوة والعذاب الاليم لما كان فيه تلك الحلاوة الرائقة والعذوبة السائغة

ففي شعر المتأخرين الاعجاز بالفصاحة يشبه النفس الناطقة المطمئنة بتعاليم النصرانية . والسخرية أي الهذر بالكلام يشبه الجسد الحيواني الذي في الانسان . فالنموذج الاول بتجرده من الهذيان وسلامته من العيوب حاز كل الحسن والجمال والرشاقة والاعتدال والجذب واللطافة والرقة والحلاوة . واخرج من خدور الافكار عرائس مثل جوليت واوفيليه اللتين صاغهما شكسبير في رواية روميو وجوليت ورواية هاملت . ولعلهما تشبهان ليلى التي افتتن بها قيس العامري على عهد الدولة الاموية ولقب لاجلها بمجنون ليلى . وفاطمة التي هام بحبها امرء القيس وقال لها « افاطم مهلا بعض هذا التدلل » . والنموذج الثاني ظهرت فيه جميع العيوب

والعلل واتصف بالبشاعة والشناعة والهذيان والانهماك في الشهوات الحيوانية والرذائل الدينية وفي جر المنافع ولو بايقاع المفاسد والجنايات . فهو فسيق ، دني ، شره ، مهذار ، بخيل ، طماع ، مرائي ، مفسد ، مفتن ، قواد ، غدار ، كذاب ، محتال . ويتمثل في صورة باصيل و فيغارو و تارتوف و هارباغون . والاول اسم راهب يحب مسايرة العاشقين على اهوائهم ولكنه كثير الطمع في اموالهم . والثاني اسم خادم نشيط ظريف قواد لسيده اوصله الى معشوقته ومكنه من وصالها بمهارة حيله ودسائسه . وهما من الاشخاص التي اوجدها مارشه في رواية (حلاق اشبيليه) و (زواج فيغارو) ونكت بها على اخلاق المعاصرين من الفرنساويين قبل الانقلاب الكبير اي في عهد لويس السادس عشر والخامس عشر و بين اسرافهم واستهزأ بأفعالهم . وفي سنة ١٨٥٤ اي في عهد الامبراطورية الثانية انشأ احد الكتبة جريدة هزلية سماها (فيغارو) اشارة الى انها تخدم خدمة فيغارو مع التنكيت والتبكيت وعدم المبالاة بشيء ولا التعصب لامر فاصبحت جريدة الفيغارو اليوم من اعظم الجرائد اليومية في باريس . و (تارتوف) نموذج الرياء وهارباغون نموذج البخل وهما من أشخاص روايات موليير . ويمكن ان يعد من هذا القبيل ايضاً ابو زيد السروجي في وعظه الناس بالمواعظ الحسنة ثم جمعه الفلوس واشترائه اللحم والخمر والجلوس للمنادمة مع غلامه كما هو موضح في مقامات الحريري . فالجميل ليس له الا نموذج واحد والقبيح له الف نموذج لان جمال الجميل ما هو الانسبي بالنظر الى الانسان و باعتبار تركيب اعضائه . والقبيح له نسبة وعلاقة مع غير الانسان فهو جميل بالنسبة الى عموم المخلوقات وقبيح بالنظر للانسان وحده

ففي القرون الوسطى نرى لكلام السخرية موقعاً بجانب الاعجاز بالفصاحة وكثر استعمال السخرية في الادب في الرسم والتصوير والحفر وفي الاخلاق والعادات كالرسوم الى احسن في تصويرها المصور الشهير ميكل انجلو الطلياني والمصور موريلو الاسباني وابدع ما اتت به قريحته الراسمة التي نقش فيها كيفية الصعود الى السماء ثم ظهر شكسبير وصار ملك الشعراء كما قال دانتي عن هوميروس ومزج كلام السخرية بكلام الاعجاز وصاغ منهما الدرام . فشكسبير هو ابو الدرام والدرام هو الخاصة المميزة

للدور الثالث من ادوار الشعر والادب العصري وهو جامع المرهب والمضحك من الكلام اي الكوميديا والتراجيديا .



الاشربة الروحية

لحضرة نعمة افندي ايليا الصيدلي القانوني بدمنهور

(١٧) شرب الكحول باعتدال ضروري لتقوية الاعصاب في الشيوخ : كثيرون يدعون معرفة حفظ الصحة فيدافعون عن استعمال الخمر في الشيخوخة لان الشيخوخة تضعف حركة الجسم فتحتاج الى منبه يحافظ وظائفها العصبية ولدى التأمل بهذا الموضوع يظهر بطلانه باجلى وضوح . لماذا تكون وظائف الجسم في الشيخوخة اضعف منها في الشبيبة ولماذا تضعف قوى العقل ؟ لان اعضاء الجسم قد اتلفها الاستعمال الطويل ولذلك لم يمكن حفظ انسجتها صحيحة مدة التمثيل و بالانسجة لم تعد كفوءا للعمل وليس لها طاقة باحتمال الاتعاب وثقل الاعمال العظيمة التي لم تكن تنكرها في الشبيبة وتلك القوى المتناقضة قد اوجدتها الطبيعة في الجسم مؤونة مذخورة لاطالة الحياة الى اجل غير محدود و بتوقف انحلالها على اعمال الجسم الموجودة فيه . فكلما كان العمل عظيماً اسرع انحلالها وضعفها فاستعمال الكحول ينتج سرعة في العمل من دون زيادة في قوة الجسم وبعبارة اوضح يتلف الانسجة ويمنع اصلاحها وفي القوة الكاذبة التي تظهر منه خطر عظيم لانه ان كان يمكن الانسان من الاسراع في حياته فهو يقصر مدة بقائه . فضلاً عن ان الجرعات المعتدلة تحدث حؤولاً خاصاً في جدران الاوعية الدموية فيضعفها اذ يرسب دهناً او كربونات الكلس مكان الانسجة العضلية التي تؤلف الاوعية الصغيرة وذلك الحؤول هو دليل الشيخوخة حتى في غير السكيرين وان كان ضرره فيهم قوياً فكم يكون ضرره بالسكيرين . و يحدث الحؤول المذكور غالباً في شرايين الدماغ الصغيرة فشرب الكحول يسهل الطريق لتجمع الدهن وكربونات الكلس ويزيد الخطر . ولما تضعف الشرايين يزيد

اندفاع الدم الى الرأس فينفجر احدها وتنتهي الحياة بداء السكتة او الفالج فالقليل من الكحول يحدث احتقان الدماغ ويعرض الشيوخ للموت

(١٨) الكحول يبدد الهموم · لا ينكر ان الكحول يخفف الاحزان والاوجاع ويضعف الهموم ومصائب الدهر ويوهم الفقير الذي لا مأوى له ولا صديق انه ملك غني وينسي القاتل المحكوم عليه بالاعدام قرب انفصاله عن العالم وبالاختصار فهو ينسي شاربه موقتاً كل ما لا يروق في عينيه فيرتاح · غير ان تلك الراحة ليست الا لحظة ثم يعقبها رد فعل عظيم فيزيد وخز الضمير قوة الشعور بقبح الآثام الماضية فيا لسوء المصير لان دماغه كان قبلاً مخدراً بفعل الكحول فلم يقدر ان يفهم حقيقة نفسه اذ سدل ضباب المسكرات عليه وعلى جميع حواسه غشاء كثيفاً

(١٩) الكحول يزيد القوى العقلية : كثيراً ما نرى المؤلفين والمشترعين والتلامذة والكتبة حتى خدمة الدين يضعون امامهم زجاجات الخمر والكونياك اذ يعتبرونها من الامور الضرورية لهم فيتصورون انهم يمتصون بالاقداح القليلة التي يبتلعونها من تلك الزجاجات زيادة في قواهم · وكم من كاتب بليغ جمدت قريحته وشاعر مفلق عجز عن تأدية المراد وخطيب مصقع تلعثم لسانه وواعظ طلق اللسان وقف كالصنم لا يحرك فاه ان لم يتناول كاساً او كاسات من الشراب قبل ارتقائه المنبر · لان الكحول بزعمه ضروري لانهاض قواه وصقل ذاكرته وفصاحته وايقاظ غيرته الطبيعية لاتمام واجباته فمثل هذا لاعتقاد انما هو من قبيل العادة فقط · ان تلميذاً مجتهداً في احدى المدارس اعتاد العبث بزر في صدرته اثناء التسميع فقطع رفاقه ذلك الزر يوم الفحص فلم يستطع الاجابة على ما ألقي عليه من المسائل لعدم وجود الزر مكانه واشتغال فكره به وكاد يخسر مركزه في الصف لولا انتباه الفاحص لذلك فهل كان ذلك الزر يزيد معرفته او يقوي ذاكرته ؟ ويقال من جهة خدمة الدين ما قاله الدكتور جامس ارفولد « بلامون لتغطية الكتاب الالهي بدخان الكحول وهو القائل لا تنظر الى الخمر اذا احمرت حين تظهر حبابها في الكاس وساغت مرقرقة في الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالافعوان واذا فحصت دقة القوى الحقيقية للناظرة في من يتعاطى الخمرة لوجدتها غير صالحة للاستعمال كقوى الممتنع عن شربها

(٢٠) الكحول علاج طبي : ان كان الكحول نافعاً للعليل ألا ينفع صحيح الجسم : قد يمكن ولكن استعمال الكحول طبياً غير ضروري الا في احوال مخصوصة ومشاهير الاطباء يفضلون التعويض عنه بعلاجات لا ضرر منها وقال الدكتور كلي « الاصحاء والمرضى

بامراض مزمنة لا يحتاجون الى وسائط طبية كل يوم بعد الاكل ومع ذلك فكثيرون يتعاطون الحبوب المقوية قبل الاكل وقدحاً من النبيذ بعده »

(٣١) التوراة تجيز استعمال الخمور : قسم كبير من البشر يدعي ان الكتاب الالهي يجيز استعمال المشروبات الروحية وفيهم عدد كبير من خدمة الدين وبائعي المسكرات والاغنياء فنجيب ان التوراة ذكرت ايضاً الاسترقاق وتعدد الزوجات وغيرها من الامور الباطلة المكروهة كالمسكرات . ولكننا لدى البحث لا نجدها تجيز واحداً من تلك الشرور المذكورة ولو كان فيها برهان واحد على جواز استعمال المسكرات لكانت بيد الملحد والكافر سلاحاً قوياً ضدها . فاذا امكن اظهار توافق العلم والشعور العام والوحي زالت كل صعوبة وفهم كل ما قيل في الكتاب عن المسكرات فحص الموضوع بالتدقيق يقنع كل معترض بفساد اعتراضه الذي جاء به من الكتاب زوراً و بهتاناً

فالوحي والعلم الصحيح والشعور كلها متوافقة وكل اختلاف ظاهر ينتج اما عن سوء فهم معنى اللفظة المستعملة او من نقص في معرفة الحقائق العلمية . يقول العلم قولاً جلياً لا جدال فيه ان كل المشروبات المختمرة تحوي كحولاً . وان الكحول سم مهما كانت جرعته وقد ايد العقل هذا الحكم وعلّم الشعور العام ان المادة التي خواصها كخواص الكحول لا تكون الا سماً فاذا كانت التوراة تعلم حقيقة ان الكحول تحت هيئة الخمر او غيره نافع لظهر فوراً الوحي اقل حكمة من العقل والعرفان الانسان المخلوق قد فاق الخالق عز وجل في الحكمة والمعرفة . والحقيقة انهم اخطأوا في القاء هذه التبعة على الكتاب الالهي و يظهر ذلك باكثر وضوح بالفحص المدقق في صفات الخمر المذكورة في الكتاب

ذكر الكتاب نوعين من الخمر : جاء ذكر المشروبات المسكرة في الكتاب وورد ذكر نوع من المشروبات او الخمر مراراً وهو غير مسكر وقد حفظ المؤرخون القدماء الفرق بين النوعين وفرقوا بين الخمر المسكرة وغير المسكرة

الخمر غير المسكرة : تنسب صفات الخمر المسكرة لفعل الكحول الموجود فيها فما لا يحوي كحولاً فهو غير مسكر والكحول ينتج من الاختمار فالخمر التي لم يحدث فيها اختمار ليست مسكرة وما يطلب لحفظ الخمر من الكحول والصفات المسكرة هو منع الاختمار فاذا راجعنا التاريخ وجدنا ان القدماء كان لهم معرفة بطرق عديدة لمنع الاختمار

الخمر المسكرة : ذكرنا قبلاً ان العنصر المسكر في الخمر هو الكحول الناتج عن انحلال السكر مدة الاختمار وكل مادة فيها سكر يمكن تكون الكحول منها فاستخرج القدماء الخمر

المسكر من العنب والبلح واللوبية والفول وعصير التمر والنجاص والتين والرمان والثمار اخرى وكانت هذه المشروبات معروفة عند اليهود وكثيرًا ما اشار الكتاب اليها ففي الامثال ٢٣ : ٣١ تذكر الخمر المختمرة بان تظهر حبابها في الكأس ولكنها في الآخر تلسع كالحية

تمييز الخمور في الكتاب : قد لا يوجد فرق بين الخمور في ترجمة الكتاب الى اللغات الاخرى اما في اللغة العبرانية التي كتب فيها العهد القديم فقد ذكرت انواع كثيرة من الخمر يدل عليها بكلمات مختلفة وان تكن قد ترجمت كلها بكلمة واحدة اما الكلمات العبرانية الرئيسية المستعملة فهي יין (يابن) שכר (شكر) תירוש (تيروش) فيابن حسب قول الباحثين في التوراة تشير الى عصير العنب تحت اشكاله حامضاً كان او حلوًا مختمرًا او غير مختمر · وشكر تشير الى عصير حلو ماخوذ مما سوى العنب وقد ترجمت احيانًا عسلاً و يقصد بها غالبًا عصير التمر وهي مثل يابن تحتوي على العصير المختمر وغير المختمر اما تيروش فاطلقت على ثمر العنب الناضج وعصير العنب قبل ابتداء الاختمار فيه وتترجم غالبًا بالخمر الجديدة · وبالاختصار يقصد بالاولى الخمر المختمرة وغير المختمرة او عصير العنب و بالثانية عصير التمر مختمرًا كان او غير مختمر وبالثالثة عصير العنب الحلو قبل الاختمار او الخمر الجديدة · اما العبرانيون فاطلقوا لفظة يابن على الخمر الماخوذة من العنب مهما كانت حالته كما تطلق لفظة Cider على عصير التفاح قبل اختماره او بعده حديثًا كان او قديمًا اما في اللغة اليونانية فالكلمة المستعملة Oinos توافق الكلمة العبرانية يابن وهذا كله يكفي لاثبات نوعين من الخمر يذكرهما الكتاب المقدس الواحد حلو غير مختمر وغير مسكر والآخر مختمر مسكر وان كلمة واحدة قد تستعمل للكيفيتين · فاذا رأينا الكتاب يتكلم مرة عن خمر غير محرمة وفي اخرى عن خمر محرمة الا يكون الاولى فهم الخمر غير المختمرة حين الاشارة الى ما يجوز استعماله وما اختمر منها الى ما لا تجيزه

القتل على يد القوابل

لحضرة الدكتور جرجي الياس نور بالمنصوره

كتبت من ثماني سنين وأنا في أميركا مقالة بهذا العنوان الى مجلتكم الغراء اثبت فيها آفة التمدن العصري وتعمد المرأة الغربية المتمدنة قتل الجنين واسقاطه وغالبًا قتل نفسها

وذلك كله بفضل المدنية التي وصلت اليها ... اما الآن وان يكن عنوان مقالتي هذه هو ذات عنوان المقالة السابقة فالحقيقة هي على نقيضها والشكوى ليست من التمدن وآفته بل هي من الجهل وظلمته .لان تلك تعمد الضرر عن معرفة فتفعل فعلتها الشنعاء متخذة تبعة الضرر على ذاتها

أما المرأة الشرقية فلا تضر نفسها تعمداً بل ان ما يأتيه بعض النساء من الاعمال يساعدها على زعمهن حينما تكون بحالة الولادة او بحالة النفاس فيكون سبب ضرر من حيث يامان النفع وما ذلك الا نتيجة الجهل والادعاء . والحقيقة التي أريد كشفها على صفحات مجلتكم — ويا حبذا لو كتب في موضوعها اخواننا الاطباء — هي تنبيه الامة والشعب الى القيام بواجباتهم نحو نسائهم في زمن من حياتهن يوجب لهن الشفقة والحنان والاعتناء التام ولقد مضى عليّ في المنصورة ثلاثة اشهر استدعيت في اثنائها لعلاج عدة نساء من اضرار الحبل والاهمال واليك شرح حال ثلاث منهن :

أولاً امرأة ولدت على يد قابلة (داية) وبعد مضي يومين من ولادتها قال لها صديقاتها وقابلتها الجاهلة انه يوجد معك ورم وللحال اتين بقطعة من نسيج وسخة قديمة واحرقتها ووضعن الزيت على رمادها وبعد ان صبرن هذا المعجون في خرقة قذرة وحملنها ذاك الحمل الوسخ اصابها تسمم والتهاب لم تشف منه الا بعد مدة من الزمن

اما الثانية فكانت تلد على يد قابلة ولما تعسرت ولادتها اجريت لها القابلة مع صديقاتها كل ما في وسعهن من الخرافات لمدة اربعة ايام حتى تعبن وشعرن بالخطر فارسلن يستدعين الطبيب فلما وصلت وجدت المرأة في غرفة مظلمة مملوءة بالقذارة لا يدخلها هواء ولا نور ومملوءة بالنساء الجاهلات وبعد الفحص وجدت المرأة بحالة النزع فاخبرتهن بذلك وبعد ان نقلت هذه المسكينة الى غرفة مناسبة بادرت حالاً لاستخراج الجنين فوجدته ميتاً تتصاعد منه رائحة كريهة دلالة على الانحلال وان الجنين ميت في جوفها من ثلاثة ايام على الاقل وبداعي التسمم الذي نتج عن الانحلال ماتت الوالدة ايضاً . وما ذلك الا بفضل الجهل وحماقة النساء المدعيات . والحادثة الثالثة تشبه الاولى الا ان الدواء الذي عالجن الورم به كان على زعمهن قطعة طربوش عتيق قذر ومن جراء ذلك حصل لهذه الامرأة المسكينة تسمم وهي الآن بحالة الخطر ولا شك ان مثلها كثيرات بين الوطنيات . فالى متى تدوم هذه الحالة في الديار المصرية مهد المدنية والعلوم القديمة والى متى نتقاعد عن العلم الحقيقي والمدنية الحقيقية والى متى نصدق الدجالين والنساء الجاهلات القذرات بتصرفهن

وتأتمن مثلهن على ارواح نسائنا وبنينا ونعرض عن الاطباء المتنورين فلا نستدعيهم الا بعد فوات الفرصة المناسبة ان هذا لمنتهى العجب

واغرب من هذا كله انه في الحادثة الثالثة قد منع والد هذه المرأة المسكينة صهره عن استدعاء طبيب لعلاج ابنته مدعياً ان الطبيب يقتلها وعليه فقد فضل ان يستدعي لها ممرضاً

فمن سرد هذه الحوادث الثلاث يتضح ان الاولى والثالثة قد نجتا عن القذارة التي استعملتها القابلة والصديقات الجاهلات وهذا كان سبب مرضهما الذي تعرضتا به الى الخطر واحتمال العذاب والآلام فضلاً عن تكدير العائلة وارتباكها وخسارة الوقت المفيد والدرهم . ولما كنا نوضح لهؤلاء النساء ذلك كن يجبن بكل وقاحة ان قطعة الطربوش العتيقة نفعتها ولكنها مصابة بشيء من البرد .. فتأمل

اما الحادثة الثانية فظهر بكل ايضاح ان سبب موت الطفل والوالدة هو جهل القابلة ليس الا وانه لو استدعي الطبيب في الوقت اللازم اي في اول يوم الولادة لكانت انقذت الوالدة والطفل من الموت . وبما ان هذه الحوادث قد كدرتني كثيراً اردت ان ارسلها اليكم كي تدرجوها في مجلتكم ليعلم الخاص والعام بان الجهل يقتل اهله وكفى بذلك عبرة

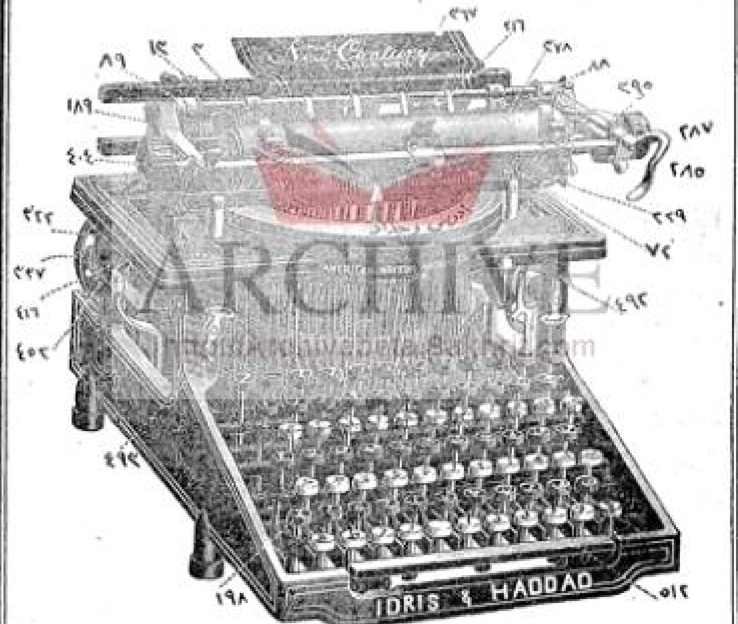
﴿ الهلال ﴾ ان امثال هذه الحوادث كثيرة في هذا القطر حتى في العاصمة . وقد عرفنا نساء ذهبن ضحية جهل القوابل وهنَّ في عنفوان الشبيبة وفيهن عرائس لم يتم العام على زفافهنَّ . وكان سبب الوفاة فيهنَّ حياءهنَّ من الاطباء وتعويلهنَّ على القابلة — ولا بأس من التعويل عليها اذا كانت ممن تخرجن في المدارس وعرفن قواعد فن الولادة فاذا رأين حاجة الى استعانة الطبيب نبهن الى ذلك . ولكن المصيبة من القوابل اللواتي تناولن هذا الفن بالتقليد او الوراثة فيحدث في اثناء الولادة عوارض لا يفهمنها ولا يستطعن ملافاتها فتعود العائدة على الوالدة واهلها . ومن اقرب الحوادث التي تحققنا وقوعها في اثناء الشهر الماضي ان عروساً وطنية من عائلة عريقة في الحسب والنسب لما داهمها المخاض استدعوا لها قابلة (بلدية) فقضت تلك المسكينة ثلاثة ايام وهي تهيج والقابلة تستمهلها حتى اذا خافت القابلة فروغ صبرها استعملت السلاح لخرج الجنين ولكنها لم تستخدم مضادات الفساد فلم يمض يومان حتى ظهرت الحمى العفنية فهرعوا الى الاطباء فاجتمعوا وقد فاتت الفرصة فتوفيت النفساء على الاثر



باب السؤال والاقتراح

الآلة الكاتبة العربية

(١) مونتريل كندا. جرجس افندي جرجوره حنا. وعدتم في الهلال السادس عشر من السنة التاسعة انكم ستنشرون صورة الآلة الكاتبة العربية وتبينون مزاياها فهل لكم ان تنجزوا الوعد



صورة الآلة الكاتبة

(١) الآلة الكاتبة ويسميها الافرنج Typewriter من اختراع

الاميركان . وقد كان الناس في اوربا واميركا يسعون من اوائل القرن الثامن عشر في اختراع آلة تغنيهم عن الكتابة باليد للمراسلات فتضبطها وتمنع الالتباس في قراءتها مع الاقتصاد في الوقت . فلم يتوفقوا الى ذلك الا سنة ١٨٧٣ اذ اصطنعوا الآلة الشائعة الآن ورسمها في الصفحة المقابلة — واول من توفق الى ذلك معمل رمنتون واولاده في ايليون باميركا . فلما ظهر ما لهذه الآلة من الفوائد اقتبستها امم اوربا وشاعت في سائر العالم المتمدن . وهي عبارة عن آلة مكعبة الشكل توضع على طاولة وفي الشكل رسم وجهها الذي يستقبله المشتغل بها اذا وقف لاستعمالها . وفي اسفل الوجه المذكور اسطوانات صغيرة قائمة على قضبان من الحديد (انظر رقم ١٩٨) يقال لها المفاتيح على أوجهها الظاهرة صور الحروف الهجائية والارقام والحركات التي يراد الكتابة بها . والمفاتيح المذكورة تتصل من اسفل قضبانها باسلاك مصطفة وراء المفاتيح عمودياً وهي ظاهرة في الرسم حتى تنتهي في رؤوسها بحروف من الفولاذ تقابل الحروف المرسومة على المفاتيح كل حرف في اعلى السلك يقابله رسمه على المفتاح المتصل بذلك السلك . فلو كشفت القسم العلوي من الآلة لظهرت الحروف المذكورة مرتكزة على رؤوس الاسلاك . واهم ما في القسم العلوي المذكور اسطوانة من الكاوتشوك (٣٧٨) توضع عليها الورقة وتمسك بالجناح (٢١٦) وتحت الاسطوانة قدة من نسيج مشربة بالحبر تفصل بينها وبين الحروف يقال لها المحبرة . فالمشتغل بهذه الآلة اذا اراد كتابة اسم « عباس » مثلاً ضرب باصبعه اولاً على المفتاح المرسوم عليه حرف (ع) فتنتقل الحركة بالسلك الى الحرف المقابل له في الداخل فيضرب على الاسطوانة وبينه وبينها المحبرة والورقة فتنطبع صورة الحرف المذكور على الورقة وتنتقل الاسطوانة نحو اليمين استعداداً للحرف التالي ثم يضرب باصبعه على حرف (ب) فترتسم الباء بجانب العين ثم يضرب على الالف فالسين فترتسم متحاذية وتقرأ « عباس » . فاذا اراد كتابة سطرين فاكثر سار على هذه الكيفية يضرب على المفاتيح فترتسم الحروف والاسطوانة تنتقل حتى ينتهي السطر فيرد الاسطوانة ويديرها للسطر الجديد بمفاتيح خاصة بذلك ويعود كما بدأ والكلام يرتسم في الداخل على ما يرام — وفي الآلة حركات كثيرة متممة للدقة وسرعة الحركة يطول الكلام في تفصيلها . وانما يقال بالاجمال انها سهلة لا تحتاج في استخدامها الى غير التمرين في نقل الاصابع على المفاتيح كما يتعود ضارب البيانو او القانون . والذي يتعود ذلك يكتب عليها بسرعة تفوق سرعة الكتابة باليد فضلاً عن تناسب الحروف ووضوحها ودفع الالتباس في قراءتها ولذلك اسرعت الامم الى

اقتباسها واستخدامها

فشاعت هذه الآلة في اوربا واميركا وكثرت اساليبها واشكالها بسرعة غريبة لسهولة اصطناعها وتطبيقها على احرف لغات الافرنج لانها احرف واحدة تقريباً . واذا وجدت بينها فرقاً فهو مما لا يعتد به ويسهل تلافيه — فلما افاق العرب من غفلتهم واخذوا في اقتباس عوامل التمدن الجديد كان في جملة ما احبوا اقتباسه الآلة الكاتبة فاشتغل غير واحد في هذا السبيل منذ نيف وعشرين سنة فاعترضتهم مصاعب كبيرة ثنت عزائم الاكثرين لاختلاف الحروف العربية عن الافرنجية عدداً وشكلاً مما يجعل استخدام تلك الآلة للكتابة العربية شاقاً لاسباب اهمها ثلاثة وهي (١) ان الحروف الافرنجية اللازمة للكتابة لا يزيد عددها على ٩٠ حرفاً واما الحروف العربية فربما زادت على ٩٠٠ وقد بيّنا سبب ذلك في مقالة « حروف المطابع العربية » صفحة ٣٦٥ من هلال السنة الماضية . (٢) ان حجوم الحروف الافرنجية متقاربة فهان عليهم ان يجعلوا لها فسحات متساوية . واما الحروف العربية فتختلف حجومها باختلاف الحروف اختلافاً كبيراً فمنها ما هو متناه بالرقة مثل ؛ ؛ ؛ ا ا ونحوها ومنها ما هو متناه في الضخامة مثل ص . ك ك . ج ونحوها ومنها ما بين ذلك بحيث يزيد عدد الحجوم على عشرين حجماً فلا يمكن ان تعطى فسحات متساوية (٣) ان الحروف الافرنجية ترسم متفرقة ولا بأس اذا لم تكن المسافات بينها متناسبة واما الحروف العربية فاكثرها لا بد من اتصاله من جانبيه حتى تبدو كانها مكتوبة بالقلم والا فانها تفقد رونقها

فاستخدام الآلة الكاتبة لكتابة الحروف العربية لا يتم الا بملافاة تلك الصعوبات وقد توفق الى ذلك حضرة المصور سليم افندي حداد بعد معاناة التجربة عدة سنوات واستعان في اخراج اختراعه الى حيز العمل بصاحب العطوفة ادريس بك راغب فسافر الى الولايات المتحدة بنفسه فاصطنع الآلة التي ترى رسمها في صدر هذه المقالة وهي على طرز « كليغراف » المشهور

واما التعديل الذي ادخله على الحروف العربية حتى استطاع استخدامها لهذه الآلة فينحصر في تغييرين مهمين : الاول انه اختصر من اشكال الحروف العديدة على ٥٥ حرفاً ولم يكن يظن قبل ذلك امكان اختصارها الى اقل من مئة وبعض المئة اذ لأكثر الحروف العربية اربعة اشكال واحدٌ لبدء الكلمة وواحد لوسطها وواحد لآخرها وآخر للحرف المنفرد على هذه الصورة جـ . جـ . ج . ج و صـ . صـ . ص . ص . ففي

الحروف الوسطى والانتهائية نتوء بارز من يمينها للربط في ما قبلها يعبرون عنه بالرابط . وطريقة حداد افندي في آلته انه اقتصر على الاشكال الابتدائية والمنفردة وعوض عن الشكلين الآخرين باطالة الطرف الايسر من الحروف الابتدائية بحيث يسهل التحامها بالطرف الايمن من الحروف التي تليها فيستغنى بذلك عن الحروف الوسطى والانتهائية فكلمة « حجج » مثلاً لا يمكن جمعها من حروف المطابع الاعتيادية الاَّ من ثلاثة حروف مختلفة الشكل وهي حـ جـ ج واما حروف هذه الآلة فالحرفان الأولان من شكل واحد حـ جـ اذا تقاربت تلاحمت على هذه الصورة « حججـ » فكأنهُ نقل الرابط من يمين الحرف الى يساره

والتغيير الثاني انه عدَّل حجوم الحروف العربية التي تلحم من احد جانبيها فجعلها حجمين فقط باعتبار ثخانة اجسامها فجعل الاحرف الرقيقة مثل بـ ة ا ة ونحوها في حجم متساو وهو نصف حجم الحروف الثخينة مثل سـ جـ ط وغيرها . فاصبحت تلك الحروف اما حجماً مفرداً او مزدوجاً . وادخل في الآلة حركة تناسب هذا الفرق فاستطاع بهذه الوسيلة من حفظ رونق الحروف العربية مع ذلك الاختصار . واليك بضعة اسطر منقولة عن كتابة الآلة نفسها حجماً وشكلاً :

هذه كتابة حروف المكنة الكتابية العربية المختصرة وعددها خمسة وخمسون حرفا فقط اما المكنة فتضاهي احسن المكنات الافرنجية وقد استخدمتها الحكومة المصرية في جميع دوائرها وهي سهلة الاستعمال واسرع واوضح من كتابة اليد ويكتب بها نسخا متعددة بوقت واحد وفيها الحبر الاسود البسيط والحبر الكوبيا للطبع

نالت على يدها

(طنطا) عبد العزيز افندي عزت بالبوسطة

قيل ان يزيد بن معاوية بن ابي سفيان الاموي هو الناظم للقصيدة المشهورة التي مطلعها « نالت على يدها ما لم تنله يدي » فما هي

(الهلال) ان في نسبة القصيدة المذكورة الى يزيد شكاً والغالب انها من نظم الوأواء الدمشقي وهو محمد بن احمد ابو الفرج الوأواء الغساني الدمشقي المتوفى في أواخر القرن الرابع للهجرة وهاك احاسن ما يأتيها

نالت على يدها ما لم تنله يدي … نقشاً على معصم أوهت به جلدي
كأنه طرق نمل في أناملها … أو روضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يدها من نبل مقلتها … فألبست زندها درعاً من الزرد
إنسية لو رأتها الشمس ما طلعت … من بعد رؤيتها يوماً على أحد
سألتها الوصل قالت لا تغرّ بنا … من رام منا وصالاً مات بالكمد
فكم قتيل لنا في الحب مات جوى … من الغرام فلم يبدي ولم يعد
فقلت أستغفر الرحمن من زلل … ان المحب قايل الصبر والجلد
قد خلفتني طريحاً وهي قائلة … تأملوا كيف فعل الظبي بالأسد
قالت لطيف خيال زارني ومضى … بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال خلفته لو مات من ظمأ … وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت صدقت الوفا في الحب شيمته … يا برد ذاك الذي قالت على كبدي
واسترجعت سألت عني فقيل لها … ما فيه من رمق دقت يداً بيد
واستمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت … ورداً وعضت على العناب بالبرد
هم يحسدوني على موتي فوا أسفي … حتى على الموت لا أخلو من الحسد

روتر وهافاس

(القاهرة) حسن افندي محمد بالمالية

كثر تحدث الناس في أثناء الحرب القائمة الآن في الشرق الاقصى باخبار روتر وهافاس فتجلى لنا ما لهذه الشركات من الفوائد العظمى لاننا ونحن على ضفاف النيل تصل الينا أخبار المعارك على ضفاف اليالو ببضع ساعات وهي على نحو ستة آلاف ميل عنا فتاقت النفس الى معرفة مؤسس هذه الشركات وما هي

(الهلال) هي شركات تلغرافية تقوم بنقل الاخبار الى مشتركيها تلغرافياً كما تنقلها

الجرائد بالبريد . وصاحب هذا المشروع ومستنبط هذا الفكر رجل الماني اسمه البارون بوليوس روتر ولد في كاسل سنة ١٨٢١ وبعد ان تلقى العلم استخدم في بعض البنوك ثم ألحق ببعض المكاتب . فلما حدثت ثورة سنة ١٨٤٨ خربت المكتبة فسافر روتر الى باريس وأنشأ فيها مكتباً لنقل الاخبار الى الجرائد يطبعها على الحجر ويفرقها فيها . وكانت الخطوط التلغرافية لا تزال في أول نشأتها وهي قليلة فكان يستجلب الاخبار بواسطة حمام الزاجل . وفي نحو سنة ١٨٥٠ نصبت حكومة بروسيا الخط التلغرافي بين برلين واكس لاشبل فانتقل روتر الى اكس ليتمكن من استخدام ذلك الخط في نقل الاخبار مع اتمام المخابرات في البلاد الاخرى بواسطة الحمام . وفي سنة ١٨٥١ انشيء الخط التلغرافي الموصل بين كالي ودوفر بالبحر فانتقل روتر الى لندرا واستقر فيها وتجنس بالجنسية الانكليزية وكانت الخطوط التلغرافية قد اخذت تتكاثر فانشأ وكالات فرعية في المدن الكبرى لنقل الاخبار التجارية ونحوها ففرح التجار بذلك فرحاً شديداً . وأما أرباب الصحف فتقاعدوا في بادىء الرأي عن تنشيطه ولعلهم خافوا من مشروعه على صحفهم . وأشهر جرائد الانكليز يومئذ التيمس فذهب روتر الى مديرها وأعان له مشروعه وطلب اليه أن يعتمد عليه في استجلاب الاخبار التلغرافية فاستحسن المدير ذلك الفكر لكنه أجابه « قد وجدنا بالاختبار اننا أقدر على قضاء حوائجنا بانفسنا مما يستطيع قضاءها لنا سوانا » فلم يقعده ذلك الجواب (الانكليزي) عن السعي . فتركه وانصرف الى صاحب جريدة المورنن بوسط وكانت تلي التيمس بالانتشار والاهمية فعرض عليه مشروعه ورغبه فيه فوافقه وعقد معه اتفاقاً فلما وجدت الجرائد الاخرى مزية الاعتماد على هذه التلغرافات تسابقت الى الاشتراك فيها وفي جملتها جريدة التيمس نفسها

فدخلت الصحافة بعد ذلك في دور جديد وتضاعفت فوائدها وزادت رغبة الناس في المطالعة . واوّل ما رأى الناس فوائد هذه التلغرافات في حرب ايطاليا سنة ١٨٥٩ فتعاظم شأنها وتسابق ارباب الاموال الى ابتياعها فعقدوا سنة ١٨٦٥ شركة للقيام بهذا المشروع عهدوا بادارتها الى روتر . وفي تلك السنة نال روتر من حكومة هنوفر امتيازاً بانشاء خط تلغرافي تحت البحر بين المانيا وانكلترا ثم نال من فرنسا امتيازاً بخط بين فرنسا والولايات المتحدة الاميركية فتحوه سنة ١٨٦٩ وفي سنة ١٨٧١ منحه دوق كوبورج غوطا لقب بارون اعترافاً بفضله على التجارة والسياسة . وفي السنة التالية منحه شاه العجم امتيازاً بانشاء

السكك الحديدية والانتفاع من المناجم والاحراج في مملكة العجم كلها ولكن ذلك لم يخرج الى حيز الفعل

وبالجملة ان البارون روتر نجح في مشروعه نجاحاً باهراً وخدم الصحافة والسياسة والتجارة خدمة جزيلة . فلما ظهرت فوائد مشروعه عني الناس في النسج على منواله فتألفت شركة هافاس وغيرها . ومع ذلك فلا تزال شركة روتر اهمّ من سواها

الياذة هوميروس

نظم البستاني

ما هي الالياذة — كان على شواطئ اسيا الصغرى مما يلي الدردنيل مملكة من ممالك التمدن القديم يقال لها طروادة واسم عاصمتها اليون وكانت طروادة معاصرة لدولة اليونان او الاغريق نحو القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وكانت بلاد اليونان يومئذٍ ممالك صغيرة تتحالف احياناً وتتشاق اخرى اشهرها سبارطة واثينا . وكان بين اليونان والطرواد صلة تجارة ونسب . فحدث ان منيلاوس ملك اسبارطة خرج من عاصمته في مهمة وان فاريس بن فريام ملك طروادة قدم سبارطة برسالة فنزل ضيفاً على منيلاوس وهو غائب فرأى امرأته هيلانة فأحبها وما زال بها حتى استهواها فاحبته ووافقته على الفرار معه الى طروادة . فلما علم الاغريق بذلك الفرار اعظموه ولما اعيتهم الحيلة في استخلاص هيلانة تأهبوا للحرب واستصرخوا قبائلهم فاجتمعوا ورأسوا عليهم اغاممنون اخا منيلاوس وساروا جيشاً كثيفاً يعيثون في بلاد الطرواد يخربون المدائن ويقتلون الرجال ويسبون النساء الى ان بلغوا عاصمتها فحصروها واقاموا على حصارها عشر سنين فساءت حال الفريقين ونفدت الارزاق وبادت المقاتلة وكاد الاغريق ينثنون الى اهلهم ويقنعون بمن بقي منهم لو لم يوافهم اوذيس بخدعة فتحوا بها اليون

وهوميروس اقدم شعراء اليونان نبغ في القرن التاسع قبل الميلاد فتناول اياماً قلائل من السنة العاشرة لحصار اليون وبنى عليها قصة شعرية مؤلفة من نحو ١٦٠٠٠ بيت سماها « الالياذة » ومعناها « الاليونية » نسبة الى اليون المذكورة . ومفاد القصة تنازع بعض ابطال تلك الحملة على فتاة جميلة من سباياهم وقعت في سهم اخيل عنترة الاغريق فانتزعها منه اغاممنون زعيم الزعماء واستخلصها لنفسه فعظم الامر على اخيل

وكاد يبطش باغاممنون لولا ان اثينا الاهة الحكمة هبطت من السماء وصدّته قسراً . فانكفأ عنه واعتزل القتال هو وعشائره . فحمي وطيس الحرب بين الاغريق والطرواد واخيل في عزلته يتحرق غيظاً . فاشتدت عزيمة الطرواد لاحتجاب اخيل فنكّلوا بالاغريق في مواقع كانت الغلبة في معظمها لهم . فلما ثقلت الوطأة على الاغريق اوفدوا الوفود استرضاء لاخيل فما زاد الا عتوًّا وكبرًا . فوقعت هيبة هكطور زعيم الطرواد وابن ملكهم فريام في قلوب الاغريق وما زالت تتوالى له الغلبة بعد الغلبة حتى كاد يحرق سفائنهم ويردهم خائبين . وكان لاخيل صديق حميم هو فطرقل فتى جمع بين كرم الخلال وبسالة الابطال صحب اخيل في معتزله وهو مع هذا يتلظى اسىً لنكبة قومه ويستفز اخيل للاخذ بيدهم واخيل كالحجر الاصم لايرق ولا يلين . ولما اشتدت الازمة على الاغريق وكاد يقضى عليهم جعل فطرقل ينتحب كالطفل فأذن له اخيل ان يتقلد سلاحه ويحمل على الطرواد بجند المرامدة قوم اخيل . فحمل عليهم حملة مزقت شملهم وردّتهم على اعقابهم واذا به خرّ قتيلاً امام هكطور فدارت الدائرة بموته على قومه فولّوا مدبرين وهكطور يضرب في اردافهم . ولما علم اخيل بموت فطرقل قتيلاً تمعّر حزنًا على حليف وده والتهب حقدًا على الطرواد وتحول غضبه من عن الاغريق اليهم ونهض للاخذ بالثار فصالح اغاممنون واغار على الطرواد فبطش بهم بطش الاسود بالحملان فلاذوا بالفرار وتحصنوا في معاقلهم ما خلا هكطور فانه برز له فقتله اخيل ومثل به . ولكنه ما لبث ان سكن جأشه وخبا غيظه فانقلب ذلك الغيظ رفقًا وعطفًا اذ رقّ لشيبة فريام فالقى اليه بجثة ابنه وسيره آمنا فانتهت القصة بسكون وسلام

وضمن هوميروس الياذته كثيرًا من الحقائق التاريخية والجغرافية والسياسية فضلاً عن عادات تلك العصور واخلاق اهلها ومعتقداتهم وآدابهم وقد وصف العواطف والشعائر والافكار وصفاً لم يسبق له مثيل ولم يأت المتأخرون باحسن منه بعبارة جلية بليغة سهلة . فحرص اليونان على تصفح الالياذة واستظهارها وتنشادها وتناقلها

ترجمتها فلما دالت دولة اليونان وقامت دولة الرومان كانت الالياذة في مقدمة ما نقلوه الى لسانهم وكانوا يترغون بانشادها ويحذون النظم على مثالها . وفعل مثل ذلك ايضاً الهنود والفرس والسريان من اهل التمدن القديم . فلما بزغ نور التمدن الحديث تسابقت الامم الحديثة الى ترجمتها فنقلوها الى الايطالية والفرنساوية والانكليزية والالمانية وغيرها نظماً ونثرًا وعلقوا عليها الشروح التاريخية واللغوية والادبية ونحوها

اما العرب فمع حرصهم على علوم الادب وشغفهم بالشعر وعنايتهم بنقل آداب الهند والفرس والروم الى لسانهم في اثناء النهضة العباسية وما بعدها لم تكن الالياذة في جملة ما نقلوه لاسباب اهمُّها الدين · لان في الالياذة من ذكر الآلهة الوثنية واخبارها ما يناقض تعاليم التوحيد ولذلك كان شأنها في اوائل النصرانية مثل شأنها في اوائل الاسلام حتى اذا رسخت قدم النصرانية اشتغل علماء النصارى في ترجمتها وشرحها · ولهذا السبب كان يجب ان تنقل الى العربية بعد تأييد الاسلام وانتشاره ولكنهم تقاعدوا عن ذلك في الدولة العباسية لتقاعد العرب عن درس اليونانية وعجز النقلة الذين يعرفون اليونانية عن نظم الشعر — ناهيك بافتتان العرب باشعارهم واحتقار سواها · ولمثل هذا السبب لم يلتفت اهل الاندلس الى هوميروس والياذته وبعد هاتين الدولتين لم يكن للدول العربية عناية مثل عنايتهما في نقل العلوم او ادخارها

الالياذة العربية ومهما يكن من الاسباب التي حالت دون نقل الالياذة الى العربية فانها ما زالت محجوبة عن اهل هذا اللسان الى هذا اليوم ونحن في القرن الرابع عشر لنهضة العرب حتى تصدى صديقنا سليمان افندي البستاني لكشف ذلك الحجاب وابراز فتاة اليونان بحلة عربية قشيبة فاقدم على عمل تقاعد عنه العرب بضعة عشر قرناً وهو واسع الاطلاع في كثير من اللغات كالفرنساوية والانكليزية والايطالية والفارسية والتركية وله المام باللاتينية واليونانية وباللغات الشرقية فتصفح ترجمات الالياذة بلغات اوربا ثم توسع في درس اليونانية ليطالع الالياذة كما نظمها هوميروس بلسانه فساعده ذلك على تفهم دقائق المعاني

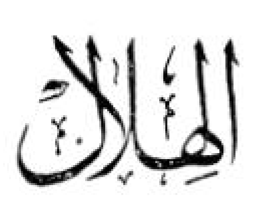
فنظم الالياذة في نحو ١١٠٠٠ بيت التزم فيها المعنى الاصلي التزاماً لم يسبقه اليه احد من نقلتها الى الالسنة الأُخرى واجتنب حوشي الكلام ووحشيه · وضبط الشعر بالشكل الكامل وعلق عليه شروحاً قابل فيها بين جاهلية اليونان وجاهلية العرب في الادب والشعر والاخلاق والعادات وافاض في ذلك حتى ضُمِّن شرحه اكثر ما يعرف عن احوال العرب في جاهليتهم واوائل اسلامهم

وصدَّر الكتاب بمقدمة ضمنها — فضلاً عن سيرة هوميروس والياذته وتحليلها وتشريحها — ابحاثاً جديدة في اصول التعريب وقواعده فتطرق من ذلك الى وصف النهج الذي سلكه في تعريب الالياذة · ثم تكلم عن النظم في التعريب واوزان الشعر وابوابه وعلاقة الاوزان والقوافي بالمعاني وهو بحث لم يسبقه احد اليه · وافرد باباً خاصاً للكلام في الالياذة والشعر

العربي فبحث اولاً في الشعر العربي من اقدم ازمانه الى زمن الاسلام وما كان من تأثير القرآن عليه. ثم قابل بين لغة قريش المضرية ولغة الالياذة اليونية وكيف عاشت الاولى وتلاشت الثانية. ثم بحث في طبقات الشعر العربي من الجاهلية الى المحدثين وبين مزية كل طبقة وفحولها واطال خصوصاً في شعر المولدين وفنونه واساليبه وما حدث فيه من التشطير والتخميس والمعمى واللغز والدوبيت وما يلحق بذلك من التاريخ الشعري والموشح والمواليا والزجل وعروض البلد والمزدوج والملعبة والزهري والمعنّى وغيرها. ثم تطرق الى البحث في علوم الادب عند المولدين واطوار اشعارهم وطبقات شعرائهم الى الشعر العصري — ونظر نظراً خاصاً في الملاحم او منظومات الشعر القصصي في الجاهلية والاسلام ومقابلة ذلك بما عند الافرنج. وفصل الكلام في الحقيقة والمجاز وتأثير الحضارة في استهجان المستحسن واستحسان المستهجن في التشبيه والمجاز ومزية العربية على لغات الافرنج في هذا الباب. وختم الكلام بفصل في الشعر واللغة نقلنا بعضه الى الهلال الماضي

والمقدمة المذكورة نحو ٢٠٠ صفحة كل فقرة منها تشهد باقتدار صاحب الالياذة العربية على النظم والانشاء واطلاعه على آداب العرب والافرنج وسعة علمه في التاريخ وآدابه وفلسفته. وقد ذيل الكتاب بمعجم الالفاظ اللغوية ومعجمين لسائر مواد الكتاب من اعلام وتاريخ وعلم وصناعة واخلاق وعادات وحلى جرت فضلاً عن فهارس الرسوم والقوافي فجاء ذلك كله في كتاب صفحاته ١٢٦٠ صفحة كبيرة فهو عبارة عن قاموس في الشعر والادب عند اليونان والعرب وفي اخلاق الامتين وعاداتهما في الجاهلية وغيرها. والكتاب يطلب من مكتبة الهلال وثمن النسخة مئة قرش مصري واجرة البريد للقطر المصري خمسة قروش وللخارج عشرة

❊ الدليل النفيس في اعمال البوليس ❊ هو كتاب جزيل الفائدة ألفه حضرة محمود افندي لطفي كاتب مركز ضبط ادفو وضمنه كل ما يهم الناس معرفته من قوانين ادارة البوليس وتعليماتها ومنشوراتها ولوائحها وما طرأ عليها من التعديلات مع جداول اللوائح والدكريتات المتداولة. وقد قاسى في سبيل ذلك مشقة كبرى لما يقتضيه اختصار النصوص الرسمية من العناية والدقة فجاء كتاباً وافياً صفحاته ١٣٦ صفحة كبيرة وفيه من الفوائد ما لم يسبق جمعه في كتاب على هذه الصورة بحيث يسهل تناوله ويكثر الانتفاع به. وهو يطلب من حضرة المؤلف ويباع في مكتبة الهلال وثمن النسخة اثنا عشر قرشاً واجرة البريد قرش ونصف



الجزء السابع عشر من السنة الثانية عشرة

١ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٤ و١٧ ربيع الاول سنة ١٣٢٢

الالياذة العربية

والنهضة الادبية

اتينا في الهلال الماضي على ذكر الالياذة اليونانية وصاحبها وتاريخ نقلها الى الالسنة الاخرى واجملنا في محتويات الالياذة العربية تمهيداً للكلام في وصفها وما سيكون من تأثيرها في اداب اللغة العربية في نهضتنا الاخيرة · لاننا في نهضة ادبية شعرية لم يتفق للعرب مثلها الا في ابان حضارة الاسلام · وبين ظهرانينا كتاب وشعراء لم ينبغ مثلهم منذ عدة قرون · فظهور هذا الكتاب الجليل خطوة كبيرة في سبيل هذه النهضة

وقد قلنا « الالياذة العربية » ولم نقل الالياذة اليونانية او الالياذة (فقط) لان الالياذة العربية تمتاز عن اليونانية وعن سائر ترجماتها في اللغات الاخرى بعدة امور اهمها انها تحتوي على ابحاث في العرب وادابهم واللغة العربية وادابها والشعر وفنونه واساليبه مع مقابلة كل ذلك بما عند اليونان القدماء مما لم يتأت لاحد من نقلة الالياذة الى غير العربية ولذلك فاننا سننظر في هذا الكتاب من وجهين نبحث في الوجه الاول بما سيكون من تأثيره في الشعر العربي وفي الوجه الثاني بما اكتسبته اللغة العربية به من العلوم والاداب مما لم يكن فيها من قبل

١ — الالياذة العربية والشعر العربي

﴿ ما هو الشعر ﴾ الشعر عند العرب « الكلام المقفى الموزون » وهو تعريف النظم وليس تعريف الشعر . لأن النظم غير الشعر اذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم وقد يكون ناظماً وليس في نظمه شعر . على ان النظم يزيد الشعر طلاوة ووقعاً في النفس لانه القالب الذي يسبك فيه الشعر . والفرق بينه وبين الكلام المرسل اننا نعبر بهذا عما نشاهده او نستنتجه من اعمال الحياة بالقياس والبرهان ونعبر بالشعر عن شعورنا بالانفعالات النفسية بلا قياس ولا برهان — فالكلام المرسل لغة العقل والشعر لغة القلب او النفس



القنطورس — عن الالياذة العربية

والشعر من حيث موضوعه ينقسم الى قسمين : الاول يعبر به الشاعر عن عواطفه وعواطف ذويه وهو الذي يسميه الافرنج « ليريك » اي الغنائي او الموسيقي ويدخل فيه حكاية كل ما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والحماسة والفخر او ما علمته بالتعقل وطول الاختبار كالامثال والحكم . والقسم الثاني يصف به الشاعر احوال الآخرين

و يسمونه ابيك اي الشعر القصصي او الوصفي وهو عبارة عن نظم الحوادث والوقائع و وصف ما يرتسم في الذهن من الصور

﴿ الساميون والشعر ﴾ والساميون (العرب والعبران والسريان) اهل خيال وعواطف ولذلك كانوا من اكثر الامم شعراً واكثر اشعارهم من النوع الموسيقي . فالعبرانيون ارقى اهل الارض وابكام واشكام والمزامير والمراثي ونحوها من قبيل العواطف والامثال والجامعة من قبيل الحكم فالخيال الشعري منصرف فيهم الى الاحساس الديني . واما العرب فانه منصرف فيهم الى المفاخرة والحماسة والتشبيب مما تدعو اليه احوال البادية . وقد عدوا من اشعارهم بضعة عشر نوعاً معظمها من قبيل الشعر الموسيقي كالغزل والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والزهد والرثاء والتهاني والوعيد والحماسة وبعضها من قبيل الوصف كالزهريات والخمريات وبعضها من قبيل الحكم والامثال . ولو تدبرت معانيها لرأيتها ترجع الى التعبير عن عواطف الشاعر او عواطف قبيلته

﴿ الشعر القصصي وشعراء العرب ﴾ واما الشعر القصصي او الوصفي فلا نقول انه معدوم في العربية ولكنه قليل جداً وخصوصاً بعد زمن الجاهلية واكثر ما عثروا عليه منه لا يتجاوز وصف بعض الادوات او الحيوانات او بعض الوقائع القصيرة . واما الشعر القصصي على نحو ما في الياذة اليونان او مهابهاراتة الهند او شهنامة الفرس فلا وجود له عندهم . ولو تدبرت شعر العرب في الجاهلية وشعرهم في الاسلام على اختلاف عصوره لرأيته واحداً في موضوعه واسلوبه لولا التغيير الطفيف الذي لحق بعض الفاظه وبحوره مع ارتقاء عبارته بسبب القرآن والتمدن الاسلامي — واما في حقيقته فقد ظل كما كان في اقدم ازمانه — شعراً موسيقياً — وزادته الاجيال الاسلامية الوسطى ركاكة وضعفاً . فاشرق التمدن الحديث ونبغ شعراء هذه النهضة وفيهم من يضاهي البحتري وابا تمام والمتنبي في حدة الذهن وجودة القريحة ولكنهم لم يخرجوا في منظوماتهم عن تقليد القدماء في الاسلوب والعبارة حتى المعاني فانها معاني القدماء وهم انما يغيرون قوالبها و يبدلون الوانها — الا فئة قليلة ممن اطلعوا على آداب الافرنج وقرأوا اشعارهم القصصية وما تضمنته من الاساليب والفوائد فاستدركوا تجرد الشعر العربي منها واخذوا يقلدون الافرنج فيها . على ان جمهور الشعراء يعدون ذلك بدعة وفي قلوبهم وحول اعناقهم ما يحسّن لهم البقاء على القديم

فقضى شعراؤنا اوائل هذه النهضة وهم بين دافع الى الامام يرغبهم في الشعر القصصي والوصفي وجاذب الى الوراء يرجع بهم الى ما كان عليه اسلافهم منذ عشرة قرون من وصف الشوق

واستعطاف الحبيب والتفنن في اساليب المدح والرثاء والهجاء . يستهلون القصيدة بالغزل او وصف الخمر ثم يتخلصون الى المدح او الى الفخر والمعاني قديمة والاساليب قديمة — انقضت اوائل هذه النهضة والقرائح فوضى كما كانت حال الافرنج في اوائل انتقالهم من الطريقة المدرسية في الادب الى الطريقة الرومانية — ولا بد من التردد والفوضى في اوائل كل نهضة . ثم لا تزال الموازنة محفوظة في الجانبين حتى ينبغ من اهل القرائح من يرجح احدى الكفتين فيقيم الحجة على افضلية احدى الخطتين ببرهان محسوس . كما فعل فيكتور هوكو في ترجيح الطريقة الرومانية في الادب الفرنساوي على الطريقة المدرسية بما أنشأه ونظمه والّفه فاستحسن الناس ذلك بعد المعاينة . وكما فعل صديقنا البستاني في نظم الالياذة وهي في اصلها اليوناني اصدق مثال للشعر القصصي . ومن اعظم النعم على الادب العربي ان يتولى هو تعريبها فيخرجها لاهل هذا اللسان الياذة عربية ولو تولى ذلك غيره ربما جاء تعريبها قاضياً على الشعر القصصي في اللسان العربي اذ يندر ان يتوفر في شاعر واحد ما في البستاني من المواهب الطبيعية مع سعة الاطلاع في العلم والادب وسلامة الذوق في اللغة والشعر مما يستدعيه هذا العمل العظيم ليكون اتقانه حجة على القائلين ببعد الشعر القصصي عن الاساليب العربية

والشعر القصصي ويسميه ناظم الالياذة العربية « الملاحم » أحفظ لتاريخ الامة واقدر على تصوير عاداتها وآدابها . ولو نظم عرب الجاهلية الشعر القصصي على هذا النحو لما اظلم تاريخهم ولا ضاعت اخبار رجالهم ولا نشأت آدابهم وعاداتهم بل كان شأنهم مثل شأن جاهلية اليونان بالياذة هوميروس او شأن الهنود بالمهابهاراتة . وربما فاقوا الامتين فيه لانهم اطبع على الشعر من كليهما . ولكنهم رغبوا في رنة الشعر الموسيقي العاجلة عن فائدة الشعر القصصي الآجلة وزادت هذه الرغبة فيهم بعد تأسيس دولتهم وانشاء تمدنهم لاحتياجهم الى الشعر الموسيقي في اثارة النفوس واستنهاض الهمم واستجداء الخلفاء بالمدح ونحوه . فنظموا منه ما لم يتفق لأمة من امم الارض في عصر من العصور في كثرته وجودته حتى عدّت قصائدهم بعشرات الالوف وكلها بليغ متين . ولكن اكثرها ضاع لزوال الاسباب التي دعت الى نظمه او ساعدت على حفظه ولم يبق من شعر الجاهلية والاسلام الا القليل وسيذهب هذا ايضاً بتوالي الاعوام كما ذهب ما نظمهُ اليونان من الشعر الموسيقي وبقيت الالياذة وستبقى ما بقي الشعر . فلو كان شعر العرب قصصياً لبقي اكثره

ولما اشتغل المسلمون بنقل علوم اليونان وآدابهم الى العربية في العصر العباسي لم تكن

الالياذة في جملة منقولاتهم ولو نقلوها واحسن ناقلها سبكها لتحدى شعراء العرب النظم على مثالها واصبح الشعر القصصي في جملة آداب التمدن الاسلامي كما تحدَّوا الهند والفرس في تأليف القصص نثرًا بعد نقل كليلة ودمنة وهزار افسانه وسندباد الحكيم وبهرام شوس الى العربية على نحو ما نراه في كتاب الف ليلة وليلة وامثاله



محاربة زفس للطيطان — عن الالياذة العربية

ولو نظموا الشعر القصصي لخلدوا من صور حروبهم واخبار رجالهم ومجتمعاتهم وآدابهم اكثر كثيرًا مما خلده شعرهم الوصفي وقد يعجز عنه النثر لامكان تطرق التعريف والتصحيف والزيادة والحذف الى النثر وامتناعه في النظم لتقيده بالقافية والوزن

الالياذة العربية وهذه النهضة فبعد ظهور الالياذة العربية لم يبق لشعرائنا عذر في التقاعد عن نظم الشعر القصصي والوصفي لا سيما وان ناظمها حفظه الله قد توخى في نظمها اسباباً تبعث على الرغبة في ذلك فانه مع محافظته على الاصل اليوناني المحافظة التامة اجتنب حوشي الكلام ووحشيه وانتقى لما في الالياذة من التراكيب الوصفية الغريبة الفاظاً تناسبها ونهج اسلوباً في التركيب الوصفي يوافق الاسلوب العربي . وفعل نحو ذلك في تعريب المعبودات والاعلام ولاحظ تآلف الاحرف وتنافرها مع مراعاة اساليب الفصاحة العربية فجاء النظم فصيحاً بليغاً متناسباً متناسقاً . ولولا تنافر الاعلام اليونانية في بعض القصائد لخيل لك اذا قرأت الالياذة العربية انك تقرأ منظوم نوابغ الشعراء في ابان التمدن الاسلامي . ولا غرو اذا اغلق فهم بعض اياتها على العامة لان مواضيع الالياذة لاتلذ الا خاصة الادباء وذلك شأنها في سائر ما نقلت اليه من اللغات

اوزان الشعر ومواضيعه وقد احدث ناظم الالياذة في اساليب النظم العربي واوزانه قواعد جديدة تساعد على نظم الشعر القصصي وتزيده طلاوة ورونقاً لم يفطن لها احدٌ قبله . فبيّن العلاقة بين بحور الشعر ومواضيعه مما اكتسبه بمزاولة النظم وخصّه بالذوق السليم . فقال مثلاً ان البحر الطويل يستوعب ما لا يستوعبه غيره من المعاني ويتسع للفخر والحماسة والاستعارات وسرد الحوادث وتدوين الاخبار . ومن امثلة ما نظمه على هذا الوزن قولهُ :

اصاخوا ولبوا واستحاش اولو العزم ... يعبون ابطال المقاتلة البهم
يصدّ العدى آلوا واعراض جندهم ... مضت تتوارى فوق فلكهم الشم
تكاثفت الاغريق يلتف جيشهم ... وفي ملتقى الجيشين ضج الى النجم
طعانٌ مضت عن كل ساعد أيهم ... ووبل سهام عن بطون الكلى يهمي

وان البسيط يقرب من الطويل ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني ولا يابين لينه التصرف بالتراكيب والالفاظ وهو من وجه آخر يفوقه رقة وجزالة ولذلك قلّ في شعر ابناء الجاهلية . ومن امثلته في الالياذة قوله في مطلع النشيد الثامن عشر :

صدامهم كأوار النار محتدمٌ ... وانطاوخ به قد خفت القدمُ
أتى اخيل لدى الاسطول يخبط في ... بحـسراته قلقاً مما بدا لمُ
يئن وهو يناجي النفس مضطرباً : ... «ويلاه لام أرى الأرغوسة انهزموا
ولوا عباديد نحو الفلك شاردة ... هل جلّ خطب به الارباب قد حكموا

والكامل اتم الابحر ويصلح لكل نوع من انواع الشعر لكنه اجود في الخبر منه في الانشاء واقرب الى الشدة منه الى الرقة — ومن نظمه عليه :

طارت فيبٌ فألبسته مجنها | فالاسُ في هدّابه المسترسل
وعلى محياه غمامة عسجد | ألقت بنيض لها لهيب المشعل
فكأنما بلد بقلب جزيرة | حصرت علامنه الدخان المعتلي
خرجت بنوه الى مبارزة العدى | وقضوا نهارهم بقرع الانصل
حتى اذا برحت براح تألقت | نيرانهم من تحت ليل أليل

والوافر ألين البحور يشتد اذا شددته ويرق اذا رققته واكثر ما يجود به النظم في الفخر كمعلقة عمرو بن كلثوم · وفي الالياذة على هذا الوزن مطلع النشيد الخامس :

حبتْ فالاس ذاك اليوم عزماً | وبأساً لابن تيذيس منيعا
ليعظم في بني الاغريق شأناً | ويبلغ فيهم الشرف الرفيعا
وفوق صفاح مغفره أفاضت | وفوق مجنه قبساً بديعا
فشبَّ برأسه وبمنكبيه | شعاعٌ فاض مندفقاً سطيعا
ككوكبة الخريف قد استحمّت | بلج البحر وامتطت الرقيعا

والرمل بحر الرقة فيجود نظمه في الاحزان والافراح والزهريات ولهذا لعب به الاندلسيون كل ملعب واخرجوا منه ضروب الموشحات · ومن امثلته في الالياذة قوله في موشح :

بهما النور عن الارض ارتفع | وغمام الشر بالنور سطع
وحباب القطر من أكنافه | كحبوب الدر للارض وقع

والسريع بحر يتدفق سلاسة وعذوبة يحسن فيه الوصف وتمثيل العواطف ومن امثلته في الالياذة قوله من مطلع النشيد التاسع عشر :

ما اشتمل الفجر بثوب الجساد | من يمّه يبرز فوق البلاد
يرمقه معبودها والعباد
حتى انبرت دون الخلايا ثثيس | في تحف الرب هفستٍ تميس
فابصرت آخيل فوق الثرى | معانقاً فطرقل واري الفؤاد

والمتقارب بحر فيه رنة ونغمة مطربة على شدة مأنوسة وهو اصلح للعنف منه للرفق ومن امثلته :

وفوق جوارحه العرقْ من الجهد كالسيل يندفقْ
فشقَّ زَرَدْ أَفاسه عليه وقد كاد يختنقْ
وسيمَ على أزمةٍ أزمةً وزاد على القلق القلقْ
ألا ليت شعري كيف الاوار علا الفلك فلن فيان العلى

والحدث بحر أصابوا بتسميته بالخبب شيئاً يخبب الخيل فهو يصلح لوصف زحف الخيل او وقع المطر ومنه مطلع النشيد الثالث :

بحما الحيَّين على الحـدِّ نظم الفواد سرى الجند
زحفت طرواده عن بعد بصديد عالٍ مشتـدِّ
ودويٌّ يعصف كالرعد

والرجز يسمونه حمار الشعر وإسهولة نظمه وقع عليه اختيار جميع العلماء لنظم المتون العلمية كالنحو والفقه والمنطق فهو اسهل البحور للنظم لكنه يقصر عنها جميعاً في ايقاظ الشعائر واثارة الخواطر فيجود في وصف الوقائع البسيطة وايراد الامثال والحكم

(أساليب جديدة) ومما تضمنته الالياذة العربية مما لم يسبق له مثيل في الشعر العربي اساليب جديدة في نظم التخاميس والاراجيز سماها ناظم الالياذة باسماء خاصة بها كالمثنَّى : وفيه بني القصيدة على قافية يرجع اليها في كل بيتين مرة وعروض البيت الثاني فيه مطلقة من القافية على نحو ما اصطلح عليه المتأخرون في الرباعي او الدوبيت . والمربع : وهو كالمثنَّى انما يرجع الى القافية في كل اربعة أبيات ومثلها المثمن او المربع المسمط والموشح المسبع والموشح المثمن والموشح المزدوج ثم المستطرد : وهو ما تُبنى القصيدة فيه على قافيتين فا كثر يرجع الى كل واحدة منها كلما استطرد الى الموضوع الذي قيلت في أوله . ومصرَّع المتقارب : وهو عبارة عن تصريع بحر المتقارب على تلك الصورة ومثله مصرع الرجز ومقفاه . ويعدُّ هذا التنويع ارتقاء في الشعر العربي ويسهل السبيل الى نظم الشعر القصصي

(تاريخ الشعر العربي) وفي مقدمة الالياذة العربية فصل في تاريخ الشعر العربي من أول عهده الى اليوم وهو يدل على احاطة المؤلف بفنون الشعر وأساليبه وطبقات الشعراء وأشعارهم وتاريخ العرب وادابهم وعلومهم في جاهليتهم واسلامهم بما لم يبق بعده غاية . وقد جرَّهُ ذلك الى البحث في اللغة العربية وما أثره فيها القرآن ثم قابل بينها وبين لغة الالياذة اي لغة قدماء اليونان وبين كيف تلاشت الثانية وبقيت الاولى والفضل في بقائها

للقرآن . ثم تكلم في اطوار الشعر العربي وبين الصفات المميزة لكل طبقة من طبقات الشعراء الجاهليين والمخضرمين والمولدين والمحدثين والمتأخرين وجرى في ذلك التقسيم على ما دله عليه بحثه تخالف فيه تقسيم القدماء وأتى بالادلة والامثلة مما لم يدع سبيلاً



فرسيس على الفرس الطيار — عن الالياذة العربية

لمستزيد . وانتقد شعر كل طبقة وبين حسناتها وسيئاتها على أسلوب طلي لذيذ . وفصل الكلام في علوم الادب عند المولدين كالعروض والبديع والبيان بما كان لها من التأثير في شعر المولدين . وذكر فصلاً خاصاً في الملاحم وما هي عند اليونان والعرب واقتضى ذلك ان ينظر في جاهليتي الامتين فبحث فيهما بحث عالم مدقق واستخرج النتائج الصحيحة الدالة على دقة النظر وسعة العلم . واردف ذلك ببحث فلسفي في الحقيقة والمجاز وعلاقتهما بالشعر ثم بحث في النقل والسرقة وتوارد الخواطر فانتقد على الباحثين في الشعر العربي لانهم يضعون البديهيات موضع المبتكرات فينكرون على

كل شاعر متأخر ان ينتحل معنى سبق اليه فيخلطون بين السرقة وتوارد الخواطر • فتشبيه الوجه المستدير بالقمر واستعارة النار للتعبير عن الشوق والكناية عن الرجل الشجاع بالاسد انما هي من البديهيات فلو جاءت في أقوال عدة شعراء لا تعد سرقة بل توارداً ولذلك فانه خالف رأي صاحب « الابانة عن سرقات المتنبي » في قوله ان ابن الرومي وأبا الهندي محمد بن هشام الفاري والمتنبي تناقلوا بعضهم عن بعض معنى طول الليل الذي يقول فيه ابن الرومي

فكأن ليلتنا عليّ لطولها ثبتت تمخض عن صباح الموقف

ثم قال فيه الآخرون نحو ذلك لان هذا المعنى من البديهيات تتوارد على خواطر الشعراء وغير الشعراء • وتطرق بذلك الى نظر شعراء اللاتين والافرنج في هذا الموضوع فبين انهم لم يحاذروا مثل هذه المحاذرة ولا سيما بالنظر الى الالياذة فانها كانت مورد السرقة لهم جميعاً وأتى بالامثلة على ما اقتبسوه منها • ثم انتقل الى فصل فلسفي في تأثير الحضارة على الاذواق بحيث يستهجن الناس اليوم ما استحسنوه بالامس وضرب من الامثلة الفاظاً عربية كان يستخدمها القدماء لمعان تبدلت الآن بما يخالفها او يناقضها وقابل في ذلك بين ما جاء في الالياذة اليونانية وما في اللغة العربية من أمثالها كلفظ الثور مثلاً فانها كانت تدل عند قدماء العرب على السيد وكذلك الرت وهو الخنزير معناه عندهم أيضاً الباسل المقدام واظهر مزية لغة العرب في هذا الباب على لغات الافرنج

وجملة القول ان الالياذة العربية بما فيها من الابحاث الشعرية المبتكرة جديرة ان تكون بدء نهضة جديدة في الشعر العربي فتتجه عناية شعرائنا الى نظم الشعر القصصي او الوصفي بعد أن تبين من نظم الالياذة ان اللغة العربية متسعة لذلك والنهضة العمومية تستلزم هذا الاصلاح • وان تصرف القرائح في الشعر الموسيقي عن الاساليب القديمة كالاستهلال بالتشبيب او ذكر الخمر او الزهر والتخلص الى المدح او غيره فيسير الناس على ما يقتضيه نور العلم في تحدي المعقول والاقتراب من الحقيقة بقدر الامكان — وسنتكلم عن الالياذة العربية والآداب العربية في هلال آخر

تاريخ علم الادب

عند الافرنج والعرب

لكاتب فاضل

٣٧ — الاجمال

فاجمالاً لما تقدم لنا ذكره نقول:

ان الشعر له ثلاثة أدوار وهي الغناء والحماسة والدرام . ولكل منها مناسبة بدور من ادوار الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم . فالقرون الابتدائية غنائية . والقرون القديمة حماسية . والقرون الجديدة درامية والغناء يترنم في الازل . والحماسة تحتفل بالتاريخ والدرام يصور حياة الانسان . وخاصة الاول السذاجة . وخاصة الثاني البساطة . وخاصة الثالث الحقيقة . فرواة اليونان — ويسمونهم رابزود وهم اشبه برواة العرب الذين جاء منهم حماد الراوية وكانوا يطوفون القرى ويروون اشعار بندار وهوميروس وأشيل — يدلون على دور الانتقال من الشعراء المغنيين أي الناظمين لشعر الاغاني الى الشعراء الحماسيين . والرومانيون اي مؤلفو الرومانات وهي الاقاصيص الموضوعة يدلون على دور الانتقال من الشعراء الحماسيين الى الشعراء الدراميين . وبظهور الدور الثاني ظهر المؤرخون . وبظهور الدور الثالث ظهر الباحثون في حكمة التاريخ وبيان أسباب الوقائع وعللها

وأشخاص شعر الاغاني عظام الاجسام طوال القامات والاعمار مثل آدم وقايين وهابيل ونوح . ويدخل في زمرتهم عوج بن عناق . وأشخاص شعر الحماسة من القوم الجبارين وهم أقوياء أشداء . مثل أشيل بطل الحروب اليونانية واسترة آلهة العدل وأوريست بن أغا ممنون الذي الف فيه شعراء اليونان رواياتهم ثم جاء فولتر ونسج على منوالها روايته المشهورة باسم اوريست . ويدخل في زمرتهم عنترة بن شداد . وأشخاص الدرام هم بشر على الصورة الحقيقية للانسان مثل هاملت وماقبت

وأوتيلو الذين صورهم شكسبير في رواياته المشهورة بهذه الاسماء . وربما دخل في زمرتهم أبو زيد السروجي في مقامات الحريري والشيخ علي بن منصور الحلبي في رسالة غفران المعري . ومنبع الاغاني الوهم والخيال ومنبع الحماسة العظمة والفخامة ومنبع الدرام الحقيقة . وتنفجر هذه الينابيع الثلاثة من ثلاثة بحور كبيرة التوراة وهوميروس وشكسبير

فهذه هي أشكال الفكر المختلفة بحسب اختلاف القرون التي تقلب فيها الانسان والعمران . وهي في ثلاثة ادوار الشباب والكهولة والشيخوخة فسواء نظرنا في أدب أمة على حدتها أو في أدب البشر على وجه العموم فالنتيجة التي نستنتجها من جميع ذلك واحدة . وهي تقدم الشعراء المغنين او الغنائيين وهم الناظمون أشعار الاغاني على الشعراء الحماسيين أي الناظمين شعر الحماسة وتقدم الشعراء الحماسيين على الشعراء الدراميين . ففي فرانسا ماليرب (١٥٥٥ — ١٦٢٨ م) سابق على شابلين (١٥٩٥ — ١٦٧٤ م) وشابلين سابق على قورنيل (١٦٠٦ — ١٦٨٤ م) والاول هو الشاعر الغنائي (ليريك) الذي أصلح اللغة الفرنساوية وقال فيه بوالو « وفي النهاية أتى ماليرب ...... فذهبت مثلا . وأما الثاني فانتقد عليه بوالو في الشعر وسخر به حتى جعله أعجوبة وهزؤا . ويلقب الثالث بأبي التراجيديا وهي الروايات الفاجعات . وكذا الحال عند قدماء اليونان فشاعرهم المسمى (اورفيوس) متقدم على هوميروس . وهوميروس متقدم على (ايشيل) الملقب بأبي التراجيديا اليونانية . وفي كتاب العهد القديم أي التوراة سفر التكوين متقدم على سفر الملوك . وسفر الملوك متقدم على سفر أيوب عليه السلام . واذا نظرنا في أدب البشر على وجه العموم نرى التوراة قبل الالياذة . والالياذة قبل شكسبير

ولا غرو في ذلك فان الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم يبتدئ في الترنم بما يتخيله . ثم يقص مايعمله . ثم يصور مايفتكره . فالدرام بجمعه بين الاوصاف المتضادة كان اوعب للافكار الفلسفية والتصورات العميقة . وكل مافي الطبيعة وما في الحياة ينقلب في هذه الاشكال الثلاثة وهي الغناء والحماسة والدرام .

لان كل مافي الوجود يولد ويعمل ويموت · ولو أبيح التعبير عن الحقائق البرهانية بالتخيلات الشعرية لقال الشاعر بلسان الشعر ان الشمس عند طلوعها ترنم بالغناء وعند القائلة أي الظهيرة تفاخر بالحماسة وعند الغروب تفجع بالمصيبة وهي الدرام . فهذا التعبير هو من باب الشعر وربما كان ضرباً من الجنون – انتهى كلامه ببعض تصرف وزيادة

ثم شرع صاحب مقدمة كروموبل في الرد على أصحاب الطريقة المدرسية في تقسيمهم الشعر الى الاجناس التي سبق ذكرها في الكلام على بوالو وفي تحديدهم كل جنس منها بالحدود والتعاريف وفي تفريقهم بين التراجيديا والكوميديا · وابطل قولهم بلزوم وحدة الزمان والمكان في الروايات التمثيلية ولم يقبل من وحداتهم الثلاث الا وحدة العمل · وقد ضربنا صفحاً عن ايراد كلامه في هذه المباحث خوف التطويل ولان الروايات التمثيلية على مافيها من الفوائد الجليلة في أساليب البلاغة لم تشتهر لهذا الزمان بين المتكلمين بالعربية ولا اعتنى فحول أدبائنا في تأليف الروايات لا بالنظم ولا بالسجع ولا بالنثر كما فعلت النشأة الجديدة من أدباء اللسان العثماني ·

وقد حض فيكتور هوكو في تلك المقدمة على تأليف روايات (الدرام) بالشعر لا بالنثر وقال « بأن بيت الشعر يحيط بالمعنى احاطة الثوب الارجواني بالبدن ويضيق عليه ويوضحه معاً · ويعطيه شكلاً الطف وأدق وأتم من شكل النثر · ويديره علينا كأنه نوع من أنواع الاكسير الذي استخرجه الكيمائيون من خمير الذهب وزعموا ان فيه لذة للشاربين وشفاء للاجسام من جميع العلل والاسقام · فبيت الشعر على رأي فيكتور هوكو هو القالب الشفاف للمعنى · واذا تلطف الشاعر في نظمه وانشائه اكسب المعنى رونقاً لولا بيت الشعر لمرّ ذلك المعنى غير ملتفت اليه · فالشعر هو العقدة التي تربط سلك المعاني او المنطقة التي تضم حواشي الهدم على الجسم وتطويه طيات متناسبة بالهندام · والشعر يزيل من الالفاظ ماهو سوقي مبتذل او عامي سخيف ويكسب المعاني حلاوة وطلاوة ورشاقة · سيما اذا اقتصر الشاعر على استعمال الالفاظ المتعارفة بين الناس المتداولة على الالسن · وترك ما كان

وحشياً غريباً في اللغة . وعرض فيكتور هوكو بالذاهبين الى ان « أعذب الشعر كذبه » بقوله ليت شعري ما الذي يضيع من الشعر ان دخلت فيه الطبيعة والحقيقة ؟ وهل تنتقص الخمر صفة من أوصافها ان وضعت في أباريق الزجاج وختم عليها ؟ كلا بل تصير رحيقاً معتقة ختامها مسك يتنافس بها المتنافسون . وختم المؤلف مقدمة كرومويل ببيان المقتضى للشاعر من النسج على منوال الطبيعة (لان كل مافي الطبيعة هو في صناعة الشعر) . وان كان الشاعر جيد القريحة فلا حرج عليه في شيء من القواعد وله الحرية المطلقة في التصرف بجميع أفانين الشعر على حسب ما يرتئيه

فهذه خلاصة مقدمة كرومويل الشهيرة بين الادباء على اختلاف لغاتهم وتباين مذاهبهم ومنها يفهم ان الطريقة الرومانية ارجعت الشعر الى الحقيقة والطبيعة والحياة وتركت فيه التصنع وزخرفة الكلام واجراس الالفاظ . ولم تلتفت الى زعم اهل الطريقة المدرسية بان زخرف القول من مقتضى الذوق السليم للشاعر . وازالت جميع الحواجز التي تعرض امام سجية الطبع وتصد الفكر عن تصوُّر الحقيقة والطبيعة وتوصيف الموجودات بحسب ما هو مغروس في جبلة كل منها سواء كان من صفات القبح او صفات الجمال بلا تفريق بينهما . ولذا نكتت بعض الجرائد بقولها على سبيل التقريظ والتبكيت : « فليعش الانكليز والالمان . فلتعش الطبيعة الهمجية الوحشية التي نشاهد جمالها في اشعار فيكتور هوكو واخوانه من أهل الطريقة الرومانية . » أشارة الى ان أساليب هذه الطريقة أول ما ظهرت في أدب الانكليز والالمان كما تقدم بيانه . وعرف بعضهم الروماني اي السالك نهج الطريقة الرومانية « بأنه رجل ابتدأ عقله في الاختلال »

فمن امعن النظر في البحث الاخير من تلك المقدمة وجده مطابقاً لما ذكره أئمة البلاغة والادب في لسان العرب كأبي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وأمثالهم . ولا حاجة لايراد أقوالهم في هذا الباب فأنها معلومة ومحصلها وجوب نصرة المعنى على اللفظ لان الالفاظ خدم المعاني . قال الباقلاني « والشعر وان ضيق نطاق

القول فهو يجمع حواشيه . ويضم اطرافه ونواحيه . فهو اذا تهذب في بابه . ووفى له جميع أسبابه . لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب » وقول فيكتور هوكو إن الخاصة المميزة لادب الطريقة الرومانية عن غيره هي الجمع بين نموذج السخرية ونموذج الاعجاز بالفصاحه اشبه بقول المتنبي « وبضدها تتميز الاشياء » ولعل السبب الذي حمل المتنبي والمعري على ترك اساليب الجاهلية والنسج على منوال جديد هو الذي ذكره فيكتور هوكو من ان أساليب المتقدمين كانت معتبرة في بادىء امرها ثم باضطرادها على قياس واحد مراعاة للقوانين ثقلت على السمع وملها الطبع وسترى حقيقة ذلك في التعريف الآتي للطريقة الرومانية

اما عدم تعرض فيكتور هوكو لادب العرب كما تعرض لادب الامم الاوروبية ولادب الفارسية القديمة فهو لجهله — سيما في ذلك التاريخ الذي ألف فيه مقدمته — بفصاحة العرب واعجاز القرآن وحضارة الاسلام . فان التمدن العربي لم يدرس حق درسه ليومنا هذا . ولم يزل صاحبنا المستشرق اليهودي العلامة كولدزير يحض المستشرقين من كل أمة على التعاون والاشتراك في تأليف دائرة للمعارف الاسلامية فان تم هذا المشروع وانجزت ترجمة المهم من كتب الادب العربية ربما تيسر بعد ذلك للباحث الاطلاع على كنه العلوم والآداب الاسلامية . ولم يزل المستشرقون يترجمون في الصور بين القرآن الكريم وتفسير البيضاوي ترجمة صحيحة مدققة ولا يكلمون في كل سنة اكثر من بضع صحائف ولم يترجم من كلام المعري سوى وريقة فيها نحو مائتي بيت نشرت بالالمانية في فيينا عاصمة النمسا سنة ١٨٨٨م . فهم يتقربون من فهم حقيقة الادب العربي رويداً رويداً . وقد رأينا فيما تقدم ان صاحب أغاني رولان يعتقد بأن الاسلام فرع من عبادة الاصنام ويحسب ابولون من جملة اوثان المسلمين . ولو علم فولتير من احوال الشرق ما يعلمه حلاً ء هذا العصر لاستحيى من نفسه ومزّق الرواية التي حررها باسم « محمد النبي » عليه السلام وقدمها للبابا بنوا الرابع عشر بعد ان سجد لديه وقبل قدميه (١) . ولما ذهب فيكتور هوكو لاسبانيا

(١) قدم فولتير روايته المذكورة مع تحرير منه للبابا ختمه بالسجود بين يديه ولثم

رأى آثار العرب في المباني والقصور والقناطر وقدرها حق قدرها ولكنه لم يفهم من الآيات والابيات المنقوشة على جدرانها اكثر مما نفهمه من احرف الصين المنقوشة على البضائع الصينية وخصوصاً على علب الشاي . ولما ظهر رينان وصار شيخ العلماء في عصره درس ادب العرب الاندلسيين من حيث الفلسفة ولخص ما حققه في كتاب سماه « ابن رشد » . فقام اليوم البارون قرا درفو معلم العربية في الانستيتو الكاثوليكية باريس ونشر كتابين احدهما « ابن سينا » والثاني « الغزالي » ودرس في الاول ادب العرب وفلسفتهم الشرقية وفي الآخر علومهم الكلاميــة والالهية فالكتب الثلاثة المذكورة من أحسن ما حرر في هذا الصدد ولكن الموضوع محتاج الى تعميق وتدقيق . ولا يتيسر ذلك الا بعد استخراج الكتب العربية وفهمها . وقد خبط رينان في بعض ماحرره عن الاسلام خبط عشواء وفتح لشارل ميزمر وأمثاله باباً للاعتراض عليه . كما ان البارون الكاثوليكي تعصب على ابن سينا والغزالي في ما حرره . ومع هذا قال رينان في الخطاب الذي نشره سنة ١٨٨٣ م « بان اوربا ظلت متخلفة في العلم والادب عن العالم الاسلامي وخاضعة فيهما اليه حتى أوائل القرن الثالث عشر . وفيه أخذ العالم المسيحي يرقى درجات العلم والعمران والعالم الاسلامي يهبط في الدرك الاسفل من الجهل وانحطاط الحضارة . واندثرت علوم العرب بعد ما نفحت جراثيم الحياة في الجسم العالم اللاتيني الغربي واستمر المترجمون من سنة ١١٣٠ م الى سنة ١١٥٠ يترجمون في مدينة طليطلة كتب العلم من العربية الى اللاتينية وهم تحت حماية الاسقف ريموند . وفي السنين الاولى من القرن الثالث عشر شرعت مدرسة باريس الكلية في تدريس كتب ابن رشد ارسطوطاليس العرب . أما ارتحال البابا سيلفستر الثاني لطلب العلم في أشبيلية وان كان مشكوكاً فيه فقسطنطين الافريقي علامة عصره لا شبهة في أخذه العلم عن المسلمين . اهـ » وقسطنطين الافريقي الذي يذكره رينان ولد سنة ١٠١٥ م في قرطاجنة و بعد ان حصل علوم الطب والحكمة صار كاتباً لاحد الامراء ثم دخل سلك الرهبنة في ايطاليا

قدميه فحمله البابا الى قاهره وأجابه عليه بجواب لطيف مؤرخ ١٩ سبتمبر سنة ١٧٤٥

وادخل فيها علوم العرب وله مجموعتان كبيرتان باللاتينية طبعتا في بال سنة ١٥٣٩ م

ودام قول فيكتور هوكو هو المعول عليه في الطريقة الرومانية الى ان اشتهرت الطريقة الطبيعية (ناتور اليزم) في سنة ١٨٦٠ على عهد الامبراطورية الثانية وقام أصحابها يناقشون فيكتور هوكو وشيعته وينتقدون عليهم . على ان الرجل وان ظهرت له معجزات في آيات البيان فهو ليس بنبي ولا تجب له العصمة عن الخطإ والنسيان ومن هو الرجل الذي تحمد كل سجاياه ؟ ومن هو المبرء من كل عيب ؟ وكفاه نبلاً انه خطا في الادب خطوة الامام ومهد الطريق لمن أتى بعده ولولا ظهور الطريقة الرومانية لما ظهرت الطريقة الطبيعية ولا حصل ارتقاء ونهضة في الادب . ثم ان مقدمة كروموبل وان بحث فيها المؤلف عن تاريخ الادب وبيان الخاصة المميزة لادب الطريقة الرومانية عما سواه فهي احق بان تكون تعريفاً لنوع الدرام وحده وهو فن من فنون الشعر والادب . وأما التعريف الشامل لجميع ما حرر من فنون الادب على نهج هذه الطريقة المتقدمة منظوماً كان او منثوراً فهو ما يأتي . اذ من شرط التعريف ان يكون جامعاً للافراد مانعاً من دخول الاغيار فيه . ولا يكفي ان يكون منطبقاً على فرد من أفراده فقط . وتعريف الطريقة الرومانية تعريفاً جامعاً مانعاً ليس بالامر السهل ولا يتيسر الا بالنظر في الخواص الظاهرة والمشتركة بين جميع فنون الادب المنسوجة على أساليب الطريقة الرومانية والمنشأة في قوالبها

تاريخ التمدن الاسلامي

سيصدر الجزء الثالث من هذا الكتاب في أوائل اوغسطس القادم . وموضوعه البحث في تاريخ العلم والادب في التمدن الاسلامي وما كان منها قبل الاسلام وما اثره الاسلام في القرائح والعقول وما ترتب على ذلك من ظهور العلوم الاسلامية . ثم البحث في حال العلم عند الروم والفرس في أوائل الاسلام . وكيف نقل العرب علوم الاقدمين الى العربية والاسباب التي دعت الى كل ذلك ووصف حال العلم بعد

باب السؤال والاقتراح

الحب وأسبابه

(شيكاغو . أميركا) رشيد افندي مزهر

ماهو الحب وكيف يبتدىء وهل هو اختياري أم هو عامل اضطراري اذ قد يحب الانسان ما لا يريده وقلما يريد مالا يحبه فما هو تعليل ذلك

(الهلال) الحب أنواع ودرجات وله أسباب مختلفة وأحكام متباينة مما يجعل البحث فيه مضطرباً مشوشاً . واذا أمعنا النظر رأيناه ينقسم الى قسمين كبيرين اضطراري واختياري . فالحب الاضطراري هو الحب الجنسي بين الرجل والمرأة لانه طبيعي يندفع الانسان اليه من فطرته بلا اسباب ولا مسوغ ولا دليل — فقد يرى الشاب شابة لاول مرة فيشعر بتجاذب يقوى بالتكرار وقد يكون قوياً من أول نظرة لو سألته عن سبب ذلك الحب لاسنده الى الجمال أو أدب أو اعجاب ببعض الخصال أو المناقب والحقيقة أنه لا يعرف السبب الحقيقي . وقد يبدأ الحب الجنسي بسبب أو باعث من قبيل ماتقدم وانما يكون ذلك في بادىء الرأي فاذا تمكن ضاعت الاسباب وأنسيت البواعث ولذلك قيل :

والحب أول مايكون مجانة فاذا تمكن صار شغلاً شاغلا

اذ قد تنقلب تلك الاسباب الى ضدها ولا يؤثر ذلك الانقلاب شيئاً في عواطف المحبين . كأن ينعطف الشاب الى شابة عند أول مقابلة اعجاباً بفصاحتها أو آدابها فاذا تكرر الاجتماع تدرج القلبان في التجاذب من الارتياح الى الميل فالرغبة فالاشتياق فالهوى فالعلاقة فالكلف فالعشق فالشغف فالجوى فالتيم فالتبل فالتدليه فالهيوم فالجنون — ويتفاوت الناس في بلوغ هذه الدرجات — على انه اذا تجاوز الميل وبلغ

الى الهوى (وكان الحب طاهرًا) فلا حيلة في الرجوع ولو رأى الشاب في الفتاة غير ما كان يتوقعه من المناقب وقد يتركها ويحاول السلو ولكنه يفعل ذلك مضطرًا ولا يزال قلبه يختلج عند ذكرها على حد قول الشاعر :

تركت حبيب القلب لا عن ملالة ... ولكن جنى ذنبا يؤدي الى الترك
أراد شريكاً في المحبة بيننا ... وايمان قلبي لا يميل الى الشرك

وقول الآخر :

انت وعدتني يا قلب اني ... اذا ما تبتُ عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى ... فما لك كلما ذكرت تذوب

وقد يقاسي المحبون عذاب الجحيم في سبيل الحب وهم لا يزدادون الا حباً وقد لا يكون الحب متبادلاً مع ان تبادله يزيد القلوب ائتلافاً . فاذا بلغ الحب درجاته الاخيرة لم يعد لصده من سبيل ولو تحقق المحب امتناع حبيبه عليه واليك ما قاله مجنون ليلى :

فان تمنعوا ليلى وطيب حديثها ... عليَّ فلن تحموا عليَّ القوافيا
فاشهد عند الله أني أحبها ... فهذا لها عندي فما عندها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا ... وبالشوق مني والغرام قضى ليا
يقولون ليلى أهل بيتي عدوةٌ ... وأفديك يا ليلى بنفسي وما ليا
يقولون ليلى بالعراق مريضةٌ ... فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
يقولون سوداء الجبين ذميمةٌ ... ولولا سواد المسك ما كان غاليا
خليلان لا نرجو لقاء ولا ترى ... خليلين الا يطلبان التلاقيا
فيارب اذ صيرت ليلى هي المنى ... فزني بعينيها كما زنتها ليا
والا فبغّضها اليَّ وأهلها ... فاني بليلى قد لقيت الدواهيا

فالمحبون يفعلون ذلك وقد غلب الحب على عقولهم فيأتون مالا يأتيه غير المجانين قال جميل بثينة :

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ... ولكن طلابيها لمافات من عقلي

والحب الاختياري يشمل معظم ما بقي من ضروب الحب وأهمها حب البنين والاهل وحب الاصدقاء والوطن . فحبُّ البنين سميناه اختيارياً لانه يحدث بالعادة والائتلاف تدريجاً ولكنه لا يلبث أن يصير اضطرارياً . فالانسان يحب امرأته حباً طبيعياً لا تكلف فيه ولا تعمل فاذا ولد لهما طفلٌ أحباه في أول الامر لانه من ثمار تلك المحبة ثم تتزايد محبته بالعادة والالفة حتى يشعر الوالدان أنها طبيعية وانهما مندفعان اليها بالفطرة

وحب الاصدقاء قد يكون من نتائج العادة ولكن الغالب ان يكون سببه حب الصفات المجردة كالفضائل او المواهب او نحوها من المناقب التي يرغب فيها الناس. فحب العلم مثلاً يحبِّبُ العلماء ومحب الشجاعة يحب الشجعان ومحب الفضيلة يحب الفضلاء ولهذا السبب ترى الحب يتعاظم أحياناً بين رجلين لم يتواجها ولكنهما تحابا لما بين طباعهما من التشابه . وقد يحب الرجل رجلاً مات منذ قرون لاتصافه بخلال تنطبق على امياله هو . ومن هذا القبيل حبُّ قراء الروايات لبعض اشخاص الرواية التي يقرأونها ولا وجود لاولئك الاشخاص الا في مخيلة المؤلف . فهم انما يحبون مناقبهم وخصالهم . فالراغب في الشجاعة اذا قرأ قصة عنتر أحب عنترة وعشقه وتألم لكل ما يصيبه من أسر او طعن ويفرح بما يناله من نصر او كسب وقس على ذلك

ومن هذا القبيل أيضاً الحبُّ الديني اي يحب الانسان لابناء مذهبه ولو تباعدت البلاد واختلفت اللغات والعادات . فالمسلم المصري اذا احب المسلم الهندي فهو انما يحب الاسلام . والنصراني العربي اذا أحب النصراني الافرنجي فهو انما يحب النصرانية

وحب الوطن او العشيرة او نحوهما من الجماعات مرجعه الى حب الذات لان الانسان يحب ذاته ويحب كل ما يأتيها الخير على يده . وقد يكون للعادة أو الالفة دخل في ذلك مثل دخلها في سائر أنواع المحبة ولكن الاصل في حب الجماعات على الاجمال ارتجاء المنافع بها للافراد بالتبادل . كما يتآلف أهل البلد الواحد ولو اختلفوا في الطبائع والاذواق فهم انما يجتمعون للانتفاع المتبادل . على ان في كل وطن او عشيرة آداباً مشتركة وعادات مشتركة تدعو الى زيادة الالفة

على انك لو تدبرت كل انواع الحب ورجعت في التعليل الى اسبابها الاصلية لرأيت مرجعها الى حب الذات (راجع مقالتنا «الحب والجاذبية» في الهلال الرابع من السنة السابعة)

الجامعة الشرقية

(القاهرة) حسن افندي محمد الحسيني

سمعت بعض المتحزبين لليابان من اهل هذه البلاد يجعلون سبب تحزبهم اننا واليابانيين ابناء وطن واحد هو الشرق فما هي هذه الجامعة

(الهلال) الانسان اجتماعيٌّ من فطرته وسبب ميله الى الاجتماع والعصبية احتياجه الى التعاون لسد حاجياته لانها كثيرة واقدم العصبيات «الجامعة الانسانية» فلما كثر الناس وتنازعوا انشأت الجامعة العائلية ثم الوطنية ثم جامعة اللغة ثم تدينوا فنشأت الجامعة الدينية. ولما تمدنوا وتعددت اسباب الاجتماع كثرت الوسائل المؤدية اليه وتضاعفت وتقاطعت حتى ترى الواحد منا تجمعه مع عمرو جامعة الدين ومع بكر جامعة اللغة ومع خالد جامعة الصناعة او المهنة او الغرض او غير ذلك. ولا يكاد يخلو اثنان من اسباب تجمعها واسباب تفرقها فيختاران من تلك الاسباب ما يوافق حاجتها الوقتية. فاذا احتاج المصري الى الاجتماع بالياباني والافتراق عن الروسي مثلاً قال ان اليابان من اهل الشرق مثلنا وان الروس من أهل الغرب. واذا اراد العكس رأى اليابانيين يفترقون عنه لغة ودينًا وادبًا وتمدنًا وخلقًا وجنسًا ورأى الروسيين اهل كتب الهية مثل كتبنا واهل تمدن مثل تمدننا وانهم اقرب الينا وطنًا وخلقًا

واما الجامعة الشرقية بحد ذاتها فتختلف حدودها باختلاف حدود الشرق وهذه يختلف تعريفها باختلاف الاعصر والاغراض. فمنهم من يعد الشرق مصر والشام فقط وآخرون يضيفون اليه العراق و بلاد العرب. ومنهم من يريد به المملكة العثمانية ويسمونه الشرق الادنى وآخرون يجعلون بلاد ايران والهند من جملة الشرق وغيرهم يضيفون اليه



داء النوم واسبابه

ذكرنا في الهلال غير مرة مرضاً فتاكاً ظهر في أواسط افريقيا منذ بضع عشرة سنة أهم أعراضه الظاهرة الميل الشديد الى النوم . وان العلماء اهتموا في البحث عن أسبابه وتعينت اللجان من الاطباء وسافروا الى تلك الاصقاع المحرقة لدرسه في أماكنه . واصبح العالم المتمدن على مثل الجمر في انتظار نتيجة تلك الابحاث . وقد توفق بعضهم بالامس الى اكتشاف علة ذلك الداء كما ستراه مفصلاً في ما يلي بعد أن نتقدّم الكلام في ماهيته واعراضه فنقول :

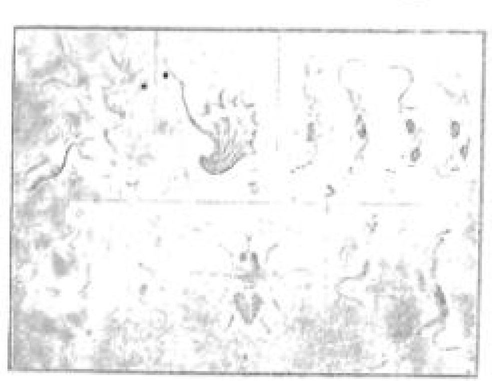
﴿ وطن هذا الداء وفتكه ﴾ ظهر داء النوم في الكونغو والسودان واوغندا وما يجاورها من أواسط أفريقيا وتفشى هناك بسرعة عظيمة لكنه لم يصب غير القبائل الزنجية وقد اشتد فتكه فيهم لشدة اعراضه وسرعة الاصابة به وقلة الشفاء منه حتى قدّروا أنه لا يشفى مصابٌ واحد من كل ١٥٠ مصاباً . وربما نزل في بلد أهله بضعة آلاف فيصبحون بعد قليل بضع مئات . فعني بعض الساعين في البحث عن أسباب هذا المرض ونقلوا من أهل كونغولا ثلاثة رجال اصيبوا به وأتوا بهم الى باريس واسماؤهم بو بانغي وماكايا وساليان فماتوا هناك رغم ما بذله الاستاذ بلانكار والطبيبان بروموت وورتز من العناية في شأنهم

﴿ اعراضه ﴾ لا تظهر اعراض هذا الداء الا بعد حضانة تختلف مدتها طولاً وقصراً باختلاف الاحوال . وأول ما يشعر به المصاب ألمٌ خفيف في الرأس وتعب غير واضح في أعلى الصدر . ثم يحسُّ بانحطاط في قوته واضطراب في مشيته

وثقل في كلامه مع ميل الى النوم في أية ساعة من ساعات النهار او الليل حتى وهو ماش أو مشتغلٌ في أي عمل كان. ثم ترتفع حرارته الى درجة ٣٩ سنتكراد ويسرع نبضهُ حتى يضرب من ٩٠ الى ١٣٠ ضربة في الدقيقة. ويشعر بانقباض النفس والميل الى الانفراد وتضعف ذاكرته - هذا هو الدور الاول من سير هذا الداء واذا عولج بالعناية الكافية ربما حدث فيه بعض التحسين والا فينتقل الى دور الشدة فالخطر. واعراض هذا الدور ضعف متواصل يزداد بالتدريج ونعاس غالبٌ لا يمكن ردُّهُ وانحطاط عضلي شديد. اذا مشى المصاب ترنح كالسكران فيستلقي على الرمل من شدة النعاس ولو ترك انام ليلاً ونهارًا لا يلتمس طعامًا ولا شرابًا ولا يبالي لذعة الشمس أو قرصة البرد. واذا عمدوا الى ايقاظه بالعنف انهض رأسه بمشقة وعيناه عابستان وشفتاه مفتوحتان والانقباض ظاهر في سحنته واللعاب يتحلب من فيه. واذا خاطبوه أجاب بالفاظ متقطعة وعاد الى الرقاد. وكثيرًا ما يرافق هذه الاعراض تضخم غدد العنق والغدة العابية واتساع الحدقة. وفي دور التقهقر يهيج العصب ويحدث الحكاك ثم يتلوه الخدر والشلل الموضعي وانقباض عضلات العنق ثم يسرع النبض مع ضعفٍ وتقطعٍ وتظهر حبوبٌ في الوجه. ويعقب ذلك نومٌ متواصل يليه السبات فالتشنج فالموت. وتختلف مدة الاصابة بين شهرين واربعة وستة وثمانية وقد تدوم سنتين وسيرها بطيء.

(سبب حدوثه) ما زال سبب هذا الداء مجهولاً الى عهد غير بعيد وكان المظنون أولاً ان سببه فساد الهواء بالمستنقعات وحرارة الاقليم او الاستقاء من المياه القذرة أو تناول الاغذية الناقصة ونحو ذلك. وما زال ذلك اعتقادهم الى سنة ١٨٩١ فأشار بطريك مانسون الى نوع من المكروب وجدهُ في دم المصابين بهذا الداء ثم قال غيره نحو ذلك. وفي العام الماضي عني الدكتور كاستلاني بالبحث في أواسط أفريقيا بين بحيرة البرت نيانزا وفكتوريا نيانزا فعلم ان علة هذا الداء مكروب اسمه «تريبانوسوما» Trypanosomes وجده في الدم وتحقق بالتجارب انه ينتقل من المريض الى الصحيح بواسطة ذباب اسمه بلغة أهل البلاد «تسي

تسي » بطريق اللسع كما ينقل الناموس ميكروب الملاريا



ميكروب داء النوم والذباب الذي ينقله

والتريپانوسوما كانت معروفة من قبل وأول من شاهدها المسيو كروبي سنة ١٨٤٣ في دم الضفدع على الصورة التي تراها في هذا الشكل (رقم ب) وهي عبارة عن ميكروب مستطيل مسطح شفاف يلتف على نفسه مراراً كاللولب حجمه يختلف من $\frac{٤}{١٠٠}$ الى $\frac{٨}{١٠٠}$ من المليمتر طولاً و $\frac{٥}{١٠٠٠}$ الى $\frac{١}{١٠٠}$ من المليمتر عرضاً . احدي حافتيه مستوية والاخرى مسننة ينتهي من طرفيه براسين حادين . وحركته الانتقالية غريبة في بابها فانه ينتقل بالدوران الانقلابي فيدور على نفسه ١٥٠٠ دورة في الساعة

وفي سنة ١٨٧١ عثر لانكستر على هذا الميكروب في دم الضفدع على شكل آخر وظنهُ غير ذلك وسماه « اوندولينا رانارم » Undulina Ranarum ووصفهُ بانهُ مسطح مروحيهُ الشكل منشاريهُ الحافة (رقم ج)

ثم وجد هذا الميكروب غراسي في صغار الضفادع ووجده غيره في السلاحف وغيرها . وتحقق للناس حينئذ ان التريپانوسوما ميكروب ينقله الذباب ويلقح به الحيوانات فتصاب بامراض قتالة . وقد فتك في كثير من الحيوانات الاهلية كالفرس والحمار والبقر وغيرها في جنوبي افريقيا وجنوبيها الشرقي بما يعبرون عنه بداء النكانا

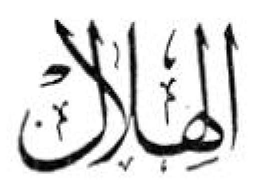
وكذلك الامراض الحيوانية التي تصيب الخيول والبغال والبقر في تونكين و بلاد فارس ونحوها و يسمونها « سرّة » وغيرها من الامراض الحيوانية

والتر يانوسوما أشكال غير هذه وكلها لا تصيب الانسان ولا تدخل دمه الأ الشكل (رقم هـ) فقد وجده الدكتور كستلاني في المصابين بداء النوم وسماه « التر يانوسوما الاوغندية » وهو مغزلي الشكل ينتهي من أحد طرفيه برأس مخروطي الشكل ومن الطرف الآخر بزائدة خيطية واذا انتقل لحركةٍ كان رأسه المخروطي الى الامام بخلاف سائر انواع هذا الميكروب . وهو يتناسل بالانقسام الطولي كما ترى (رقم ز) وعند تشريح جثث الموتى بداء النوم وجدوا هذا الميكروب كثيراً في الدم وفي السائل الدماغي الشوكي . وقد درس هذا الموضوع أطباء آخرون فكانت النتائج متشابهة

والذباب « تسي تسي » (رقم و) الذي ينقل المكروب كثير الشبه بالذباب الاعتيادي واسمه العلمي Glossina Moristans طول الذبابة ١١ مليمتراً رأسها أسمر مصفرّ يبرز منه منقار دقيق مستطيل . صدرها أسمر محمر أجنحتها مدخنة اللون بطنها أصفر مؤلف من ست حلقات على بعضها نقط بيضية سمراء . والذباب المذكور ينقل الميكروب من المرضى الى الاصحاء بمنقاره

(العلاج) وأما علاج داء النوم فلا يزال مجهولاً ولم تفلح في معالجته وسيلة حتى الآن على أنهم يعالجونه بمستحضرات الحديد والزرنيخ ونحوه وقد وصفوا له أيضاً الكينا والقهوة والسنطونين وغير ذلك — ووجدوا للمصل الانساني تأثيراً شافياً في الاوبئة الحيوانية الناتجة عن هذا الميكروب بالحقن تحت الجلد

(طلبة العلم والنهضة الاسلامية في الهند) ذكرت مجلة البيان الهندية في جزئها الاخير عدد المتخرجين في الهند من المدارس الجامعة التي انشئت هناك من أواسط القرن الماضي على مثال مدارس الانكليز وقابلت بين عدد الذين نالوا شهاداتها الثانوية فما فوقها . وبينت النسبة بين المسلمين منهم والبراهمة . وخلاصة ذلك



الجزءان ١٨ و ١٩ من السنة الثانية عشرة

١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٤ و ١٧ ربيع ثاني سنة ١٣٢٢

أشهر الحوادث وأعظم الرجال



اسكندر بوشكين

اشعر شعراء الروس

اسكندر بوشكين

اشعر شعراء الروس

ولد سنة ١٧٩٩ وتوفي سنة ١٨٣٧ م

يتحدث الناس اليوم بروسيا وحربها وقواتها العسكرية وتاريخها الاداري والسياسي بمناسبة الحرب القائمة بينها وبين اليابان ولم نرَ احدًا تعرض للكلام في تاريخ آداب الروس وعلومهم فانها تدل على حقيقة منزلتهم في مراتب التمدن الحديث

(آداب اللغة الروسية) الروسيون او السلاف فرع من الشعوب الآرية التي نزحت الى اوربا من اعالي الهند قبل زمن التاريخ . فهم آريون مثل سائر شعوب اوربا وليسوا تتريين كما توهم بعضهم . واللغة الروسية من اللغات الآرية ولكن الروسيين من احدث امم أوربا في العلم والادب . على انهم ساروا في تاريخ آدابهم على نحو ما سارت عليه الامم الاخرى . فأقدم آداب اللغة الروسية الشعر وهو اقدم الآداب عند سائر الامم . ويقسم الشعر عند الروس الى طورين عظيمين طور التلقين وطور التدوين . وكل منهما يقسم الى اعصر لا محل لتفصيلها ولكن يقال بالاجمال ان اقدم اشعار الروس عبارة عن اقاصيص الابطال وانصاف الآلهة على نحو ما كان عند اليونان القدماء وغيرهم من الامم القديمة . يليها اقاصيص فلاديمير امير كيف الذي ادخل النصرانية الى روسيا في القرن العاشر للميلاد كما الف الافرنج في شارلمان والعرب في هرون الرشيد . وبعدها اقاصيص نوفكورد يصفون بها ثروة بعض العظماء مثل حكايات قارون عند العرب . ويلي ذلك منظوماتهم في وصف موسكو وبذخ اهلها وحروب القوزاق . وأهمها جميعاً شعرهم في بطرس الاكبر واخيرًا الشعر العصري . وما زالت الاقاصيص الشعرية تتناقل بالسماع والحفظ الى اوائل القرن السابع عشر وأوَّل من عني بتدوينها رجل انكليزي من متخرجي جامعة اكسفورد وكان تابعاً لسفارة انكلترا في روسيا فدون شيئاً من تلك الاقاصيص سنة ١٦١٩

على ان الكتابة دخلت روسيا قبل ذلك الحين ببضعة قرون تابعة للدين واقدم

مادوّن فيها الاناجيل سنة ١٠٥٦ ثم دونوا اخبار الحروب والتواريخ ثم الشعر . ودخلت الطباعة عندهم سنة ١٥٥٣ واول ما طبع بها اسفار الرسل ثم غيرها من كتب الدين ثم التواريخ وكتب العلم مما يطول شرحه وليس هنا محل الكلام عليه

﴿ النهضة الاخيرة ﴾ نهض الروس لاقتباس عوامل التمدن الحديث كما نهض غيرهم من الامم الحديثة . وأوّل من حملهم على ذلك كبير قياصرتهم بطرس فانه زار الممالك المتمدنة في عصره ونقل كثيرًا من صنائع اهلها وعلومها كما هو مشهور . واكبر اعوانه في نشر العلم وتعميم التعليم في روسيا بروكوبوفيتش وبوسوشكوف وكنتمير فانهم الفوا في الحض على طلب العلم ونبذ التقاليد القديمة ونقلوا شيئًا من علوم الافرنج الى الروسية . واشهر من هؤلاء جميعًا ميخائيل رومانوف فقد كان شاعرًا ناثرًا نظم القصائد والملاحم وألف الروايات والفواجع ويليه غيره وغيره

وفي اواسط القرن الثامن عشر نهضت آداب اللغة الروسية نهضة كبرى بما نقلوه اليها من العلوم الحديثة او نسجوه على منوال الامم المتمدنة في ذلك العصر وخصوصًا فرنسا . فانهم قلدوا شعراءها وادباءها ونقلوا عنها كثيرًا من الاداب القديمة المنقولة اصلاً عن اليوناني او اللاتيني وقلدوها في انشاء المراسح والجمعيات ونحوها . ومن اكثر قياصرة الروس رغبة في آداب القدماء كاترينة الثانية المتوفاة سنة ١٧٩٦ فكثر الشعراء والادباء في عصرها قبل ان ينضج الادب والشعر لانها كانت تسوق شعبها اليهما سوقًا اقتداء بانصار العلم من الملوك العظام . حتى اذا تولى اسكندر الاول فكان الشعر قد تقدم شوطًا بعيدًا ونبغ في عصره نقولا كرمزين الشاعر المؤرخ القصاص وايفان ديمتروف واوزروف وكريلوف وزوفسكي المتوفى سنة ١٨٥٣ وكان هذا الاخير ناقلاً اكثر مما كان ناظمًا . وهو الذي ادخل الطريقة الرومانية الى روسيا نقلاً عن الفرنساويين . وكان عالمًا بلغات كثيرة ترجم عنها احاسن منظومات اصحابها . فنقل بعض اشعار كوتيه وشيلر وأولاند عن الالمانية واشعار بيرون ومور وسوثي عن الانكليزية غير ما نقله عن الفرنساوية . وقد ترجم فصولاً من مهابراتة الهند وشاهنامة الفرس واوذيسية اليونان ولم يكن يعرف اللغات الاصلية التي

نظمت فيها هذه الملاحم فنقلها عن اللغات الافرنجية الحديثة وخصوصاً الالمانية . واما الياذة هوميروس فقد نقلها الى اللغة الروسية كنيدش نحو ذلك الزمن عن اللغة اليونانية راساً وهي احسن ترجماتها عندهم . ونقل غيره احاسن منظومات الفرنساويين وخصوصاً مولير وكورنيل وراسين واكب الروسيون على تقليد الفرنساويين في اكثر آدابهم الحديثة وخصوصاً الروايات التمثيلية فانهم نسجوها نسجاً فرنساوياً في لغة روسية كما كان يفعل اهل اللسان العربي في أول نهضتهم الحديثة في مصر والشام . وما زال الروسيون مقلدين في اكثر آدابهم يكتبون اللغة الروسية القديمة ويتكلمون باللغة الحديثة حتى نبغ اسكندر بوشكين امام شعراء الروس فغير أساليب اللغة على نحو ما فعل فيكتور هوكو في اللغة الفرنساوية . وكانا متعاصرين ولكن بوشكين مات شاباً ولم يمنعه ذلك من اظهار مواهبه كما ترى من ترجمة حاله في ما يلي

﴿ اسكندر بوشكين ﴾ هو اشهر شعراء الروس بلا منازع . ولد في موسكو سنة ١٧٩٩ ويتصل نسبه ببيت عريق في الذكاء والشاعرية غيران والدة جده الثاني كانت زنجية ومنها اكتسب بوشكين جعودة الشعر وسمرة اللون وغيرهما من الملامح الزنجية كما ترى رسمه في صدر هذا الهلال

نشأ صاحب الترجمة في بيت شعر وادب وكان في حداثته يجالس اعمامه ومن يشهد مجالسهم من الادباء ويسمع ما يدور بينهم من المذاكرات في الشعر وغيره . وكانت اللغة الفرنساوية لغة الادب عندهم . فنظم بوشكين الشعر بالفرنساوية قبل ان يدرك العاشرة فاعجب به اهله فعملوا على تعليمه فادخلوه سنة ١٨١١ مدرسة كلية انشئت يومئذ بضواحي بطرسبورج اسمها مدرسة تسارسكوي سالو . فدخلها رغم ارادته لانه كان يكره الدرس حتى توهموا فيه الكسل وكادت تخيب آمالهم في مستقبله وخصوصاً لما رأوه من رغبته عن الالعاب المدرسية وقضاء اكثر اوقاته مستلقياً في البيت على انفراد . فقضى في هذه المدرسة ست سنوات وهو معدود من التلامذة الكسالى ليس لضعف مداركه ولكنه كان يشتغل عن تحضير دروسه بمطالعة كتب الادب والشعر وتراجم الادباء والشعراء . وكان في مكتبة ابيه شيء كثير من امثال هذه الكتب في اللغة الفرنساوية فلم يغادر ديواناً من دواوين شعراء الافرنج الا قرأه وتفهم معانيه فنمت فيه قريحة الشعر ومال الى تقليد ما حفظه من منظومات الافرنج وكان معجباً بولتير الشاعر الفرنساوي فنظم وهو في المدرسة رواية فرنساوية

قلده بها . فلم يكن لما وقع حسن لركاكتها غير ان ذلك لم يثنه عن المثابرة على النظم

وخرج من المدرسة سنة ١٨١٧ وهو في الثامنة عشرة من عمره فتوظف في نظارة الخارجية وفي تلك السنة بدأ بنظم قصيدة او رواية اسمها روسلان لودميلا وفرغ من نظمها سنة ١٨٢٠ وهي تمثل حادثة في ايام فلاديمير بطل الشعر الروسي القديم . وكان لها وقع عظيم عند الروسيين فمال الناس الى بوشكين وتحدثوا به فازداد رغبة في النظم ورأسه مملوءة بما اقتبسه من المبادي الفرنساوية المؤسسة على حرية الفكر والقول . ورأى من بعض مجالسيه ميلاً الى تلك المبادي وارتياحاً الى سماعها تخيل له انه في باريس وذهب من خاطره ان الشعب الروسي غير الشعب الفرنساوي وحكومة الروس غير الحكومة الفرنساوية وان الذين يجالسهم انما هم فئة قليلة اكتسبوا تلك المبادىء من الكتب كما اكتسبها هو ولم تنمُ في نفوسهم نمواً طبيعياً — فنظم قصيدة سماها « الحرية » قامت لها الحكومة وقعدت ولولا توسط بعض ذوي النفوذ لنفي الى سيبيريا ولكنهم اكتفوا بنقله الى كشينيف في جنوبي روسيا — وكثيراً ما يقع لادبائنا المستغرقين في المواضيع الحرة التي يطالعونها في كتب الافرنج مثل ما وقع لشاعر الروس فيكتبون مالا يفي بحاجة قرائنا ولا يلائم اذواقهم ولا يطابق اعتقادهم او عاداتهم ولا يوافق مصلحة الحكومة فلا ينال اولئك الكتاب الاَّ النقمة والاضطهاد والشواهد على ذلك كثيرة نراها بين ظهرانينا كل يوم

قضى بوشكين في كشينيف اربع سنوات اختبر في اثنائها اختباراً كثيراً لانه رأى نفسه في بيئة غير التي كان فيها فنظم ما شاهده هناك من مناظر الدانوب وغيرها واستعان بذلك على ما نظمه فيما بعد . وفي سنة ١٨٢٣ احتاج الى تبديل الهواء فشخص الى جبال القوقاس فشاهد من مناظره العجيبة مالا عهد له به من قبل . فجادت قريحته على قم تلك الجبال فنظم رواية سماها « اسير القوقاس » وصف بها حب فتاة جركسية لشاب روسي كان ضابطاً واخذ اسيراً . ثم نظم قصيدة سماها « ينبوع بكشي سراي » ولا تزال هذه القصيدة تمثل على مراسح بطرسبورج الى اليوم وصف بها احتباس اسيرة بولندية اسمها الكونتس بوتوكا في السراي المذكورة وهي من قصور خانات القرم . ونظم ايضاً قصيدة في نابوليون لم يحسن الاجادة بها . ثم نظم رواية في « النوَر » (الغجر) وهي قصة شرقية مدارها على الحب والانتقام وصف بها احوال النوَر وعاداتهم احسن وصف .

ووقع بين بوشكين ورئيسه في كشينيف نفور سببه ان رئيسه وهو الكونت فورنتزوف امره ان يذهب للبحث عن احوال الجراد وكان متفشياً يومئذٍ في جوار تلك المدينة

فاعتبر بوشكين ذلك اهانة له فقدم استعفاءه فكتب الكونت بشأنه تقريراً الى الحكومة الروسية يطلب فيه نقله « لانه محاط بجماعة من المتهوسين في السياسة والادب فربما حمله امتداحهم اقواله على الاعتقاد في نفسه المقدرة على الشعر والانشاء وما هو بالحقيقة الاّ مقلدٌ للورد بيرون » فانتقل بوشكين من هناك سنة ١٨٢٤ ونظم في اثناء طريقه قصيدة وصف بها البحر

واقام بوشكين في بطرسبورج ولكنه لم يكن يلقى راحة لارتياب الحكومة في مقاصده فنصبوا له العيون والارصاد وعدوا عليه انفاسه وقيدوا خروجه ودخوله فاضطر الى الاعتزال والهدو . وفي اثناء تلك العزلة درس الشعر الروسي القديم فزاده ذلك توسعاً في الشعر وكان كثير التعلق بمطالعة اشعار بيرون الانكليزي واندريه شينيه . ونشر سنة ١٨٢٥ رواية محزنة سماها « بوريس كودونوف » قلد بها اسلوب شكسبير وكان فن التمثيل الى ذلك العهد لا يزال على الاسلوب الفرنساوي وا كثر ما نقل الى الروسية من مؤلفات موليير و كورنيل وراسين كما تقدم فادخل بوشكين فيها الاسلوب الانكليزي

وفي تلك السنة حدثت المؤامرة السياسية التي كان غرضها الظاهر تأييد الغراندوق قسطنطين ضد اخيه نقولا وغرضها الحقيقي انشاء حكومة جمهورية في روسيا . وبلاد الروس لم تكن قابلة لهذا التغيير وانما اقدم الروسيون على ذلك اقتداء بالفرنساويين في حكومتهم كما اقتدوا بهم في آدابهم واشعارهم — ولا بأس من القدوة اذا تساوت الاحوال والا فانها تعود بالخسارة الكبرى — عقد المؤامرون تلك المؤامرة وفيهم جماعة كبيرة من اصدقاء بوشكين ولم يكن هو يشاركهم فيها رغم ذلك لاستغراقه في الافكار الحرة كما تقدم بل كثيراً ما كان يحرضهم على الثبات . ولكن الحظ اسعده بذهابه الى منزله في ميخايلوفسكي واحراق الاوراق التي يخاف ان تدل على اشتراكه في الامر . وكان عازماً على الرجوع الى بطرسبورج للتعاون على ذلك العمل فاتفق له وهو خارج من باب منزله انه لقي قسيساً ثم راى ثلاث ارانب مرت في الطريق امامه معارضة والروسيون يتطيرون من ذلك فعاد الى منزله . وقد افاده تطيره لان المؤامرة ما لبثت ان انكشفت حتى امر القيصر نقولا بالقبض على المؤامرين وكانوا يعدون بوشكين منهم لكن تخلفه في منزله خفف التهمة عنه ثم توسط بعض ذوي النفوذ بشأنه فعفا القيصر عنه فقدموه له في موسكو على اثر حفلة التتويج فرحب به واكرمه — ويقال انه لما خرج بوشكين من تلك المقابلة قال القيصر للكونت بلودوف احد جلسائه « لقد خاطبت في هذا اليوم اذكى رجل في روسيا »

واصبح بوشكين من ذلك الحين مقرباً من القيصر ورجال حكومته واصبح عشراؤهُ اهل الطبقة العليا فازدادت رغبته في النظم فنشر سنة ١٨٢٨ رواية بولتافا وصف فيها حملة شارل الثاني عشر على بطرس الاكبر وما كان بينهما من القتال · ورحل في السنة التالية مرة اخرى الى بلاد القوقاس يرفقة حملة البرنس باسكوبتش فكتب في ذلك رحلة جميلة



نتالي زوجة بوشكين

وفي سنة ١٨٣١ تزوج شاعرنا بفتاة من عائلة كونشاروف اسمها نتالي كانت مشهورة بجمالها في كل بلاد الروس · وفي السنة التالية اعيد الى نظارة الخارجية براتب مقداره ٥٠٠٠ روبل واخذ في تاليف تاريخ مطوَّل لعصر بطرس الاكبر · والف قصصاً كثيرة اشهرها قصة « بنت القبطان » يقال انه ترجمها عن اللغة العربية و تولى ادارة جريدة سوفرمانيك وانعم عليه القيصر باعلى رتب الخدمة في بلاطه و بذل له عشرة آلاف روبل لطبع مؤلفاته واصبح في رغد وهناء · ولكن المنية عاجلته فمات مقتولاً سنة ١٨٣٧ بسبب امرأته المذكورة :

وذلك ان شريفاً اسمه دانتيز تزوج اخت نتالي امرأة بوشكين وكان دانتيز من اهل اللهو والخلاعة فتطرق الى نتالي بما وجب غيرة زوجها فطلبه بوشكين للبارزة على عادة الافرنج فتبارزا فاصيب بوشكين برصاصة لم يعش بعدها الا يومين · وكان القيصر لما بلغه

خبر الجرح بعث اليه طبيبه الخاص . ولما تحقق وقوع الخطر كتب اليه يقول « اذا لم نجتمع في هذه الدنيا فيجمعنا العالم الآتي . دع امر زوجتك واولادك اليَّ ومت براحة وطمأنينة » فاجابه بوشكين شاكرًا وانه يأسف لموته شابًا

واحتفل القيصر بدفنه احتفالاً عظيمًا على نفقته الخاصة وامر بإيفاء دينه وعيَّن لأرملته خمسة آلاف روبل في السنة ولاولاده ستة آلاف . اما ارملته فتزوجت بعدئذٍ بضابط اسمه لنسكوي وتوفيت سنة ١٨٦٣ اما اولاده فلا يزالون يستولون على هذه الرواتب الى الآن . وفي سنة ١٨٨٠ نصبوا لهذا الشاعر تمثالاً في موسكو باحتفال شائق ويعدُّه الروس من اكبر اركان نهضتهم الاخيرة واكثر اشعاره متداولة يتدارسها الادباء و يتحداها الشعراء

صدور الهلال

ترتيب جديد

شكا الينا جماعة من قراء الهلال ضيق صفحات الجزء الواحد منه عن استيعاب المقالات الضافية مع تكاثر المواضيع والابواب . وطلبوا الينا ان نزيد عدد صفحاته حتى يكون فيها متسع للكتابة في سائر ابوابه . وقد تكررت هذه الشكوى ونحن ننظر في اقتراحهم فرأينا ان الاجابة على ذلك الاقتراح تكون اما بزيادة صفحات الجزء الواحد ملزمة او ملزمتين — فبدلاً من ان تكون صفحات الجزء اربعين صفحة تصير ٤٨ او ٥٦ صفحة — ونزيد قيمة الاشتراك بنسبة ذلك . او ان نضم جزئي الشهر الواحد في جزء يصدر في اول كل شهر او في منتصفه — فيصدر الهلال مرة في الشهر وصفحاته ثمانون صفحة مع بقاء الملحق كل سنة — ونبقي بدل الاشتراك على حاله . فنتمكن في الفترة بين هلال وهلال من البحث المتواصل في ما نحن آخذون في تأليفه من المواضيع التي تحتاج الى درس وتنقيب ونصدرها ملحقة بالهلال في كل عام

فنطرح هذين الوجهين لحضرات القراء للنظر فيهما ريثما تدخل السنة الثالثة عشرة من الهلال في اول اكتوبر القادم . وسننظر في ما يرد علينا في هذا الشأن ونعمل بما يوافق استحسان حضراتهم والله الموفق في كل حال

تاريخ علم الادب

عند الافرنج والعرب
لكاتب فاضل

٢٨ — مؤلفات فيكتور هوكو [1]

طبعت مؤلفات فيكتور هوكو مراراً عديدة في قطع متفاوت في الصغر والكبر . ومنها ماهو مزين بالتصاوير والرسوم البديعة ومنها ما هو على أجمل ورق تمكنت المعامل الاوروبية من طبخه وصقله . وآخر طبعة طبعت للجمهور في اجزاء صغيرة الحجم (قطع ٣٢) يقرب عددها من ثلاثمائة جزء ثمن الجزء ٢٥ سنتيماً . وأواسط هذه الطبعات ما كان بالقطع المثمن في ٤٨ مجلداً ثمن المجلد عشرة فرنكات يضاف اليها اثنا عشر مجلداً طبعت بعد وفاة المؤلف فيبلغ بذلك عدد المؤلفات ستين مجلداً . منها ١٦ مجلداً في الشعر وهي

(١) المدائح والمطربات

(١) الشرقيات . اوراق الخريف

(١) أغاني الشفق . الاصوات الداخلية . الاشعة والظلال

(١) القصاص

(٢) التأملات أي سانحات الفكر

(٤) سير الدهور

(١) أغاني الشوارع والاحراج

(١) السنة المهولة

(١) صناعة كون الانسان جداً

(١) هذا آخر ما ننشره من هذا الكتاب النفيس في الهلال اجابةً لطلب الادباء وقد تركنا ما بقي منه لينشر عند طبع الكتاب كله على حدة وسنعلن ظهوره في حينه

(١) البابا . الرحمة العالية . الاديان والدين . الحمار

(١) رياح العقل الاربع

ومنها خمسة مجلدات في الروايات التمثيلية المنظومة وتسمى « درام » وهي :

(١) كروموبل

(١) ايرناني . ماريون دولورم . الملك تيسلي

(١) لوكريس بورجيا . انجلو . ماري تيدور

(١) روى بلاس . اسميرالده . بورغراف

(١) توركماده . امي روبار

ومنها اربعة عشر مجلدًا في القصص وتسمى « رومان » وهي :

(١) هان الاسلاندي

(١) بوغ جارغال . آخر يوم من أيام المحكوم عليه أو قلود كو

(٢) نوتردام دوباري أو كنيسة باريس الجامعة

(٥) البؤساء

(٢) المشتغلون في البحر وفي مقدمته ارخبيل بحر المانش

(٢) الانسان الضاحك

(١) ثلاث وتسعون

ومنها ثلاثة مجلدات في التاريخ وهي :

(١) نابوليون الصغير

(٢) تاريخ جرم

ومنها مجلدان في السياحة عنوانهما (نهر الرين)

ومنها مجلدان في الفلسفة أحدهما أدب وفلسفة والآخر وليم شكسبير

ومنها ستة مجلدات في الاقوال والاعمال وهي :

(١) قبل النفي

(١) مدة النفي

(٣) بعد النفي
(٢) فيكتور هوكو تاريخه

هذا ما سلمه الشاعر بعد التنقيح والتهذيب للطبع فنشر في حياته . وله مؤلفات أخرى جمعت من التساويد التي سودها والاوراق التي تركها وطبعت بعد وفاته بغير تصحيح في اثني عشر مجلداً وهي :

(١) الاشياء المرئية . (١) الله . (١) عاقبة الشيطان . (٣) كل العود
(١) المرسح الحر . (١) التوآئم . (١) مراسلات الخطيبة
(١) السياحة في فرانسا والبلجيك . (١) السياحة في جبل الالب وفي جبل البيرينه
(١) السنون المشؤمة

فما ينشر بعد موت المؤلف يسمى (Posthumes) ويجوز فيه التنقيح والتهذيب عند اعادة طبعه . والذي ينشر في حياة المؤلف يسمى (ne Varietur) أي الذي لا يتغير ولا يجوز التبديل فيه بعد وفاة صاحبه ولا تحريف الكلم عن مواضعها . ولو وجد من يتحرى في أوراق فيكتور هوكو لربما تمكن من استخراج مجلد أو مجلدين أيضاً . كما جمعت أخيراً المكاتيب التي حررها العلامة رينان لامه وهو في المدرسة حديث السن وطبعت في مجلد . ولعل القارئ يستكثر عدد هذه المؤلفات التي لا يجد الانسان وقتاً لمطالعتها فضلاً عن تحريرها وضبط انشائها سيما ما يحتاج منها لدقة وتأمل كقرض الشعر ونظم الروايات التمثيلية ولكن اذا تأمل في همة رجال العلم والادب واقدامهم زال استغرابه وعلم ان ملكتهم رسخت في النظم والانشاء حتى صار التحرير طبيعة ثانية لهم كالكلام . وانا نشاهد المبعوثين في مجلس نواب الامة يتكلم الواحد منهم الساعات الطوال بدون أن يتلعثم . ويضبط كلامه بالاصول المعروفة بالاستنوغرافيا وينشر في جرائد المساء فيملأ الاعمدة الكثيرة والصحائف الكبيرة . وقد بلغنا عن مبعوث في بلاد المجر انه تكلم في موضوع اثنتي عشرة ساعة بحيث انه بدأ في الصباح وبعد استراحة الظهر عاد لموضوعه واكمل بحثه في اليوم الثاني . فتألف من كلامه مجلد ضخم . ولو قرأنا فهرست الكتب التي ألفها الكندي

والرازي وأصحاب المعاجم والتآليف الضخمة لوجدناها تقارب هذا المقدار أو تزيد عليه . ورأينا فيما تقدم ما ألفه العرب في أفانين الادب من المؤلفات الكبيرة ككتاب الايك والغصون المعري ونحوه . على ان لفيكتور هوكو معينين في أعماله . فتاريخ فيكتور هوكو في مجلدين حررته زوجته الشرعية الشاهدة على حياته . وكانت الممثلة البارعة جوليت دروه تنسخ له وهو يملي عليها . وربما كتب له أيضاً الشاعر اوغوست فاكيري . وحرر ابنه فرانسوا من جزيرة كيرنزي لاحد أصحابه في فرانسا يقول

« نحن كلنا نشتغل . والدي يتمم نظم الحماسات الصغيرة . وشارل يصنف روماناً وأنا اتحف فرانسا بشكسبير واجتهد بان اكون ترجماناً صادقاً لهذه القريحة الواسعة . »

وفي الحقيقة ان فرانسوا هوكو ترجم مؤلفات شكسبير أحسن ترجمة فطبعت في ثمانية عشر مجلداً بعد ان عرضها على أبيه واستكتبه عليها المقدمات والحواشي . فجميع المؤلفات كانت تعرض على فيكتور هوكو وبعضها يطبع باسمه لانه كان رأس هذه العصبة ومدير هذه الجمعية المؤلفة من زوجته وصاحبته وأولاده وأصحابه . ولم يزل صغار الكتبة والشعراء في أوروبا ينسبون مؤلفاتهم واشعارهم الى مشاهير الرجال ترويجاً لها وانفاقاً لبضاعتهم في سوق العلم والادب . فان المؤرخ الشهير الفرنساوي ميشله المستند في مؤلفاته على القصص التاريخية التي ألفها والترسكوت الانكليزي نسب لنفسه في التاريخ الطبيعي الكتب الاربعة التي عنوانها الطير ، الحشرة ، البحر ، الجبل مع أن المحرر الحقيقي والمصنف لهذه الكتب النفيسة على مايقال هي زوجته المادام ميشله وكانت من الفاضلات . ووجد المحققون في تاريخ الكيمياء أن بعض كتبها القديمة حررها أصحابها في القرون الوسطى وعزوها الى جابر وهرمس تقوية لسندها واقناعاً بصحتها . فانتحال الشعر أو الكتاب المصنف شائع بين الكتاب والشعراء وتارة يكون برضاء المؤلف الحقيقي وتارة يكون بغير رضائه وهو السرقة . وقد يكون السارق المنتحل أشعر وأقدر من صاحب الشعر والتصنيف ولكن وقته لم يسمح له بالاتيان بمثل ذاك المؤلف . ولذا اتهمت الاكاديمية فيكتور هوكو بسرقة القصيدة

التي عرضها على لجنة التحكيم والمسابقة وسماها (فوائد المطالعة) بلم يعطوه الجائزة التي استحقها

وكان يحدث امثال ذلك في أيام العرب وفي حضارة الاسلام كما اتهم الحريري في مقاماته . وكان قد عمل مقامة واحدة على مقامات البديع الهمذاني وعرضها على انوشروان بن خالد بن محمد بن وزير السلطان محمود السلجوقي وكان الحريري خصيصاً به فأمره الوزير بانشاء المقامات واتمامها فصنف أربعين مقامة وأتى بها من البصرة محل تحصيله العلم الى بغداد ونزل في الحريم وهي سرة العاصمة والمحلة المشتملة على دار الخلافة وقصور الامرآء والاعيان وكان ذلك في خلافة المقتدي بالله سابع وعشرين الخلفاء العباسيين . فاستحسن الادباء طرز المقامات وحسدوه عليها واتهموه بسرقتها . ولما امتحن سد عليه ولم تجد قريحته بشيء وهو في الحريم وسط تلك العاصمة الكثيرة الزحام والجلبة فنفي الى المشان قرية بقرب البصرة مشتملة على نخل وزرع ولكن هوآءها فاسد بسبب المستنقعات وكان اذا غضب على شخص نفي اليها . فألف الحريري في المشان عشر مقامات اخرى وكانت مصنفاته خمسين مقامة فقال فيه ابن جكينا يهجوه

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالمشان وقد الجمه في الحريم بالخرس

وكان الحريري ينتسب الى ربيعة الفرس وهي قبيلة من قبائل العرب على حدود فارس . وكان اولع بنتف لحيته والعبث بها . ووعده أحد الامراء يوماً بولاية على شرط أن يترك نتف لحيته فامتثل برهة ولم يستطع الصبر فقال « أحب الي أن تعاد لي الولاية على لحيتي من كل ولاية » . ونشأ الحريري في مجمع العلماء والادبآء واليهم نسبت الاقوال الكثيرة في النحو فقيل مذهب البصريين ومذهب الكوفيين وكانت ولادته في البصرة وقيل لا بل ولد بالمشان المجاورة لها (٤٤٦ - ٥١٥ ﻫ) وكانت السلطة والنفوذ في ذلك العصر للدولة السلجوقية التي ظهرت في العراق العجمي واتخذت مدينة الري عاصمة لها ويقال المنسوب لها الرازي وقد صار علماً على كثير

من العلماء والفلاسفة ولم تزل خرابات الري مشاهدة بظاهر طهران عاصمة الدولة الايرانية ويقال لها عبد العظيم نسبة لاحد الاولياء المدفون فيها وهناك كان مقتل الشاه السابق . وسميت ملوك هذه الدولة السلجوقية بسلاجقة ايران تمييزاً لهم عن سلاجقة الروم الذين اتخذوا قونية عاصمة لهم وعن سلاجقة كرمان الذين حكموا في الجنوب الشرقي من بلاد العجم . وظهر في سلاجقة ايران ١٤ ملكاً في ظرف ١٦١ سنة واعظمهم ثالثهم ملكشاه (٤٤٧ — ٤٤٥ هـ) ابن الب أرسلان ويسمى ابا الفتح جلال الدين واليه ينسب التاريخ الجلالي الذي وضعه عمر الخيام الاديب الفلكي الشهير وكان وزيره نظام الملك صاحب المدرسة النظامية في بغداد . فيفهم من ذلك ان ملوك هذه السلالة ووزراءها وامراءها كلهم حريصون على تعزيز جانب العلم والادب ولا غرو ان أتى الادباء في زمانهم بمثل المقامات الحريرية . وألف كال بك امام الادب في اللسان العثماني رواية بليغة سماها « جلال » وجعل لها مقدمة يعدها الادباء من أبلغ ما حرر في اللسان العثماني على الاسلوب الجديد

فيتضح مما سبق ان مؤلفات فيكتور هوكو على نوعين منظوم ومنثور . وكل واحد منها يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام . فالمنظوم منه ما هو شعر ويشتمل على فنون كثيرة مثل الاود والبالاد والايليجي . . . . . الخ ولكل منها عروض مخصوص . ومنه ما هو روايات تمثيلية تتلى على المراسح كما يتلى النثر المرسل بغير التفات الى أوزان النظم ولا قوافيه أي بلا ترنم ولا تطريب ولا تغريد ولا ترخيم في الصوت ولا وقوف على القافية . ونظمت هذه الروايات التمثيلية التي يقال لها درام على عروض البحر الاسكندري في الغالب وهو المبني على اثني عشر هجاء

فاذا جرى التوقيع بالروايات الدراماتيقية على آلات الطرب ولحن فيها على طريقة الصناعة الموسيقية سميت « اوبرة » ولاجلها بنيت المراسح الكبيرة التي يقال لها اوبرة كالاوبرة الخديوية في القاهرة والمرسح الذي بني في الاستانة ثم احترق ولم يجدد بناؤه . ويقال لاوبرة باريس أكاديمية الموسيق لانها شعبة من شعب أكاديمية الصنائع النفيسة التي هي في عداد الاكاديميات الخمس الشهيرة في باريس . ومثال

ذلك او برة فوست التي صنف قصتها الدراماتيقية الاديب الالماني كوته ثم جاء الملحن الفرنساوي كونو ووفق ترجمة كلامها على صناعة الالحان . وكذا رواية عائدة (آيده) التي وضعها على صناعة الالحان الملحن الشهير الطلياني فردي ثم نظمها بالفرنساوية أديبان من ادباء الفرنساويين . وأول ما مثلت هذه الرواية الاخيرة في الاوبرة الخديوية بالقاهرة سنة ١٨٧١ ثم مثلت في باريس على المرسح الطلياني سنة ١٨٧٦ وتمثل اليوم على جميع المراسح الفرنساوية في العاصمة والايالات وفي اكثر المدن الاوروبية ولعل هذه الرواية هي التي ترجمة للعربية باسم (عائدة) .

فالاوبرة هي تأليف دراماتيقي اجتمع فيه الشعر والموسيقى . ولذا فهي تشتمل على أوزان العروض وأنغام المزامير وأقاويل الشعر أي ما فيه من التشبيه والتخييل فان دخل في الاوبرة مع الكلام المنظوم كلام منثور أيضاً سميت أوبرة — كوميك كرواية كرمن . وان لم يكن موضوع الرواية دراما أي فاجعة بل كان كوميديا مضحكة سميت (بوف) و(بوفون) و (أوبيريت) تصغير أوبرة . واجتهد بعض الادباء الترك في التأليف بين الشعر والموسيقى في اللسان العثماني فترجموا رواية كرمن نظماً للتركية وخصصوها مع الانغام الموسيقية على المراسح المتخذة من الاخشاب في محلة اقسراي وفي منتزهات ضواحي الاستانة . ومع أن مشروعهم ابتدائي فالتمثيل كان لا بأس به رغماً عن حداثة نشأته . فلو حصلت عناية في تنشيط هذا المشروع بقوة المال وهمة الرجال لنجح ولا شك باللغة التركية وباللغة العربية أيضاً . فان دوائر البلدية في مدن أوروبا الثانوية فضلاً عن العواصم تنفق النفقات الباهظة في كل سنة لاعانة المراسح . لان ما يجمع من اجرة الدخولية لا يكفي لتحسين المراسح الى الدرجة التي بلغتها مراسح أوروبا . وكان لعلماء العرب وفلاسفتهم المتقدمين اهتمام بعلم الموسيقى وللفارابي فيه اليد الطولى ومما ألفه كتاب الموسيقى الكبير . ونقل صاحب الارز في ما نشره من الازجال والموشحات عبارة عن ابن رشد وردت له في تلخيصه كتاب أرسطوطاليس في الشعر الذي طبعه المستشرق فوستو لازينو في مدينة فلورانسه سنة ١٨٧٣ قال ابن رشد : .

« المحاكاة في الاقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء . من قبل النغم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عند صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ . أعني الاقاويل المخيلة الغير الموزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والازجال وهي الاشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أي الاندلس » . اه . ولا شبهة في أن أعاريض الموشحات والازجال من أنسب العروض لنظم روايات الاوبرة لسهولة التوقيع بها على آلات الطرب بخلاف البحور الستة عشر في العربية أو البحور الثمانية عشر بالفارسية والتركية . ولا نطيل الكلام في هذا البحث فإن أهله أولى بالبحث فيه والتفتيش عن دقائقه وخوافيه ونعود للصدد الذي كنا فيه

وأما النثر الذي ألفه فيكتور هوكو فكله من قبيل المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها . وليس عند الافرنج سجع . وهذا المنثور على أقسام وفنون شتى منها القصص التي يقال لها « رومان » وهي ما يصور فيها مؤلفها غرائب الواقعات وعجائب الاتفاقات واستلفت نظر القارئ أو السامع بمخترعاته واختلاقاته وتخيلاته البديعة . وسميت هذه القصص رومان او رومانس باسم اللغة القديمة التي كتب فيها رومان رولان وأمثالها من القصص والحكايات المنظومة والمنثورة . والرومانات على أقسام كثيرة منها الرومان التاريخي والغرامي أو الاحساسي والروحاني والفني والسياسي الخ ومن منثور فيكتور هوكو أيضاً التاريخ والسياحة والفلسفة والاقوال والاعمال والرسائل والخطب والسياسيات وغير ذلك .

٢٩ — نظم فيكتور هوكو

قرض فيكتور هوكو الشعر في أعاريض مختلفة . منه ما هو على وزن البحر الاسكندري المنسوب لاحد الشعراء اليونانيين أو المدينة الاسكندرية التي زهت

فيها العلوم والمعارف والآداب اليونانية على عهد البطالسة · ويتألف عروض البحر الاسكندري من اثني عشر هجاء اذا كانت القافية مذكرة ومن ثلاثة عشر اذا كانت مؤنثة · ويقسم كل بيت الى شطرين بوقفة Césure تأتي بعد الهجآء السادس المساواة الشطرين · والنظم في هذا البحر صعب يحتاج الى نفس عال وتلطف كثير ومهارة زائدة وبه تظهر قوة الشاعر واقتداره على التصرف في الكلام ولذا اختص بالمواضيع الجدّية العالية لقصائد الحماسة وروايات الفاجعة · واختاره فيكتور هوكو لنظم روايات الدرام التمثيلية المذكورة في الكتب الخمسة المتقدم بيانها ولنظم غيرها من الاشعار الحماسية والتاريخية · ولكنه غير فيه كثيرًا ولم يراع الوقوف على الهجآء السادس بل قسم البيت الى شطرين غير متساويين وجوز تكميل معنى البيت الاول بالفاظ من البيت الثاني مع أن العرب يشترطون ان يكون كل بيت من ابيات الشعر تاماً في بابه مستقلاً في معناه · ويمكن تشبيه البحر الاسكندري بالبحور العربية الستة عشر او البحور الفارسية الثانية عشر

ومن شعر فيكتور هوكو ما هو على أوزان مختلفة تتألف من ستة اوثمانية او عشرة هجآآت نظمت أسماطاً وأغصاناً اغصاناً وجعل لها ادوارًا ولا زمات على نسق ما استحدثه الاندلسيون وبقية شعرآء العرب المتأخرين من الموشحات والازجال · وهي أسهل طريقة واقرب تناولاً من البحر الاسكندري كما ان الموشحات والازجال العربية أسهل من بقية البحور · ولها عند الافرنج اسماء بحسب أجناسها مثل اود وبالاد وروندو وايلجي الخ · ولها أدوار تسمى قو بله وستروف ولها أيضاً لازمات refrain الخ · واقتبس الفرنساويون هذه الاعاريض من شعرآء التروبادور تلقوها عن عرب الاندلس كما أخذوا عنهم علم القوافي · فان شعرآء الافرنج على الاطلاق لم يكن لهم معرفة بالقوافي وانما كانوا يعتاضون عنها في أشعارهم بما يسمونه (اسونانس) وهو شبه القرادي والعتابي كما مر ذكره · ومثلنا فيما سبق للقافية بكلمتي (سآج) و (بآج) ومما يسمونه اسونانس بكلمتي (سآج) و (آرم) والافرنج لا يلتزمون في القصيدة او المنظومة قافية واحدة أو رويًا واحدًا كما يفعل العرب · ففيكتور هوكو

لم يلتفت كثيراً لاوزان العروض التى نظم فيه من تقدم عليه من الشعراء بل تساهل جداً في جانب الالفاظ واستحدث من عند نفسه أنواعاً جديدة ووضع هذه القاعدة وهي

« ان الشعر ليس في قوالب المعاني وانما هو في المعاني نفسها . فالشعر هو الامر الباطني لكل شيء في الوجود »

فهذه القاعدة ليست مجهولة بالتمام عند أدباء العرب . ولعل ابن رشد اشار اليها في العبارة السابقة بقوله عن المحاكاة في اللفظ « أعني الاقاويل المخيلة الغير الموزونة » . وحكي عن حسان بن ثابت حينما اتاه ابنه عبد الرحمن وهو صبي يبكي ويقول — لسعني طائر

فقال حسان — صفه يا بني

فقال — كانه ملتف في بُرْدَيْ حبره وكان لسعه زنبور

فقال حسان — قال ابني الشعر ورب الكعبة

فمقصود الصبي ان الطائر الذي لسعه يشبه في اجنحته وشكله المنقش العجيب الشخص الملتف بداء موشى ومصبغ . وقول حسان حجة على أن الشعر لا ينحصر في الكلام المقفى الموزون وانما حقيقة الشعر في المعاني والتخيل وفيما يحدثه على النفس من التأثير . ولكن درج تعريف الشعر على الالسنة بانه كلام مقفى موزون . وسبق لنا ذكر تعريف ابن خلدون للشعر بانه « الكلام البليغ المبني على الاستعارة او الاوصاف ، المفصل اجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة » . وعلى هذا التعريف يكون كلام المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء وقال ابو الفداء عن المعري « وطبق الارض ذكره . . . واكثر مصنفاته ركيكة فهجرت لذلك » . والصحيح ان كلاً منهما امام مجدد في الادب خرجا بالكلام عن تلك القيود المدرسية واطلقا للقريحة عنان الحرية وكان النوع المعروف بين الادباء هو نوع القصيد وله أساليب معروفة عندهم تختص بمطلع القصيدة وبيت التخلص والختام وذكر الاطلال والرسوم والراحلة

والـهفر . فالمعري والمتنبي خرجا عن هذه الاساليب ولكنهما افرطا في ايراد التشابيه الغامضة والالفاظ اللغوية واحتاج شعرهما الى شرح طويل وتفسير ثم صار هو أيضاً شعراً مدرسياً بسبب نسج المتأخرين على منواله وتهافتهم على التشابيه الغامضة .
وقال فيكتور هوكو في كتابه المسمى أدب وفلسفة :

« لا يكفي ان يكون للشعر قالب حسن الالفاظ بل يلزم ان يحتوي على معنى او تشبيه او احساس . ليكون له رائحة ولون وطعم . تسعى النحلة في بناء الواجهات الست لبيوتها من الشمع . ثم تملأها بالعسل . فهذه البيوت او الخلايا هي ابيات الشعر . والعسل هو الشعر . » اه

فشبه الشعر بالشهد وهو العسل في شمعه . وبالخمر أيضاً ولها أوصاف ثلاثة: رائحة تفوح منها كما يفوح المسك . وتسمى باصطلاحهم (بوكه) . ولونٌ كأنه يا قوتة سيالة او صفراء فاقع لونها . وطعم يعرفه أهل الذوق كما نعرف طعوم المآكل ويميزون فيه بين الحسن والاحسن والضار والنافع والانفع . ورأيت في أهل الذوق من رسخت لهم ملكة حتى أصبحوا يعرفون الخمر من أي كرم وقرية ومن محصول اي سنة بمجرد معاينة اوصافها الثلاثة بالحواس الثلاث حاسة البصر وحاسة الشم وحاسة الذوق . وتشبيه الشعر بالخمر والعسل معروف عند العرب ويقولون فلان من أهل الذوق في الكلام وتقول العامة (كلام بلا طعم) ومما يؤيد ان الشعر في المعاني قول أبي محمد الخازن من ادباء اصفهان وكان ينتسب للصاحب بن عباد ويراسل ابا بكر الخوارزمي قال :

لا يحسن الشعر مالم يسترق له	حر الكلام وتستخدم له الفكر
انظر تجد صورة الاشعار واحدة	وانما لمعاني تعشق الصور

ثم ان تقسيم الشعر عند الافرنج الى اود وبالاد وايليجي ... الخ هو تقسيم باعتبار الشكل الخارجي أي باعتبار قوالب الالفاظ وبحور العروض والادوار ... الخ .. واما باعتبار المعنى فيقسم الى ثلاثة أقسام غرامي وحماسي ودرامي .. فالغرامي — ويسمى الموسيقي أيضاً لان الاصل فيه الانشاد على نغمات الاوتار — هو كل

شعر أعرب عن الحواس الشخصية . فمؤلفه يبين فيه احساسه وعواطفه وحبه وبغضه وشقاءه وسعادته . فاذا جرى التوقيع به على آلات الطرب كان أشد وقعاً وتأثيراً على النفوس . والشعر الحماسي هو ما وصف به شجاعة الشجعان وذبهم عن الحريم والاوطان وفيه احاديث الشهامة والغيرة والحمية فهو بهذه الصفة تاريخي . والدرام هو ما صور فيه الحياة الانسانية وتقدم تفصيل الكلام عليه

فالاود والبلاد والايليجي ... الخ يقابلها في العربية المدح والغزل والرثاء ... الخ غير ان هذه الاقسام في العربية من الاقسام المعنوية واما عند الفرنساويين فهي من الاقسام اللفظية التي لكل منها عروض مخصوص وشكل معروف . ومن هذه الاقسام اللفظية أيضاً الشعر الفاجع وهو ما صور فيه الشاعر حادثة مهمة من شأنها تهييج العواطف وتحريك الغضب واستجلاب الشفقة والرحمة وتنتهي الرواية الفاجعة في الغالب بمصيبة فروايات المتقدمين التي على هذا الطرز تسمى تراجيديا. وروايات أصحاب الطريقة الرومانية التي على أسلوبها تسمى درام. واما الكوميديا فهي مصورة لأخلاق الهيئة الاجتماعية ومساويهم ومعايبهم بصورة هزلية مضحكة. كروايات موليير ومنها رواية تارتوف وهي مترجمة للتركية ومنشورة في مطبعة ابو الضياء . وأشعار الهجاء عند الافرنج تشتمل على الهجو والذم والانتقاد والتعريض والاستهزاء وخلط الجد بالهزل ونحو ذلك . ومن أنواع الشعر عندهم أيضاً الشعر البدوي المصور لاخلاق البدو والرعاة وهم في البادية والجبال . ولقد أحسن لبيد بن ربيعة العامري في تصوير اخلاق البادية والمعيشة البدوية قبل الاسلام وديوانه مطبوع في فينَّا عاصمة النمسا . ومن الشعر ما تقص فيه الحكايات وتضرب الامثال على السنة الحيوانات كحكايات لافونتين . ومنه أيضاً الشعر الذي على نهج الرسائل والمكاتيب .. وله امثال عند العرب ومن شعراء دمشق المتأخرين من نظم حجة شرعية بجميع ما يلزمها من القيود والشروط

وجل مهارة فيكتورهوكو في الشعر الغرامي او الموسيقي المعرب عن الاحساس الشخصي . ولشعره نغمة مطربة وقواف عامرة . والحان تحن له القلوب وترتاح لسماعها النفوس .

وهو الذي اوجد عند الفرنساو بين الهجو الموسيقي في المنظومات التي هجا بها نابوليون الثالث . ولم تزل هذه الانغام والقوافي والالحان هي الباعثة على رواج اشعاره واقبال الجمهور عليها

وكما ان فيكتور هوكو غير أفاعيل الشعر وتفاعيله واصلح عروضه على المثال المشار اليه آنفاً ، أصلح كذلك الفاظ الشعر ومعانيه . وابطل جميع اصطلاحات الادباء أي الاساليب والتعبيرات المصطلح عليها بينهم والتي لا يفهمها الا أهل الغوص على المعاني وهم خواص الناس . وقال بان جميع الالفاظ سواء . لا فرق فيها بين اللفظ الذي وقع اختيار الادباء عليه و بين اللفظ الذي رفضوه وقالوا عنه سوقي مبتذل . وجوز للكتبة والشعراء الاخذ بكل واحد من نوعي الالفاظ المختارة والسوقية واستعمالها بلا فرق في النظم والنثر [١] على شرط توافقها لقواعد النحو والصرف وابطل أيضاً ما كان يستعمله الادباء في كلامهم من المقدمات والدوارات التي من شأنها تغطية المعنى والتثقيل عليه وكذا التعبيرات العمومية والاجمالية التي يتلاشى بها المعنى و يستبهم كما يفعل ادباء العرب في خطبة الكتاب المصنف وفي مقدمته . ولم يرض من جميع ذلك إلا بالتعبير الاصلي والمعنى الحقيقي الدال على خصوصية الموضوع . لان الغرض من تأليف الكلمات وتصنيف الكلام انما هو تشخيص الموضوع وبيان مزيته وغرابته . فلا حاجة للاستعارة ولا للمعنى المجازي . ويقوم مقام الاستعارة التشبيه أو التخييل الذي هو نوع من الاحساس لا التشبيه والتخييل المستفاد من طرز الكتابة . فالواجب على الكاتب ان لا يشغل نفسه بالاستعارات وأنواع البديع وان لا يتصنع ولا يتمحل في الكلام بل ينبغي له ان يهتم ببيان الموضوع الذي هو فيه وايضاحه ووصفه بالاوصاف السديدة المظهرة له ظهور الشمس في رابعة النهار و يوضع انفعالاته

---

(١) ذكر الجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع اخيرًا في مصر في الكلام على الالفاظ المستحسنة ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ، ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشياً غريباً ، او عامياً سخيفاً ، سخفه بازالته عن موضوع اللغة ، واخراجه عما فرضته من الحكم والصفة ، كقول العامة (اشغلت) و (انفسد)

النفيسة في ذاك الموضوع ليكون أشد تأثيرًا على السامع . فتأثير الكلام يكون من جهة الانفعال النفسي والتصوير الطبيعي لا من جهه الاستعارات

غير أن فيكتور هوكو وأهل طريقته لم يمنعوا انفسهم من استعمال الاستعارات المدرسية والتعبيرات المصنعة لرسوخ ملكتهم فيها . ومن الاستعارات التي وردت لفيكتور هوكو على الطرز القديم قوله « نجوم المركبة » ويريد المصابيح التي تنار بها المركبات ليلاً وتظهر عن بعد كالنجوم

فادبآء العرب قالوا بان جل محاسن الكلام ان لم تكن كلها متفرعة عن التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية وجعلوها اقطاباً تدور عليها المعاني . ولذا تجد غزلهم مثلاً يدور دائماً حول التفنن في تشبيه القدود بالاغصان والنهود بالرمان والخدود بالورد والجلنار والعيون بالنرجس ونحوذلك . على حد قول الشاعر

قلبي على قدك المشوق بالهيف طير على الغصن أم همز على الالف

وهل سويداء خال بخدك أم خويدم أسود في الروضة الانف

وهي قصيدة غراء من كتاب ريحانة الالبآء المطبوع في بولاق . والمراد تشبيه قد المشوق بالغصن او بالالف . وقلب العاشق بالطير او بالهمزة . وفي البيت الثاني تشبيه سويدآء القلب وهي الحبة السوداء التي فيه بالخال الذي على خد المحبوب وتشبيه الخال بالخادم الصغير الاسود وهو في الروضة . لان جسد الحبيب في اصطلاحهم بستان فيه جميع الازهار والفواكه والاشجار والانهار والتلال والوهاد والاغوار والانجاد . فكان جميع المخلوقات الطبيعية تتشخص في هذا الجسد . فجميع اشعارهم في الغزل وجميع تفنناتهم فيه يدور ويرجع لاصل واحد واحسن مثال له القصيدة الآتية

نالت على يدها مالم تنله يدي نقشاً على معصم اوهت به جلدي

كأنه طرق نمل في انا ملها او روضة رصعتها السحب بالبرد

خافت على يدها من نبل مقلتها فالبست زندها درعاً من الزرد

مدت مواشطها في كفها شركاً تصيد قلبي به من داخل الجسد

وقوس حاجبها من كل ناحية ونبل مقلتها ترمي به كبدي
وعقرب الصدغ قد بانت زبانته وناعس الطرف يقظان على الرصد
ان كان في جلنار الخد من عجب فالصدر يطرح رماناً لمن يرد
وخصرها ناحل مثلي على كفل مرجرج قد حكى الاحزان في الخلد
انسية لو رأتها الشمس ما طلعت من بعد رؤيتها يوماً على أحد
سألتها الوصل قالت انت تعرفنا من رام منا وصالاً مات بالكمد
وكم لنا عاشق في الحب مات جوى من الغرام ولم يبدي ولم يعد
فقلت استغفر الرحمن من زلل ان المحب قليل الصبر والجلد
وخلفتني طريحاً وهي قائلة ما تنظرون فمال الظبي بالاسد
قالت لطيف خيال زارني ومضى بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال خلفته لو مات من ظمإ وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت صدقت الوفا في الحب شيمته يا برد ذاك الذي قالت على كبدي
واسترجعت سألت عني قيل لها ما فيه من رمق دقت يداً بيد
وامطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد
وانشدت بلسان الحال قائلة من غير كره ولا مطل ولا مدد
والله ما حزنت اخت لفقد اخ حزني عليه ولا ام ولا ولد
فاسرعت واتت تجري على عجل فعند رؤيتها لم استطع جلدي
واغمرتني بفضل من عواطفها فعادت الروح بعد الموت للجسد
هم يحسدوني على موتي فوا اسفي حتى على الموت لا اخلو من الحسد

فهذه القصيدة اشتملت على كثير من التشابيه وعلى شيء قليل من المعاني وعلى شيء اقل من الاحساس . فشبه النقش الذي تنقشه الماشطة على يد العروس بطرق النمل وهم ذاهبون لما كنهم قطاراً بجانب قطار . وبالبرد النازل على روضة البقل وبدرع الزرد . وبشرك الصيد اي شبكته . وشبه الحاجب بالقوس والاهداب بالنبل والكبد بالهدف . وشبه الشعر الاسود على الصدغ بالعقرب وطرفه الملوي

بالزبانة . وزباتا العقرب قرناها . وشبه الخد بالجلنار وهو زهر الرمان وبالورد ايضاً والثدي بالرمان . وشبه نفسه بالاسد وشبهها هي بالشمس والظبي وشبه دموعها باللؤلؤ وعينيها بالنرجس وانامها المصبوغة بالحنا الاحمر بالعناب واسنانها بالبرد . وردفها بالحزن وهو ما غلظ وارتفع من الارض ويسمى الرابية والكثيب ايضاً

وأما المعاني التي في هذه القصيدة فهي سؤاله الوصل وجوابها بالرد وصبره وجلده على البعد ووفاه في الحب حتى لم يبق فيه رمق . فشفقت عليه وبكت وحزنت حزن الاخت لفقد اخيها والام على ولدها واتت اليه تجري على عجل وتعطفت عليه وانعشته لحسده العوازل

فادباء العرب يستعذبون هذا الكلام المصنع المرصع كما يستحسنون النقش على اليد والصبغ الاحمر على البنان . والفرق بين اليد البيضاء الطبيعية والانامل المنظفة بالمبرد والمقص وبقية آلات التنظيف وبين اليد المنقوش عليها نقشاً وحشياً والانامل المخضبة بالحناء لا يخفى على اهل النظر والذوق والامم المتوحشة لا يستحلون العرائس الا اذا كثر على اجسادهن النقش والوشم وشرحت خدودهن وكسرت اسنانهن ليحصل فيها الفلج وثقبت انوفهن وشفاههن واذانهن ليعلق فيها الاقراط والحلقات فهم يبدلون خلقة الله بما يرونه حسناً بحسب اذواقهم . وكذلك الادباء يعدلون بالكلام عن السوق الطبيعي الى تلك التشابيه والاستعارات واذا نظرت الى مدحهم رأيته ايضاً يدور حول طول النجاد وكثرة الرماد كقوله

طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد اذا ما شتى

فهذا البيت يليق مدحاً حقيقياً بشيخ قبيلة بدوية او بملك امة متوحشة من امم أواسط افريقيا لا في كل ممدوح . واذا مدح به ملك امة لها حظ من الحضارة ينقلب المدح ذماً . وهكذا يقال في بقية فنون الكلام وضروبه مثل الهجاء والرثاء والاستماحة ، والشفاعة ، والشكر ، والاستعطاف ، والافتخار ، وبث الشكوى ، والمواعظ ، والحجج لاسيما الوصف وهواجسها واكثرها ضروباً فان كل فن من هذه الفنون يدور حول تشابيه معلومة واساليب مدرسية يندر فيها الاحساس الشخصي والانفعال

النفس وانما هي تقاليد يتبع فيها الخلف السلف

فغيكتور هوكو وأهل طريقة لايرون شيئاً من الحسن في هذه التشابيه والاستعارات المدرسية ولا يستعذبون معنى من تلك المعاني التي ليست بطبيعية . بل يجدونها من المعاني السخيفة الغير المعقولة . خرج بها اصحابها عن الذوق السليم وعن دائرة الطبيعة . وشوهوا وجه الكلام بتلك الاستعارات كما سخموا وجه العروس وبدنها بالنقش والوشم والصبغ ثم جاؤا يقولون (نالت على يدها ما لم تنله يدي) . و رأينا في معرض بارنوم الذي يطوف به صاحبه مدن العالم القديم والجديد شخصاً من المتوحشين وشم جميع بدنه فكان يتجلى امام الناظرين كأنه لابس ثوباً مبرقشاً . والوشم هو ان يغرز الجسد بابرة ثم يذر عليها النؤور وهو النيلج (نبات النيلة) . وفي الحديث لعن الله الواشمة والمستوشمة .





باب السؤال والاقتراح

الصيفة والاصطياف

﴿ القاهرة ﴾ اسكندر افندي عبد الملك بالداخلية

لا يكاد يدخل فصل الصيف حتى نرى اهل القاهرة وخصوصاً الاجانب يتأهبون للرحيل من هذا القطر لقضاء ذلك الفصل في اوربا او سوريا ويندر فيهم من يطلب رأس البر او رمل الاسكندرية او غيرهما من مصايف هذا القطر ويعبرون عن ذلك بتبديل الهواء فهل في هواء اوربا او سوريا عناصر صحية لا توجد في هواء مصر والا فلماذا يتكبدون النفقة والمشقة في الذهاب اليهما

﴿ الهلال ﴾ الهواء واحد في عناصره على سطح الارض الا ما قد يطرأ عليه من

رطوبة او جفاف في البقاع القريبة من البحور او البعيدة عنها أو مايكون من اختلاف أهوية بعض الاماكن باختلاف احوال تربتها بين ان تكون رملية او اجمية او يكون موقعها مرتفعاً او منخفضاً أو باختلاف قربها من خط الاستواء او بعدها عنه مما يؤثر في درجة حرارة الهواء او درجة رطوبته ولكنه لا يؤثر شيئاً في العناصر الاصلية التي يتألف هو منها

اما مايكتسبه الناس من الصحة في الاصطياف فسببه ليس تبديل الهواء بمعناه الحرفي وانما هو تبديل البيئة على اجمالها من الهواء والمسكن والمأكل وما يلحق ذلك من طرق المعيشة واساليبها. فالانتقال من اقليم الى اقليم ولو من اواسط السودان الى اعالي لبنان ان لم يصحبه تغيير المعيشة على اجمالها قلما يأتي بفائدة. ولو صيف الانسان في بلده وغير طرق معيشته لاغناه ذلك عن مشقة الانتقال. واذا امعنا النظر في القواعد اللازمة للاصطياف لرأيناها تنحصر في اسباب يسهل على الانسان الحصول على اكثرها وهو في بلده وهي :

(١) الراحة من العمل : وهي من أهم شروط الاصطياف لان الغالب في احتياج الانسان الى الصيفية ان يكون سببه التعب فلا بد للمصطاف قبل كل شيء من الكف عن العمل الذي كان سبب تعبه . واذا كان كاتباً فليكسر القلم ويمزق الورق قبل الخروج من بلده واذا كان تاجراً فلا يسأل عن البورصة ولا يبحث في الاسعار ولا يخابر عملاءه في ما يدعو الى اعمال الفكرة . واذا كان من موظفي الحكومة فهو لا يحتاج الى توصية في تناسي وظيفته وما يتعلق بها — فالكف عن العمل يريح الاعصاب فتنتظم التغذية وتنشط الاعضاء

(٢) الاشتغال بالرياضة البدنية . لا يكفي للمصطاف ان يكف عن اعماله الاعتيادية بل يطلب منه ان يشغل اوقاته بما يسليه ويروض فكره من الاعمال البدنية كركوب الخيل أو الصيد أو الذهاب في الجبال الوعرة مشياً على الاقدام أو تسلق الاشجار ونحو ذلك من اسباب الحركة العضلية فانها تحرك الدورة وتنقي الدم وتقوي الهضم وتساعد على راحة الاعصاب . والمصطافون يساقون الى الرياضة البدنية

رغم ارادتهم لانهم اذا فرغوا من الطعام والشراب لا يجـدون ما يشغلون به ساعات النهار فيخرجون من المنازل الى الخلاء يمشون وحديثهم في الغالب مما تنقضي به الاوقات من السمر المضحكة فربما قضوا بضع ساعات في المشي وهم لا يشعرون

(٣) تناول الاطعمة المغذية : قلنا ان الاعمال الرياضية تزيد اسباب التغذية ولكن الاصطياف نفسه يدعو الى زيادة التغذية لاشتغال المصطافين بطعامهم وشرابهم عن كل شيء فهم يصبحون ولا همَّ لهم الا بماذا يفطرون وبماذا يتغدون فينتقون من الاطعمة ما تلتذ له نفوسهم ويطلبونه ويتأنقون في صنعه . ونظراً لخلو بالهم من مشاغل المدن يقضون معظم اوقاتهم في اعداد الطعام او في تناوله ويغلب ان تكون اطعمة الجبال والقرى في المصايف نباتية مما تتطلبه طبيعة الانسان وهي مزية كبرى تساعد على تغذية الابدان لان الاكثار من تناول اللحوم من اكبر آفات المدن كما بينا ذلك في غير هذا المكان

(٤) اكل الفاكهة : افردنا الفاكهة عن سائر الاطعمة لما لها من الاهمية في الصيفية . فالمصطاف اذا لم يكثر من اكل الفاكهة كالعنب والمشمش والتين ونحوها فانه لم يفعل شيئاً لان الفاكهة فضلاً عن سهولة هضمها وسرعة تمثلها فان فيها كثيراً من الاملاح اللازمة لاعمال الحياة

(٥) الرقاد : ان الرقاد لازم للصحة اكثر من لزوم الطعام اذ قد يصبر الانسان على الجوع اكثر من صبره على السهر او الارق . واذا كنا لا نشعر بتلك الحاجة فلاننا لا نتكبد النفقة في الحصول على النوم كما نتكبدها في سائر حاجات البدن . وقد جرت العادة في المدن الكبرى ان يطيلوا السهر وهو مجلبة للاسقام . اما في القرى والجبال فلا مراسح ولا ملاعب تدعو الى السهر الطويل — الا في اماكن المقامرة والمقامر غريق في اسباب الشقاء فلا يهمه ما يتوقعه من عواقب السهر — وهو الغريق فلا يخشى من البلل

(٦) نقاوة الهواء وبرودته : لا مشاحة في أن هواء الجبال والقرى أنقى من هواء المدن لقلة الزحام لان بدن الانسان من اكبر مصادر القذارة فحيثما تتزاحم الاقدام

يفسد الهواء وتكثر الامراض والهواء النقي أصلح للصحة . وبرودة الاقليم تنشط الاعضاء فتطلب الحركة وهي الرياضة البدنية وتنشط عمل المضم فتكثر التغذية . ولذلك جرت العادة أن يصطاف الناس في اقليم ابرد من اقليمهم وفي أفق أعلى من أفقهم — ولعل هذا هو السبب في توهمهم أن السر في الاصطياف انما هو الانتقال الى الجبال الباردة وقد اغفلوا ما سوى ذلك من الاسباب التي هي في اعتبارنا اهم من ذلك الانتقال . وليس الانتقال من الشروط الرئيسية للاصطياف وانما الشرط الرئيسي الراحة من العمل وتغيير طرق المعيشة التي تعودها الانسان لانه انما طلب الانتقال مللاً منها . فاذا كانت عادته في بلده ان يشغل عقله ويريح بدنه وجب عليه في الصيفية ان يشغل بدنه ويريح عقله والعكس بالعكس — وقس على ذلك سائر ضروب التغيير

فترى مما تقدم ان الاصطياف بالمعنى المقصود به ميسورٌ للانسان بدون انتقال او بانتقال قليل على شرط ان يراعي ما تقدم من اسباب الراحة وتغيير اساليب المعيشة — وان كنا لا ننكر فائدة الاقامة في الجبال العالية والاقاليم الباردة فانها متممة لاسباب الصيفية . فاذا لم يكن السفر اليها ممكناً فالذهاب الى الارياف ونحوها من الاماكن المطلقة الهواء يعدّ اصطيافاً اذا روعيت فيه الشروط المذكورة

منية

(المنصورة) ابراهيم افندي الظاهري

في القطر المصري كثير من البلاد تسمى بلفظ « منية » او « ميت » بالاضافة الى لفظ آخر كقولهم منية النصارى ومنية سمنود وميت غمر وميت عاصم وميت غراب ولا اجد لهذه اللفظ بمعناها العربي محلاً في تلك التسمية فما هو المراد منها

(الهلال) ان اللفظين منية وميت تحريف لفظ واحد قبطي الاصل هو في القبطية موني (μονη) ومعناه المنزل والوطن والبلد والدير فالاصل في التسمية المذكورة اضافة هذا اللفظ الى صاحب ذلك البلد او حال من احواله كما فعل العرب

فانه يستخرجه بخياشيمه من الهواء الذائب في الماء واما الديدان التي يعثرون عليها داخل الحجارة فلا بد من منفذ ينفذ اليها الهواء منه ولو كان السدّ عليها محكماً لماتت

وزن الارض

﴿ ميت غمر ﴾ مسيحه افندي مخائيل صاحب المطبعة الاهلية

لو وزنت الارض في ايام جدنا آدم ووزنت الآن هل يوجد فرق في ثقلها

﴿ الهلال ﴾ كلاّ . لان كل ما نشاهده في الاجسام الحية من الولادة والنمو والموت وفي المواد الجامدة من الاحتراق والتصعد والتبخر والدثور انما هو تغير يحدث في ظواهر المادة ولا يدرك مادتها . فالمادة لا تتلاشى وانما هي تنتقل بالاعمال الحيوية والتفاعلات الطبيعية والكيماوية من حال الى حال

وليمة البستاني

او احتفال الامة بالالياذة العربية

قلنا في اثناء كلامنا عن الالياذة العربية اننا نرجو ان يكون ظهورها بدء نهضة جديدة في الشعر العربي والآداب العربية ولم يخطر لنا ان تكون بدء نهضة جديدة في نفوس وجهاء الامة وافاضلها لاكرام اهل العلم . كرامة رسمية في مجتمع إشتراكية نخبة العلماء والشعراء والوجهاء . وهي اول مرة اجتمع الشرقيون للاحتفال بكتاب . ولا غرو فقد احتفلوا بسفر من خيرة ما انتجته القرائح وبرجل من نخبة ما اخرجه الشرق من الرجال

لم تكد تظهر الالياذة العربية حتى اشتغلت الجرائد والمجلات العربية والافرنجية في مصر والشام والاستانة واليونان في وصفها وتقريظها والثناء على ناظمها وشارحها بما لم يسبق له مثيل من قبل . وتهافت خاصة الادباء على مطالعتها والاعجاب بما حوته من الادب والشعر والاخلاق والفلسفة والتاريخ وحاروا كيف يشكرون البستاني على تلك الخدمة وبماذا يعبرون عن شعورهم بفضله . فكتب اليه بعضهم رسائل خصوصية اعربوا بها عن ذلك الشعور بعبارات تفننوا في تنميقها وتحبيرها . وتقاطر آخرون الى منزله يؤدون شكرهم شفاهاً . وبعث اليه غيرهم بالرسائل البرقية في هذا المعنى

على انهم لم يروا في هذا ولا ذاك ما يفي بالتعبير عن شعائرهم او يؤدي ما يخالج افئدتهم من شعائر الاكرام. فعمدوا الى مأدبة فاخرة ادبوها باسم الالياذة العربية في فندق شبرد مساء ١٤ يونيو الماضي اجتمع فيها نحو مئة من خيرة ارباب الاقلام وقادة الافكار واصحاب المناصب من السوريين والمصريين. فتناولوا العشاء معاً في حديقة ذلك الفندق وقد زينت بالانوار الكهربائية والمصابيح الملونة على موائد مزدانة بالازهار والاثمار



سليمان البستاني

صاحب الالياذة العربية

وبعد الفراغ من الطعام خطب زميلنا الدكتور صروف صاحب المقتطف بالنيابة عن لجنة الاحتفال خطاباً انيقاً في موضوع تلك الحفلة وما الذي دعا اليها. ووصف الالياذة العربية وبيّن مزاياها وعدد مآثر صديقنا البستاني في عالم الاقلام وخصوصاً في الالياذة. ثم تليت عدة رسائل وردت ممن تخلف عن الحضور عن المدعوين افتتحها اصحابها بالاعتذار عن سبب تخلفهم وختموها بالثناء على البستاني والياذته. منها رسالة من

الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وأخرى من الدكتور شميل وأخرى من الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد

ثم انبرى جماعة من المدعوين والقوا الخطب في نحو هذا المعنى بلهجة تدل على منزلة البستاني عند اهل الفضل • وممن شنف الاسماع من الخطباء الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي وابراهيم بك رمزي صاحب التمدن والقيت خطبتان بالفرنساوية احداها من يوسف باشا شكور واخرى من رئيس المدرسة العبيدية وخطبة باليونانية من احد اساتذة هذه المدرسة • ثم وقف البستاني فتحولت اليه الاذهان وشخصت فيه الابصار فالقى خطاباً شائقاً تنصل فيه من استحقاقه مثل ذلك الاكرام — وان لم يقم الدليل الكافي على ذلك — ثم جعل مدار كلامه على اشتراك مصر والشام في المصلحة الادبية والعلمية • وأجاد في بيان الرابطة الوثيقة بين القطرين وحاجتهما الى التعاون والتكاتف في خدمة العلم وانهما ما زالا من قديم الزمان ولا يزالان شقيقين لا يستغني احدهما عن الآخر • وكان لذلك الخطاب وقع عظيم في النفوس وتاثيرٌ شديد على العواطف لما كان يتجلى في وجه الخطيب من دلائل الاخلاص وما في غنة صوته من صدق اللهجة • فكنت كيفما اجلت نظرك لا ترى الا وجوهاً باسمة وعيوناً شاخصة وقد ساد السكوت على تلك الجلسة وغشيتها الهيبة حتى رأينا بعضهم يبكون سروراً — والبكاء ابلغ ما يعبر عن السرور • فلما فرغ الخطيب من كلامه نهض الناس لتهنئته او التعرف به • وبالجملة فقد كانت تلك الوليمة علية اولية يجب ان يخلد ذكرها في بطون التاريخ لانها اول وليمة اقيمت احتفالاً بكتاب • فنهنئ صديقنا البستاني بهذا الاكرام • ونشكر للباذلين لانها حركت نفوس الامة لاكرام العلم والعلماء

(يوبيل لسان الحال) احتفل أفاضل البيروتيين بمرور ربع قرن على جريدة لسان الحال لزميلنا خليل افندي سركيس احتفالاً اشترك فيه سائر اصدقاء اللسان في سوريا ومصر • فقدمت لجنة الاحتفال الى سركيس افندي رسمهُ جلساً وبجانبه مجموعة اللسان لخمس وعشرين سنة وامامهُ الروزنامة السورية • وقد جرى الاحتفال في دار حضرته فخطب الخطباء وتليت الرسائل والقصائد في تعداد مآثر صاحب اليوبيل ولا غرو فان لصاحب اللسان منزلة رفيعة عند كل الذين عرفوه او قرأوا لسانه نظراً لما فطر عليه من صدق اللهجة والنشاط والاخلاص فنهنىء زميلنا بذلك

قد اتيناها في الهلال العاشر من هذه السنة · واطلعنا اليوم على ما اجراه بكريل وبروكا من التجارب في خصائص هذه الاشعة على الناس في حال التخدير تحت البنج — وذلك ان الاشعة المذكورة تتكاثر عند الشروع في التخدير ثم تقل حتى تنقطع عند الخدر التام ويخرج بدلاً منها اشعة ثانوية عبروا عنها برقم واحد فوق النون (نَ) يقول بكريل انها اطول تموجاً من تلك · واهمية هذا الاكتشاف الطبية ان الاشعة (ن) اذا انقطعت وأبدلت بالاشعة الثانوية فصاحبها في غيبوبة واذا انقطعت هذه تماماً دلّت دلالة قاطعة على الموت · واذا تكاثر اشعاعها من المخ كان صاحبها في خطر على حياته

﴿ مرض الاطفال في نيويورك ﴾ تفشى في اطفال نيويورك في هذه الاثناء داء يسمونه الحمى الرقطاء وهو شديد الوطأة سريع الخطر بلغ عدد الوفيات فيه مئة كل يوم ويندر فيه الشفاء على ان الذي يخرج منه حياً لا يخرج سالماً

(أشعة رنتجن والسرطان) لا تزال التجارب جارية في معالجة داء السرطان بأشعة رنتجن فتحققوا تأثيرها في تخفيف الالم وتقليل الورم وقد جربوها على ثلاثة مرضى مصابين بالسرطان في امكنة لا يمكن اجراء العملية فيها فأتت الاشعة بفوائد عظيمة جدًّا

مطبوعات جديدة

﴿ علم قراءة اليد ﴾ هو فرع من الفراسة اشرنا اليه في كتابنا « علم الفراسة الحديث » مختصراً · وبين يدينا الآن كتاب مطوّل فيه تأليف حضرة نجيب افندي كاتبة رئيس القلم الافرنجي بالسكة الحديدية السودانية نقله وجمعه من كتب افرنجية وعني بضبط لغته حضرة الصاغقولاغاسي محمد افندي فاضل اركان حرب السكة الحديدية السودانية · وموضوعه الاستدلال على اخلاق الناس واطوارهم من النظر الى اسرّة اكفهم · فيختلف الحكم في ذلك باختلاف طول تلك الخطوط واتجاهها وتقاربها وتباعدها اوغير ذلك · ولهذا الفن اشياع كثيرون في اوربا وغيرها ويعتقد صدقه جماعة من ادبائهم ويزعمون انه مبني على الاستقراء الطويل ويسندون بعض قواعده الى النواميس الطبيعية · واما رأينا فيه فتلك رأينا في علم الفراسة على الاجمال وقد ذكرناه في غير هذا المكان · والكتاب الذي نحن في صدده سهل العبارة حسن التنسيق صفحاته ٢٠٠ صفحة كبيرة وفيه ٢٩ رسماً من رسوم الكف

على اشكالها المختلفة تسهيلاً لدرس خطوطها . وهو يباع في مكتبة الهلال وثمن النسخة عشرون قرشاً واجرة البريد قرشان

﴿الشعر العصري﴾ هو نبذة ثالثة من شعر سعادتلو سليم بك عنحوري الشاعر الدمشقي الشهير سماها الجوهر الفرد وضمنها نحو مئتي قصيدة او مقطع في التربية والعوائد والاخلاق والحقوق والواجبات منظومة على النسق العصري من اساليب الوصف الطبيعي مما نتمنى ان يجري عليه شعراؤنا بدلاً من الاسلوب القديم الذي يستهلون به المدح بالتشبيب والتغزل بالخمر لان احسن القول مادلّ اوله على آخره . ولولا ضيق المقام لاتينا بأمثلة من نظم العنحوري في ذلك . والكتاب يطلب من المكتبة الجامعة في بيروت وثمن النسخة ستة قروش واجرة البريد نصف قرش

﴿ميامر تاودورس ابي قرة﴾ هو اقدم كتاب عربي نصراني تأليف تاودورس ابي قرة اسقف حران المتوفى في عصر المأمون العباسي وموضوعه ديني جدلي . عني حضرة الخوري قسطنطين الباشا احد رهبان دير المخلص في نشره من نسخة خطية كانت في مكتبة الدير المذكور وصدره بمقدمة في تعريف المؤلف واخرى في تعريف الكتاب وختمه بمؤلفات ابي قرة اليونانية والكتاب يطلب من مكتبة الهلال وثمن النسخة عشرة قروش والبريد قرش

﴿رواية عود على بدء﴾ هي تابعة لروايات الارمان الثلاثة ورجع ما انقطع تأليف دوماس الشهير وتعريب الشيخ نجيب الحداد . وهي اربعة اجزاء اصدرت مطبعة المعارف لصاحبها نجيب افندي متري الجزء الاول منها في ٢٩٠ صفحة كبيرة وثمن الجزء ستة قروش ومن اراد الاشتراك بالاجزاء الاربعة معاً فقيمة الاشتراك ١٦ قرشاً . والكتاب يطلب من المطبعة المذكورة بالفجالة بمصر ومن مكتبة الهلال

﴿شرح قانون العقوبات الجديد﴾ واهدتنا مطبعة المعارف ايضاً شرح قانون العقوبات الجديد تاليف حضرة فوزي بك جورجي المطيعي النائب لنيابة مديرية جرجا مطبوعاً طبعاً متقناً على ورق جميل وفيه فصول ضافية في انواع الجرائم والعقوبات الاصلية والتبعية واشتراك عدة اشخاص في جريمة واحدة وفي الشروع والعود واسباب الاباحة وموانع العقاب والمجرمين الاحداث وحق العفو وغير ذلك وهو يباع في المطبعة المذكورة وفي مكتبة الهلال وثمن النسخة خمسة عشر قرشاً واجرة البريد قرش ونصف

﴿رواية الجنتين﴾ هي روايه ادبية تاريخية تاليف فريدريك سوليه نقلها الى العربية حضرة حنا افندي صاوه وقد طبعت بنفقة منصور افندي عبد المتعال الكتبي بشارع

محمد دلي وهي تطلب منه ومن مكتبة الهلال وثمن النسخة خمسة قروش والبريد نصف قرش

﴿ رواية الجريمتين ﴾ وهي رواية تاريخية ادبية تأليف جاك بريون الترناوي وقد عربها حنا افندي صاوه ونشرها منصور افندي عبد المتعال ايضاً وتطلب من حضرته كالتي تقدمتها . وثمن النسخة ثمانية قروش واجرة البريد قرش

﴿ الفضيلة ﴾ هي رواية ادبية اخلاقية تاليف محمود افندي طاهر حقي بنظارة الاوقاف واسمها يدل على مغزاها . تطلب من المكاتب الشهيرة وثمن النسخة خمسة قروش واجرة البريد نصف قرش

﴿ الهناء بعد العناء ﴾ هي رواية تاريخية غرامية من مؤلفات دوماس الشهير نقلها الى العربية نجيب افندي مرقص اللاذقاني وطبعت بنفقة المكتبة الشرقية بمصر وتطلب منها ومن سائر المكاتب وثمن النسخة عشرة قروش واجرة البريد قرش

(رواية الخرافة الحسناء) هي رواية تهذيبية تأليف حضرة اسماعيل افندي شكري وقد سماها « هدية الحكماء الى الاغنياء » اشارة الى المراد منها . وهي تطلب من المكاتب الشهيرة وثمن النسخة خمسة قروش واجرة البريد نصف قرش

(جرائد جديدة) (١) الدليل . وهو جريدة سياسية تصدر في نيويورك مرة في الاسبوع لحضرة صاحبها اسعد افندي الملكي بدل اشتراكها اربعة ريالات بالولايات المتحدة وخمسة في الخارج (٢) الاكسبرس . جريدة سياسية ادبية تصدر في الاسكندرية مرة في الاسبوع لصاحبها عبدالله افندي رشدي ومحمود افندي ابراهيم اشتراكها السنوي مئة قرش (٣) المعرض . هي جريدة مصورة اسبوعية تصدر في سنت لويس باميركا في أثناء المعرض لصاحبها ومحررها سليم افندي شاهين بدل اشتراكها عن كل مدة المعرض من أول مايو الى آخر اكتوبر خمسة فرنكات في الولايات المتحدة وثمانية في الخارج (٤) النافع . جريدة سياسية تصدر بطنطا مرة في الاسبوع لصاحبها ومديرها مصطفى افندي نافع بدل اشتراكها مئة قرش في مصر وليرتان عثمانيتان في الخارج (٥) المنعم جريدة سياسية وطنية تصدر بمصر مرة في الاسبوع لمحررها لطفي بك عيروط المحامي ومديرها سليم افندي عيروط بدل اشتراكها ستون قرشاً

(مجلات جديدة) (١) الحكمة . هي مجلة علمية طبية تهذيبية تاريخية تصدر مرة في الشهر لمنشئها الدكتور عبد العزيز لطفي من كلية مونبيليه بفرنسا بدل اشتراكها ثلاثون قرشاً بمصر وعشرون قرشاً للاطباء والصيادلة وعشرة فرنكات في الخارج

(۲) لسان الامم · مجلة علمية ادبية مدرسية باللغتين العربية والانكليزية تصدر بمصر مرة في الشهر لمديريها ومحرريها حسين افندي روحي وم ع · ابو الحاوي الدراجي قيمة الاشتراك ۳۰ قرشاً بمصر وعشرة فرنكات في الخارج (۳) تنور · مجلة ادبية اخبارية زراعية انتقادية (لبنانية) تصدر في الاسكندرية مرتين في الشهر لمنشئها داوود افندي سلمان مجاعص من الشوير لبنان بدل اشتراكها ۱۵ فرنكاً في الممالك العثمانية و۲۰ فرنكاً في الخارج فنتمنى لهذه الجرائد والمجلات كل نجاح

الهلال العشرون

وملحق هذه السنة

جرت لنا العادة منذ جعلنا سنة الهلال عشرة أشهر وعوضنا عن الشهرين الباقيين بملحق نرسله للمشتركين في آخر السنة ان نرسل العدد الاخير من الهلال في ۱۵ يوليو ثم نردفهُ بذلك الملحق في أول اغسطس · ولكن مصلحة البريد اعترضت على اعتبار ذلك الكتاب ملحقاً ان لم يكن مضموماً الى الجزء الاخير المشار اليه ويرسلا معاً في مجلد واحد · وعليه فسترسل الجزء العشرين من هذه السنة وملحقها في مجلد واحد في أول اوغسطس القادم · وفي الجزء العشرين المذكور تتمة رواية شارل وعبد الرحمن وفهرس السنة الثانية عشرة

واما الملحق فهو الجزء الثالث من تاريخ التمدن الاسلامي وموضوعه البحث في نشوء العلوم والآداب في عهد ذلك التمدن وما كان منها قبل الاسلام وما أثر الاسلام في القرائح والعقول وما ترتب على ذلك من ظهور العلوم الاسلامية · ثم البحث في حال العلم عند الروم والفرس في أوائل الاسلام وكيف نقل العرب علوم الاقدمين الى العربية والاسباب التي دعت الى كل ذلك ووصف حال العلم بعد نضجه في التمدن الاسلامي وبيان ما أنشأه المسلمون من المدارس والمكاتب والمراصد والمارستانات وما أحدثوه من العلوم او ادخلوه من الاصلاح والتعديل في علوم الاقدمين وغير ذلك بحيث لا نغادر حادثة لا نسندها الى سبب معقول · وسترسل هذا الكتاب والجزء الاخير من هذه السنة معاً في أول اغسطس القادم الى المشتركين الذين سددوا ما عليهم على جاري العادة في كل عام — ولا يرسلان لسواهم

الفصل الاول

فتوح العرب في بلاد الافرنج

فتح المسلمون اسبانيا سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) بقيادة طارق بن زياد البربري كما بيّنا ذلك في رواية « فتح الاندلس » . وكان طارق من موالي موسى بن نصير عامل بني امية على افريقية اي من اتباعه وموسى يومئذ شيخٌ قد ناهز الثمانين من عمره . فلما فتحت الاندلس اصبحت من توابع تلك الولاية او فرعاً من فروعها . وعامل افريقية يقيم في القيروان وهو الذي يولّي عمّال الاندلس . وما زال ذلك شأن الاندلس حتى استقلت على عهد الدولة الاموية الاندلسية بعد ظهور العباسيين في المشرق

فلما تهيأت اسباب الفتح لموسى وهو في افريقية استشار الخليفة في ذلك فوافقه وحذره فلم يشأ موسى ان يفرط في جند العرب وهم يومئذ قليلون بالنظر الى اهل البلاد الاصليين في معظم البلاد التي فتحوها وخصوصاً في افريقية فأنفذ في تلك الحملة اكثرها من البربر سكان افريقية الاصليين وقائدهم مولاه طارق . فلما حصلت الواقعة بين طارق ورودريك في فحص شريش وقتل رودريك سنة ٩٢ هـ اصبح فتح الاندلس امراً مقضياً ولم تمض سنة حتى فتحت قرطبة ومالقة وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس العظمى وتأيدت شوكة المسلمين هناك

فلما بلغ خبر ذلك النصر السريع الى موسى تمنى ان تكون له يدٌ فيه فكتب الى طارق ان يتوقف ريثما يأتيه هو وجنّد جنداً آخر من العرب والبربر وقدم الى اسبانيا من جهة أخرى ففتح مريدة وسرقوسة وغيرها . ولما رأى سهولة الفتح عليه أوغل في اسبانيا حتى تجاوز جبال البيرينة الى فرنسا فغزا بلاداً منها الى ناربونة وقد عزم على مواصلة الفتح في بلاد اوربا حتى يعود الى الشام من طريق القسطنطينية[1] فيتم له فتح العالم المعمور يومئذٍ ولم يكن باقياً منه الى ذلك الحين غير اوربا وكانت في غاية الاضطراب والانقسام كما سيأتي

(١) المقرّي ج ١

فوقع في اثناء تلك الحروب خلافٌ بين موسى وطارق واستفحل حتى اضطرَّ الخليفة في دمشق الى استقدامهما اليه للنظر في امرهما فشخصا الى الشام وولّى موسى على اسبانيا ابنه عبد العزيز فجعل قصبته اشبيلية . اما موسى فانه اتى دمشق ومعه من الغنائم والسبايا ما لا يحصى وجاء طارق ايضاً (سنة ٩٤ هـ) وتحاكم الاثنان الى الخليفة الوليد . فتوفي الوليد في اثناء المحاكمة فخلفه اخوه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ وكانت بينه وبين موسى ضغائن فشدد النكير عليه وعلى اولاده فأوعز الى بعض الامراء في الاندلس ان يقتلوا عبد العزيز فقتلوه وحملوا رأسه محنطاً الى دمشق . وكان موسى في السجن فاستقدمه سليمان واراه رأس ابنه وسأله هل يعرفه فدعا موسى على قاتله وأثَّر ذلك المشهد فيه فمات بعد قليل . ولا ندري ما انتهى اليه امر طارق

ذهب موسى وطارق ولم يذهب من فكر العرب فتح اوربا فكانوا يرقبون الفرص ويحول دون مرادهم ما انتشب من الخصام بين قبائلهم . على انهم عادوا الى مشروع موسى من طريق آخر فانفذ الخليفة سليمان سنة ٩٨ هـ حملة كبيرة عن طريق القسطنطينية بقيادة اخيه مسلمة بن عبد الملك لحاصرها . وطال حصارها حتى توفي سليمان وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ فاسترجع الجند وقد امتنع عليهم الفتح من ذلك الطريق فعادوا الى السعي فيه بطريق الاندلس

وتوالى على الاندلس عدة امراء فتحوا مدناً كثيرة من جنوبي فرنسا لم تثبت اقدامهم الأفي قليل منها ثم افضت الامارة الى عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) وكان رجلاً حازماً كريماً تقياً مخترماً غيوراً على الاسلام والمسلمين فأخذ على عاتقه استئناف العمل لفتح اوربا عن طريق غاليا (فرنسا) فالمانيا فالمملكة الرومانية الى الشام . وكانت قصبة الاندلس يومئذٍ قد انتقلت الى قرطبة فأخذ عبد الرحمن في اعداد الجند للخروج على بلاد الافرنج وكانوا يسمونها يومئذٍ الارض الكبرى وكان عبد الرحمن حذوراً يخاف الفشل في مهمته كما فشل سلفاؤهُ وكان قد عرف علة فشلهم فعمد الى تلافيها فطاف اسبانيا بنفسه وتعهد احكامها فعزل الضعفاء واهل المطامع من امرائها وابدلهم برجال ذوي دراية وحلم يحسنوا سياسة الناس من اهل الذمة وانصف هؤلاء فردَّ اليهم ما كان سلفاؤهُ قد اغتصبوه من كنائسهم واملاكهم [1] واعادهم الى ما كانوا عليه من العهود من زمن موسى بن

---

(١) رينو (عن ايزيدور الباجي)

نصير لعلمه انه لا يفوز في مهمته الا اذا احسن سياسة الرعية وعاملهم بالحق والرفق والا فانهم يكونون عوناً عليه . وكان عبد الرحمن وهو في ذلك الطواف يخطب المسلمين في المساجد ويحرضهم على الجهاد في سبيل الله لتفتح غاليا وما وراءها حتى يعمَّ الاسلام كل العالم(١)

وكان لكلامه تأثيرٌ عظيم في المسلمين من العرب وغيرهم فتقاطروا من افريقية ومصر والشام والحجاز واليمن وفيهم العرب والبربر والمولدون من المصريين والسوريين على اختلاف القبائل والشعوب وقد تكاتفوا وقاموا جهاداً في سبيل الدين اجابة لدعوة عبد الرحمن وهم انما وثقوا به لما اشتهر من حزمه وكرم اخلاقه وعدله وصدق اسلامه وتألفوا حوله فرقاً باعتبار قبائلهم واجناسهم وهو اميرهم الاكبر

الفصل الثاني

فتح بوردو

وكانت فرنسا في ذلك الحين تسمّى بلاد الغال او غاليا وكانت الدولة الرومانية قد تقلص ظلها عنها وتولتها عائلة من قبائل الجرمان سماها المؤرخون ميروفنجيان اول ملوكها كلوفس (Clovis) حكمها سنة ٤٨١ م وتتابع الحكم في اولادهم الى اوائل القرن الثامن وقد ضعف امرهم وانقسمت مملكتهم وافضى النفوذ الى رجال دولتهم شأن الدول في ادوار انحطاطها . وكان وزير الملك في ذلك الحين رجل اسمه شارل من قبيلة الافرنج وكانت غاليا تقسم الى مقاطعات كانوا يسمون الجنوبية منها سبتمانيا قصبتها نربونة وكانت قد دخلت في حوزة المسلمين يليها من الشمال اكيتانيا وقصبتها طولوزة وهي مقاطعة كبيرة حاكمها امير افرنجي اسمه اود وحدودها من الشمال نهر اللوار ومن الشرق نهر الرون ومن الجنوب جبال البيرينة ومن الغرب الاوقيانوس . ويلي اكيتانيا من الشمال مقاطعة نوستريا ووراءها اوستراسيا وحاكمها شارل المذكور فضلاً عن اقسام اخرى . وكان كل دوق او حاكم يريد الاستئثار بالسلطة العامة لنفسه . وكان عبد الرحمن قد ادرك اختلال امورهم او جاءه البشير بذلك فعزم على فتح بلادهم

(١) دوزي ج ٣

فأمر عبد الرحمن بالرحيل للجهاد فبلغه وهو في الطريق ان احد قواد المسلمين على الحدود الشرقية في جبال البيرينة تخالف لذلك الرأي ٠ وكان الامير المذكور قائداً بربرياً يسمى المنيذر[١] وكان شجاعاً باسلاً غير انه كان قليل الاتحاد بالعرب ينظر الى امرائهم نظر الحسد مثل اكثر قواد البربر ٠ وكان المنيذر قد أبرم عهداً مع اود دوق اكيتانيا فازوجه اود ابنة له جميلة اسمها لمباجة[٢] فلما علم عبد الرحمن بتلك المعاهدة اوجس خيفة من المنيذر فبدأ به فبغته في امارته وقتله وقبض على امواله ونسائه وامر بارسال لمباجة الى الخليفة في الشام

فلما اطمأن بال عبد الرحمن من المنيذر وامن على الاندلس حمل برجاله وقواده على بلاد الافرنج فاخترقها شمالاً وجنده يفتحون البلاد ويحرزون الغنائم وليس من يدفعهم ٠ وقد استولى الرعب على الافرنج وخافوا على بلادهم واود لا يقوى عليهم حتى وصلوا مدينة بوردو الشهيرة اليوم بخمورها فافتحوها بالسيف وقبضوا على الكونت حاكمها وهم يحسبونه اود نفسه فقطعوا رأسه ليرسلوه الى الخليفة في الشام على جاري العادة

وبوردو كان اسمها يومئذ بورديغاليا وهي واقعة عند نهر غارون على ضفته اليسرى وكانت من المدن الحصينة يحيط بها سور مربع الشكل عليه الابراج العالية ٠ وكان الرومانيون يعدونها من اكثر مدن غاليا علماً وادباً وفيها امفيتياتر روماني عظيم كانوا يسمونه امفيتياتر غاليوس وكنيسة كبرى اسمها كنيسة الصليب ولا تزال آثار هذين البنائين باقية الى اليوم

فلما جاءها المسلمون خيموا في ظاهرها ثم فتحوها عنوة وامعنوا فيها نهباً وسلباً فلما فرغوا من القتال عادوا بالغنائم والاسرى والسبايا الى ساحة كبيرة امام المعسكر فامر عبد الرحمن اميراً من امرائه اسمه هانيء كان قائداً لفرقة الفرسان وهي اهم فرق الجند عندهم — لان مهارة العرب في الفروسية كانت من جملة ما ساعدهم على الفتح وخصوصاً في بلاد الافرنج

وكان هانيء شاباً في نحو الخامسة والعشرين من عمره اشتهر في معسكر عبد الرحمن بالبسالة وشدة البطش وقد شب على ظهور الخيل فاذا ركب لا يبالي من يلاقي ولو كانوا مئات ٠ وكان عبد الرحمن يحبه حباً شديداً ويقدمه على سائر القواد مع صغر سنه ومع كونه من غير قبيلته ٠ لان عبد الرحمن من قبيلة بني غافق وهي من القبائل اليمنية[٣] وهانيء من

(١) سماه ايزيدور (Munuza) وظنه رومي المؤرخ «ابو نسعة» وهو عثمان اللخمي وعندنا انها تحريف المنيذر لانه افريقي واما ابو نسعة فانه لخمي اي من العرب (٢) رينو
(٣) نهاية الارب في قبائل العرب (خط)

قيس وهي من قبائل الحجاز وكان التنافر متمكناً يومئذ بين اليمنية والقيسية فلم يبال عبد الرحمن بذلك . وكان هانىء من الجهة الاخرى يحب عبد الرحمن ويحترمه احتراماً شديداً لكرم اخلاقه وسعة صدره . وكانا قد تحالفا سرًّا على الاتحاد المتين في اثناء هذه الحرب حتى يفرغا منها لعلمها ان الذين حاولوا فتح اوربا قبلهما انما كان سبب فشلهم الانقسام . فكان عبد الرحمن بالنظر الى ثقته بهانىء يعهد اليه بكل ما يفتقر الى الثقة وحسن الظن ومن هذا القبيل اعتياده عليه بعد فتح بوردو بقسمة الغنائم وتدبير امر الاسرى

وكانوا يومئذ في اوائل الخريف سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) وضواحي بوردو مكسوة بالكروم وقد نضجت اعنابها وكان هانىء قد ابلى في ذلك الفتح بلاء حسناً حتى بهر الناس ولم يتحوّل عن جواده طول ذلك اليوم وهو يجول ذاهباً وجائياً يحرض رجاله ويحث القواد على الثبات والصبر ولم يكن في امراء ذلك الجند من لا يحب هانئاً ويعجب ببسالته واقدامه الا من حسده لتقربه من الامير الكبير مع صغر سنه لكن حساده لم يجدوا سبيلاً الى اذيته بسبب شدة محبة عبد الرحمن له . وكان هانىء طويل القامة عريض الصدر اذا مشى عرفه الناس من طوله وعرض كتفيه واذا أقبل اليك توسمت مناقبه مصورة في محياه فقد كان على غضاضة شبابه واضح الملامح بارز الحاجبين والوجنتين حاد العينين صغير الانف والفم بارز الذقن خفيف العارضين اسود الشعر لا ينفك وجهه باسماً مع وقار . وركب في ذلك اليوم على جواد ادهم لا يحب الركوب على سواه لخفة حركته وجمال مشيته وصبره في ساحة الوغى وقد توسم فيه الخير لانه لم يركبه في قتال الا عاد منصوراً وما في معسكر عبد الرحمن من لا يعرفه لتعلق هانىء بادهمه حتى توهموا انه شغل به عن ملاذ الدنيا . وبالحقيقة انه لم يكن همه الا مراعاة ذلك الجواد واتقان عدته حتى البسه لجاماً مذهباً وسلسلة وركابين من فضة وعلق على جبهته لؤلؤة كبيرة عثر عليها في بعض غزواته في غاليا فصاغها في شكل نجمة وعلقها هناك . وكان الادهم شديد التعلق بصاحبه اذا ناداه اتاه صاغراً واذا استحثه في ساحة الوغى اسرع حتى تظنه طائراً فاذا استوقفه وقف بغتة

الفصل الثالث

الغنائم والسبايا

فأقبل هانئ في اصيل ذلك اليوم على ادهمه كأنه جبل يسعى وقد تعمم بعمامة حمراء وتزمل بعباءة حمراء وتقلد حسامه وقد نقش اسمه على نصاله ورصع قبضته بالحجارة الكريمة وامر بعض رجاله ان يفرزوا الغنائم كل صنف منها على حدة فجعلوا الاسرى في جانب والسبايا من النساء والاطفال في جانب والغنائم من الاسلحة والآنية والاموال والمجوهرات في جانب . واستدعى هانئ امراء الجند وهم جماعة كبيرة وفيهم البربر من اهل افريقية وهؤلاء كثيرون . لان العرب كان معتمدهم في حروبهم بالاندلس وفرنسا عليهم وكان هؤلاء اهل بطش وشدة ولكنهم لم يكونوا على قلب واحد في نصرة الاسلام لما كان من استهان العرب يومئذ لغير العرب ولو كانوا مسلمين [١] فكان البربر يصحبون العرب في حروبهم رغبة في الغنيمة اكثر مما في نصرة الاسلام . على ان بعض قبائلهم كانوا يرافقون العرب في الجهاد وما هم من الاسلام على شيء او ربما تظاهروا به وهم يهود او وثنيون . ويقال نحو ذلك في سائر فرق الجند غير العرب . فقد كان في جملة رجال هذه الحملة اناس من الاسرى او العبيد اشتراهم العرب وربوهم في حجر الاسلام وهم في الاصل من الصقالبة (السلاف) او من الافرنج او الروم او غيرهم [٢]

فلما اجتمع القواد على خيولهم بين يدي هانئ امر بالغنائم من الآنية والاموال فجيء بها فأمر بالخمس وهو حق بيت المال فافرزه جانباً وفرق ما بقي على الامراء باعتبار تعداد رجال كل منهم . وكان اذا رأى اختلافاً بينهم على قسمة بذل من سهمه واسهم رجال في سبيل التوفيق

وبعد الفراغ من قسمة الغنائم تحولوا الى جهة الاسرى وكانوا عديدين وقد شدوهم بعضهم الى بعض بالحبال او السلاسل وساقوهم سوق الاغنام وجاؤا بهم حتى اوقفوهم بين يدي هانئ . فالتفت هانئ الى القواد وقال لهم « ان هؤلاء الاسرى من جملة الغنائم واقتسامهم لا يمكن فاعرضوهم للبيع . . . اين التجار . . . ؟ » ولم يتم كلامه حتى جاء جماعة من يهود القيروان

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج٢ (٢) رونيج ٣

وقرطبة وغيرها من مدن الاسلام كانوا قد صحبوا الحملة للتكسب من امثال هذه التجارة — واليهود لاتفوتهم هذه الفرص . فلما حضروا تقدم واحد منهم وعلى راسه عمامة سوداء واسعة ولحيته مسترسلة على صدره وانفه اعقف كبير وعليه قباء واسع ووراءه احمال من الدراهم والدنانير . فقال له هانىء « بكم تشتري هؤلاء الاسرى يا هرون »

قال « بالذي يأمر به مولاي »

فقال « لولا عزمنا على السفر الى الحرب ما بعناهم بل كنا نستخدمهم في منازلنا او نتوقع الفداء من اهلهم اذ ربما كان بينهم من اولاد الاغنياء من يفتديه اهله بالاموال الطائلة ولكننا على اهبة المسير للحرب ولا وقت لنا فاشتر » قال هانىء ذلك عن بساطة واتفة ولكن هرون تمسك بقوله وصمم على الاحتيال للابتياع بأقل الاثمان فقال « صدق مولاي ولكن ابتياع هذا القدر من الناس خطر علينا اذ لا ندري كيف ننقلهم الى اسبانيا او الى افريقية او الى الشام حيث يعرضون للبيع وفي ذلك من مشقة والنفقة مافيه . . »

فضجر هانىء من المطاولة وهو يودّ الفراغ من هذه البيعة لامر يهمه في البيعة التالية — بيعة السبايا — فقال « اشتر الاسير بدينار كباراً مع صغار على ان تكون اسلابهم لنا غير ما يكسو عوراتهم »

فضحك هرون وهو يمشط لحيته ثم يقبضها بيده ويرسلها على صدره ويتظاهر انه استكثر المبلغ وقال « ألا يكفي ان ادفع اثمان هؤلاء وهم مئات ثم تطالبني باسلابهم وما عليهم منها الا الثياب . . »

فقال هانىء « قد بعناك فادفع المال الى هذا الكاتب وهو يحصي العدد ويقبض الثمن » قال ذلك واشار الى كاتبه وساق فرسه الى جانب آخر من تلك الساحة حيث كانت السبايا وفيهم النساء والاطفال فتبعه هرون وهو يقول «لاتبع السبايا لسواي» فاعترضه تاجر آخر شهد بيعة الاسرى وصاح فيه « قد اشتريت الاسرى وحدك فدع السبايا لنا » فأجابه ذاك جواباً جافياً فانتصر بعض الوقوف من اليهود لهرون والبعض الآخر لرفيقه وعلت الضوضاء فسمع هانىء ضوضاءهم فصاح فيهم وقال « لاتغضبوا انا نقسم البيعة بينكم على السواء »

فلما وصلوا الى موقف السبايا ساق هانىء جواده الى آخر موقفهم وكانوا قد صفوهم صفوفاً نساء واطفالاً فمرّ بهم الهوينا وهو يتفرّس في الوجوه كأنه يفتش عن ضائع والنساء يتضرّعن اليه بالايماء والبكاء لانهنّ لا يعرفنّ العربية وهو لا يلتفت الى احد حتى وصل الى آخر الصف حيث عثر على ضالته وهي فتاة لم يرَ الراؤون اجمل منها

وبجانبها امرأة في نحو الاربعين من عمرها والهيبة والجلال ظاهران فيهما . ومع عويل سائر النساء والاطفال فانها كانتا هادئتين لا تبديان حراكاً وليس في ملامحها ما يدلُّ على الخوف او الاضطراب . وكانت المرأة بيضاء اللون شقراء الشعر زرقاء العينين وقد لمت شعرها وضمته في اعلى رأسها تحت خمار اسود وا كتست رداء اسود يجللها كلها حتى يحسبها الناظر اليها من سكان الاديار . وكانت جالسة حينئذٍ على حجر وقد اطرقت كأنها تفكر في امر ذي بال وفي يدها محفظة من جلد قد حرصت عليها حرصاً شديداً

أما الفتاة فكانت واقفة بجانبها وعليها لباسٌ اسود مثل لباسها وقد اسندت يدها الى كتف المرأة وهي مكشوفة الزندين الى الكوع وقد التف زنداها التفافاً بديعاً . وكانت طويلة القامة مع اعتدال ورشاقة وقد بدت الغضاضة في محياها مع النشاط . واذا حزرت عمرها ربما حسبتها في الخامسة والعشرين وهي في الحقيقة دون العشرين . سمراء اللون سوداء العينين كحلاء الجفون حادة البصر مع وداعة ورقة . تدلُّ وقفتها على الصحة والقوة معاً ويتجلّى فوق ذلك كله لطف نسائي يسحر الالباب . وكان ثوبها الاسود بسيطاً وقد انفتح الرداء من اعلى الصدر فظهر عنقها الدال على الصحة والقوة بامتلائه واستدارته . وضفرت شعرها الكستنائي الجميل ضفيرتين مستطيلتين ارسلتهما على صدرها من جانبي العنق فبلغتا الى تحت الخصر فوق منطقة من جلد . وغطت رأسها بنقاب اسود يكسو شعرها ويسترسل على كتفيها وظهرها . والناظر الى الفتاة بجانب تلك المرأة يتبادر الى ذهنه انها والدتها وان اختلفتا خلقة وشكلاً لان المرأة كانت بيضاء اللون شقراء الشعر والفتاة سمراء كما تقدم

أقبل هانىء اليهما والفتاة تنظر الى والدتها وتخاطبها بهمس . فلما وصل اليها رفعت نظرها اليه وتفرست في وجهه وتفرس هو فيها هنيهة لا تدري ما دار في اثنائها بينهما من حديث العيون . ثم امر بعض الغلمان ممن في ركابه ان ينقلها الى مكان منفرد ريثما يفرغ من مهمته . فلم يستغرب احدٌ طلبه لان ذلك من الامور العادية في مثل هذه الحال فالفاتحون يختارون من غنائمهم ما شاؤوا لانفسهم ويبيعون ما شاؤوا

ثم عاد هانىء الى اواسط الصف ونادى التجار وقال « كيف تقتسمون هذه السبايا »

فتقدم هرون وقال « لا يمكن الاقتسام في هذه الحال لان ثمن الفتاة او المرأة يختلف باختلاف درجة جمالها وعقلها وما تستطيعه من الصنائع كالغناء او الرقص او الخياطة او الطباخة وباختلاف صحتها وغير ذلك فالاحسن اذا شاء مولاي ان ينتقي كلٌّ منّا ما يشاء من هؤلاء على شرط ان من يختار اولاً يدفع ثمناً غالياً ثم يقلُّ الثمن في الاختيار الثاني فالثالث »

فاستحسن هانئ هذه الطريقة فقال « ان الذي يتقدم اولاً لاختيار من يريد من هؤلاء تحسب عليه المرأة بخمسة دنانير والغلام بدينار والذي يتقدم ثانية فانه يدفع نصف هذه القيمة . . » قال ذلك والتفت الى الكاتب وامره ان يتم البيعة ويتولى قبض الثمن ويقسمه في الجند باعتبار العدد وساق جواده الى السبيتين

الفصل الرابع

بسطام

وكانت الشمس قد آذنت بالزوال وتراجع المسلمون الى مضاربهم وتركوا قسمة الغنائم الى امرائهم . وكان الامراء في انتظار الفراغ من بيع الاسرى والسبايا حتى يقتسموا ما يجتمع من اثمانها . فجلسوا في خيمة بجانب فسطاط الامير عبد الرحمن لهذه الغاية وكان في جملتهم امير من البرابرة يقال له بسطام لم يدخل هو وقبيلته في الاسلام الا طمعاً في الكسب والنهب من الغنائم ونحوها . وكان قوي البدن فظ الخلق يكاد الناظر اليه يرتعد من منظره لضخامة هامته وسعة وجهه مع عظم انفه وانتفاخ منخريه . وكان في عينيه احمرار وحدة خارقة حتى يوهمك اذا نظر اليك انه يخترق صدرك ببصره . وقد زاد منظره وحشة كثافة حاجبيه وبروزهما بروز الطنف واقترانهما كأنهما خط واحد غليظ . فضلاً عن لونه الزيتوني وعما يتجلى في مجمل سحنته من القسوة والخشونة وما يدل عليه غلظ شفتيه من الميل الشديد الى الملذات الشهوانية . وكان بسطام رئيس قبيلة كبيرة من قبائل البربر فلما سمع بحملة عبد الرحمن الى بلاد الافرنج وكان يسمع بغناها وخيراتها تظاهر بالاسلام وادعى انه انما يريد الجهاد في سبيل الدين . ولم يكن حال هذا وامثاله ليخفى على عبد الرحمن ولكنه كثيراً ما كان يغضي عن ذلك رغبة في اكتساب القوة . لان هؤلاء البرابرة أبلوا في تلك الحروب بلاء حسناً وخصوصاً بسطام فانه كان يهاجم الاسوار ويتلقى السهام ويستقبل الفرسان بقلب لا يعرف الخوف . وكان كلما فرغوا من معركة واقتسموا غنائمها انتخب ما يطيب له من السبايا وعبد الرحمن يتساهل في معاملته حذراً من غضبه لئلا تسوقه الحدة والخشونة الى الانقلاب على المسلمين فتنقلب معه قبيلته وقد يقتدي بها غيرها من قبائل البربر او غيرهم من غير العرب (الموالي) ممن انتظموا في تلك الحملة

وفي نفوسهم حسدٌ لما يميّزبه العرب انفسهم عن سائر المسلمين كالاستئثار بالسلطة واحراز الاموال . وكان التحاسد سائداً ايضاً بين العرب انفسهم أيمنية في جانب والحجازية في جانب آخر ناهيك بما بين الامويين والهاشميين من التنازع على الخلافة . على ان المسلمين غير العرب اذا كانوا حسني الاسلام قد يغضون عن هذا التحاسد وخصوصاً في اثناء الجهاد . اما الذين كانوا يظهرون الاسلام رغبة في الغنائم فاذا فاتهم المقصود من انضمامهم انقلبوا الى الضد

فاتفق في واقعة بوردو ان بسطاماً جاهد جهاد الابطال وهو الذي هجم بنفسه على المنزل الذي كانت فيه هاتان المرأتان وقبض عليهما وارسلهما مع بعض رجاله الى المعسكر في جملة الغنائم على أمل انهُ متى عُرضتِ السبايا للبيع طلب الفتاة لنفسهِ وهو لا يتوقع ان يكون لهُ مزاحم او معارض في ذلك . . .

وكان بسطام في جملة الامراء المجتمعين في ذلك اليوم ينتظرون اقتسام الغنائم وقد اوصى بعض رجاله ان يراقب تلك الفتاة لئلا تخرج من يدهِ . فلما رأى هانئاً افردها مع رفيقتها لم يجسر الرجل على منعه او الاعتراض عليه ولكنه اسرع الى بسطام فاخبره فغضب وصاح فيه « اذهب وقل لذلك القيسي ان الفتاة للامير بسطام لانها سبيتي وقد نلتها بحدّ سيفي »

فظل الرسول واقفاً ولم يبدِ جواباً فأدرك بسطام انه لا يجسر على مخاطبة هانىء بمثل ذلك فقال له « ما بالك لا تمشي . . . ؟ »

فتحول الرسول من الخيمة ومشى الهوينا وهو يغرس انامله في شعر رأسه المتلبد المتكاثف كالعمامة السوداء ويحكه وقد تأبط جراباً من جلد حرص عليه كل الحرص لما حواه من المواد الثمينة التي نهبها في اثناء الواقعة او التقطها وهم يجمعون الغنائم ولم يكن يرى سبيلاً لحفظها الآن بحملها معه مع ثقلها عليهِ . وكذلك كان يفعل اكثرهم وخصوصاً الساعون في الجهاد رغبة في الغنائم ـ مشى ذلك البربري وهو يتباطأ في مشيتهِ ويهمُّ ان يلتفت الى الوراء كأنهُ يتوقع من يسترجعهُ . وكان بسطام ينظر اليهِ ويراقب مشيتهُ بعينيهِ الحمراوين وقد حمي غضبهُ لما في ذلك التردد من الاستخفاف بهِ فصاح فيهِ فوقف وتراجع فقال لهُ « يظهر انك خائف منهُ . . . لا تكلمه بل اذهب انت ومن شئت من رجالي فأتوني بالفتاة سريعاً »

فمشى الرجل مثل مشيتهِ الاولى فازداد غضب بسطام ووثب وفي يده خنجر روماني

كان قد قتل صاحبه طمعاً فيه لاتقان صنعه فاستلّه وضرب به الرسول فأصابت الضربة ظهره فقتلته . وكان بالقرب من الخيمة جماعة من رجال قبيلته واقفين لبعض الشؤون فصاح بسطام فيهم « هلموا الى غنيمة هذا الجبان فهي وكل ما في خيمته من المنهوبات ملك حلال لكم » فأسرعوا الى جثته وهمّوا باقتسام ما في جرابه حتى كادوا يختصمون ويتضاربون

اما بسطام فانه ردّ الخنجر الى مكانه ووثب الى جواده فركبه واتجه نحو الساحة . وكان قد علم بمكان الفتاة ورفيقتها فسار توًّا اليه ولم يرَ برباني، ولا خاطبه بهذا الشأن . وكان هاني، لا يزال الى ذلك الحين مشتغلاً ببيع السبايا .

فلما فرغ من مساومة اليهود ساق جواده نحو الفتاة وهي على مسافة ميل وبعض الميل منه والشمس قد توارت وراء ابنية بوردو واختلطت اظلال تلك القصور حتى صارت ظلاماً خيّم على الغالب والمغلوب والقاتل والمقتول — خيّم على المسلمين وقد اشتدت عزائمهم بما اوتوه من النصر فاشتغلوا باقتسام غنائمهم . وعلى الغالبين من اهل بوردو وقد غلبوا على ما في ايديهم فقتلت رجالهم وسبيت نساؤهم ونهبت بيوتهم ومعابدهم . ولولا اشتغال هاني، بما جاش في فؤاده من عوامل الغرام وما غشي بصيرته من عواطف الشبيبة لاعتبر بما كسا افق بوردو من الشفق وقد اشتد احمراره حتى يحسبه الناظر اليه رمزاً عن الدماء التي سفكت في ذلك اليوم هناك . ولكنه كان مشتغل الخاطر بشيء لايعرفه غير الذي يعانيه — وهو الحب — ومن غريب امر الحب انه يقع على الناس وقوع السبات من حيث لايعلمون . وربما كان الباعث على وقوعه نظرة واحدة فلا تكاد تلتقي العين بالعين حتى تجيش العواطف وتتجاذب القلوب تجاذباً لاسبيل الى دفعه . ولا يحدث ذلك عند كل نظرة ولا في كل انسان وانما هو تأثير بعض العيون على بعض القلوب . فاذا تفاهمت العينان استيقظ القلبان وتجاذبا كأنهما كانا على موعد وقد تاها وكل منهما يبحث عن رفيقه ثم التقيا بغتة وتعارفا عن طريق النظر

الفصل الخامس

التنازع

كذلك حدث لهاني، فانه لم يكن يعرف تلك الفتاة قبل ذلك اليوم فوقع نظره عليها للمرة الاولى وهو واقف بباب المدينة يراقب اخراج الغنائم والسبايا ويحصيها . وكانت الفتاة

في جملة الخارجين وقد ساقها بعض البرابرة من رجال بسطام باشارة منه كما تقدم . فرآها هانئ تمشي بثوبها ونقابها الاسودين وتحت النقاب ضفيرتاها المرسلتان على صدرها وقد اطرقت لا تلتفت يميناً ولا شمالاً ورفيقتها ماشية بجانبها . فلما بلغت الفتاة الى عتبة الباب سمعت هانئ ينادي كاتبه ويسأله عن عدد الذين خرجوا الى ذلك الحين ثم قال له « لا تحص هذه من جملتهم » فوقع صوته في اذنها وقوع السهم في قلبها . فلم تتمالك ان رفعت بصرها اليه وحدقت به فقرأ في تلك النظرة ما يعجز الخطيب عن ادائه في خطاب ولا يستطيع الكاتب التعبير عنه في كتاب — قرأ فيها الاستعطاف والاستنصار والحب والاستسلام مع الانفة وعزة النفس . فأجابها بنظرة قرأت فيها جواباً صريحاً على ما يتمناه قلبها فاطمأن بالها — حدث ذلك كله في لحظة والناس حولها في غفلة بين باكٍ ونادب وراجٍ وخائف — اما هانئ فحالما وقع نظره عليها صمم على ان يستأثر بها لنفسه . ثم اكبر ان يتخذها سبية لما آنس من هيبتها وجمالها فعزم ان يقترن بها . ولم يكن قد تزوج ولا حدثته نفسه بالزواج الى ذلك الحين لاشتغاله بالجهاد منذ نعومة اظفاره في بلاد الافرنج التماساً لفتح اوربا . ولذلك فلما دعاه عبد الرحمن الى تلك الحرب لبّى مسرعاً . فلما احس بتحرك قلبه لم يتمالك عن التفكير بالزواج — والغالب في طالبي الزواج ان يقع عليهم هذه الصورة . فربما قضى احدهم الاعوام الطوال وهو لا يرى الزواج ولا يسعى فيه فاذا تحرك قلبه بنظرة او كلمة بذل جهده في سبيله — ولذلك فان هانئاً افرد الفتاة وبعد الفراغ من البيع سار الى استلامها بنفسه ، ولم يعهد بذلك الى احد من رجاله مبالغة في الحرص عليها

فلما ثنى عنان جواده نحو ذلك المكان رأى بالقرب منه فارساً عرف بنور الشفق من شكل الفرس وعدته انه بربري فاستحث جواده وهو مطمئن الخاطر على حبيبته لعلمه انه ليس في جند المسلمين من يجسر على مخاطبتها بعد ان امر هو بافرادها . ولكن الغيرة من اقوى ظواهر الحب ومن اكبر الادلة عليه . وهي عمياء صماء لا تذعن للعقل ولا تدعي نصحه — فاركض هانئ فرسه وقلبه يخفق غيرة وما لبث ان رأى الفارس قد وقف بجانب الفتاة وسمعه يتهدد ويتوعد فساق جواده حتى تطايرت اطراف عباءته في الهواء وقبل الوصول اليهم عرف الفارس فناداه « بسطام » فالتفت بسطام وعيناه تقدحان شرراً وهو يقول « ما بالك ايها الامير .. ؟ »

قال « تنحَّ عن هاتين فاني فرزتهما لنفسي »

قال « وكيف تفعل ذلك وهما غنيمتي .. »

ولو لم يكن هاني، قد علق بالفتاة وتعشقها لما جادله عليها ولكنه توقع ان يسترضي بسطاماً من باب آخر لعله يشره هؤلاء البرابرة للمال والغنائم فابتسم وهو يقول « حب انها غنيمتك وقد رأيتني افردتها لنفسي فتجاوز عنها لي ولك عليَّ ما تطلبه من سهمي في الغنائم . . » قال ذلك وهو يتشاغل بتسوية عُرف ادهمه اظهاراً الاستخفاف بالمسألة واخفاء لما ثار في قلبه من عوامل الغيرة

فأجابه بسطام وهو لا يقوى على كتمان ما في نفسه « ذلك لا يمكنني واذا كان لابد لك من مقاسمتي في هذه الغنيمة فانها امرأتان خذ تلك وانا آخذ هذه » قال ذلك واشار باصبعه اولاً الى الكبيرة ثم الى الفتاة

وكانت الفتاة واقفة بالقرب من رفيقتها وكلاهما صامتتان تنتظران عاقبة ذلك الجدال . ومن الغريب انه لم يبدُ في وجه تلك الفتاة شيء من امارات الخوف كأنها وثقت بفوز حبيبها . ولكنها كانت اذا وقع بصره عليها ابتسمت وفي ابتسامها اطراء وتشجيع فاذا حوّلت بصرها نحو بسطام قرأ هاني، في شفتيها كل ملامح الاستخفاف والبغض — وقد ادرك هاني، ذلك منها رغم ما تقاطر من جيوش الظلام . فلما سمع بسطاماً يعرض المقاسمة على هذه الصورة اعظم استخفافه به فأجابه بصوت هادىء ولكن ملئه التهديد وقال « لا احب المقاسمة وانما هذه الفتاة لي فارجع الى معسكرك وخذ سهمك مما بعناه من الغنائم والاسرى والسبايا »

فازداد بسطام هياجاً ووقف على الركاب بغتة حتى أجفل جواده وصاح قائلاً « لا يمكن لأحد ان يأخذ غنيمتي مني ولو كان الامير عبد الرحمن نفسه انما كفاكم معاشر العرب ما تسوموننا من الخسف فتستأثرون بكل شيء دوننا كأن غير العرب ليسوا مسلمين — وانت تعلم اني قادر على ان اعتزل مع اكم وارجعكم على اعقابكم فلا تفتحون بلداً ولا تكسبون غنيمة . . »

فلما سمع هاني، ذلك التهديد كبر عليه أمره ولكنه تصوّر ما يترتب على مجافاته من الضرر . وهو يعلم ان بسطاماً لا يهمه الاسلام ولا المسلمون فاذا غضب وغضبت قبيلته تضعضع الجند وهذا مالا يرضاه هاني، ولا عبد الرحمن . على ان حدة الشباب غلبت عليه واتقى بين يدي حبيبته فلم يتمالك ان همّ بسيفه فاستلّه وهجم على بسطام لا يبالي اي عضو يصيب منه . فاذا بالمرأة تقدمت بثوبها الاسود وامسكت بعنان فرسه وخاطبته بالعربية قائلة « لا تقتتلا فما نحن غنيمة احد وقد كفى خصاماً . . » قالت ذلك بلسان اهل

اليمن مع شيء من العجمة . فبهت الاميران وتعجبا لما سمعاه بالعربية

اما بسطام فانه ما زال مصمماً على طلبه وخصوصاً بعد ان سمع تهديد هانيء له بين يدي تلك الفتاة وهي تفهم العربية .فقال لها « بل انتِ غنيمتي ... واذا شئت الانحياز الى هذا الامير فلا باس واما هذه فانها لي .. » قال ذلك وانحنى عن سرجه وتطاول ومدّ يده الى الفتاة وهمّ ان يمسكها فتباعدت وهي تنظر اليه شزراً ولم تضطرب . فتبعها بفرسه فلما رأى هانيء تلك الجسارة لم يعد يتمالك عن الغضب وقد سرَّهُ تباعد الفتاة لان في تباعدها تصريح بتفضيلها اياه ونفورها من بسطام . فاحسَّ ان تعقله وكظمه لا ينفعان مع هذا البربري شيئاً فهمز جواده والسيف لا يزال مسلولاً في يده فوثب الجواد وصهل كأنه شارك فارسه بعواطفه وتباعدت المرأة وقلبها يختلج وما كادت تفعل حتى سمعوا وقع حوافر جواد يعدو نحوهم من جهة المعسكر وصوتاً ينادي « هانيءُ هانيءُ اغمد سيفك » فالتفتوا فاذا بالفارس قد اقبل حتى دنا منهم وقبل ان يروا وجهه عرفوا من فرسه ولباسه انهُ الامير عبد الرحمن . فاستغربوا قدومه في تلك الساعة على حين غفلة وبغتوا ولم يفه احدٌ منهم بكلمة ولم يتمالك هانيء عن اغماد سيفه



الفصل السادس

مريم

وكان عبد الرحمن ربع القامة جليل الطلعة صبوح الوجه عريض اللحية والجبهة قد خالط شعره بياضٌ . وكان كبير العينين مع حدة وذكاء بغير جحوظ اقنى الانف وقد تزمل بعباءة سوداء وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة . فلما وصل استولى السكوت على الجميع فالتفت الى هانيء وقال « اراكم تختصمون وتفترقون وكأن قلبي دلَّني على ذلك مذ سمعت بسطاماً يخاطب رسوله في خيمتي فخفت النزاع بين امراء هذا الجند ونحن في اشدّ الحاجة الى الاجتماع فراقبت رجوع بسطام فلما ابطأ أسرعت اليكم فأحمد الله على ذلك »

فأعجب الجميع بسهر هذا الامير على مصلحة جنده وسعيه في جمع كلمته واحسَّ هانيء بتوبيخ ضميره لانه تعاهد هو وعبد الرحمن على الاتحاد والاجتماع كما تقدم فقال « لم اكن

لأخاصم مسلماً على شيء وان عز ولكن بسطاماً يعترضني في سبية اخترتها من بين مئات بعناهن الآن بيع السلع . فلو اننا بعناها لبعض اولئك اليهود فما الذي كان يفعله ..؟ »

فاعترضه بسطام قائلاً « كنت افديها من شاريها بالذي يرضيه .. »

فتقدمت المرأة نحو عبد الرحمن بقدم ثابتة وجأش رابط وقالت « اظنني واقفة بين يدي عبد الرحمن الغافقي امير هذا الجند ؟ .. »

فاستغرب عبد الرحمن تكلمها بالعربية وقال « نعم اني هو . وكيف عرفت ذلك .. »

قالت « عرفتك من سهرك على اجتماع جندك وقد كنت اسمع ذلك عنك — ان الاميرين يختصمان علينا وما نحن لواحد منهما ولكن لنا امراً نعرضه على الامير .. »

فرآها عبد الرحمن تخاطبه بجسارة لاتكون في الاسرى او السبايا فهابها وزاده تهيباً ما آنسه من رزانتها وبساطة لباسها وسواده ووقعت عينه في اثناء ذلك على الفتاة فأعجبه جمالها ومال بكليته الى استطلاع حقيقتها فقال للمرأة « قولي ما بدا لك »

قالت « لا اقول شيئاً الآن وانما اقص حديثي على الامير في خلوة »

وكان في ركاب عبد الرحمن رجلان من خاصته فأمرهما ان يأتيا بفرسين يحملان المرأة ورفيقتها الى فسطاطه على انه لم يتمالك وهو ينتظر قدوم الفرسين عن سؤال المرأة عن رفيقتها من هي فقالت « هي ابنتي .. »

وكان هانئ واقفاً صامتاً وقد وقع في حيرة من امر الفتاة وامها وخاف ان يكون في حديث الوالدة ما يحول بينه وبين ابنتها وقد ازداد تعلقاً بها بعد ما عاينه من رغبتها فيه واحس انها تحبه حباً شديداً فاغتنم اشتغال الامير بخطاب المرأة ودنا من الفتاة واراد ان يسمع حديثها ويستطلع امرها فقال وصوته يدل على هيامه « ما اسمك يا فتية ..؟ »

فأجابته بصوت ادل على لواعج الحب وبلسان عربي فصيح « اسمي مريم » فأعجبته غنة صوتها وزاد افتتانه بها للغنة في لسانها تنطق بها الراء غيناً فكأنه سمعها تقول « اسمي مغيم »

فقال « وانا اسمي هانئ ... هل حفظته كما حفظت اسمك ؟ . »

فأدركت غرضه وقالت « لقد حفظته قبل ان اعرفه فكيف بعد ان عرفته ورأيت منه ما رأيته » ففرح بذكائها وسرعة خاطرها واطمأن باله من نحوها فاجابها وهو يقلد لغتها تحبباً « اخجو ان تكون معغفة مباغكة »

فابتسمت مريم ابتسامة اخذت بمجامع قلبه وتوردت وجنتاها خجلاً واطرقت اطراق الحياء وتشاغلت باصلاح ذيل منطقتها

اما بسطام فكان يراها يتكلمان والحنق يكاد يخنقه وهو لا يجسر على الكلام في حضرة الامير ولكنه اضمر لهما الشر . وبعد هنيهة جاء الجوادان فركبت مريم وامها وساقوا الخيول الى المعسكر وكان هانئ لا يرفع نظره عن مريم فرآها امتطت الفرس بأسرع من لمح البصر كأنها ولدت على ظهور الخيل فازداد هياماً بها . ولكنه ما زال موجساً من تلك الخلوة حتى اذا اقتربوا من فسطاط عبد الرحمن وهي اكبر الخيم وفي بابها الاعلام التفت عبد الرحمن الى هانئ وقال « عد الى تدبير امر الجند وكن كعهدي فيك فاننا في بلاد العدو » والتفت الى بسطام وقال « وانت يا بسطام امير ذو بطش فامض الى شأنك واني مادار بينك وبين هانئ . . . اننا مقبلون على فتوح كثيرة وستصيب من الغنائم والسبايا ما يعوض عليك اضعاف هذه الخسارة . . »

فسار الاميران وتحول عبد الرحمن ودعا مريم وامها للنزول فنزلتا ودخلتا الخيمة في اثره وفي يد الوالدة تلك الحنفظة وقد شدتها الى زندها وقبضت عليها بكفها كأنها تخاف ان يختطفها احدٌ من يدها

الفصل السابع

الخلوة

فلما دخلوا الخيمة اشار عبد الرحمن الى من كان فيها من الامراء والحاشية فخرجوا جميعاً وبقي هو والمرأة وابنتها وقد تشوق لاستماع ذلك الحديث فجلس في صدر الخيمة على بساط ثمين كانوا قد خصوه به من غنائم ذلك اليوم واجلسهما بين يديه . فالتفت كل منهما بردائها الاسود والنقاب الاسود على رأسيهما . فنظر عبد الرحمن الى وجه المرأة على نور الصباح فرأى الجمال لا يزال بادياً في وجهها مع تجاوزها سن الشباب . ونظر الى مريم فرأى بصره قد علق في عينيها الجذابتين وقد زادها التنكر والاطراق هيبة فسبح الخالق على ذلك الصنع العجيب . ثم غلب عليه شوقه الى استماع تلك القصة فحول نظره الى المرأة فرأى الاهتمام ظاهراً في عينيها وهي تنتظر الاشارة للشروع في الكلام فقال لها عبد الرحمن « من انت يا اخية وما خبرك وما هو غرضك ؟ »

قالت « اما خبري فسأطلعك عليه في فرصة أخرى . واما غرضي فهو نصرة هذا الجند حتى تتحقق امانيه »

فلما سمع عبد الرحمن كلامها استغرب تلك الغيرة من امرأة لا يعرف من هي وقد توسم في كلامها وان كان عربياً شيئاً من العجمة . فأراد ان يستطلع حقيقتها فقال لها « ما الذي حملكِ على هذا الغرض وكلامك يدل على انك غير عربية وقيافتك ولباسك يدلان على انك غير مسلمة فلا يعقل ان يكون هذا هو غرضك فاصدقيني »

فنظرت اليه نظر الاستغراب وقالت « لم امثل بين يدي الامير عبد الرحمن الغافقي لأُلفق له حديثاً مكذوباً ولا أرى فراسته في صحيحة لاني وان كنت غير عربية ولا مسلمة فليس ثمة ما يمنع غيرتي على نصرة العرب او المسلمين . وفي تلس هذه المدينة وفي غيرها من مدن النصارى والافرنج من يؤثر انتصار المسلمين العرب على انتصار النصارى الافرنج لاسباب لم اكن اظنها تخفى على مولاي الامير »

فأطرق عبد الرحمن وقد تضاعف استغرابه ولكنه صبر الى النهاية لعله يستنشق شيئاً في عرض الحديث يكشف له الحقيقة فقال لها « لم افهم مرادك . . . . . . هل يتمنى اهل هذه البلاد انتصار المسلمين على ملوكهم ؟ . »

قالت « كانوا يتمنون ذلك مذ سمعوا بحال الاسبان بعد دخولهم في حوزة العرب لانهم رأوهم انتقلوا تحت ظل الاسلام من الرق الى الحرية ومن الظلم الى العدالة . . . »

قال « وهل عدلوا اليوم عن ذلك الرأي »

قالت « نعم »

فقال « ولماذا . . ؟ ارجو الافصاح »

قالت « لا يخفى على مولاي ان المسلمين لما فتحوا اسبانيا منذ ٣٢ عاماً عاملوا اهلها بالرفق والحلم فلم ينهبوا بيعة ولا سفكوا دماً بريئاً ومن اختار البقاء على دينه حافظوا على عهده ومن اعتنق الاسلام وكان عبداً فانه يصير حراً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم — وكان حكام القوط يعدون رعاياهم ملكاً لهم يستخدمونهم في منازلهم وحقولهم استخدام الارقاء فلما جاء المسلمون وفتحوا بلادهم خيروهم بين الاسلام والجزية وان من اسلم وكان عبداً صار حراً فتهافت جانب عظيم من اولئك الارقاء الى الاسلام استهلالاً كأنه في سبيل الحرية . لانها كانت عزيزة عندهم لا ينالها الا أفراد قليلون مكافأة على شجاعة عظيمة او خدمة ذات بال . ومع ذلك فان المعتقين في ايام القوط والرومان لم يكونوا يتمتعون بكل حقوق الاحرار وانما

كانوا وسطاً بينهم وبين الارقاء . اما المسلمون فمن اسلم من رعاياهم عاملوه معاملة الاحرار تماماً ومن ظل على النصرانية تركوا له الحرية في معاطاة دينه وعاداته وآدابه وسائر معاملاته حتى الحكومة والقضاء (١) فأحسّ الاسبانيون انهم انتقلوا بالفتح الاسلامي من الضيق الى الفرج ومن الرق الى الحرية فشاع ذلك في سائر انحاء هذه البلاد فرأى موسى بن نصير سهولة الفتح عليه لهذا السبب فعزم على اتمامه حتى يعود الى دمشق من طريق القسطنطينية بعد ان يفتح كل اوربا . ولكن المسلمين عجلوا عليه وعلى ابنه عبد العزيز رحمهما الله مما لا يخفى عليك . ولولا ذلك لتم الفتح للمسلمين من ذلك الحين ولكانت هذه البلاد التي جئتم لفتحها الآن مُلكاً لهم منذ نيف وعشرين سنة . ولكن الذين خلفوهما على امارة الاندلس كان معظمهم من اهل المطامع فاساؤوا الى النصارى والى المسلمين من غير العرب ففسدت النيات وشاع خبر ذلك في هذه البلاد فأصبح فتحها صعباً لان اهلها لا يرون فائدة من الانتقال الى دولة غير دولتهم دينها غير دينهم . . »

الفصل الثامن

هاني .

ولما بلغت الى هنا توقفت وتنحنحت وتشاغلت بمسح فمها وعبد الرحمن ينظر اليها وهو يستغرب حديثها لما فيه من الحكمة وسعة الاطلاع وجعل يتأمل ملامحها ويفكر في من عسى ان تكون هذه المرأة وصبر لعل في خاتمة حديثها ما يكشف له القناع عن حقيقتها ولكنه أراد ان يستنطقها خلسة فاغتنم سكوتها وقال لها « يظهر لي انك اكثر اطلاعاً على حقيقة الاحوال من معظم رجالنا واشدُّ غيرة على مصلحة المسلمين من المسلمين انفسهم . . . » ثم تنهد وقال « ان الامر الذي ذكرته يا اُخية هو الواقع بعينه واظنك سمعت اني استدركته قبل اقدامي على هذا العمل فلم اخرج الى هذه الحرب حتى طفت مدن الاندلس وغيرها مما فتحه المسلمون من بلاد الافرنج (فرنسا) وتعهدت احكامها وعزلت الضعفاء واهل المطامع من امرائها وابدلتهم برجال من اهل الدراية والحكمة ليحسنوا سياسة الناس على اختلاف النحل

(١) دوزي ج ٢

ورددت على النصارى كنائس كان بعض الامراء المسلمين قد اغتصبوها منهم واعدت ما كان لهم من العهود من زمن موسى بن نصير وابنه عبد العزيز[1] — وقد بذلت الجهد في هذا السبيل لعلمي ان الاسلام يأمرنا بذلك وان الصحابة الاولين لم يستطيعوا ما استطاعوه من الفتح الا بما كانوا يتوخونه من الرفق ومعاملة اهل الذمة بالحسنى والعدالة ..»

فقالت وهي تصلح نقابها والتنكير ظاهر في عينيها « قد علمت بكل ما فعلته وما تفعله وكل ما نويته وما تنويه ولذلك كنت اتوقع لك الظفر ... ولكنني رأيت خلاف ما سمعته فصرت أخاف فشلك ...»

فقال وهو يستغرب حريتها وتعقلها « وكيف ذلك ؟ ..»

قالت « انك تعلم ما اعلمه من هذا القبيل ويكفي ما شاهدته الآن بنفسك مابين هانئ وبسطام ألم يكد يسفك الدم بينهما من اجل هذه الفتاة ؟ .. » واشارت الى مريم وكانت جالسة بجانب والدتها تسمع حديثها باهتمام وشوق كأنها لم تكن تعرف منه شيئاً

فلما سمع عبد الرحمن كلام المرأة تشاغل باصلاح شاربيه وحك عثنونه بين سبابته وابهامه وظهر التأثير في عينيه وجبينه . والتفت الى المرأة وهو يحاذر ان يتنهد وقال « ان ما رأيته انما هو من قبيل المنافسة بين أميرين على سبية جميلة وما ذلك بالامر الغريب ..»

فضحكت ضحكة اغتصابية وقالت « الامير عبد الرحمن الغافقي لا يجهل ان سبب هذه المنافسة انما هو فساد نيات الامراء فيما بينهم لاختلاف اغراضهم في هذه الحملة لان اكثرهم جاؤا للنهب والسلب وخصوصاً البرابرة ومن على شاكلتهم — فهؤلاء لا يفهمون معنى الجهاد او الفتح ولا يعرفون ما هو الاسلام لانهم انما انتموا اليه رغبة في الغنائم ومن كان هذا غرضه لا يهمه رضي أهل البلاد او غضبوا — يدلك على ذلك ما رأيته بنفسي في أثناء هذا الفتح اليوم فان بعض رجالكم لم يميزوا بين المنازل والكنائس ولا بين الرهبان والعامة . فقد نهبوا كنيسة بوردو وهي من اعظم كنائس الغاليين فأصبح هؤلاء فضلاً عن نفورهم من المسلمين يعتقدون ان صاحب هذه الكنيسة سينتقم لهم منكم ...»

فلم يتمالك عبد الرحمن عن قطع حديثها فقال « نهبوا الكنائس ؟ .. نهبوها ؟ .. رغم ما أوصيتهم به من المحافظة عليها واستبقاء كرامة القسس والرهبان .. ؟ » ثم صفق وصاح

(١) رينو . ورومي ج ٣

« ياغلام » فدخل رجل من غلمانه الذين يقفون ببابه خفيف اللباس خفيف العضل ممن يقتنونهم للمراسلة ونحوها . فابتدره حال دخوله قائلاً « ادعُ الامير هانئاً الساعة »

فأشار الغلام اشارة الطاعة وخرج . فعجلت المرأة بالكلام قبل خروجه وقالت للامير « فانني ان اطلب اليك الافراج عن خادمي فانه أُخذ في جملة الاسرى على شيخوخته وعلى كونه عربياً . . »

فنادى عبد الرحمن الغلام فوقف فقال له « وقل الامير هانئ، ان في الاسرى شيخاً » والتفت الى المرأة وقال « وما اسمه . . » قالت « اسمه حسَّان » فقال « قل للامير ان في الاسرى شيخاً عربياً اسمه حسَّان فليأت به معه . . »

ولا تسل عن مريم عند ما سمعت اسم هانئ فانها أحست بنبضان قلبها بغتة وكانت جالسة مطرقة فتحركت واعتدلت في مجلسها . ولو انتبه عبد الرحمن لوجهها لرأى فيه احمراراً يشف عن شاغل قلبي ظهرت آثاره في بريق عينيها

قضوا مدة غياب الرسول صامتين وخصوصاً عبد الرحمن فانه لبث مطرقاً وهو يلاعب لحيته بين اصابعه ببطء كأنه يخاف العجلة ان تشوش على مجاري افكاره فتقطعها او تعترضها . وسكتت المرأة تهيباً لمنظر عبد الرحمن . وبعد قليل سمعوا وقع حوافر جواد ثم سمعوا صهيله فعرف عبد الرحمن انه صهيل الادهم وان هانئاً قادم . ولم تمض هنيهة حتى دخل ذلك الغلام وقال « ان الامير هانئاً بالباب »

فقال عبد الرحمن « يدخل »

وقبل ان يرجع الرسول بالاذن اقبل هانئ كأنه داخل الى بيته نظراً للدالة التي كانت له على الامير وكان لايزال بثوبه الاحمر وسيفه المرصع وسائر سلاحه . فلما رآه عبد الرحمن داخلاً لم يتمالك ان بشَّ له ورحب به ودعاه الى القعود بجانبه فقعد وبصره في مريم ووالدتها ولكنه تشاغل بالالتفاف بعباءته وهو يصلح مجلسه . اما مريم فانها اطرقت حياء وعيناها تسترقان النظر الى هانئ وتراعي كل حركة من حركاته . ودخل في أثر هانئ شيخ طاعن في السن عليه لباس اهل غاليا وعلى رأسه عمامة صغيرة وقد شاب شعره مع كثاثة واسترسلت لحيته كثيفة وخف عضله وتغضنت جبهته وتجعد خداه ورقبته حتى يتوهم الناظر اليه انه في حدود التسعين واذا تكلم اومشى أوهمك خفة حركته وشدة عارضته انه في مادون الستين . فدخل الخيمة وعليه قباء الى الركبة بعضه مبطن بالجلد . واما ساقاه فكانتا عاريتين وقد غشاها شعر كثيف لايبان الجلد من تحته وقد شد بقدميه نعلين من صنع

بوردو — ووقف الشيخ بباب الفسطاط فلما رآه عبد الرحمن اشار اليه ان يقعد فقعد هناك متأدباً . اما هانئ فلما قعد قال له عبد الرحمن « اظنك تعبت في هذا اليوم ياهانئ . . »

قال « ما في الحرب من تعب اذا كانت خاتمتها النصر كما كانت خاتمة حربنا مع هذه المدينة بعون الله وسيف الامير عبد الرحمن . . »

قال « لم يكن لعبد الرحمن يدٌ في هذا النصر وانما تمّ بك وبرجالك وسائر المسلمين . . على اني لم ادعك للبحث في ذلك وانما دعوتك لامر ذي بال فارعني سمعك . . »

فاصاخ هانئ بسمعه وتطاول بعنقه وقال « قل . . »

قال « أتعلم السبب الذي ساعد المسلمين على فتح الدنيا من ايام الصحابة الى اليوم . . . »

قال « اعلمُ ان الله نصرهم بالاتحاد والاجتماع وهـذا هو الامر الذي نتوخاه في كل حركة من حركاتنا »

قال « انا أعلم ذلك واعتقد انك اكبر مساعد لي في جمع كلمة هذا الجند الكبير المختلف المقاصد والاغراض وتحتمل معي مضض التوفيق بين تلك المختلفات المتناقضات ولكن هناك سبباً آخر ساعد السلف الصالحين على الفتح وايد دولتهم . . أتعلم ماهو ؟ »

الفصل التاسع

بسطام

فأطرق هانئ واعمل فكرته وعبد الرحمن يتفرس فيه كأنه يستعجل جوابه فقال هانئ « ان الذي اعلمه ان دولة الاسلام تأيدت بالعدل والرفق . . . »

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال « ذلك هو بعينه . . . لان العدل اساس الملك والرفق بالرعية يدعوهم الى الطاعة والمحبة وخصوصاً اهل الذمة من النصارى واليهود وعلى الاخص الرهبان والقسس اصحاب البيع والكنائس — فقد ورد النهي عن اذيتهم في كتاب الله وفي حديث رسول الله ولذلك كان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جنداً الى حرب اوصوهم

باهل الذمة خيراً ومنعوهم من اذيتهم واوروهم بالكف عن الكنائس واصحابها (١) الا تعلم ذلك ٠٠ ؟ »

قال « نعم اعلمه جيداً ونحن طالما تحادثنا في ماقرط من بعض الخلفاء و امراء الاندلس من هذا القبيل وتواثقنا على منعه ٠٠ »

قال « فما معنى هجومكم على كنيسة بوردو في هذا النهار ونهب آنيتها واذية رهبانها ٠ ؟ »

فظهر الغضب في وجه هانئ مع الاستغراب واطرق لحظة ثم هزّ رأسه وهو يقول « قبح الله بسطاماً ما اطمعه وما اقلّ طاعته ٠٠ اني نهيته بنفسي عن هذا الامر ونحن في اثناء الواقعة بعد ان رأيت منه ومن رجاله ميلاً الى النهب بلا مراعاة ٠ وقد علمت بما في كنيسة بوردو من آنية الفضة والذهب فخفت ان تسوقه المطامع او تسوق احداً من قبيلته الى نهبها فاستوقفته في وسط المعركة وقلت له احذر ان يتجرأ احد من رجالك على الكنائس او المعابد او القسس ونحوهم ٠٠ فأجابني بالسكوت فظننت من تلك الساعة انه لاينوي الاجابة لما اعلمه من طمعه وقسوته ٠٠٠و٠٠٠ »

فابتدره عبد الرحمن قائلاً « اتظن تلك فعلة بسطام ؟ »

قال « لا اظن احداً سواه يجرأ على ذلك بعد ما كان من تشديدنا في منعه ٠٠ وقد رأيت مع بعض رجاله في اثناء قسمة الغنائم صلباناً من ذهب ومباخر من فضة مما لايكون في غير الكنائس ٠٠ »

فصفق عبد الرحمن ونادى غلامه فدخل فقال « ادع الامير بسطاماً » وبعد خروج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانئ وقال « لاتخف من غضبي عليه فاني ساخاطبه باللين لما اعلمه من فظاظته وغلظه والاّ افسدنا الجند علينا ٠٠ »

فقالت المرأة « ما لكم ولهذا التصبر الخطير ٠٠٠ ما كان اغناكم عنه وعن قبيلته ٠ »

فتنهد عبد الرحمن وقال « لوشئنا ان ننقي جندنا من امثال هؤلاء الغلاظ لاقتضى ان نجرده من اشد رجاله واكثرهم عدداً لان في جملة رايات هذا الجند قبائل من البربر وجماعات من الصقالبة والجرامقة والجراجمة والاقباط والانباط وغيرهم وفيهم من لايزال على اليهودية او النصرانية او الوثنية او المجوسية وانما يتظاهرون بالاسلام (٢) والبربر

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٥٦ ج ١ (٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ١

من اشجع الامم لايهابون الموت ولا يخافون العدد — والحق يقال انهم هم الذين فتحوا لنا اسبانيا وسلموها الينا ولو اردنا الاستغناء عنهم لامتنع علينا هذا الفتح لان العرب لايزالون الى اليوم قليلي العدد بالنظر الى مثل هذا المشروع العظيم · فاستخدام البربر في هذه الحروب يفيدنا كثيراً وانما يطلب منا ان نحسن السياسة في معاملتهم لئلاً نغضبهم وهم انما يرضيهم الكسب من الغنائم ونحوها وهذا امر ميسور لهم لاننا كثيراً ما نتنازل لهم عن الغنيمة لنطمعهم في الجهاد لمصلحة المسلمين وان لم يكونوا كلهم مسلمين في قلوبهم ‥ »

فأعجبت تلك المرأة بتعقل عبد الرحمن وسعة صدره وقالت له « اخلق بجند انت قائده ان يعود ظافراً منصوراً »

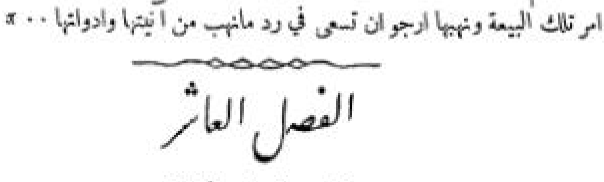
فلما سمع ذلك الاطناب مال بجناه الى هانئ والقى يده على كتفه وقال « هذا هو يدنا اليمنى لانه قائد فرساننا » فخجل هانئ لهذا الاطراء واراد ان يعتذر واذا بالرسول قد دخل وهو يقول « الامير بسطام في الباب »

فقال عبد الرحمن « يدخل »

فدخل بسطام وعباءته مطلقة من الامام وسيفه يجر وراءه وعمامته مع صغرها منحرفة من جانب رأسه الى الاذن وفي يده بقية عنقود من العنب كان يأكله في اثناء الطريق فلما رأى نفسه في حضرة الامير تراجع ورمى تلك البقية وعاد وفي مشيته ومجمل منظره تيه واعجاب ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع مخاطبة عبد الرحمن الا بالاحترام لانه على كونه اميراً لم يكن يسمع منه الا كل ما يطيب خاطره ويدعوه الى احترامه لما قدمناه من حسن سياسة عبد الرحمن ورقة جانبه وربما توهم بعضهم ان الرئاسة انما تتأيد بتعود صاحبها بالغلظة والكبرياء وشدة الوطأة ولكن ذلك من الاوهام الباطلة لان الرئيس الشديد الوطأة قد يملك ألسنة مرؤوسيه واما الوديع الرقيق الجانب فانه يملك قلوبهم ورقابهم — فلما دخل بسطام حياً فبش له عبد الرحمن ودعاه للقعود فقعد وهو يجيل نظره في اطراف الخيمة فرأى مريم وهانئاً فتوهم لاول وهلة انه دعي لامر يتعلق بهما ثم سمع عبد الرحمن يخاطبه قائلاً « دعوناك يا امير لنسألك عن امر يهمك كما يهمنا لان المصلحة واحدة وهي رفع منار الاسلام وتأييد كلمة الله ‥ »

فانشرح صدر بسطام لهذا الاطناب لان البربر لم يكن العرب يعاملهم الا معاملة الموالي كما تقدم فلما سمع بسطام ذلك الكلام قال « يأمر الامير بما يشاء وله مايرضيه مني فاني اطوع له من بنانه »

قال « بورك فيك ونفع المسلمين بسيفك ·· اما الامر الذي استقدمناك لاجله فهو ان بعض نصارى هذه المدينة يشكون مما اصاب بيعتهم من النهب وهم كما لايخفى عليك اهل كتابٍ قد اوصانا الله برعايتهم وبحرمة كنائسهم و بيعهم وخصوصاً اننا في احوال تقضي علينا بمجاسنة اهل هذه البلاد حتى يهون علينا الفتح ونحن سائرون الى بلاد امنع ورجال اشد من اهل هذا البلد · فاذا اعتقدوا فينا الرفق والعدل ساعدونا ــ ولذلك كنتُ كثيراً ما اوصيكم بالاغضاء عن اماكن العبادة على يد اخينا الامير هانيء · فاذا كنت على بينة من امر تلك البيعة ونهبها ارجو ان تسعى في رد مانهب من آنيتها وادواتها ·· »



الفصل العاشر

العرب في اسرى الافرنج

فقال بسطام « لا انكر على الامير سداد رأيه في هذا الشان وقد كنا الى اليوم ونحن نراعي هذه القاعدة ونحترم البيع حتى رأيتُ في هذا الصباح امرًا اقشعر له بدني ولم اتمالك عن الانتقام له بنهب تلك الكنيسة ــ رأيت في بعض منازل هذه المدينة رجالاً من المسلمين وغلماناً ونساء استخدمهم اهلها استخدام العبيد الارقاء ··· نعم لا انكر حقهم في ذلك لاننا نفعل باسرانا مثل هذا الفعل · ولكني رأيت بعض الاسرى المسلمين مقيدين بالاغلال الحديد في ارجلهم والاحمال الثقيلة على ظهورهم وقد ساقوهم الى العمل في الكروم سوق الدواب (١) فلم اتمالك عند مشاهدتي هذه القسوة من الانتقام بنهب كل ماتقع يدي عليه ــ لم استثن كنيسة ولا ديراً·· »

فلما بلغ بسطام الى هذا الحد التفت عبد الرحمن الى المرأة كأنه يستفتيها في ذلك فقالت « لا انكر على مولاي ان معاملة الافرنج لاسراهم من العرب اكثر شدة من معاملة المسلمين لاسراهم من الافرنج وان تساوى الفريقان في اعتبار الاسرى ملكاً للغالبين يبيعونهم بيع السلع ومتى دخل الاسير في حوزة مالكه استعمله في ماينفعه من فلاحة او زراعة او خدمة في شيء ولا يزالون عبيداً هم واولادهم الى سلالات عديدة حتى يفتديهم اهلهم او اصدقاؤهم بالمال او غيره · اما المسلمون فان رجوع الاسرى الى الحرية عندهم اسهل مما عند الافرنج

(١) دينو

واما تقييدهم بالسلاسل فالغرض منه على ما اتاني منعهم من الفرار اذ ربما حاولوه مرة ولم يظفروا فاثقلوهم بالاغلال ليمنعوهم منه ...

فقطع عبد الرحمن كلامها ووجه خطابه الى بسطام قائلاً « هب انهم فعلوا ما تقول فالعبرة في النتيجة واذا كنا نأتي مثل ما اتاه هؤلاء فأي فضل لنا وبماذا نتوقع النصر في الدنيا والنعيم في الآخرة . فالذي يهمنا ان نعمل بمقتضى الكتاب والسنة ونقتدي بالسلف الصالحين . وزد على ذلك ان طمعنا بالقليل من الغنائم قد يؤول الى فشلنا ويقف في سبيل الفتح فنخسر اضعاف تلك الغنائم ناهيك بالفشل وما قد يلحقنا بسببه من العار » ثم وجه خطابه الى هانئ وقد بدا الاهتمام بين حاجبيه وقال « لا يخفى عليكم اننا ساعون في عمل اثمن كثيراً من الذهب والفضة والآنية واعظم من ان يقاس بالحطام الفانية . نحن ساعون في فتح هذا العالم الكبير — فاذا توفقنا الى فتحه كسبنا الاموال والارواح ونشرنا الاسلام في قبائل من اهل النصرانية والوثنية لا يحصيها الا الله فنملك المدن والرقاب وتخفق راياتنا على رومية والقسطنطينية وغيرها من عواصم النصرانية ويصير صعلوكنا اميراً وفقيرنا غنياً فتحرز يا بسطام ما شئت من الذهب والفضة والجواهر وتملك ما تريده من الجواري والغلمان ... واذا كنت مخطئاً في قولي فنبهوني .. »

فأدرك هانئ ان عبد الرحمن انما ينتظر الجواب من بسطام احتيالاً عليه في اجابة الطلب فقال بسطام وقد سحر بلطف عبد الرحمن وتخته « انك مصيب كل الاصابة والحق يقال ان البربر وغيرهم من الموالي لم ينصفوا في حقوقهم بازاء العرب مثل انصافهم في ايامك . فقد كان اسلافك ولا يزال كثيرون من امراء العرب الى اليوم يعدون المسلمين من غير العرب عبيداً فاذا حاربوا معهم في واقعة لا يقاسمونهم الغنائم كما يقاسمون العرب[1] فلا تظننا غافلين عن هذا الفضل .. »

فقطع عبد الرحمن حديثه قائلاً « لم اعامل غير العرب الا بالعدل لان المسلمين اخوة ... والآن اسرع الى الغنيمة قبل اقتسامها ومعك الامير هانئ فاستخرجوا آنية الكنيسة واحملوها الينا لننظر في اعادتها الى اصحابها »

خرج بسطام وهو منتفخ الصدر بما آنسه من الرعاية والاطراء ونسي ما كان في نفسه على هانئ بشأن مريم — واهل الفظاظة والخشونة من اقرب الناس الى المصافاة لخلو قلوبهم من نتائج الكظم فاذا ساءهم احد بعمل جاهروا بما في نفوسهم عليه فهم لا يحقدون ... وخصوصاً في

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢

حال مثل حال بسطام بالنظر الى مريم فانه انما كان يطلبها لانه استلطفها ووعد نفسه بها ولكنه لم يعلق بحبها كما فعل هاني ٠٠ اما هذا فانه سار في اثر بسطام وظل قلبه في ذلك الفسطاط اولعله استعاض منه بقلب مريم لانها أحست عند خروجه كان قلبها اقتلع من صدرها وخافت الفضيحة لظهور اثر ذلك على وجهها فتشاغلت باصلاح الخمار الاسود

فلما خرج الاميران التفتت المرأة الى عبد الرحمن وقالت « يأذن مولاي الامير بارسال فتاتي هذه مع هذا الشيخ الى مقر تقيم فيه تحت حمايتك ريثما أتم حديثي معك وترى ما يكون ٠٠»

فصفق عبد الرحمن وصاح « يا غلام » فدخل احد الغلمان فقال له « شيع هذا الشيخ وهذه الفتاة الى خباء نسائي واوص قيمة الخباء باكرامها وان لا تعدها في جملة الجواري وانما هي ضيفة علينا اكرامها ورعايتها ٠٠ »

فاستحسنت المرأة ذلك والتفتت الى حسان وقالت « سر ياعماه مع مريم في حياطة مولانا الامير وكن معها حتى آتيك ٠٠ »

فأشار مطيعاً وخرج وهو يتوكأ على عكازه وخرجت مريم في أثره والغلام امامها

الفصل الحادي عشر

بعض السر

فلما رأى عبد الرحمن من تلك المرأة التماس الخلوة توهم انها ستطلعه على سرها فلما خلوا بادأها هو بالكلام قائلاً « اطلعيني يا اخية على اسمك قبل كل شيء ٠٠٠ لا ناديك به على الاقل ٠٠ »

قالت « اذا كان هذا هو المراد من معرفة اسمي فنادني سالمة »

قال « لقد ادهشتني ياسالمة ما رأيته من غريب شأنك وأراني كلما سمعت حديثك ازداد رغبة في استطلاع حقيقة أمرك ٠ وكأني بك قد التمست الخلوة رغبة في مكاشفتي بسرك ٠٠ »

فاصلحت سالمة من شأنها والتفت بثوبها واخفت يديها في كمها وفيه المحفظة ونظرت الى عبد الرحمن والاهتمام باد في عينيها وقالت « اعلم ايها الامير انك تخاطب امرأة غير

عربية وغير مسلمة ولكنها من اشد الناس غيرة على العرب وعلى المسلمين . واستأذن مولاي الامير بالاقتصار على ماعرفه من أمري لاسباب ستبدو له قريباً ان شاء الله . واما الآن فاني أهب نفسي لخدمة المشروع الذي قمت لأجله فأبذل ما في وسعي في سبيله »

فاستغرب عبد الرحمن تسترها وخاف ان يكون من ورائه خديعة او دسيسة فقال لها « ومن يضمن لنا انك تقولين الصدق ؟ »

قالت « لقد أعجبني سوء ظنك فيّ . . ولو لم يبد ذلك منك لاستخففتك لان من كان قائداً لمثل هذا الجند الكبير لاينجو من اهل الخداع والدسائس فان لم يسىء الظن في كل احد بات في خطر من دسائسهم . اما دعواي فلو صرحت لك بامري لهان عليك تصديقها واما الآن فيكفي دليلاً على صدق ما أقول ان اجعل ابنتي ووحيدتي رهناً بين يديك فان بدرت مني بادرة تدل على الخيانة او الغدر افعل بها ما شئت . . »

وكأن كلام سالمة نبهه الى ما يحدق به من اسباب الخداع والمكر فبالغ في اساءة الظن بها فقال لها « ومن يؤكد لنا انها ابنتك فان الشبه بعيد بينكما . . . ويظهر انها عربية وما انت كذلك »

فأطرقت سالمة هنيهة ثم قالت « اما هذا فلا سبيل الى اثباته بغير الاستفهام من الفتاة نفسها والخادم الشيخ فانه عربي مسلم وهو وحده المطلع على سرّي ولكنه لا يبوح به إلاّ في حينه فاسألوه . . » قالت ذلك ودلائل الاخلاص وصدق اللهجة يتجليان في عينيها وبما بدا في وجهها من امارات الحياء والاهتمام

فتحقق عبد الرحمن بفراسته انها تقول الصدق فاكتفى بقولها وقال « لقد صدقتك ياسالمة فأخبريني متى يأون كشف سرك . . »

قالت « وكشف هذا السر غير مقيد بزمان وانما هو مرهون بحادث لا يجوز كشفه الاّ بعد حدوثه »

قال « وما هو ذلك الحادث . . . »

قالت « لا أقوله الآن وانما يقربنا منه صدق النية في فتح هذه البلاد وسرعة التجاز وهذا هو الامر الذي وهبت نفسي له فاذا اذن مولاي ان اساعده فيه فعلت »

فلبث عبد الرحمن ساكتاً وهو مطرق يفكر في ما سمعه ويجاله في ذهنه فرأى مفتاح السر كله في معرفة والد الفتاة مريم فرفع بصره الى سالمة وقال وهو يلاعب اطراف حمائل السيف بين انامله « لا بأس من تأجيل خبرك وانما التمس منك أمراً هل تصدقينني

فيه ... »

قالت « اذا استطعت ذلك فعلته »

قال « أريد منك فقط ان تخبريني من هو والد هذه الفتاة واين هو؟ . »

فلما سمعت سؤاله بغتت وتصاعد الدم الى وجهها وتغيرت سحنتها وبدت الكآبة في جبينها وحول فمها وأطرقت مدة لا تتكلم ثم رفعت بصرها اليه وقد ابرقت عيناها باغشاها من الدمع وقالت « تسألني عن مكان ابيها وانت تراني في هذا الثوب الاسود .. ؟ »

قالت ذلك وامسكت طرف الخمار بين الابهام والسبابة وقد غصت بريقها

فندم عبد الرحمن على سؤاله عن المكان فقال « لم يكن مرادي تذكيرك بمصابك بوفاة زوجك وانما اردت معرفة اسمه — ولا أرى مانعاً من اطلاعي عليه ونحن في خلوة ليس فيها ثالث واعاهدك على كتمان ذلك عن كل انسان ... لا اطلب منك الاطلاع على سرك وانما اريد معرفة اسم زوجك » قال ذلك وهو يتوقع اجابته على سؤاله

اما هي فلما رات الحاحه في معرفة اسم زوجها بدا الغضب في وجهها وقالت « يظهر اني اخطأت في عرض نفسي لخدمتكم حتى لاقيت ما اراه من الالحاح عليّ والضغط على افكاري — لو كان التصريح باسم ذلك المسكين ممكناً لفعلت ولم اكلفك هذا العناء في السؤال ثم اني لا ارى فائدة من ذكره الآن وسيأتي وقت تعرف فيه كل شيء .. »

فاستغرب عبد الرحمن تكتمها وازداد رغبة في معرفة سرها ولكنه لم يرَ الزامها ذلك قهراً مراعاة لحاساتها وطمعاً في الانتفاع من خدمتها لجهادها من جهة أخرى فقال « حسناً بقي سؤال واحد ارجو ان لا يكون حظي في الجواب عليه مثل حظي في سواه — هل اقوله ؟ »

قالت « قل ما بدالك »

قال « أرى ابنتك من الجمال في مالبس بعده غاية وهي في سن الزواج وانت وحيدة فلماذا لم تزوجيها بشاب تعيشين في حمايته .. ؟ ولا ريب عندي انك تجدين من الطلاب من تقرّ به عينك لما هي عليه من الجمال والهيبة »

فالتفتت سالمة وقد انقشعت علامات الكآبة عن محياها وتحوّل انقباضها الى الانبساط وقالت « اما هذا السؤال فلا بأس من الجواب عليه .. »

فاستبشر عبد الرحمن وقال « وما هو »

قالت « ان الابنة مخطوبة منذ طفوليتها »

قال « لمن »

قالت « لرجل مسلم يغار على الاسلام والمسلمين ويكره الظلم والظالمين باسل شجاع واسع الصدر كريم النفس »

قال « وما اسمه ؟ »

قالت « لست على يقين من معرفة اسمه الآن .. »

قال « وهل تعرفهُ ابنتك ؟ »

قالت « لا اعرفه انا ولا تعرفه هي ولا يعرفه احدٌ سوانا .. »

فدهش عبد الرحمن لتلك المعميات وقال « كيف يكون ذلك ياسالمة .. ؟ يظهر انك تمزحين او تدافعين بالباطل »

قالت « اقسم بالرب المعبود اني اقول الصدق »

فقال « وكيف تكون ابنتك مخطوبة لرجل لا تعرفون له اسماً ولا لقباً ؟ »

قالت « اما لقبه فاننا نعرفه »

قال « وما هو »

قالت « يلقب بفاتح بلاد الافرنج بالسيف . ومؤيد الاسلام فيه بالحق والعدل . »

ففهم عبد الرحمن انها تريده هو اذ لا يصدق ذلك اللقب على سواه ولكنه أراد ان يتحقق ظنه فقال وهو يتجاهل مرادها « ومتى يكون الاقتران واين ؟ »

قالت « يجوز الاقتران في اي وقت اراده الخطيب ولكنه لا يكون الا وراء نهر لوار »

قالت ذلك وهي تنظر في عيني عبد الرحمن نظراً مستفهم كأنها تقول له « هل فهمت من هو ؟ »

الفصل الثاني عشر

نهر لوار

فادرك عبد الرحمن ان المراد بتقييد الاقتران بذلك المكان تعجيل الفتح حتى يقطع المسلمون نهر لوار وهو آخر حدود اكيتانيا من جهة الشمال في الطريق الذي هم سائرون فيه . فثار في خاطره حب الفتح وأحسَّ من تلك الساعة بميل الى مريم بنت سالمة وكان قد استلطفها منذ شاهدها في ذلك المساء وهو في شاغل من امر الحرب والنصر وتنظيم

الشؤون . فلما سمع ما قالته سالمة تذكر الفتاة وما في عينيها من الجواذب فشعر بميل اليها أحياه فيه الامل بالحصول عليها — وذلك طبيعيٌّ في الناس في مثل هذه الحال فقد يرى احدهم الفتاة مراراً ويستلطفها ولكنه لسببٍ من الاسباب لا يرجو الحصول عليها فاذا تنسم خبراً ينبه فيه عاطفة الامل بالحصول عليها يشعر للحال بانعطاف ينمو فيه حتى يصير شغفاً . ولا تنحصر هذه القاعدة في الحب ونحوه بل هي تطلق على سائر مطامع بني الانسان باعتبار اميالهم . فقد يكون احدهم محباً للسلطة مثلاً ولا يكون له مطمع فيها لتقاصره عنها بضعفه او فقره فاذا ظهر له من بعض ثقاته اعتقاد امكان ذلك له شغف به وبذل نفسه في الحصول عليه — وقد اصاب عبد الرحمن الغرضين معاً لان عبارة سالمة نشطته لتمام الفتح واحيت فيه الميل الى مريم فاكتفى بما دار من هذا القبيل لئلا تظهر منه خفة في هذا الموضوع . فتجاهل وعاد الى مجاراتها في كتمان اسم زوجها وغرضها من الاستهلاك في مساعدتهم على امل استطلاع ذلك في فرصة اخرى وقال لها « دعينا الآن من هذا واخبريني ما لديّ تنوين مساعدتنا فيه من اسباب هذا الفتح »

قالت « ليس لي سيف اناضل به عنكم او اشترك فيه معكم ولكنني خبرت طبيعة هذه البلاد وعرفت من احوال اهلها ما لو عرفه المسلمون لفتحوها على اهون سبيل ... »

فقال « وما ذاك »

قالت « هل يخفى على الامير عبد الرحمن ان الغاليين اهل هذه البلاد هم غير الافرنج الذين يحاربونكم ليمنعوكم منها .. ؟ وان الدوق اود حاكم اكيتانيا هذه وجنده ليسعوا اقرب الى قلوب الغاليين من قائد جند المسلمين ورجاله ... ؟ »

قال « وكيف ذلك .. ؟ »

قالت « ان سكان هذه البلاد اخلاط من الروم والغال . ومعنى ذلك ان الغاليين اهل هذه البلاد الاصليين كانوا أمة كبيرة ظلوا في حال البداوة والاستقلال حتى جاءهم الروم في القرن الاول قبل الميلاد ففتحوها على يد يوليوس قيصر القائد الشهير وما زالت في حوزتهم نحو خمسة قرون وقد تضعضعت دولة الروم فهاجمتها قبائل الجرمان من الشمال كما هاجمتها قبائل العرب بعد ذلك من الجنوب . والافرنج احدى قبائل الجرمان فتحوا غاليا هذه واستولوا عليها ويعرف حكامهم بعائلة ميروفنجي نسبة الى اول من تولاها منهم . وتوالى الحكم في هذه العائلة الى الامس وقد افضى الأمر الى ملوك ضعفاء طمع فيهم وزراؤهم وأمراؤهم فانقسمت البلاد بينهم . ومن اقسامها اكيتانيا التي نحن فيها وآخر حدودها من الشمال نهر لوار ويحكمها الدوق

اودصاحبكم ثم اوستراسيا وراء هذا النهر وحاكمها شارل (قارله) وزير آخر ملوك الميروفية وكلاهما من قبائل الفرنك . ولكن كلاً منهما ينظر الى الآخر بعين الحذر والاهالي ينظرون الى كليهما بعين المقت لعلمهم انهم انما يرغبون في فتح بلادهم لتمتع بها — ثم جئتم انتم والفتح اما لكم واما لهم . فالغاليون تحكومون في الحالين ولا يهمهم لمن تكون الغلبة من الجندين الا اذا رأوا في احدهما مزية على الآخر بالنظر الى مصلحتهم وراحتهم ...»

فلم يتمالك عبد الرحمن ان قطع حديثها بقوله « وبالطبع هم يفضلون الافرنج لانهم نصارى مثلهم »

فابتسمت سالمة وقالت « ليس الامر كذلك يا مولاي ... ان الدين لادخل له في هذه الحرب وانما ساق قبائل الافرنج الى هذا الفتح حب السلطة والطمع في الكسب ولذلك فانهم اقتسموا فيما بينهم فان اود حاكم أكيتانيا التي نحن فيها الآن يحاذر من شارل حاكم اوستراسيا كما قدمت ويخاف سلطانه وكل منهما يجتهد في تبغيض الآخر الى الاهالي — وهؤلاء يبغضون كليهما لانهم لم يروا من معاملتهم ما يبشرهم براحة لما تعلمونه من عادتهم في استعباد الرعية وابتزاز اموالهم وسائر قوامهم — خلافاً للعرب عند اول الفتح فانهم لما فتحوا اسبانيا تركوا لاهلها الحرية في كل معاملاتهم ولم يتعرضوا لهم في شيء من دينهم وافضل امراء المسلمين في ذلك موسى بن نصير وابنه عبد العزيز وخصوصاً هذا الاخير ولو لم يعجلوا عليه رحمه الله لانفتحت هذه البلاد على يده . اذ أحس الاسبان في ايامه انهم انتقلوا من الضيق الى الفرج لكنهم ما لبثوا ان ذاقوا مرارة الظلم من بعض الذين خلفوه من امراء المسلمين ثم افضت الامارة اليكم . وبلغني انكم سائرون على خطة ذلك الفاتح العظيم في محاسنة الناس وانصاف اهل الذمة ورعاية العهود معهم فيما يتعلق بكنائسهم ودياناتهم وقد تحقق لي ذلك الآن — فالغاليون اذا ضمنوا سلامتهم وسلامة اهلهم ومعائشهم على يد المسلمين فانهم يكونون عوناً لهم على الفتح . ولا تنس اليهود فانهم نصراؤكم في كل فتوحكم من اول ظهور الاسلام . فهؤلاء انما نصروكم لانهم تحققوا ما تنوونه من اسباب الراحة لهم وكذلك النصارى وغيرهم من اهل هذه البلاد . واما ما يبدو لكم من تيارات النصرانية والغيرة عليها فمحصور في طائفة الاكليروس ومن يهمهم نصرة الكنيسة من بقايا الرومان ومن انتمى اليهم من الغاليين . اما قبائل الافرنج فبينهم من اتخذ الدين ذريعة للسلطة وكسب الاموال كما فعل بعض قبائل البربر وغيرهم من جنودكم »

فلما سمع عبد الرحمن قولها تحقق سداد رأيه في ما شرع فيه من محاسنة اهل الذمة

وتوخي العدل والانصاف وقال « انتِ تعلمين اني فاعل ذلك من تلقاء نفسي فما الذي تفعلينه انتِ في هذا السبيل ٠٠ ؟ »

قالت « اني اقدم نفسي للذهاب في اي مهمة تفرضونها عليّ والافضل على ما أرى ان اتقدمكم في البلاد التي تنوون المسير لفتحها فأغرس في قلوب اهلها الامتنان للمسلمين وسلطانهم ويساعدني على ذلك مبالغتكم في اكرام نصارى بوردو وطمأنة قلوبهم ومحاسنتهم واحترام شعائر دينهم والمحافظة على اعراضهم وارواحهم فاذا فعلتم ذلك هان عليّ اقناع اولئك ان المسلمين الفاتحين اهل حرمة وذمام يخافون الله ويعملون بالعدل وليس كما يتوهمهم بعض ذوي الاغراض ان المسلمين قساة القلوب لا دين يردعهم عن ارتكاب المحرمات ولا حنان في قلوبهم يمنعهم من الظلم والعسف [1] — وقد حمل الناس على تصديق ذلك ما كان يرتكبه بعض الذين كانوا يرافقون جند المسلمين لمجرد الرغبة في النهب والقتل ولم يكن أميرهم حكيماً عاقلاً مثل عبد الرحمن ليصلح ما يفسدونه مما رأيناه منه في هذا المساء ٠٠٠ »

فازداد عبد الرحمن اعجاباً بتعقل تلك المرأة وغيرتها على المسلمين وقال « افعلي ما يتراءى لك واني فاعل بنصارى بوردو ما تريدينه فما الذي يرضيهم ٠٠ ؟ »

فقالت « انما يرضيهم في الدرجة الاولى المحافظة على شعائرهم الدينية واستبقاء كنائسهم ومعابدهم ثم ردّ اسراهم بالافتداء على جاري العادة ٠ وهناك امر ذو بال اوجه التفاتكم اليه وذلك ان بيع اسرى النصارى الى اليهود مما يسوء النصارى لما تعلمه من الضغائن بين الطائفتين وخصوصاً بعد ما ظهر من ممالأة اليهود لكم وتسهيل الفتح عليكم ٠٠٠ »

فقطع عبد الرحمن كلامها قائلاً « ولكن اليهود تجار نبيعهم الاسرى بالمال فمن اراد من اهل البلاد ان يفتدي اسيره افتداه منهم بالمال ٠٠ »

قالت « ولكن بعض اليهود يبتاعون الاسرى للتنكيل بهم تشفياً مما كان النصارى يسومونهم اياه من قبل وكثيراً ما كان اليهود يبتاعون الاسرى النصارى ويذبحونهم صبراً [2] فتجنب هذا الامر مستحسن في كل حال »

---

(١) روبي ج ٣ ورينو (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١

ولم يكن هانئ اقلّ اعجاباً بسالمة من عبد الرحمن بل هو يفضله في ذلك بما في خاطره من امر ابنتها التي ملكت لبّهُ من اول نظرة فلما سمع رأيها استحسنه وزاد احترامهُ لها وحبهُ لابنتها وبادر في الحال الى رجال حملهم الآتية وخرج لانجاز تلك المهمة

ثم نهضت سالمة والتمست من عبد الرحمن من يرسلها الى مقر ابنتها لتبيت هناك الى الصباح ثم تخرج لمهمتها . فاراد عبد الرحمن المبالغة في اكرامها فاسترجع هانئاً وقال له ادع لي رجلاً من خاصتك يشيع سالمة الى خباء النساء حيث تقيم ابنتها . »

فعدّ هانئ تلك المهمة فرصة يجب اغتنامها فقال « ومثل هذه الفاضلة لا يليق في خدمتها غير الامراء .. اني ذاهب الى قرب ذلك الخباء فانا اشيعها اليه »

فاستحسن عبد الرحمن شعور هانئ في احترام سالمة تشجيعاً لها فابتسم وقال « بورك فيك .. انها اهل لفوق ذلك ... »

فمشت سالمة في أثر هانئ وظل عبد الرحمن وحده وقد بهره ما شاهده في ذلك المساء من الغرائب وتوسم خيراً بنجاح حملته وزاد رغبة في تفقد جنده والسهر على جمع كلمته

الفصل الرابع عشر

الخباء

اما مريم فانها خرجت مع خادمها حسان من خيمة الامير عبد الرحمن والغلام دليلها الى الخباء كما تقدم . وكان الليل قد نصب سرادقه فمشت مريم وفكرها مشتغل بهانئ واحست بجاذب يجذبها نحوه لا تدري ما هو . وقد ذهب من خاطرها ما كانت تسمعهُ من والدتها عن اهمية مستقبلها وان كانت في الواقع لم تسمع منها شيئاً صريحاً بهذا الشأن . ولكنها كانت تحملها على اتقان التلفظ باللغة العربية وتعليمها ركوب الخيل وفنون الفروسية وسائر الالعاب الرياضية حتى تخشنت عظامها وقوي عضلها وشبّت على الحمية وعزة النفس والشجاعة ولكن اللطف النسائي ما زال غالباً على طبيعتها وانما زادتها تلك الرياضة صحة واكتسب وجهها رونقاً واشراقاً

مشت في اثر الغلام وبجانبها حسان يتوكأ على عكازه بنشاط وخفة وقد تزمل بقبائه

وعلى رأسه قبعة (طاقية) قد لصقت من كل اجزائها براسه وكان رأسه حليقاً فظهرت كأنها جلداً ثانياً له . فمروا في اثناء الطريق بجماعات من الرجال كل جماعة من قبيلة بعضهم في الخيام والبعض الآخر في ما بينها وقد علت الضوضاء . واكثر ما يُسمع من اصوات الرجال عبارات الاختصام على قسمة الغنائم وخصوصاً ما كان فذاً ثميناً من الاثواب الموشاة او الآنية الذهب او الفضة او الادراع او الطنافس فربما افضى الخصام في بعضها الى تجزئتها الى قطع وتفريقها في المختصمين واجزاؤها لا تفيدهم شيئاً . وكانت مريم تسمع اصوات الامراء يهددون رجالهم او يوبخونهم ولا تسل عن قلبها لما سمعت صوت هانئ في خيمته على بضع خطوات منها وهو يحاسن بعض الناس لاقناعهم بتسليم آنية الكنيسة عملاً باشارة عبد الرحمن . فلما سمعت صوته اختلج قلبها في صدرها وودت لو انها تقف هناك برهة لتسمع حديث حبيبها وتستأنس بصوته وتمنت لو ان الخباء على مقربة لعلها اذا خرج هانئ من هناك يمرّ بها . فنادت الغلام وسألته عن موقع الخباء فقال « انه خارج هذا المعسكر يامولاتي »

قالت « وهل هو بعيد من هنا »

فتطاول الغلام بعنقه وهو ينظر نحو الافق ثم قال « ان الخباء يا سيدتي بقرب هذه النار » واشار باصبعه الى نار موقدة وراء حدود المعسكر

فنظرت مريم فاذا هي لا تزال بعيدة عن المكان فقالت « ولماذا جعلوا الخباء بعيداً بهذا المقدار »

قال « لانهُ دأب النساء والعادة في هذه الدول ان تقام خارج المعسكر ومتى وصلنا الى هناك ترين اخبية عديدة لنساء الامراء والقواد وغيرهم من رجال الجند . ولولا من يقوم بخدمتهن من الخدم والخصيان والعبيد لحسبت نفسكِ في مدينة من النساء

فصبّرت مريم نفسها وسكتت وهي تجدّ في المشي وحسان ماشٍ وهو ساكت كأنهُ استأنس بصوت خفق نعاله ووقع عكازه على الحجارة . حتى اذا خرجوا من المعسكر سمعت عند خروجهم اصواتاً آتية من اطراف المعسكر تشبه ان تكون تهديدية فاجفلت وتراجعت فظنّ انها حسان وهي اول مرة نطق بها في اثناء الطريق فقال « لا تخافي يا بنية ان خفراء الجند يطلبون منا شعار الليل فاذا لم نجبهم به استغشونا »

فقالت « وكيف ذلك ... ؟ وما هو الجواب »

قال « هو عند هذا الغلام » والتفت اليه ليسأله فاذا به يقول بصوت عالٍ جواباً

على ما قاله الخفراء « طليطلة وقرطبة » فتحول حسان نحو مريم وقال « هذا هو شعارهم الذي يتعارفون به اليوم » فسكت الخفراء ومشت مريم وحسان في أثر الغلام حتى انتهوا الى الاخبية فسمعوا من خفرائها مثل ذلك النداء فاجابوا عليه مثل ذلك الجواب . وتحول بهم الغلام الى خباء منفرد امامه نارٌ عظيمة فعلمت مريم انه الخباء الذي هي آتية اليه . فلما دنت منه رأت الخدم ببابه وفيهم البيض من الصقالبة الذين يباعون في تلك البلاد والسود الزنوج الذين رافقوا الحملة من افريقيا واكثرهم من الخصيان . ولما أقبلت مريم على الخباء تأملت في بنائه فاذا هو عبارة عن بناء من نسيج احمر متين مربع الشكل قائم على اعمدة من الخشب محيطة بالقماش . وربما بلغت مساحة الخباء خمسين ذراعاً في خمسين يكتنفه سور من ذلك النسيج مسندٌ بالاعمدة ومشدود في الارض بالاوتاد والامراس . وسقف الخباء عبارة عن قبة كبيرة من ذلك النسيج قائمة على عمد متينة وقد قسم الخباء داخل السور الى غرف وافنية يفصل بينها جدران من نسيج اخضر مسندة بالعمد ايضاً

وهي تتأمل في ذلك البناء اذ أقبل عليهم رجل من خصيان الخباء ابيض اللون عرفت مريم من سحنته انه صقلبيٌ فاستقبله الغلام وتعارفا وتفاهما . وكأن الغلام افهم الخصي المهمة التي هو قادم بشأنها فتركهُ وهو يقول بلسان عربي تخالطهُ عجمة « اني ذاهب الى القهرمانة قيمة الخباء استقدمها لاستقبالها » ومضى حتى دخل الخباء فوقفت مريم وحسان والغلام في انتظاره ثم عاد وهو يقول « تفضلي يامولاتي بالدخول وبقي خادمك منا في اكرام ورعاية »

فمشت مريم وقد التفّت بثوبها الاسود واصلحت نقابها الاسود وتمهدت شعرها استعداداً لاستقبال القهرمانة قيمة الخباء . فدخلت باب الخباء في أثر الخصي فرأت نفسها في دهليز انتهت منهُ الى شبه قاعة فيها مصباح منارٌ بالزيت قد علقوه بحبل في سقف الخباء بين عامودين من أعمدته لم تشك مريم انه من مصابيح بعض الكنائس في البلاد التي فتحوها . وأرض الخباء مفروشة بابسطة ثمينة وفيها معظم مايحتاجون اليه من الآنية الضرورية كان اهله مقيمون هناك منذ اعوام

فلما دخلت القاعة سبقها الخصي واخبر القهرمانة فتقدمت لاستقبال ضيفتها . وكانت القهرمانة كبيرة الجثة ثقيلة الحركة عريضة الوجه كبيرة العينين خشنة الصوت متدلية الخدين من الكبر غليظة الشفتين قد نبت على شفتها العليا وحول ذقنها شعر متفرق مستطيل

وقد غطت صدرها وعنقها بالقلائد والعقود وفيها الذهب بين مرصع وغير مرصع وحول زنديها الاساور والدمالج وفي أذنيها الاقراط وفي رجليها الخلاخل حتى يكاد الناظر اليها وهي تمشي وتتوكأ على وركيها يتوهم انها تنوء تحت اثقال تلك الحلى مع ان دلائل القوة ظاهرة في كبر وجهها ووضوح تقاطيعها • وكان بينها وبين عبدالرحمن قرابة نسائية وقد القى اليها مقاليد خبائه وفوضها في تدبير شؤون نسائه وجواريه وفيهنّ القوطيات والصقليات والروميات والبربريات وغيرهن • فلما رأت مريمَ وما هي فيه من الجمال والهيبة أحبتها واستخفت روحها فاستقبلتها ورحبت بها وخصوصاً بعد ان علمت برغبة عبد الرحمن في اكرامها • وكانت مريم قد استوحشت من منظر تلك القهرمانة فلما سمعت ترحابها استأنست بها وهمت بتقبيل يدها فامتنعت وقالت لها « أهلاً بك ياحبيبتي ما اسمك • • ؟ »

قالت « مريم » ولفظت الراء غيناً

فاستلطفت تلك اللثغة منها ودعتها الى الجلوس على البساط ثم دعت بعض الخدم فجاؤها بالطعام وكانت لم تذق طعاماً من صباح ذلك اليوم فأكلت ثم جلست والقهرمانة تحادثها وتسألها اسئلة كثيرة ومريم تجيبها وهي مشتغلة البال بما جال في خاطرها من أمر هانيء وكلما تذكرته خفق قلبها وتسارعت ضرباتهُ • فلما رأتها القهرمانة قلقة منقبضة حملت ذلك منها محمل الاستيحاش وتذكرت ما اوصى به عبدالرحمن من اكرامها ففكرت في سبيل تستأنس هي به • وبعد اعمال الفكر مدة ومريم صامتة قالت العجوز « يظهر ان حديث المعجباني لم يرق لك وقد أوصاني الامير باكرامك ورعايتك ولعل من اسباب استيحاشك قرب عهدك من الاسر ويسوؤك انك أُخذت من اهلك فاعلمي انك تكونين عندنا كأنك بين أهلك • واني داعية لك من نساء هذا الخباء امرأة أصلها من أهل هذه البلاد وقد تعلمت العربية وهي بارعة في الجمال ولها منزلة رفيعة عند الامير فاظنك اذا لقيتها استأنست بها » قالت ذلك وصفقت فدخل خصيٌّ من الصقالبة وتأدب في موقفه فقالت لهُ « قل لميمونة ان القهرمانة تدعوكِ اليها » فخرج الخصي فالتفتت القهرمانة الى مريم وقالت « أظنك ستستأنسين بميمونة لانها من أعز اهل هذا الخباء على الامير وهي في الاصل من جواري لمباجة بنت الدوق اود صاحب هذه البلاد • أظنك تعرفين حكايته مع المنيذر الافريقي احد أمراء المسلمين الذي كان والياً في الجبال على حدود اسبانيا وكان قد أبرم مع الدوق اود معاهدة لانعرف فحواها ولكننا علمنا ان أود ازوج ابنته

للمنيذر المذكور فخاف أميرنا عبد الرحمن من خفايا ذلك الاتفاق فزّ بالجبال وهو قادم لهذا الفتح وقتل المنيذر واغتنم الجند أمواله ونساءه وارسلوا امرأته لمباجة الى الخليفة في دمشق . فكان من نصيب الامير عبد الرحمن ميمونة هذه . ويقال انها كانت أعز جواري لمباجة اليها وأشبهنّ بها جمالاً وقدًّا وتعقلاً وستريها الساعة »

الفصل الخامس عشر

ميمونة

ولم تتم القهرمانة كلامها حتى دخل الخصي ولم يتكلم فعلمت ان ميمونة قادمة في أثره . ثم دخلت ميمونة وعليها ثوب ارجواني واسع الكمين طويل الاردان يجرّ وراءها مع طول قامتها واعتدالها ولها شعرٌ ذهبيٌّ طويل قد ضمته حزمة واحدة وأرسلته على ظهرها ولو تأملته جيداً لرأيت لونه يختلف باختلاف الجهة التي تنظر اليه منها . فاذا نظرت اليه وأنت تستقبل وجهها رأيته ذهبياً ناصعاً واذا تفرست فيه وأنت الى جانبها رأيت فيه ميلاً الى الشقرة اللامعة . ومع ذلك فقد كانت سوداء العينين واسعتهما طويلة الاهداب سوداءها . وترى في عينيها لمعاناً يدلّ على الغنج والدهاء اكثر مما يدلّ على الصدق والوفاء . وكانت صغيرة الانف معتدلة الفم رقيقة الشفتين باورزة الذقن عريضته بيضاء البشرة وخصوصاً العنق مع صفاء اللون . فلم تتمالك مريم عند وقوع نظرها عليها من الاعجاب بما يتجلى في وجهها من الهيبة والجمال ورأت نفسها مظلمة منقبضة بما التفت به من الكساء الاسود

فلما دخلت ميمونة ووقع نظرها على مريم هشت لها وابتسمت ابتسامة انفتح لها قلب الفتاة وأحست للحال بأنس انساها ما كانت فيه من القلق واجابتها بابتسامة بتوسم المتفرس فيها غير ما يتوسمه بابتسامة تلاقي ولا يميّز ذلك الا الناقد البصير . دنت ميمونة من مريم وحيتها ورحبت بها كأنها كانت على موعد من لقائها او كأنها كانت تعرفها من زمان طويل . فازدادت مريم استئناساً وطمأنينة ونسيت ما سبق الى ذهنها من التهيب عند مقابلة القهرمانة . اما هذه فانها حال دخول ميمونة خاطبت مريم قائلة « هذه ميمونة التي اخبرتك عنها الساعة فأرجو ان تستأنسي بها وترتاحي الى مجالستها » واشارت الى مريم وقالت

« وهذه ضيفة الامير عبد الرحمن قد بعث الينا بها واوصانا برعايتها »

فجلست ميمونة بقرب مريم وهي تقول « اهلاً بالضيفة الكريمة من اين اتيتِ ياحبيبتي » قالت ذلك بكلام عربي تخالطه لهجة افرنجية فتبسمت مريم من جمال سحنتها وتحقق كلامها انها افرنجية الاصل كما قالت لها القهرمانة فأجابتها « قد كنت في جملة اهل بوردو الذين قضي عليهم بالوقوع في اسر هذا الجند »

قالت « هل قبضوا عليكِ وحدك وليس معك احد من اهلك ..؟ »

قالت « كلاَّ . ولكنهم قبضوا على والدتي ايضاً وخادم شيخ غادرته مع جملة خدمة هذا الخباء خارجاً »

قالت « اراكِ تتكلمين العربية جيداً وتقولين انك من اهل بوردو فكيف ذلك ..؟ »

قالت « لا ادري السبب ولكن هذا هو الواقع » قالت ذلك وهي تعلم ان والدتها لا تريد التصريح باكثر منه

فقالت « وهل قتل ابوكِ في هذا الفتح ؟ »

قالت « كلاَّ »

فقالت « وهل أُسر؟ او فرّ ..؟ »

فسكتت واومأت برأسها ان « لا هذا ولا ذاك »

فأدركت ميمونة ان والدها ميت من قبل لكنها لم تكتفِ بذلك فقالت « وما اسم والدتك لعلي اعرفها »

قالت « اسمها سالمة »

قالت « هي اذاً عربية »

قالت « لا ادري »

وكانت ميمونة في اثناء تلك المحادثة تتفرّس في وجه الفتاة وتستحث ذاكرتها لتستحضر صورة مثل صورتها اذ خيل لها انها تعرفها من قبل واطالت السؤال لعلها تستدل على ذلك من كلامها فلما رأتها قطعت الحديث بقولها « لا ادري » عدلت عن زيادة البحث والتفتت الى القهرمانة فرأتها قد دلّت رأسها على صدرها ونامت واخذت في الشخير فقالت لمريم « هلمّ بنا الى غرفتي فتمكثين عندي في اثناء هذه الضيافة »

فأطاعتها مريم ونهضت معها وتحولتا الى غرفة من غرف ذلك الخباء فجلستا هناك وقد

عادت ميمونة الى استحثاث ذاكرتها لعلها تستحضر صورة ذلك الوجه واين شاهدته ومريم في غفلة عن ذلك وفي شاغل مما عاد الى ذهنها من المواجس بشأن هاني، وما غادره في فؤادها من لواعج الحب فغلب الانقباض عليها وبدت في وجهها ملامح الاضطراب

خلتا صامتتين مدة وكل منهما في هاجس واذا بصوت القهرمانة يقرع الآذان وهي تنادي «ميمونة ... مريم ..»

الفصل السادس عشر

سرّان

فذعرتا وخافت ميمونة من غضب القهرمانة لئلاّ تعدّ خروجها من عندها على تلك الصورة ذنبًا فتشكوها الى الامير او تسيء معاملتها لانها الآمرة الناهية على اهل ذلك الخباء — وللقهرمانات نفوذ عظيم في بيوت الامراء والخلفاء والسلاطين في كل العصور واذا كان الامير او الخليفة ضعيفًا اصبحت القهرمانة صاحبة الامر والنهي حتى في اعمال الحكومة تعزل وتولي وتقبض وتطلق كما تشاء — فلما سمعت ميمونة نداءها نهضت للحال فنهضت مريم معها ومشتا نحو القاعة ودخلتا واذا هناك امرأة بلباس اسود يجللها من رأسها الى قدمها فلما رأتها مريم عرفت انها والدتها فتقدمت اليها وسلمت عليها فقبلتها سالمة اما ميمونة فلم تكد تتفرس في وجه سالمة حتى انجلت لها الصورة التي كانت تبحث الذاكرة في استحضارها فبدت في وجهها امارات الاضطراب والبغتة ولكنها تغلبت على عواطفها وتقدمت للسلام على سالمة وهي تهشّ لها وترحب بها . اما سالمة فحالما وقع نظرها على ميمونة عرفتها فخفق قلبها دهشة لانها لم تكن تتوقع ان ترى ذلك الوجه هناك ولا في كل اوربا فردّت السلام عليها ببرود وهي تتفرس في وجهها لتتحقق ظنها فيها وميمونة تغالطها بعبارات الترحاب والمجاملة والممازحة كعوشا« لقد سرّني كونك هنا سرورًا مزدوجًا لسببين الاول انني استأنست بك وفرحت لفرح حبيبتي مريم بك وان يكن لم يسبق لي حظّ بمعرفتك والثاني لان نداء خالتي القهرمانة لم يكن من غضب عليّ ..» قالت ذلك وضحكت وتشاغلت باصلاح شعرها هنيهة ثم عادت الى الكلام وهي تلاعب كمّ ثوبها وتضحك وعيناها تبرقان وقالت« فرحبًا بك لقد اتيت اهلاً ووطئت سهلاً فعسى ان نقضي مدة اقامتنا هنا معًا بسرور»

ثم وضعت ميمونة يدها على كتف مريم كأنها تحاول ضمها اليها وقالت « ولا تلوميني اذا علقت بحب ابنتك من اول نظرة فانها تعشق بما خصها به العناية من الالطاف والجمال فلا غرو اذا لاقت من الامير عبد الرحمن هذه العناية والاكرام ... »

وكانت ميمونة تتكلم وهي تضحك وتتلاطف وسالمة تحدق فيها وتتبين لهجة كلامها وغنة صوتها لتتحقق ظنها في معرفتها واستغرقت في التفكر وتحيرت في الذي تعمله بعد ان علمت حقيقة تلك المرأة التي سمت نفسها ميمونة وليست هي ميمونة وتظاهرت بأنها من جملة نساء ذلك الجند الداعيات بدعوة المسلمين وقد تكون بلاءً كبيراً على الجند وأهله. فتحيرت سالمة بين ان تكشف امرها وتبين لها انها عرفتها او تكتم خبرها وتتجاهل . على انها لحظت من الجهة الاخرى ان ميمونة عرفتها وعرفت حقيقتها فخافت ان تبوح بها الى احد وهي تودّ بقاء أمرها مكتوماً كما علمت فعزمت على التجاهل موقتاً لترى مايكون فقالت « انه ليسرني أيضاً ان تكون ابنتي في حجر اخت حنونة نظيرك وفي رعاية الخالة ابدها الله » قالت ذلك وأشارت الى القهرمانة

فضحكت العجوز حتى بانت لثتها وما فيها من الاسنان القواطع الا اثنتان واحدة في الاعلى والاخرى في الاسفل وبينهما ثغرة مربعة الشكل ثم قالت « ان ابنتك ياسالمة ضيفة عندي وما للضيف غير الكرامة وليست هي من نساء هذا الخباء اوسراريه او جواريه ليجري عليها الامر والنهي ... »

فقطعت سالمة كلامها قائلة « لا اعدمها الله أمرك واذا شئت ان تعديها ابنة لك كان ذلك من زيادة فضلك » فهمت القهرمانة بالوقوف وهي لثقلها لاتستطيع النهوض الا بالاعتماد على يديها والزحير والتوكؤ كأنها تحمل حملاً اثقل كاهلها. فلما قاربت الوقوف قالت « هي ابنتي واعز من ابنتي ولذلك فاني عهدت برعايتها الى احب اهل هذا الخباء الى الامير عبد الرحمن » وأشارت الى ميمونة

فأتمت ميمونة عبارتها قائلة « كوني مطمأنة ياسالمة فان مريم تكون عندنا كأنها في حجرك ومن يستطيع ان يرى هذا الوجه ولا يحبه ويتعشقه . ولا يغرك مجيئها الينا باسم الضيفة فان الامير لايلبث ان يراها حتى يتعلق بها و يود استبقاءها عنده فيزيد بذلك سرورنا ونفرح ببقائها بيننا » قالت ذلك ونظرت الى مريم وتبسمت

فلما سمعت مريم ذلك بدت البغتة في وجهها وخافت ان يصح قولها فتخسر حبيبها وتضيع آمالها فتصاعد الدم الى وجهها حتى اصطبغ واطرقت . فظنت ميمونة انها اطرقت

حياء على عادة البنات اذا خوطبن بمثل ذلك

فقطعت القهرمانة كل حديث بقولها « هلمّ الآن الى الرقاد فقد مضى معظم الليل » ثم صفقت تخالط صوت الصفيق خشخشة الاساور والدمالج وجاء احد الخصيان فقالت له « اعدد غرفة خاصة بالضيفتين »

فقالت ميمونة « اجعليها بقرب غرفتي ان لم تكن هي نفسها لاني قد استأنست بالحبيبة مريم وهي استأنست بي » فأشارت القهرمانة الى الخصي ان يفعل

الفصل السابع عشر

العقـد

وبعد قليل عاد الغلام وقال انه اعدّ كل شيء فانصرفوا جميعاً وسارت سالمة ومريم في أثر الغلام نحو الغرفة وقبل ان تصلا اليها سمعتا صهيل فرس اختلج له قلب مريم اختلاجاً متسارعاً لانه يشبه صهيل ادهم هانيء فلم تتمالك ان سألت والدتها قائلة « كأني اسمع صهيل فرس الامير هانيء فهل هو هنا ؟ »

قالت « لقد جاء معي الى هذا المكان وكنت احسبه عاد حالاً لانه سائر في مهمة ذات بال تتعلق باسقف بوردو فالظاهر انه في شاغل موقت هنا ثم ينصرف »

فتوسمت مريم من بقائه هناك خيراً ودها قلبها على انه انما بقي لمشاهدتها فاشتغل خاطرها في ذلك وظهر الارتباك في وجهها ولو تفرست امها فيها لرأت في عينيها ارتباكاً وتفكيراً وقلقاً ولكنها لم تنتبه لشيء من ذلك لانشغالها بأمر نفسها واستعدادها للمسير في الغد الى بوردو

أما القهرمانة فلما خلت بنفسها اخرجت من جيبها منديلاً مصروراً على شيء في داخله ومشت نحو المصباح وفتحت المنديل وأخرجت منه عقداً من اللؤلؤ بأسلاك من الذهب وفي وسط العقد صليبٌ من الذهب مرصع بالياقوت والالماس على شكل بديع فوضعت العقد على كفها وأخذت تقلبه وهي تبتسم وتقول في نفسها « لابد من غرض لهانيء باهدائه هذا العقد لي والا فليس في وجهي ولا في قامتي مايدعو الى الشغف او العشق ولا هو يحتاج الى وساطتي لدى عبد الرحمن لانهُ صاحب الكلمة النافذة عنده »

ثم امسكت العقد بأحد طرفيه بين اصبعيها ورفعته امام المصباح فأبرق الصليب بما فيه من الحجارة الكريمة فقالت « لاشك ان هذا العقد من جملة ما اصاب هانئ من الغنائم في واقعة اليوم فلا يهمه خروجه من يده ولكن لابد له من غرض في اهدائه » ثم انتبهت بغتة وقالت في نفسها « عرفت غرضه . ولا بأس به » ثم صفقت فدخل غلامها فقالت له « قل للامير هانئ يوافيني الى غرفتي من بابها الخارجي — خذ بيده الى هناك .. » قالت ذلك وأرجعت العقد الى جيبها ومشت نحو الغرفة وهي تتوكأ وتتدرج فوصلت اليها قبل هانئ ببعض ثوان فجلست على وسادة بجانب جدار الخباء ثم أقبل هانئ وعلى رأسه بدل العمامة خوذة من الفولاذ وقد ارخى العباءة فانفتحت عن صدره فبانت الدرع من تحتها وحول خصره حمائل يتدلى منها سيفه المعهود — دخل مسرعاً حتى اقترب من القهرمانة وهي جالسة لم تتحرك ولكنها قالت له « مرحباً بالامير هانئ — تفضل اجلس »

قال « لاصبر لي على الجلوس ياخالة لاني ذاهب في مهمة مستعجلة وقد أحببت ان أراك قبل ذهابي »

قالت « بورك فيك يابني فهل من حاجة اقضيها لك ؟ »

فتبسم هانئ وقال « لي حاجة سهلة جداً لا أظنك تضنين بها عليّ »

قالت « وما هي »

قال « أرأيت مريم ؟ . أحب ان أراها واخاطبها ساعة بحضورك حتى تكوني على بينة من سلامة نيتي »

قالت « الآن ؟ »

قال « كلاّ . غداً صباحاً بعد ذهاب والدتها .. لاشك انك تجيبين سؤلي وليس فيه مايخشى منه »

فتنحنحت القهرمانة وضحكت وأشارت بعينيها أنها تفعل مايريده فهمّ بيديها ليقبلها فتمنعت فخرج وانصرف

اما مريم فقد تركناها ذاهبة مع والدتها الى المضجع وهي غارقة في بحار الهواجس ووالدتها لاتخاطبها فوصلت الى غرفة هي عبارة عن حجرة جدرانها من القماش وفي ارضها بساط وعليه فراش وعلى أحد جدران الحجرة ركوة لشرب الماء معلقة بخيط فجلستا على الفراش ومريم لاتزال ساكتة فلما استقر بهما الجلوس قالت سالمة « نحمد الله يابنية على نجاتنا من هذه الواقعة ونجاحنا في اقناع أمير هذا الجند بما نريده وفيه خيرٌ وخير

هذه البلاد — فاعلمي يامريم اني ذاهبة في صباح الغد الى اسقف بوردو وربما ابقى عنده يوماً اويومين لقضاء بعض المهام فهل يشق عليك هذا الفراق ؟ »

فقالت مريم « ولماذا هذا الغياب وما هي تلك المهام التي تقتضي أياماً للفراغ منها — وانا لم افارقك قبل اليوم مطلقاً فهل استطيع البقاء وحدي بين اناس لا أعرفهم ... فاتركي عندي حساناً فاني استأنس به »

قالت « اني في حاجة اليه في هذه المهمة .. والاّ فان غيابي يطول كثيراً »

قالت « لقد شغلت بالي ... هل تقولين لي سبب ذلك الغياب ؟ »

قالت « لا أخفي عنك يابنية اني اتفقت مع الامير عبد الرحمن على ان أكون واسطة بينه وبين الغاليين سكان هذه البلاد الاصليين على شرط ان يعاملهم بالرفق والاحسان كما عامل موسى بن نصير وابنه عبد العزيز نصارى الاندلس عند فتحها وانا ذاهبة في صباح الغد الى اسقف بوردو فالاقيه بعد ان تكون الآنية قد وصلته واعتقد صدق أمير المسلمين فاستعينه واستعين سواه من سراة هذه المدينة في اقناع سراة البلاد الاخرى واساقفتها وكهنتها ان المسلمين خيرٌ لهم من أود وغيره من أمراء الافرنج . وانا اعتقد انهم اذا وافقوني على ذلك أفلحوا .. واعلمي يامريم اني كاشفتك بسرٍّ يجب ان يبقى مكتوماً عن كل انسان »

ولم تكن مريم تهتم بهذا الحديث مع اهميته لما جاش في خاطرها من امر هانئ وودت لو انها تعود الى ذكره لعلها تستطلع شيئاً من امره . ولكنها لم تستطع ذلك لالاز والدتها نهضت الى تبديل ثيابها التماساً للرقاد فسايرتها مريم وذهبت الى فراشها ولكنها لم يغمض لها جفن معظم ذلك الليل وهي تتوقع ان يناديها هانئ او يناديها احدٌ عنه فلما طال انتظارها يئست من ذلك

الفصل الثامن عشر

دسيسة

اما ميمونة فانها ذهبت الى مضجعها بازاء مضجع سالمة لايفصل بينهما الا الجدار وكانت مشتغلة الخاطر بما شاهدته من سالمة وعلمت انها لم تدخل ذلك المعسكر الاّ لامر هام فتظاهرت بالسكون واصغت لما عساه ان يدور من الحديث بين سالمة وابنتها فسمعت مادار

بينهما فلما اطلعت على السر همها امره كثيراً لانه يحول دون الغرض الذي رافقت تلك الحملة من اجله فباتت وهي تدبر الحيل وتهيء نصب الشراك

وقبل ان ينبلج الصباح نهضت ميمونة من فراشها وتزملت بردائها وتظاهرت بالخروج الى خباء بالقرب من خباء الامير وكانت على موعد في كل صباح من ملاقاة رجل من الجند زعم انه كان من غلمانها يوم كانت بعية بباجة في ايام المنذر الافريقي · فرأت في اثناء خروجها فارساً قادماً من جهة المعسكر عرفت من قيافته ولون جواده انه هانئ فاستغربت قدومه في ذلك الصباح فلما توارى عن بصرها ذهبت الى موعدها فمكثت هناك حتى جاءها الرجل وهو بربري عليه ثياب افراد الجند قصير القامة خفيف الشعر خفيف العضل في نحو الثلاثين من عمره وفي عينيه حول شديد فاذا نظر اليك يوهمك انه ينظر الى رجل على مسافة بعيدة منك — فلما أقبل عليها تبسم واشار بحاجبيه وبعينه الشاردة انه في شوق شديد الى رؤيتها وانه قتيل هواها

فابتسمت ميمونة له واظهرت الدلال وقالت له « يظهر يا عدلان انك نسيت سيدك وتغافلت عن وعودك كأن الغنائم شغلتك عن ميمونة وفتنتها تنسى مثلك »

فاعجبه ذلك العتاب واستدل من ورائه على ماله من المنزلة عند تلك الحورية ربة الجمال والغنج — وقد كان مع علمه بما بينه وبينها من البعد الشاسع طامعاً بحبها وانما يقنعه من ذلك الحب ان يسمع مثل تلك العبارة فهو من قبيل ما يعبرون عنه بأذناب العشاق · لان العشاق ثلاثة عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل الذي يملأ القلبين وعويشق يقنعه ان يقدم لمشوقته طاقة من الازهار او عقداً من الجوهر ويكفيه منها قبول هديته ولا مطمع له بما وراء ذلك وذنب العشاق وهمه ان يخدم معشوقته خدمة تروق لديها كايصال كتاب او حمل عتاب او ابتياع بعض حاجيات الطعام او نحو ذلك — وكان عدلان من النوع الثالث وقد جعله يعشقها و يستهلك في خدمتها ما كانت تبديه له من التلطف حتى اطلعته على بعض سرها وماطلته بالرضاء التام حتى يتمم لها خدمة وعدها بالقيام بها منذ تشتت شملها بقتل المنذر الافريقي الذي ذكرناه في غير هذا المكان — فلما سمعها تعاتبه وتستعطفه ابتدرها بالجواب وهو ينظر الى وجهها الجميل نظر المحب الولهان فقال « كيف تقولين ذلك يا مولاتي وانت تعلمين استهلاكي بخدمتك منذ اعوام واما الغنائم فلا يخفى عليك ما تركه اولئك العرب منها وخصوصاً اليوم فانهم بعد ان فرقوا الغنائم فينا عادوا فاسترجعوها واهانوا الامير بسطاماً اهانة ليس بعدها اهانة »

قالت « الامير بسطام ؟ وكيف تركته يقبل بذلك ولم تحرضه على المطالبة بحقه .. الى متى هذا الذل ؟ »

قال « لقد حرضته ولكن غريمه صعب لا ينال .. »

قالت « ومن هو غريمه .. »

قال « هو الامير هانئ، تنبه واظنك رأيته قادماً في هذا الصباح الى هذا الخباء .. »

قالت « نعم رأيته وما غرضه فيه »

قال « غرضه تلك الفتاة الجميلة التي بعثها الامير عبد الرحمن اليكم بالامس فانها غنيمة الامير بسطام وقد اخذها الامير هانئ، رغم انفه وساعده الامير عبد الرحمن على ذلك »

فقالت « وهل هي رضيت بهذا العربي وفضلته على ذلك الامير ؟ »

قال « يظهر انها احبت هانئاً وتعلقت به .. »

فأدركت ميمونة ان الحب قد تمكن بين مريم وهانئ، وان هانئاً انما جاء في ذلك الصباح لمقابلتها فرأت ان تغتنم تلك الفرصة وتدس الدسائس وتوقع الخصام بين الاميرين فقالت «وهل رضي بسطام بهذا الذل . كيف يرضى ان تخرج فريسته من بين يديه ويصبر على الهوان .. ؟ اذا قبل هو بذلك فانا لا اقبل له به . هل لك ان تخبره اني باذلة اقصى جهدي في ارجاع هذه الفتاة اليه ؟ قل له ذلك كما تعلم من غير ان يشعر هو بما دار بيني وبينك . هل فهمت يا عدلان ؟ انه يسوؤني ان يستأثر هؤلاء العرب بالغنائم ويحملوكم الاثقال والاخطار فتفتحون لهم الحصون وتجمعون لهم الغنائم فلا يصيبكم غير التعب والشقاء . ولكن لا بأس سوف ترى مني ما يسرك » ثم رأت وهي تخاطبه فارساً خارجاً من خباء الامير عرفت من سواد ثيابه انها سالمة ذاهبة في مهمتها وتحققت ذلك من مسير حسان في ركابها وهو يعدو بين يديها فعلمت ان هانئاً سيظفر بعد ذهاب سالمة بلقيا مريم فقطعت ميمونة حديثها مع عدلان بقولها « فاذهب انت الآن بحراسة الله» قالت ذلك وتحولت نحو الخباء على عجل وظل هو واقفاً ينظر الى قامتها ويتمتع بمنظر ذلك الشعر الجميل حتى اذا كادت تتوارى التفتت نحوه وابتسمت فاحس كأنما ملكته الارض زما عليها فخفق قلبه ابتهاجاً وعاد

اما هي فلما ايقنت بوقوع التنافر بين هانئ وبسطام عادت الى اعمال الفكرة للايقاع بين هانئ وعبد الرحمن ليتم لها افساد امر ذلك الجيش الكبير لعلمها ان فوزه انما يقوم باتحاد هذين الاميرين . وكانت قد علمت ان عبد الرحمن انما ارسل مريم الى الخباء لتكون

في مأمن من سواه وقدرت ان « حب » هانىء لمريم يسوء عبد الرحمن فعزمت على ايقاد نيران الغيرة بينهما فسارت توًّا الى غرفة مريم فلم تجدها وبحثت عن القهرمانة فقيل لها انها في غرفتها فتحقق ظنها فعادت الى غرفتها مسرعة وقد خطرت لها حيلة ظنت انها تنال بها أربها فنادت غلاماً من غلمان الخباء كان في الاصل من غلمان المنيذر الافريقي وأخذ في جملة من أخذ من الاسرى وأصله من الافرنج الذين اتوا مع لمباجة بنت اود يوم تزوجها المنيذر ولما أخذت ميمونة ظل هو في جملة الخدم وقد استبقته هي لاستخدامه في اغراضها عند الحاجة . فلما جاء الغلام قالت له « اسرع ياداود الى الامير عبدالرحمن هل لك اجنحة لتطير بها اليه ؟ »

قال « نعم يامولاتي »

قالت « طرْ اليه على عجل وقل له ان ميمونة تقرئك السلام وتقول لك بادر اليها الآن لامر هام تريد ان تطلعك عليه في هذه الساعة .. »

فقال « حباً وكرامة » وتحول وسار وهو يثب كالغزال النافر يطلب المعسكر وجلست ميمونة في مكان ترى منه كل من يخرج من الخباء

الفصل التاسع عشر

لقاء الحبيبين

اما هانىء فانه جاء الخباء باكراً كما رأيت لشدة شوقه الى لقاء مريم ولانه لم ينم كثيراً في ذلك الليل فوصل غرفة القهرمانة فاستقبلته واستمهلته ريثما تصرف سالمة وسارت الى سالمة حتى تهيأت للخروج فودعتها فأوصتها سالمة بابنتها خيراً وركبت وسار حسان في ركابها فعادت القهرمانة وقد سرها ان لاتكون ميمونة في الخباء لئلا تطلع على سر تلك المقابلة . فلما مضت سالمة استدعت مريم الى غرفتها فمشت معها وهي تفكر في هانىء وبعده عنها . فلما دخلت الغرفة ورأته هناك بغتت وتصاعد الدم الى وجنتيها وغلب الحياء عليها فأرسلت خمارها على عينيها وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها . فلم يكن ذلك الا ليزيدها جمالاً ورونقاً في عيني هانىء . اما هو فقد كان في انتظارها في الغرفة على مثل الجمر وقد حسب الساعة التي مضت في اثناء انتظاره عاماً طويلاً . فلما سمع خشخشة

الخلاخل والدمالج وراء جدار الغرفة علم ان القهرمانة قادمة ثم ما لبث ان رآها داخلة ومريم في أثرها فلما رأى اصطباغ وجه مريم بالحياء زاد هياماً بها فنهض لاستقبالها فسمع القهرمانة تقول وهي تتظاهر ان وجوده كان هناك اتفاقاً «ما الذي جاء بك في هذا الصباح يا حضرة الامير»

قال «لقد جئت لأرى وجهك الجميل ياخالة»

فضحكت القهرمانة وقالت «لا أظن وجهي تعجبك تجعداته وكأني علمت بقدومك فأتيت اليك بهذا الوجه الجميل فهل تعرفه؟»

فابتسم هانىء وقد غلب عليه الغرام وقال «لقد عرفته وكلفت به ولكن هل هو يعرفني؟ لا أدري»

وكانت مريم مطرقة فلما سمعت كلامه رفعت بصرها ونظرت اليه بعينين قد أذبلهما الغرام وتلألأت فيهما مياه الحب نظرةً تغني عن خطاب فلم يتمالك هانىء عند ذلك ان قال «قد فهمت الجواب»

فضحكت القهرمانة وامسكت بيد مريم واجلستها وقالت وهي تحاول الجلوس «ما اسرع مافهمت جوابها وهي لم تتكلم ..»

فجلس هانىء وهو يلتف بعباءته ويصلح عمامته وكان قد أبدلها من الخوذة في ذلك الصباح وقال «لقد دلني قلبي يا خالة .. ومن القلب الى القلب دليل»

ثم التفت الى مريم وقال «لاتخافي يامريم اني لم آت لازعجك وانما جئت لأحقق ما حدثتني نفسي به حتى اذا صدق ظني وخدمني سعدي وقفت نفسي لخدمتك وجعلتك اسعد العالمين — الا اذا كان هذا الخبر يسوءك ...»

فتنهدت مريم تسكيناً لما جاش في صدرها من الخفقان مما لم تعهده من قبل وهمّت بالكلام ومنعها الحياء وكانت لاتبالي اذا لقيت الرجال في حومة الوغى فكيف تلعثم لسانها بين يدي رجل يتمنى رضاها ويتوقع سماع كلمة من فيها ليتغنى بها ويجعلها تعويذة في عنقه — ولكن هو الحب يذل الاسود ويلعثم السنة الفصحاء — وظهر من خلال شفتي مريم مع ذلك انها تكتم أمراً تود التصريح به لولا الحياء. فادرك هانىء ذلك فيها فتوجه بكليته نحوها وقال وقد أخذ الهيام منه مأخذاً عظيماً «قولي يامريم لاتخافي ولا تكتمي فان خالتي القهرمانة لايستحى منها بل هي خزانة اسرارنا قولي .. هل تحبينني؟»

فالتفتت اليه وتجلدت وقالت « وما الفائدة من الحب اذا لم يكن متبادلاً وأنتم معشر الامراء قد تعودتم اقتناء النساء بالعشرات والحب لا يكون صحيحاً الاّ اذا كان بين اثنين ليس معهما ثالث »

فبغت هانيء لهذا التعريض وهو لا يرى له محلاً وقال « لستُ من هؤلاء يا مريم . وهذه الخالة تعلم اني بلغت هذا السن ولم اتخذ امرأة ولا اقتنيت جارية ولا سرية ... اسأليها تنبئك فانها مطلعة على احوال سائر الامراء في هذا الجند فان لكل واحد منهم خباء لنسائه وجواريه واما انا فلا خباء لي ولا احببت امرأة ولا فتاة ولم يكن يخطر ذلك ببالي قبل ان رأيتك في صباح الامس فعزمت على ان تكوني انت نصيبي في هذه الدنيا وتأكيداً لذلك فاني اعاهدك من هذه الساعة اني لا التفت الى سواك .. فهل تعاهدينني انت ايضاً ؟ »

فابرقت اسرة مريم واشرق وجهها وتجلت في عينيها وحول فمها ابتسامة طار قلب هانيء لها وخفق قلبه سروراً وقال ولم ينتظر جوابها « ولكن لي شرطاً اشرطه عليك وعلى نفسي اني لا اتمم شيئاً قبل الفراغ من هذه الحرب فاذا عدنا منها فائزين ونحن فائزون باذن الله كان ما نتمناه .. فهل تعاهدينني على ذلك ؟ . »

فقالت وهي مطرقة حياء « وذلك هو الشرط الذي اشرطه انا أيضاً لاني اذا فزت بك عند ذلك اكون قد نلت السعادتين .. »

فقال « فلنتعاقد اذاً على هذا الشرط » ومد يده نحوها ونظر الى يدها ولسان حاله يقول « مدّي يدك » فمدتها نحوه ببطء وهي ترتجف من شدة التأثر فامسكها بيده وضغط عليها فاحس كلاهما بمجرى كهربائي ارتعدت له فرائصهما ووقف هانيء مدفوعاً ووقفت مريم وهو يقول « لا بدّ لي من الذهاب الساعة الى المعسكر لنتأهب للقاء العدو واعدك اني سابلو في الاعداء بلاء الابطال لعلمي ان ذلك يسرك فادعي لي بالنصر .. »

ثم مد يدهُ الى كمه واستخرج قارورة تفوح منها رائحة الطيب قوية وقدمها الى مريم وهو يقول « وهذه قارورة من طيب خاص ليس مثلها عند أحد في هذا الخباء تطيبي بها وحدك حتى اذا اتيت لزيارتك تنسمت ريحك قبل وصولي اليك فأستدل على وجودك قبل ان اراك وانت ايضاً كلما شممت رائحة هذا الطيب تذكرين قتيل هواك .. » قال ذلك وعيناه تتلألآن من شدة الهيام ونظر اليها نظر المحب الولهان.

فمدت يدها وتناولت القارورة وهي تبتسم ثم تذكرت فراقهُ لها في تلك الساعة فانقبضت نفسها فالتفتت نحو السماء وترقرقت في عينيها العبرات

وكانت القهرمانة في اثناء ذلك الحديث قد استغرقت في النوم وهي جالسة اذ لا يهمها من هذا الاجتماع الا ما نالته من التحف وما ترجوه من الهدايا المتواصلة . وبينا هي غارقة في احلامها علت الضوضاء خارج الخباء فانتبهت فسمعت قرقعة اللجم ودبدبة الخيل فبغتت وبغت هاني؛ ومريم . وقبل ان تنهض القهرمانة سمعت بعض الغلمان يصيح من الخارج « اين السيدة القهرمانة »

فنهضت القهرمانة وصاحت « من يناديني ؟ » وخرجت فاستقبلها احد الغلمان وهو يقول « ان الامير عبد الرحمن يدعوك اليه »

فقالت وقد علتها البغتة « واين هو ..؟ » وهرولت نحو القاعة فقال الغلام « هو ينتظرك في القاعة » فعادت الى هانيء وقالت له « اسرع يا مولاي الى جوادك وامضِ قبل ان يراك الامير هنا فربما رابهُ امرك »

فا كبر هانيء ان يخرج خروج الهارب فتجلد وقال « اذهبي انت اليه ولا تخافي فاني خارج على مهل »

الفصل العشرون

البغتة

فدخلت القهرمانة وقد ارادت ان ترسل مريم من باب آخر يؤدي الى غرفتها وتسير هي توًّا الى القاعة لملاقاة الامير عبد الرحمن

وخرج هانيء من الباب الخارجي وهو رابط الجأش حتى وصل الى ادهمه وهمَّ بان يركبه فلقي بجانب الجواد رجلاً من ملازمي الامير عبد الرحمن وقد امسك بشكيمته . فلما دنا هانيء منه قال له « ان الامير يتقدم اليك ان توافيهُ الى خيمته في المعسكر فانه عائد اليها على عجل »

فقال « ومن انبأَه اني هنا »

قال « عرف ذلك من جوادك »

اما القهرمانة فلم تكد تخرج من حجرتها ومريم معها حتى لقيها عبد الرحمن وكانت مريم قد ازدادت بتلك البغتة احمرارًا وتجلَّت دلائل الحب في عينيها مع ما يغشاها من الدمع

فلما رأت الامير عبد الرحمن استرجعت جأشها ووقفت للسلام عليه

اما هو فحالما رآها تذكر والدتها فخاطبها اولاً ولم يلتفت الى القهرمانة وقال « مريم ! .. اين والدتك هل سافرت ؟ »

قالت « نعم يا مولاي سافرت في هذا الصباح باكراً » قالت ذلك بلثغتها المعلومة ولم يكن عبد الرحمن سمعها تتكلم بعد فاعجبته تلك اللثغة وكان لفرط ذكائه وصدق فراسته قد رأى على وجهها آثار البغتة وتذكر انه رأى جواد هانيء بباب غرفة القهرمانة من الخارج فادرك ان هانئاً كان هناك معها . فتظاهر عبد الرحمن بعدم المبالاة وتأكيداً لعدم مبالاته خاطب القهرمانة ببرود وسذاجة قائلاً « وهل رجع الامير هانيء ؟ »

فلما سمعت القهرمانة سؤاله لم تدر بماذا تجيبه وكاد يرتج عليها لولم يتدارك الامر هو بقوله « ولكن لا بأس من ذهابه فاني سالاقيه بعد رجوعي » ثم مشى نحو مريم وهو يخاطب القهرمانة قائلاً « قد اوصيتك يا خالة باكرام هذه الضيفة واعيد الوصاية الآن ان تبالغي في رعايتها واكرامها ولا تخفي عنها شيئاً ولا تدعيها تستوحش في هذا الخباء فانها اعز نسائه عندي »

فانبسطت نفس القهرمانة لذلك واطمأن بالها وتبادر الى ذهنها ان عبد الرحمن غافل عما حدث من امر هانيء ومريم وقالت « اني فاعلة حسب امر مولاي وبالحقيقة ان مريم لا يراها احد الا احبها واكرمها »

فقطع عبد الرحمن كلامها وهو يقول « اين ميمونة .. هل هي في غرفتها ؟ . »

قالت « اظنها هناك » ومشت تبحث عنها

فقال لها عبد الرحمن « امكثي هنا مع مريم او امضي بها الى حيث تشائين وانا اذهب الى ميمونة فاني اعرف مكانها .. »

وكانت ميمونة قد رأت الامير عبد الرحمن عند وصوله الى هناك وعلمت انه رأى جواد هانيء ورأته يخاطب بعض غلمانه ويشير الى ذلك الجواد فدخلت وجعلت تتسم ما عساه ان يكون من امره بعد ان يرى القهرمانة ومريم ومعهما هانيء فشعرت انه لقيهما خارجتين من تلك الحجرة وسمعت ما دار بينه وبينهما فظنته لم يلحظ اجتماعهما فعزمت على التصريح بذلك

اما عبد الرحمن فمشى يلتمس حجرة ميمونة والخدم يتناثرون بين يديه تهيباً او يقفون له وقاراً حتى اقترب من باب الحجرة فتظاهرت ميمونة انها قلقت لابطائه في الوصول اليها

فاسرعت الى الباب وجعلت انها كانت في انتظاره على مثل الجمر . فلما اقبل حيته وتادبت وعيناها تنظران اليه نظر المحب العاشق بلا تصنع مع انها غير عاشقة وانما كان ذلك منظر عينيها لما فيهما من اللمعان مع ما تتكلفه من اظهار الوجد بالابتسام والاطراق فينخدع الناظر اليها ويحسبها متفانية في حبه وخصوصاً اذا كان هو يحبها . اما عبد الرحمن فكان يستلطف ميمونة كثيراً ويحب قربها ولكنه كان ينظر اليها نظره الى بعض جواريه وكان من الجهة الاخرى قد عاهد نفسه ان لا يقرب النساء حتى يفرغ من تلك الحرب ويقطع نهر لوار فضلاً عن اشتغال خاطره بمهام الفتح عن مجالسة النساء ومسامرتهن . ولذلك فلما كان يأتي الى الخباء واذا اتاه اظهر لميمونة تلطفاً خصوصياً لغرض في نفسه لم يكاشف به احداً . وكانت هي ربما ادركت غرضه وتجاهلت او انها تظاهرت بما يريده هو وجعلت انها تفعله عفواً ولها من وراء ذلك مأرب لو تصوره عبد الرحمن لعجل بها الى الفناء

الفصل الحادي والعشرون

المكر المتبادل

علمت مما تقدم ان ميمونة صبية الرغبية كانت في جملة خدم لمباجة بنت الكونت أود حاكم تلك المقاطعة في فرنسا وقد سبيت في جملة غنائم المبنوس الافريقي زوج لمباجة المذكورة — وكان اهل الخباء يعتقدون ان ميمونة كانت من خاصة نساء لمباجة واقرب المقربات اليها . فكان عبد الرحمن يرجو الانتفاع من ذلك في بعض المخابرات مع اود او بعض قواده ولكنه كتم هذا الامر في نفسه ولم يظهره حتى ولا لهانيء . فلما بعثت ميمونة اليه في ذلك الصباح اسرع اليها على عجل وهو يتوقع منها خبراً يتعلق بالحرب من قبيل ما تقدم

فلما راى وقفتها على تلك الصورة خيل له انها تعشقه وتستهلك في خدمته فسرّه ذلك على امل استخدامها في غرضه فابتسم لها ودخل حتى جلس على وسادة هناك وهو يقول « ما الذي تريدينه مني يا ميمونة » .

فقالت وهي تحاول القعود بتأدب « اريد اموراً كثيرة يا مولاي لا ادري ايها

اقوله اولاً ٠٠ » قالت ذلك وتنهدت واستنزلت دمعتين رآهما عبد الرحمن تتساقطان على خديها وهي مطرقة تظهر انها استحيت من افتضاح سرها بهما

فانخدع عبد الرحمن ولكنه اجابها على الفور « لا ارى حاجة الى ذلك وانت تعلمين ماعاهدت ربي عليه منذ عزمت على هذه الحرب ٠٠ »

فاسرعت في الجواب كأنها تستدرك اصلاح ما تبادر الى ذهنه فهمه خطأ فقالت « لا يتوهم مولاي اني اطمع بغير رؤية هذا الوجه الصبوح ٠٠٠ ولكنني مخطئة في التطاول الى ما لا استحقه فان في خباء مولاي الامير عشرات من امثالي وما فيهن من تجرأ على هذه الكلمة . اما انا فلا ادري ما الذي جرأني عليها ٠٠ فهل دلني قلبي على الصواب او لعله خدعني ٠٠٠ لا ادري ٠٠ وفي كل حال يكفيني ان يكون الامير عالماً بما له في هذا القلب من الحب الشديد على اني لا اكلفه مثله او مثل بعضه لان الحب لا يكون قهراً ٠٠٠ » قالت ذلك وغصت بريقها وسكتت

وكان عبد الرحمن يعتقد ان ميمونة تحبه ولكنه لم يسمع منها مثل ذلك العتاب قبلاً فتبادر الى ذهنه انها اندفعت الى العتاب غيرةً عليه من مريم والغيرة تفعل العجائب فاراد ان يتحقق ظنه فقطع حديثها وقال « هل رأيت الضيفة الجديدة ؟ »

فسرّت ميمونة لابتداء عبد الرحمن بذكرها فاجابت على الفور « كيف لم ارها وقد وقفتُ نفسي لخدمتها من ساعة وصولها لعلمي ان ذلك يرضي مولاي الامير ٠٠ ولم افارقها الا ساعة في هذا الصباح لانشغالها في غرفة القهرمانة مع الامير هانيء ٠٠ » قالت ذلك وهي تتظاهر انها تقوله بسذاجة وسلامة ضمير واجتهدت بكل جوارحها [illegible] ان يبدو من عبد الرحمن بعد سماعه ذلك الخبر

اما هو فاحسّ بشيء من الغيرة وتذكر ان والدة مريم انما اذخرتها له وفكر في اختلاء هانيء بمريم على تلك الصورة فلم يجد لها سبباً غير الحب المتبادل بينهما فحدثته نفسه لأول وهلة ان يمنع هانئاً من ذلك ولكن حبه هانئاً ورغبته في حفظ الوفاق بينه الى نهاية تلك الحرب — كما شرطاه على نفسيهما — غلب على ذلك الشعور وتصور ماهم فيه من الامر العظيم والخطر الشديد فاضمر في باطن سرّه انهم اذا فرغوا من هذه الحرب فائزين وظلّ هانيء على ما شرطه على نفسه من البسالة والثبات ساعده على نيلها — فتجلد عبد الرحمن واجاب ميمونة وهو يظهر عدم المبالاة « ولكن هانئاً خرج الآن من عندها وشاهدت مريم مع القهرمانة وقد سرني ارتياحها للاقامة في هذا الخباء فارجو ان تعيريها التفاتك لاني موصٍ باكرامها ولي بذلك

غرض ارجو ان تساعديني عليه »

فلما سمعت ميمونة قوله استغربت ما يكتمه من امر هذه الفتاة وتأسفت لذهاب سعيها هباء منثوراً ولكنها ارادت تحقيق الامر فبالغت في التجاهل واظهار السذاجة وقالت « اكد يامولاي اني فاعلة ماتريدهُ وبالحقيقة ان هذه الفتاة من نوادر الخلق جمالاً وتعقلاً ورزانة وهي خفيفة على القلب لا يستطيع جليسها الا ان يحبها فلذا كنتُ لا اكرمها اكراماً لمولاي الامير فاني افعل ذلك حباً بها . ولا باس اذا احبها الامير اكثر من سائر نسائه لانها اهل لذلك »

فخاف عبد الرحمن اذا طال الحديث ان يبدر منه مالا يريد التصريح به فابتدرها قائلاً « لقد خرج بنا الحديث عن اصل الموضوع . . ما الذي دعوتني من اجله الآن ؟ . »

فاظهرت الاهتمام وقالت « دعوتك لامر هام وكان يجب ان لا اقدّم قولاً عليه وربما كان فيه وحده ما يغنيني عن الادلة على حبي للامير عبد الرحمن وتفانيَّ في خدمته ـ فاعلم يا مولاي اني بثثت العيون من بعض الذين تركتهم لخدمتي لاستطلاع احوال العدو بعد سقوط بوردو فعلمت ان الكونت أود ورجاله متربصون لكم في مضيق دردون[1] على مقربة من هذا المكان . والمضيق في طريقكم الى نهر لوار »

ولم يكن عبد الرحمن غافلاً عن اخبار عدوه لان جواسيسه كانت مبثوثة في كل الانحاء واكثرهم من اهل البلاد الاصليين وخصوصاً اليهود فانهم كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في مساعدة المسلمين انتقاماً من المسيحيين وطمعاً بالغنائم كما تقدم — فلم يكن خبر أود ودردون ليخفى على عبد الرحمن ولا كانت ميمونة تجهل اطلاعه عليه ولكنها تجاهلت وأظهرت الاهتمام بأمر الجند وأوهمت انها اطلعت على ذلك السر بسعيها الخصوصي ولو علمت انهُ يجهل ذلك الخبر لبالغت في كتمانه . فسايرها عبد الرحمن وأظهر انه فرح بذلك الخبر تنشيطاً لها على السعي في خبر آخر فقال لها « بورك فيك ياميمونة لقد تحققت الآن حبك لنصرنا وأرجو ان لا تغفلي عن مثل ذلك . . »

لم تكن ميمونة تجهل اطلاع عبد الرحمن على ذلك الخبر من قبل ولكنها تجاهلت التماساً لما يسوغ لها استقدامه في ذلك الصباح لتطلعه على حب هانيء لمريم ايقاعاً للفتنة بين الاميرين وقد ساءها ان حيلتها لم تأت بالفائدة المطلوبة . ونسبت حبوط مسعاها الى

(١) ريتو

سعة صدر عبد الرحمن وطول اناته فأضمرت ان تحوّل سهام مساعيها نحو هانىء لانه شاب لا يصبر على الكظم . وغرضها الاول ايقاع الفتنة بين ذينك القائدين وباختصامهما فشل ذلك الجند الكبير — فعزمت على تدبير الحيلة في وقت آخر ولما سمعت ثناء عبد الرحمن على سعيها في خدمته ابتسمت ونظرت اليه نظرة يتخللها العتب والدلال والاستعطاف ولولا رزانة عبد الرحمن وقوة ارادته لخرقت تلك النظرة صدره الى قلبه وهاجت فيه لواعج الغرام واستبد الجنون بلبه لما في عينيها من عوامل الجاذبية وما حولهما من الملامح الفتانة وما في مجمل ذلك من السحر الآخذ بالالباب — ولا غرو اذا عبر الشعراء عن تلك الجواذب بالسحر لانها تعمل عملاً لا يمكن تعليله بغير السحر . وربما عبر عنه بعض علماء الطبيعة اليوم بالكهربائية فمن كان حسنه جذاباً قالوا ان كهربائيته قوية — وهو عبارة عن تفسير الماء بالماء

الفصل الثاني والعشرون

من شق الحائط

فلما نظرت ميمونة الى عبد الرحمن تلك النظرة فهم انها تعاتبه على ذلك القول ولسان حالها يقول له « اني قتيلة هواك ومستهلكة في خدمتك » فسرَّه افتتانها به رغبة في استخدامها لما ينفع الجيش فابتسم لها وهشَّ وفي زعمه انه يزيدها بذلك استهلاكاً في خدمته وهي كلما رأت منه انعطافاً بالغت في اظهار الافتتان به . فلما علم عبد الرحمن انها فرغت من الخبر الذي استقدمته لاجله نهض وهمَّ بالخروج فنهضت ميمونة وهي تقول « لولا علمي بالمهام الكثيرة التي تتعلق بذهابك أيها الامير لتوسلت اليك أن تبقى هنيهة أخرى ... فهل أنت عازم على الذهاب لملاقاة العدو قريباً .. ؟ واذا ذهبت فهل تتركني هنا .. »

فادرك انها تقول ذلك تدللاً فلم يجبها بغير الابتسام وخرج مسرعاً يلتمس جواده ليرجع الى المعسكر فمشت ميمونة في أثره حتى اذا اوشك الوصول الى باب الخباء سمعته يقول « مرحباً بالامير هانىء ألا تزال هنا ؟ لماذا لم تدخل الخباء ... » فازدادت ميمونة استغراباً من ذلك الترحاب

الفصل الثالث والعشرون

المكاشفة

اما مريم فانها عادت من وراء ذلك الجدار وقد اتقدت نيران الحب في قلبها والتمست الخلوة لتراجع في ذهنها مادار بينها وبين حبيبها استئناساً بذكراه ومخافة ان يكون قد بدر منها عبارة تؤاخذ عليها . جلست في غرفتها هنيهة كأنها في عالم الخيال ثم انتبهت للقارورة وكانت لاتزال في قبضتها فنظرت اليها وفتحتها واشتمت رائحتها فطربت لما وانستأنست بها لانها من هانيء وصبت قليلاً من الطيب على كفها دهنت به شعرها ووجهها وكفيها ففاحت منها رائحة ملأت الخباء بطيبها

وبينما هي في خلوتها اذ دخلت عليها ميمونة وهي تبتسم ابتسام محب معجب بحبيبه فقابلتها مريم بمثل ابتسامها وقد ارتاحت اليها وتاقت الى مكاشفتها بما شغل خاطرها من الحب ولكنها امسكت نفسها تأملاً بكون في ذلك مايغضب حبيبها على انها رحبت بميمونة وتحفزت للوقوف احتفاء بها فسبقتها ميمونة الى الحديث فقالت وهي تبش لها « أراك عدت من غرفة القهرمانة وقد زدت طيباً »

وكانت القارورة لاتزال في قبضتها فضحكت وبدا الحياء في وجهها وبادرت الى القارورة فخبأتها في جيبها ولم تحر جواباً

فأدركت ميمونة ان بين تلك القارورة وهانيء علاقة فعمدت الى استكشاف سرها منها فقالت « لقد زادك الحياء طيباً ياحبيبتي .. لعل الطيب من قبل البطل الصنديد الامير هانيء .. ارجو ان لايكون من سواه لانه يليق بك . ولو خيرت ان تنتقي لك حبيباً من بين رجال العالمين لما وقع اختيارك على خير منه »

فأدركت مريم اطلاع ميمونة على ذلك السر ولكنها تجاهلت وقالت « كيف تحكمين على الامر قبل التثبت . من أين عرفت ذلك ؟ »

قالت وهي تضحك وتقترب من مريم « عرفته من مصدر وثيق .. وتحققته من قرائن الاحوال .... واذا كنت تنكرين ذلك علي فان ملامحك تشهد عليك ... على اني لا ألومك على التستر لان الحب يحلو بالكتمان وقد كان يجدر بي ان اسايرك وأظهر اقتناعي بانكارك ولكنني لم أرض بذلك شفقة عليك وحباً بك »

فلما سمعت مريم قولها استغربت تلميحها بالشفقة ولم تفهم مرادها فرفعت بصرها اليها وقالت « لم أفهم مرادك من الاشفاق العل في حالتي مايبعث على الشفقة ؟ افصحي .. »

فقالت « لا أقول شيئاً قبل ان تعتقدي حبي لك وغيرتي على مصلحتك .. »

قالت « أنت تعلمين أني احببتك وقد وثقت بك من اول نظرة وخصوصاً بعد ماعاينته من حبك لي فلا حاجة بعد ذلك الى برهان »

قالت « صدقت ياحبيبة اني اشعر من قلبي باخلاصك ولكنني أخاف اذا قلت لك قولاً ان تحمليه على غير محمله ومع ذلك فاني افعل ماتدعوني اليه محبتك .. نعم ليس هناك مايدعو الى القلق الكثير ولكنني اختبرت هؤلاء العرب واطلعت على سجاياهم وفي جملتها انهم يغارون على اعراضهم غيرة شديدة . وانت تعلمين انك هنا في خباء الامير عبد الرحمن وكل من في هذا الخباء من نسائه فيجدر بك ان تحاذري من التظاهر بشدة ميلك الى الامير هانئ في حضرته — وأظن الامير هانئاً نفسه يتوقع ذلك منك — لاتظني اني اقول هذا بناء على قول سمعته فاني اعتقد حب الامير عبد الرحمن لهانئ ومراعاته جانبه حتى انه لايمنع عنه شيئاً يريده لان عليه معتمده في هذه الحرب وهو يعيشه التي يناضل بها . ولكنني أردت تنبيهك لعلمي ان هانئاً يريد ذلك منك وان كان لا يظهره لك انفة وترفعاً . واما أنا فقد خبرت عادات القوم وآدابهم في هذا الشأن ... ولعلك سمعت عن منزلتي عند الامير عبد الرحمن والاّ فاني أخبرك أني اقرب نسائه منه وهو يعتمد علي في كثير من المهام . فاذا علمت ذلك كوني على يقين ان الامير عبد الرحمن لايفعل الاما يرضيك »

فقبلت مريم تلك النصيحة باخلاص وازدادت وثوقاً بميمونة بعد ماعرضت به من مساعدتها وهان عليها مكاشفتها بما في قلبها فالتفتت اليها وقد انبسطت نفسها وقالت « أشكرك على ذلك ياسيدتي وسأعمل حسب اشارتك .. ولا ريب انك عالمة بكل ذلك وأنت من اكثر نساء هذا الخباء ذكاء ولطفاً .. »

فاكتفت ميمونة من ذلك الحديث بما وصلت اليه وأرادت الانتقال الى موضوع آخر فقالت « ذكرت لك الطيب فلم تجيبيني عليه .. أين القارورة ؟ »

فمدت مريم يدها واستخرجت القارورة ودفعتها الى ميمونة ففتحها واشتمت رائحتها وهي تقول « لم اشتم في عمري مثل رائحة هذا الطيب انه طيب خاص ليس عند احد من اهل هذا الخباء مثله .. » قالت ذلك وارجعت القارورة ولم تمس ما فيها »

فقالت مريم « تطيبي بشيء من هذا الطيب فانك اهل لذلك .. »

فامتنعت ميمونة وهي تسدّ القارورة وتقول « لا يجوز لاحد سواك ان يمس هذا الطيب لانهُ هدية خصوصية لك » ودفعت اليها القارورة وهي تبالغ في الامتناع

فاستحسنت مريم تمنعها وزادت وثوقاً بصدق مودتها فتحت لها قلبها وصارت لا تستأنس الا بقربها مع ميل الى مكاشفتها بعواطفها وميمونة تعمل فكرتها لاستخدام ذلك عند الحاجة

الفصل الرابع والعشرون

الاطمئنان

اما عبد الرحمن وهانئ فانهما ركبا وسارا نحو المعسكر وحولهما الفرسان في موكب وكل منهما يفكر في جهة ومرجع التفكير الى مريم . فكان هانئ يتذكر ما دار بينه وبينها وما آنسهُ من مجاملة عبد الرحمن ولطفه على حين انه كان يتوقع امتعاضه — فاذا تذكر ذلك انشرح صدره لانه كان يخاف اذا بدا له من عبد الرحمن برود ان يأول ذلك الى نفور مضر . . وكان عبد الرحمن يفكر بسالة وما دار بينهُ وبينها بشأن مريم وتلميحها بأنها ستكون له بعد الفراغ من تلك الحرب لسر لم تصرح له به وتذكر استلطافه مريم وتصور ما في فيه من الجمال والهيبة ثم ما ظهر له من الحب المتبادل بينها وبين هانئ . فلما بلغت تصوراته الى ذلك الحد شعر بغيرة شديدة ولكنه انتبه لما هم فيه من الحروب وشدة احتياجه الى هانئ ، حتى ان النجاح ليتوقف على اتفاقهما . وعلم ان ذلك الاتفاق لا يتم الا بارتياح هانئ ، وارتياحه لا يكون الا بحصوله على مريم — فلما تمثل له ذلك عاد الى تعقله وسعة صدره لعلمه بخطارة المشروع الذي هم بصدده فهان عليه ارضاء هانئ وخاف ان يكون في سكوته في اثناء الطريق بابٌ للشك ففتح الحديث قائلاً « الم تحمد الله على انتصارنا في هذه الحرب يا هانئ ، ؟ »

قال « لقد حمدته حمداً كثيراً على ذلك والفضل فيه راجع الى بسالة الامير عبد الرحمن وتدبيره

قال « بل الفضل فيه للامير هانئ ، قائد فرساننا . . . بل أرى الفضل فيه لما توفقنا اليه من الوفاق المتبادل وارجو ان يبقى ذلك الى نهاية هذه الحرب »

قال « وأنا ارجو ذلك ايضاً واذا تم لنا الفتح كان فيه الفخر للعرب كافة لاننا نفتح لهم

بلاداً واسعة يحكمون أهلها ويجبون خراجها وينشرون الاسلام فيها »

قال « واظن سرورك بفتح بوردو يضاهي سرورنا جميعاً بما فتحناه وسنفتحه من البلاد ٠٠ » قال ذلك وابتسم .

فادرك هانئ تعريضه بمريم فضحك وقد انشرح صدره وقال « لااستطيع انكار ذلك ايها الامير لانه ظاهر في كل جارحة من جوارحي وارجو ان يكون اخي مسروراً معي »

قال « اني أُسَرُّ بكل مايسرك ٠ وثق اني عون لك في كل ماتريده ٠٠ ولكنك تعلم ماعاهدت نفسي عليه منذ ركبت هذا المركب الخشن ٠٠ »

فلم يفهم هانئ مراده فقال « وأي عهد تعني ؟ »

قال « اعني اني عاهدت الله ان لا اقرب النساء قبل ان افرغ من هذه الحروب او ان نقطع نهر لوار على الاقل ٠٠٠ فهل انت على هذا الرأي ؟ »

ففهم هانئ مراده فقال « نعم اني اعاهد الله على هذا ايضاً وقد كان رأيي في النساء كما تعلم ضعيفاً فلم اتزوج امرأة ولا اقتنيت جارية ولولا وقوع هذه الفتاة من نفسي موقعاً عظيماً ما غيرت رأيي — اما الآن فاعترف لك اني اصبحت عالق القلب بمريم وهي كما ترى اهل لذلك ٠٠ »

فقطع عبد الرحمن كلامه قائلاً « انها من خيرة النساء جمالاً وتعقلاً واذا توفقنا الى ما نرجوه من النصر كنت اول مسرور بنيلك اياها غير اني ارجو ان يبقى ذلك مكتوماً عن كل انسان لاسباب تعلم بعضها وتجهل البعض الآخر ولا تكلفني التصريح بما وراء ذلك »

فاحس هانئ من تلك الساعة بثقل أُزيح عن صدره وارتاح باله وان كانت اشارة عبد الرحمن الى الاسباب التي لا يعلمها شغلت خاطره قليلاً ٠ على انه شعر بميل شديد الى مكاشفة مريم بما دار بشأنها مع عبد الرحمن — وذلك طبيعي في المحبين فانهم يتلذذون بمكاشفة بعضهم بعضاً اخبار الناس فكيف ما يتعلق بهم وخصوصاً ماكان منه راجعاً الى تحقيق امانيهم ٠ وعلى الاخص اذا اؤتمن احدهم على سر وطلب اليه كتمانه فانه يزداد ميلاً الى مشاطرة حبيبه بالاطلاع عليه كأنه يعد ذلك اكراماً خصوصياً لاختصاصه اياه بشيء ثمين اؤتمن هو عليه .

ثم عاد الاميران الى السكوت مدة والركب ماش حتى دخلوا المعسكر وكان الجند قد فرغوا من اقتسام الغنائم وهم فرحون بما نالوه منها وخصوصاً البرابرة لما علمت من

مطامعهم — ظل الاميران سائرين حتى وصلا خيمة الامير عبدالرحمن فدخلاها ثم صفق عبد الرحمن فجاءه بعض الغلمان فقال له «ادع الامراء الى هنا الساعة»

فلما خرج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانئ وقال له «قد علمتُ من أخبار الجواسيس وغيرهم ان طاغية اكيتانيا الكونت اود معسكرٌ بجنده في مضيق دردون على بضع ساعات من هذا المكان[1] فينبغي لنا ان نبادر اليهم قبل ان يتأهبوا للدفاع فاذا غلبناهم وقتلنا أميرهم ذهب عنا نصف العناء في هذا الفتح او هو العناء كله ولم يبق من يقف في سبيلنا الى نهر لوار ... ماذا ترى ؟»

قال «أرى ان نبادر الى الحرب والجند متشدد على أثر النصر»

قال «فمتى حضر الامراء فاوضناهم ولا اظنهم الا موافقين على الزحف فنزحف برجالنا ونترك الاخبية في مكانها وعندها بعض الحامية والغنائم . فاذا هزمنا الافرنج باذن الله حملنا نساءنا وعيالنا وغنائمنا وسرنا الى تورس على نهر لوار ...»

وبعد قليل جاء الامراء وهم بضعة عشر أميراً وفيهم العربي والبربري والشامي والمصري والبطي وغيرهم وفي جملتهم الامير بسطام . فعرض عبدالرحمن عليهم رأيه وساعده هانيء على تنفيذه فوافقوا جميعاً على الرحيل في صباح الغد على ان يتركوا النساء في الاخبية حيث هي . فلما اجمعوا على ذلك التفت عبدالرحمن اليهم وقال لهم «انتم تعلمون اننا سائرون لمحاربة هؤلاء الافرنج في معسكرهم والمسافة بيننا قريبة وهم متحصنون في جبالهم فينبغي لنا ان نسير اليهم خفافاً . ولا يخفى عليكم ما قد صار الى رجالنا من الغنائم في أثناء الفتوح التي توفقنا اليها منذ خروجنا من الاندلس وهي ثقيلة حتى لقد يثقل على الرجل حمل غنائمه وحدها بلا حرب[2] فكيف اذا اضطر الى الهجوم والركض فالرأي على ما أرى ان يتركوا غنائمهم في هذا المعسكر بقرب الاخبية فتبقى هناك هي والنساء ونجعل معها حامية من رجالنا فاذا بلغنا من عدونا ما نريده اضفنا اليها ما نغتنمه منهم ..»

قال عبد الرحمن ذلك وهو يتوقع معارضة بعضهم لعلمه بحرص اولئك القوم على حطام الدنيا وفيهم من لم يأت الى تلك الحرب إلاّ رغبة في الاموال — فاستدرك هانيء ما خافه عبد الرحمن قائلاً «ان الامير مصيب برأيه ولا اظنكم الا موافقين عليه لاننا نخشى اذا جاهد رجالنا وهم مثقلون بالغنائم ان يعجزهم حملها فينوؤن تحت أثقالها فيقصرون

(١) رينو — والمسافة اطول من ذلك (٢) رومي ج ٣

في ساحة الوغى ولا يخفى عليكم ما يترتب على ذلك من الفشل »

وكان عبد الرحمن يخشى الاعتراض خصوصاً من الامير بسطام لحرص رجاله على الاموال لاسباب تقدم بيانها وكان عبد الرحمن في أثناء كلام هانيء يتفرس في وجوه الامراء فوجد التردد ظاهراً على الخصوص في وجه بسطام فاستأنف الكلام قائلاً «والذي أراه ان نعهد بحراسة تلك الغنائم الى الامير بسطام ومن يختارهم من رجاله ومعهم جماعة من رجال سائر الامراء ..»

فوقع ذلك الرأي موقع الاستحسان عند الجميع فوافقوا عليه وخرجوا للعمل به ولكي يأمروا رجالهم بالتأهب للرحيل في صباح الغد

فذهب هانيء الى خيمته ولم ينم تلك الليلة لما خالج افكاره من الهواجس بمريم على أثر ما سمعه من عبدالرحمن حتى حدثته نفسه ان يطير اليها في ذلك الليل ويكاشفها بما دار بينه وبين عبد الرحمن بشأنها ويخبرها بعزمهم على الرحيل الى محاربة الافرنج ويصبرها الى الرجوع وقد زاده رغبة في الذهاب اليها انه فارقها ولم يتمكن من وداعها كما يريد — ولكنه تذكر اهمية وجوده في الصباح هناك وخاف غضب عبدالرحمن فرجع عن عزمه



الفصل الخامس والعشرون

المنديل

وفي الصباح قام المسلمون للصلاة ثم نفخ في النفير فتأهبوا للمسير وساروا كأنهم بحر يتلاطم بالامواج وفيهم الفرسان والمشاة وبينهم الرماحة والرماة ٠ وقائد الفرسان العام هانيء وقد ركب أدهمه ولبس خوذته والتف بعباءته وقوضوا الخيام ولم يتركوا منها الا ما وضعوا فيه غنائمهم ومعها الامير بسطام وبعض رجاله ونفر من رجال القبائل الاخرى

وبعد المسير بضع ساعات اشرفوا على جبال اخبرهم الجواسيس ان اود ورجاله متحصنون فيها فنزل المسلمون في سهل بالقرب من ذلك المضيق وترجل الفرسان وسرحوا خيولهم للعلف والراحة على ان يستريحوا ريثما يطيب لهم الهجوم ٠ وقد اقاموا الخفر حول المعسكر وبثوا سراياهم يستطلعون احوال اعدائهم ومناعة مواقعهم ليعلموا من اين يهاجمونهم

وذهب هانيء للاستراحة في خيمته وفي المساء جاءت الطلائع فاخبروا ان الافرنج مقيمون في الجبال وهم كثيرون وقد تحصنوا واقاموا لا يبدون حراكاً . فاجتمع امراء المسلمين وتفاوضوا في الامر فرأوا الهجوم على حصون الافرنج شديد الخطر فتربصوا ليروا ما يبدو منهم فاذا لم يخرجوا من حصونهم نظروا في الهجوم عليهم

فبات هانيء تلك الليلة وقد عادت اليه هواجسه وعاد الى التفكر في مفارقة المعسكر بضع ساعات ولا خطر على الجند في غيابه للاسباب التي قدمناها على انه ما زال متردداً في الذهاب خوف الفشل وحياء من عبد الرحمن

فاصبح في اليوم التالي وخرج على قدميه وقد تراكمت عليه الهواجس وهو يفكر في حاله وحال مريم وحال الجند . وبينما هو يتمشى في سهل خارج المعسكر رأى رجلاً بلباس عربي قادماً من عرض البر يهرول نحوه ويشير اليه فوقف . فلما دنا الرجل منه تفرس هانيء فيه فاذا هو ملثم فناداه فمد الرجل يده الى جيبه واستخرج منديلاً وسلمه الى هانيء . فلم يكد هانيء يستلم المنديل حتى شم منه رائحة مريم — عرف ذلك من طيبها الذي اعطاها اياه بالامس فصاح في الرجل « من انت وما خبرك ؟ »

فقال « ان هذا المنديل ينبئك عني ان صاحبته في حاجة اليك على عجل » قال ذلك وسار يعدو في عرض البر . فبهت هانيء ثم انتبه لنفسه وصاح في الرجل ان يقف فلم يلتفت اليه فوقف هنيهة وهو يعمل فكرته في ماذا عسى ان يكون سبب تلك الدعوة المستعجلة ولم يشك ان المنديل منديل مريم والطيب طيبها فلم يرَ بداً من المبادرة الى اجابة الدعوة وهو مطمئن البال على المعسكر واسرع الى خيمته فركب جواده والتف بعباءته وسار يلتمس الخباء ولم ينبئ احداً بمسيره لعله انه سيعود قبل انقضاء النهار فلا بأس من غيابه وخاف اذا شاور عبد الرحمن ان يستخف بعمله او ان يمنعه من الذهاب

سار هانيء وهو يستحث جواده لا يلتفت يميناً ولا شمالاً حتى وصل الخباء وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة وتبلل هو وجواده بالعرق . وحال وصوله ترجل ودخل تواً الى خباء الامير عبد الرحمن واستدعى القهرمانة فجاءت وهي تتوكأ على وركيها وتمشي الهوينا وحالما وقع نظرها عليه ابتدرته قائلة « اين مريم ؟ »

فبهت لسؤالها وقال لها « اتسألينني عن مريم وانا انما جئت لأسألك عنها . . . اين هي ؟ »

قالت « هي عندك . . ألم تبعث بطلبها في هذا الصباح ؟ »

قال « انا ؟ بعثت بطلبها ؟ .. اين هي ؟ قولي ان الوقت لا يساعدنا على المزاح »

فقالت وقد ظهرت البغتة في ذلك الوجه الكالح وامتقع لونها « اظنك انت المازح .. ألم تبعث الينا في هذا الصباح مع رسولك ومعه جوادك وعباءتك وخوذتك ؟ »

فصاح فيها وقد تعاظم غضبه « كلاّ لم ابعث احداً وهذا جوادي معي وهذه عباءتي .. تبصري في ما تقولين ؟ قولي لي الصحيح والا قطعت راسك بهذا السيف »

قال ذلك ويده على قبضة سيفه

فخافت القهرمانة وتحيرت بماذا تجيبه وقد ارتج عليها من الخوف والاستغراب وقالت تمهل يا بنيّ لاقص الخبر عليك .. جاءنا في هذا الصباح رجل اظنه من رجالك وقد ركب جواداً ومعه جواد آخر ادهم لم نشك انه ادهمك عليه عباءة وخوذة وقال لي انك تطلب مريم حالاً باسم الامير عبد الرحمن لامرٍ ضروري يتعلق بوالدتها ودفع اليّ هذا الكيس (ومدت يدها واخرجت كيساً فيه دراهم) فامتنعت في بادىء الرأي ولم اطاوعه فالح عليّ واوراني الجواد والعباءة وقال لي انك تطلب مريم لغرض مستعجل يتعلق بالحرب وانك بعثت لها جوادك لتركب عليه فلم أقبل منه فذكر لي علامة لا يعرفها احد سوانا وهي قارورة الطيب وقال العلامة لصدقه انك اجتمعت مريم عندي وأعطيتها قارورة الطيب فلم استطع الا تصديقه ومع ذلك فاني لم اسلم بارسالها الاّ بعد ان اتى بعلامة من الامير عبد الرحمن لا يعرفها سواي وأخيراً سلمته اياها وانا خائفة عليها ولشدة خوفي اخرجت معها احظى نساء الامير عبد الرحمن عنده واوصيتها بها ... »

وكان هانىء يسمع كلام القهرمانة وهو يرتعد من شدة الغضب فلما تحقق عنده ذهاب مريم قال « ومن هي تلك الحظية »

قالت « هي ميمونة الافرنجية اظنك تعرفها »

فقال « نعم اعرفها والى اين ذهبوا وكيف ؟ »

قالت « لما توهمت صدق ذلك الرسول ورأيت مريم راغبة في الذهاب اذنت لها فيه فركبت الجواد الادهم وركبت ميمونة جواداً آخر ومضوا نحو المعسكر »

قال « يظهر انه لم يأت بعد لاني لا أرى أثرًا يدلُّ على مجيئه ولكنه لا يلبث ان يأتي سريعًا » قال ذلك ومشى بهما حتى ادخلها البيت من باب كبير كان مفتوحًا وليس في المنزل الا بعض المقاعد او الكراسي الضخمة مما لا يستطاع حمله في اثناء الفرار . وقد استولى السكوت على المكان الا ما كان يتردد من صدى خطواتهم وصهيل الجوادين — اما مريم فلما وصلت ولم تجد هانئًا ولا اثرًا يدلُّ عليه شككت في تلك الرسالة ولكنها سكتت لترى ما يكون والقت معظم المهم على ميمونة لانها اكبر منها سنًّا واوسع علمًا بتلك البلاد وبأحوال ذلك الجند . ولم تكن ميمونة تجهل ما يخالج افكار مريم من هذا القبيل فكانت تتظاهر بالاستغراب ايضًا وتسأل الرسول مثل اسئلة مريم حتى وصلوا الى قاعة ليس فيها الا مقعدان قديمان فجلست ميمونة ودعت مريم للجلوس فجلست وهي تتفرس في المكان وتنظر الى ميمونة وميمونة تشاركها في الارتباك . فقضتا برهة وهما ساكتتان ومريم تتوقع قدوم هانئ وقد شاخت عيناها وهي تنظر الى الخارج من نافذة تطلُّ على الحديقة وميمونة بجانبها والمكان هادئ والخادم الذي اوصلهما لم يعد يظهر . فتظاهرت ميمونة بالخوف وقالت « ويلاه اين نحن ... ? ما الذي جرى لنا ... ? اين ذلك الرسول ... ? يا ليتنا اصطحبنا بعض المقاتلة من غلمان الخباء » ثم صفقت كأنها تستقدم الرجل فلم تسمع جوابًا غير الصدى

اما مريم فلما رأت ميمونة خائفة خافت هي ووقفت وقد ظهر الاهتمام في وجهها وقالت « هل خدعونا ? اين ذلك الرجل كيف يتركنا هنا ويذهب ... الى اين ذهب » وكانت الشمس قد ادركت الاصيل وهما لم تاكلا من الصباح

الفصل الثامن والعشرون

المكيدة

وانهما لكذلك اذ سمعتا صوت صهيل وقرقعة لجام فالتفتت مريم نحو الباب فرأت فارسًا وفي ركابه رجلان ملثمان وهو يركض جواده ركضًا عنيفًا حتى وصل باب البستان فترجَّل . فظنت مريم لاول وهلة انه هانئ فخفق قلبها ولم تتمالك عن الوثوب نحو الحديقة ولم تبال باختلاف لباس ذلك الفارس وجواده عن لباس هانئ وجواده لاعتقادها انه

ارسل اليها العباءة والجواد وقد جاء متنكرًا . ولكنها لم تكد تفكر في ذلك حتى رأت القادم رجلاً بدينًا يترنح في مشيته وسيفه يجرّ الى جانبه وعباءته مسترخية وراءه . ولا تسل عن اضطرابها لما عرفت انه بسطام فغلب عليها الارتعاد واصطكت ركبتاها وكاد الدم يجمد في عروقها والتفتت الى ميمونة فرأتها تظهر البغتة وقد تصدرت لمقابلة ذلك القادم الخفيف بالنيابة عن مريم فلما وصل بسطام استقبلته ميمونة وهي تقول « ما الذي تريده ايها الامير ..؟ »

فاجابها وهو يلهث من التعب والرجلان يمشيان وراءه « ما الذي يعنيك من هذا الامر ؟ »

قالت « ليس في هذا المكان رجال ولا احد يهمكم امره فلا حاجة الى دخولكم اليه .. »

قال « ونحن انما جئنا لاجل النساء ... اليست مريم النصرانية هنا .. » قال ذلك وهو يضحك ومد يده الى وجه مريم . فنفرت مريم وتباعدت . فامسكت ميمونة بيد بسطام وقالت « لا تفعل ايها الامير مالا يليق بالامراء .. واعلم انك اذا مسستها عرضت نفسك لغضب امير جند المسلمين .... »

فصاح بسطام فيها صيحة شديدة وقال « من اقامك ناصحًا او نذيرًا .. وما هو شانك ... اني لا اخاطبك ... » قال ذلك وحوّل وجهه ومشى نحو مريم فبالغت ميمونة في ممانعته وقبضت على ذراعه فانتشلها منها فوقعت على الارض فالتفت هو الى الرجلين وقال « قيدوا هذه المرأة يديها ورجليها واحبسوها في هذه الغرفة واقفلوا الباب عليها »

ولم يتم قوله حتى انقض الرجلان على ميمونة بالامراس وقيدوا يديها ورجليها وهي تصيح وتستغيث وتحاول التخلص ومريم تهم بانقاذها وبسطام يمنعها بدون ان يمسها بيده وهو يقول لها « لا تخافي يا جميلة اننا لن نصيبها بسوء وانما اردنا ايقافها عند حدّها » فلما فرغوا من تقييدها جرّها الرجلان نحو تلك الغرفة فالتفتت نحو بسطام وهي تقول « لا باس عليّ مما فعلتموه بي ولكنني اتوسل اليكم ان لا تمسوا هذه الفتاة بسوء »

ثم دخل الرجلان بميمونة الى بعض حجر ذلك البيت واغلقا الباب . فلما خلوا هناك تركاها وشانها . فقالت لهما بصوت خافت « من هو عدلان منكما ..؟ »

فتقدم احدهما وازاح اللثام عن وجهه فبانت سحنته ونظر اليها بعينه الحولاء نظر المحب الولهان وقال « انا عبدك عدلان ارجو ان اكون قد امضيت مهمتك كما تشائين .. »

فقالت « بورك فيك (وابتسمت) قل لي اين هو هاني وماذا فعلت به ..؟ »

قال « فعلت ما امرتني به يا سيدة النساء . . . وانما ارجو ان تكوني راضية عن عبدك واسير هواك وتحققي انك لا تجدين من يصدع باوامرك و ينفذ مآربك سواي . . »

فابتسمت ابتسامة اخرى وحركت اجفانها حركة الغنج والرضاء وقالت « اذا كنت قد فعلت ما فعلته بخفة ولباقة فاني راضية . . قل لي اين هو هاني . . ؟ »

قال « اظنه لا يزال تائهاً في هذه الصحراء يفتش عن حبيبته . . »

قالت « وكيف اوصلت اليه المنديل ؟ »

قال « بعد ان اتيتك بالجواد الادهم امس و وكلت به هذا البطل (واشار الى رفيقه) وافهمته كيف يخدع القهرمانة — وكل ذلك بارشادك — ذهبت بالمنديل الى معسكر المسلمين فوصلت اليهم صباحاً . ومن حسن حظ مولاتي وتوفيقها رأيت الرجل خارجاً يتمشى فاسرعت نحوه ودفعت اليه المنديل وانا ملثم فسالني عن غرضي فاخبرته ان صاحبة هذا المنديل تدعوه اليها حالاً وتركته وفررت الى مكان اراه منه ولا يراني فرأيته اسرع الى جواده فركبه وساقه نحو الخباء . . فلما تحققت ذهابه اسرعت من طريق آخر الى معسكر مولاي الكونت اود واخبرته بالواقع كما أمرتِ وحرضته على مباغتة المسلمين حالاً وقائد فرسانهم غائب فاطاع ونادى رجاله وهجموا على المسلمين وهم في غفلة . وقد رأيتهم في قتل عظيم ولا اظنهم الا قد ذعروا وتقهقروا والغالب ان الافرنج قد استولوا على معسكرهم الآن . . »

وكان عدلان يتكلم وميمونة تراعي حركاته وكلما قال عبارة تبتسم له وتبدي ارتياحها وهو يتكلم بنشاط وسرور . فلما قال ذلك قالت هي « ثم كيف فعلت ببسطام هذا . . »

قال « اتيته وهو في المعسكر القديم وجعلت اني اخدمه خدمة تبرع واني فاعل ذلك من عند نفسي فاخبرته ان مريم خرجت من الخباء الى هذا المكان واني ساذهب به اليها فيبلغ منها ما يشاء على شرط ان يحافظ عليك فانك على غيرتي ودفع اليَّ هدية ثمينة وكنت اتوقع ان يلتقي هانئ به ويقتتلا فيقتل احدهما الآخر . فيكمل توفيقك وتتم رغائبنا بانقسام هذا الجند . فجاء هانئ بعد ذهابه الى الخباء ولم يجد مريم فيه فظن بسطاماً اختطفها فلما لقيه في الخيام تحاميا وهمّ هانئ ان يفتك به لو لم يجبن هذا و يدخل خيمته . فبعد ذهاب هانئ حرضت بسطاماً على الركوب سريعاً فركب وسرت في ركابه والتقينا في اثناء الطريق باخي هذا وكان قد جاء يستعجلنا فبدلت عباءته بعباءتي وغيرت قيافته وجئنا في ركاب بسطام كما رايتنا »

فقالت ميمونة « بورك فيك من خادم امين . . . واذا تحققت امنيتنا بفشل جند العرب

دعوتك بلقب آخر » قالت ذلك واشارت بحاجبيها

فاشرق وجهه وجعل ينظر اليها وقلبه يكاد يطفح سروراً لما شاهده من انسها وتلطفها

الفصل التاسع والعشرون

الخنجر

اما مريم فلما رأت ميمونة مسوقة الى تلك الحجرة وهي مقيدة الاطراف وسمعت تضرعها الى بسطام بشأنها اعتقدت حبها لها ولكنها كانت في شاغل من امر نفسها لانها لم تتوقع بعد ما رأته الا الفتك الذريع من بسطام وهو مع غلظه وخشونته كانت رائحة المسكر تفوح من فيه وقد احمرت عيناه واكمد لون وجهه وتمنطق بجلد عريض غرس فيه خنجراً ضخماً وضع يمينه على قبضته ويسراه على قبضة السيف فتصوّر لعيني مريم شيطاناً رجيماً . فاستعاذت بالله من تلك الوقعة وتضرعت اليه تعالى في باطن سرها ان ينجيها منه . على انها لم تتمالك عن الاضطراب الشديد من منظر ذلك الوحش الكاسر وكانت لا تزال متزملة بالعباءة الحمراء التي تعتقد انها عباءة هانئ فوق ردائها الاسود وعلى رأسها خمار اسود يغطي جبينها الى الحاجبين وقد تلثمت به من اسفل الذقن فبان وجهها من خلال ذلك مستديراً وقد تلألأت عيناها وزادها الانقباض هيبة . ومع كل ما شاهدته من اسباب الخوف لم تخر عزيمتها . ولعلها كانت عند اول ملاقاة بسطام هناك اكثر اضطراباً منها بعد ظهور تلك الفظاظة بتقييد ميمونة وحبسها وقد اصبحت تخي وهو فريدين في ذلك البيت الواسع

اما بسطام فلما اختلى بمريم على تلك الصورة دعاها الى الجلوس على كرسي هناك كأنه يريد ان يخاطبها بلطف على سبيل الاقناع . فجلست وجلس هو على كرسي آخر والتف بعباءته حتى غطت السيف والخنجر وهو يقول بلغة عربية مستعجمة مع نغمة البرابرة « لا تخافي يا مريم اني لا أريد بك سوءاً لاني احبك حباً شديداً جدّاً (وبالغ في تشديد الدال) وانت على ما يظهر قد غشك ذلك الغلام العربي .. فانخدعت باقواله ... على انك نصيبي وحدي من هذه الحرب ولو شئت ان امنعه منك لمنعته من اول ساعة ولكنني تلطفت بك ورفقت بمزاجك والآن قد وقعتِ بين يديّ ولا مناص لك مني فأطيعيني »

وكانت مريم تسمع كلامه واطرافها ترتعد من شدة التأثر وهي تفكر في نجيته

الفصل الحادي والثلاثون

هانئان

وفيما هو يستحث رجاله ويحرضهم على الصبر والثبات لاحت منه التفاتة الى يسار الجند فرأى من خلال الغبار والنبال فارساً على جواد ادهم عليه عباءة حمراء وعلى رأسه خوذة وقد أشرع سيفه واطلق لفرسه العنان فبذل الفرس اقصى ما عنده من العدو حتى اعتدل محتفه وتطاير عرفه وانتصب ذيله وامتدت قوائمه فاستطال بدنه وتناثر التراب من مواقع حوافره — ولولا ذلك التناثر ما علمت مواقعها — وتصاعد الغبار خلفه وهوى نحوه كأن الفرس سابح في الهواء وكأن الغبار يحاول اللحاق به فلا يدركه . والفارس ثابت على ظهره كأنه قطعة منه لا يبالي بالسهام المتطايرة ولا بالرجال الهاجمين . فلما رآه عبدالرحمن خفق قلبه سروراً لاعتقاده انه هانيء فساق جواده نحوه حتى اقترب منه وهو يتوقع ان يقف له ولكنه ظل هاجماً نحو الافرنج وهو يقول « اتاكم هانيء لا تفشلوا ... ولا تخافوا من غلمان الافرنج انهم غنيمتكم في هذا اليوم »

فلم يشك عبدالرحمن انه الامير هانيء نفسه واراد بعضهم ان يستقدمه الى عبدالرحمن فلم يصغ اليه وساق جواده الى معسكر الافرنج من جهة لم يكن الافرنج يظنون العرب يأتونهم منها . فاشتدت عزائم العرب وخصوصاً الفرسان وساروا في اثره كأنهم الاسود الكاسرة . فبغت الافرنج وارادوا ان يحولوا قوتهم الى الجهة التي هاجمهم منها ذلك الفارس واذا بفارس آخر بعباءة حمراء وخوذة على جواد ادهم ايضاً وقد استل حسامه وهجم على الافرنج من جانب آخر وهو يقول « جاءكم الامير هانيء » فتبعه من بقي من الفرسان فانقسم الافرنج شطرين لملاقاة الفرقتين فتضعضعوا وازداد المسلمون ثباتاً وشجاعة ولم يمس المساء حتى فرّ الافرنج عن بكرة ابيهم واصبح معسكرهم غنيمة للمسلمين . فاستولى المسلمون على ما هنالك من الخيام والاسلحة والاطعمة والذخائر . وكان الامير عبد الرحمن قد شاهد هجوم الامير الآخر من الناحية الاخرى وهو يشبه الامير هانئاً لان كليهما بلباس متشابه وعلى فرسين متشابهين

. فلما فرّ الافرنج كانت الشمس قد غابت واكفهر وجه السماء وعاد عبد الرحمن الى

خيمته حيث يتوقع ان يلاقي الامراء وهانيء في جملتهم ليعهد اليه امر الغنائم على جاري العادة

وبعد قليل جاء احد الفارسين صاحبي الادهمين فاذا هو هانيء نفسه فرحب به فابتدره هانيء قائلاً « لقد غدرنا هؤلاء الافرنج وتوسموا بالغدر خيراً وقد دمرهم الله . ولو علمت بعزمهم على الهجوم ما فارقت المعسكر لحظة »

فقال عبد الرحمن وهو يتحوّل عن جواده ويتشاغل باصلاح ركابه « لقد شغلت خاطرنا على غيابك فنحمد الله على رجوعك » ثم التفت اليه بلهفة وقال « ومن هو ذلك الفارس الذي تقدمك واكتنى باسمك »

فقال « لم يكن معي احدٌ »

قال « اما رأيت فارساً على ادهم مثل ادهمك وبعباءة مثل عباءتك؟ قد رأيته بعيني في وسط المعركة قبل وصولك وسمعته يتسمّى باسمك »

قال ذلك ونظر الى بعض الرجال حوله وقال « اين ذلك الفارس على الجواد الادهم ؟ »

اجاب احدهم « رأيناه هاجماً وقد اوغل في الصفوف ثم توارى وربما جاء بعد قليل »

فصاح عبد الرحمن « اذهبوا في اثره واستقدموه » وتحوّل عبد الرحمن وهانيء الى الخيمة وجاء في اثرهما بعض الامراء وجلسوا يتحادثون في امر ذلك اليوم العجيب وما كان يهددهم من الخطر وكلهم يذكرون هانئاً الآخر ويعجبون — على انهم اشتغلوا عن ذلك بعد قليل بتدبير امر الغنائم والاسرى ولم يكن في معسكر الافرنج سبي لانهم لا يحملون معهم نساءهم واولادهم . اما الرجال فانهم اركنوا الى الفرار وفي مقدمتهم الكونت اودصاحب اكيتانيا ورجال حاشيته

فتباحث الامراء في امر الغنائم من الاسلحة والخيام والفرش وغير ذلك ووكلوا الى كتّاب الجيش النظر في تقسيمها وحفظ حق بيت المال على جاري العادة . ولم تكن الغنائم في هذه الواقعة كثيرة فاقتسموها على عجل . وقضوا تلك الجلسة وكلٌّ منهم يفكر في امر ذلك الفارس ثم تفرقوا الى خيامهم الا هانئاً فانه بقي عند عبد الرحمن ليخبره عن سبب تغيبه . فلما خلوا سأله عبد الرحمن بلطف فقصّ عليه حديثه باختصار ولم يكتمه شيئاً بعد ما آنسه من مجاراته له في امر مريم . فلما بلغ الى حديث بسطام وما كان من حاله في مستودع الغنائم هزّ عبد الرحمن رأسه وقال « انا لله وانا اليه راجعون . ان امر هؤلاء

البرابرة ليخوفني واخشى من عواقب استبدادهم اذا نحن بالغنا في استرضائهم — واخشى من الجهة الاخرى اذا جافيناهم ان يفسدوا علينا سعينا . »

وكان هانىء، لما ذكر الجواد الادهم الذي أُخذت مريم به تذكر ما قالته القهرمانة عن العباءة الحمراء والخوذة اللتين تشبهان عباءته وخوذته فتبادر الى ذهنه علاقة بين ذلك الجواد وهذا الفارس

وبينما هما في ذلك عاد الذين ذهبوا للتفتيش عن هانىء الآخر وقالوا انهم بحثوا عنه في المعسكرين فلم يقفوا له على اثر . فعاد هانىء الى هواجسه وهو قلق الخاطر على مريم ولم يفهم تلك الاسرار وخاف ان يكون قد اصابها سوء او لعلها في ضيق او تكون قد فرّت من معسكر العرب بتلك الحيلة — اما عبد الرحمن فلما سمع ما قصه عليه هانىء من امر مريم وخروجها تذكر والدتها والمهمة التي ذهبت بها فجرّه سوء ظنه (والعاقل سيء الظن) الى اتهام سالمة في الامر وانها انما تظاهرت بما تظاهرت به احتيالاً للفرار من الاسر . ثم راجع ما حفظه من حديثها وما كان يبدو في وجهها من امارات الجد فغلب عليه اعتقاد صدقها

الفصل الثاني والثلاثون

هانىء الآخر

ولبثا برهة صامتين لا يتكلمان وكل منهما في هاجس يتنازعهما التفكير في مريم وفي ذلك الفارس . وانهما لكذلك اذ سمعا وقع حوافر مسرعة نحو الخيمة فاصغيا واذا بغلام دخل مسرعاً وهو يقول « ان فارسين بالباب يلتمسان الدخول » فقال عبد الرحمن « ليدخلا » فخرج الغلام ثم عاد وفي اثره رجل عليه خوذة وعباءة حمراء فحالما وقع نظرهما عليه علما انه الفارس الذي سمى نفسه هانئاً . فلما رآه هانىء وقف واقبل نحوه وتفرس في وجهه فرآه قد تلثم تحت الخوذة بلثام اسود ورأى من خلال العباءة ثوباً اسود فصاح فيه « يا هلا بالفارس الذي يسمي نفسه هانئاً » قال ذلك وتقدم نحوه وهو يتوقع جوابه . فظل الفارس ساكتاً ينظر من خلال اللثام . فابتدره الامير عبد الرحمن قائلاً « انك ذو فضل على هذا الجند ... بالله ألا رفعت لثامك وعرفتنا بنفسك .. »

فرفع الفارس يده الى الخوذة فنزعها فبان من تحتها خمار اسود وألقى العباءة عن

كتفيه فبان من تحتها ثوب اسود فعرف هانئ لحال انه ثوب مريم فلم يتمالك ان صاح «مريم! مريم!»

فمد الفارس يده الى الخمار فازاحه فبان من تحته وجه فتاة يتدفق حياة وجمالاً وقد زاده التلثم دفئاً فتورد وابرقت العينان. ولا تسل عن هانئ لما علم بما اتته مريم من البسالة التي تندر في النساء. فقال وهو لا يستطيع امساك نفسه «مريم؟ اهذه النعال فعالك يا حبيبة .. عهدناك ربة الجمال واللطف ولم يخطر لنا انك ايضاً ربة الجواد والسيف... حبيبتي ما الذي جرى؟ اين كنت؟ ما هذا.؟ ماذا أرى..»

قالت «انك ترى مريم واقفة بين يديك ويدي الامير عبد الرحمن ولم آت امراً يستحق هذا الاطناب واذا كنت قد فعلت شيئاً فما هو الا لاني تسميت باسم الامير هانئ.. فالامير هانئ هو الذي فعل ذلك..» قالت ذلك بلغتها المعهودة وقد تجلى في محياها شيء هو غير البسالة والانفة — تجلت في وجهها ملامح الحب فذهبت بكل ما كان هناك من امارات الشجاعة والرجولية. ثم انتبهت لنفسها وانها قالت ذلك بين يدي الامير عبد الرحمن فغلب عليها الحياء فاطرقت فابتدرها عبد الرحمن قائلاً «بورك فيك وبورك بالامير هانئ. انكما متكافئان ولولا كما لاصاب هذا الجيش ضيق لا ندري مايكون من عواقبه.. تفضلي يا بنية اجلسي وقصي علينا خبرك وما الذي دعاك الى اقتحام هذا الخطر العظيم. فقد سمعت من اخي هانئ انك خرجت من الخباء في هذا الصباح بخديعة وذهب هو من الصباح للتفتيش عنك ولم يعد الا بعد عودتك — عاد وهو قانط من العثور عليك. فما هو خبرك؟»

. قالت «ارجو قبل الشروع بالحديث ان تأمر باستقدام رفيقتي وصديقتي التي تحملت العذاب من اجلي.. ميمونة. فانها خارج هذا الفسطاط» واشارت باصبعها الى الخارج

وكان الاميران قد علما بضياعهما معاً فلم يستغربا كلامها فصفق عبد الرحمن فدخل الغلام فأمره ان يدخل المرأة الواقفة خارجاً وبعد هنيهة دخلت ميمونة وهي تتظاهر بالحياء والدعة. فأشار اليها عبد الرحمن ان تقعد على طنفسة في بعض جوانب الفسطاط وهو يبتسم لها اعترافاً بحسن صنيعها ثم حوّل وجهه الى مريم لاستماع حديثها. وكان هانئ لا يزال واقفاً فأشار اليه عبد الرحمن ان يقعد بجانبه فقعد واصاخ الاميران باذنيهما لسماع القصة

فبدأت مريم بالحديث منذ جاءها الرسول يلتمس ذهابها الى الامير هانئ وكيف ان

ميمونة عرضت نفسها لخدمتها وكيف آنستها واعانتها حتى وصلت الى دخولها القصر المهجور وما كان من مجيء بسطام وما ابداه من الوقاحة وكيف عرضت ميمونة بنفسها للخطر دفاعاً عن مريم . فلما ذكرت مريم ذلك تحولت الانظار الى ميمونة فتظاهرت بالحياء والاطراق . اما هانيء فاحس منذ سمع اسم بسطام بارتعاد من شدة الغيرة والتفت الى الامير عبد الرحمن وهمس في اذنه قائلاً « يا ليتني قتلته في هذا الصباح . . »

اما مريم فانها استمرت في حديثها فقالت « فلما رأى بسطام مدافعة هذه الصديقة عني امر رجاله فقبضوا عليها واوثقوها وساقوها الى بعض الغرف وهي تصيح وتستغيث فلما يئست من نجاتها تقدمت الى ذلك الوحش الكاسر ان يرفق بي . اني لا انسى تلك الاستغاثة — وان كان بسطام لم يعبأ بها فانه لما خلا بي في ذلك القصر المهجور حدثته نفسه بامور كثيرة وطال الجدال بيني وبينه وفيما نحن في ذلك جاء بعض فرسان هذا الجند للبحث عن الامير هانيء هناك فعلمت منهم ان الافرنج هاجموكم وهانيء غائب وان العرب في تضعضع بسبب ذلك . فأصبحت في قلق لاسباب لاتجهلونها . اما بسطام فانه لم يبال بضياع جند العرب كله ولما سمع توبيخي له على ذلك التفريط وعرض بذكر الامير (واشارت الى هانيء) واتهمه بالجبن وانه فرّ من المعركة خوفاً من الموت . لاني قلت له « ألا تزال تزعم ان هانئاً غلام لا شأن له وقد رأينا الجند لايستطيعون عملاً بدونه ولم نسمعهم ذكروا بسطاماً ولا سواه » (فلما سمع هانيء ذلك الاطناب حوّل نظره عن مريم حياء)

أما مريم فاتمت حديثها قائلة « نوقع كلامي على بسطام وقوع الصاعقة ولم يتمالك ان هجم عليّ ويده على قبضة سيفه يهمّ ان يجرده ليضربني به فصحت فيه « اخسأ يا انذل الرجال ان مثلك لا يليق ان يسمى اميراً فبدلاً من ان تجرد حسامك على فتاة اذهب لنجدة اخوانك وقد علمت ما هم فيه من الضنك وجرده على اعدائك . ولو كان هانيء في مكانك ما فعل مثل فعلك »

فلم يزده هذا الكلام الا حنقاً وكنت اظنه يخجل من نفسه ويرتدع عن غيه فقال ويده لا تزال على قبضة السيف « لو كان هانيء رجلاً ما تخلف عن ميدان الحرب في مثل هذا اليوم ولكنه جبان » ولم يتم كلامه حتى جرد سيفه وهمّ بانطلاقه عليّ فلما رأيت ذلك منه وتبينت الغدر في عينيه تناسيت ضعف النساء وشددت عزيمتي وعولت على الفتك به التماساً للسرعة في الخروج من بين يديه لانظر في امر هذا الجند لان فشله يهمني كثيراً كما تعلمون . ثم امسكت نفسي وعدت الى الملاطفة فقلت له « لا تخوفني بسيفك ولا يغرنك اني فتاة فاني لا اخاف السيوف فارجع عن عزمك واتركني وشأني وذلك خير لك » وقبضت

على زنده وهززته فاكبر ان يدفعني نحوي فانتثر من يدي وكان قد انزل السيف فعاد وشهره واوهم انه مطلقه على عنقي فتراجعت لاخلو من الضربة فظنني خفت فتبعني وسيفه يكاد يقع على رأسي فاعترف لكم اني لم اعد استطيع صبراً على ذلك فصحت فيه « نصحتك فاقبل نصيحتي يا بسطام . . » قلت ذلك وهو يحاول ان يقبض على ثوبي ليتمكن من ضربي لانه كان يتوقع فراري . فبدلاً من الفرار هجمت اليه وامكست يمناه بيسراي ومددت يمناي الى منطقته واستللت خنجره وغمدته في صدره وقلت له « ابيت الا ان تموت قتيلاً وان تدنس يدي بدمك » فغاص الخنجر الى قبضته وخرَّ على الارض وسقط السيف من يده فالتقطت السيف ولم انظر الى وجهه لاني قتلته مكرهة واسرعت الى الأدهم فركبته والتففت بالعباءة وجعلت الخوذة على رأسي وهمزت الجواد نحو المعركة لأوهم الناس اني الامير هاني، تشجيعاً لفرسانه فاذا ترتب على عملي هذا نجاح فانما الفضل لذلك الاسم المبارك »



الفصل الثالث والثلاثون

الاخلاص

فلما ذكرت مريم قتل بسطام صاح الامير عبد الرحمن « قتلتِ بسطاماً ؟ »

قالت « نعم قتلته وقد قصصت عليك السبب الذي دعاني الى قتله فاما ان تعذرني فيه او تقتلني به فاني بين يديك »

فتصدى هاني للجواب قائلاً « ان قتله مقدَّر منذ ايام ولو لم تقتليه انت لقتلته انا واذا رأى الامير ان ينتقم له فلينتقم مني »

فقال الامير عبد الرحمن « لا اريد الانتقام له ولكنني اخاف ان يترتب على مقتله تشويش في الجند لما تعلمون من . . . » ثم انتبه لوجود ميمونة هناك فتوقف عن اتمام الحديث وحوَّل الموضوع فقال « سنعود الى البحث في ذلك والآن اخبرنا عن سبب تأخرك عن القدوم الى الآن مع ان المعركة انقضت منذ بضع ساعات »

فلما سمعت مريم سؤال عبد الرحمن اشارت بيدها الى ميمونة وقالت « قد كنتُ في شاغل من أمر هذه الصديقة لاني تركتها أسيرة في ذلك القصر المهجور واسرعتُ لما قدمته من أمر الحرب. فلما فرغتُ من ذلك واطمأن بالي على الجند تذكرت ما هي فيه من الضيق بسببي فلم أتمالك عن الذهاب لانقاذها. فاسرعت الى القصر قبل المجيء الى هذا المعسكر فوجدتها لا تزال مغلولة وقد غادرها الحارسان فحللت قيودها وجئت بها على جواد كان لا يزال هناك. ولو لم استطع انقاذها لتنغص عيشي لانها انما أسرت وأهينت بسببي — فلما رجعتُ كان الليل قد أظلم فاهتديت الى معسكركم بنيرانه وعرفت خيمة الامير من العلم الذي ببابها فجئت كما ترون »

وكانت مريم تتكلم والحمية تتدفق من محياها والصدق يتجلى في كل لفظ من ألفاظها فازداد عبد الرحمن اعجاباً بها والامير هانئ هياماً بحبها ولم يتمالك هانئ ان صاح « بورك ببطن حملك ووالله لانت بشير خير ورسول سعادة لهذا الجند ... »

فوقفت ميمونة عند ذلك وهي تتظاهر بالامتنان واللطف والحياء وقالت « لا غرو اذا أعجب بها الامير وهو في أبان الشباب فقد عشقها النساء قبله واعترف اني لم تقع عيني في هذه البلاد ولا في غيرها على فتاة جمعت ما جمعته هذه الحبيبة من لطف النساء وبسالة الرجال وأنفة الامراء وحنو الامهات غير ما في خصالها من صدق اللهجة وعفة النفس فهي جديرة برضاء الاميرين. واما انا فقد كنت أعدها صديقتي فبعد ما غمرتني به من الجميل أصبحت وأنا أنظر اليها نظري الى من هو فوق مرتبتي ... »

وكانت مريم في أثناء ذلك مطرقة تكاد تذوب خجلاً وقد كلل العرق جبينها حتى تقطر فوق خدين توردا من شدة الحياء ولم تر جواباً لذلك التجمل غير السكوت والاطراق

وادرك عبد الرحمن ذلك فيها فأشفق على عواطفها فعمد الى تغيير الحديث فقال « أرى مريم أهلاً لاكثر من ذلك واما الآن فقد آن لها ان تستريح بعد هذا العناء » ثم صفق فدخل الغلام فقال له « اعدد لهاتين السيدتين خيمة تنامان فيها واحضر لهما كل ما تحتاجان اليه من لوازم الراحة ... وخذ الفرسين الى الاسطبل ... »

فاشار اشارة الطاعة وخرج وخرجت مريم وميمونة في أثره وهانئ يراعي مريم في أثناء خروجها وقد تضاعف هيامه بها وتذكر ما عاهدها عليه من أمر الاقتران بعد ان يقطعوا نهر لوار. فلما تذكر ذلك هان عليه ان يقتحم جند الافرنج وحده اذا حالوا بينه

وبين ذلك النهر . فلما خرجت المرأتان وبقي الاميران على انفراد لاحظ عبد الرحمن ما بدا في وجه هانئ من دلائل الهيام فسره تعلقه بمريم وغلب على ما ربما خطر في باله من الاستئثار بها دونه لما آنسه من المشابهة بين الحبيبين بسالةً وحماسة وأنفة مع ما بينهما من المحبة المتبادلة — على أنه ما لبث أن غلب على فكره امر ذو علاقة كبرى بسلامة ذلك الجند والاحتفاظ باتحاده على أثر ما سمعه تلك الليلة من مقتل الامير بسطام . واصبح لا يشك اذا بلغ مقتله الى رجاله ان يثوروا ويطالبوا بدمه فاذا علموا ان مريم قاتلته ربما أساؤها فيستاء هانئ وتكون البلية الثانية شرًا من الاولى — فلبث الامير عبد الرحمن هنيهة وهو مطرق واصابعه في خلال لحيته وقد استغرق في التفكير حتى غلب عليه الجمود وقد قبض على لحيته بأنامله والشعر فيما بينها — وكان هانئ مطرقاً مثل اطراقه ولم ينتقل فكره من مريم الا الى ما قد يحول بينه وبينها من جنود الافرنج وحصونهم

الفصل الرابع والثلاثون

حيلة جديدة

وانتبه عبد الرحمن بغتة ونظر الى هانئ فلما رآه مطرقاً ادرك انه يفكر في أمر غير الذي يفكر هو فيه فعذره في مريم بعد ما رآه منها ولكنه خاطبه بلطف وايناس وقال له « بورك لك بهذه الفتاة فانك والله جدير بها ولكنني لا ازال أتوقع منك رأياً لا يتم لنا امر بدونه »

فلما سمع هانئ كلامه عاد الى رشده وفاته لاول وهلة ادراك مراد عبد الرحمن فقال « وأي أمر تعني أيها الامير »

قال « اعني بسطاماً وقتله . لا أنكر عليك انه نال ما يستحقه ولكنك لا تجهل حاجتنا الى بقائه اذا لم يكن للاستعانة بسيفه فلحفظ قبيله على ولائنا . وانت تعلم شأن اولئك البرابرة معنا وخصوصاً رجال بسطام فانهم انما أنجدونا طمعاً بالغنائم ولم يذعنوا لاوامرنا الا وفي نفوسهم ضغائن علينا لاعتقادهم ان العرب ظالموهم ومستأثرون بالسلطة والاموال دونهم . فاذا علموا بمقتل أميرهم اخاف ان يحدث منهم ما يفسد امرنا ويفرق كلمتنا ونحن في أشد الحاجة الى الاجماع فما رأيك . . . »

فابتدره هانئ بالجواب كأنه اشتغل في تحقيقه وتحريره منذ ايام وقال «ليس اهون عليّ من ارضاء أولئك البرابرة ... فقد قلت انهم لم يرافقونا في هذه الحرب نصرة للاسلام وانما ارادوا كسب الاموال واقول لك انهم لم يطيعوا بسطاماً الا لنيل هذه الغاية لانه واسطة بيننا وبينهم فاذا تحققوا بقاء ذلك الكسب ظلوا على الطاعة — وزد على ذلك انا نوهمهم بأن ذهابه دعا الى زيادة اسهمهم من الغنائم لانه كان كثير الطمع لنفسه ثم نمنح أولئك الامراء هدايا خصوصية ونطلب اليهم ان يختاروا رئيساً منهم بدل بسطام — واذا عهدت اليّ تدبير ذلك فعلته وانا ضامن السلامة باذن الله فان من كانت مطامعه الاموال لا يصعب ارضاؤهُ بها ..»

فاعجب عبد الرحمن بسداد ذلك الرأي وعهد اليه تدبير الامر بحكمته وفوّض اليه اجراء ما يراه ولم يكن ذلك صعباً عليه

وفي صباح اليوم التالي تفاوض الامراء في امر الاخبية فاجمعوا على حملها الى هناك فبعثوا جنداً لنقل المضارب وخيم الغنائم التي كانت باقية في المعسكر القديم وأتم هانئ مهمته على نحو ما قال ومكثوا هناك يتأهبون للشخوص نحو نهر لوار بعد رجوع سالمة من مهمتها ليعلموا كيف يتصرفون . لان عبد الرحمن كان يتوقع فوائد كبرى من مساعي سالمة لعلمه ان اتحاد جنده لا يمكث طويلاً لاختلاف عناصره وتضارب مقاصد امرائه فاذا لم يتخذ وسائل أخرى يخاف العاقبة فضلاً عما يترتب على مشروع سالمة من حجب الدماء وسهولة الفتح

اما ميمونة فقد علمت ما كان من خيانتها وما دبرته لفشل جند المسلمين وكيف انها لم تنجح لاسباب تقدم بيانها . ولكنها كانت بدهائها ومكرها قد حفظت خط الرجوع فاظهرت انها اسيرة بسبب مريم وقد سرها مقتل بسطام لانه مطلع على بعض سرّها وفي مقتله أمان من افشائه . فلما خرجت مريم على الادهم في ذلك اليوم ارسلت ميمونة احد الرجلين في أثرها فلما عاد من المعركة وانبأها بانذحار جند الافرنج امرت الرجلين بالفرار وظلت هي باغلالها هناك على أمل ان تبعث مريم من يستجلبها ولم يخطر لها ان تأتي هي بنفسها . فلما جاءتها مريم وجدتها وحيدة فحلت قيودها وسارت بها الى معسكر العرب كما تقدم

وقد رأت مبالغة ميمونة بامتداح شهامة مريم لانها رأت الاميرين معجبين بها فارادت مجاراتهما تمويهاً لما قد يظنان بشأنها وهما في الواقع لم يخطر لهما شيء من

سؤ الظن بها من هذا القبيل . اما هي فقد كتمت ما في نفسها وعزمت على اتخاذ وسيلة نافذة كانت قد ادخرتها في ذهنها لحين الاضطرار فلما ذهبت مع مريم الى الخيمة تلك الليلة ظلت على اظهار اعجابها بها والمبالغة بما شاهدته من سجاياها حتى اذا خلت بنفسها لبثت تنتظر مجيء عدلان الاحول لتفاوضه في الحيلة التي دبرتها وهي لا تشك في نجاحها

الفصل الخامس والثلاثون

سالمة يوردو

فلندعهم يدبرون وينتظرون ولنعد الى سالمة وبهمتها فقد طال بنا السكوت عنها . — تركناها وقد ركبت من خباء المسلمين تلتمس بوردو وحسان العجوز في ركابها فلما بعدا عن الخباء واطلا على بوردو التفتت سالمة الى حسان وقالت . « هل كان يخطر لك ياحسان ان نتوفق الى مثل الامير عبد الرحمن بعد طول انتظارنا عملاً بالوصية ؟ »

فقال « لا والله يا مولاتي — وقد اذكرتني الوصية فهل أنتِ محتفظة بتلك الحفظة فقد رأيتها بين يديك وكان عهدي الكثر تخفينها في مكان لا يراها فيه أحد ... »

قالت « صدقت يا عماه انها كانت في يدي في اثناء خروجنا في الاسر لاني كنت اخرجتها من مخبئها ساعة يئست من الحياة وحسبت هؤلاء العرب يقتلونني فهممت قبل ان تفيض روحي ان اضم هذه الوصية الي واتمم ربح صاحبها منها ثم اعهد اليك او الى سواك ان يوصلها الى صاحب هذا الجند — اما الآن نكن في راحة لاني تأبطتها تحت اثوابي ... وما قولك في مريم وهي وحدها في خباء العرب ؟ . »

قال « لا بأس عليها يا مولاتي والعرب كثيرو العناية في نزلائهم وخصوصاً من كان منهم في ضيافة الامير الكبير . وقد لحظتُ من اهل ذلك الخباء احتفاء كثيراً بمريم فالنساء احببنها واحتفلن بها وخصوصاً ميمونة فقد سمعتُ من اهله بان الصقالبة الذين يخدمونهن انها تعشقت مريم وبذلت كل ما في وسعها لراحتها .. » وكان حسان يتكلم وهو يعدو عدواً خفيفاً بجانب ركاب سالمة وهي تسمع كلامه ممتزجاً بشخير الفرس وقعقعة حوافره فلما قال ذلك امسكت بلجام الفرس لسيريها الهوينا والتفتت الى حسان وقالت « لا اخفي

عنك يا حسان اني اخاف على مريم من هذه المراة اكثر من سائر اهل هذا الجند نساء ورجالاً ٠٠٠»

فبغت الرجل وكان يتكلم وهو يتفرس في الارض ليتقي الحجارة والاشواك فلما سمع قولها رفع بصره اليها وقال «وما هو سبب خوفك يا مولاتي»

قالت لاني شاهدتُ هذه التي تسمي نفسها ميمونة فاذا هي داهية دهياء واظنني عرفتها واخاف ان تكون قد عرفتني ولذلك فحالما تقابلنا لم اطل الكلام معها ولا اشك ان بقاءها في هذا المعسكر خطرٌ فحالما افرغ من مهمتي هذه في بوردو وما وراءها ساعود الى الامير واطلعه على حقيقة هذه المراة لئلا تخدعهم وتفضح شؤونهم لانها ذات شان عند الافرنج ويهمها ان يكون النصر لمولاه واستغرب ان تكون في خباء الامير عبد الرحمن وعهدي بها في غير هذه البلاد ٠٠ وسنرى في شأنها عند رجوعنا ٠٠»

فلما سمع حسان قولها مال بكليته الى استطلاع الحقيقة ولكنه لم يجرأ على السؤال عن اسمها فقال «وهل اعرفها انا»

قالت «لا شك في ذلك ٠٠ دعنا من هذا الآن»

فسكت حسان وكانا قد اشرفا على اسوار بوردو فرايا الناس خارج السور زرافات ووحداناً وقد خرجوا لافتداء اسراهم وكلهم فرحون بما اوتوه من الرفق واكثر الناس غيظاً من ذلك الرفق اليهود وخصوصاً الذين كانوا قد ابتاعوا الاسرى وهموا بحملهم للاتجار بهم فلما جاءهم امر الامير بالتخلي عنهم غضبوا واستغربوا ذلك وارادوا الامتناع من التسليم ثم اذعنوا ٠ فلما رات ميمونة تزاحم الناس هنالك تحولت الى باب من ابواب المدينة بعيد عن ذلك الازدحام وسارت تواً الى اسقف بوردو فترجلت بباب القلاية وتركت حساناً عند الفرس ودخلت تلتمس الاسقف فرأت اهل ذلك المكان من القسوس والرهبان وغيرهم في حركة وقد تجلت في وجوههم امارات السرور لما جاءهم به هانئ في مساء الامس من آنية الكنيسة مع الامر بافتداء الاسرى ٠ وكان اكثر القسوس يعرفونها فرحبوا بها وبشروها بما كان من هنأتهم وطلبت اليهم ان يستأذنوا لها الاسقف بمقابلة خصوصية فالتمسوا لها الاذن فلما دخلت عليه تلقاها بترحاب واحترام مع انه لم يكن يعرف حقيقة امرها ولكنه كان يحترمها لتعقلها وسداد رايها

فلما دخلت قبلت يده فباركها وجلست الى جانبه فاستخبرها فقصت عليه مختصر ما جرى لها حتى انتهت الى امر الاسرى فاكدت له ان العرب اكثر الامم رفقاً برعاياهم

واسراهم وانهم انما امتد سلطانهم في الشرق والغرب لما آنسه اهل البلاد على اختلاف نحلهم من حرية الدين والعمل على غير المألوف عند امم الافرنج في ذلك العصر . وان ما اصاب كنيسة بوردو من النهب انما وقع سهواً من بعض ذوي المطامع من توابع جند المسلمين غير العرب

فلما سمع الاسقف كلامها تذكر انه كثيراً ما كان يسمع منها اطراء العرب من قبل ولم يكن يصدق حتى سمع وكان يظنها تقول ذلك عن هوس مثل هوسها بتعلم ابنتها اللسان العربي وهي مقيمة ببلاد الافرنج مع كونها غير عربية — فلما سمع اقوالها بعد ما شاهده من الرفق اعتقد صدقها فجاراها في الاطراء فاغتنمت تلك الفرصة وتقدمت الى الحديث المقصود فقالت « لا انسى ياسيادة الاسقف ما كنت ألقاه من نفورك اذا امتدحت العرب بين يديك حتى شاهدت ذلك بنفسك عن بعد ولو اتيح لك معاملتهم ومعاشرتهم لزدت ارتياحاً لهم ولذلك فاني استغرب محاربة اهل هذه البلاد لهم والوقوف في سبيلهم »

فقال الاسقف « صدقت يا ابنتي اننا كثيراً ما سمعنا بعدلهم غير اننا رأينا من بعضهم ما تشيب لهوله الاطفال من القسوة حتى كاد يثبت عندنا ما كنا نسمعه من انهم يعبدون الاوثان ولا يعرفون عبادة الله . . . »(١)

الفصل السادس والثلاثون

رأي الافرنج في المسلمين

فابتسمت سالمة ابتسام الاستغراب وقالت « يعبدون الاوثان ؟ . . ان ذلك من الاراجيف التي يشيعها اعداؤهم فانهم يعبدون الاله الواحد ويحترمون الديانة النصرانية احتراماً كبيراً و يكرمون السيد المسيح كثيراً . ولا يعقل ان تنسب اليهم الوثنية ونبيهم انما قام لابادة الاصنام التي كان العرب قبله يعبدونها فكسرها ومحا الصور التي كانت في معبد الوثنية في مكة وبغّض الوثنية الى اتباعه حتى حرّم عليهم التصوير ونحت التماثيل . فما يبلغكم من هذا القبيل انما هو حديث موضوع لغرض من الاغراض — لا انكر عليك ما قد يبديه بعضهم من سوء التصرف او الطمع او نحو ذلك فهذا لا يصح القياس عليه كما لا يصح

(١) رينو

ان نقيس كل اعمال الاساقفة بعمل واحد منهم شذّ عن المنهج القويم · وزد على ذلك ان العرب مهما يكن من امرهم فهم ارفق باهل هذه البلاد من هؤلاء الافرنج الذين جاؤا بقبائلهم واستبدوا فيهم واستعبدوا الناس واستخدموهم في ادنى الاعمال ولم يقلدوا واحداً من اهل البلاد وظيفة من وظائفها · فهم القابضون على ازمة الحكومة وهم المستدرون لخيرات البلاد وما الغاليون الاّ مثل العبيد او الاقنان الذين يشتغلون في الحقول — هل رأيت غالياً تقلد منصباً كبيراً اوهل رأى الغاليون راحة منذ وطئ هؤلاء الافرنج بلادهم ؟ — اما العرب فاذا فتحوا بلداً اطلقوا حرية الاديان والمذاهب والمعاملات حتى الحكومة والقضاء فانهم يتركونهما لاهله و يقتصرون هم على قيادة الجند وحماية الاهالي من الاعداء لا يلتمسون اجرًا على ذلك الاّ مالاً يسمونه الجزية لا يساوي بعض ما يقتضيه اولئك الافرنج من الضرائب الفادحة · ناهيك بالحرية التي يتمتع بها الاهلون تحت عنايتهم · وسيادتكم تعلمون حال اهل هذه البلاد مع الافرنج الفاتحين فانها اصعب مما كانت تحت سلطان الرومان قبلهم — أليس معظم الناس هنا عبيداً لحكامهم يتصرّفون فيهم تصرّف المالك بعقاره ؟ نعم ان العرب عندهم العبيد والموالي ولكنهم ارفق حالاً بهم من اولئك · فان الرقّ عند المسلمين غير مستحسن وكأن الاسلام قام يدعو الى ابطاله[1] ولو لم يرَ نصارى الشرق والغرب ما رأوهُ من الرفق والعدل تحت ظل المسلمين ماانضاموا على الروم والفرس — وقد اطلتُ عليك الشرح وانما غرضي ان نسعى في حجب الدماء فهل تساعدني على ذلك ؟ ان المسلمين فاتحون هذه البلاد لا محالة فبدلاً من ان يفتحوها عنوة و يسفكوا فيها الدماء و يهدموا المنازل والقصور فليكن فتحها صلحاً و يسلم لكل واحد ماله وعرضه . . . والسعي في هذا السبيل من واجبات سيادتكم اكثر مما هو من واجبات امثالي . . »

وكانت سالمة تتكلم وامارات الجد والاهتمام ظاهرة في كل كلمة وكل حركة

وكان الاسقف يسمع اقوالها و يعجب بسعة علمها عن العرب كأنها عاشرتهم وساكنتهم زمناً طويلاً وكأنها اطلعت على علومهم وآدابهم ومع كل ما في اقوالها من المخالفة للاعتقاد الذي كان متسلطاً على عقول اهل تلك البلاد يومئذٍ فانه احسّ بالاقتناع بقولها ونبه ضميره الى واجب عليه يقضي بالسعي في حجب الدماء على نحو ما سمعه من سالمة فقال لها « جزاكِ الله خيرًا يا ابنتي على سعيك في مصلحة شعب الله ونطلب اليه تعالى وتتضرّع الى السيد

(١) تبرئة الاسلام

المسيح ان يقدم مافيه الخير . . »

فلما آنست منه اقتناعاً عمدت الى اتمام الغرض بلباقة وحسن سياسة فقالت « لا اريد من سيادة الاسقف ان يكلف إخوتنا المسيحيين تسليم البلاد الى هؤلاء المسلمين عفواً ولا ان يساعدوهم على اخذها بالسيف وانما أرى ان يتركوا الامر لمن غلب بغير ان يساعدوا احد الفريقين على الآخر . فاذا غلب الافرنج فهم اصحاب السيادة والبلاد في ايديهم واذا غلب العرب فلا يضرنا غلبهم بل هم خير لنا من اولئك »

فارتاح الاسقف الى قولها وكان روماني الاصل ورأى من الافرنج استبداداً في دائرة نفوذه حتى كادت السلطة تخرج من يده فقال لها « اود ان يعلم اخوتي الاساقفة بهذه النصيحة في البلاد الاخرى ولكنني اخاف ان يطلع الحكام الافرنج على ذلك فيعود الامر وبالاً علينا »

قالت « عليَّ ابلاغ ذلك الى من شئت وانما اطلب منك كتاباً تصحبني به الى اسقف بواتيه لا تذكر فيه شيئاً غير التعريف البسيط واني من ابنائك المخلصين فاذا انا لقيت الاسقف اطلعته على ما اراه من هذا الموضوع . واتقدم الى مولاي ان يبث هذه الروح في رجال بطانته على ما يراه ولا اظن واحداً من اهل بوردو لا يشهد هذه الشهادة في العرب وقد اعادوا اليهم اسرارهم وآنية كنيستهم »

قال الاسقف « صدقت يا ابنتي لا يجوز لنا انكار هذا الجميل . . »

قالت فاتقدم اليك اذا لقيت حكام البلاد ان تبث هذه الروح فيهم فربما طلب اليه الكونت اود نجدة لمساعدته في قطع الطريق على العرب لاني علمت ان الكونت المذكور معسكر في مضيق دردون . وعلى كل حال فقد تركت تدبير هذا الامر اليك واني مسافرة الى بواتيه في هذه الساعة فهل تأذن لي في كتاب الى اسقفها ؟ ».

قال « نعم » ونهض فكتب على منديل من حرير سطرين للغرض المقصود فتناولت الكتاب وقبلت يده فباركها . وقبل خروجها تذكرت المسافة بين بوردو و بواتيه وهي نحو مئة ميل لا يستطاع اجتيازها في اقل من ثلاثة ايام او اربعة وحسان لا يقدر على المسير في ركابها ماشياً كل هذه المسافة فطلبت الى الاسقف ان يأمر لها بفرس يركب عليه حسان فامر لها فخرجت شاكرة واهل القلاية يتباحثون في ماذا عسى ان يكون من امر هذه المرأة وبحيثها على تلك الصورة . اما هي فانها خرجت فرأت حساناً والفرسين في انتظارها خارجاً فركبت وركب حسان وخرجا من بوردو يلتمسان بواتيه

الفصل السابع والثلاثون

الدير

وكان حسان يعرف غير طريق يؤدي الى بواتيه فسار في أسهل الطرق بحيث لا يكون عليهما بأسٌ في أثنائه فدبر ان يصلا في كل مساء الى دير ينزلان فيه ويبيتان ثم ينهضان في الصباح التالي • فمشيا بقية ذلك اليوم وقلما تكلمت سالمة لاشتغال خاطرها بالمهمة التي هي ذاهبة فيها • فلما أمسى المساء أشرفا على دير لا يعدُّ من الاديار الكبرى • فتحولا اليه وهو قائم على سفح جبل فوق نهر تجري مياهه معظم السنة وحول الدير مغارس الكرم والزيتون وأشجار الليمون والتفاح وغيرها • وهو كسائر الاديار في تلك الايام عبارة عن بناء محاط بسور عال لهُ باب واحد صغير داخله باب آخر وبجانب الدير بناء صغير للدواب ونحوها • فلما أشرفا على الباب تقدم حسان وقرعه بجرس معلق فوقه • فاطل اليه راهب من كوة فوق الباب سأله عن غرضه فقال لهُ « نحن غرباء ونبغي المبيت عندكم فهل من مكان » قال حسان ذلك بلغة أهل البلاد ولكن ظهر من خلالها انه غريب عنها. فتحوا لهما فدخلت سالمة وتركت حساناً لينظر في أمر الفرسين ثم يدخل في جملة خدمة الدير • فلما رآها الراهب البواب توسم في منظرها وفي زيها هيأة الجلال والوقار فأسرع الى الرئيس فأخبره بذلك فأمره ان يدخلها اليه • فعاد وهو يقول « تفضلي الى حضرة الرئيس وهو يأمر بغرفة تقيمين فيها ما شئت »

فمشت سالمة في صحن الدير فرأتهُ مزدحماً بالناس من الرجال والنساء والاطفال وأكثرهم من أهل بوردو وجوارها فادركت انهم لجأوا الى الدير خوفاً من العرب فظلت ماشية حتى أقبلت على غرفة الرئيس • فلما دخلت وقف لاستقبالها ورحب بها وأمر لها بالطعام وسألها عن مصيرها في ذلك الطريق • فقالت انها قادمة من بوردو وسائرة الى بواتيه

فلما علم انها قادمة من بوردو قال « الملكُ في جملة الذين فروا في أثناء الحرب على أثر نهب الكنيسة والفتك في الاسرى »

قالت « لقد أخطأ الذين فروا لان نهب الكنيسة انما كان تعديا من بعض المسلمين المرافقين لجند العرب • ولما علم الامير بذلك امر باعادة الآنية الى مكانها ورد الاسرى

الى أهلهم بالفدية القليلة واتخذوا مع اهل توردو كل وسائل الرفق ..»

فلما سمع الرئيس قولها بدا الاستغراب في وجهه وقال «وهل يعرفون الرفق وما الذي يدعوهم اليه او يردعهم عن الفتك والقتل ولا دين عندهم ولا ذمام »

فقالت وهي تبتسم «هل رأيت أحداً منهم يا مولاي »

قال «كلا ولكنني سمعت ذلك من كثيرين »

وأرادت سالمة ان تدفع تلك التهمة بالبرهان فسمعت ضوضاء وصياحاً في باحة الدير فوقف الرئيس بغتة وصفق فجاءه بعض الرهبان يعدو فصاح فيه الرئيس «ما هذه الضوضاء ..»

قال الراهب وهو يضحك والبغتة ظاهرة في وجهه «هذا داتوس يا سيدي »

قال الرئيس «داتوس ؟ وما الذي فعله فقد عهدناه معتزلاً لا يخاطب أحداً ولا يقدم على الطعام الا كرهاً »

قال «ذلك هو عهدنا به ايضاً ولكننا نراه قد أصيب بجنون موقت فهجم على خادم الامرة (وأشار الى سالمة) وأوسعه ضرباً وصفعاً وهو يصيح يا أماه يا أماه حتى كاد يقتله لو لم نتدارك الامر ونمسكه عنه »

فلما سمعت سالمة ذكر خادمها قالت «وأين هو حسان وما الذي جرى له هل عليه من بأس ؟ »

قال الراهب «هو في خير وسلامة ولكننا لم نستطع ايقاف داتوس عن الهجوم عليه فبعد ان أرجعناه عنه هجم عليه ثانية بهراوة كانت بيده ولما أمسكناه عنه بالعنف رمى الهراوة على حسان وسقط هو على الارض وقد اغمي عليه من شدة الغيظ . وقد تركته وهو يختلج ويرتعد ولا يزال يذكر أمه ..»

فنهض الرئيس وهو يهز رأسه كأنه يستعيذ من شر يخافه . وتبعته سالمة وقد استغربت ما سمعته عن ذلك الشاب وتبادر الى ذهنها انه مصاب بخلل في عقله وبعد هنيهة أشرف الرئيس وسالمة على مكان الحادثة وكانوا قد ادخلوا حساناً الى حجرته ليغسلوا جراحه فوقع نظرها على شاب في عنفوان الشباب مطروح على الارض وقد تطايرت قبعته واشتبك شعره وكان جميل الصورة كبير العينين شديد بياض الوجه أشقر الشعر . وكان قد فتح عينيه وتحفز للوقوف كأنه أفاق من سكرة وجعل يلتفت يميناً وشمالاً تحسبه يبحث عن ضائع . فاشار الرئيس الى بعض الرهبان ان يخبئوا حساناً في مكان لايراه فيه

داتوس وأمسك بيد الشاب وخاطبه بلطف وباركه ودعا له وأشار اليه ان يمضي الى غرفته فمضى وهو لا يزال يلتفت ولكنه أمسك عن الكلام بالكلية

الفصل الثامن والثلاثون

داتوس

فلما رأت سالمة ذلك الشاب ترجح عندها انه اصابه جنون او سكنه شيطان على تعبيرهم في ذلك العهد لكنها احبت ان تحقق ظنها فلما عاد الرئيس عادت هي معه وتوسمت في وجهه تغيراً زادها رغبة في الاستفهام وانساها البحث عن حسان . على انها لم تكد تبدأه بالسؤال حتى سمعته يخاطبها بصوت منخفض قائلاً « الا تزالين تجادلينني في أولئك العرب وتزعمين انهم أهل ديانة ورفق ... ؟ »

فاستغربت سالمة قوله هذا اكثر من استغرابها عمل داتوس وقالت « لم أفهم يا أبتي علاقة هذا الحادث بالمسلمين او العرب بل أرى هذا الافرنجي قد تعدّى على خادمي لانه عربي حتى كاد يقتله ... »

وكانا قد دخلا الغرفة فاغلق الرئيس بابها وأومأ الى سالمة فجلست على وسادة فوق طنفسة وجلس هو على وسادة أخرى بالقرب منها وقال « لو عرفت قصة هذا الشاب وسبب ما ظهر من هياجه وتمديه لتحققت صدق قولي في العرب واقلعت عن اعتقادك فيهم الخير .. »

فتطاولت سالمة بعنقها وأصاخت بسمعها ولسان حالها يقول « ما هي قصة هذا الشاب يا ترى ؟ »

فقال الرئيس « اعلمي يا ابنتي ان هذا الشاب من جملة الافرنج الذين تجندوا لمحاربة أولئك العرب حالما بلغهم اقدامهم على فتح هذه البلاد . وكانت له والدة لا يعرف من الاهل سواها ولا هي ترجو سواه فتركها في بيتها وسار الى الحرب . فاتفق في أثناء غيابه ان المسلمين جاؤا ذلك البلد ونهبوا بيت المرأة وساقوها في جملة السبايا الى قلعتهم في ذلك الجوار . فلما عاد الشاب الى بلده وأخبروه خبر أمه ساق جواده الى تلك القلعة ومعه جماعة من الرفاق فاطلّ على القلعة وكانت موصدة فاشرف عليه بعض المسلمين من فوق

السور وسأله عن غرضه فقال له اطلب والدتي فانها أسيرة عندكم . فاجابوه لا نعطيك امك الا اذا أعطيتنا الجواد الذي تركبهُ والا فاننا نذبحها امام عينيك . فغضب داتوس لذلك غضباً شديداً وقال لهم لا أعطيكم جوادي فافعلوا بوالدتي ما تشاؤون . قال ذلك وهو يظنهم يخوفونه بذكر قتلها لا أنهم ينوون اعدامها فعلاً — ولكنه ما لبث ان رآهم احتزوا رأسها ورموه اليه وهم يقولون هذه والدتك فاليك هي . فلما رأى رأس والدته صعد الدم الى دماغه وغاب رشدهُ ولما اعجزه الوصول الى القاتلين لامتناعهم وراء الاسوار جعل يلطم وجهه ويصفق ويبكي ويركض فرسه يميناً وشمالاً كالمجنون ثم انفرد عن اصحابه واقام عندنا[1] وقد قص عليَّ خبره فاعتقدت من ذلك الحين ان العرب اهل ظلم وعسف لا دين عندهم ولا رحمة . وقد مضى على داتوس هنا بضعة اعوام لا يتكلم ولا يجالس احداً كانه أصيب ببله فالظاهر انهُ رأى خادمكِ وعلم من سحنته او كلامه انه عربي فهاج فيه الغضب وتذكر مصيبته فلم يتمالك عما ظهر منه ..

وكانت سالمة تسمع ذلك الحديث وهي في استغراب شديد فلما اتى الرئيس على تمام القصة احست بضعف حجتها في الدفاع عن العرب ولكنها تجلدت وقالت « لا أنكر على مولاي الرئيس حدوث نحو ذلك من بعض العرب كما قد يحدث من الافرنج وغيرهم ولكن العمدة في الامر على اغراض الجند بجملته ..»

فقطع كلامها قائلاً « وماذا عسى ان تكون اغراضهم وقد شاهدنا من اعمالهم في أثناء فتوحهم ما لم يبق معه حاجة الى دليل — الم ينهبوا الاديار ويأخذوا آنيتها ؟ الم يأسروا الرهبان ويختاروا اجملهم خلقة ويبيعوهم بيع الارقاء في اسبانيا ؟؟ وعهدنا بذلك لا يزال قريباً » [2]

فسرت سالمة لاحتجاج الرئيس بهذا الشأن فقالت « نعم ان بعض العرب نهبوا بعض الكنائس والاديار ولكن امراءهم لم يكونوا يقبلون بذلك وكثيراً ما كانوا يعيدون الآنية الى اصحابها ويطلقون سراح الاسرى وخصوصاً الرهبان لان نبيهم اوصاهم بهم خيراً — وآخر ما حدث من هذا القبيل أن بعض الملحقين بجند العرب من البرابرة ونحوهم نهبوا كنيسة بوردو فلما علم اميرهم بذلك رد المنهوبات واعتذر واوعز الى جنده ان لا يعودوا الى مثل ذلك .. فالعرب اهل رفق وعدل وفي اعتقادي انهم خيرٌ لاهل هذه البلاد من اولئك الافرنج .. اقول ذلك بين يديك على سبيل الاعتراف السري وارجو ان لا يطلع

(١) رينو (٢) رومي ج ٣ ورينو

عليه احد فاذا قضت الاحوال بتغلب العرب تحققت صدق قولي ٠٠ »

فبغت الرئيس لقولها وصاح « يغلب العرب ٠٠ ؟ معاذ الله »

فضحكت سالمة لبغتته وقالت « والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء ٠٠ » وتحققت ان الرئيس ممن لا يرجى اقناعهم بفضل العرب فسكتت ولكنها خافت ان يكون عليها بأس بعد ما جاهرت لديه بميلها الى العرب فالحت عليه ان يعتبر كلامها في هذا الشأن من قبيل سر الاعتراف فوعدها بذلك وهو فاعل لانهم شديدو المحافظة على ذلك السر

الفصل التاسع والثلاثون

الجرح

وارادت سالمة بعد خروجها من عند الرئيس ان تفتقد حسانا لكنها ظنته نام فمضت الى الغرفة التي اعدوها لها فباتت تلك الليلة ونهضت في الصباح على عزم المسير فبعثت الى حسان فقيل لها انه لا يستطيع سفرا لجرح اصابه في رأسه . فذهبت اليه بنفسها وتفحصت شأنه فرأته راقدا وقد شد رأسه بمنديل والتعب ظاهر في وجهه . فسألته عن حاله فقال « لقد اصاب ذلك الشاب مني مقتلا بهراوته ولولا لطف الله لذهب بحياتي فورا ولا ادري مع ذلك سبب هذا التعدي »

ولم تكن سالمة تخفي عن حسان امرا وهو خزانة اسرارها فقصت عليه حكاية الشاب واستطردت الى ما ترتب على ذلك الحديث بينها وبين الرئيس الى ان قالت « ولا بد لنا من الاسراع في المسير الى بواتيه ثم الى تورس قبل ان يفسد الامر علينا والمسلمون في انتظارنا على احر من الجمر »

فقال « لو استطعت النهوض ما امسكت عن السفر ومع ذلك اذا شئت المسير وحدك فلك الحق بك حالما استطيع الركوب فعلت ٠٠ »

فأطرقت سالمة واعملت فكرتها بين ان تمكث هناك بضعة ايام ريثما يشفى حسان فتفوتها الفرصة او ان تذهب وحدها وتخاف الطريق على نفسها . وبعد اعمال الفكرة مدة رأت ان تتصرف تصرفا وسطا فقالت لحسان « اني باقية في انتظارك هنا الى الغد فاذا شفيت واستطعت الركوب سرنا معا والا فاني اسير وحدي » فأثنى عليها وقال « اذا جاء

الغد ظهرت عاقبة الجرح فاذا لم تصبني الحمى كان الشفاء قريباً باذن الله »

فعملت سالمة على الاهتمام بجرح حسان كأنه في بدنها لانها كانت تحترمه وتكرمه بالنظر الى انقطاعه في خدمتها اعواماً ولانها في حاجة اليه خصوصاً في هذه السفرة . فذهبت الى الرئيس وطلبت اليه الاهتمام بجرح حسان فأطاعها لانه مشعر بظلامة ذلك الشيخ فاستدعى راهباً كان قد تفقه بالطب وكان اهل الدير يرجعون اليه في امثال هذه الحوادث واوصاه بمعالجته والعناية به . فذهب اليه ومعه سالمة فلما نزع الربائط وشاهد الجرح زمّ شفتيه وابرزهما ورفع حاجبيه وكانت سالمة تراقب ما يبدو منه فلما رأت اشمئزازه خفق قلبها خوفاً على حسان ولكنها لم تظهر اضطرابها فسكتت لترى ما يقوله الطبيب فاذا به التفت الى راهب آخر كان في خدمته وأومأ اليه ان يأتي بالزجاجة فذهب ثم عاد ومعه زجاجة وكاس . وكان الطبيب في اثناء ذلك قد قص الشعر عن رأس الجرح واكثره متلبد متلاصق من الدم المتجمد عليه فاشتمت سالمة رائحة كريهة . ثم صب الطبيب من الزجاجة شيئاً كالخمر لوناً ورائحة واستعان بالراهب الآخر على غسل الجرح به فوقع نظر سالمة على الجرح فاذا هو طويل عميق فازداد خوفها عليه ولكنها تجلدت لتسمع قول الطبيب على حدة

وبعد الغسل شد الطبيب الجرح باللفافة واشار الى حسان ان يستلقي ويستريح ليرى مايكون من جرحه الى الغد وتركوه نائماً وخرجوا . فلما صاروا خارجاً تقدمت سالمة الى الطبيب في ابداء رأيه فقال « لقد ابطأنا عليه بالوسائط اللازمة وكان يجب علينا ان نفعل ذلك الغسل حال اصيب وعلى كل حال لايمكننا معرفة النتيجة الى الغد »

فاستعاذت سالمة بالله وصبرت نفسها الى الغد . فجاءته في الصباح فاذا هو لا يزال نائماً فنادته فلم يجبها فجست يده فرأتها شديدة الحرارة فعلمت انه في بحران من شدة الحمى فاستدعت الراهب الطبيب فلما جاء ونظر الحالة قال « ان الرجل في البحران وهو في خطر حتى يفيق »

فقالت « ومتى يفيق ؟ »

قال « لابد من الانتظار يوماً او يومين وعلى الله الشفاء »

فارتبكت سالمة ووقعت في حيرة من امرها وخافت على حسان اذ يسوءها ان يصاب بسوء لما له من الايدي البيضاء في خدمتها فضلاً عن حاجتها اليه فقضت ذلك اليوم أيضاً وكأنها على جمر الغضا هي تصلي وتتضرع الى الله ان يشفيه واحيت ليلها وهي تفكر في هل تنتظر الشفاء او تسير وحدها فرأت انها لو بقيت عند حسان لم تنتفع لان اهل

الدير اكثر عناية به منها فعزمت على السفر في الغد على اي حال بعد ان توصي الرئيس والطبيب بحسان .

فلما اصبحت سارت توًّا الى حسان فرأت راهبين في خدمته وهو لا يزال غائباً عن رشده فسألتهما عن حاله فقال احدهما « أراه قد تندَّى بالعرق قليلاً واظنها علامة حسنة تبشر بالخير » فذهبت الى الرئيس واخبرته عن اضطرارها للسفر العاجل واوصته بحسان فبعث الى الطبيب و بالغ في وصايته . فلما خرج الطبيب تقدمت الى الرئيس ان يرسل معها من يصحبها الى بواتيه واخرجت من جيبها دنانير دفعتها اليهِ باسم الدير فاجابها الرئيس الى رغبتها وأمر راهباً من رهبانه ان يرافقها الى حيث تشاء . ولما تأهبت للمسير ذهبت الى حسان لتشاهده قبل ركوبها فرأته على حاله . وخرج الرئيس لوداعها بباب الدير فاعادت عليه الوصية بحسان وقالت « اذا منَّ الله عليه بالشفاء فابقه عندك ربما اعود فاني عائدة على عجل » فاجابها طائعاً وقد نزلت من نفسه منزلاً رفيعاً لهيبتها وتعقلها وكرمها . وكان خدمة الدير قد اعدوا فرسها وأعدوا لرفيقها الراهب بغلة من بغال الدير عليها خرج فيه بعض الاطعمة الناشفة زاداً لها في الطريق . وركبا وسارا والراهب دليل الطريق . على ان البغلة لو تركت لنفسها لسارت ولم تخطئ الطريق الى بواتيه ومنها الى تورس لكثرة ما يركبونها الى تينك المدينتين لحمل لوازم الدير من الآنية او الاطعمة او نحوها . وكانت سالمة قبل خروجها من الدير قد التفت برداء اسود فوق ثوبها الاسود فاصبحت كأنها من راهبات تلك البلاد وزادها شبهاً بهن استصحابها ذلك الراهب وكان على رأس الراهب قبعة كالخمار تكسو كل رأسهِ إلاَّ وجههُ وقد تجمعت لحيته بين جانبي الخمار وبرزت الى الامام مع شاربيه واصبح فمهُ غائراً

الفصل الاربعون

شبح غريب

تواريا عن الدير وقد صارت الشمس في الضحى وتوجها شمالاً في طريق بعضه مطروق وبعضه غير مطروق وكانت سالمة تستغرب ما تراه من المنازل المهجورة والكروم المتروكة وهي تعلم ان اهل القرى اذا انتشبت حرب لجأوا الى المدن يحتمون باسوارها ولكنها رأت ما يدل على المهاجرة القريبة كأن اهل تلك الحقول تركوها بالامس فقالت في نفسها لا بد

من حادث طرأ على هذه البلاد . فالتفتت الى الراهب وهو على بغلته بجانبها وقالت « مالي أرى الحقول مهجورة على هذه الصورة ؟ »

قال « لا اظنك تجهلين ما نحن فيه من الاحن بسبب هجوم العرب على بلادنا واهل القرى لا حصون تحميهم من السلب والنهب »

فقالت « ولكن العرب لا يزالون بعيدين من هذه القرى و ربما لا يستطيعون الوصول اليها فكيف يهجرها اهلها عنوا ؟ »

قال « ان خوف اهل القرى يا ابنتي ليس من جند العرب فقط بل هم يخافون جند الافرنج انفسهم لانهم اذا مرّوا بقرية نهبوها واذلوا اهلها و خربوا منازلها وليس من يردعهم والظاهر انهم علموا بقرب مجيء ذلك الجند ففروا من وجوههم لا ادري الى اين ولعلهم لجأوا الى الجبال البعيدة عن الطريق ريثما يمر الجند فيعودون الى حقولهم »

وكانت سالمة تسمع كلام الراهب وترى فيه ما يبشرها بنجاح مهمتها ولكنها كانت منشغلة الذهن بشبح وقع نظرها عليه عن بعد وهو راكب على جواد وقد ساقه نحو الجهة التي هما سائران اليها ولما رآها الراهب تنظر الى ذلك الشبح وجه هو التفاته اليه فلما رأت سالمة انتباه الراهب للامر قالت له « ما ظنك بهذا الفارس . . »

قال « يظهر من قيافته انه من الافرنج ولا يمكننا الحكم القطعي في ذلك الآن بعد رؤية وجهه واراه يقترب منا فاذا دنا رأيناه وعرفناه او سألناه عن حاله »

وما زال الفارس يقترب منهما حتى وقعت العين على العين فاذا هو ملثم لا يظهر من وجهه الا العينان فحياه الراهب فلم يرد التحية ولكنه تفرس في سالمة وثوبها وفرسها وحوّل عنان جواده وارتد راجعاً الى الوراء . فلما رأت سالمة ذلك منه اشتغل خاطرها وحسبت لذلك الرجوع الف حساب وخافت ان يبدو ذلك للراهب فيسيء الظن بها فتجلدت وتظاهرت بعدم الاكتراث وقالت وهي تضحك « يظهر ان الرجل خاف من اثواب الرهبنة »

فقال الراهب وهو يظهر الاهتمام « لا ادري يا ابنتي ما الذي خوفه ولكنني اعلم انني خفت رجوعه على هذه الصورة كأنه جاء للبحث عنا او عن احدنا فلما رأى ضالته عاد لابلاغ المهمة »

ولم تكن سالمة تظن غير ذلك ولكنها ظلت على تجاهلها ووجهت عنايتها الى الافلات مما قد ينصبونه لها من الشراك قبل وقوعها فيه . فتظاهرت بتغيير الحديث فقالت « وهل نحن بعيدون عن بواتيه »

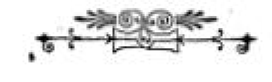
قال « اذا سقنا دوابنا وظللنا سائرين ربما وصلناها في صباح الغد »

فاستحسنت ذكره المسير ليلاً وقالت « وهل ترى المسير ليلاً ؟ .. يظهر انك في عجلة للرجوع الى الدير لاشغال عليك هناك — فاذا لم يكن علينا بأس من ذلك فلا مانع عندي »

فقال « لست مستعجلاً وانما ذكرت لك ذلك على سبيل تقدير المسافة وأما المسير ليلاً فلا خطر منه علينا وخصوصاً لاني أعرف أهل هذا الطريق ويعرفونني وزد على ذلك ان الليلة مقمرة فاذا شئت نزلنا عند العشاء في دير أعرفه بجانب الطريق فنتناول الطعام ونستريح وننام قليلاً ثم ننهض في نصف الليل ونركب توًّا الى بواتيه فنصلها في الضحى . واذا كان من ذلك تعبٌ عليك فافعل ما تشائين لاني انما امرت ان اكون في خدمتك الى حيثما تسيرين »

فاعجبها رأي الراهب وسرها السبيل الذي تتطرقت به الى ذلك وفي اعتقادها انها متى وصلت بواتيه كان لها من اسقفها ما يقيها غائلة الجواسيس او غيرهم وخصوصاً لانها تحمل له توصية من أسقف بوردو ومتى دخلت القلاية او الدير الذي فيه الاسقف لا يجسر أحدٌ عليها

فاظهرت انها تساير الراهب في رأيه واستحسنت ان يبيتا تلك الليلة في الدير الذي أشار اليه . فسارا وسالمة تلتفت الى ورائها خلسة وهي تتوقع ان ترى أناساً مسرعين في طلبها . أما الراهب فكان مستغرقاً في صلاة يتلوها وهو على ظهر بغلته — فقضيا بقية ذلك اليوم وهما يركضان الدابتين فغابت الشمس ولم يدركا الدير المقصود وكان القمر في ربعه الثالث فصار العشاء ولم يطلع بعد فشيا في الظلام وسالمة تسوق جوادها وراء بغلة الراهب وهي لا ترى الطريق وقد سكنا وسكنت الطبيعة ولم يكن يسمع هناك الا وقع الحوافر تارة على الحصى وطوراً على العشب وقد تعب الفرس ولم يعد يستطيع العدو وأما البغلة فظلت نشيطة والراهب يمسكها عن العدو لئلا تسبق الفرس



الفصل الثاني والاربعون

خطر آخر

فانشرح صدر سالمة لوصولها ونجاتها من الخطر لاعتقادها أنها اذا كانت في بوابته لا خوف عليها . ولكنها لم تكد تصل الباب حتى رأت جماعة على خيول بلباس الجند الافرنجي قد خرجوا من الباب وفي مقدمتهم فارس ملثم وعلى رؤوسهم الخوذ وعليهم الادراع وقد تقلدوا السيوف المستقيمة بمناطق من جلد وتحت الادراع جبب قصيرة الى الركب وقد لفوا على سوقهم لفافة من جلد وعلقوا باكتافهم جعب النبال وتلثموا بخمر من الحلق المشتبك ولم يظهر من وجوههم الا العيون والآناف والافواه وبعض اللحى . فلما رأت سالمة ذلك الفارس الملثم عرفت انه جاسوس الامس تخفق قلبها لرؤيته ثم ما لبثت ان رأته قادماً نحوها والفرسان يتبعونه على عجل فازداد اضطرابها واستعاذت بالله وادنت فرسها من الراهب كانها تحامى به او تنوي استفهامه عن شيء وقد امتقع لونها وتحققت الخطر المحدق بها . واذا بالفارس الملثم قد اومأ الى رفاقه وأشار باصبعه اليها كانه يقول لهم « هذه هي فاقبضوا عليها »

فاحاطوا بها وبالراهب جميعاً فسألهم الراهب عن غرضهم فقالوا له « قد أُمرنا بالقبض عليكما والمسير بكما الى حضرة الدوق اود »

فقال « وما الذي دعا الى ذلك وما نحن من اهل السياسة ولا الحرب فاني راهب وهذه امرأة . . . أظنكم مخطئين »

قالوا « لسنا مخطئين هيا بنا طائعين والا فانكما ذاهبان كرهاً »

فلما تحققت سالمة وقوع الخطر ورأت نجاتها مستحيلة من بين يدي اولئك الفرسان تجلدت وقالت « اظنكم تلتمسون القبض عليّ وليس على هذا الراهب فاطلقوه وها أني سائرة معكم الى حيث تشاؤون ولا حاجة الى التهديد والوعيد »

فتعجب الراهب من جرأتها ورباطة جأشها وحدثته نفسه ان يرفض النجاة بنفسه ويطلب البقاء معها ولكنه راى بقاءه لا ينفعها وخاف لوم رئيسه فسكت ليرى ما يكون منهم فاذا بالفارس الملثم قد خاطب كبير الفرسان همساً فاشار هذا الى الراهب بالانصراف واحاطوا بسالمة وساروا بها ولم يلتفتوا الى الوراء

اما هي فلما رأت نفسها في قبضة الافرنج ولا حيلة لها في النجاة تذكرت انها تحمل رسالة من اسقف بوردو الى اسقف بواتيه فخافت اذا فتشوها ان يعثروا على الرسالة فيقع هذا الاخير تحت طائلة الغضب فاحتالت ورمت الرسالة في مكان لا يراها فيه احد . ثم تذكرت المحفظة وفيها كل سرها فخفق قلبها خوفاً من وقوعها في ايدي اولئك الافرنج فجرها ذلك الفكر الى ابنتها وكيف تركتها في معسكر المسلمين فطرق ذهنها لحال ميمونة وما كانت تخافه من دسائسها فترجح عندها ان ما اصابها انما كان بايعاز ميمونة اذ ليس في اكيتانيا كلها من يعرفها او يسيء الظن بها سواها . ولكنها عادت فتذكرت انها خرجت في تلك المهمة سرًّا ولم تكاشف احداً بخروجها غير مريم — قضت سالمة ساعة في تلك المواجس وهي سائرة على فرسها والفرسان محيطون بها وفي جملتهم ذلك الجاسوس الملثم . وكانت تسترق النظر اليه لعلها تستطيع معرفته لانها لو رأت وجهه لانكشف لها سر ذلك الامر ولكنه كان شديد الحرص على لثامه . على انها تفرست في ثيابه فرأت مع كونها بحسب الظاهر افرنجية فيظهر من تحت ردائه القصير ان باقي الثوب ليس افرنجيا . ورأت ما انكشف من ساقيه اسمر اللون ولون الافرنج ابيض مشرب بحمرة فتحققت انه جاسوس من خدم ميمونة . فندمت لانها لم تكشف امرها للعرب لينجوا من حبائلها . واصبحت من الجهة الأخرى تخافها على المسلمين لئلا توقعهم في شراكها او تفسد امرهم فيذهب سعيها في نجاحهم ادراج الرياح . وودت لو انها تستطيع ابلاغ ذلك الى الامير عبد الرحمن فتأسفت لانها تركت حسان في الدير ولا تدري مع ذلك هل شفي جرحه ام اصابه سوء بسببه . وتصورت اذا فشل المسلمون كيف يكون حال ابنتها ووحدتها فترا كمت عليها المواجس وعظم الامر عليها وغلبها اليأس فلم تتمالك عن البكاء خلسة . فلما بكت خف بعض ما بها ولكن الامر ما برح عظيماً عليها

وما زالوا سائرين بضع ساعات وسالمة تتهيب من مقابلة الكونت اود لئلا يعرفها فيكبر جرمها عنده ويكون ذلك خاتمة المصائب . فلما كثرت مشاغلها وهواجسها اخذ الامر يهون عليها وهو لم يهن حقيقة ولكن الانسان اذا وقع في مصيبة استعظمها وكاد ينوء تحت ثقلها فاذا تراكمت عليه المصائب ساعده اليأس على احتمالها . فكم من ارملة كان الناس يحسبونها تموت ساعة موت زوجها فلما مات لم تمت ولكنها استعظمت المصيبة فعزاها الناس بيقاء انجالها ثم اصيبت بواحد منهم ثم بآخر فآخر ففرغت حيل الناس في تعزيتها ولكنهم رأوا انتسهم في غنى عن ذلك بما استولى على تلك الارملة الثاكلة من اليأس كان القلب يندمل من توالي الاحزان او انه يعتاد المصائب فيستخف بها . وهكذا شأن من تحيط به

المشاكل تراه عند وقوعه في المشكل الاول اكثر ارتباكاً وخوفاً مما يصير اليه حاله عند تعددها — فكانت سالمة كما تعددت مشاكلها هوّنت على نفسها

الفصل الثالث والاربعون

الدوق اود

وفي اصيل ذلك اليوم اشرفوا على كرم وراءه سهل واسع رأت في منتصفه قصراً كبيراً حوله الخيام وبينها الناس يمجون مجيجاً وفوق القصر علم علمت حالاً انه للدوق اود فتحققت انها وصلت الى المكان المقصود وان القصر المذكور لبعض اغنياء البلاد هجره اهله في جملة ما هجروه فنزل فيه اود واقام رجاله في الخيام حوله

وما زال الفرسان سائرين بها حتى وصلوا الى باب القصر فترجلوا وترجلت فسلموها الى الحرس الواقف بالباب فدخلوا بها الى القصر وهي ملتفة بثوبها الاسود ومقنعة بخمارها الاسود . فمشت بقدم ثابتة بين الحرس حتى تجاوزت باحة البيت الى قاعة وقف الحرس ببابها ودخل احدهم ثم عاد واشار الى سالمة ان تدخل

فدخلت الى قاعة يظهر من سقفها وما على جدرانها من الرسوم الجميلة ان اصحاب ذلك البيت من اهل اليسار ولم تر في ارض القاعة طنافس ولا مقاعد غير ما كان يحمله الجند في سفره . وشاهدت على كرسي في وسط القاعة رجلاً نحيف البدن ممتقع اللون اشهر الشعر اشيبه ازرق العينين جاحظهما غائر الفم بارز اللحية مخسف الخدين بارز الوجنتين وعلى رأسه قبعة عنابية اللون مزركشة بالذهب وفي مقدمها فوق جبينه حلية مرصعة بالالماس والياقوت بشكل الصليب وعلى كتفيه بردة مزركشة بالقصب سماوية اللون تغطي أثوابه . وتحت البردة جبة قصيرة من القطيفة حولها منطقة عريضة منسوجة بالذهب على أشكال بعض الطير . وحول ساقيه انافة من جلد ملوّن له اهداب من الفرو ونعاله مشدودة الى قدميه بسيور من نسيج الشعر المتين وقد جلس على كرسي ذي جناحين اسند زنديه اليهما . وقد ظهر من تحت البردة سلسلة ذهبية مدلاة من عنقه وفيها صليب من الذهب . فعلمت سالمة انه الدوق اود لانها كانت تعرفه جيداً وتعرف بعض الذين بين يديه من امراء مجلسه

وكان اود قبل دخول سالمة قد تناول من بعض جلسائه قدحاً فيه خمر وهمّ بشربه فلما

امر بادخالها وضع القدح على المائدة امامه بين الاقداح الاخرى ومسح يده بلحيته ثم جعل يسرحها بانامله · فدخلت سالمة وهو على تلك الحالة فحالما وقع نظره عليها ظهرت البغتة في عينيه ولولا اصفرار وجهه الطبيعي لبدت ايضاً في امتقاع لونه ولم تكن سالمة اقل تأثراً منه ولكنها كانت قد تجلدت وذهبت بغتتها · فوقفت بين يديه وخرج الحرس ثم اومأ أود الى اهل مجلسه فخرجوا جميعاً وبقي هو وسالمة

فلما رأت سالمة نفسها وحدها زادت تهيباً فاذا هو قد اشار اليها ان تجلس فجلست على كرسي بين يديه جلوس متحفز للنهوض · فخاطبها اود بالافرنجية قائلاً « الهذا الحد بلغ منك الغيظ ؟ »

فاجابت وهي تتجاهل « واي غيظ يا مولاي ؟ »

قال « اتظنين اني نسيتك يا أجيلا ؟ »

فلما سمعت سالمة لفظ « اجيلا » ارتعدت فرائصها لانها لم تسمع احداً يناديها بهذا الاسم من زمن مديد ولكنها تجلدت وقالت « اظن مولاي واهماً في شأني ولعله يريد امرأة غيري »

قال وهو يضحك « اظنني واهماً ... اذا كانت عيناي واهمة فهل تظنين قلبي واهماً ايضاً ؟ هل انسى اجيلا وقد جرحت قلبي واساءت الى سلطاني ولكنها اساءت الى نفسها ... ألم يكن من التعقل والحكمة ان تقلعي عن ذلك الجنون ؟ .. أليس من العار عليك وانت مسيحية مولودة في بيت من اكبر بيوت المسيحيين ان تنصري قوماً غرباء لا دين لهم ولا ذمام وتساعديهم على اهل ديانتك »

قالت وهي لاتزال مطرقة « لم افهم يا مولاي مغزى كلامك كأنك تخاطب امرأة غيري فان الاسم الذي تاديني به ليس هو اسمي وانما انا اسمى سالمة ... »

فاغرق اود في الضحك حتى سمع قهقهته كل من في القصر ومد يده الى المائدة فتناول قدحه وشربه وهو ينظر الى سالمة وهي لاتزال مطرقة · ثم ارجع القدح فارغاً ومسح فمه بيده وهو يقول « ما لنا وللانكار والاثبات فاخبريني ياسالمة (كما تسمين نفسك) ما الذي جئت من اجله الى هذه المدينة وما الذي فعلته عند اسقف بوردو ؟ »

فادركت سالمة انه مطلع على شيء من امرها فقالت « وما الغرابة في زيارة امرأة مسيحية لاسقف كنيستها ؟ »

قال « لاغرابة في الزيارة ولكنني أسألك عما دار بينكما وعما حملك على الذهاب اليه

قالت « لا يخلو ان يكون قد دار بيني وبينه حديث طويل بشؤون سرية لايهمُّ احد لان جماعة الاكليروس خزانة اسرارنا »

قال « لا أسألك عن اعترافك اليه مما يتعلق بشؤونك . ولكنني اسألك عما دار بينك وبينه بشأن الافرنج والعرب والحرب والسلم »

الفصل الرابع والاربعون

التهديد

فلما سمعت تصريحه لم يبق عندها شك في اطلاعه على سرها فايقنت بالوقوع وتحقق يأسها من النجاة فساعدها اليأس على الجرأة فقالت « يظهر انك عالم بما دار بيني وبينه فلا حاجة الى سؤالي »

قال وهو يظهر الغضب « اهكذا تجاوبين الدوق اود ؟ .. ابمثل هذه الجرأة تخاطبين دوق اكيتانيا ؟ .. »

فظلت ساكتة ولكنها ابتسمت ابتسامة فهم اود منها ما هو اصرح من الجواب فابتسم وكأنه ندم على ذلك التهديد فقال « ثلاث ايام مضت وقد اردنا ارجاعك الى مثلها فابيت .. فاسأت الى نفسك والى ابنتك ولا ذنب لها وانما الذنب ذنبك .. ولكنك اردت ان تهوى في الهوة التي تهوي بهم انت وان تبيع ديانتها وكنيستها جزافاً وان يكون نصيبها من اولئك المبطلين . بالحقيقة اني لم افهم سر هذا العناد فيك ... »

فايقنت سالمة ان اود مطلع على كل شيء كانه كان معها في خيمة عبد الرحمن لما القت اليه سرها . واستغربت اطلاعه على تلك الاسرار ولم تجد لها خيراً من السكوت او الانكار فقالت « اراك لا تزال تخاطبني بالالغاز والاشارات والتلميح والتعريض فالذي تريد ان تعتقده فيَّ اعتقده وما تريد ان تفعله افعله .. »

قال « الذي اريد ان افعله بأ اجيلا ستريبنه رأي العين . ولو اظهرت هذه الوقاحة في مجلسي وبين ارباب حكومتي لما استطعت الاغضاء عن قتالك ولكنني امامك الآن اكراماً للحب القديم . اما الآن فقد تحوّل ذلك الحب الى الغضب والانتقام ويكفيني انتقاماً منك ان اريك حبوط مسعاك — فمتى رأيت الارض مضرجة بدماء اولئك العرب والبرابرة كنت مخيرة ان تموتي حسرة او ان نقتلك بالسلاح الذي تختارينه »

ان لا يتولى امري من اهل هذا المعسكر سواك وان كان في ذلك ثقلة عليك ..»

فاجابها رودريك وهو يبتسم « وانا ارجو ان لا يتولى ذلك سواي. لاني اخاف ان يتولاه من لا يعرف قدرك فلا يحسن خدمتك »

فتوهمت سالمة من ذلك انه عارف ببعض شأنها فتجاهلت وسكتت . اما هو فانه اخذ القصعة والكوبة وتحول نحو الباب وهو يقول « وسترينني رهين اشارتك وسابذل جهدي في خدمتك فليطمئن بالك » ثم اقفل الباب وخرج

و بعد خروجه احست سالمة بارتياح انساها بعض ما بها من الاضطراب فافترشت بعض الغطاء، وتغطت بباقيه وتوسدت تلتمس الرقاد وكانت قد احست بالتعب على اثر ماقاسته في ذلك اليوم وما قبله فغلب عليها النعاس فنامت نوماً عميقاً

ولما افاقت جاءها رودريك بطعام الصباح وتولى خدمتها في كل ما تحتاج اليه وتفرست فيه على ضوء النهار فتحققت انه بعيد الشبه عن الافرنج وقريب الملامح من العرب ولكنها رأته يتكلم الافرنجية مثل اهلها واسمه افرنجي فعزمت على استطلاع حقيقته بعد ان تؤانس منه وثوقاً بها مخافة ان تبدر منها كلمة اذا بلغت اود زادت نقمته عليها

الفصل الرابع والاربعون

السفر

قضت سالمة في ذلك الاسر اياماً وهي تراقب حال اهل القصر بالنظر اليها لعلها تجد سبيلاً للفرار فاذا هم شديدو العناية في خفارتها كثيرو التضييق عليها وكان جماعة منهم موكلين بحراستها ومراقبة حركاتها فعلمت ان اود مع تغيبه عنها واهماله مقابلتها شديد الحرص على استبقائها في ذلك السجن

فلما طال مكثها على تلك الحال ملت الاقامة وتزايد قلقها على جند العرب لعلمها انهم في انتظارها على مثل الجمر ولكنها لم تكن ترى بأساً من تاخرها عنهم لعلمها انهم فائزون في فتحهم حتى يبلغوا بواتيه ثم هي لا تخاف عليهم اود وجنده لعلمها انهم غلبوهم غير مرة. على انها كانت تخاف على مريم من غدر ميمونة. ثم هي رجحت ان الكتاب الذي جاء به ذلك الاحول انما هو من ميمونة ولكنها لم تفهم فحواه تماماً فلبثت تتوقع فرصة لاستطلاع ذلك

من رودريك

واصبحت ذات يوم فسمعت ضوضاء الجند على غير المعتاد فاطلت من النافذة فرأتهم يقوضون الخيام وقد اخذوا في التأهب للسفر فاشتغل خاطرها واوجست خيفة من ذلك الانتقال . على انها رأت في ذلك سبيلاً لمخاطبة رودريك في ما قد يكشف لها شيئاً من ذلك السر : فلما جاءها في ذلك الصباح ومعه الطعام ابتدرته قائلة « مالي اراكم تتأهبون السفر هل انتم مسافرون جميعاً ام يبقى بعضكم هنا »

قال « اننا مسافرون جميعاً وقد أمر حضرة الدوق ان تسيري معنا »

قالت « والى اين ؟ »

قال « الى تورس على نهر لوار »

فلما سمعت قوله بغتت واستغربت ذلك الانتقال لعلمها ان النهر المذكور هو آخر حدود اكيتانيا والبلاد التي وراءه تحت سلطة شارل دوق اوستراسيا . وهي تعلم ايضاً ان بين اود وشارل منافسة ومزاحمة على النفوذ وربما كان شارل اكثر حرصاً على صد اود عن بلاده من حرص العرب على فتح اكيتانيا فقالت « هل انت على يقين من ذهابهم الى تورس ؟ »

قال « نعم يا مولاتي وقد سمعت الاوامر الصادرة لنا بالذهاب »

قالت « ألا تعلم ما بين الدوق اود ودوق اوستراسيا من المنافسة ؟ »

قال « بلى . ومن يجهل ذلك ؟ »

قالت « فما الذي يحمله الدوق اود في تورس اذاً الا يخاف عدوه شارل ؟ »

فلما سمع رودريك سؤالها تلفت وتلفت نحو الباب كأنه يحاذر ان يراه احد ثم نظر الى سالمة وهو يقول بصوت منخفض « ان لذلك سرًّا لم يطلع عليه الا نفر قليلون من هذا الجند وأخاف ان بحتُّ به ان يلحقني اذى »

فتوسمت في وجه الغلام خبرًا مهماً فتاقت نفسها لسماعه فشجعته وقالت « ما الذي تخافه من اسيرة سجينة ربما لا يهمها من امر هذا الخبر شيء ؟ ولكنني احببت الاطلاع على هذا السر لغرابته وقد جرأني على هذا السؤال ما شاهدته من مؤانستك ولطفك في اثناء هذه المدة . ومع ذلك لا اظنك احرص على مصلحة هذا الجند مني لانك على ما يظهر لي لست منهم . . »

فما قالت سالمة ذلك حتى رأت البغتة بدت في وجه رودريك وقد تحولت سحنته الى غير ما كانت عليه فتنهد وقال « لقد ادهشتني فراستك في لأنك اطلعت في ايام

على ما لم يستطع كشفه احدٌ من اهل هذا المعسكر في اعوام ٠٠ »

فاستبشرت سالمة بذلك التلميح وقالت « يظهر لي اني قد اصبتُ الفراسة فكلانا اذًا نرمي الى غرض واحد فأخبرني عما حمل اود على الذهاب الى تورس ولا تخف وارجو ان يكون لك من وراء ذلك خيرٌ »

فقال « اما السبب في هذا الانتقال فهو ان العرب حاربونا ونحن قرب بوردو فغلبونا وقد بلغنا الآن انهم قادمون الى هنا »

فقطعت كلامه وقد سرَّها ان غيابها لم يؤخر العرب عن التقدم في الفتح وايقنت انهم لم يلاقوا في طريقهم كبير مدافعة من اهل البلاد فقالت « فالافرنج اذًا يطلبون تورس فرارًا من العرب »

قال « لايخلو الامر مما ذكرتِ ولكنهم يطلبون تورس للدفاع وليس للفرار »

قالت « و بماذا يدافعون وعدوُّهم هناك اشدُّ وطأةً عليهم من العرب »

قال « قد كان كذلك من قبل ولكنه اصبح الآن ظهيرًا لهم »

فقالت « وكيف ذلك والمنافسة متمكنة بينهما لان كلاً منهما يطلب السيادة على الآخر بعد أن رأيا انحلال الدولة المروفنجية التي كانت تجمعهما تحت سيطرتها • وقد علما ان الفائز منهما ستكون له الدولة والملك على الدوقيات كلها فزادت المنافسة بينهما حتى يتمنى كل منهما ان يهلك الآخر ٠٠ »

قال « هذا هو الواقع فعلاً وهذا الانقسام هو الذي مكن المسلمين من فتح اكيتانيا حتى وصلوا الى هنا واذا قطعوا نهر لوار اصبحت بلاد في اوستراسيا في قبضتهم على اهون سبيل لان اساقفتها ناقمون على الدوق شارل نقمة شديدة وقد يحرضون الشعب على خلعه فاذا جاءهم العرب وهم في تلك الحال ساعدوهم على الفتح ٠٠ »

فلما سمعت سالمة ذلك خفق قلبها سرورًا بما ترجوه من فوز العرب هناك ولكنها لم تثق بصدق تلك الرواية فقالت وما هو سبب نقمة الاكليروس على شارل وهو قائد عظيم »

قال « السبب يا سيدتي انه استخرج اموالهم وقبض على املاك الاديرة وفرقها في جنده واهان بعض الاساقفة بالقصاص وفضل بعض صغار الكهنة عليهم ولايخفى عليك ما يجرُّ اليه ذلك »

فلما تحققت غضب الاساقفة على شارل عادت الى الاستفهام عما دعا الى نصرة شارل

لأود فقالت «ولكنني لم أفهم كيف صار شارل ظهيراً الدوق اود .. فهل فعل شارل ذلك من تلقاء نفسه خوفاً من الاسلامية ؟ .»

فقال رودريك «كلا ياسيدتي ولكن الدوق اود لما ايقن بعجزه عن دفع العرب عن بلاده لم ير بداً من استنصار عدوه شارل ..»

فقالت وقد بغتت «وكيف استنصره وفي استنصاره خروج هذه البلاد من يده لامحالة»

قال «لا اظنه يجهل ذلك ولكنه قد فعله مضطراً بحكم الضرورة ففضل ان تأول البلاد الى امير مسيحي افضل من ان تأول الى قوم غرباء ديناً ووطناً ولعله مطمئن لما يعلمه من اشتغال شارل بنقمة الاسلامية — ثم اني لا اظنه استنصره الا مدفوعاً بمشورة بعض ثقاته»

قالت «ومن يجرأ على هذه المشورة من رجاله»

قال «المشورة لم تأته من هذا المعسكر ولكنني علمت بكتاب جاءه في اليوم الذي سجنك فيه . وفي ذلك الكتاب تحريض على استنجاد شارل والظاهر انه اثر فيه كثيراً فلما قرأ الكتاب بعث وفداً الى شارل يطلب اليه مساعدته في هذه الحرب فأتاه الجواب بالايجاب»

الفصل الثامن والاربعون

الاستطلاع

فلما سمعت سالمة قوله تحققت ان المحرض على ذلك انما هو ميمونة فاستعاذت بالله ولكنها كظمت وتجلدت لانها لم تكن تثق برودريك وهو لم يكاشفها بحقيقة امره فاحبت قبل الافاضة في الموضوع ان تستطلع الحقيقة فقالت والاهتمام ظاهر في وجهها «اراك يارودريك قد كاشفتني بامور ذات بال مما يدل على ثقتك بي فاعلم ان ثقتك في محلها واذا كنت تعتقد اخلاصي لك كن على يقين اني باذلة نفسي في مكافأتك على اني لا ازال اعلل نفسي بالاطلاع على حقيقة امرك لاني على ثقة انك لست من اهل هذا المعسكر»

قال « لا ريب عندي في اخلاصك ولولا ذلك ما خاطبتك بما خاطبتك به والامر الذي تحتبينه في باطن سرك هو الذي اتيناه انا ايضاً وهذا ما جرأني على هذه المكاشفة »

فادركت سالمة انه على غرضها فازدادت ميلاً الى استطلاع حقيقته فقالت « فاطلعني على حكايتك لنتعاون على النجاة باذن الله . . »

قال « ولكنني اطلب اليك ان تخبريني عن امر لاحظته منك في اول ساعة خاطبتك فيها . . هل اسألك عنه ؟ »

قالت « وما هو . . »

قال « لما سألتني عن اسمي وعلمت انه رودريك رأيت في وجهك اثر البغتة فلا أدري كان ذلك بسبب اسمي او غيره . . »

فتظاهرت سالمة بعدم الاكتراث وقالت « لا اذكر اني بغتُّ لشيء من هذا القبيل» فصدقها واقتصر

اما هي فلبثت ساكتة تنتظر جوابه على سؤالها عن حكايته فرأته يتلفت نحو النافذة كأنه يراقب حركة او يتوقع قادماً فالتفتت هي فلم ترَ غير الجند وهم لا يزالون في اهتمامهم بالحزم والرزم والاستعداد للرحيل فحوّلت بصرها الى رودريك فرأته يهمّ بالجواب وهو يتردد فقالت « يظهر انك تحاذر شيئاً »

قال « كلا يا مولاتي ولكنني اخاف ان يدهمني الوقت واُدعى للسفر قبل الفراغ من حكايتي لانها طويلة »

قالت « قل لي بالاختصار إذاً هل تعرف العربية »

قال « كلا »

فتوهمت سالمة انها اخطأت الفراسة فيه لانها كانت توسمت من ملامحه انه عربي فقالت « هل تتكلم لساناً غير الافرنجي »

قال « اعرف اللسان البلغاري وهو لسان حداثتي »

قالت « فاذاً انت بلغاري الاصل . . . ولكن ملامحك لا تدل على ذلك »

قال « لست بلغارياً ولكني ربيت في بيت رجل من البلغار »

قالت « وكيف تعلمت لسان الافرنج ويظهر انك تتكلمه حسناً كانك تعلمته من حداثتك »

قال « تعلمته من طول الممارسة لان الرجل البلغاري الذي رباني باعني لبعض الافرنج

ثم صرت الى الدوق اود بالمقايضة »

فاستغربت ما سمعته ورأت اسئلتها لم تجدِ نفعاً وكانت تتوقع بها قرب الوصول الى الغرض فاذا هي تبتعد عنه فعمدت الى الاختصار والتصريح فقالت « قل لي اين ولدت »

قال « ولدت في طليطلة »

قالت « انت اذاً اسباني »

قا « كلاً »

قالت « فانت عربي »

فسكت وقد ظهرت في وجهه ملامح الخوف

الفصل التاسع والاربعون

منظر هائل

فادركت انه يخاف التصريح لقلة ثقته بها لان ملامحها بعيدة جداً عن ملامح العرب فقالت « لا تخف يا شاب فانك تخاطب امرأة لا تحب غير العرب . ولكن لقد ادهشني حديثك . فكيف تقول انك ربيت في بلاد البلغار ثم تقول انك ولدت في طليطلة والمسافة بين البلدين بعيدة جداً . انك واهم في ما تقول او لعل الذي إنبأك بمولدك قد خدعك او كذبك »

فقال « اني على ثقة من ذلك لاني عشت في طليطلة بضع سنوات ولا ازال اذكر بعض مناظرها كانها خيال .. »

قالت بلهفة « اتذكر مناظر طليطلة .. ؟ ما الذي تذكره منها ؟ »

قال « اذكر قصرها الكبير على نهر التاج وحوله الحدائق .. واذكر حديقة ذلك القصر لاني كثيراً ما كنت العب فيها مع بعض الرفاق على ضفاف ذلك النهر .. »

قالت وفي وجهها معنى لو رآه متفرس لعلم انها بغتت لذكر طليطلة وقصرها وانها كانت تغالب عواطفها لئلا يظهر ذلك في وجهها « فانت اذاً من ابناء ذلك القصر .. وما الذي تذكره ايضاً ؟ »

قال « لا اذكر غير ذلك القصر لاني أُخرجت من طليطلة وانا طفل ولولا ماشاهدته

هناك من الامور المخيفة لم تبق صورته في ذهني»

قالت « وما الذي شاهدته واخافك وانت طفل ؟ »

قال « شهدت مقتل امير الاندلس ... »

قالت « الا تذكر اسمه ... ؟ »

قال « لم اكن اعرف اسمه يوم مقتله ولكنني علمت بعد ذلك انه عبد العزيز بن موسى ابن نصير الذي فتح بلاد الاندلس للعرب »

فلما قال ذلك كادت تظهر البغتة على سالمة لو لم تتجلد وتشغل رودريك بالاستفهام فقالت « وما الذي تذكره من امر مقتله ؟ »

قال « اذكر اني كنت في بعض شهور سنة ٩٧ للهجرة العب في حديقة القصر وانا في نحو الخامسة من عمري ومعي طفلة اصغر مني كنت أُلاعبها ومعنا الخدم لانها بنت الامير عبد العزيز وقد ربينا معاً . وبينما نحن في ذلك رأيت الخدم في هرج ومرج وقد وقفوا وقفة الاحترام فأسرعت للفرجة وبجانبي ابنة الامير . واذا بالامير عبد العزيز قد خرج من القصر ومر بالحديقة وعليه القباء والعمامة ووراءه جماعة من ارباب العمائم فلما دنا منا مدّ يده اليّ ولمس رأسي على سبيل الملاطفة وقال كلمة لا اذكرها . فتأثرت لمنظره لانها اوّل مرة رأيته في مثل ذلك الموكب . فسألت عن مسيره فقالوا الى المسجد للصلاة . فلم يهمني الامر فعدت الى اللعب ولم يمض قليل حتى سمعت ضوضاء الناس وقد جاء بعض الغلمان وحملوا الطفلة بسرعة وتركوني . فخفت لان الحديقة اصبحت خالية وليس فيها سواي فأخذت في البكاء ثم رأيت الناس يعدون من جهة المسجد عدو الفرار واخيراً رأيت منظراً أثر في حافظتي تأثيراً لا يمحوه كرور الايام ولا اذكره الا ويقشعر بدني — شاهدت جماعة يعدون في اثر الناس نحو القصر وفي مقدمتهم رجل يحمل رأس انسان وقد قبض عليه من شعره والدم يقطر منه ويد الرجل وثيابه قد تلطخت بالدم [1] ونظرت في ذلك الرأس فاذا هو رأس الامير عبد العزيز فاوغلت في البكاء وليس من ينتبه لبكائي لاشتغال الناس عني بشؤونهم .. ولا اذكر اني بقيت في ذلك المكان الى الغروب ولم ينتبه احد اليّ ثم جاء جدي فتناولني بسرعة وطلع بي الى ذلك القصر الى حجر والدتي — على اننا لم نبق في طليطلة بعد ذلك الحادث الا بضعة ايام ثم انتقل والدي بي وبأمي الى الشام ... »

---

(١) ابن الاثير ج ٥

وكان رودريك يتكلم وسالمة شاخصة فيه وعيناها تكادان تجمدان وفي وجهها ملامح الاضطراب مع اصفرار البغتة وانقباض الحزن ورودريك يزداد مبالغة في تشخيص هول ما شاهده . فلما فرغ من حديثه رأى دمعتين انحدرتا من عيني سالمة فحمل ذلك منها محمل التأثر العام من مثل ذلك الحديث ولو كان السامع غريباً

اما سالمة فجاشت في خاطرها امور قضت بضع عشرة سنة في الصبر على كتمانها وكادت تحدثها نفسها بالتصريح لو لم يغلب عليها التعقل والصبر فامسكت نفسها وعادت الى استتمام حديث رودريك فقالت « ان حديثك غريب وقد ازعجني .. فاخبرني عما تمَّ لك بعد ذهابكم الى الشام وكيف وصلت الى بلاد البلغار .. »

فقال « انك سمعت بسير العرب لفتح القسطنطينية منذ بضعة عشر عاماً ... واني لأستغرب الآن بعد ما شاهدتُ تلك المدينة وعرفت حصونها وقلاعها كيف اقدم العرب على فتحها ... »

فقطعت سالمة كلامه قائلة « ان الغرض من الذهاب لفتحها الوصول الى هذه الارض من ذاك الطريق فيلتقي فاتحو القسطنطينية بفاتحي الاندلس هنا ويتم للمسلمين فتح هذه الارض الكبيرة وفي فتحها يتم للعرب امتلاك العالم كله . ألا ترام لما عجزوا فتح القسطنطينية كيف اعادوا الكرة لفتح هذه البلاد من هذا الطريق ..؟ »

فتعجب الشاب من سعة اطلاع سالمة على تلك الاحوال وزاد استئناساً بها فأتم حديثه قائلاً « اقص عليك خبري ليس كما ادركته حين حدوثه لاني كنت طفلاً ولكنني اقصهُ كما تفهمته بعد ذلك فاني انا وصلنا الشام فعلم بخبنا الخليفة فيها ولم اكن اعرف اسمه ... »

فقطعت سالمة كلامهُ قائلة « هو سليمان بن عبد الملك الرجل الاعرج الأكول الذي اكل سبعين رمانة وجدياً وست دجاجات في اكلة واحدة وختم الطعام بارطال من الزبيب [1] وقد كان الاولى به ان يقيم نفسه خليفة على المطابخ وليس على الناس فيقتل الامراء ويسفك الدماء ... » قالت ذلك وهي لا تتمالك عن اظهار الغضب

اما رودريك فعاد الى حديثه وهو يختصر خوفاً من ان يداهمه الطلب قبل الفراغ منه فقال « فسألنا عن الخليفة فقالوا انه خرج بجملة من الرجال الى قنسرين واعدَّ

(١) ابو الفداء ج ٢

جيشاً كبيراً ليسير الى القسطنطينية بقيادة اخيه مسلمة وكان الناس عالقي الآمال بذلك الفتح والكل واثقون بالفوز ولا ادري ما الذي اوجب ذلك الوثوق ‥ »

فقالت « سبب ذلك الوثوق اعتزاز العرب بما فتحوهُ من الممالك واعتقادهم ان العالم سيكون كله لهم وقد ساعدهم على ذلك وثوقهم بمسلمة لانه من كبار القواد وقد تمت فتوح كثيرة على يده ‥ »

الفصل الخمسون

حصار القسطنطينية

فقال رودريك « وكان والدي من اكثر الناس وثوقاً بذلك فلما دعوه الى مرافقة تلك الحملة لم يرضَ الا ان ياخذ والدتي و ياخذني معه لاعتقاده انهم فاتحون القسطنطينية وانه باقٍ هناك او في ما وراءها من البلاد · وكان والدي من المقربين الى مسلمة لانه كان يعرف اللسان اليوناني وقد تعلمه في بعض اسفاره الى بلاد الروم وهو شاب · فكان مسلمة اذا نزلت الحملة انزلنا في فسطاطه ونزلتُ انا و والدتي في خباء نسائه · وكانت تلك الحملة الهائلة حملتين واحدة برية واخرى بحرية · وكان عدد جند البر الذي نحن فيه ١٢٥,٠٠٠ مقاتل وفيهم العرب والفرس وغيرهما وكلهم ركوبٌ على الافراس او الجمال · وكانت الحملة البحرية على ما بلغني بعد ذلك عبارة عن ١٨٠٠ سفينة استقدمها مسلمة من سواحل مصر والشام والاندلس وفيها المؤونة والذخيرة · فمشى الجند البري كانه غابة من الناس والدواب · فمررنا بتيانة وعمورية وبرغاموس ففتحوها وسلَّم من كان فيها من الروم او قتلوا واستولى المسلمون على اسلابهم واموالهم · وكانت تلك الحملة تزداد ثقة وتتسع آمال رجالها كلما تقدمت لانهم لم يمرُّوا ببلد الاَّ فتحوهُ ونهبوهُ حتى وصلنا الى حدود اسيا[1] من جهة خليج القسطنطينية وهو الفاصل بيننا و بينها · وكانت الحملة البحرية قد وصلت الى هناك فاستخدمنا بعض سفنها في نقل الرجال والاحمال من بر اسيا الى بر القسطنطينية عند مكان يسمونه « ابيدوس » وهي اول مرة قطع جند المسلمين به ذلك الخليج[2] · على اننا اسينا

(١) المراد باسيا في الاصطلاح القديم اسيا الصغرى

في ذلك السبيل مشقة كبرى وكدت اغرق مع والدتي ولكن العناية ارادت بقائي لزيادة شقائي . »

فقالت سالمة بصوت منخفض « لا بل ارادت العناية بقاءك خيراً يتم على يدك لاناس انت تحبهم » فقال رودريك في اتمام الحديث فقال « وبعد ان قطعنا ذلك الخليج بافراسنا وجمالنا واحمالنا نزلنا البر وسرنا حتى اقبلنا على القسطنطينية من جهة الغرب فعسكرنا هناك في سهل واسع وحفرنا حولنا خندقاً وبنينا سوراً من التراب ومكثنا للحصار ونحن في شبه مدينة كبيرة فيها كل ما نحتاج اليه من المؤن والذخائر . وهذه أول مرة اشرفت بها على تلك المدينة الهائلة وكنت بالنظر الى صغر سني لا افقه معنى العظمة ومع ذلك فقد هالني علو اسوارها وما على تلك الاسوار من عدد الحرب — علمت ذلك مما كانوا يرشقوننا به فيما بعد من النبال والحجارة بالمجانيق . وهناك شاهدت اهوال الحرب لاول مرة . فقد كنت اصعد الى السور حتى اشرف على اسوار المدينة فأرى النبال مغروسة في جدار سورنا مثل ريش القنفذ وبعضها ملقى في السهل بيننا وبينهم حتى كثيراً ما كنت وانا العب امام خيمة الامير مسلمة أرى النبال تتساقط حولي فالتقطها ولم تكن تهمني . وكنت لا أزال أحسب الحرب لعبة حتى شاهدت ذات يوم أمراً لم أجسر بعده على الخروج من خباء والدتي :

« وذلك اني صعدت مرة على سور معسكرنا لاتفرج كالعادة فرأيت شيئاً تطاير عن سور القسطنطينية نحونا اشبه بشعلة متقدة كأنها كوكب مذنب حتى وقعت خارج السور فتبعثرت واشعلت مسافة كبيرة من العشب اليابس هناك وتطايرت منها رائحة حادة . فذعرت وأسرعت الى والدتي وانا في تلك الحال واستخبرتها فاخبرتني انهم كثيراً مايطلقون هذه النار فتحرق ما تصيبه وخوفتني فلم أعد أجسر على الاقتراب من السور . ثم علمت بعد ذلك انها ما يسمونه « النار اليونانية » وانهم غلبونا بتلك النار ٠٠٠ لانهم احرقوا بها أسطولنا من جهة البحر . والاسطول المذكور كانت الريح قد ساعدته حتى دخل الخليج الى مقابل المدينة من جهة الشرق وكان لوصوله تأثير شديد على قلوب الروم . وقد اخبرني بعد ذلك بعض الذين كانوا داخل المدينة في أثناء الحصار انهم كانوا اذا أطلوا على البحر رأوا أسطولنا كأنه غابة اشجارها الاشرعة والسواري لايقف البصر على آخرها واذا نظروا من جهة البر رأوا معسكرنا كأنه بحر امواجه الناس والدواب وسفنه الخيام والاعلام

وقد ساعدنا الحظ ان السلسلة التي تعوّد قياصرة الروم قطع مدخل القسطنطينية بها عند قرن الذهب في مثل هذه الحال كانت محلولة . وتحدّث الامراء باغتنام هذه الفرصة والدخول في ذلك الخليج فاشار عليهم بعض العارفين بالتوقف برهة لئلا يكون في الامر دسيسة . ولكنهم مع ذلك اقتربوا من الشاطيء كثيراً فما شعروا الا والاسطول اليوناني يقترب منهم فتهيأوا للدفاع واذا بهؤلاء يطلقون عليهم تلك النار كأنها خارجة من منافذ جهنم فاحرقت معظم السفن والذين نجوا منها جاؤنا وهم ينادون بالويل والثبور وقدمات منهم كثيرون

« فاصبح اسطولنا بعد ذلك لا نفع منه وتحولت الانظار الى قوّة البر . وكان مسلمة يتوقع ان يملّ اهل القسطنطينية من طول الحصار ويقلّ عندهم المؤونة فيضطرون الى التسليم وقد أطمعنا بذلك انّا بعد المحاصرة ببضعة أشهر بعث الروم الى مسلمة يعرضون عليه أن يعطوه عن كل رأس ديناراً وينصرف فطمع وابى الاّ ان يفتحها عنوة [1] او يسلم اهلها جوعاً . وأما نحن فكان مسلمة قد اعدّ كل ما يلزم للزرع والحصاد فقضينا الشتاء والصيف وزرعنا ورعينا الماشية ونحن نتوقع ملل اهل القسطنطينية فما رأيناهم ملّوا وقد حاصرناهم سنة وبعض السنة [2] وعلمت بعد ذلك ان ملك القسطنطينية يومئذ واسمه اناستاسيوس او ارتميوس قبض على أزمة الملك وليس هو من عائلة القياصرة ولكنه كان حكيماً عاقلاً فلما عاد اليه سفيره من دمشق بخبر الحرب وقدوم العرب عليه برّاً وبحراً [3] علم أن العرب سيحاصرونه فاعلن أهل القسطنطينية ان كل من لا يستطيع اختزان مؤونة تكفيه ثلاث سنوات فليخرج [4] من المدينة . فاشتغل الناس باختزان الحنطة والحبوب ورمموا الاسوار واستعدوا للدفاع والحصار . ولذلك فقد مللنا نحن قبلهم لاننا كنا نتوقع نجدة من الخليفة في مرج دابق فمات وانقطعت الميرة عنا »

فقطعت سالمة كلامه قائلة « أتعرف سبب موته ؟ »

قال « كلاّ »

قالت « لقد مات شهيد الشره ... مات من التخمة — وذلك ان احد نصاري دابق اتاه بزنبيلين مملوئين تيناً وبيضاً فامر من يقشر له البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى اتى على الزنبيلين ثم اتوه بمخ وسكر فاكله فاتخم ومرض ومات » [4]

---

(١) مختصر الدول (٢) نيسفوروس (٣) جيبن ج ٢ (٤) ابو الفداء ج ٢

فلما بلغ رودريك الى هنا لم تتمالك سالمة عن ارسال دمعتين تد حرجتا على خديها حتى ضاعتا في هداب خمارها وهي تنظر الى رودريك والاسف بادٍ في وجهها يتخلله الاستغراب ففهم انها فعلت ذلك لتأثرها من حكايته فهمَّ باتمام حديثه فاذا هي قد قطعت حديثه قائلة «هل علمت ما اصاب والدتك ووالدك »

قال كلا يا مولاتي لاني لم اعد أراهما ولا سمعت خبرًا عنهما ولا رأيت احدًا اعرفه من ذلك الحين لاني ربيت في بلاد البلغار في اشق الاحوال اعمل في رعاية الماشية وجمع العيدان والاخشاب للوقود من شدة البرد وكنت أطوف التلال والاودية مع رفاقي من اولاد البلغار او بعض خدامهم نلتقط ما نعثر عليه من كسر الخشب ونحوها ونأتي به الى المنازل فاذا اظلم الليل اجتمع اهل المنزل في غرفة قد اوقدوا النار في وسطها من الحطب والعيدان والاعشاب اليابسة فيصطفون حولها يستدفئون وفيهم الرجال والنساء والاطفال وكلهم احسن كساء مني . فقد كان على بعضهم اردية من الفرو او الصوف وانا لا ازال كما جاؤوا بي ليس عليَّ الا رداء وقميص ولولا اشفاق ربة ذلك المنزل عليَّ لمتُّ من شدة البرد فانها تحننت ببقية خمار مبطن بالجلد كان لبعض اولادها فخمرتني به واعطتني شبه جبة من جلد الماعز كانت لزوجها وقد تهرأت فلبستها فغطتني الى اسفل قدميَّ فارتدت اليَّ روحي . ولا اظنهم فعلوا ذلك شفقة وانما ساءهم ان اموت فيخسروا ما كانوا يطمعون به من ثمني

الفصل الثاني والخمسون

سوق الرقيق

« فقضيت في ذلك بضعة اعوام وقد تعلمت اللسان البلغاري وتعوَّدت عاداتهم في الطعام والشراب والصلاة ونحوها ونسيت لسان أبي وديانتها . فلما بلغت الثانية عشرة حملوني في جملة احداث كانوا قد جمعوهم من اعالي بلاد الصقالبة وساقوهم وفيهم الذكور والاناث ولا كساء عليهم غير الجلود وشعورهم مسترسلة كأنهم كانوا يقتاتون على نبات البرية ويعاشرون حيواناتها . فجمعونا معًا وشدوا ايدينا بعضها ببعض بامراس وساقونا فمشينا بضعة ايام على تلك الحال ونحن نساق كالانعام حتى اتينا الى بقعة رأينا فيها ازدحامًا من كثرة الناس

والخيول والماشية والاحمال فسألنا عن المكان فقالوا انه سوق عمومية يجتمع اليها الناس من اقاصي البلاد للبيع والشراء او للمبادلة او المقايضة . وساقونا جميعاً الى شبه زريبة حولها سور بعضه من الخشب وبعضه من الاحجار واقفلوا بابه علينا بعد ان حلوا ايدينا من الامراس . وعند وصولي الى السوق نسيت متاعبي ومصائبي لاشتغال خاطري بما شاهدته هناك من اصناف الناس واشكال السلع على غير المألوف عندي . وكنا قد وصلنا الى ذلك المكان قبيل الغروب فبتنا في الظلام والبرد وانا لا اكلم احداً من رفاقي لاني لا اعرف لسانهم ولا هم يعرفون لساني . ولما اصبح الصباح واشرقت الشمس نسينا البرد ثم رأينا الناس يتبايعون ويتقايضون ونحن نتوقع ساعة بيعنا . واذا برجلين احدهما طويل القامة جداً والآخر قصيرها وقد ترديا بالجبب المبطنة بالفرو الثخين وتلثما بخمارين من صوف وبرزت لحيتاها من بين جناحي الخمار واحمرت عيناهما من كثرة الدفء او من شرب الخمر دخلا الزريبة واصحابنا البلغاريون يسيرون امامهما باحترام وفي اثرهما جماعة من الخدم

« فلما دخلا ظل احدهما الطويل واقفاً مع اصحابنا وتقدم القصير الينا وجعل يتفحصنا واحداً واحداً وينتقي من يقع عليه اختياره منا حتى اذا وصل اليَّ تفرس في وجهي وتكلم بلسان لا افهمه اظنه قوطياً او عبرانياً لاني علمت بعد ذلك ان الرجل من تجار اليهود . فمد يده فامسك بيدي وجذبني نحوه وامرني ففتحت فمي فتفحص اسناني وحنكي وجس كتفيّ وهزهما ونظر في عينيّ واذنيّ ويديّ ورجليّ ثم اشار اليَّ فانضممت الى المختارين . وبعد الفراغ من الانتقاء تساوموا فلما تمت صفقة البيع ساقنا اصحابنا الجدد الى زريبتهم بعد ان دفعوا الثمن واظنه بخساً جداً ثم فرقوا فينا خبزاً يابساً والبسونا اكسية خشنة من الخيش والجلد بشكل واحد وقصوا شعورنا واصلحوا من شأننا بعض الشيء فسررت للشبع والدفء

« وحملنا اولئك التجار بعد ايام على الدواب مناوبة ونحن نحو المئة حتى اتوا بنا بلاد الافرنج فانزلونا في خان حبسونا فيه اياماً ثم افردوا جماعة منا انتقوهم من بيننا لصغر سنهم وجمالهم وارسلوهم الى مكان يخصون فيه الصبيان . وبلغني بعد ذلك انهم اغضوا عني لاني كبرت على تلك العملية ... »

ولما وصل بكلامه الى هنا سمعوا صوت النفير يدعو الجند الى الاجتماع فقال « اظنني اطلت الشرح فاقول بالاختصار اني انتقلت بالبيع الى بعض الأعيان من الافرنج ثم بالمقايضة الى الدوق اود . وكنت في اثناء اقامتي في هذه البلاد قد سمعت بقدوم العرب لفتحها وكانت تحدثني نفسي بالفرار اليهم لابحث عن والدي ووالدتي لاني لم اعد اسمع عنهما شيئاً

منذ خطفت منها بالقسطنطينية . وكنت قد ازمعت اذا كان معسكرنا بقرب معسكر العرب ان افرَّ اليهم فلم اتمكن من ذلك لاسباب يطول شرحها فها قد قصصت عليك خبري »

قالت « لقد سرَّني صدق فراستي فيك فانت الآن عربي وانا مستهلكة في سبيل العرب ولا يسمح لنا الوقت الآن بالتفصيل فانترك ذلك لفرصة اخرى وعندي امور تتعلق بوالديك وجديك سأقصها عليك . اما الآن فامض في عملك واجتهد اذا حملتموني معكم في هذا السفر ان اكون في عهدتك لنتخابر بشأن النجاة . . »

قال « سمعاً وطاعة » وتحوَّل من الغرفة واغلق الباب وراءه . فاذا هو يكاد يعثر برجل عليه لباس مخالف لزي الجند كان قاعداً القرفصاء في الدهليز بقرب الباب وقد ادار كوعيه حول ركبتيه ودفن رأسه في حجره . فلما رآه رودر بك اجفل وخاف ان يكون قد سمع ما دار بينه و بين سالمة فرفسه برجله كأنه يوقظه من النوم فلم يتحرك فرفسه ثانية وهزه فتظاهر الرجل بالكسل الشديد ورفع رأسه وتثاءب وتمطى وجعل يفرك عينيه و يتلفت حوله كانه افاق من سبات عميق . فارتاح بال رودر بك من قبله لتوهمه انه كان نائماً هناك من كسل او تعب فانتهره وامره ان ينصرف فتظاهر بالخوف ووقف مسرعاً وخرج يهرول

الفصل الثالث والخمسون

موكب اود

اما سالمة فانها فرحت برودر بك واستبشرت بالنجاة على يده لما ظهر لها من ثقة الدوق اود به فاذا كان هو خفيرها في ذلك المعسكر هانت النجاة عليهما فتذهب الى معسكر العرب وتخبر عبد الرحمن بما علته من استنجاد اود لشارل (قارله) لئلا يخدع بقلة جند الافرنج فيأتيه شارل على غرة فيغلبه واذا غُلب العرب هناك في وقعة واحدة حبطت مساعيهم كلها . ثم تذكرت حسان وكيف تركته في الغدير وتمنت ان يكون في خير وعافية وان يبقى في قيد الحياة حتى يرى رودر بك و يعرف من هو لامر يهمها — وكانت الشمس قد مالت عن الهاجرة فوقفت سالمة الى النافذة لتشاغل بما يبدو من اهتمام الجند بالتقويض والتحميل ريثما يأتيها النبأ بشأنها لترى الى اين مصيرها — فقضت ساعة

وهي في تلك الحال حتى رأت موكب الدوق أُود وحوله الفرسان على افراس سروجها مفضضة وعليهم الالبسة البراقة بالالوان الباهرة كالازرق والارجواني · والدوق اود في الوسط على فرس من جياد الخيل وعلى راسه قبعة مرصعة تتلألأ حجارتها باشعة الشمس كانها مصابيح · وعلى كتفيه طيلسان او رداء سنجابي اللون. كالطيلسان موركش بالقصب الى اردانه · وفي عنقه قلادة من الذهب يتدلى منها على صدره صليب من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة من الالماس والياقوت · ونظرت سالمة الى سرج الجواد ولجامه فاذا هما ايضاً مرصعان والجواد تحته يتلاعب كانه يرقص تيهاً وهوا كثر تيهاً من فارسه الدوق · وكان الدوق قد اصلح من شأنه ولكن الاضطراب مازال بادياً من خلال تلك العظمة · وربما كان السبب في ذلك ندمه على استنجاده عدوهُ شارل على العرب — ولعلك لو اطلعت على باطن سره لرأيته لشدة ندمه يفضل ان لا يجيب شارل دعوته او يحدث ما يثنيهِ عن عزمه فيبقى هو وحده امام العرب فاما ان يغلبهم فيبقى سيد اكيتانيا وحده او اذا خاف ان يغلبوه صالحهم فيمتلكوه ارضه تحت حمايتهم · واما شارل فاذا تمَّ النصر على يده لا يقنعهُ غير السيادة على الافرنج كافة ويصبح اود تبعاً منسياً اذا لم يقتله بعض المتزلفين لشارل · ونظنهُ لو تحقق بقاء حاله مع الافرنج مثلها مع العرب لفضل العرب على الافرنج لما في فطرة البشر من التحاسد بين الاقرباء اكثر مما بين الغرباء · فالانسان اذا ترك لفطرته وخيرته ان يذلَّ نفسه لبعض ذوي قرابته او لاحد الغرباء فضل الخضوع للغريب · ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء اسهل قياداً واقرب خضوعاً لقوانين الدولة ممن يحكمهم اناس من ابناء جلدتهم لذهاب الهيبة بين ابناء الاب الواحد لانهم يتعارفون وهم صغار ومن يعرفك صغيراً لايحترمك كبيراً · وبهذه القاعدة نستدل على كثير من غوامض التاريخ المختلف في حقيقتها كأصل الفراعنة الاولين مثلاً فالمؤرخون مختلفون في هل هم مصريون او دخلاء · ونظراً لما نعلمه من استعبادهم اهل البلاد الاصليين نرجح انهم غرباء فاتحون للاسباب التي قدمناها · ناهيك بالتحاسد بين الرئيس والمرؤوس في ابناء الوطن الواحد ويشتد الحسد بين اثنين على نعمة كلما تقارب اقتدارهما على نيلها او تشابهت اسبابهما اليها · ولذلك كان التحاسد على اشده بين اصحاب المهنة الواحدة —

فلا غرو بعد ذلك اذا تخيلنا في اود الندم على استنجاد شارل — على انه لما اقترب بموكبه من نافذة سالمة التفت نحوها فوقع نظره عليها فرنا اليها قليلاً ولم يبدِ اشارة · ثم توارى الموكب عن سالمة ورأت الجنود تسير على الاقدام في اثره جماعات بحسب قبائلهم

وبينهم الامراء والقواد بالادراع والخوذ على الافراس وبين يديهم حملة الاعلام وهي كثيرة الاشكال والالوان على بعضها رسم الصليب وعلى البعض الآخر صورة العذراء تحمل طفلها او صور ملائكة او طيور او غير ذلك من الشارات المسيحية او الرومانية · وكانت جوقة الموسيقى قدمشت بين يدي الدوق صامتة فلما تم تحرك الجند سمعت سالمة قرع الطبول والصنوج والابواق ونحوها فتحركت عواطفها وتصورت قرب انتشاب الحرب بين العرب والافرنج بعد وصول النجدة لهؤلاء فكيف تكون العاقبة لو قدرت الغلبة للافرنج وعاد العرب مدحورين فاذا تصورت ذلك اقشعر بدنها وصعد الدم الى وجهها

فلما سار الجند وكاد يتوارى عن بصرها ولم يبق في ذاك المعسكر الا شرذمات قليلة من الخدم والاعوان ورات نفسها لاتزال منفردة هناك ولم يات رودريك اليها بطعام ولا كلام اشتغل بالها واوجست من تاخره شرًا فتحولت عن النافذة نحو الباب لعلها ترى احدًا قادمًا فاذا هي تسمع وقع اقدام بلا خفق نعال ومشيةً غير مشية رودريك · فقالت في نفسها من عساه ان يكون القادم · وما عتم ان فتح الباب ودخل منه رجل بلباس اشبه بالبسة العرب وحالما وقع بصرها عليه رأت فيه شبهًا بالرسول الذي جاء بالكتاب الى اود وهي عنده فاستعاذت بالله وخافت ذلك القدوم ولكنها تجلدت وثبتت جاشها وابتدرت الرجل قائلة « ما الذي تريده ؟ »

الفصل الرابع والخمسون

الأحول

فنظر اليها وعيناه تتباعدان من شدة الحول وتترافصان فقال « لا اريد شيئًا ولكن حضرة الدوق امرني ان اكون في خدمتك » قال ذلك وهو يصلح رداءه على كتفيه وقد بان السيف من تحته

فلما رأت سالمة حوله عرفته فانقبضت نفسها وخافت سوء العاقبة لعلمها انه من اكبر جواسيس ميمونة واعتقدت ان كل ما نالها من الشر انما كان على يده · ولكنها لم تكن تجسر على التصريح بذلك · فلم ترَ خيرًا من التجاهل والتجلد فقالت « بورك فيك · · · · العلك من اهل هذا المعسكر ؟ »

فابتسم كانه يهزأ من جهلها وقال « لا . . ولكني من معسكر آخر . . . » وضحك ثم قال « هل تحتاجين الى خدمة اقدمها لك ؟ »

فظلت سالمة على تجاهلها ولم تكترث بما بدا منه فقالت « لا غنى لي عن خدمتك . . ولكن اين هو الشاب الذي كان يخدمني قبلك . . . »

قال وهو يقلب شفته السفلى امتهانا « لا ادري . . . ولعله سار بمهمة الى طليطلة او بلغاريا . . . او ربما اشتد حنينه الى اجداده فطار اليهم . . . »

فلما سمعت تعريضه بما دار بينها وبين رودريك سرًا خفق قلبها وكادت تظهر البغتة في وجهها فبالغت في التجاهل وقالت « اني اشكرك . . لا احتاج الى شيء الآن » وارادت ان ينصرف لتخلو بنفسها وتفكر في امرها

فقال لها « ألا تحتاجين الى شيء ابدًا مطلقًا ؟ . . . ألا تتوق نفسك الى احد في بوردو او في نهر لوار . . . »

فعلمت أنه يسخر بها وانه مطلع على اسرارها ولو اجابته لسمعت من هزئه ما يؤلمها فتحولت عنه وهي تتظاهر بالسذاجة وقالت « لا . . . لا احتاج الى شيء . . »

فقال « اذا كنت لا تحتاجين الى شيء فانا احتاج الى اشياء »

فالتفتت اليه لتستطلع غرضه فاذا هو يضحك ويستخف بها ثم قال « اني احتاج الى حضرتك . . »

فقطبت حاجبيها وبدا الغضب في وجهها وغلبت عليها الانفة وعزة النفس وقالت « وما هي حاجتك يا غلام . . ؟ »

. قال وقد هاب منظرها « لا تغضبي يا مولاتي اني اطالبك بما امرني به حضرة الدوق . . »

قالت « وما هو ؟ » .

قال « ان تتأهبي للمسير في اثر هذه الحملة فتنزل حيث ينزلون »

ففهمت من صيغة الجمع في كلامه انه سائر معها فقالت « وهل نسير الآن ؟ »

قال « نعم في هذه الساعة وقد اعددنا لك فرسًا تركبينه . . »

قالت « اني مستعدة اذ ليس عندي أثاث احمله معي »

قال « فتفضلي اذًا . . » قال ذلك وأشار بيديه نحو الباب

قالت « اخرج وأنا خارجة في اثرك » فخرج

فالتفّت بردائها فوق الخمار وتفقدت المحفظة وسائر ما معها وخرجت الى الدهليز ومنه الى الباحة حتى اطلت على صحن الدار فرأت هناك فرساً مسرجاً وحوله فرسان مدججون بالسلاح وفي ايديهم الحراب وعليهم الادراع كأنهم يخفرون عشرين سجيناً متمردين • فلم تعبأ سالمة بهذا المنظر فتقدمت الى فرسها فركبته وساقته فمشى الفرسان حولها في شبه الحلقة • وركب الاحول حماراً كان هناك وسار في أثرهم

سارت سالمة في ذلك الموكب وهي غارقة في بحار الهواجس تفكر في ما داهمها على غير انتظار بعد ان كادت تنجو من الخطر • وفكرت في رودريك فغلب على ظنها انهم حبسوه او قتلوه وانها هي صائرة الى مثل ما صار هو اليه ولم يكن الموت ليخيفها لولا خوفها ضياع امور تود انجازها قبل الموت — ومن الناس من تتسلط فيه معرفة الواجب حتى تنسيه حاجيات نفسه فلا يطلب البقاء الا لواجب يقوم به فاذا أدّى الواجب أصبح الموت والحياة سيّين عنده

قضت برهة في هذه الهواجس حتى تعبت وفرسها سائر بها الى حيث لا تعلم ولكنها كانت ترى الحملة تارة امامها وطوراً الى جانبها فعلمت انها تابعة لها • وتبينت من مسيرهم نحو الشمال انهم يقصدون تورس على نهر لوار • فلما تذكرت ذلك النهر اختلج قلبها في صدرها وتصورت ما عليها من العهود والمواثيق المتعلقة بذلك النهر وتذكرت أشياء كثيرة زادتها انقباضاً وتعاظم عليها الامر حتى كادت تبكي ولو بكت لانشرح صدرها

وفي الغروب وصلت الحملة الى مكان حطوا احمالهم فيه للمبيت موقتاً وفي الصباح نهضوا لمواصلة السير وسالمة لا يخاطبها أحدٌ في شيء غير ما لا بدّ منه مما يتعلق بالطعام أو نحوه — وكانت في أثناء الطريق تتأمل في ما يقع عليه بصرها من الدروب او التلال او نحوها وتتفهم ما يدور بين الجند من الحديث لعلها تطلع على خبر جند العرب واين هم • وكانت تتصفح الطريق الذي هم سائرون فيه عساها ان ترى أثراً يدل على اجتيازهم ذلك المكان فلم تر شيئاً يدل على مرورهم • فترجح عندها انهم لم يصلوا الى هناك بعد مع انها سمعت بقيامهم من بوردو يطلبون بواتيه فنهر لوار • وكانت على يقين انهم لا يلقون في طريقهم كبير مقاومة لما مهدته لهم • وأما المعركة الكبرى فستكون على ذلك النهر — فمن غلب هناك ملك

الفصل الخامس والخمسون

تورس

وباتوا تلك الليلة أيضاً في الطريق واصبحوا مسافرين يجدون السير . وقضوا يوماً رابعاً على هذه الصورة وهم تارة ينحدرون في واد وآونة يصعدون على جبل وحيناً يمرون في سهل حتى وصلوا في أصيل اليوم الرابع الى نهر صغير يقال له نهر شير تحف به التلال من الضفتين فضلاً عن الغياض والبساتين فقطعوا النهر من ضفة اليسرى الى اليمنى ثم صعدوا على اكمات اطلوا منها على سهل واسع ينتهي بمدينة تورس . الكبرى ووراءها نهر لوار لانها واقعة على ضفته اليسرى . وكان الليل قد سدل نقابه فلم تشاهد سالمة شيئاً لبعد المدينة عنهم

وبعد مسير ببضعة أميال من شير اختاروا مكاناً عسكروا فيه على نية الاقامة هناك فعلمت سالمة أنهم قد حطوا عصا التسيار فلبثت تتطلع ما يفعلونه بها فاذا هي بالاحول المعهود قد جاء ومعه بعض الخدم نصبوا خيمة خصوصية على مقربة من فسطاط الدوق أود — علمت ذلك من شكل الفسطاط بما فيه من دلائل البذخ والقصف فلم يهمها الامر وقد كادت تيأس . وقضوا معظم ذلك الليل في نصب الخيم واعداد اسباب الاقامة

اما سالمة فانها دخلت خيمتها فرأت الخادم قد احضر لها الطعام فتناولته والتمست الراحة فنامت وهي تفكر في رودريك لانها لم تشاهده في اثناء الطريق ولا سمعت عنه شيئاً ولم تكن تجسر على ذكر اسمه خوفاً من زيادة الشبهة عليه

وافاقت في صباح اليوم التالي على صوت البوق بما لم تعهده من قبل فنهضت واستفهمت الرجل الموكل بحراستها عن السبب فقال لها « ان الدوق يدعو الجند الى الاجتماع في الساحة الكبرى امام فسطاطه للصلاة قداساً كاملاً على اسم القديس مرتين حامي حمى الافرنج لانه مدفون في هذه الجهات وقبره محج للنصارى من انحاء اكيتانيا واوستراسيا »

وكانت سالمة تعرف ان القديس مرتين المذكور كان رسول النصرانية الى الغاليين في القرن الرابع للميلاد وكان اسقفاً في تورس ولما توفي دفنوه في ضاحية من ضواحيها وبنوا بجانب قبره كنيسة وديراً واصبح المكان محلة تعرف باسمه وصاروا يحجون اليه وينسبون له المعجزات

فلما رأت سالمة اجتماع الجند وكهنتهم في تلك الساحة للصلاة وقفت بباب خيمتها لتشاركهم في صلواتهم فاذا بالدوق قد خرج من فسطاطه في حاشيته واعوانه وكلهم بالملابس الرسمية وقد تقدمهم القسوس بالثياب الكهنوتية وبايديهم الصلبان وهم يترنمون وامامهم بعض الشمامسة يحملون صليباً على عصا طويلة حتى وقفوا في تلك الساحة في شبه منبر ووجوههم مولاة نحو كنيسة القديس مرتين عن بعد والجند وقوف · فاقاموا قداساً طويلاً وكانت القلوب متخشعة وملؤها الآمال بالنصر على الاعداء ببركة تلك الصلاة

— ومن غرائب مطامع البشر وضعف طبيعتهم انهم يسنون الشرائع بتحريم القتل ويشددون النكير على القاتلين ثم يرفعون اكف الضراعة الى موحي تلك الشرائع ان يساعدهم على قتل ابناء جلدتهم وهم مع ذلك يتوقعون اجابة سؤلهم لاعتقادهم انهم انما يلتمسون نصرة الحق وتأييد الدين الصحيح · وكل طائفة تعتقد ذلك وتفعله · ولو عقلوا وادركوا معنى الدين لطلبوا حجب الدماء وتكاتفوا على حفظ السلام · ولكنهم لا يفعلون ذلك كانهم ادركوا بالسليقة ان الحرب ضرورية للبقاء وانهم لو لم يقتلوا بعضهم بعضاً لقتلهم الجوع او الوباء لان الارض اذا مضى عليها بضعة قرون ولم تحدث فيها حرب ضاقت بما كنيها · وقد قدروا عدد الذين قتلوا بالحروب من اول عهد التاريخ الى الآن بخمسة اضعاف سكان البسيطة كلها غير ما يترتب على بقائهم من التكاثر بالتناسل المتضاعف

ومهما يكن من الامر فالحرب باقية ما بقي حب الذات وهو باق ما بقي الانسان وبناء على هذا الاعتقاد سعى بعض رجال التمدن الحديث في تخفيف ويلات الحرب مقابلة لما اخترعوه من آلات الدمار التي لم تكن في عهد التمدن القديم

وكانت سالمة لما سمعت اصوات المرتلين وشمت رائحة البخور قد تخشعت واستغرقت في الافكار وتذكرت تاريخ حياتها وما مر بها من الاهوال · ولم يقف فكرها الا في معسكر عبد الرحمن اذ تذكرت ابنتها مريم وكيف خلفتها هناك وماذا عسى ان يكون من امرها بعد انتقال العرب في طريقهم الى تورس · وتذكرت ميمونة فاختلج قلبها لذكراها خوفاً على مريم من حبائلها لما تحققته من لؤمها واصبحت شديدة الرغبة في اطلاع العرب على ما عرفته عنها واذا استطاعت ذلك فانها تنقذهم من مكائدها · ولما بلغت بها تصوراتها الى هذا الحد تذكرت حسانا لانه لو كان معها لانقذته في هذه المهمة — فاستغرقت في هذه الهواجس مدة والناس يضجون بالصلاة والقسوس يرفعون اصواتهم بالترتيل ووجوههم متجهة نحو دير القديس مرتين

وكانت سالمة وهي واقفة لسماع القداس لا تتمالك عن ارسال بصرها الى اطراف ذلك المعسكر وما وراءه من السهول الى نهر لوار ومدينة تورس على ضفته وبازائها تحلة دير القديس مرتين على انها لم تكن ترى من تلك الاماكن الا رؤوس الابنية الشاهقة لبعد المسافة

وفيما هي تسرح بصرها على تلك الصورة رأت الى يسار المعسكر شبحين ظهرا من وراء الافق عن بعد . فاطلّ اولاً رأساها ثم تبين بدناها بالتدريج فاذا هما فارسان . فظلّ بصرها عالقاً بهما وشعرت برغبة في استطلاع حالها ثم ما لبثت ان رأت عليها لباس الرهبان الاسود وعلى رأسيها القبعة . فقلّت رغبتها في الاطلاع لكثرة الرهبان في تلك الاصقاع وكثرة ترددهم الى المدن لابتياع حاجيات الاديار . وبعد قليل رأت الراهبين قد اختلطا بالجند ووقفا معهم للصلاة فحولت وجهها عنهما وعادت الى هواجسها فتذكرت الشاب رودريك وودت لو انها تجتمع به هناك ولو لم يكن من ذلك الاجتماع فائدة لها ولكنها كانت قد استأنست به

الفصل السادس والخمسون

طارقان

ثم سمعت دق الاجراس مؤذنة بالفراغ من الصلاة وتفرق الجند الى مضاربهم وعاد اود الى فسطاطه وحوله الحاشية والاعوان ودخلت سالمة خيمتها وحول الخيمة ثلاثة من رجال اود بالحراب يحرسونها ولكنها لم تر الاحول بينهم ولا رأته من ذلك الصباح . فقضت بقية ذلك اليوم في الخيمة وقلبها يحدثها بامر سيحدث ويكون فيه الفرج لها وان كانت لا ترى باعثاً على هذا الامل بل هي ترى كل ما حولها ينذرها بضد ذلك — ولكن في صواحب الاحساس الدقيق من النساء نوعاً من الشعور لا يعبّر عنه بغير الالهام لما فيه من الغرابة بالنظر الى الرجل . فقد تشعر المرأة بالحادث قبل وقوعه وتنذر رجلها به . ولو طالبها بالدليل لأسكتها لانها لا تتكلم عن اقتناع بالبرهان ولكنها تشعر فتقول ما تشعر به ويغلب صدقها فيه لاسباب لا تزال مجهولة . وأما الرجل فانه لا يرتأي الا ما يرشده اليه

عقله بالقياس والبرهان — فلما احست بالقطع بتلك الآمال انبسطت نفسها ولكنها كانت لثقلها تحمل ذلك الشعور محمل الوهم لانها ترى المصائب محدقة بها من كل ناحية

ولما أمسى المساء جلست على بساط مفروش في خيمتها وهي تشعر بارتباك وتردد فعمدت الى الصلاة لانها كانت قد تأثرت من قداس ذلك الصباح ورأت في الصلاة راحة.

وبعد الصلاة توسدت وليس في خيمتها مصباح . وهي لم تطلب الرقاد نعاساً ولكنها ملت الاحتباس ومن يظلم بصره تستنير بصيرته فاستغرقت في الافكار ولم يكن يعترض مجاري أفكارها غير ضجيج الخدم في ذهابهم وإيابهم وصوت النفير أحياناً — وبينا هي كذلك سمعت حديثاً قريباً من خيمتها فانهضت رأسها والتفتت فرأت بصيص نور يتراءى في الخارج وراء جدار الخيمة وسمعت لغطاً لم تستطع فهمه فجلست واصاخت بسمعها فانجلى لها الصوت فسمعت الحديث الآتي بلغة البلاد :

— لا أظنك تقدر على منعي

— بل أنا قادر حتى يأمرني الدوق بما يريد

— وما في هذه المسألة ما يستدعي مشورة الدوق

— بل لا بد من مشورته لان لهذه السجينة شأناً خصوصياً لا يقاس بشؤون سائر المسجونين وقد أوصانا حضرة الدوق بمنع أي كان عن مقابلتها

— يا للعجب أبلغت بك القحة ان تقف في سبيل الفروض الدينية ... ؟

— لا يعنيني ... وما الذي يضرك لو استأذنت الدوق في ذلك ؟

— لا يضرنا شيئاً ولكنكم تعلمون أننا قد كرسنا حياتنا لاستتابة المجرمين وأصحاب الذنوب وأننا نطوف السجون ونزور المسجونين ونعظهم ونحرضهم على التوبة

— ربما كان ذلك صحيحاً ولكننا غير مأذونين بغير المنع القطعي ومع ذلك فان لنا قيماً لو كان هنا لاغنانا عن مشورة الدوق لانه مفوض من قبله بهذا الشأن

— اين هو ذلك القيم ؟

— لا ندري فقد ذهب في هذا الصباح وأكد الوصاية علينا وشدد في منع أي كان من الدخول

— ارسلوا واحداً يستأذن الدوق

— نخشى ان يكون في فراشه فاجلوا المقابلة الى الغد

— الوقت ضيق لا يأذن بالتأجيل لاننا ذاهبون في صباح الغد الى دير القديس

مرتين ... اذهب فاستأذن الدوق ولا تطل الجدال ... أني لم ألاق مثل هذا الوقح في طول عمري ... واذا لم يعجبك الذهاب فانني داخل الخيمة رغم ارادتك وستلاقي جزاء وقاحتك في الغد

— (صوت آخر) لا تغضب يا حضرة الاب ان رفيقي شاب لا يعرف حقوق السادة الرهبان والقسيسين ... تفضلا فادخلا ولا حاجة الى الاستئذان لكننا نطلب اليك ان تذكرنا في صلاتك

— بورك فيك يا بني هكذا يكون ابناء الخلاص ... ولكنني اقدم اليكم ان تتباعدوا قليلاً عن جوانب الخيمة لئلا يصل اليكم حديث الاعتراف ولا يخفى عليكم ان الاعتراف سرٌّ من الاسرار المقدسة

— طبعاً .. لا شك في ذلك ... تفضل وادخل ونحن متباعدون ولكن أرجو من قدسك ان تختصر بقدر الامكان لئلا يبلغ الامر حضرة الدوق فيلومنا على ادخالكم بدون اذنه »

وكانت سالمة تسمع ذلك وقلبها يخفق خفقاناً متسارعاً لدهشتها واستغرابها وبذلت جهدها في معرفة ذلك الصوت فلم تعرفه ولكنه أذكرها بالراهب الذي صحبها من الدير الى قرب بواتيه لانه مثل صوته . فلبثت صامتة لترى ما ينتهي اليه الجدال فلما انتهى على تلك الصورة تطاولت بعنقها لترى الداخل واذا هو راهب بيده مصباح على شكل طائر ملتفت نحو الاعلى والنور فتيلة مضيئة بارزة من منقاره وقد امسك الراهب ذلك المصباح باحدى يديه على قبضة في أسفله بشكل الصليب وتوكأ باليد الاخرى على عكازه . فلما رأته سالمة نهضت وتفرست في وجهه فاذا هو ذلك الراهب بعينه فرحبت به وهمت بتقبيل يده والصليب الذي هو قابض عليه . وهي تفعل ذلك اذ رأت راهباً آخر دخل واسرع الى يدها ليقبلها فأجفلت وتراجعت وقد تجملت ولكنها ما لبثت ان تفرست في وجهه حتى عرفت انه خادمها حسان فبغتت وكادت تنطق باسمه لو لم تنتبه لنفسها وتخاف الفضيحة فتجلدت واشارت الى الراهب وحسان بالقعود وقعدت هي والدهشة لاتزال بادية في وجهها وهي تتوقع ان تسمع من احدهما ما يذهب دهشتها

فوضع الراهب المصباح على الارض وقعد وظل حسان واقفاً فاشارت اليه ان يقعد فقعد متأدباً وهو يقول بصوت منخفض « احمد الله على وصولي اليك يا مولاتي وارجو ان أكون قد جئتك بالفرج »

فهمت سالمة بالجواب وهي تحاذر ان يبدو منها ما تؤاخذ عليه لعلمها ان رئيس ذلك الدير شديد التعصب للافرنج وبكره العرب فلم تكن تتوقع مجيء ذلك الراهب اليها لنصرتها فقالت « وما الذي جئتني به ... ألبس حضرة الاب من رهبان الدير الذي بتنا فيه وبقيت انت هناك جريحاً ؟ »

فاجاب الراهب قائلاً « بلى .. وانا اوصلتك الى بوابته حتى اخذوك مني فرجعت واخبرت حضرة الرئيس بما جرى ولولا ذلك لم يكن الاهتداء اليك ممكناً ... »

فلم يزدها قوله افصاحاً عن المهمة التي هما قادمان بها فالتفتت الى حسان وتفرست في ثوبه فكاد يضحكها ما هو فيه من لباس الرهبان فقالت له « يظهر انك انتظمت في سلك الرهبنة ... »

قال « لبست هذا الثوب يا مولاتي ذريعة للوصول اليك وقد حرضني على ذلك حضرة الرئيس وانفذ معي حضرة الاب برسالة سيبلغها اليك »

فاشتاقت لمعرفة تلك الرسالة فالتفتت نحو الراهب ولسان حالها يقول « تفضل »

الفصل السابع والخمسون

بشرى

وللحال هم الراهب بالكلام تذكرت سالمة ما اصابها في المرة الماضية مع رودريك وكيف اطلع ذلك الاحول على حديثهما فتقدمت الى الراهب ان يتمهل واشارت الى حسان ان يتفقد الحرس واماكنهم . فانطلق من باب الخيمة ومن ثقوب في بعض جوانبها فتحقق بعد الحراس بضعة امتار عن الخيمة وهم جلوس يتحادثون فعاد وطمأنها وقعد . فاخذ الراهب بالحديث بصوت منخفض وسالمة متطاولة بعنقها وكلها اذان لاستيعاب كلامه فقال :

« لا يخفى على مولاتي اننا معاشر الرهبان وسائر جماعة الاكليروس قد اوقفنا حياتنا لعبادة الله وخدمة بني الانسان لا نبتغي على ذلك اجراً غير خلاص نفوسنا . ولذلك فقد اكرم الامراء والملوك وفادتنا وساعدونا في مشروعاتنا ونحن ايضاً ساعدناهم في حمل الشعوب على الطاعة ؛ وكثيراً ما كنا سبباً في تنصيبهم وعزلهم . فاصبح الرهبان موضع ثقة اولي

الامر ونعل احترامهم لايحاوف امراءهم ونحن نحافظ على ولائهم ونخدمهم بما في وسعنا . وكان الدوق اود (وخفت صوته) من انصارنا ونحن من اعدائه الا في بعض الاحوال ولكننا على الاجمال كنا نغضي عن بعض سقطاته ونحملها منه على الضعف البشري لعلمنا اننا في حال تدعو الى جمع الكلمة في اثناء الحرب . ولو انحرفنا عنه قليلاً واظهرنا استياءنا منه امام الشعب لقضي على دولته من زمان مديد . لان الشعب الغالي اهل هذه البلاد الاصليين لايحبون الافرنج وهم مستعدون لخلع نيرهم عند أول اشارة منا . ولكننا لم نفعل ذلك بل كنا نبذل الجهد في حفظ تلك السلطة لهم واظنك لاحظت ذلك من رئيسنا المحترم في اثناء حديثك معه . اما الآن فقد ارتكب الدوق اود امرًا دل على ضعفه وجبنه لم يبق لنا معه صبر على هذه الحال . اظنك عرفت ذلك الامر ? . »

فاطرقت سالمة واعملت فكرتها في استطلاع ذلك السبب فلم ينتظر الراهب جوابها فقال « ان الامر الذي اراده الدوق اود اذا توفق اليه فانه يذهب بسلطانه ويضيع كرامتنا ويخرب اديارنا فتضيع الديانة ويعبث الناس فوضى . »

فانتبهت سالمة لغرضه فقالت « اظنك تعني استنجاده الدوق شارل صاحب اوستراسيا . . »

قال « نعم هذا الذي اعنيه لان هذا الدوق من اشد الناس وطأة على رجال الله وقد اذاق اكليروس اوستراسيا مر العذاب فقبض املاك الاديرة وفرقها في جنده واهان الاساقفة وارتكب في ذلك كل معصية . وقد دعاه اود الآن لنصرته فاذا فاز بالعرب اصبحت اكيتانيا هذه في قبضته واصبحت اديرتنا عرضة لمطامعه

« وكثيرًا ما كان اود يهمّ باستنجاد شارل ونحن نزجره ونخوفه على نفسه وعلينا فلما خاف خيول العرب وسيوفها عمد الى استنجاد ذلك الرجل — وقد وقع هذا الخبر وقعاً سيئاً عند اهل هذه البلاد كافة كهنتها وشعبها لعلمهم بما سيترتب على هذا الامر . . »

وكان الراهب يتكلم وقلب سالمة يكاد يطفح سرورًا وتذكرت ما كانت تحدثها به نفسها في اثناء ذلك النهار واعتقدت انها ألهمت الصواب وان الامر ابتدأ ينقلب على الافرنج من تلك الساعة ولكنها ظلت صامتة لتسمع بقية الحديث

ولم يتوقف الراهب عن الكلام الا ريثما سعل ومسح لحيته بمنديله ثم قال « وكان من اشد الناس غضباً لذلك رئيسنا المحترم لانه كان من اكثرهم ولاء لأود ودفاعاً عن مصلحته فلما علم بما ارتكبه اصبح شديد الرغبة في عرقلة مساعيه لاعتقاده انه اذا نجح في ذلك

يكون قد خدم شعبه وحكومته وكنيسته · والظاهر انه كان قد لحظ من كلامك نصرة العرب او ربما جاءه كتاب من اسقف بوردو في هذا الشان — لا ادري · ولكن الذي اعلمهُ انه بعث اليَّ ذات صباح وسألني عنك مع اني كنت قد انبأته يوم رجوعي بما جرى امام باب بواتيه ولكنه دقق عنك في البحث وسألني عن الرجال الذين اخذوك مني · فاخبرته انهم من رجال الدوق اود فهزَّ راسه ومصَّ شفته وامرني ان استقدم هذا الشيخ وكان قد اخذ في النقه من جرحه ولم اخبره بعد بخبرك لئلا اكدره · فلما امرني الرئيس باستقدامه سرت اليه وقصصت عليه خبرك فتكدر ثم اتيت به الى الرئيس · فلما وقف بين يديه امرني فاقفلت الباب فسرَّ الينا امرًا كانني ان ابلغك اياه ولا ريب انه يسرك لانه سيكون طبق الغرض الذي انت ساعية فيه ··· هل اقوله ؟ »

فقالت « أتسألني ؟ قل »

قال « قد اعطاني كتابًا كتبه بخط يده الى رئيس دير القديس مرتين لا ادري فحواه ولكنه بلا شك يتضمن تحريضه على مقاومة شارل وجنده حتى لا يفوزوا على العرب او لكي لا يجار بوم لان رئيسنا اصبح بفضل سلطان العرب على سلطان شارل وزمرته لما تحققه من رفق المسلمين برعاياهم المسيحيين فنأمن بالاقل على اديرتنا وكرامتنا ·· »

فلم تتمالك سالمه عند سماع تلك العبارة عن الابتسام من شدة الفرح ونسيت كل ما مرَّ بها من المتاعب وتحققت ان كل ما اصابها من الشرور انما كان القصد منه الوصول الى هذا الخبر وان ذلك كله حدث بعناية مخصوصية من مدبر هذه الكائنات — ذلك هو اعتقاد أهل الايمان من كل الاديان « والانسان من فطرته ميالٌ الى ذلك فيحسب الدنيا وجدت لخدمته وحده فاذا زرع وأمطرت السماء قال انها تمطر اكراماً له واذا جفت فجفافها نكاية فيه » ولذلك فاذا أصابته مصيبة ولو كان هو الجاني بها على نفسه شكا من فاعل آخر يتتبع خطواته فاذا لم يسمه الخالق سماه الدهر او الزمان — فلما توسمت سالمة قرب نجاح مهمتها ابتسمت وقالت للراهب « واين الكتاب ؟ »

فمد يده الى كمه واستخرج لفافة دفعها اليها فتناولتها فاذا هي مختومة فوضعتها في جيبها وهي تقول « وما هو السبيل الى دير القديس مرتين وحولي الحراس ساهرون ليلا ونهاراً ·· ؟ ألا يقوم بايصال هذا الكتاب أحد بالنيابة عني ··؟ »

فقال الراهب « لا يستطيع ذلك احد سواك لانه عبارة عن كتاب توصية بك وقد ترك اقناع الرئيس لك — واوصانا رئيسنا حفظه الله ان نبذل الجهد في انقاذك من هذا

السجن فما الذي ترينه ؟ »

قالت « لا أدري .. وأظن حضرة الرئيس قال ذلك وهو لا يعلم مقدار التضييق المحدق بي في هذا السجن وقد شاهدتم ذلك بنفسكم الآن وسمعتم أقوال الحراس فهل ترون لي حيلة .. »

الفصل الثامن والخمسون

شهامة

وكان حسان لا يزال صامتاً الى تلك الساعة فلما رأى حيرتهما قال « عليَّ تدبير هذا الامر .. »

فالتفتا اليه معاً وهما لا يتوقعان منه الاستطاعة على ذلك فاصاخا بسمعهما اليه وقالت سالمة « وما هو التدبير ؟ اذا كان من تدبير فليكن عاجلاً »

قال « عليَّ تدبير ذلك في هذه الساعة »

فقالت « وكيف ؟ ... »

فوقف حسان وعمد الى جبة الرهبنة التي كانت عليه فحل حبلها من حول خصره وطوتها من حول عنقه واخذ في نزعها وهو يقول « عليك بهذه الجبة فالبسيها فوق أثوابك واجعلي هذه القبعة على رأسك وهي تتقفل من الجانبين فتغطي الوجه واليك هذا العكاز واخرجي مع حضرة الراهب فلا يشك احد في أنكما الراهبان اللذان دخلا الآن ومتى بعدتما عن المعسكر افعلا ما تريانه .. »

فاعجب الراهب بتلك الحيلة اللطيفة واستغرب شهامة حسان بحيث فضل أن يلقي بنفسه الى التهلكة فداء عن مولاته — أما سالمة فلم تستغرب ذلك ولكنها لم تتمالك عن الثناء على حسان وقالت « لا استغرب هذه الشهامة يا حسان فقد رأيت منك مثلها مراراً ولكنني ضنينة بك لسابق تعبك وقد دنا الوقت الذي آن لي فيه ان أكافئك على شقائك في خدمتي منذ أعوام عديدة — وخصوصاً الآن فقد كنتُ راغبة في لقائك لا بشرك بامر يسرك كثيراً ... ولا أقدر ان أخبرك به الا اذا كنا معاً وأخاف اذا افترقنا الآن ان لا نلتقي ... »

الفصل التاسع والخمسون

أول الاسرار

فبغت حسان لذلك وحدق بعينيه وتطاول بعنقه وقال « من هو ذلك العدو يامولاتي هل تخبرينني ... قولي الآن ولا تخافي من وجود حضرة الراهب معنا فانه صديق لنا مخلص في نصرتنا او تكلمي بالعربية فانه لا يفهمها ... قولي من هو ذلك العدو »

قالت « هو ميمونة ... او بالحري تلك المرأة الداهية التي سمّت نفسها ميمونة وما هي الا ملعونة .. »

قال « ولم تكن هذه المرأة مجهولة لدينا فقد شاهدناها غير مرة فما الذي عرفته من امرها هنا ... »

قالت « لم اكن اجهل أمرها منذ رأيتها في معسكر عبد الرحمن للمرة الاولى ولكنني اجلّت كشف امرها ريثما اعود من مهمتي هذه وخفت اذا انا بحثت بشأنها ان يجرّ ذلك الى تصريحها بحقيقة أمري وانت تعلم اننا لا نريد ذلك الآن وان كان اطلاع عبد الرحمن على حقيقتي لا يزيده الا اكراماً لي ولكنني مقيدة بالعهود والمواثيق ان لا أطلع احداً على شيء قبل عبور هذا النهر (وأشارت الى نهر لوار) ولو علمت ما قد يترتب على سكوتي عنها لما صبرت على كتمان أمرها واما الآن فلا بد من كشف سرّها لعبد الرحمن على عجل .. »

قال « وما هو شأنها يامولاتي هل يجوز لي الاطلاع على هذا السر » قال ذلك وجثا بين يدي سالمة وتطاول بعنقه وحملق بعينيه

فقالت « هل اخفي عنك سرّاً وانت تعلم انك خزانة أسراري بل انت الرجل الوحيد المطلع على حقيقة حالي غير الكونت أود صاحب هذا المعسكر فانه عرفني وهددني ثانية ولكنه اشتغل عني او اجل شأني لبعد الحرب لانه مطمئن من قبلي لاعتقاده اني سجينته حتى يشاء — فلا أخفي عنك سرّاً ياحسان . فاعلم ان المرأة التي يسمونها ميمونة وتعد نفسها من حظايا عبد الرحمن وتتقرب اليه بجمالها ومكرها انما هي لمباجة بنت الدوق أود صاحب هذا الجند .. »

فلما سمع حسان قولها بُغت ولم يتمالك عن الوقوف وقال وقد بحّ صوته من محاولة تخفيضه مع تهيج عواطفه وبغتته « بنت الدوق أود هذا .. ؟ قائد هذا المعسكر ؟ .. »

قالت « نعم هي بعينها واظنك تعرفها انت وقد رأيتها غير مرة وهي مع زوجها المقتول ... ألا تعرف المنيذر الافريقي الذي كان حاكماً في جبال البيرنة بين اسبانيا وا كيتانيا ؟ »

قال « نعم اعرفه وبلغني ان الامير عبد الرحمن الغافقي لما قام بجنده لفتح هذه البلاد بلغه ان المنيذر هذا متواطئ مع الافرنج على العرب فسار اليه ونقله وقتله وقبض أمواله ونساءه وبعث بها الى الخليفة في دمشق »[1]

قالت « اتعلم السبب الذي بعثه على مواطأة الافرنج على العرب .. »

قال « كلا »

قالت « ان الدوق أود علم بما بين العرب والبربر من التحاسد لاسباب لا تخفى عليك وبلغه ان المنيذر البربري المذكور صاحب نفوذ كبير في قبائل البربر وانه اذا اكتسب ثقته واسترضاه يكون عوناً كبيراً له على العرب فتخابرا وافضت المخابرة الى ان يتزوج المنيذر بلمباجة ابنة الدوق اود وقد رضي اود ان يزف ابنته الى هذا البربري على امل ان تكون وهي عنده قابضة على زمام ارادته تستخدمه في ما تريده لمصلحة والدها وهي مشهورة بالجمال والدهاء . وبعد ان اقامت مع زوجها المذكور مدة وهي تدبر الحيل للذهاب بدولة العرب نهض الامير عبد الرحمن وعرف الخطر الذي يحدق بالعرب من ذلك الامير فنقله وقتله .. »

قال حسان « نعم سمعت ذلك من قبل وسمعت ايضاً ان امرأته أخذت في جملة الغنائم والاموال الى دمشق فيئاً للخليفة »

قالت « قد اشاعوا ذلك زوراً وبهتاناً فالظاهر ان هذه الداهية البست بعض إمائها ثيابها واوهمت عبد الرحمن ان تلك هي لمباجة وانها هي من بعض خدمها وسراريها لتبقى في معسكر عبد الرحمن عيناً لابيها على العرب وحركاتهم . وقد تحققتُ انها هي التي كتبت الى ابيها بالامس ان يستنجد شارل دوق اوستراسيا ولم يكن هو ليقدم على ذلك من تلقاء نفسه حياءً من رجاله ورعاياه فاغرته هي بما لها من النفوذ عليه فاستنجده — ومما يخيفني من امرها ان الامير عبد الرحمن يثق بها ويسايرها ويستشيرها فهل من خطر على جند العرب أعظم من هذا ؟ »

فقال حسان « كلا يا مولاتي .. فينبغي ان اذهب بهذا الخبر الى الامير سريعاً فهل

(١) راجع صفحة ٤ من هذا الكتاب

تكتبين كتاباً احمله اليه حالاً ..

قال « ولا بد قبل كل شيء أن نخرج من هذا السجن ومتى خرجنا يهون علينا كل امر عسير .. »

الفصل الستون

الجوزة

وكان الراهب في اثناء ذلك الحديث واقفاً يتشاغل بالمشي في ارض الخيمة ويتطلع من بعض شقوقها وثقوبها الى الخارج وكأنه راى امراً بغته فاسرع الى سالمة وهي تقول ذلك وقال لها « اطلنا الكلام حتى قلق الحراس فاني اراهم في هرج وحركة يتسارون ويتهامسون واخاف ان يكون من ذلك خطر علينا .. »

فقال حسان « عليك بهذا الرداء يا مولاتي فالبسيه واخرجي مع حضرة الاب واطلبا خارج المعسكر وسأتبعكما سريعاً والملتقى على ضفة نهر شير عند الجوزة الكبيرة التي قعدنا تحتها بالامس يا حضرة الاب » قال ذلك والبس سالمة عباءة الرهبان وجعل على راسها القبعة واعطاها العصا واشار اليها بالخروج على عجل

فتنحنح الراهب وقرع بعصاه عمود الخيمة وسعل وخرج من باب الخيمة وسالمة في اثره . فلما اطلّ على الحراس تظاهر باشتغاله برسم الصليب والصلاة ثم رفع يده كأنه يباركهم فحنوا رؤوسهم جميعاً ونزعوا قبعاتهم اجلالاً واحتراماً . ولم يتجرأ احد على الدنو منهما لما لاحظوه من اشتغالها بالصلاة تمتمة . وكانت سالمة تمشي وركبتاها ترتعدان ليس خوفاً على حياتها ولكنها استنكفت الفرار خلسة والتنكر بلباس الرهبان . ولما بعدا عن المعسكر واطمأنا على نفسيهما اشتغل بال سالمة على حسان وخافت وقوعه في الاسر . سارا في المعسكر وهما بزي الرهبان والحرس لا ينتبهون لهما واكثر الجند نيام حتى خرجا من بين الخيم . وكانت سالمة تمشي وتلتفت يميناً وشمالاً ثم تلتفت الى ورائها لعلها ترى حساناً قادماً وقد ندمت في باطن سرها على تركه في تلك الخيمة لانه اقدر منها على انفاذ ما تطلبه في تلك الساعة . وكان الظلام مخيماً لا يريان مما يحيط بهما غير الروابي او الاشجار العالية اذا اعترضت بينهما وبين الافق . وكانت سالمة تمشي في اثر الراهب كيفما مشى لأنها لا

تعرف مكان تلك الشجرة

وبعد مسير ساعة وهما صامتان التفت الراهب الى سالمة وقال « قد اصبحنا على مقربة من الجوزة يا مولاتي وهذه رؤوس اغصانها » واشار بيده الى الامام فالتفتت فلم ترَ شجراً ولكنها رات اغصاناً متفرقة تتراءى في الافق فعلمت ان الشجرة في منخفض وانها ترى رؤوس اغصانها . ثم رأت شبحاً يظهر بجوار تلك الاغصان رويدا رويدا كانه قادم من وراء اكمة نحوها فتفرست بذلك الشبح حتى بدا كله ودنا منهما فاذا هو بلباس جند الافرنج ولما اقترب منها اختلج قلبها في صدرها لعلمها انه عدلان الاحول فاستعاذت بالله منه وخافت على حسان من دهائه . اما هو فظل ماشياً لا سلام ولا كلام . فسرت سالمة بذلك وبعد قليل وصلا الى قمة التل فشاهدت سالمة وراءه شجرة هائلة تظلل سهلاً واسعاً فانحدرا نحوها وقعدا تحتها وبين يديهما عين ماء تصب في منحدر تحته واد يجري فيه نهر صغير . وكانت سالمة قد تعبت من المشي والقلق فقعدت على حجر قد تملس من كثرة ما لامسه من الايدي بكرور الادهار . وكانت تلك الشجرة منزلا للمسافرين هناك

ولما قعدا قالت سالمة للراهب « اني خائفة على حسان ولا اظنه يستطيع الخروج من ذلك المعسكر واذا كان لم يخرج الآن لم اعد ارجو خروجه »

قال « وكيف ذلك ؟ اذا لم يخرج الآن يخرج بعد ساعة او ساعتين ويكون الحرس نيلما »

قالت « لا اخاف عليه الحرس ولكنني اخاف عليه هذا الرجل الذي رأيته ماراً بنا وهو الذي وشى بي حتى قبضوا علي . ولو لم يكن غائباً الليلة عن المعسكر ما انطلت حيلتكم على الحرس ... »

قضيا مدة في مثل ذلك وسالمة تعد اللحظات وتحسب الساعة يوماً من شدة القلق ثم سمعا وقع اقدام مسرعة فالتفتا فرأيا شبحاً يعدو نحوهما فلم تشك سالمة انه حسان فلما اقترب منها ارتعدت فرائصها من منظره لانه كان عاري الصدر والذراعين مكشوف الرأس وقد نبش شعره وارسله على وجهه حتى اصبح منظره مثل مناظر الجان او الشياطين على ما كانوا يصفونهم في ذلك العصر . ولم تكد سالمة تخاف حتى سمعت الرجل يقول « لا تخافي يا مولاتي انا حسان » فاطمأنت فلما دنا منها صاحت فيه « ويلك ما هذا العمل ؟ »

قال « لولا هذه السحنة ما نجوت من الاسر فاني لما تحققت بعدكم عن المعسكر

تعريت كما تريان ونبشت شعري وخرجت من قفا الخيمة اعدو على يدي ورجلي واصيح صياح الشياطين . فاجفل الحرس من حولي وتفرقوا لاعتقادهم اني شيطان ولم يرجع اليهم رشدهم و ينتبهوا الحيلة حتى صرت خارج المعسكر . ولكنني التقيت هناك برجل اظنه عدلان البربري الاحول وقد رآني ولم يعرفني ... هل شاهدتما هنا »

قالت « نعم رآنا ولكنه لم يعرفنا »

فقال « لا بد لنا اذاً من تغيير هذا المكان — اعطوني العباءة اولاً »

فاعطته سالمة العباءة فلبسها وهو يقول « هلمَّ بنا نذهب من هنا فان هذا البربري الشرير لا يلبث ان يصل الى المعسكر و يعرف بفرارك على يد الراهبين حتى يطلب هذا المكان بالجند ولا طاقة لنا بالحرب »

فقال الراهب « هذا هو الصواب فلنمض اذاً الى دير القديس مرتين فاننا نصله قبل الصباح فنصير هناك في مأمن واذا شئت ارسال حسان بعد ذلك افعلي و ربما ارسلنا معه من يهديه الى الطريق »

الفصل الحادي والستون

دير القديس مرتين

فاستحسنت الرأي واسرعت فمشوا يطلبون الدير والراهب دليلهم فوصلوه عند الفجر وقد اخذ التعب منهم ماخذاً عظيماً . فاطلوا اولاً على حلة اشبه ببلد صغير وفي وسط البلد بناء شامخ محاط بسور عالٍ مثل سائر الاديار هناك ولكنه افخمها جميعاً ويحيط السور هائل حتى يحسبه الناظر سور مدينة لسعته وارتفاعه . وكان دير القديس مرتين مشهوراً في اكيتانيا واوسترامسيا وسائر اوربا بالغنى والثروة لكثرة ما حواه من الآنية الذهبية والفضية غير الاموال المدّخرة في خزينته من الهبات والنذور ونحوها . وكانت سالمة تسمع بذلك الدير ولم تدخله بعد فلما اطلت عليه تركت الراهب ان يتصرف في كيفية الدخول . فاذا به تقدم الى الباب وهو كبير خلافاً لأبواب سائر الاديار فامسك بحبل مدلى هناك وشده فدق الجرس دقة خصوصية وبعد هنيهة اطل بعض الرهبان من برج فوق الباب فكلمه الراهب رفيق سالمة باللاتينية فاسرع ذاك الى الباب وفتحه

ورحب بالقادمين . فدخل الراهب وسالمة من باب آخر وراءه فاطلا على فناء واسع اشبه شيء بالحديقة وفي وسط الفناء بناء كبير هو الدير وبجانبه بناء آخر عرفا من قبته والصليب على قمتها انه كنيسة القديس مرتين .

وكان حسان سائراً في اثرهما وهو لا يزال في شكله الغريب فامره رفيقه الراهب ان يمكث عند الباب واشار الى البواب ان يبقيه عنده ريثما يطلبانه . فمكث هناك وظلت سالمة والراهب سائرين والراهبان يتخاطبان باللاتينية فلم تفهم سالمة من خطابهما الا قليلاً ثم تكلم راهبها بالافرنجية قائلاً « ان حضرة السيدة قادمة بكتاب الى حضرة المحترم رئيس هذا الدير فهل هو هنا ؟ »

قال « اظنه لا يزال في عبر النهر عند دوق اوستراسيا الا اذا كان قد دخل الدير من بابه الآخر المشرف على هذا النهر »

قال « ومتى قطع النهر »

قال « قطعه قبل الامس على حين غفلة »

قال « وما الذي دعا الى ذلك .. »

وكان الراهب يتكلم وهو يمشي في الحديقة بين اشجارها ويتفرس في طرقها كأنه يفتش عن احد فلما افضى بهم الحديث الى هنا كانوا قد وصلوا الى مقعد من الحجر بجانب جدار الكنيسة فاشار الراهب اليهم بالجلوس وجلس هو ونور الصبح آخذ بالاشراق وقد تطايرت العصافير وانطلق النسيم فاختلط حفيف الاشجار بتغريد الاطيار . فكان لذلك تاثير شديد على سالمة بعد ان قاست ما قاسته من التعب والقلق طول الليل الغابر ؛ واحست بالنعاس ولكنها تنبهت كل حواسها لسماع حديث الراهبين لترى الداعي الى خروج الرئيس من ديره على غرة فسمعت الراهب يقول « ان الذي دعاه الى ذلك الخروج يا اخي امرٌ جديد كفانا الله شرّه »

فقال الراهب « وما هو ذلك الامر لا سمح الله »

قال « الم تسمع بقدوم الدوق شارل صاحب اوستراسيا بجيشه الجرار .. »

قال « سمعت انه سيقدم فهل وصل ؟ »

قال « نعم يا اخي وصل منذ ايام وهو الآن على الضفة اليمنى وفي حال وصوله بعث الى حضرة المحترم رئيس ديرنا ان يوافيه الى هناك على عجل فلم يسعه غير الطاعة . »

قال « وما الذي يبغيه منه ؟ . وليس عنده جند ينجده به .. »

قال « يظهر انك تجهل حال هذا الدوق مع رجال الله والكنائس والاديار ٠٠ »

قال « اعرف عنه قليلاً ٠٠ »

قال « ألا تعرف طمعه في اموال الكنائس وارزاقها ٠٠ ؟ وهل فاتك ما اجراه من طرق الظلم مع اكليروس اوستراسيا ٠٠ »

قال « سمعت بعض الشيء ٠٠ واخاف ان يفعل مثل ذلك في كنائسنا هنا »

قال « وهذا الذي نخافه نحن ٠٠ »

وهما في ذلك اذ سمعا قرع الجرس فبغت راهب الدير ووقف ووقف الباقون وهم يحسبون الجرس يقرع للصلاة ولكنهم رأوا الكنيسة لا تزال مقفلة وقد تقاطر الرهبان من كل ناحية نحو طرقة من طرقات الحديقة تؤدي الى سور الدير من جهة النهر فظلت سالمة وراهبها واقفين بجوار المقعد ينتظران ما يكون ٠ ولم يمض قليل حتى رأيا جماعة الرهبان عائدين وفي مقدمتهم راهب بلباس خاص يمتاز عن الباقين وعلى رأسه قلنسوة خاصة فعرفت سالمة انه الرئيس وقد عاد من مهمته التي ذهب بها الى شارل فاستغربت رجوعه باكرًا بهذا المقدار وتفرست به عن بعد فرأته ماشيًا وحوله الرهبان والجميع سكوت تهيبًا مما في وجهه من ملامح الغضب

وكان ذلك الرئيس كهلاً كثيف اللحية قد وخطه الشيب في اواسط لحيته من مقدم الذقن ولا يزال باقيها غضًا حالكًا ٠ وكذلك شارباه فانهما كانا غليظين كثيفين وعيناه كبيرتان براقتان فوقهما حاجبان عريضان ومنظره على الاجمال ينم عن جلال وقد زاده الغضب هيبة ووقارًا حتى الجم الرهبان كافة عن الكلام ٠ فتوسمت سالمة من ذلك الغضب خيرًا ولما دنا من الدير اسرع رفيقها الراهب الى يده فقبلها وهو جاث وقبلته بيده فنعلت سالمة مثله ثم تنحى الجميع ودخل الرئيس من باب الدير وتبعه جماعة الرهبان وعلى وجوههم علامات الاستغراب ولا يجسر احد على التكلم الا همسًا

فظلت سالمة وراهبها يتوقعان فرصة يدخلان بها على الرئيس ٠ وكانت سالمة تفضل الدخول عليه وحدها ومعها الكتاب ٠ وبعد هنيهة جاء الراهب الذي كان قد استقبلهم من باب السور وقال « هذا هو الرئيس قد عاد فما الذي تريدانه »

قالت سالمة « اريد ان احظى بتقبيل يديه ومعي كتاب اريد تقديمه اليه »

قال « واين الكتاب » ؟

فمدت يدها واستخرجته من جيبها ودفعته اليه مختومًا فتناوله ودخل ثم عاد ودعا سالمة

للدخول وحدها فسرّت لذلك ومشت وهي تعدّ في ذهنها ما ستلقيه على الرئيس لعلمها ان رئيس دير القديس مرتين يمتاز عن سائر رؤساء الاديار بعلو منزلته وغنى ديره . فدخلت في دهليز انتهت منه الى باحة رأت فيها الرهبان متزاحمين يذهبون ويجيئون كأنهم في شاغل عظيم وقد تسربوا ازواجاً واثلاثاً . فلما رأوها وسعوا لها الطريق فمشت والراهب يتقدمها حتى وصلت الى غرفة الرئيس وعلى بابها ستر شقه الراهب بيساره واشار الى سالمة بيمينه ان تدخل فدخلت الى قاعة مفروشة بالبسط وعلى جدرانها صور بديعة الصنعة تمثل اهم حوادث النصرانية . وفي صدر القاعة صورة القديس مرتين بالقدّ الطبيعي الكامل ورأت الرئيس جالساً على مقعد في صدر القاعة تحت تلك الصورة . فلما دنت منه تظاهرت بالجثو وتقبيل يده فانهضها ودعا بكرسي اجلسها عليه والكتاب لا يزال بيده وقد تبسم ترحاباً بالقادمة والغضب لا يزال بادياً في عينيه

الفصل الثاني والستون

امل جديد

فجلست سالمة متأدبة والخمار يجلل رأسها وثوبها الاسود يزيدها كمالاً ورزانة وظلت صامتة احتراماً للرئيس . اما هو فأعاد نظره الى المكتوب بيده وتفرس فيه كأنه يقرأه ثانية ثم قال «ممن هذا الكتاب ؟»

قالت « ان علامة صاحبه فيه »

قال « لا أرى علامة ولكنني عرفته من خطه . . هل انت سالمة ؟ »

قالت « نعم يامولاي اني امتك سالمة »

قال « العفو يا اختي كلنا عبيد ربنا ومخلصنا . . ما الذي تريدينه مني الآن ؟ . »

قالت « لا أريد الا ما تريده قدسكم وليس لي رأي بوجودكم »

فابتسم غصباً وقال « لا حاجة بنا الى التجمل والتردد . . لقد جئتني لامر يقول أخي رئيس دير . . . انه يهمني ويهمه وان عليه يتوقف مستقبل الكنيسة في أكيتانيا فتفضلي بما تأمرين »

قالت « أني خاطئة لا استحق هذه العناية ولكنني كنت قد خاطبت كاتب هذا الكتاب

في شأن دافعني فيه وانكره عليَّ ثم ما لبث ان سمع بقدوم الدوق شارل الى هذه البلاد حتى استصوب رأيي .. فهل أعجبك حضرة الدوق بمجيئه ... أصفح عن جسارتي في هذا السؤال لان عليه يتوقف حديثي »

قال « صدقت يا ابنتي ان هذا السؤال لا يجسر احدٌ من رهباني ان يسألني اياه ولكنك جئت في وقت اجيز لك فيه هذا السؤال وفي كلام أخي الرئيس صاحب هذا الكتاب ما يحملني على الوثوق بك ... فاقول اني وجدت الدوق شارل خطراً على الكنيسة في اكيتانيا »

قالت « وهذا الذي رآه هو وأراد ان أكون الواسطة في عرض طريقة ارجو ان تعود بالنفع على الكنيسة وأهلها .. »

قال « وما هي طريقتك »

قالت « هل تعدُّ الدوق شارل مسيحياً حقاً »

قال « هو يزعم انه مسيحي ولكن انى له ذلك وهو يحلل ما حرمته الكنيسة .. كنا نسمع عنه أموراً لم نكن نصدقها لغرابتها حتى سمعناها من شفتيه » قال ذلك وقد تجدد غضبه ثم قال « كنا نسمع انه أخذ مال الاديار واساء الى الاكليروس وكنا نستغرب ذلك عنه حتى دعاني بالامس اليه وبدلاً من ان اسمع منه تملقاً وتزلفاً لشدة حاجته الينا في كل شيء سمعت منه تهديداً ووعيداً »

فانشرح صدر سالمة لهذه الشكوى واستبشرت بنيل بغيتها ولكنها أظهرت الاستغراب وقالت « تهديد ووعيد ؟ ولماذا ؟ العلكم عصاة ؟ »

قال « كلاَّ يا ابنتي ولكنه كلفني أمراً لم أوافقه عليه كما أراد .. دعاني وطلب اليَّ ان ادفع اليه ما في صندوق هذا الدير من الاموال عاجلاً لانه يحتاج اليها في الحرب ثم عرَّض بفضله علينا في هذه الساعة لانه سيدفع عنا العرب .. سامح الله الدوق أود ما أضعف قلبه .. انه سيجر علينا البلاء مضاعفاً باستنجاد هذا الرجل المستبد .. »

فاظهرت سالمة الاهتمام وقالت « بالحقيقة ان الخطأ الاكبر من الدوق أود فقد أضاع استقلاله وجرَّ البلاء على الكنيسة ... وما الذي يظنه مولاي الرئيس في هؤلاء العرب .. »

قال « هم اعداؤنا واعداء ديننا ؟ .. »

فابتسمت بلطف وقالت « اسمح لي يا حضرة الرئيس المحترم ان اعترض على هذه

التهمة .. هل رأيت العرب او عاشرتهم ؟ » .

قال « كلا ولكنني سمعت عنهم شيئاً كثيراً .. سمعت انهم يعبدون الاصنام وانهم اذا نزلوا بلداً نهبوا كنائسه وسبوا نساءه واخربوا منازل اهله .. »

قالت « الا تصدق امرأة عاشرتهم أعواماً ؟ »

قال « هل عاشرتهم كثيراً واين .. ؟ وما هي علاقتك بهم ؟ وانت من اهل هذه البلاد على ما يظهر .. »

قالت « يسمح لي مولاي ان اجيب على اسئلته بما في الطاقة .. قد عاشرت هؤلاء العرب اعواماً فظهر لي انهم اهل ديانة مثل ديانتنا يعبدون الله مثلنا وهم اهل رفق وعدل يفون بالعهود ويحافظون على المواثيق وقد فتحوا بلاد الاسبان ومعظم اكيتانيا ولم يظهر منهم الا العدل والرفق . ترى النصارى في اسبانيا وفي بوردو وبواتيه وغيرهما من البلاد التي فتحوها متمتعين بحريتهم الدينية لا خوف على كنائسهم ولا على أموالهم ولا على شيء مما يملكون — لا يخلو ان يطمع بعضهم بنهب اوسلب فاذا لم يكن محقاً فانه ينال جزاءه من اميره »

ثم قصت عليه حكاية كنيسة بوردو وبذلت جهدها في تنميق العبارة وبسطها لعلمها انها اذا اقنعت رئيس دير القديس مرتين هان عليها اقناع اسقف تورس . واذا لم يساعدوا العرب كفاها ان لا يساعدوا الافرنج

الفصل الثالث والستون

الرهينة

وكان الرئيس يسمع كلامها ويتفرس في وجهها ويستطلع حقيقتها فلم تسعفه الفراسة الا قليلاً وظل مستغرباً غيرة هذه المرأة على العرب وهي غير عربية — ولكنه استحسن امتداحها العرب خصوصاً وهو في تلك الحال . فتوهم ان مجيء هذه المرأة وهو في حال نفوره من شارل وخوفه منه لا يخلو من عناية خصوصية روحانية . فمال الى مجاراة سالمة في رايها ولكنه اعظم ان ينصاع اليها حالاً واراد من الجهة الثانية ان يحافظ على غيرته الدينية لعلمه ان انحيازه الى العرب اذا لم يكونوا كما وصفت يغير مستقبل النصرانية في تلك البلاد ويقلب الاحوال رأساً على عقب . وكان من الجهة الثانية يرجو رجوع شارل عن

مطاليه فاذا رجع لم يبق ثمة داع لعدوله عن نصرته . فظل مدة مطرقاً وهو يعبث باطراف لحيته بين انامله ثم التفت الى سالمة وقال لها « اني شاكر لسعيك وارجو ان تمهليني ريثما اعمل الفكرة واستخير الله واعمل بالهامه جلت قدرته »

فقالت « تبصر يا مولاي بالامر كما تشاء ولكنني اذكرك بما انت مسئول فيه امام الله في مصالح الرعايا وانما غرضي ان يعود سعيك بالخير على الكنيسة واهلها » قالت ذلك ووقفت فابتدرها الرئيس قائلاً « وما انت فتبقين عندنا ريثما نرى ما يكون »

فادركت انه يريد استبقاءها عنده رهينة حتى يصدق قولها فلم تبال لاعتمادها على مواعيد عبد الرحمن فقالت « اني رهينة امرك في الذي تريده »

فصفق الرئيس فجاء احد الرهبان فقال له « انزل هذه الضيفة في غرفة خاصة بها واكرموها . . »

فمضت مع الراهب الى علية اعدوها في طرف الدير من جهة نهر لوار ولها نافذة مطلة على ذلك النهر فاتكأت على السرير وقد اخذ التعب منها مأخذاً عظيماً فاستلقت ونامت واستغرقت في النوم ولم تفق الا على قرع الجرس يدعو الرهبان للغداء فنهضت والتفت بثيابها واطلت على النهر فبغتت لما شاهدته عن بعد من السفن الصغيرة المترابطة صفوفاً كالجسور وقد اخذ الناس في العبور عليها الى هذه الضفة ومعهم الاعلام اشكالاً والواناً فعلمت انهم جنود شارل فوقفت تنظر الى مجرى النهر وقد ربعت بها افكارها الى مريم وتذكرت العهود التي تربطها بذلك النهر وما يتوقف على الجيشين هناك من الامر الهام . وكانت كثيرة الاطلاع على احوال الافرنج وقد علمت انهم لم يبق عندهم رجل شديد غير شارل هذا فاذا دارت الدائرة عليه فالغلبة للمسلمين على كل اوربا اذ لا يقف في طريقهم واقف بعد ذلك . واذا كانت الغلبة للافرنج فلا مقام للمسلمين هناك ابد الدهر — واشد من ذلك وطأة عليها ان العرب اذا لم يقطعوا نهر لوار لم يبق لها ولا لابنتها عيش . فلما تذكرت ذلك مدت يدها الى جيبها وافتقدت الحقفلة وفيها كل سرها واستخرجتها وقبلتها ولم تتمالك ان دمعت عيناها واحست من تلقاء الساعة بشوق شديد الى مريم بعد ذلك الغياب الطويل وهي لا تدري كيف حالها على انها لم تكن تخاف عليها احداً لعلمها بتعقلها وبعناية عبد الرحمن بها — استغرقت في تلك الهواجس وعيناها تنظران الى معبر الجند وقد استغربت كثرتهم على الضفتين وكانت تسمع صوت الطبول مع بعد المسافة لان الهواء كان يهب من الشمال والشرق والصوت يأتي معه — قضت سالمة في ذلك ساعة ولو تركت لنفسها لانقضى النهار و

ولم تنتبه ولكنها ما لبثت ان سمعت قرع الباب فتحولت وفتحته واذا براهب ومعه خادم يحمل خواناً عليه الاطعمة فقدماه لها وخرجا فاحست بالجوع وكانت قد نسيت نفسها فجلست ولم تزدرد اللقمة الاولى حتى تذكرت حساناً ورفيقها الراهب فصفقت فجاءها خادم فطلبت اليه ان يستقدم خادمها من عند بواب الدير فذهب ثم عاد بحسان وهو بعباءة الرهبان وشعره لا يزال منبوشاً فدخل وتأدب فامرته ان يقفل الباب وراءه فلما خلت به دعته للجلوس فأبى فقالت «دعنا من التجمل فانك من اعز الاعزاء اليَّ واي عزيز يضحي نفسه في مصلحة صديقه او صاحبه كما فعلت فاسمح لي ان اعاملك معاملة الصديق فاجلس وكل معي»

فتراجع وقال «اما الجلوس في حضرتك فاطيعك به واما الطعام فلا حاجة لي به لاني اكلت مع بواب الدير الساعة وقد شغل بالي لابطائك في دعوتي وخفت حبوط مسعاك فارجو ان تبشريني ... هل افلحت مع رئيس الدير ؟»

قالت «احمد الله على ذلك ولم يبق الا ان نبلغ نتيجة اعمالنا الى الامير عبد الرحمن ليعلم كيف يتصرف مع تلك الداهية .. واين جند العرب الآن يا ترى»

قال «قد علمت من حديث دار بيني و بين بعض الرهبان في هذا الصباح ان العرب اصبحوا على مقربة من هذا المكان ولكنهم قادمون من جهة الغرب وان جند شارل قادم من جهة الشرق وسيلتقي الجيشان في هذه الساحة جنوبي هذا الدير»

فبغتت وابرقت اسرتها معاً وقالت «هل انت واثق من ذلك يا حسان»

قال «هذا الذي سمعته يا مولاتي وهو متواتر واظنه صحيحاً»

قالت «فعلينا الاسراع في ابلاغ الرسالة وكنت اود ان اذهب انا ايضاً معك لولا اشتراط الرئيس بقائي هنا لغرض لا اعلمه»

قال «لا بأس من بقائك في الدير لانك تكونين هنا في مأمن من كل شرٍّ لانه فضلاً عن امتناعه بالاسوار والابراج فهو محترم من الجيشين — واتركي ما بقي من المهمات عليَّ فاني افعل ذلك ان لم يكن اكراماً لك فاكراماً لنفسي وفي فوز العرب فوزي وفي سقوطهم سقوطي»

فتذكرت سالمة ما كان من حديث رودريك . وقد فاتها ان تخبره به بالامس فقالت «بورك فيك وعندي خبرٌ جديد يهمك اكثر من كل ذلك ..»

فقال «وما هو يا سيدتي»

قالت « الا تذكر حفيدك سعيد ٠٠ »

فاجفل عند سماع ذلك الاسم لطول مامرَّ به منْ الايام على اغفاله وهو يحسبه في عداد الاموات وقال « كيف لا اذكره ; رحمه الله ورحم والده »

قالت « انه لم يمت يا حسان ٠٠ »

قال « من ؟ سعيد ؟ سعيد حيٌّ ٠٠ اين هو ؟ »

قالت « هو في معسكر الدوق اود واسمه عندهم رودريك » وقصت عليه بعض خبره فاطرق واستغرق كأنه في حلم ثم رفع بصره وقال « وهل هو هناك الآن ؟ »

قالت « لا ادري واذا كان هناك فانه يكون مسجونًا »

قال « ساطلبه وابحث عنه بعد ذهابي برسالتك الى الامير عبد الرحمن »

فاعجبها منه ايثار خدمتها على البحث عن حفيده مع شدة قلقه عليه فلما فرغت من الطعام امرت حسانًا فجاءها بدواة وتناولت منديلاً وكتبت عليه رسالة الى عبد الرحمن ولفتها ودفعتها الى حسان وقالت له « سر بحراسة الله واذا احتجتم اليَّ في شيء فاني مقيمة هنا ٠ وأرى قبل ذهابك ان تصلح من شأنك وتتزيا بزي الرهبان لتأمن غوائل الطرق ٠ واظن رفيقنا الراهب عائدًا الى ديره فاصحبه واقره السلام عني ٠٠ »

فودعها حسان وخرج

الفصل الرابع والستون

بمعسكر عبد الرحمن

فلنرجع الى ما كان في معسكر عبد الرحمن بعد طول سكوتنا عنه واشتغالنا بحديث سالمة — تركناهم قرب مضيق دردون بعد ان فرَّ الافرنج من وجوههم فمكثوا هناك ينتظرون رجوع سالمة من مهمتها ٠ وقد رأيت ما كان من مقتل بسطام وفشل ميمونة وعرف القارئ انها لباجة بنت الدوق أود وكانت بارعة في الجمال والدهاء كما رأيت وقد وضعت نفسها موضع السبية خدمة لوالدها فانطلت حيلتها على عبد الرحمن ورجاله ولولا سالمة لظل امرها مكتومًا ٠ وكانت سالمة قد عرفتها منذ قابلتها في الخباء ولكنها خافت منها على كشف سرها هي فاجلت الامر الى رجوعها ولو علمت حقيقة غرضها ما صبرت عن كشف

امرها — فظلت ميمونة بعد ذهاب سالمة والكل يعتقدون انها من حظايا المباجة وهي لا تدخر وسعاً في عرقلة مساعي العرب بكل سبيل . فلما فرغت يدها من واقعة دردون وتخلصت من التهمة عمدت الى احد شياطينها فبعثت معه الى والدها كتاباً انبأته به عن مهمة سالمة والغرض الذي ذهبت من اجله الى بوردو و بواتيه وغيرها وحرضته على القبض عليها لانه اذا حبسها فكأنه حبس نصف جيش المسلمين . فلم تدركها المكيدة الا على ابواب بواتيه كما رأيت . وكانت ميمونة قد تحققت عجز والدها عن دفع ذلك الجند من العرب بعد ما شاهدته في الواقعتين الاخيرتين بفضل اتحاد القبائل وعجزها عن تفريق كلمتها فعمدت الى شيطانها الاحول وبعثت معه الى والدها تستحثه على استنجاد شارل لعلمها ان اباها لا قبل له بذلك وحده — ومن غريب دهائها واقتدارها انها كانت شديدة التاثير على والدها لا تكاد تشير عليه بأمر الا انفذه لاعتقاده بعقلها وسعة اطلاعها خصوصاً على احوال العرب بعد الاقامة بينهم اعواماً . ولما جاءه كتابها كان قد يئس من الفوز وخاف على نفسه فوافق رأيها مصلحته فبادر الى مخابرة شارل دوق اوستراسيا فلبى الدعوة لعلمه انه اذا انتصر على المسلمين انتصر على اود وملك فرنسا كلها

أما عبد الرحمن فلما طال غياب سالمة مل الانتظار وبعث يفتقدها في بوردو فعلم انها خرجت منها منذ ايام وكانت مريم مع اشتغالها بهانىء واستغراقها في لجج العواطف اشد الجميع قلقاً على والدها وكان هانىء يختلس الفرص في اثناء الاقامة هناك ويجتمع بمريم اما في الخباء او في الصحراء و يتحادثان و يتشاكيان في غفلة من الاقباء وعبد الرحمن يغض النظر حتى تمكنت المحبة بينهما وكادا يتناجيان بالخطبة واسبابها لو لم يكن زواجها متوقف عليها وعلى اختراق اكيتانيا الى نهر لوار . ولذلك فان هانئاً لم يكن يفتر عن تحريض عبد الرحمن على المسير قبل فوات الفرصة واستعداد الاعداء وعبد الرحمن يأخذ الامر بالتؤدة والتأني — حتى جاءهم الجواسيس ذات يوم باستنجاد اود لشارل فعقد عبد الرحمن مجلساً من الامراء حضره هانىء فاطلعهم على الخبر فقال هانىء « وهذا ما كنت اخافه ولذلك كنت استعجل الامير في النهوض »

فقال عبد الرحمن « فالذي أراه ان نبادر حالاً الى المسير »

قال هانىء « وهذا هو رأيي »

ولبث عبد الرحمن ساكتاً ليسمع آراء سائر الامراء وفيهم امراء البربر فلم يفه احد منهم بكلمة فخاف ذلك السكوت وادرك هانىء خوفه وعلم ان مطامع البرابرة منصرفة

الى الغنائم والسبايا وانهم لما علموا باتحاد جيشي أكيتانيا واوستراسيا خافوا على انفسهم فوقف هاني، وهو يبتسم وقال « لا حاجة بنا الى طول البحث في هذا الشأن فان الله قد ضم جيش اوستراسيا الى جيش أكيتانيا غنيمة لنا لان عند اولئك من الاموال والتحف ما لا تقاس به تحف هذه البلاد واذا غلبنا الجيشين مرة واحدة ملكنا هذه الارض الكبيرة كلها وقطعناها حتى نذهب الى رومية والقسطنطينية فتم فتح العالم كله وتنشر الاسلام في الناس كافة ويكون الفضل في ذلك لسيوفكم وخيولكم » قال ذلك وقد مزج طلب الغنائم بالجهاد حتى لا يخجل طالب الغنائم من اجابة الدعوة لانها جامعة للأثنين فما أتم كلامه حتى صاح الجميع بصوت واحد « الخيل الخيل »

فقال عبد الرحمن « بارك الله فيكم ونفع الاسلام بكم » ثم أمرهم بالاستعداد للرحيل ولما انصرف الامراء بقي هانيء وعبد الرحمن ولاحظ هانيء فيه انقباضاً فقال « ما بالك منقبض النفس وقد اطاعنا هؤلاء على المسير »

قال « انت تعلم ياهانيء انهم لايحاربون الا طمعاً بالاموال وقد تجمعت الغنائم عندهم حتى كادوا ينوؤن تحت اثقالها فالرجل منهم يكاد لا يستطيع حمل طعامه وغنائمه فهاذا يقاتلون .. »

قال هاني « لقد نبهتني ايها الامير الى امر ذي بال — ان تعلق هؤلاء البرابرة بالغنائم ضربة ثقيلة على هذا الجيش ليس لاستئثارهم بها دون سواهم ولكنهم يشتغلون بها عن الحرب، اذا حملوا اثقالهم واعاقت حركتهم واذا خلفوها خافوا قلوبهم معها فلا بد من حيلة نحتالها عليهم في ذلك »

فأطرق عبد الرحمن ثم وقف فوقف هاني معه وتشاغل عبد الرحمن باصلاح عمامته وهاني باصلاح بند حسامه ثم التف عبد الرحمن بعباءته وهو يقول « لابد لنا من النظر في هذا الامر — وفي اعتقادي ان ترك هذه الغنائم الثقيلة والذهاب الى الحرب بدونها اربح لنا جميعاً ولكن من يجسر ان يقول لهؤلاء البرابرة تخلوا عن غنائمكم، ونحن انما رغبناهم في الحرب بذكر الغنائم والاموال » فضحك هاني وقال « اظنك لحظت ذلك من عبارتي في هذا الشأن — وقد كان في نفسي ان ارغبهم في سرعة المسير الى تورس بذكر ديرها الغني لأن بقربها ديراً يقال له دير القديس مرتين هو من اغنى الديور الافرنجيـة [١] ولكنني خفت اذا انا قلت لهم ذلك ان يشتغلوا بنهبه عن الحرب

(١) رومي

فتكسب عداوة الاهالي والكهنة فوق عداوة الجند »

قال عبد الرحمن « لقد احسنت بالسكوت عن ذلك والذي اراه انا متى وصلنا ساحة الحرب يُدبر تدبيراً لا يغضب احداً فنجعل هذه الغنائم في مكان خاص فيكون اصحابها في اطمئنان لا يخافون عليها بأساً من العدو او نجعلها وراء الاخبية او بينها وبين الجند »

فمشى هاني، وهو يقول « سننظر في ذلك في حينه » وخرجا لاعداد معدات السفر

اما مريم فقد كانت لا تزال على اعتقادها بصداقة ميمونة، وهذه لم تكن تدخر وسعاً ولا تضيع فرصة لاتجتذب بها قلب مريم بالاطراء والاعجاب ومريم لسلامة نيتها وصدق محبتها كانت تثق بميمونة الثقة التامة — ولم يكن ذلك عن جهل او بله فيها ولكن حر الضمير يصدق الناس ويعتقد انهم يصدقونه فاذا سمع قولاً صدّقه لسلامة نيته وصدق لهجته، وفي جملة ما استخدمته ميمونة من اسباب الخداع لمريم انها كانت تحدثها بحوادث وقعت لها مع عبد الرحمن او غيره تزعم انها مما لا يفشى لغير الاصدقاء الاخصاء وتتوقع ان تفشي لها مريم شيئاً من سرها مع هاني، ولكن مريم كانت شديدة الحرص على اسرار الحب وميمونة تسايرها في كتمانه فيزيدها ذلك اصة سلاماً لها، فلما تمكنت ميمونة من مريم وقبضت على ثقتها اصبحت مريم لا تفارقها الا ساعة الرقاد او عند لقيادا هانئاً او لاسباب قهرية

الفصل الخامس والستون

ساحة القتال

وفي صباح الغد قوضوا الخيام وشالوا الاحمال على الجمال والبغال وسار الجند على ترتيب تلك الايام — المشاة حسب قبائلهم وامام كل قبيلة راية خاصة بها يحملها احد فرسانها وقد يكون للقبيلة عدة رايات تتلاعب في الهواء حتى اذا نظر ناظرٌ الى ذلك الجند وراياته عن بعد توهم الرايات اشرعة وظن حملتها سفناً والناس بحراً ومسيرهم موجاً يتلاطم وكأن عمائمهم البيضاء وبجوانبها رؤوس الاسنة تكسّر الموج على سطح البحر، وكان في جملة المشاة رجال البربر بحسب قبائلهم ومعهم سائر الموالي من غير العرب كالنبط والشوام وغيرهم

وهم سائرون بازاء العرب . والبستهم تختلف عن البسة العرب بعض الشيء . واما الفرسان فقد اصطفوا فرقاً على حدة تتقدمها الرايات بحسب الامراء وراية هاني اكبرها جميعاً واكثر الفرسان بالادراع المتينة وعلى رؤوسهم الخوذ الفولاذ . وكان عبد الرحمن يسير تارة بجانب هانيء امام الفرسان وطوراً يطوف حول المعسكر يتفقد احواله خوفاً من الفشل . ووراء المشاة والفرسان اصحاب الاخبية ومعهم النساء والعيال في هوادج الا مريم فكانت على الجواد كاحد الفرسان . وكانت ميمونة تتظاهر بالرغبة في رفقتها فتركب جواداً الى جانبها . ويجيء وراء تلك الحملة ساقة الجند وامامهم الاحمال والاثقال وكان عبد الرحمن وهانيء اذا دارا حول ذلك الجيش او نظرا اليه من اكمة اطمأنا لكثرته وتوسما النصر به

وكان المسلمون يسيرون ولا يلاقون في طريقهم الا حقولاً مهجورة وادوات متروكة وبيوتاً خالية فيأخذون ما شاؤا ويتركون ما شاؤا حتى اذا امسى عليهم المساء يحطون رحالهم فيأكلون وينامون ثم ينهضون . فلما وصلوا بواتيه لم يلاقوا منها كبير مقاومة لان معسكر اود كان قد بعد عنها وقل من دخل المدينة وانما كان مقصدهم مدينة تورس قاعدة تلك الناحية وعندها جند الافرنج

وانبأهم الخبراء في ذات صباح انهم اصبحوا على مرحلة من نهر لوار فاستراحوا واصلحوا شؤونهم وساروا وعبد الرحمن وهانيء يتقدمان الجند نحو ميل ومعهما كبير الخبراء لاستكشاف مواقع العدو قبل النزول ويختارا مكاناً يعسكرون فيه . وفي اصيل ذلك اليوم صعدا في رابية على ضفة نهر شير ووليا وجهيهما نحو الشرق فكان نهر لوار الى يسارهما عن بعد والشمس وراءهما فنظرا الى ما بين ايديهما شرقاً فاشرفا على سهل واسع مثلث الشكل قاعدته ضفة نهر لوار الى يسارهما ورأس المثلث في الجنوب . وشاهدا عنده خياماً واعلاماً وهو معسكر الدوق اود . وبين هذا المعسكر وضفة نهر لوار مسافة ميلين سهل واسع يصلح ميداناً للقتال لخلوه من الاحزان والاغوار حتى ينتهي عند قاعدة المثلث بالابنية على ضفة النهر واقربها اليهما مدينة تورس ثم محلة دير القديس مرتين ومع بعدها عنهما عرفاها من فخامة ديرها وقبة كنيستها . وشاهدا وراء تلك المحلة مما يلي النهر حركة وغباراً عرفا مما يتخلل ذلك من الاعلام والخيول انها حركة جند قادم من جهة النهر — فامر عبد الرحمن رجلاً في ركابه ان يمضي الى جند المسلمين فيأمرهم بالوقوف حيثهم ريثما يعود من هذا الاستكشاف . ثم التفت الى الخبير وكان من الافرنج وقد تعلم العربية وقال « أليس هذا دير القديس مرتين »

قال الخبير « بلى يا مولاي هذا هو اغنى أديار النصرانية في هذه البلاد ‥ »

قال « وما الذي نراه وراءه »

قال « هو جند الدوق شارل يعبر النهر من ضفته الشمالية الى الضفة الجنوبية وقد علمت من رجل لقيته في هذا الصباح قادماً من محلة هذا الدير ان الدوق المذكور اخذ منذ بضعة ايام في تعدية رجاله على جسور من السفن ولم يفرغ بعد لكثرة ما جاء به من الرجال والاحمال »

قال « ألا يعرفون عدد جنده ‥ »

قال « لم يحصوه ولكن لاريب عندي ان الدوق شارل جرد كل ما يستطيع تجريده من قبائل الافرنج في اوستراسيا وما وراءها لعلمه بشدة بطش المسلمين وقوتهم ولان على حربه هذه يتوقف اما انتشار سلطانه على فرنسا كلها او خروج اوستراسيا من يده »

فقال هانىء « وسينال الثانية باذن الله ‥ »

فاعترض عبد الرحمن كلامه قائلاً « اليس ماتراه الى يميننا في الجنوب معسكر الدوق اود شريد مضيق دردون ؟ »

فضحك الخبير وقال « بلى يا سيدي — وهو شريد في كل حال ‥ لانه سواء انتصر عبد الرحمن او شارل ‥‥ فان سلطانه على اكيتانيا ذاهب من يده إما لكم واما لشارل لحاله تستوجب الشفقة ‥ »

فاكتفى عبد الرحمن بما سمع ونظر في الخيار مكان يعسكرون فيه فقال هانىء « لا ارى لنا مكاناً نعسكر فيه اخيراً من النقطة التي نحن فيها فنقطع هذا النهر الصغير (شير) ونعسكر وراءه فنكون على بعد واحد تقريباً من هذين الجيشين واذا تضاماً فنكون متقابلين ويكون هذا الماء وراءنا فاذا اقتضت الحرب ان نتقهقر لا سمح الله قطعنا النهر وجعلناه خندقاً بيننا وبينهم »

فاعجب عبد الرحمن برأي هانىء وابتسم له ابتسام والد سمع من طفله عبارة تدلّ على الذكاء وقال « لقد رأيت الصواب ولا بد على ذلك ان نترك اثقالنا واحمالنا ونساءنا هنا ولا يقطع النهر الا الرجال المحاربون فنكون في اطمئنان على اموالنا واعراضنا ٠ وأرى ان نترك هنا ايضاً الغنائم التي اثقلت رجالنا فيذهبون الى الحرب خفافاً ٠ وقد اخبرتك ان امر هذه الغنائم اقلق راحتي فاذا لم نقنع رجالنا وخصوصاً البرابرة في التخلي عنها يوم الحرب كانت سبباً في فشلنا ٠ وانت تعلم ان الرجل انما يغلب بخفة حركته »

القول إلاّ وهو مدفوع من جماعة . فتظاهر عبد الرحمن بالسذاجة والاسف وقال « بالحقيقة اننا خسرنا في تلك الواقعة خسارة يصعب تعويضها لان الامير بسطاماً يندر مثاله . ولكنني لا ارى علاقة بين مقتله والغنائم » ثم التفت الى جمهور الامراء وقال « واظنكم توافقونني على تناسي ذلك الحادث والاشتغال بما هو اهم منه وقد عرضت عليكم رأياً فاذا كنتم ترون فيه خطأ بينوه لان الغرض واحد والمصلحة واحدة »

فتهامس الامراء وتداولوا ملياً ثم قال احد امراء اليمنية « ارى الامير مصيباً في رأيه كل الاصابة لان الرجل لا يستطيع الحرب وهو مثقل بالاحمال — واذا خسر الانسان غنيمته وانتصر في حربه عوض اضعافها »

فوافقه على ذلك كثيرون ولحظ هاني، ان البربر لا يزالون سكوتاً مخافة الفشل فقال « واز يد على ما قاله الامير . . . اننا اذا انتصرنا في هذه الواقعة كانت غنائمنا فوق ما تدركه العقول . لان الدوق قارله (شارل) صاحب هذا الجند (واشار الى جند شارل) قد حمل معه كل ما في بلاده من التحف في الاديار والكنائس والقصور . . فاذا ظفرتم به ظفرتم بالغنى والفخر والسعادة » قال ذلك بلهجة الاخلاص وهو يبتسم ويتفرس في وجوه الامراء

فلم يجد امراء البربر ما يدفعون به قوله فتكلم شيخ من امرائهم وقال « لا مشاحة في ان الجند لا يستطيع الحرب الا اذا كان خفيفاً ولكن من لنا بمن يقنع افراد الجند ان يتركوا غنائمهم التي اصابوها بعد شق الانفس وهم لا يطمعون بامارة او قضاء وانما ربحهم من هذه الحرب ما يرجعون به من الغنائم . فعندي انه بدلاً من ان نترك الغنائم هنا نحملها معنا في صباح الغد ونجعل لها مكاناً بجانب معسكرنا فان ذلك ايسر على اصحابها من ان يتركوها في مكان يحول بينهم وبينه نهر »

الفصل السابع والسبعون

رسول امين

فلم ير عبد الرحمن بداً من الموافقة . فعادوا الى المعسكر وباتوا تلك الليلة هناك واصبحوا في اليوم التالي واخذوا في عبور النهر اما خوضاً او عوماً على قوارب نصبوها عرضاً وكان ذلك

النهر جدولاً صغيرًا لا يعدُّ شيئًا بالنظر الى نهر لوار وهو يصب فيه . فعبر اولاً عبد الرحمن وهانئ ليعينا اماكن الخيم فوقفا على مرتفع اطلاً منه على ذلك السهل واخذا في تعيين الاماكن والجند يشتغلون في نصب الخيم وغرس الاعلام الى قرب الاصيل . فلاحت من هانئ التفاتة وهو ينظر الى الافق فرأى شبحًا يعدو نحوهما عدوًا سريعًا فتعلق ذهنه به وجعل يتفرس فيه فرأى عليه لباس الرهبان فازداد استغرابًا ثم رآه سقط على الارض وهو يشير بيده نحوهُ هانئ فركض هانئ فرسه حتى وقف عنده فاذا هو حسان خادم سالمة وقد استلقى على ظهره وقبض باحدى يديه على جنبه كأنه يشكو الماً هناك وامسك بيده الاخرى شيئًا اومأ به نحو هانئ فترجل هانئ حالاً واراد ان يعين حسانًا على الجلوس فاشار له بعينيه ان يتركه فسأله عن امره فقال بصوت متقطع وهو يلهث وقد ضغط بكفه على جنبه من شدة الألم « ارسلتني مولاتي ... سالمة برسالة الى الامير عبد الرحمن ... من دير القديس مرتين ... فحملتها (وأشار بيده والرسالة فيها) حتى اذا خرجتُ من الدير ورأيت اعلامكم عن بعد اسرعت نحوكم فما شعرت الاَّ ونبلٌ اصابني في جنبي من خائن اظنهُ عدلان الأحول .. فايقنت اني مائت ... فاسرعت حتى ادركتكم بهذه الرسالة لانها في غاية الاهمية ... فسقطت قبل الوصول اليكم ... فهذه هي الرسالة »

ثم انقطع صوته وتزايد لهثه واغمض عينيه وارخى يديه . فناداه هانئ فلم يجب وكان عبد الرحمن قد شاهدهما واسرع اليهما وسمع كلام حسان . فلما رآه في تلك الحال اسف لحاله اسفًا شديدًا وكذلك هانئ وترجح عنده انه مات ولكن الامل لا ينقطع من الحياة ما دام النفس فاشار عبد الرحمن الى هانئ ان يستقدم احد الاطباء .

فركب بنفسه على ادهمه وركضه نحو الجند وصاح « هاتوا طبيبًا » وبعد قليل جاء الطبيب وهو من نصارى الاندلس وقد قضى في خدمة العرب زمنًا طويلاً . فاسرع الى حسان وجس نبضه فاذا هو ميتٌ لا حراك به فامر ان يدبروا غسله ودفنه فحملوه الى خيمة خاصة بذلك

اما عبد الرحمن فتناول الكتاب وفضه واخذ يتلوه وهانئ يسمع فاذا فيه :

« الى الامير عبد الرحمن الغافقي

« اكتب هذا اليك من دير القديس مرتين وقد وصلت اليه بعد مشقات يطول شرحها سأقصها عند اللقاء القريب ان شاء الله ـ وانما استعجلت هذه الرسالة لا خبرك بامر هام اطلعت عليه في اثناء سياحتي هذه . وهو ان المرأة التي تسمي نفسها ميمونة انما هي

لماجة بنت الدوق اود وقد نصبت لي الحبائل الكثيرة في اثناء هذه السياحة — وهي التي حرّضت اباها على استنجاد صاحب اوستراسيا بكتاب ارسلته مع خادمها الاحول فاحذروه وافعلوا بها ما شئتم . ثم اني ابشركم بأن مونيس هذا الدير ناقم على شارل وقد وعدني بالمساعدة ولكنه استبقاني عنده رهينة . وانا في امن واكرام اطلب لكم النصر. واوصيك بفلذة كبدي مريم . والسلام »
سالمة

فما جاء على آخر الكتاب حتى بغت فنظر الى هانئ ثم أعاد نظره الى الكتاب وقد أخذ منه الاندهاش مأخذاً عظيماً فقال هانئ « لم اكن اعتقد في هذه الملعونة خيراً وكنت مع فرط جمالها اشعر بنفور من منظرها لسبب لا اعلمه . فكأن قلبي دلني على حقيقتها وكثيراً ما كنت استغرب اكرامك لها . . . . »

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال « كنت اراعيها على حذر ولم اثق بها قط ولكنني كنت اتوقع منها نفعاً في اثناء حروبنا لانها من أهل هذه البلاد . . وقد قضي الامر الآن فيجب ان نتدبر في شأنها فما الذي ترى ان نفعله »

قال « ارى ان نقتلها حالاً ونريح أنفسنا منها »

قال « سننظر في ذلك بعد الفراغ من ترتيب هذا المعسكر »

قال ذلك وركب جواده وتحوّل نحو الجند لاتمام ترتيبهم — فجعل معسكره في نحو تلك الضلع الممتد بين تورس ومعسكر اود وجعل فسطاطه في وسط المعسكر نحو الامام وبجانبه خيمة هانئ ويليهما بالترتيب مضارب القبائل كل قبيلة على حدة وخيمة أميرها في وسط خيمها وراية الامير مغروسة في باب خيمته . وقد يكون للقبيلة الواحدة عدة امراء وعدة رايات باعتبار البطون والافخاذ . وجمع بين القبائل المتقاربة في النسب المضرية في جانب واليمنية في جانب وجعل البرابرة في جانب آخر جنوبي المعسكر ببقعة اختاروها هم وعبد الرحمن يسايرهم لانهم أكثر فئات الجند عدداً . فترتبوا باعتبار قبائلهم وبطونهم وكذلك الامم الاخرى من الانباط والشوام وهم اقل سائر الفئات . ثم أمر بالغنائم ان توضع في خيم نصبوها لها بجانب المعسكر من جهة الجنوب . والبرابرة طلبوا ذلك لتكون غنائمهم اقرب الى مضاربهم كأنهم خافوا ان يسطو عليها العرب ويأخذوها منهم . ونصبوا مرابط الخيل وراء المعسكر مما يلي النهر الصغير

وكان هانئ في اثناء ذلك الترتيب يطوف المعسكر لمساعدة عبد الرحمن وهو يفكر في ما قرأه عن ميمونة وسالمة وخطر له ان مريم اذا عرفت بمقام والدتها في ذلك

الدير ربما طلبت الذهاب اليها فارتاح الى ذلك الفكر لاعتقاده انها تكون هناك في مأمن على حياتها ولو قضي على العرب بالانهزام . على انه ترك الاختيار لها وان كان بالحقيقة لا يقوى على فراقها

الفصل الثامن والستون

لمباجة

قضوا ذلك اليوم واليوم التالي في الانتقال والترتيب حتى لم يبق في الضفة الاخرى غير الاخبية والاحمال الثقيلة ونحوها وفي أصيل اليوم التالي سار عبد الرحمن وهانئ معاً الى الاخبية لمحاكمة ميمونة سراً وكان هانئ لا يرى باعثاً على المحاكمة ولو ترك الامر له لقطع رأسها بسيفه بلا سؤال ولا جواب . اما عبد الرحمن فاراد التصرف بالحكمة والتؤدة فلما وصلا الى الخباء الاكبر ترجلا ودخلا القاعة وبعث عبد الرحمن الى القهرمانة فجاءته بخلاخلها ودمالجها وهي تترجرج في مشيتها كأنها في بعض قصور طليطلة في رغد ونعيم . فلما وصلت الى عبد الرحمن حيته . فقال « اين ميمونة »

قالت « لم أشاهدها من مساء الامس واظنها مع مريم في غرفتها »

قال « ابعثي اليها ان تأتينا وحدها »

فصفقت القهرمانة فجاءها بعض الصقالبة الخصيان فقالت « ادع السيدة ميمونة .. وقل لها ان الامير عبد الرحمن يحتاج اليها .. » وقد كلمته بالفاظ عربية مشوشة على نحو ما ينطق بها غرباء اللغة اذا تعلموها التقاطاً من أفواه الناس شأن اولئك الصقالبة والافرنج وأمثالهم ممن كانوا في خدمة العرب في تلك الايام

فأشار الصقلبي برأسه اشارة الطاعة وخرج ولبثوا في انتظاره وهانئ يود الانصراف ليرى مريم ويخبرها عن والدتها ويكون هو اول من يخبرها بذلك — وفي هذا السبق لذة يشعر بها كل انسان وخصوصاً بين المحبين — فان الرجل اذا سمع خبراً جديداً وهو بعيد عن امرأته او خطيبته او حبيبته فانه يشعر بميل شديد الى اطلاعها عليه . واذا كان ما سمعه من قبيل السر كان أشد رغبة في مكاشفتها به وكلما بالغوا في تحريضه على كتمانه ازداد رغبة في كشفه . وهو لا يعد ذلك افشاء للسر لانه يكاشفها به سراً

ويوصيها ان تكتمه • وربما كان السبب في لذة المكاشفة شعور الحبيبين بالامتزاج قلباً وروحاً بحيث لا يسوغ معه ذلك الامتزاج تكتم •وزد على ذلك ان المبادرة تزيد في توثيق عرى المودة فاذا تواد انسان يزداد توادهما وثوقاً اذا كان بينهما سر لا يعلم به سواهما ، ولهذا السبب كانت المحافظة على الاسرار الماسونية من أقوى أسباب ثباتها وان لم تكن تلك الاسرار مهمة فكيف اذا كانت مهمة • بل كيف اذا سمع المحب خبراً يتعلق بشخص حبيبه كما كان الحال مع هانيء فان الخبر متعلق بمريم نفسها فلا غرو اذا رأيناه شديد الميل الى مكاشفتها

على انه كان من الجهة الأخرى يريد البقاء مع عبد الرحمن بعد مجيء ميمونة ليحرضه على قتلها فطال غياب الرسول فبعث القهرمانة رسولاً آخر وآخر • وبعد برهة عاد الرسول الاول وحده وهو يقول « بحثت عن السيدة ميمونة في كل مظانها فلم أقف لها على أثر »

فبغت عبد الرحمن وهانيء اكثر من بغتة القهرمانة لعلمهما بما لم تعلمه فقال عبد الرحمن « واين ميمونة يا خالة ؟ »

قالت « ربما كانت في شاغل ستعود منه قريباً .. »

قال « اني أريد مقابلتها الساعة اذهبي انت للتفتيش عنها .. »

فنهضت وهي تقول « لم ارها من غروب الامس وليس احد أعلم برواحها وغدوها من مريم » ثم خرجت وهي تمايل وتترجرج وطال غيابها • ثم عادت ومريم معها وهي تقول « لم اجدها في مكان • فهي بلا شك في غير هذه الاخبية .. »

ولما دخلت مريم فاحت رائحة طيبا وابتسم لها عبد الرحمن رغم غضبه من ميمونة وخوفه من افلاتها بعد ظهور ذنبها • وكان في وجه مريم من المعاني والملامح ما لا يستطيع الناظر معه غير الاعجاب بها والا لتواح لرؤيتها فكيف بهانيء بعد ان ملكت فؤاده واستولت على عواطفه حتى أصبح يغار عليها من النسيم فاصبح عند دخولها كله آذاناً وعيوناً يراقب ما يبدو منها أو من عبد الرحمن عند المقابلة • ولا مسوغ لتلك الغيرة غير الحب الشديد لان الحب يدعو الى الغيرة حتى من أقرب الناس نسباً وأبعدهم شبهة • وهاك لسان حال المحب الغيور يخاطب حبيبته

اغار عليك من نظري ومني ومنك ومن خيالك والزمان
ولو اني وضعتك في عيوني الى يوم القيامة ما كفاني

اما عبد الرحمن فما لبث ان ابتسم لمريم وأمرها بالقعود حتى ابتدرها بالسؤال عن

ميمونة فقالت « لم أشاهدها من مساء الامس وقد قضيت كل ما مضى من هذا النهار وأنا ابحث عنها لانها رفيقتي ومعزيتي على غياب والدتي »

فقال « وهل عرفت سبباً يدعو الى خروجها »

قالت « لم اعرف شيئاً من هذا القبيل ولكنني رأيت منها ما يدل على اضطراب بالها من أصيل الامس فلم اعبأ به ولا سألتها عن سببه .. »

قال « هل رأيت أحداً جاءها بكتاب أو خطاب في صباح الامس »

قالت « لم أشاهد غير بعض الخدم ممن تعودوا خدمتها .. »

قال « هل كان بينهم عدلان الاحول .. »

قالت « نعم .. وكنت قد مضى عليّ مدة لم اشاهده . »

فلما قالت ذلك تبادل عبد الرحمن وهانيء نظرتين تفاهما بهما فتحققا أن عدلان بعد ان رمى حصاناً بالنبل جاء الى ميمونة وحرضها على الذهاب الى أبيها خوفاً من انكشاف أمرها

الفصل التاسع والستون

هانيء ومريم

وكانت مريم تنظر الى هانيء وتتوسم في وجهه خيراً وخصوصاً بعد تلك الاسئلة وكانت القهرمانة قد خرجت ولم يبق هناك غير مريم والاميرين . فنظرت مريم الى هانيء نظرة اغنته عن خطاب طويل عريض ففهم انها تستفهمه عما يكتمانه . فالتفت الى عبد الرحمن فرآه مستغرقاً في التفكير فقال له « الارجح ان تلك الخائنة علمت باتضاح أمرها ففرّت الى ابيها ولكنها لن تنجو من حدّ هذا السيف باذن الله .. »

فبغتت مريم لما سمعته لانهُ يناقض اعتقادها في ميمونة على خط مستقيم وظهرت البغتة في وجهها بما تصاعد اليه من الدم وابرقت عيناها والتفتت الى هانيء ولم تتمالك ان سألته قائلة « وما الذي حدث حتى إستوجبت هذه المسكينة غضب الامير وعهدي انها من أشد الناس غيرة واصفاهم سريرة ؟ .. »

فالتفت هانيء الى عبدالرحمن وقال « أتأذن لي بذاك الكتاب .. »

فاستاء عبد الرحمن من تسرع هانيء في طلب الكتاب لانه لم يكن ينوي اطلاع مريم عليه خوفاً من قلقها على والدتها ولم يبد استياءه مراعاة لاحساس هانيء ولكنه انكر الكتاب وتظاهر انه لا يعرف مكانه. فازدادت مريم قلقاً واضطراباً وسبق الى خاطرها ان لذلك الكتم سبباً يسوؤها ذكره ولم يخطر ببالها شيء غير والدتها فصاحت بلهفتها المعهودة ولم تستطع امساك عواطفها « ما الذي تكتمانه عني ... هل أصاب والدتي شيء (شر) ... اين هي .. » قالت ذلك واجهشت للبكاء

فتن منظرها في هانيء فلم يتمالك ان قال « اطمئنك يا مريم ان والدتك في خير وأمان »

قالت « واين هي .. ؟ »

قال « هي في هذا الدير » وأشار الى دير القديس مرتين

قالت « ولماذا لم تأت الى هنا العلها مريضة ام مسجونة ام ماذا .. »

تظاهر عبد الرحمن عند ذلك بالبحث عن الكتاب حتى وجده فدفعه اليها وهو يقول « هذا هو كتابها وفي قراءته جواب كاف »

فتناولته بلهفة فلم تستطع رؤية الاحرف مما يغشى عينيها من دموع البغتة والخوف والامل والفرح معاً. فمسحت عينيها بكمها وقرأت الكتاب حتى اتت على آخره ولما وصلت الى قولها « واوصيك بابنتي كبدي مريم » صاحت « اماه » وقد خنقتها العبرات. ثم اعادت النظر الى ما ذكرته عن ميمونة فبهتت وحسبت نفسها في حلم ثم رفعت رأسها الى عبد الرحمن وقد تحوّل حنانها النسائي الى غضب وقالت « قبح الله تلك الخائنة. قد فهمت الآن سبب اختلائها بذلك البربري الاحول في مساء الامس ... ولكنها ستذوق جزاء تلك الخيانة ان شاء الله » ثم سألته عمن حمل ذلك الكتاب لكي تواجهه وتستزيده من اخبار والدتها. فقص عليها هانيء ما كان من امره وانه مات. ودفنوه فاسفت عليه كثيراً حتى بكت ولولا اشتغال خاطرها بخيانة ميمونة والشوق الى والدتها لندبته كثيراً لانه رباها منذ طفوليتها وكان ضنيناً بها حريصاً على راحتها وراحة والدتها — ولكنها كانت في قلق عظيم على والدتها واصبحت لا تصبر عن رؤيتها فنظرت الى عبد الرحمن بعينين يغشاها الدمع وتوسلت اليه بصوت يمازجه ذل السؤال وقالت « ألا يسمح لي الامير بالمسير الى والدتي لاشاهدها واقبل يدها ثم اعود ؟ »

فتأثر عبد الرحمن لسؤالها ولم يسعه الا الاجابة فقال « لا امنعك من الذهاب اليها

ولكنني احب المحافظة على وصيتها وقد رأيت انها ختمت هذا الكتاب بك ٠٠٠»

فقالت « لا بأس عليَّ باذن الله والطريق سهل والمكان قريب وكأني ارى الدير من هنا فاركب اليه سريعاً ٠٠ »

فقال هانيء « لانخاف عليك بأساً بعدما شاهدناه منك في مضيق دردون ولكنني ارى ان اسير في ركابك حتى اوصلك الى باب الدير واعود » قال ذلك بنغمة التصميم القطعي فاستحسن عبد الرحمن رأيه فقال « اذا كان لابد من الذهاب الى الدير فانهضا الآن حتى تصلاه قبل الغروب ٠٠٠ هل يحتاج هانيء الى استحثاث لسرعة الرجوع ٠٠٠ ؟ اما مريم فلا باس من بقائها هناك بل هو آمن عليها ٠٠ »

ففرح هانيء بتلك المهمة فنهض وامر بفرس لمريم فلبست ثوبها والتفت بعباءتها وركبت وركب هانيء ادهمه والتف بعباءته واصلح عمامته وساقا الجوادين سوقاً حثيثاً وقطعا النهر الصغير على جسر مما نصبوه بالامس وسارا شرقاً شمالياً يلتمسان دير مرتين . فبعد ان ركضا جواديهما برهة امسكاهما ومشيا متحاذيين وقد حلت لهما تلك الخلوة فاراد هانيء مداعبة مريم فقال لها « اتعلمين ما وراء هذه الابنية »

قالت « وراءها النهر الكبير »

قال « وما اسمه ٠٠ »

قالت « نهر لوار » بلفظ الراء غيناً ولكنها لم تكد تنطق بهذين اللفظين حتى فطنت للوعد المضروب لاقترانهما هناك فخجلت وحوّلت وجهها الى عرض البر وارادت تغيير الحديث فقالت « وكأني ارى جند الدوق شارل آتياً نحونا »

فبغت هانيء وتفرس في الغبار المتصاعد وراء تلة الدير وقال « لاشك انك ترين معسكر الدوق شارل واما الغبار المتصاعد فوقه فليس غبار المسير ولكنهم يلاعبون خيولهم على سبيل التمرين ٠٠٠ » قال ذلك وأخذ يفكر في ما يتوقعه من القتال الهائل في تلك الساحة ولكنه كان شديد العزم قوي القلب لانه لم ينكسر في قتال بعد ولذلك فاول ما يسبق الى ذهنه عز الانتصار

الفصل السبعون

سالمة في الدير

وبينما هو يفكر في ذلك سمع جرساً يقرع فاصاخ بسمعه فابتدرته مريم قائلة « هــذا جرس الدير لاننا على مقربة منه » وكانت الشمس قد دنت من المغيب ولو التفتنا اليها لرأيا شكلها يتجسم وجرمها يتعاظم وحدتها تنثني حتى يخيل لها اذا لمساها انها لا تلذع — ولكنهما كانا في شاغل عن ذلك بغبار رأوه يتصاعد في بعض السهل من جهة الجنوب قرب معسكر اود كأن خيالة يسوقون افراسهم . فحملا ذلك على ما شاهدوه في معسكر شارل . ووصلا في الغروب تماماً الى باب الدير فقرعه هاني فاطل الراهب البواب فخاطبته مريم بالافرنجية انها تسأل عن ضيفة هناك . فنزل وفتح الباب ورحب بها واستغرب لباس هاني وخصوصاً عمامته لانه لم يكن رأى عربياً قط وان كان قد سمع بمجيء العرب للحرب . فترجلت مريم وهمّ هاني بوداعها للرجوع وقلبه لا يطاوعه على ذلك الفراق وكانت هي في مثل حاله فلما اراد وداعها نظرت اليه نظرة خرقت ادراعه الى احشائه فوافقت رأيه فتحوّل عن ادهمه وهو يقول « أرى ان اوصلك الى والدتك واطمئن عليها وعليك ثم اعود » فاستحسنت مريم انتباهه لغرضها وابتسمت ومشت فمشى هو بعد ان اشار الى بعض خدم الدير ان يمسك الجوادين فاخذهما البواب الى الاسطبل . ولما دخلا من الباب الثاني استقبلهما راهب آخر وسألهما عما يطلبانه فقالت مريم « أعندكم نزيلة اسمها سالمة ؟ »

فابتسم الراهب وقال « نعم » واشار اليهما فتبعاه حتى دخلوا الدير وصعد بهما الى علية سالمة . وكانت سالمة لاتزال بعد ارسال حسان منفردة في تلك العلية تارة تطل منها الى النهر وطوراً تقعد على الارض تفكر في مريم وقد ذاب قلبها لفراقها وكانت لم تفارقها قبل هذه المرة قط — ثم تنتقل بافكارها الى ما تكتمه في صدرها ولم يأن وقت كشفه وتخاف ان يطول وقته او تحول الاقدار دون ذلك فتذهب مساعيها ادراج الرياح — ونهضت في صباح ذلك اليوم منقبضة النفس فنزلت الى الكنيسة لاستماع الصلاة وتخشعت في صلاتها كثيراً ودعت لابنتها بالسلامة ثم صعدت الى عليتها فاحست كأنها في سجن مع انها في احسن غرف الدير واكثرها انطلاقاً . ولكن السجن سجن الارادة فقد يحبس الانسان نفسه بارادته اياماً في مكان مظلم وهو يعد نفسه مطلقاً فاذا حكم عليه بالانحباس

يوماً واحداً ولو في افخم القصور فانه يعدُّ نفسه سجيناً

ولما عادت من الصلاة وصعدت في السلَّم حدثتها نفسها ان تطل على سهل تورس لعلها ترى رسولاً قادماً او تتنسم ريح ابنتها اذا رات معسكر العرب عن بعد فمشت حتى اطلت من سطح الدير على ذلك السهل وعرفت مكان كل من العرب والافرنج تخفق قلبها لما تتوقعه من القتال الهائل هناك . ثم عادت الى عليتها وهواجسها تتزايد بالخلوة — فلما كان الغروب احست بزيادة الانقباض وشعرت بضيق وقنوط . وساعة الغروب اثقل ساعات اليوم على الانسان وهو حرٌ مطلق فكيف اذا كان سجيناً — فهمَّت بالخروج للصلاة فسمعت وقع اقدام على السطح تخفق قلبها ولبثت لترى ما يكون فلما سمعت الخطوات تقترب نحوها تزايد خفقان قلبها واخيراً سمعت قرع الباب فكأنهم قرعوا صدرها . فنهضت وركبتاها ترتجفان وفتحت الباب فاستقبلها الراهب واشار بيده الى رفيقيه . فلما رأت ابنتها صاحت « مريم » والقت نفسها عليها وجعلت تقبلها وتشمها والدموع تتساقط من عينيها حتى كاد يغمى عليها ومريم تقبلها وتقبل يدها ودموعها تتساقط بهدوٍ . ثم دخلتا العلية وهانيء لا يزال بالباب فقالت مريم « هذا الامير هانيء قد جاء ليوصلني ويراك ثم يعود »

فرحبت به واثنت عليه ودعته للدخول فقال « لابد لي من سرعة الرجوع لاننا في حال تدعو الى التيقظ . كيف انتِ . ؟ قد وصلنا كتابك وشكرنا فضلك واهتمامك . . »

فقالت « وماذا فعلتم بتلك الخائنة »

قال « لم نجدها في المعسكر مع انها كانت فيه الى الامس فالظاهر انها علمت بكتابك ففرّت الى ابيها »

فلطمت سالمة كفاً بكف وصاحت « نجت هذه الملعونة . . . الظاهر ان شيطانها الاحوَل اخبرها بخبرنا فايقنت بكشف امرها فهربت . . »

فقالت مريم « قبح الله ذلك الاحوَل فانه اصل شرور كثيرة ولو علمت الذي فعله هذا الشيطان لحزنت »

قالت « ما الذي فعله ؟ »

قالت « انه رمى حساناً بنبل وهو ذاهب من عندك فاصاب جنبه فحمل ذلك المسكين جرحه واسرع حتى ادرك معسكر العرب وهو على آخر رمق من الحياة فبلَّغ الرسالة ومات . . »

فصاحت « مات ؟ حسان مات ؟ . . »

قالت « نعم يا اماه مات اشرف ميتة . . مات شريفاً اميناً صادقاً وقد قاموا بواجب

غسله ودفنه رحمه الله ٠٠ »

فاطرقت سالمة وسكتت ثم هزت راسها وهي تقول بصوت منخفض « مسكين حسان ٠٠٠ مات ولم يشاهد حفيده بعد ان علم يبقائه حياً ولا شاهد نتيجة انتظارنا الطويل لهذه الواقعة المهولة ٠٠٠ »

الفصل الحادي والسبعون

دعوة خطرة

وكان هانيء قد دخل الغرفة وذهب الراهب فاتاهم بالشمع فاضاؤه وغرسوه في مشمعة ناتئة من الحائط وعاد الراهب ٠ وكانت مريم في شاغل داخلي يتعلق بهانيء لانها احبته ووالدتها لا تعلم ٠ وقد اوصلها الى أمها وسيرجع قريباً ولا طاقة لها بفراقه وهي تريد ان تستطلع رأي والدتها بشأنه فاذا لم توافقها على حبه كانت المصيبة كبيرة عليها ٠ وأرادت من الجهة الثانية ان تشغلها عن حديث حسان فقالت « الا تعرفين الامير هانئاً يا أماه ؟ »

فابتسمت وقالت « كيف لا اعرفه ؟ اليس هو الذي انقذنا من ذلك الامير البربري ؟ »

قالت « بلى ٠ وهو الآن من أمراء جند العرب بعد الامير عبد الرحمن ٠ والامير عبد الرحمن يحبه ويعتمد عليه لانه امير الفرسان وهو يده اليمنى في تدبير الجيش ٠٠

فخجل هانيء من هذا الاطراء واحب ان يعترض ليغطي خجله فلم تمهله سالمة فقالت « لم يخف عليّ شيء من شأن هذا الامير وقد صحبته في مهمة الى أسقف بوردو الا تذكرين ذلك ؟ »

فانشرح صدر مريم واطمأن بالها وهمت بالتطرق الى ما وراء ذلك فسمعت دبدبة وضوضاء فتوقفت وانصتوا جميعاً ثم سمع هانيء جواده يصهل صهيلاً متواصلاً كأنه يطلب النزال فوقف هانيء وهو يقول « أرى جوادي يدعوني الى النزال وهو ينبهني الى سرعة الرجوع ٠٠٠٠ ؟ »

وما اتم كلامه حتى سمعوا خطوات قادم على السطح ثم فتح الباب ودخل الراهب

رفيق حسان وكانت سالمة تحسبه سافر معه فلما دخل رحبت به ودعته للجلوس فاذا هو يهم بالكلام والبغتة ظاهرة في جهه وكانه أراد الكلام فارتج عليه فظنته أمسك حياءً من الحضور فقالت له بالافرنجية « تفضل يا حضرة الاب اخبرنا بما عندك وليس هنا أحد غريب »

فقال ولسانه يتلجلج « كلفني رئيس هذا الدير ان ابلغك أمراً يعزُّ عليَّ ان اكون الرسول فيه ... »

تخفق قلب سالمة ومريم واما هانيء فلم يفهم شيئاً لانه لا يعرف الافرنجية ولكنه لحظ من تغير الوجوه ما أقلقه — فقالت سالمة « قل يا حضرة الاب ... وماذاك .. »

قال « ان الدوق اود بعث بكوكبة من الفرسان بالعدة والسلاح وقد وصلوا الدير ومعهم رسولٌ يحمل كتاباً الى حضرة الرئيس يطلب منه فيه ان يبعث بك اليه .. ونظراً لما يعلمه الرئيس من دالتي عليك بعث اليَّ واطلعني على ذلك الكتاب وشاورني في شأنه فحسَّنت له ان يمتنع عن تسليمك فاظهر انه يودُّ ذلك من صميم فؤاده ولكنه يخاف العاقبة وهو لا يدري لمن تكون الغلبة في الحرب القادمة وواجباته تقضي عليه ان يكون نصيراً للافرنج — ثم كلفني ان اكون انا يرافقك من قبله لأوصي الدوق اود برعايتك واذا شئت اخذنا من الرئيس كتاب توصية بشأنك ايضاً »

وكان الراهب يتكلم ولسانه يكاد يتلعثم والتأثر باد في كل حركة من حركاته وكانت سالمة ومريم متطاولتين بعنقيهما وقد شخص بصرهما في الراهب كأنهما اصيبتا بالجمود فلما فرغ من قوله قفَّ شعرهما وخصوصاً مريم وكان هانيء ينظر اليهما ويقرأ تلك العواطف في وجهيهما فلما فرغ الراهب من الكلام قال هانيء « ما الخبر .. »

قالت « مريم ان الدوق اود بعث الى رئيس هذا الدير يطلب والدتي منه »

قال « وماذا يريد منها »

قالت « يطلبها اليه لغرض لا نعلمه »

قال « لا تذهب .. »

فقالت سالمة « بل ارى ان اذهب لاني لو ابيت الذهاب لاخذوني قهراً .. »

فصاح هانيء « قهراً ؟ .. يأخذونك قهراً وهانيء معك ؟ ذلك لا يكون » ووقف ويده على قبضة حسامه وقد اخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً

ففرحت مريم بما ابداه هانيء من الحمية بشأن والدتها ولم تكن هي اقلَّ حمية منه فقالت

« كيف تسمح يا اماه ان يأخذوك اسيرة ولو كانوا الوفاً فاننا ندافع عنك الى الموت . . »

فقالت « أعلمُ ذلك ولكن شروط الحرب تقضي علينا ان لا نعرض امير فرسان العرب وعمدة امرائهم لشرذمة من الافرنج وربما اصابه احدهم بنبل كما اصابوا حساناً بالامس فيذهب الامير هاني رخيصاً لا سمح الله وهو معوّل جند العرب وقائدهم وواسطة عقدهم فكأننا عرضنا الجند كلهُ للخطر . . . فاذا كنتما تحبانني اطيعاني في ما اقول ولا تخافا عليّ بأساً لاني سأسير مكرمة وسيكون معي حضرة الراهب وسأحمل من رئيس الدير كتاب توصية او نحوه بحيث لا اخشى شرًّا — بل ارجو ان اخدم العرب وانا هناك مالا استطيعه وانا معهم ومع كل ذلك فلا حيلة في قضاء الله . . »

فقال هاني « انكِ تحاولين محالاً — أكون حاضرًا وتساقين انتِ اسيرة ؟ . ذلك لا يكون ابدًا . . ووالله لأُعمل السيف في الافرنج ولو كانوا الوفاً . . . . »

فقطعت سالمة كلامه قائلة « اذا فعلت غير ما اقوله فانك تكدرني وانا اعلم انك لا تريد كدري — ان الدوق اود يعرف عني اكثر مما تعرف انت او تعرفه ابنتي هذه — وهو لا يطلبني اليه ليسوءني ولو كان ذلك غرضه لفعله وانا سجينة عنده الى الامس . دعنا الآن من هذا البحث واتقدم اليك بشرف العرب وعز الاسلام ان تطيعني في ذلك وقد آن لي الآن ان اطلعكما على شيء جديد حفظته منذ اعوام . . » ثم التفتت الى الراهب وقالت « قل لحضرة الرئيس اني متأهب للخروج حسب امره بعد ساعة او ساعتين لغرض لي مع ابنتي هذه قبل سفري »

فحنى الراهب رأسه وخرج

الفصل الثاني والسبعون

سرٌّ جديد

وبعد خروجه نهضت سالمة واصلحت رداءها كأنها تستعد للخروج وجعلت تخطر في ارض الغرفة ذهاباً واياباً ثم وقفت الى النافذة واطلت على النهر ولبثت صامتة ومريم وهاني ينتظران امرها ويعجبان لتلك الحركة وذلك السكوت . ثم تحولت عن النافذة واقبلت اليهما وقد تغيرت سحنتها واقطبت اسرتها وبدا الاهتمام في عينيها وذهب ما كان في محياها من

الابتسام الطبيعي وتحوّل الى هيبة وغضب . فلما رآها هاني على تلك الحال تهيب والتفت الى مريم فرآها اكثر اهتماماً منه ولكنها ألجما عن الكلام واصابها ذهول — اما سالمة فنظرت الى مريم وخاطبتها قائلة « اتعرفين من هو والدك يا مريم ؟ »

فقالت « كلاً يا اماه » وتورّدت وجنتاها من الخجل وبغتت لذلك السؤال على غير انتظار ولم يكن هاني اقل استغراباً منها ولكنه ظلّ صامتاً ليرى ما يكون

قالت سالمة « اتعرفين من هي والدتك ؟ »

فازدادت مريم استغراباً وقالت « نعم هي انتِ . . »

ثم التفتت الى هاني وقالت « اعلم يا بنيّ اني الأتمنت على هذا السر منذ نحو عشرين سنة على ان لا ابوح به الا لقائد جند العرب بعد عبور هذا النهر ولكن قضت الاحوال ان ابوح ببعضه قبل ذلك الحين لامير هو على ما اعلم يتلو القائد الاكبر وللضرورة احكام — لقد ضاق صدري عن كتمان هذا السر بعد هذا الزمن الطويل وقد اشخرت روح ذلك العزيز صاحب هذا السر ان اكشفه في هذه الساعة لابنتي ولك يا هاني على شرط ان تحتفظا به حتى تبلغاه الى الامير عبد الرحمن بعد هذه الواقعة — وليس قبلها . فاصغيا »

وكانت سالمة تتكلم وهاني شاخص ببصره ومريم تكاد يجمد الدم في عروقها لفرط تأثرها من منظر امها وما شاهدته في سحنتها من المعاني التي لم ترها فيها من قبل

فقعدت سالمة واصلحت ثوبها واخذت في قص حديثها فقالت وهي توجه خطابها لمريم انت تعلمين يا مريم ان والدك سالمة ولكنك لا تعلمين من هي سالمة هذه . وقد سألتك عن والدك فقلت انك لا تعرفينه لانه توفي وانت طفلة ولم اذكره لك قط ولم يكن احدٌ يعرف نسبك غير ذلك الشيخ المسكين حسان وقد قتل ولو اصبتُ انا بنبلة لذهب هذا السر ادراج الرياح ولذلك عجلت في كشفه لصاحبه — فاعلمي يا مريم ان امك التي تسميتها سالمة هي أجيلا امرأة رودريك ملك اسبانيا الذي قتله العرب في واقعة فحص شريش منذ بضع وعشرين سنة لما جاء طارق لفتحها . وبعد ان قتل رودريك المسكين جاء موسى بن نصير فاتمّ الفتح حتى بلغ الى طليطلة عاصمة اسبانيا في ذلك الحين وكنت انا هناك فصالحت على نفسي بعد وفاة زوجي واقمت مكرمة وعشت في هناء ورغد كما كنت في ايامه وكانوا يسمونني ام عاصم ولم يمسني احد بسوء . لان موسى رحمه الله كان عادلاً رفيقاً يعلم كيف يفتح البلاد . ولكن مدة حكمه لم تزد على بضع سنين فوشى به الواشون حتى استقدمه الخليفة الى الشام وسجنه . وكان نصب عيني موسى

بعد ان فتح الاندلس وجمع غنائمها ان يوصل الفتح في هذه البلاد وما وراءها حتى يأتي القسطنطينية ويقطع منها الى الشام ويفتح ما في طريقه من البلاد[1] حتى يصير البحر الابيض محاطاً بالمسلمين من كل جهاته . ولو فعل ذلك يومئذ لكان هيناً على المسلمين لان البلاد كانت في ضعف والحكام في انقسام

« فلما أخذ موسى الى الشام استخلف على الاندلس ابنه عبد العزيز بن موسى (قالت ذلك وتنهدت) وكان عاقلاً حكيماً عادلاً وقد أطلعه ابوه على ما كان في عزمه من فتح هذه البلاد التي يسميها العرب الارض الكبيرة . وكنت انا لا ازال في طليطلة فلما تولى عبد العزيز ورآني ورأيته أحبني واحببته فطلب الاقتران بي ولم اكن اطمع برجل ارفع منه مقاماً . فقبلت على ان ابقى على النصرانية فرضي ولكنه علمني الاسلام فوجدته كثير الشبه بمذهب اجدادنا القوط (الاريوسية) . ثم انتقل بي الى اشبيلية فاقمنا هناك بضع سنوات كان في اثنائها مثال التعقل والحزم وقد اسرَّ اليَّ اموراً كثيرة كان عازماً على اجرائها خدمة للعرب والمسلمين اهمها فتح هذه الارض الكبيرة (اوربا) وقد كان ذلك هيناً كما قدمت وخصوصاً لعبد العزيز لانه رحمه الله كان يعامل اهل البلاد بالعدل والمحاسنة والرفق فاصبح الناس على اختلاف طوائفهم يحبونه . وشاع ذلك عنه الى اقصى بلاد النصرانية ولو طال مقامه لفتح هذه البلاد على اهون سبيل لان اهلها كانوا في انتظار من يخولهم حقوقهم وحريتهم ولا فرق في مذهب عندهم . وكثيراً ما كان عبد العزيز يبين لي رغبته في ذلك الفتح وانا احرضه على اكرام الاهالي والاحسان اليهم وهو يطيعني لما يترتب على ذلك الاحسان من الكسب العظيم . وقد بذل جهده من الجهة الاخرى في جمع كلمة المسلمين من العرب والبربر وغيرهم لانه بغير هذا الاتحاد لا يستطيع عملاً

« وانه لفي هذه الآمال اذ وشى به الحساد كما وشوا بابيه واتهموه بانه طامع في الملك لنفسه وقد بنوا ادلتهم على محاسنته اهل البلاد وقالوا اني غلبت على عقله حتى حملته على أن يأخذ اصحابه ورعيته بالسجود له اذا دخلوا عليه كما كان يفعل زوجي رودريك على زعمهم . ومن مفترياتهم اني جعلته يفتح باباً قصيراً في مجلسه الذي كان يجلس فيه حتى اذا دخل أحدهم منه طأطأ رأسه كالراكع[2] . والله يعلم انهم افتروا عليَّ ذلك افتراء ولم يفقهوا سرَّ الامر . ولما نفذت الوشاية به عند الخليفة لم يستوفدوه اليه كما

---

(١) نفح الطيب ١١٠ ج ١ (٢) ابن الاثير ج ٥

قملوا بأبيه ولكنهم دسوا له من قتله وهو في المسجد [١] والمغى عليه »

ولما بلغت الى هنا شرقت بريقها ووقفت عن الكلام وهاني ومريم كأنهما في حلم ولا يتجرآن على التلفظ لئلا يقطعا كلامها • فقالت وهي تنظر الى مريم وتحاول الابتسام « وكنت قد ولدتك منه وبلغت السنة الثالثة وكان يحبك حباً لا مزيد عليه خلافاً لمن ولدله من النساء الاخريات وكان لا يهنأ له عيش الا اذا قبلك وضمك الى صدره صباحاً ومساء • واذا رجع من مجلسه وأتى قصره جعل يلاعبك ويبذل جهده في ما يرضيك حتى نسيني من اجلك • فلما علم بما نصبوه له من الحبائل وتحقق وقوع القضاء دعاني ليلة مقتله قبل نزوله الى المسجد فأتيته وانت على ذراعي فتناولك وجعلك في حجره وطفق يقبلك ويبكي بكاء مرًّا وهو يشهق شهيق الطفل فلم أتمالك عن البكاء معه لاني احببته حباً كثيراً لما رأيته من صدق محبته وكبر نفسه وحسن مقصده • وبعد ان بكى وودعك نادى خادمه حسانا ووصاه بي وبك ثم التفت اليّ وقال (قد أبى هؤلاء القوم الا ان يضيعوا تعبي ويفسدوا ما دبرته لدولتهم مما لم يكونوا يحلمون به • اما موتي فبقضاء الله وقدره فلا اطالبهم به بل انا اشفق على ما اضاعوه وسيضيعونه بقتلي مما دبرته لهم لاني لا أظنهم سيتوفقون الى رجل آخر يغار على الاسلام غيرتي ويتوفق له ما توفق لي من الاحوال المساعدة على الفتح وهي أرضاء الاهالي وجمع كلمة المسلمين وتوفر الاسباب الاخرى المؤدية الى ذلك) • ثم أشار اليك وقال (لو كانت هذه الحبيبة غلاماً لاوصيتك بتربيته لهذه الغاية ••• سأموت في الغد آسفاً على الفرصة التي اضاعوها بجهالتهم ولكني أوصيك ان تربي ابنتنا هذه تربية عربية وتعلميها ركوب الخيل ولا تخبريها من هو أبوها ولا تجعلي عربياً يعرف بها الا من توسمت فيه الغرض الذي ذكرته وتوفرت فيه الاسباب المساعدة عليه • فاذا رأيت قائداً عربياً نهض للفتح وقد ادرك العوامل المساعدة على ذلك فان هذه الفتاة له زوجة او ابنة او كما يشاء)

ولما قال ذلك أخرج من جيبه هذه المحفظة (واستخرجت هي المحفظة من جيبها) ودفعها اليّ وهو يقول (واذا توفق المسلمون الى ذلك الرجل فانه فاتح هذه البلاد لا محالة • فاذا تمكن من الفتح حتى بلغ نهر لوار قصّي عليه خبري واطلعيه على وصيتي وسلمي هذه الابنة له وسلّمها هذه المحفظة فان فيها ما ينفعه وينفع المسلمين)

---

(١) جاء في صفحة ١١٤ من هذه الرواية انهم قتلوه في طليطلة والصواب في اشبيلية

فاخذتُ الحفظة وحفظتها معي من ذلك الحين ولم تفارقني يوماً واحداً ولا ساعة واحدة وانا لا اعلم ما فيها . فلما قتلوه تلك القتلة الشنيعة سامحهم الله لم يبقَ لي عيش في الاندلس فبرحتها ومعي حسان وعنده كل اسراري وقد كان خادماً أميناً مخلصاً رحمه الله

«وقد تولى الاندلس بعد عبد العزيز عدة امراء وأكثرهم تحفزوا للفتح ولكنهم لم يظفروا به لطيشهم وعتوهم وطمعهم . حتى اذا سمعت بعبد الرحمن وما أتاه قبل النهوض للفتح من طوافه باسبانيا وتعهدهِ أحكامها وعزل الضعفاء وأهل المطامع ومحاسنة أهلها وسعيه في جمع كلمة الجند من العرب والموالي قلت هذا هو الرجل المنتظر . وصبرت حتى أتى بوردو وفتحها وكان ما كان مما تعرفينه » ثم وجهت كلامها الى هاني. وقالت « فالذي أراه ان الامير عبد الرحمن هو الرجل الذي عناه الامير عبد العزيز . فربما له وهذه الحفظة (ودفعتها الى مريم) معها أيضاً . ولكن بالطبع لا يكون له شيء من ذلك الا بعد قطع هذا النهر » فتناولت مريم الحفظة وخبأتها بين أثوابها

الفصل الثالث والسبعون

الوداع

وكانت سالمة تتكلم والعرق يتصبب من جبينها ويتسرب الى خديها حتى يقطر على ثيابها وقد احمرت عيناها وتوردت وجنتاها من شدة التأثر . أما مريم فانها نهضت مبهوتة وقبلت والدتها وهي تقول « أنت والدتي والحمد لله فقد أقلقتِ بالي بسؤالك اذا كنت أعرف والدتي فخفت ان أكون ابنة سواك — فاذاً أنا عربية ووالدي أمير عربي وأمي ملكة الاسبان ...

فقطع هاني كلامها وقد غلب عليه الغرام وسره تفويض امر مريم الى عبد الرحمن لسهولة نيله اياها على يده وقال « لا شك انك عربية الاصل عريقة في الحسب والنسب» والتفت الى سالمة وقال لها « ان حديثك ياسيدتي قد نقش على صفحات قلبي وأراك فقت العرب بحفظ الوداد ووفاء العهود وتفضلت عليهم بالحب الثمين لرجلك ونصرتهم بسعيك وفديتهم بنفسك فبورك فيك . والله لو كان في رجالنا عشرة مثلك أو مثل ابنتك هذه

لفتحنا العالم لامحالة . ولكننا محاطون بجماعة لا يجمعهم الا الجشع وقلَّ فيهم من يفهم معنى الفتح والنصر واعلاهم يفهمون الغنائم والسبايا . ونحن في كل يوم نقاسي العذاب في سبيل التوفيق بين قبائلهم وشعوبهم ولو كان أميرنا غير عبدالرحمن ما استطعنا الوصول الى هنا . فنطلب اليه تعالى ان يأخذ بناصرنا حتى نقطع هذا النهر واذا قطعناه هان كل عسير » والتفت الى مريم وضحك ففهمت انه يشير الى زواجهما ولكن قلقها لفراق والدتها شغلها عن الخجل

وكانت سالمة في اثناء ذلك مشتغلة بمسح العرق عن وجهها وكأنها أحست بحمل نزل عن صدرها بعد كشف ذلك السرّ لكنها انتبهت للمحفظة فقالت لمريم اوصيك بتلك المحفظة اعتني بها ولا تسلميها الا لعبد الرحمن الغافقي بعد عبور هذا النهر »

فقالت مريم « والآن لا بد من ذهابك الى الدوق اهذ ؟ »

قالت « نعم ولا بأس عليَّ منه كوني في راحة واعلمي انك في كفالة الامير عبد الرحمن فقد اوصيته بذلك من قبل »

فتوسمت من هذه التوصية ان والدتها لاترجو اللقاء بعد هذا الفراق واحست سالمة انها تريد مراجعتها فنهضت وهي تقول « لقد آن لي اجابة طلب الدوق » قالت ذلك وضمت مريم الى صدرها واخذت في تقبيلها تكراراً وكلاهما تبكيان وهما متعانقتان متماسكتان كانهما لا تريدان الفراق . فاثر منظرهما في هانيء حتى كاد يبكي ثم خاف عليهما فتقدم وفرق بينهما فرأى عيني سالمة حمراوين من شدة البكاء وهي مع ذلك تنظر الى ابنتها وتبتسم ومريم تقول لها « قلت ان هانئاً لايحب التفريط به لحاجة الجند اليه وانا ما الفائدة مني ودعيني اسير معها تسيرين »

فقطع هانيء كلامها قائلاً « ان الجند لا ينفع شيئاً دونك »

ففهمت ان هانئاً لا يريد فراقها وتذكرت شدة حبه لها فهان عليها فراق والدتها وسمعته سالمة يقول ذلك فلحظت أنه يحبها ولكنها كانت تثق بشهامته وتعلم منزلته عند عبدالرحمن وازدادت وثوقاً به لما رأت عبد الرحمن اذن له ان يرافق مريم الى هذا الدير

ولما ابتعدت للخروج قالت لهانيء « اذهب أيها الامير بمريم قبل ذهابي ... »

قال « العفو أيتها الملكة الجليلة ... اني لا اخطو خطوة قبل ان اراك ذاهبة باكرام ورعاية والا فلا يأخذونك وفيَّ عرقٌ ينبض .... »

قالت « ثق اني سأذهب مكرمة وساقيم هناك لا أقول مكرمة ولكني لا أخاف بأساً لان اود يعرف من انا وارجو ان يكون مكثي في معسكر اود هذه المرة مثمراً مثل

مكثني المرة الماضية فقد كشفت فيه سرًّا اكشف عنا شرًّا عظيماً »

قال « ربما كان ذلك ولكنني استحي من نفسي ان اخرج من هذا الدير وحوله الجند يطلبونك فاذا كنت لا تسمحين ان امنعهم من اخذك أفلا تأذنين لي ان أراك ذاهبة معهم ؟ »

قالت مريم « ان هانئاً مصيب برأيه »

قالت سالمة « فلأذهب اذاً الى رئيس الدير لوداعه فانتظراني في الحديقة ... قالت ذلك وخرجت فتبعاها فتحولت هي الى غرفة الرئيس ونزلا هما الى الحديقة وكانت مضيئة بالاقباس . وطلب هانيء من البواب ان يستحضر بالجوادين فامر بجيء بهما فدفع هانيء اليه صرة فيها دنانير فاستأنس البواب بذلك الكرم وأمر الخادم ان يحسن العناية بالجوادين . فوقف بهما وجواد هانيء يتجلى كالعروس بما عليه من العدة المتقنة وما في عنقه من القلائد والعقود . وما على عدته من الحجارة الكريمة وخصوصاً اللؤلؤة الكبيرة المصوغة على شكل النجمة فوق جبينه ناهيك بلجامه المذهب وما على صدره من سلاسل الفضة وهو أدهم شديد السواد فاصبح كأنه ليل تتلألأ فيه النجوم وكان هانيء واقفاً الى جانبه ينظر اليه نظرة والى مريم نظرة أخرى . ولم يبق احد من اهل الدير في تلك الحديقة او بقرب الباب الا وقد جاء ينظر الى الادهم والى صاحبه وكلاهما غريب عندهم . وكان الادهم ادرك اعجاب الناس به فازداد دلالاً واخذ يضرب الارض بيمناه ويصهل ويشخر كأنه يطلب النزال او كأنه فهم من صهيل الخيول حول سور الدير انهم اعداء صاحبه فاخذ يهددهم به . اما مريم فقد كادت تنسى فراق والدتها قبل ذهابها لاشتغال خاطرها بحب هانيء وخصوصاً بعد هذه السفرة وقد تحققت انها عربية الاب ملوكية الحسب فتذكرت الحفلة فافتقدتها — وعادت الى هواجسها

وبعد قليل سمعوا ضوضاء داخل الدير ثم خرج بعض الخدم يحملون الشموع ووراءهم جماعة من الرهبان يسيرون بين يدي سالمة ورفيقها الراهب وساروا بهما الى باب السور فمروا بهاني ومريم فحييهما سالمة ومشت حتى خرجت من الباب وكانوا قد اعدّوا لها جواداً ركبته وركب الراهب جواداً آخر وضرب بالبوق فاجتمع الفرسان الافرنج ومشوا الى جانبيهما وبعضهم الى ورائهما برعاية مواكرام وهانيء ومريم ينظران . واحست مريم في تلك اللحظة ان امها اقتلعت من قلبها فغلب عليها البكاء ولكنها كتمت بكاءها

الفصل الرابع والسبعون

ضوء القمر

اما هاني فبعد ان سار الركب بسالمة ركب أدهمهُ وأشار الى مريم فركبت جوادها فخرجا وتحولا نحو المعسكر فلما بعدا عن الدير احسا بالانفراد . وكان الليل مقمراً وقد صفا الجو وهدأت العناصر وسكن الهواء كأن الطبيعة شاركتهما في التهيب والاعتبار . فلم يسمعا الاَّ وقع حوافر الجوادين على التراب . وكأن الجوادين أحسا بما يتقد على ظهريهما من لواعج الغرام فاعتبرا وطأطأ ومشيا مشية الاحترام والحب سلطان تطأطئ له الهام — ظلَّ الحبيبان مدة صامتين تهيباً من منظر الطبيعة وتفكيراً بما رأياه وسمعاه تلك الليلة من الامور الهامة وقد اعجبهما الاطلاع على ذلك السر فاصبح ارتباطهما بعده اوثق منهُ قبلهُ . وقد علما انهما اقرب نسباً واوثق عهداً واحست مريم انها مطالبة بنصرة العرب عملاً بوصية والدها

فلما اقتربا من المعسكر رأيا نيرانه ولم تكن تظهر لهم عن بعد لالتهاب ضوء القمر فاسف هاني لوصوله الى المعسكر قبل ان يخاطب مريم بشيء بعد ما عرفه من امرها . فامسك شكيمة جواده ليسير الهوينا فاقتدت به مريم وهي تتوقع ان تسمع منه شيئاً فاذا هو يقول على سبيل المداعبة « اراك صامتة يامريم ألعل ما علمته من شرف اصلك خفف شيئاً من حبك ؟ »

فأوقفت جوادها بغتة ونظرت اليه كأنها تستطلع قصده من تلك العبارة فلما رأته يبتسم علمت انه يمازحها ولكنها قالت « اذا سامت بشرف اصلي فلا فضل لي بشرف ورثته من الاجداد وانما الشريف من نال الشرف بحد حسامه كما ناله الامير هاني ... »

فقال وقد هاجت عواطفه وهو يمسك جواده عن المسير والجواد لا يطيعه « انت اذاً صاحبة الشرف طارفاً وتليداً فقد رأيتُ منك في واقعة دردون مايعجز عنه اعاظم الفرسان فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجل ورقة النساء »

فقطعت كلامه وقالت « اني لم افعل شيئاً ياهاني . واذا ساعدتني الاقدار سأتفانى في انفاذ وصية ابي ولو لم اكن ذكراً كما قال فانَّ الشجاعة لم تختص بالذكور دون الاناث . آه ياهاني . ... » وسكتت كأنها تكتم أمراً

فنظر اليها هانيء والقمر تجاه وجهها وقد وقعت اشعته على محياها وحوله النقاب الاسود ·
فلو رآها شاعر عربي لقال تقابل القمران · والحقيقة ان القمر ليس له ما في وجوه الملاح من المعاني الجاذبة والخلابة · وخصوصاً فتاتنا العربية سلالة الملكين فقد كان في وجهها فضلاً عن الجمال ملامح الهيبة والذكاء وجاءها الحب فزادها رونقاً وزاد الحب افتتاناً — فنظر هانيء الى وجهها وقد اطرقت كأنها تكتم امراً يمنعها الحياء من افشائه وتشاغلت باصلاح الشعر على عنق جوادها · والجواد مستأنس بمرور انامِلها على عنقه · واراد هانيء ان يسألها عما تكتمه فاذا هو بفارس قادم عليهما من جهة دير مرتين ينهب الارض نهباً فامسك هانيء جواده وتفرس في القادم فما لبث ان علم من قيافته انه افرنجي ورأى معه علماً ابيض فتحقق انه رسول من شارل · ولم يكن هانيء يعرف الافرنجية فلما دنا الفارس منهما امسك شكيمة جواده ومشى الهوينا · فخاطبته مريم بالافرنجية قائلة « من الرجل ؟ »

فقال « اني رسول من الدوق شارل الى الامير عبد الرحمن فاين هي خيمته ؟ »

فافهمت هانئاً ما قاله فقال « انها رسالة ذات بال والاحسن ان نسير به لنرى ماسيكون »

فقالت مريم للرسول « نحن ذاهبون اليه تعالَ في اثرنا » ومشيا وقد انصرف خاطرها الى ما يهدد هذا الجند من الامر العظيم وتذكرت مريم حساناً لانها كثيراً ما كانت تراه قادماً بمثل هذه المهمة فما تمالكت ان قالت « مسكين حسان » وكان هانيء كله آذان لسماع اية كلمة تخرج من فم مريم فلما سمعها تذكر حساناً تذكر عبارة قالتها سالمة في ذلك النهار عند سماعها مقتل حسان فقال هانيء « سمعت والدتك تقول لما علمت بمقتل حسان انه مات ولم يرَ حفيده — فمن هو حفيده ؟ »

قالت « علمت من بعض ما كان يدور قديماً بين حسان ووالدتي انه كان له ابن سار في حرب لا ادري ماهي وكان لابنه غلام فقده في تلك الحرب ضياعاً وهو حفيده وكان حسان كثيراً ما يتحسر لضياع ذلك الغلام ولانه لا يعرف مقرّه · فلما قالت والدتي تلك العبارة خلت في خاطري وسألتها تفسيرها بعدئذٍ فقالت انها عثرت على الغلام المذكور في معسكر اود وقد صار شاباً والافرنج يحسبونه منهم ويسمونه رودريك وانها تركته في معسكر اود عند فرارها ولم تعد تعلم مقرّه » · وكان هانيء انما اراد مباسطتها للتلذذ بالفاظها ولغتها ولم يكن يهمه امر حسان كثيراً · لكنه ما لبث ان سمع حكايتها حتى اسف لفقده

فلما اقتربوا من المعسكر امسك هانيء شكيمة جواده ونظر الى مريم فادركت انه يريد ان تنصرف الى الاخبية حيث تقيم النساء فقالت « هل اذهب الى الخباء ؟ »

قال « نعم يا حبيبتي لتكوني هناك في مأمن حتى يقضي لنا الله بالنصر ونذهب معاً الى نهر لوار وارجو ان يكون ذلك قريباً ٠ ٠ ٠ »

قالت « اما اذا خيرتني فاني افضل البقاء هنا لامر اراني مسئولة عنه مثل سؤالك او سؤال الامير الكبير ولكن الطاعة واجبة — فالآن لا ينبغي ان ننسى السرّ الذي عهد الينا بحفظه ولا بدّ من كتمانه الى حينه » قالت ذلك وافتقدت المحفظة فوجدتها

فقال هانئ « أأرسل معكِ بعض الخفر لا أقول لحراستكِ لانكِ في غنى عن ذلك وانما ارسلهم لخدمتك ٠ ٠ ٠ »

فقطعت كلامه وقالت « لا حاجة لي بالخدم يا هانئ وانا سائرة في ظلك وانت معي حيثما توجهت » قالت ذلك واومأت برأسها للوداع وادارت شكيمة الجواد وانصرفت نحو الاخبية ٠ فلما توارت عنه عاد الى الفارس وسارا معاً حتى دخلا المعسكر ولم يعترضهما الخفر لانهم عرفوا الامير هانئاً من ادهمه ٠ حتى اذا وصلا فسطاط الامير ترجل هانئ وهو يستفهم من الحاجب هل عند الامير احد فقال « كان الامراء عنده منذ هنيهة وانصرفوا »

الفصل الخامس والسبعون

الترسل

فدخل هانئ واشار الى الرسول بالبقاء خارجاً وكان عبد الرحمن جالساً وقد سمع صوت هانئ قبل دخوله فصاح فيه صيحة الوالد بولده « ما الذي ابطأك يا هانئ لقد اشغلت بالنا ٠ ٠ »

فقص عليه ما جرى لهما بعد وصولهما الدير وكيف بعث اود جنداً اخذوا سالمة اليه وكيف ارادا انقاذها وهي لم ترضَ ٠ ولكنه لم يذكر شيئاً من السرّ ٠ واخبره ان مريم رجعت معه وقد توجهت الى الاخبية الى ان قال « وقد اتيتك برسول من قارله (شارل) قائد جند الافرنج اظنه يحمل اليك كتاباً وهو بالباب الآن ٠ هل يدخل ؟ »

فصفق عبد الرحمن فدخل بعض الحجاب من غلمانه فقال له « ادعُ لنا احد المترجمين فاذا جاء ادخله مع الرسول » فخرج الغلام وظلّ عبد الرحمن صامتاً كأنه بغت بخبر جديد ولم يكن هناك شيء جديد ولكنه تنسّم رائحة القتال وتصور له عظم الامر الذي هو قادم عليه ٠ وادرك هانئ اهتمامه فتهيب وظلّ ساكتاً حتى عاد الغلام ومعه الترجمان وهو من يهود اشبيلية وكان يعرف عدة لغات وللمسلمين ثقة كبرى فيه مثل ثقتهم بسائر يهود

الاندلس لانهم كانوا عوناً كبيراً لهم في فتح تلك البلاد . ثم دخل الرسول وتأدب في موقفه فسأله عبد الرحمن بواسطة الترجمان عن غرضه فقال انه قادم برسالة من الدوق شارل صاحب اوستراسيا . فقال عبد الرحمن « واين الرسالة ؟ » .

فمدَّ الرسول يده الى شبه خرج معلق تحت ابطه واستخرج منه لوحاً ملفوفاً بمنديل من الحرير الاحمر وقد شدَّ حول المنديل بشريط من الحرير الازرق . فتناول عبد الرحمن الرسالة واشار الى الرسول فخرج . ثم حل الشريط وفتح المنديل واستخرج ما فيه وهو عبارة عن لوح من الخشب الرقيق مكسو بالشمع وقد كتب عليه حفراً في ذلك الشمع على جاري العادة في مكاتبات تلك الايام في اوربا . فلما ظهر اللوح علم عبد الرحمن انه رسالة افرنجية بدون ان يقرأها لعلمه ان العرب يكتبون على الجلد او القرطاس او النسيج . فدفع اللوح الى الترجمان فقرأه وهاك ترجمته :

« بسم الآب والابن والروح القدس

« من الدوق شارل قائد جند الافرنج وصاحب اوستراسيا الى الامير عبد الرحمن قائد جند العرب — اما بعد فان اخي الدوق اود صاحب اكيتانيا اخبرني بما تعمدتموه من الايغال في بلاده لغير سبب يدعو الى الحرب بيننا وبينكم . فانتم انما تطلبون الفتح التماساً للكسب وقد اطمعكم في ذلك ما رأيتموه من ضعف الدين وافقوكم من جند هذه البلاد الى اليوم . وقد بلغني ما انت عليه من الشجاعة والتعقل وعلو الهمة فرأيت ان انصحك لترجع عن قصدك بدون سفك الدماء . ولا اكلفك تسليماً بل اطلب اليك الانسحاب من هذه البلاد بما تحمله من الغنائم الى حدود اسبانيا على الاقل اذ لا قبل لكم بالوقوف امامنا . هذه نصيحتي لكم واذا لم تقبلوها فموعدنا في النزال قريب والسلام »

فلما فهم عبد الرحمن فحوى الكتاب بما فيه من التهديد ظهر الغضب في وجهه لكنه امسك نفسه ونظر الى هانئ كأنه يستشيره فقال هانئ « يظهر ان الرجل مغرور بنفسه فارى ان يكون جوابنا السيف »

فتبسم عبد الرحمن وصفق فجاء الغلام فقال له « ادعُ الامراء للمفاوضة » فادرك هانئ انه لا يقضي امراً الا بالشورى خوفاً من العتب او الفشل . وبعد ساعة جاء الامراء فتلي الكتاب عليهم ففوضوا الى عبد الرحمن الجواب عليه فاشار الى الترجمان ان يكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الرحمن الغافقي قائد جند المسلمين في اكيتانيا الى الدوق شارل قائد جند

الافرنج . اما بعد فقد قرأت كتابك وساءني اغترارك بنفسك مع مابلغني من علو همتك وبسالتك . فاعلم ايها الدوق اننا لم نجرد هذا الجند لفتح اكيتانيا وحدها ولكننا نهضنا لفتح هذه الارض الكبيرة . ولو لم تأت انت لملاقاتنا هنا لالتقينا بك في بلدك ثم نحمل على رومية فالقسطنطينية حتى يدين لنا العالم كله كما وعدنا نبينا — فننصح لك ان تعتبر بما اصاب اخاك صاحب اكيتانيا والأ فلومك على نفسك والسلام »

وانفذ الكتاب وختمه وارجعه الى الرسول فحمله وعاد وانصرف الامراء الأ هانئاً فظل عند عبد الرحمن وقد توسط الليل فقضيا ساعة في المداولة ثم انصرفا الى المنام

وقضيا اليوم التالي في التأهب وتدبير الشؤون . وكانا في اصيل اليوم الثالث يطوفان بفرسيهما جناح الجند الايسر اذ جاءهما بعض الطلائع بانه شاهد غباراً يتصاعد في عرض الافق بجوار دير القديس مرتين فادركا ان شارل لما وصله الجواب زحف بجنده للقتال . فصعدا الى اكمة اطلا منها فرأيا غباراً يتصاعد ايضاً من جهة الجنوب حيث معسكر اود فعلما ان الجيشين متحدان عليهم فقال عبد الرحمن «لقد آن العمل ياهانئ وهذه جنود الافرنج قادمة فينبغي لنا ان نتيقظ ونتأهب لئلاً يهاجمونا على غرة . فامض الى فرسانك واجعلهم على اهبة النهوض وانا ماض الى تحذير سائر الامراء » قال ذلك وتحوّل فتحوّل هانئ في اثره ونفسه تشتاق الى النزال

على ان الجيشين لم يواصلا الزحف على العرب ولكنهما عسكروا تجاه معسكرهم وما بينهما وبينه الأ ساحة القتال . فلما رأى عبد الرحمن نزول الافرنج علم انهم لا ينوون الهجوم في ذلك اليوم فبعث الى هانئ فجاءه وبعد صلاة العشاء خرجا من المعسكر ماشيين الى اكمة قريبة كان عبد الرحمن قد عاينها بنفسه في الامس فصعدا اليها ونظرا الى مابين ايديهما وقد طلع القمر وارسل اشعته في الفضاء فوق ذلك السهل فكشفت عن معسكرين معسكر شارل في الشرق ومعسكر اود بازائه نحو الجنوب تجاه معسكر العرب . ونظر عبدالرحمن الى مضارب ذينك الجيشين وامعن نظره ليقدر عددهم فوجدهم كثاراً يزيدون على جند المسلمين وودّ لو انه يلتقي بمن ينبئه عن قوة الجيشين ومعداتهما وسائر احوالهما

وكان يفكر في ذلك ويمشط لحيته بأنامله وهانئ واقف بجانبه يفكر في نحو ذلك الامر وقد تبادر الى ذهنه أن حسانه لو كان حياً لكان احسن وسيلة للاستطلاع لانه يعرف لغة البلاد وعادات اهلها وهو حسن الاسلوب ذكي مخلص . فاراد ان يخاطب عبدالرحمن في هذا الشأن على سبيل فتح الحديث فرآه يتفرس في عرض الافق كأنه يرى شبحاً جديداً

فالتفت هو الى هناك فرأى شبحاً كأنه رجل يعدو من جهة معسكر الدوق شارل وعليه لباس الافرنج ولكنه لا يحمل راية ولا يظهر من قيافته انه رسول فقال هانيء « ما رايك بهذا القادم ايها الامير »

قال « لا أظنه رسولاً فربما كان جاسوساً او صديقاً »

وما أتم كلامهُ حتى أصبح الرجل على بضعة عشر متراً منهما فتباطأ في مشيته حتى اقترب وهما لا يكلمانه فلما دنا منهما قال بلفظ عربي مكسر « أين الامير عبد الرحمن »

فقال له هانيء « وما الذي تريدهُ منه »

فأومأ باصبعه الى لسانه مع اشارة النفي أي انه لا يعرف العربية ثم اوماً انه قادم من معسكر أود باس خاص بالامير عبد الرحمن

الفصل السادس والسبعون

معسكر شارل

فالتفت عبد الرحمن الى هانيء وقال « لو قلنا له اني الامير عبد الرحمن لا يصدقنا فالافضل أن ندله على خيمتي ثم ندخلها من باب آخر ونوهمه اننا كنا هناك » فأشار هانيء بيده الى فسطاط الامير وامامه النار ومشى فتبعه الرجل ومضى عبد الرحمن من جهة أخرى حتى دخل خيمته من باب سري ، ثم دخل هانيء وبعد قليل جاءه الحاجب ان شاباً افرنجياً بالباب فأمره عبد الرحمن بادخاله فادخله وعاد لاستقدام الترجمان وخيمته بقرب خيمة الامير . فلما دخل الشاب نظر اليه عبدالرحمن فاذا هو في مقتبل العمر عليه قيافة الافرنج وملامح العرب أسمر البشرة خفيف اللحية صغير العارضين من حداثة فلما جاء الترجمان أمره عبد الرحمن ان يسأله عن غرضه فسأله فقال الشاب « اني لا أخاطب أحداً غير الامير عبد الرحمن واذا كان غائبة فالامير هانيء »

فلما سمع هانيء اسمه تعجب فقال عبد الرحمن بواسطة الترجمان « أنك في حضرة الاميرين معاً » . قال « اني رسول من سالمة »

فلما سمعا ذلك الاسم توسما خيراً فقال عبد الرحمن « واين هي الآن ومن أنت »

قال « هي في معسكر الدوق اود وأما انا فاني رجل عربي الاصل انتهى بي الامر

الى الانتظام في جند الدوق اود ولي حديث طويل قصصته على سالمة منذ برهة وجيزة وقد قبض علينا اود وسجن كلاً منا في مكان ثم افترقنا ففرّت هي من سجنها وظللت انا في المعسكر ثم اشتاق الدوق سراحي وأحسن الظن بي وأعادني الى خدمته • ثم علم اود من عدلان الاحول انها في دير مرّتين فبعث فرساناً لاستقدامها كنت انا في جملتهم »

فقال هانيء « الملك رودريك ؟ »

فبغت الشاب والتفت الى هانيء وابتسم وقد استأنس بذلك السؤال وقال « نعم ياسيدي هذا هو اسمي »

وكان عبد الرحمن يسمع ذلك ويتعجب وينظر الى هانيء نظرة الاستفهام فقال هانيء بصوت منخفض « ان هذا المسكين حفيد حسان وله قصة تعرفها مريم »

فالتفت عبد الرحمن الى رودريك وقال « فاقصص علينا سبب مجيئك »

قال « لما رجعنا من الدير المذكور ومعنا سالمة ذهبنا بها الى خيمة باتت فيها تلك الليلة وفي الصباح التالي جاؤا بها الى مجلس الدوق وكنت في جملة الحرس الواقفين ببابه ورأيت عنده امرأة جميلة كانت جالسة بجانبه عرفت بعد ذلك انها ابنته لمباجة وانها كانت في معسكر العرب وفرّت الى أبيها في تلك الليلة — فلما دخلت سالمة خفتُ عليها من غضب الدوق ولكنني رأيت من اجلاله اياها واحترامه لها ماكاد يذهب برشدي وسمعتها تخاطبه بجسارة وقوة وهو يتحمل منها ويستعطفها كما يستعطف المحب حبيبه • وقد سمعته يسميها بغير اسمها وبعد ذلك أمر بارجاعها الى خيمتها • وكانت قد لاحت منها التفاته وهي خارجة فرأتني وعرفتني فأومأت الي خلسة ان اقابلها • فاحتلت في مقابلتها تلك الليلة • فلما رأتني قالت « انك عربيٌ واولى بنصرة العرب مني •• فامض الى معسكر الدوق شارل فاستطلع أحواله وأخبر أمير جند العرب بذلك لانهم اذا عرفوا قوة عدوهم هان عليهم حربه » والحّت عليّ بسرعة الذهاب فخرجت في تلك الساعة والمعسكران متقاربان وبتُّ في معسكر شارل وقضيت طول الامس واليوم في الاستقصاء ولما أمسى المساء فررت اليكم كما رأيتموني

فأعجب الاميران بشهامة سالمة وتذكر هانيء قولها انها ستكون في معسكر أود انفع لهم مما في معسكر العرب فقال عبد الرحمن « ما الذي عرفته من احوال ذلك الجند »

فقال « اعلم يامولاي ان قائد هذا الجند رجل شديد اسمه شارل (قارله) ابن بين وهو رئيس حاشية ملك نوستريا من العائلة الميروفيجيانية ونظراً لضعف ذلك الملك كان

حظ شارل من تلك المملكة دوقية اوستراسيا وراء نهر لوار . لكنه لم يقنع بالدوقية بل طمع بلبس التاج ولذلك كان اود هذا من اكبر منافسيه ولم يستنجده على العرب الا بعد اليأس الشديد . فلما استنجده جرّد ما يستطيع تجنيده من قبائل الافرنج وما يمكن حمله من العدة السلاح واستقر في هذا المعسكر ...»

فقطع عبد الرحمن كلامه قائلاً «كم هو عدد جنده ؟»

قال «لم استطع معرفة عدده تماماً ولكنني علمت انه كثير ربما زاد على ضعفي جيشكم على انني تحققت انهُ مؤلف من عدة قبائل تختلف في لغاتها وعاداتها واخلاقها وان كانت تعدُّ على الاجمال من الافرنج او الاوربيين[1] ولكنها عند التخصيص تراها مؤلفة من شعوب عديدة من جملتهم الاوستراسيون اهل البلاد الاصليين والأتويون والبروكتيون والطورنجيون والهيسيون وغيرهم وعليهم الادراع من الجلد وعلى صدور خيولهم ادراع من الحديد الثقيل . اسلحتهم السيوف الطويلة المعتدلة ذات الحدين والفؤوس الحادة والرماح المستطيلة والدبابيس الثقيلة في رؤوسها حسك الحديد . والجند مؤلف من المشاة والفرسان اما الفرسان فانهم قليلون وهم وحدهم يرمون النبال ...»[2]

وكان رودريك يتكلم باهتمام وعبد الرحمن وهانيء مصغيان لكل كلمة يقولها فلما بلغ الى هنا ابتسم هانيء والتفت الى عبد الرحمن وقال «نحن بلا ريب غالبون لان فرساننا كثيرون وقد عرفت بسالتهم وخبرت مهارتهم وفيهم الرماة وحملة السيوف والفارس العربي يعادل ثلاثة من فرسان الافرنج ولان مشاتنا فيهم الرماحة والرماة والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء ...»

والتفت عبد الرحمن الى رودريك فرآه يتحفز للنهوض فقال له «وهل عندك خبر آخر»

قال «كلاً يا مولاي ولكنني عائد الى معسكر اود بأمر سالمة فهل من جواب ؟»

قال «هي أمرتك بالرجوع ؟»

قال «نعم لعلها تطلع على أمر يهمكم من هذا القبيل فتبعثني به»

فقال عبد الرحمن «اعدها سلامنا وقل لها انا حافظون لها هذا الفضل»

فنهض رودريك واستأذن وخرج ثم خرج الترجمان ومكث عبد الرحمن وهانيء برهة يتداولان في أمر الجيش فاقرّا على الاسراع في الهجوم ما أمكن قبل ان يستمد الافرنج للدفاع . وفي اليوم التالي بعد صلاة الفجر نفخ في النفير فاجتمعت جيوش المسلمين

(١) ايزيدور (٢) رومي ج ٣.

فجعل عبد الرحمن المشاة في الوسط والفرسان في الجناحين وجميع الامراء على اختلاف قبائلهم فجاؤا على خيولهم وعلى رؤوسهم العمائم مكان الخوذ وقد تقلدوا السيوف . فوقف عبد الرحمن امامهم موقف الخطيب وقال « اعلموا أيها الامراء اننا قطعنا أكيتانيا كلها والظفر حليفنا ولما يئس عدونا من الفوز استنجد عدوه صاحب اوستراسيا وقد جاءنا بجنده وكفانا مؤونة الذهاب اليه وهذا معسكره وفيه كل قواته والذي نصرنا على صاحب أكيتانيا سينصرنا عليه وقد علمنا انه اضعف منا عدداً وعدداً والنصر موقوف على الصبر فاصبروا وتكاتفوا ينصركم الله فتفتحون بلاداً طالما تشوق المسلمون لفتحها ويتم على يدكم ماوعد الله نبيه من فتح العالم فيكون لكم الفخر ويخلد لكم الذكر مدى الدهر وانا واثق انكم فاعلون باذن الله والله مع الصابرين »

ولما فرغ من كلامه تقدم هانئ على ادهمه وعلى وجهه امارات البشر وقال وهو يبتسم « ان هذا اليوم يوم الموعد العظيم سنناله بالصبر والجلد . يكفينا سعادة اننا توفقنا الى امر طالما تحسر اسلافنا على الوصول اليه وسيحسدنا عليه الذين سيخلفوننا ويتمنون لو شاركونا فيه بدمائهم واعناقهم ... وسترونني وأنا اضعفكم عزيمة واقلكم بسالة باذلاً نفسي في سبيل الله فاذا فزنا فتحنا عالماً جديداً واذا منحنا الشهادة في الجهاد فذلك خير لنا عند الله .. » قال ذلك والعرق يتصبب من تحت عمامته والحماسة بادية في كل جارحة من جوارحه

ثم قال عبد الرحمن « فعليكم ايها الامراء ان تستحثوا رجالكم وتوصوهم بالصبر والثبات واخبروهم بالفخر الذي سينالونه بعد فوزهم فضلاً عن الغنائم فانها اضعاف ما نالوه حتى الآن » ثم تلا من ايات القرآن ما يزيدهم حماساً وشجاعة . فتقدم كبير امراء البرابرة وقد تحمس خصوصاً بعد ان سمع بكثرة الغنائم وقال « لا يخفى على مولانا الامير ان جند البربر من اشد جنود المسلمين بطشاً واكثرهم ثباتاً في ساحة الحرب وكلهم من الرماة الماهرين فاجعلوهم في المقدمة .. »

فاراد عبد الرحمن تشجيعهم فقال « نفعل ذلك » وامر ان يتقدم البربر باقواسهم ويعدهم العرب والفرسان في الجناحين

وكان شارل من الجهة الثانية يتأهب لمهاجمة المسلمين والمخابرات جارية بينه وبين اود في كيفية التعاون على ذلك ولكنه لم يكن يتوقع هذه السرعة . فلما اخبرته الطلائع باصطفاف المسلمين للحرب رتب جنوده صفوفاً متلازة بشكل الكتائب فاصبحوا كأنهم

سور من الرجال واكثرهم من الجنود المحنكة وقد حاربوا تحت راية شارل غير مرة فوقفوا موقف الدفاع والرماح نائتة من بينهم صفوفاً بعضها فوق بعض لتمنع العرب من اختراق ذلك السور المتين

الفصل السابع والسبعون

الحرب

قف معي هنيهة قبل الهجوم وانظر الى ذينك الجيشين وهما يختلفان جنساً ولغة وديناً ويتباينان مطعماً ومشرباً وملبساً ويتباعدان خلقاً وأدباً • اجتمع احدهما من اقاصي اسيا وافريقيا من أمم شتى لا يجمعهم غير الاسلام الى بلاد لم يطأوها من قبل واقاليم لم يتعودوا برده ومطره • وقد رأوا امامهم رجالاً ادراعهم من الجلود وعلى رؤوسهم خوذ من الجلود وراياتهم مستطيلة وعليها شارات النصرانية • وجاء الآخر من شمالي اوربا وهم قبائل مختلفة وقد قضوا زمناً في القيام بعضهم على بعض وانما اجتمعوا الآن لدفع عدوٍّ غريب جاءهم بدين جديد وشكل جديد وقد دهشوا لغرابة ما بدا لهم من اصطفاف تلك العمائم المتراصة في تلك الساحة الرحبة كأنها بحر يتلاطم بالامواج يتخللها من بينها رايات متشابهة عليها كتابة لا يستطيعون قراءتها • ولو تفحصت ما يجول في خواطر ذينك الجيشين لرأيتهما متضاغنين متباغضين يتضرع كل منهما الى ربه ان ينصره على الآخر تأييداً للحق • فاذا اعتبرت الاسباب التي دعت الى ذلك القتال لما رأيت سبباً غير الجشع الذي خُصَّ به الانسان دون سائر اصناف الحيوان • فاننا لم نسمع بسرب من الحيوان يجتمع لقتال سرب آخر من نوعه • واذا تنازع حيوانان فانما يتنازعان على لقمة يلتمس كل منهما سد جوعه بها فهما معذوران على الخصام • واما الانسان فانه يقتل اخاه على شيء لا يعبر عنه بغير الوهم بل هو لا يقدم على قتله الا على شبع • وانما يطلب وهماً يعبر عنه بالسيادة او الشهرة وكلاهما لا تسدان جوعاً ولا ترويان عطشاً

طلعت شمس ذلك النهار وهو على تقديرهم سبت من سبوت شهر اكتوبر سنة ٧٣٢ للميلاد (١) فبدأ العرب بالهجوم وأمطروا على الافرنج عارضاً من النبال وانقضوا عليهم

(١) رومي ج ٣

انقضاض الصاعقة فتلقاهم هؤلاء بالثبات والحزم ولم يتزحزحوا من اماكنهم . فانقضى النهار ولم يلتحم الفريقان الالتحام الأسطحياً . وقد تقابلا وتناديا وتصايحا ولكنهما لم يتفاهما لان كلاً منهما يعدُّ لغة الآخر رطانة وطمطانية — وربما كان التفاهم اقرب فيما بين خيولهم مما بينهم — ولكنهم تعارفوا بالوجوه ولم ينفعهم التعارف لانه لم يزدهم الا ضغينة وحقداً . ثم افترقوا على ان يعيدوا الكرة في الغد

رجع هانيء وهو منقبض النفس وامر فرسانه ان يعودوا الى مضاربهم وتحوَّل بادهمه مجانباً الساحة ليطل عليها من أكمة . واذا هو بفارس ملتف بعباءة قد ساق جواده نحوه فامسك شكيمة الادهم وتفرس فيه . ولا تسل عن دهشته لما رأى مريم على ذلك الجواد تخفق قلبه وصاح فيها « مريم ! ما الذي جاء بك الى هنا ؟ »

فقالت « جئت لاشاهد حبيبي هانئاً يبدد الكتائب ويفلُّ الجيوش ... »

فاحس عند سماعه قولها كأنها طعنته بحربة في صدره وحمل كلامها محمل التوبيخ لرجوعه بلا طائل وبدا التأثر في وجهه . وادركت مريم ذلك فاستدركت قائلة « لقد رأيتك تصول صولة الاسد ولكن الحرب سجال . على اني كنت اتوقع النصر لكم لو لم تجعلوا اولئك البرابرة في مقدمة الجند فهم لا يستطيعون اختراق صفوف الافرنج ولن يستطيع اختراقها الا الفرسان . فلو قدمتم فرسانك وانت معهم لبددتم شملهم لان خيالة الافرنج ضعيفة »

فرأى في قولها حكمة لانه كان يرى رأيها وقد هم بعرضه على عبد الرحمن فابتسم ونظر اليها نظر الحب والاعجاب وقال « بورك في بطن حملك لقد عهدت فيك لطف النساء وبسالة الرجال ولكنني لم اكن اعرف فيك مهارة القواد . انا عاملون برأيك في الغد باذن الله وهو رأيي أيضاً . ولكننا قدمنا البرابرة مسايرة لهم كما تعلمين حالنا معهم .. ولماذا عرضت نفسك للنبال .. ؟ فقد كنت وانا اجول في ساحة الوغى أتصورك في الخباء تتوقعين رجوعي ظافراً . فلما رجعنا كما ترين انقبضت نفسي .. ولو رأيتك بجانبي لكانت النتيجة غير ذلك ... »

فادركت ان علمه بوجودها يزيده بسالة ونشاطاً فقالت « فموعدنا الغد »

فقال « لا . لا تعرضي نفسك للخطر فاني اخاف عليك المباء فكيف النبال .. »

فقالت « ألعلي لا اخاف عليك ذلك ؟ وهل اذا اصيب هانيء بسوء ابقى انا ؟ دعنا من هذا الآن وغداً لناظره قريب » وكانا يتكلمان وفرساهما يسيران حتى اصبحا بجانب المعسكر فهمزت جوادها نحو الخباء وهي تقول « استودعك الله الى الغد »

فما زال ينظر اليها وهي تسوق فرسها حتى توارت والظلام يتكاثف فتحول حتى اتى خيمة عبد الرحمن واطلعه على رايه فوافقه عليه وبعث الى الامراء فقاوضهم في الامر فوافقوه على هذا الراي

فقضى عبد الرحمن ليله قلقاً وهو يقدّر العواقب ويحسب المخاوف تحجباً للفشل وازمع اخيراً انه اذا خاف على جنده من التقهقر طلب قائد الافرنج للنزال فاذا غلبه تشدد العرب واذا غلب له فالموت خير من الحياة . واما هانيء فقد كان اوسع املاً واوثق بالنصر مع انه لم يكن يجهل شاناً من شؤون الجند يعرفه عبد الرحمن — ولكن للشبيبة آمالاً تسهل الصعاب

واصبح الصباح فاجتمع المسلمون للصلاة وتلاوة آيات القرآن ورتبوا الجند فجعلوا الفرسان في المقدمة والمشاة في الجناحين البربر في الجناح الايمن والعرب في الايسر وعبد الرحمن وهانيء وسائر الحاشية في القلب . ومشت تلك الحملة نحو الافرنج وكانوا قد اصطفوا اصطفاف الامس وفرسانهم في الجناحين واخذوا في رمي النبال على العرب بسرعة وكثرة حتى كادت تحجب اشعة الشمس دون الغبار . ولكن العرب ظلوا سائرين وهم لا يبالون حتى اذا دنوا من صفوف الافرنج صاح هانيء في فرسانه واطلقوا الاعنة لخيولهم واقتحموها وهو على ادهمه في مقدمتهم وقد شرع سيفه . فلم يستطع الافرنج الوقوف في وجه ذلك السيل فتضعضعوا وامراؤهم يحرضونهم ويستحثونهم . والتحم الجيشان وقد رجحت كفة النصر للعرب وهانيء يزداد حماساً وبسالة حتى تخيل له لما آنسه من ضعف الافرنج وتقهقرهم انه يطارد اغناماً

وهو في ذلك اذ سمع صوتاً خرق احشاءه وامتلأت كل جوارحه وقائلاً يقول « لله درّك ايها الامير . . » فعلم من غنة الصوت واللثغة انه صوت مريم فالتفت فرآها على جوادها وقد التفت بعباءتها واعتمّت على رأسها فوق الخمار ولم يبق ظاهراً من وجهها غير عينيها وحاجبيها وانفها وفمها وقد تجلت الحماسة في تينك العينين فأبرقتا . واخرجت يمناها من العباءة وفيها سيف مسلول واخرجت اليسرى وفيها درقة لطيفة من الجلد واغارت بجانب هانيء وخلفه والناس يفرون من بين يديها كانها قضاء نازل . فأحسّ هانيء لما رآها في تلك الحال ان قوته تضاعفت وايقن بالفوز ولكنه خاف على مريم من نبل تصيبها في مقتل . على انه اصبح بعد ما شاهده من تباشير النصر لا يخاف خطراً ما والانسان اذا سالمته الحوادث يظن الاقدار ابرمت معه عهداً ان لا ترميه بسوء — وظل هانيء هاجماً وهو يستحث رجاله ويمنيهم بالظفر . وكأن ادهمه احسّ بالنصر فتحمس وازداد صهيلاً وهو يتحفز ويلهث والعرق يتصبب

من عنقه على صدره وقد تحلب الرغاء من فيه وتساقط على رغاء العرق تحت حزام صدره وهانئ كلما سمع صهيل جواده إزداد حماساً . ثم رأى ان يختم اسباب النصر بمبارزة شارل فطلبه بين يديه فلم يجده فجعل يتلفت للبحث عنه وهو يمتاز عن سائر الجند بقيافته ورايته والصليب على خوذته فلمحه عن بعد كأنه بجانب الامير عبد الرحمن فاراد ان يحول شكيمة الادهم الى هناك فسمع مريم تصيح فيه « احذر ايها الامير . احذر ... التفت ... »

فالتفت وهو يحسبها تحذره من فارس يحاول اغتياله من الوراء فلم يرَ خلفه احداً غير بعض العبيد او الخدم من سعاة العرب الذين يطوفون ساحة القتال في اثناء المعركة لالتقاط النبال المتساقطة واعطائها الى الرماة او لاسعاد فارس سقط سيفه اوقوسه فيلتقطونه لهم وقد تعوّدوا المرور بين قوائم الخيل مرور السهام — فالتفت هانئ الى مريم ليستطلع سبب ندائها فرآها تسوق جوادها في اثر احد اولئك السعاة وهو يعدو امامها وفي يده خنجر يقطر دماً وما عتمت ان ادركته خارج المعركة فأطارت رأسه بحسامها فوقع يتخبط بدمه ورجعت وهانئ مندهش مما يراه فسمعها تقول له « تحوّل عن جوادك فانه مقتول وخذ هذا الجواد » قالت ذلك وهي تحول عن جوادها

فلم يفهم هانئ قصدها ولكنه التفت الى فرسه فرأى الدم ينسكب من احشائه انسكاب الماء من القربة فانقبضت نفسه فتحوّل عنه وجاءه احد فرسانه بفرس ركبه واشار الى مريم ان تعود الى فرسها فعادت وهي تقول « قبح الله ذلك الاحول فقد خاننا منه » ففهم هانئ ان الاحول تزيا بزي السعاة واغتال الجواد . ثم التفت هانئ الى الادهم فرآه قد سقط فاسف على موته اسفاً شديداً وتشاءم من سقوطه على ان امله بالنصر انساه الجواد فعاد الى الهجوم حالاً لئلا يتضعضع رجاله

اما عبد الرحمن فكان يراقب الجند من القلب فلما رأى تغلب الفرسان انشرح صدره واخذ يتنقل بفرسه على امراء القبائل يستحثهم ويحرضهم و يبشرهم و يمنيهم وخصوصاً قبائل البربر لعلمه بشدتهم وشجاعتهم اذا تحمسوا فلا يقف في طريقهم سور ولا خندق ولا سيل

وكان شارل قد اسرّ في ضميره مثل ما اسرّه عبد الرحمن فلما رأى تضعضع جنده وقد مالت الشمس الى الاصيل اخذ يبحث عن امير جند العرب ليبارزه . فلما رآه عبد الرحمن عرفه من الراية التي كانت الى جانبه . فاقبل شارل على جواده كأنه جبل ماش وعليه درع من الفولاذ بشكل الحراشف المتراكبة تغطي صدره وكتفيه وذراعيه وتسترسل على فخذيه ومقدم ساقيه الى القدمين حتى الركابين . وعلى راسه خوذة في قمتها صليب وقد استرسل من

جانبي الخوذة وقفاها نسيج من زرد الفولاذ يغطي خديه وقفا راسه · وعلى صدر جواده صفيحة من الحديد بشكل الدرع معلقة بمقدم السرج · وقد رفع بيمناه دبوساً من حديد راسه بشكل الصليب · وامسك بيسراه راية عليها رسم الصليب وعلى الصليب رسم السيد المسيح مصلوباً · وقد اسند قناة الراية الى الركاب اليسرى

واما عبد الرحمن فكانت خوذته العمامة مثل سائر العرب وهي مع خفتها ولينها تقي الراس كما تقيه الخوذة وعلى صدره درع تحت العباءة وقد تقلد السيف والخنجر · وكان بالاجمال اخف حملاً واسرع حركة من شارل · وقلما كان يختلف في ثيابه وشكله عن سائر فرسانه · اما شارل فقد كان ممتازاً بخوذته ودرعه ورايته وجواده فعرفه عبد الرحمن عن بعد فصاح فيه صيحة اجفل لها جواده واغار عليه وسيفه مشهر بيده فتلقى شارل الضربة بدبوسه واخلى منها وتقهقر لا عن فرار فتبعه عبد الرحمن ثم خاف ان يكون في ذلك التقهقر مكيدة · فتراجع على ان يتأهب لطعنه اذا عاد اليه · واذا هو بالصياح قد علا في الجناح الايمن من معسكره بين البرابرة وعلت الضوضاء وهم يصيحون « ذهبت غنائمنا ضاعت اتعابنا ·· » فالتفت فرآهم يتقهقرون ويتحولون الى الوراء فرساناً ومشاة · ورأى جيش اود هاجماً على مخازن الغنائم في الخيام [1] فاستعاذ بالله وجعل يصيح في البرابرة ان يثبتوا في مواقفهم وان غنائمهم لا تغني عنهم شيئاً فلم يلتفت احدٌ الى قوله وبعد ان كان جند العرب ثائراً تضعضع · واغتنم الافرنج ذلك التضعضع فاعادوا الكرة ولولا هانئ وفرسانه لانكسر العرب شر كسرة

ولكن هانئاً لما علم بما اصاب البرابرة بذل جهده في تثبيت رجاله ومن معه وقد نزعت العمامة والخمار عن راسها والقت العباءة عنها وظهرت بثوبها النسائي الاسود وقد استرسل شعرها على كتفيها وخديها وهجمت والسيف مشهر بيدها وقد انحسر كمها عن زندها وهي تقول « عارٌ على العرب ان يفرّوا كما فرّ البربر · إن هؤلاء يطلبون الغنائم واما انتم فتطلبون الجهاد وغنيمتكم الفخر والنصر والحسنى في الدنيا والآخرة »

وكان الفرسان يحسبونها رجلاً فلما رأوها فتاة وشاهدوا جمالها وهيبتها مع تلك البسالة والغيرة خيل لهم انها ملاك نزل لنصرتهم من السماء فتحمسوا وثبتوا في هجومهم وصمموا على التفاني اجابة لندائها ونداء هانئ · ولكن الظلام فصل بين الجيشين فنفخ في الابواق فتراجع كل منهما الى معسكره

(١) روبي ج ٣

الفصل الثامن والسبعون

بعد المعركة

فلما تراجع الجيشان طلب هانئ مكان عبد الرحمن فلم يجده فسأل عنه فلم ينبئه احد بخبره فاركض فرسه للبحث عنه هنا وهناك فلم يقف له على اثر . فأمر فرسانه بالرجوع الى اماكنهم وترجل هو ومريم عن فرسيهما وجعلا يطوفان المعركة يتفحصان القتلى على نور الشفق . ثم طلع القمر فأضاء تلك البقعة المغطاة بجثث الناس وفيهم المائت والميت والجريح والعاجز وبينهم الافراس في نحو ذلك بين صهيل وشخير وانين وزحير . فتفقدا كل مكان فلم يجدا عبد الرحمن — واذا هما بصهيل يشبه صهيل فرسه عن بعد فأجفلا واستبشرا فالتفتا الى اطراف تلك الساحة فرأيا في بعض جوانبها مما يلي الجنوب فرساً واقفاً وهو يصهل ويفحص الارض فصاح هانئ « هذا فرس الامير » واسرع اليه ومريم تتبعه حتى اتى الجواد فرآه واقفاً وامامه شبح ملقى عرفا حالاً انه عبد الرحمن . فاسرع هانئ الى يده يجسه فاذا هو جثة هامدة وقد استلقى على ظهره وبسط ذراعيه وعيناه شاخصتان نحو الشرق كأنهما تستقبلان نور القمر عند طلوعه . وشاهدا سهماً مغروساً في عنقه فعلما انه سبب وفاته . فجثا هانئ عند راسه وصاح « وا أسفاه عليك يا اميري ووالدي ويا اخي ويانصيري بل يا نصير المسلمين ... ولكنك فزت بجنات النعيم لانك قتلت مجاهداً فعسى ان ألحق بك عاجلاً .. »

وكانت مريم واقفة تنظر الى تلك الجثة وتأسف لقتل ذلك القائد لكنها كانت تتعزى ببقاء هانئ حياً وهي ترجو له النصر فاذا فاز بالفتح اصبح اكبر قواد ذلك الجند . وقد نفر سمعها من تمنيه اللحاق عاجلاً بعبد الرحمن فقالت « دعنا من الندب فانه أليق بالنساء وهلم بنا الى المعسكر ندبّر شؤون الجند قبل الفشل واذا فزنا في واقعة الغد ونحن فائزون ان شاء الله ففي ذلك تعزية عن كل خسارة » فاستصوب هانئ قولها وقال « فلا بدّ لنا من دفنه »

قالت « متى وصلنا المعسكر ارسلنا من يأتي بالجثة ثم تصلون عليها وتدفنونها .. » قالت ذلك ومشت وهي لا تزال مسترسلة الشعر مكشوفة الذراعين لاتبالي بما يرافق صفاء ذلك الليل من برد الخريف . ومشى هانئ والسيف يجرّ وراءه وقلبه في شاغل تتنازعه عوامل الفشل والاسف والامل وتظلله غياهب الحب والوجد ومريم تسير الى جانبه وهي في مثل حاله وقد وليا وجهيهما نحو المعسكر وساحة المعركة الى يمينهما ومعسكر اود الى يسارهما وليس

«فقضيا برهة يمشيان وهما صامتان من الدهشة والاستغراب ثم تكلم هاني» قائلاً « ما الذي اراه ؟ .. اين ذهب الجند اين الخيل اين الخدم أتظنينهم ذهبوا نحو الاخبية ليجعلوا هذا النهر الصغير ترساً لهم في الدفاع .. »

قالت « ربما فعلوا ذلك . هل نذهب الى الاخبية ؟ »

قال « نذهب .. » وخرجا من بين الخيام كأنهما خارجان من خربة حتى عدّيا النهر الصغير الى الاخبية فلم يجدا فيها انيساً . فقال هاني « اذا فرضنا ان البربر جبنوا وفرّوا فاين العرب بل اين النساء والاولاد ؟ . ما اسرع نهوضهم وفرارهم ! يظهر ان وجود عبد الرحمن وحده كان جامعاً لهم .. فلما مات ماتت قلوبهم .. »

ثم اطرق حيناً لا يتكلم وقلبه يكاد يتقطع حنقاً ويأساً لا يدري ماذا يقول وقد حدثته نفسه بامور كثيرة اكبر أن يذكرها . وكانت مريم تسير بجانبه لا تقول شيئاً وهي تكتم امراً اخرت التصريح به حتى تسمع رايه قبلاً . وبعد المسير مدة على هذه الصورة بين الاخبية والخيام وكل منهما غارق في افكاره يتعثر بالاطناب والأوتاد قال هاني « يجب علينا قبل كل شيء ان نواري جثة اميرنا رحمه الله لئلاً تذهب فريسة العقبان او يمثل بها الاعداء » قال ذلك وتحوّلا نحو ساحة المعركة فعرفا مكان الجثة من صهيل الجواد فتعاونا في حملها على الفرس الى حفرة في مكان منفرد ووضعاها فيه وغطياها بالتراب ولم يفه احد منهما بكلمة . فكان لذلك الدفن على بساطته هيبة ووقار بما كان يضطرم في قلبيهما من نيران الحزن والاسف المصحوبين غير نيران الحب ولواعج الغرام

الفصل التاسع والسبعون

اللقاء الدائم

فرغا من الدفن وهما صامتان وكان القمر قد تكبّد السماء واصبح نوره مثل نور النهار فقالت مريم « وما العمل يا هاني ؟ »

فتنهد وقال « لو كان معي خمسون رجلاً لهاجمت بهم هذين المعسكرين ... على ان وحدتي لا تمنعني من الهجوم ولو كان فيه فنائي ولكنني اخاف على مريم اذا انا قتلت ان يلحق بها عار او اهانة .. »

فالتفتت اليه وقالت « هل تبقى مريم بعدك ؟ ذلك لا يكون وقد قرأت وصية والدتي (وتنهدت) فانها تحبب اليَّ اللحاق بها الى دار الآخرة ولا اشك بانها هناك الآن ‥ فاذا كنت تحب مريم وتريد ان تعطف على حياتها وعزها اسمح لي ان الحق بوالدتي اذ لا فائدة من بقائي . واما انت فان الاسلام يحتاج لليك والملة تفتقر الى سيفك وذراعك ‥ »

فلما سمع كلامها هاج فيه غرامه حتى انساه موقفه فقال « ان الملة مفتقرة الى مثلك اكثر من افتقارها الى مثلي . انك ابنة الملكين وقد حزت فضائل الجنسين ‥ ووالله لو صبر اولئك الجبناء الى الغد وكنت انتِ رائدهم في حومة الوغى لفازوا وقطعنا نهر لوار ‥ آه من هذا النهر … لقد امتنع علينا عبوره فامتنع اجتماعنا … اتطيعيني يا مريم ؟ »

قالت « اني اطوع لك من بنانك — الا اذا اردت بقائي بعدك »

قال « لقد فشل جندنا وفرَّ من بقي منه حياً وفي الفرار بقاء ترتاح له نفس الجبان . وقد اجتمعنا الآن ولا رقيب علينا وكلٌّ منا يودُّ البقاء من اجل صاحبه ولا بقاء الا بالفرار ونفسي تابى ذلك . ولا يخفى عليك يا حبيبتي ان فؤادينا قد ذابا تطلعاً الى اليوم الذي نقطع فيه ذلك النهر لان في قطعه اجتماعنا [illegible] الذي يمنعنا من الاجتماع فيه الآن ؟ ‥ »

فقطعت كلامه قائلة « في جوفه »

فقال « بل في قلبي — [illegible] كنا معاً [illegible] ولا كيف نكون » قال ذلك ووثب حتى ركب جواد عبد الرحمن واستاق [illegible] وراءه وركض الفرس وهي ممسكة بعباءته واتجها نحو نهر لوار خارج مدينة تورس حتى وصلا الى ضفة من الرمال تكسر عليها مياه النهر بعد تموج ضعيف وسطح النهر يتلألأ في ضوء القمر ويتلون فتحولا عن الفرس واطلقا له العنان فعاد الى المعسكر . وظلا هناك منفردين والجوُّ هادىء ساكن لا يسمع فيه غير خرير الماء ونقيق الضفادع . فخلعا نعالهما ومشيا على الرمل المرطب بالماء ونزع هانيء عمامته وعباءته فاصبح حاسر الراس والذراعين مثل مريم وله ضفيرة كانت العمامة تغطيها فاسترسلت مثل ضفائر مريم . فمشيا على الرمل حتى اصبح تكسر المياه يصيب كعبيهما فوقفا هناك ومدَّ هانيء يديهِ الى مريم فقبض بهما على يمناها . فاحس ببرودتها ولينها ولم يشعر بقشعريرتها لاشتغاله بقشعريرته . فضغط على يدها بكلتا يديهِ فارتعدت فرائصها جميعاً . ولم تعد مريم تستطيع الوقوف لاصطكاك ركبتيها فاسندت رأسها بيسراها على كتف هانيء فاسكرتها رائحة عرقه كما اسكرته رائحة طيبها ولامس شعرها وجهه واشتبك بعضه بشعر لحيته فاحسَّ بقشعريرة دبت في جسمه دبيب النمل بين اللحم والعظم . وخاف

لشدة تأثره ان تخونه قدماه فيقع فابقى يسراه قابضة على يمناها وادار يمناه الى كتفها وتساندا وهما صامتان والهوى يتكلم . ثم رفعت راسها عن كتفه ونظرت في وجهه وعيناها قد ذبلتا من شدة التأثر وغشيهما الدمع وقالت بصوت تخنق « أتحبني يا هاني . . . ؟ »

فأعاد يده الاخرى فامسك يمناها بيديه وأدناها الى صدره وقد غلب عليه الحب ونسي مواقف القتال وقال « نعم احبكِ . . احبكِ . . . »

قالت « آه ما ألطف الحب والذّه . . . »

قال « لا لذّة له بغير الاجتماع — هل في الدنيا اثنان يتمتعان باللذة مما نحن فيه الآن ؟ ضميني يا مريم باحبيبتي . . ضميني الى صدرك . . . الا تشعرين بخفقان قلبي ؟ . اني اشعر بدقات قلبكِ » قال ذلك واحدى يديه فوق كتفها والاخرى قابض بها على يدها

اما هي فرفعت بصرها الى السماء فرأت القمر مشرقاً اشراقاً باهراً وعلى وجهه يشبه رأسين متقاربين كأنهما حبيبان يتعانقان فقالت « إني أرى صورتنا ارتسمت على وجه القمر . . . انظر ياهاني ، ألا ترى وجهين مثل وجهينا هناك ؟ »

قال « لا أرى في الدنيا من يشبهنا ولا من حاله تشبه حالنا . . »

وكانت مريم قد جفّت دمعتها فلما سمعت قوله تذكرت حالها فقالت وهي تغص بريقها « ان حالنا عجيبة ياهاني . . . تمنينا الاجتماع وسعينا فيه فامتنع علينا فلما التقينا ساءنا الاجتماع خوفاً من الفراق . »

فاجابها وبصره شاخص في وجهها وقال « اني لا أرى ما يشفي غليلي بعد طول التحسّر الا ان نجتمع اجتماعاً متواصلاً لا يتخلله فراق ولا يكون ذلك الا بالموت معاً . . . هل تموتين معي يامريم ؟ . »

فالتفتت اليه ويدها ملتفة بيده الى الكتف وعيناها ذابلتان ولو لم تتكلم هي لتكلمتا ثم قالت « الموت معك حياة باحبيبي . . باحبيبي . . آه ما الذ هذا اللفظ بفمي وكم كنت التذ بتكراره في خلوتي واتحسر على سماعه من فيك . . . »

قال « صدقت . . . ولا يعرف لذة هذا اللفظ غير المحبين . وقد كفانا من حبنا المتبادل التمتع بهذا اللفظ لاننا مقيدان بعهود لاتجيز لنا ما رواه . ولو كتب لنا الدهر وقطعنا هذا النهر لكان اجتماعنا اطول ودائرة ملذاتنا اوسع . . على اننا لم نكن مع ذلك نامن الفراق ونكد العيش والدنيا تاتي بالعجب العجاب . . اما الآن فاذا متنا متعانقين فكأننا عشنا الدهر معاً ولم ينغص عيشنا فراق »

قالت « عجّل اذاً ولا تطل بنا الوقوف لئلاَّ يحدث ما يحرمنا هذه السعادة » قالت ذلك ومدت يدها الى جيبها واستخرجت الحفظة ونظرت اليها لحظة ثم قبلتها وضمتها الى صدرها وبكت وهي تقول « اماه ... يا اماه ... والهفي عليكِ ما كان اشقاكِ .. قضيتِ العمر في التكتم والتستر والتحذر . ثم ذهبتِ قتيلة ذلك السرّ محافظة على عهد حبيبك واكراماً لوصيته . ولو عرفتُ ذلك من قبل لاستغربتُ منكِ هذا التعلق .. واما الآن فقد ذقتُ طعم الحب فلا الومكِ . بل انا فاعلة مثل فعلكِ . وها اني عاملة بوصيتكِ »

ثم اعادت الحفظة الى جيبها وهي تقول « هذا سرك ذاهب معنا الى غياهب الابدية »

وكان هانيء يسمع كلامها وهو يراعي حركات شفتيها وعينيها ويشاركها بكل جارحة من جوارحه . فلما فرغت من قولها اشار بعينيه الى جسمها الغض وقال لها « اليس غبناً ان تذهب هذه الاعضاء طعاماً لاسماك البحر »

فقطعت كلامه قائلة « ذلك خير لها من ان يفترسها وحوش البر الذين يسمون انفسهم بني الانسان .. عجل ياهانيء قبل ان يغلب علينا حب البقاء ... »

فمد يده ومدت يديها وتخاصرا من جانب وتماسكا من الجانب الآخر ومشيا على الرمل حتى غرقت اقدامهما في الماء فاحسا ببرودة وبانزلاق الرمل تحت الاخمصين . وكانا كلما تعمقا في الماء ازدادا تعانقاً بملء الاذرع وازدادا تجاذباً حتى اصبحا كانهما جسم واحد وغطسا في الماء وكلٌّ متمتع بتلذذ بذكر اسم الآخر . وبعد دقيقة عاما فبدا بعض الرأسين والشعر سابح على سطح الماء ثم غطسا الى قاع النهر ولا يعلم مصيرهما الا الله .

اما جيش الافرنج فانهم اصبحوا في اليوم التالي وهم يتوقعون هجوم العرب عليهم فرأوا الارض قفراً والخيام خالية فاستولوا على ما كان باقياً فيها من الغنائم [1] وكان ذلك آخر عهدهم بالعرب هناك على ما دونهُ التاريخ

تمت الرواية



---

(١) روبي وربنو